الدين والإسلام
أو
الدعوة الإسلاميّة

الجزء الثاني

تأليف:
الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء النجفي

تقديم و تعليق و تحقيق:
محمّد جاسم الساعدي




بسم الله الرحمن الرحيم

الدين و الإسلام

أو

الدعوة الإسلاميّة

تأليف

الإمام الشيخ

محمّد الحسين كاشف الغطاء النجفي (رحمة الله)

تقديم و تعليق و تحقيق

محمّد جاسم الساعدي

المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)

« الجزء الثاني »

سرشناسه	:ال كاشف الغطاء ، محمد حسين ، ۱۸۷۷ – ۱۹۵۴ م
عنوان ونام پديد آور	: الدين والاسلام اوالدعوة الإسلاميّة / تاليف محمد حسين كاشف الغطاء النجفی؛ تقديم و تعليق و تحقيق محمد جاسم الساعدی: المجمع العالمی لأهل البيت عليهم السلام.
مشخصات نشر	: قم : المجمع العالمی لأهل البيت (ع)، ۱۳۸۷. =۱۴۲۹ ق.
مشخصات ظاهری	: ۲ ج
شابک	: ج۲: 978-964529-329-9 ج۱: 978-964-529-328-2
وضعيت فهرست نويسی	:فيپا
يادداشت	:عربی.
يادداشت	:كتابنامه .
يادداشت	: نمايه.
موضوع	: كلام شيعه اماميه – قرن ۱۴.
موضوع	: شيعه اماميه –عقايد.
شناسه افزوده	: ساعدی، محمد جاسم، محقق و مقدمه نويس.
شناسه افزوده	: مجمع جهانی اهل بيت (ع)
رده بندی كنگره	: BP ۲۱۱/۵ ۱۳۸۷ ۹د۷آ/
رده بندی ديويی	: ۲۹۷/۴۱۷۲
شماره كتابشناسی ملی	:۱۱۸۹۶۱۹

اسم الكتاب: الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية / ج ۲

المؤلف: الإمام الشيخ محمّد الحسين كاشف الغطاء النجفي

المحقق: محمّد جاسم الساعدي

الموضوع: عقائد ، فلسفة، أديان

الناشر: المجمع العالمِي لأهل البيت (عليهم السلام)

الطبعة: الأوُلى

المطبعة: المجاب

الكمية: ۳۰۰۰

تاريخ النشر: ۱۴۳۲ ق

ISBN: 978-964-529-329-9

www.ahl-ul-bayt.org

E-mail: info@ahl- ul- bayt.org

أهل البيت عليهم السلام

في القرآن الكريم

إنما يريد الله

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

ويطهركم تطهيرا

سورة الأحزاب / آية : ٣٣

أهل البيت عليهم السلام
في السنة النبوية

إني تارك فيكم الثقلين
كتاب الله وعترتي أهل بيتي
ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا

« الصحاح والمسانيد »

(شعري وشعوري وعواطفي ولطائفي)

بـــني آدمٍ إنّــا جــميعاً بــنو أبٍ لحـــفظِ التآخـــي بـيننا وبــنو أُمّ

رأيـــتكم شــتّى الحــزازات بـينكم وما بـينكم غـيرُ التـضارب بـالوهم

فلا حُجبٌ فـيكم تُـمدّ عـلى حـجى ولا حــزمٌ مـنكم تُشـدّ عـلى حـزم

وقــد عـــطفتني بـاللطائف نـحوكم عواطف جنسٍ لم تـزل عـلّة الضمّ

فأهــديتُكم بــالودّ نُــصحي قـائلاً عليكم سلامي دائـباً ولكـم سـلمي

وألّفتُ بـين اسـمي ورسـمي راجـياً حياتهما إن بات تحت الثرى جسمي

عســاني إذا أُبــلى أنــال بـذكركم حياةً وحسبي من حياتي ذكر اسمي

أروم بــقاء اسـمي ورسـمي بـينكم ولا نافعي اسمي الغـداة ولا رسـمي

خذوا ظاهراً من صـورتي فـضميرها تــصوّر مـن روحِ التـحنّن والرحـم

يَــودّ لو أنّ الأرض تُـصبح جـنّةً تـفيّئكم ضـلّ السـلامة والسـلم

وأنـــتم كأمــلاك الســماء مــحبّةً تَـذودُ شياطين العـداوات بـالرجـم

بــني آدم رحــماكـم فـي قـبيلكم فقد جُـزتُم بـري العـظام إلى الهشـم

حــناناً عـلى هـذي النـفوس فـإنّها ســماويةٌ مــن رشـح ذيّـالك اليمّ

ومــا أكــثر الداعــي بـنا لهـدايـةٍ وما للهدى منّا سوى الهدّ والهـدم

نـصدّع فـي أهـوائـنا جـمع شـملنا ونســعى وكـلٌّ نـحو غـايته يـرمي

فيا صدع هذا الجمع هل من تلائم ... ويا شعث هذا الشعب هل لك من لمّ

هلمّ نعش بالسلم عصراً فإنّنا ... قضينا عصوراً بالتضارب واللدم

تخارس إذا الآذان صُمّت عن الدعا ... فأضيع شيء دعوة الصمّ والبكم

يقولون للإصلاح نسعى وربّما ... طلبتَ الشفا فازددت سقماً على سقم

إذا كانت الأفعال نثراً نظامها ... فلا خير في نثر المقالات والنظم

وكلُّ فتى يبغي العُلى غير أنّنا ... كمقتنصٍ صيداً يروم ولا يرمي

أبثّك يا ابن الأرض في الليل لوعتي ... فأنت أخي فيما أخالُك وابن أُمّي

سعُدت هنئَ لمّا بعُدت مسافةً ... كأنّك من شأن الأنام على علم

تباعدتَ عن هذي الشرور فليت من ... نسيمك عيشي أو بتربته جذمي(١)

وإنّي وما في السعد والنحس فكرتي ... ولكن كأنّ النحس كان بها نجمي

يرحّب صدري بالهموم لأنّني ... أرى هممي تخبو فيوقدها همّي

وما عزمتي ناراً بزعمي وإنّما ... حرارة أنفاسي الزعيم على زعمي

سأمتُ حياتي مذ شهدت حقيقتي ... وأيّ حياةٍ تمزج الشهد بالسمّ

ولم أدر علمي نافعي أم جهالتي ... ألا ربّ جهل كان أنفع من علم

أرى أُمماً تدعو العلوم لها أباً ... وفي درس علم النفس أكثرها أُمّي

وما كلّ علم يجلب السعد للفتى ... ويرقى به من وهدة النقص للتمّ

إليكم بني الأديان منّي دعوةً ... دعوتُكم فيها إلى الشرف الجمّ

إلى السلم فيكم والتساهل بينكم ... فيا حبّذا شرع التساهل والسلم

لقطّعتم رحم الإخاء وأصبحت ... جماعتكم شتّى من الطعن والشتم

---

(١) الجِذم: أصل الشيء، وقد يُفتح. (لسان العرب ٢: ٢٢٣).

وما بينكم كم من حقوقٍ شريفة ... وكم تشتكي تلك الحقوق من الهضم
جرحتم شريفات العواطف بينكم ... وذاك الكلام المرّ ينبي عن الكلم
فدونكم (شعري) ولست بشاعر ... ولكن (شعوري) قد تجسّم في نظمي
نظمت لكم أفلاذ قلبي بدعوتي ... وأفرغتها عن قالب الحبّ والحلم
أُريد بكم خيراً وتنحو لشرّها ... نفوس على رغم الحقيقة أو رغمي
وكلٌّ سعى نحو الحقيقة جاهداً ... ولكنّما الغايات كانت إلى الوهم
يقولون إنّ الدين فرّق بيننا ... فيا لك من حيف ويا لك من ظلم
وما ادّعي في دعوتي فضل عصمة ... ولا استنزلت لي الشاردات من العُصم
ولكن بها أهديت نصحي قائلاً ... عليكم سلامي دائباً ولكم سلمي[1]

---

(١) نُقلت هذه الأبيات عن المصنّف رحمه الله في شعراء الغري ٨: ١٧٧ ـ ١٧٨.

الفصل الرابع

له دعوة الحقّ

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ۞ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾[2] (وحيٌ مُعجز).

الحمد لله ربّ العالمين وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى محمّد وآله وصحبه

وبعد:

فهذا هو (الجزء الثاني) من أجزاء الدعوة الإسلامية، وهو يتكفّل بنشر مباحث (الفصل الرابع) في النبوّة.

[تمهيد أُمور في النبوّة ووجوب البعثة]

ولكنّنا إنّما نخوض أوّلاً في أبحاث النبوّة الكلّية، وعموم البعثة، ووجه

---

(١) سورة يوسف ١٢: ١٠٨.

(٢) سورة الفتح ٤٨: ٢٨ ـ ٢٩.

الحاجة إليها، وحكم الإحساسات الصحيحة والوجدانات السليمة بها، مقدمةً ومجازاً للدعوة الإسلامية والنبوّة الخاصّة، بعد أن نوفي المقام حقّه من بسط القول في بواعث الرحمة التامّة وعواطف العناية العامّة، ونمهّد الأساس الوطيد لابتناء النبوّة الكلّية والشخصية، حتّىٰ يستبين ويتمثّل لكلّ ذي بصر وبصيرة أنّه ما المراد بالنبي؟ وما وظيفته؟ وما الجهة التي تقتضيه؟ وما الغاية التي تترتّب عليه؟ وما الخاصّة التي تعيّنه ويمتاز بها عن غيره؟ وما هي العصمة؟ وما حقيقة المعجزة؟ وكيف تنخرق بها النواميس الطبيعية، وتنفكّ من جرّائها الأسباب عن مسبّباتها، وتُحوّل الأكوان عن مجاريها، والأشياء عن عاداتها؟ إلى غير ذلك من المباحث العالية والمقاصد الغامضة والنظرات الفلسفية من طريق العقل وسبيل الوجدان والإحساسات الضرورية لكلّ أحد، وهي إمام الدليل والبرهان.

نعم، كلّي النبوّة وإثبات الصانع وتوحيده غايات ما لغير العقل إليها من سبيل أو دليل أبداً.

والاستدلال على صحّة الشرائع أو لزومها بمجرّد أقوالها أو حكمها بذلك بحيث يكون الدليل على الشرع هو السمع ـ كما ينسب إلى البعض[1] ـ قولٌ لا ينبغي التعريج عليه ولا النظر إليه ولا الخوض في صحّته وفساده.

إذن فلنحتكك غرائز العقول ونقتفي ونقف على مهابط أضوائها ومساقط أنوائها ومبرمات أحكامها التي لا يجد ذو مسكة[2] عن الالتزام بها خلاصاً ولا مناصاً.

---

(١) نُهب لبعضهم في إرشاد الطالبين ٢٩٦ ومابعدها. ولاحظ عدّة الأُصول ٢: ٧٥٩.

(٢) ذو مَسَكَة: صاحب عقل. (أساس البلاغة ٤٣٠).

وللإيضاح نمهّد في المقدّمة أُموراً نتوصّل بها إلى الغاية ونقف بعدها على الحقيقة:

[الأمر الأوّل : في بدء نشأة الإنسان وعجزه وجهله وحاجته]

[الأمر] الأوّل: أنّ كل إنسان ـ مهما كان ـ يعلم من نفسه ضرورةً أنّه قد وُجد في نشأة هذا الكون المحسوس عريقاً ولصيقاً بثلاث صفات هنّ أُمّهات الشقاء وينابيع الخسّة، ولكنّها أسبق شيء إليه وألصق الصفات به وأقدمها عهداً بوجوده، وهي كائنة مع كونه وقبل اتّصافه بكلّ حال وصفة.

كلّ إنسان يعلم أنّه وُجد جاهلاً بكلّ شيء، فقيراً من كلّ شيء، عاجزاً عن كلّ شيء.

جاهلاً حتّى بجهله، فضلاً عن أنّه أين كان، ومن أيّ شيء كان.

فقيراً حتّى من الانتفاع بسمعه وبصره وإحساسه وشعوره، فلا يمتاز عنده لون من لون ولا إنسان من إنسان.

عاجزاً حتّى عن قوت ساعته وساتر بشرته.

وأيّ شقاء وخسّة أكبر من هذه؟!

بيد أنّها ضريبة على البشر عامّة وخاصّة لازمة، لا يتملّص أحدٌ منها أبداً، يطوي الوليد على ذلك عدّة من صفحات أيّامه ولياليه.

نعم، قُذف بالإنسان من حالق لا يعلمه إلى هوّةٍ لا يدرك قعرها ولا يسبر غورها ولا يدري إلى أين غايتها، فهو كخابط عشواء في ليلة ظلماء والأنوار محيطة به، سوى أنّه لا يهتدي إلى سبل الانتفاع بها والتمتّع فيها.

فهو بادِئ بدء مجرّد البشرة عادم القوّة أعزل من كلّ سلاح حتّى سلاح

العقل والإدراك، أوّل صوته البكاء، وأقدم إحساسه التألّم، وكلّ ما عنده العوز والحاجة، رجلاه لا تحمله، ويداه لا تطاوعه، الحرّ يشويه، والبرد يرديه، وكلّ الكوائن تؤثّر فيه.

ثم يُدفع إلى تيّار هذا الكون اللجّي ليخوض أمواجه ويشقّ عبابه سائرٌ يريد أن يطوي مراحل ويقطع مجاهل على غير أُهبة السفر ولا تعبية الراحل.

نعم، وأكبر مصيبته الجهل، وأعظم بليّته ضعف العقل، وأوفر متاعه الآمال والشهوات.

أخذ يتدرّج ذلك السائح الضعيف السابح في غمرات هذا الكون، وكلّما نما وشبّ واشتدّ وترعرع أخذت وطأة تلك الخلال الثلاث التي هي أُمّهات شقائه وينابيع بلائه تخفّ عنه من ناحية وتشتدّ عليه من مناحي.

انفتحت له قبل كلّ شيء أبوابٌ خمس من الحواسّ الخمس، فولجت إلى نفسه منها إحساسات جمّة وإدراكات مهمّة ونعم كبيرة ولذّات كثيرة.

ولكن هل خفّفت من شقائه أم زادت في بليّته وعنائه، فأدخلت الهمّ إلى قلبه، والأحزان إلى فؤاده، والأوهام إلى خياله، والأغاليط إلى عقله، وأفقدته أنفس ما كان عنده من الراحة والبساطة والسذاجة والسلامة والهناءة والدعة.

ولم يزل هكذا يتراوح بين الربح والخسران، والزيادة والنقصان، والتعب والراحة، والغنى والحاجة.

فكلّما اتّسع ضاق نطاقه، وكلّما ترفّه اشتدّ خناقه، و (السلاسل قيود وإن كانت من ذهب).

ولست أنزع في مقامي هذا إلى فلسفة أطوار الإنسان وأدواره جنيناً وطفلاً ويافعاً وناشئاً وغلاماً وشابّاً وكهلاً وشيخاً، وما يعتريه من التقلّبات والأحوال

والملكات، واختلافه في المنازع والمطامح حسب اختلاف نشآته وأدوار حياته.

كلّا، فإنّها وإن كانت مباحث شريفة وفلسفة عالية، ولكنّي أجد ما أتوخّاه من القصد يتسنّى بيانه دون اقتحام هذه العقبة أو تولّج تلك اللجّة.

إنّ الغرض الذي أُحاول وضعه أساساً أوّلياً لما بعده ما هو إلّا أمر بمكان من البساطة والوضوح والجلاء والظهور..

ألا وهو: أنّ الإنسان مهما اتّسعت معارفه وارتفعت مداركه واستبحرت علومه وتعاظمت مقدرته وتفاخمت قوّته وانبسطت ثروته وسعته، ما هو بالنظرة الثانية إلّا مغمور بالجهل مرتطم بالعجز مرتهن بالبلاء معقود بناصيته الحاجة والعناء والمشقّة والشقاء.

فإنّنا بالنظرة الأُولى وإن كنّا نحسب أنّ تلك الخلال أمسّ وألصق بالولدان والأطفال، ولكنّنا إذا أنعمنا الفكر وأمعنّا النظر ومحّصنا الجوهريات والحقائق وجدناها في الرجال أشدّ وأقوى وأمرّ وأدهى.

ألا ـ بربّك الكريم ـ أيّ إنسان من عامّة البشر تقدر أن تقول عليه: إنّ معلوماته أكثر من مجهولاته، وقدرته أكبر من عجزه، وغناه بذاته أوفر من حاجته؟!

تدبّر هذه الجملة، ثمّ احكم، ولا تبادر بالحكم قبل الغور فيها والوصول إلى أعماق تخومها، فنكون بوادٍ وأنت بآخر.

خذ إليك أشهر العلماء الاختصاصيّين وأكبر الحكماء الراسخين من ذوي الموسوعات والإحاطات بعامّة العلوم من الغابرين والعصريّين، تجدهم كلّما اتّسعوا في العلم والمعرفة تطامنوا إلى الاعتراف بأنّ ما يجهلون أكثر ممّا يعلمون وما خفي عليهم أعظم ممّا ظهر لهم.

أمّا معرفة حقائق الأشياء فدعها ناحية واتركها زاوية، ولا تغترّ بقولهم: (إنّ الحكمة: معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه)، بعد استدراكهم ذلك بقولهم: (بحسب الطاقة البشرية)[1].

والطاقة البشرية دون العروج إلى ذلك الشأو[2] بمسافات عجزت قواهم وقُدرها عن تقديرها، بَلْهَ تصويرها.

خذها عني ناصعةً بيضاء كفلق الصبح: إنّ معرفة حقائق الأشياء بل حقيقة أيّ شيء من الأشياء كنز مرصود ما انحلّت طلاسمه ولا رُقيت عزائمه، وهو من الغيب الذي ما مُلكت مفاتحه ولا فُتحت مغالقه، إلّا لمن: ﴿عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[3].

وإنّما المتيسّر هو معرفة الأشياء بآثارها ولوازمها لا بحقائقها وجواهرها، وباختلاف الآثار نحكم باختلاف حقائقها، فإنّ تمايز الآثار آية تمايز المؤثّرات، والحقيقة الواحدة ذات أثر واحد، وإلّا لزم الخلف، فتلطّف وتدبّر.

نعم، إذا كان الإنسان على كتلات الليالي وربوات الأيّام لا يزال مستشرفاً مشرأباً يعاني ويجهد في البحث عن معرفة حقيقة نفسه، فلا يزداد إلّا حيرة ودهشة وتقاعساً ودحوراً، وكلّما سعى إليها أحسّ بهاجس يهتف به: عُدْ، فالباب موصود، والطريق مسدود، والطالب مردود! فما ظنّك به لو طلب معرفة غيره من الحقائق؟!

---

(١) قارن: رسائل إخوان الصفا ٣: ١٤٣، التعريفات للجرجاني ٦٦، كشّاف اصطلاحات الفنون ١: ٣٦، أبجد العلوم ٢: ٢٠٧، دستور العلماء ٢: ٣٢.

(٢) الشأو: الغاية والأمد. (صحاح اللغة ٦: ٢٣٨٨).

(٣) سورة الأنعام ٦: ٥٩.

وإذا كان فلسفيّ الغرب يقول: (كمال الإدراك البشري إنّما هو بمعرفة أنّ هناك لا نهاية من الحقائق التي لا ينتهي إليها إدراك)(١).

وفيلسوف الشرق يقول في آخر نفس من حياته: (ما علمنا سوى أنّنا ما علمنا)(٢).

---

(١) لاحظ ما نقل عن ريشه وديفيد هيوم في موقف العقل والعلم ٢: ٣٦١ و ٣٧٥.

وهاك النصّان:

أمّا ما نقل عن ديفيد هيوم فهو قوله: (إنّ تعلّم حدود قدرتنا ذرّة الحكمة البشرية). لاحظ موقف العقل والعلم ٢: ٣٧٥.

وأمّا المنقول عن ريشه في المصدر السابق (٢: ٣٦١) فهو قوله: (لماذا لا نعترف بأنّ العلم الذي نفتخر به عبارة عن الظواهر، ولا ندرك نحن حقائق الأشياء، وليست القوانين التي تدير المادّة الجامدة أو ذات الحياة حتّى قابلة للتقرّب من عقولنا.

إنّ الحجر المرمي إلى الفضاء يعود ساقطاً، لماذا؟ لقول (نيوتن) بسقوطه بواسطة الجاذبية التي تتناسب مع الكتلة والمسافة. لكن هذا القانون ما هو إلّا بيان حادثة من دون تعريف علّتها، وهل يفهم أحد هذا الاهتزاز الجاذب المسقط للحجر؟ إنّ سقوط الحجر حادثة عادية لحدّ أنّها لا تثير شيئاً من دهشتنا، لكنّها في الحقيقة لم يكن لعقل أحد من البشر أن يفهمها، وهو شيء عادي عمومي معترف به، إلّا أنّه غير مفهوم أيضاً، كجميع الحادثات الطبيعية بلا استثناء.

ونحن نعيش في حادثات تتعاقب حولنا من دون أن نفهم واحدة منها فهماً مطابقاً للواقع، حتّى إنّ أبسط شيء منها يتضمّن سرّاً غامضاً جدّاً، فلماذا تركّب الأدروجين مع الأوكسجين؟ ومن منّا فهم جيّداً لفظ التركّب هذا، أعني: حدوث جسم ثالث مختلف عن الجسمين بزوال خواصّهما؟ وإذا سئل عالم من علماء الطبيعة: ما هي العلّة التي تمسك الأجزاء الفردة بعضها مع بعض لقطعة من الحديد؟ يجيب: بأنّها القوّة المسمّاة بالماسكة، وإذا سئل ما القوّة الماسكة؟ يضطرّ إلى القول: بأنّه لا يعرف شيئاً بهذا الشأن. وإذا سئل كيميائي: لماذا يمتزج بعض الأجسام مع بعض إذا وضعناهما جنباً لجنب؟ يكون جوابه: بسبب القوّة المجهولة التي يعبر عنها: بالعلاقة الكيمياوية، ونحن لا نعرف ما هي، وإنّما نحسّ بعض آثارها).

(٢) نسب المصنّف ﷺ نفسه هذا القول لأفلاطون أو سولون الحكيم في محاضرته التي ألقاها في مجلس بحثه في النجف الأشرف عام ١٣٤٩ هـ بحضور الأُستاذ أحمد أمين المصري. لاحظ أساطين المرجعية العليا ١٨٧.

والآخر يقول في خاتمة أيّامه:

نـهاية إقـدام العـقول عـقال　　　وغاية سعي العالمين ضـلال

فما بالك بغمار الناس[١] وعامّة السواد، بل والخاصّة والأخصّ؟!

وعبثاً أُحاول تسجيل هذه الجليّة التي لا أحسب أنّ أحداً يدافعني عنها أو ينكرها عليّ.

إذن فلنطبع على أذهاننا بالحروف الكبيرة: (**إنّ الإنسان جاهل قبل كـلّ شيء وبعد كلّ شيء**).

الإنسان جاهل بتمام حقيقة اللفظ.

لنرسم على ألواح جبهاتنا أنّ الإنسان ـ مهما كان ـ جاهل في علمه، عاجز في قوّته، فقير في غناه، فإنّ هذه الحقائق الراهنة فضلاً عن أنّها لو امتزجت أبداً بشعورنا واستحضرتها بصفة دائمة مداركنا لخفّفت من شدّتنا، وكسرت من سورتنا[٢]، وأصلحت ذات بيننا، ورحضت[٣] معرّة أكثر الصفات الذميمة عن أديم نفوسنا، كالكبرياء والخيلاء والعُجب والغرور والطيش وهلّم كذا وعلى مثل ذا، نعم، فإنّها فضلاً عن ذلك سوف تنفعنا فيما نحن بسبيله، فاتّخذها أوّل حجر في أساس ما سيأتي من المباني إن شاء الله.

---

(١) غمار الناس: مجتمعهم. (العين للفراهيدي ٤: ٤١٦).

(٢) السورة في الأصل: تناول الشراب للرأس. (تهذيب اللغة ١٣: ٣٥).

(٣) الرحض: الغسل. (جمهرة اللغة ١: ٥١٦).

[الأمر الثاني : في شرف الإنسان ومقامه في الكون ، وحاجته إلى التربية ، وجهل العقل البشري بالمستقبل]

الأمر الثاني : أنّ الإنسان الذي قلنا عنه تلك الكلمة ، ونعتنا منه تلك الحقيقة ، وقذفنا به في هوّة الخسّة والخمول والجهل والخمود ، ولا نظن أنّنا تباعدنا في ذلك عن الإصابة ، ولا أخطأنا شاكلة الغرض ، ولا طاش سهمنا عن الهدف ، ولكن هل يحسن بنا السكوت على تلك الحقيقة وعدم تعديل هاتيك الخطّة بتعريف الإنسان شيئاً من شأنه ومقداراً من حظّه ؛ كي نؤدّي له بعض حقّه ، ونريه موقع مركزه من هذه العوالم ، ومقامه من هذه الأكوان ، ونصيبه من الوجود ، وكفاءته في كفّة هذه الحياة ، فنكون قد ذكرنا خيره وشرّه وبعض ما له وما عليه ، فيجدنا واقفين أمامه موقف العدل سائرين معه على محجّة النصف غير باخسين حقّه ولا غامطين[1] قدره ، فعساه إذا عرف ما هو وأين هو وما له ممّا هنالك ، نعم ، عسى الإنسان حين يعرف شأنه في الوجود وعظيم مقامه في الكون أن تدبّ فيه روح النشاط ويتحرّك في تامور[2] صدره دم الغيرة ، فيحافظ على مقامه الكريم ومركزه الوسيط ، فلا ينحدر عنه رجيماً ويندفع إلى هُوّة الشقاء ذميماً .

الإنسان مهما جهل حقيقته وأعيا عليه معرفة نفسه وفتح كنزه وحلّ رمزه واستكناه جوهرة ذاته ، ومهما ضاع عنه سرّ وجوده وضاق ذرعاً بعرفان سريرته ، فإنّه لا يجدر به ولا ينبغي له أن يجهل أنّه صفوة الأكوان وخلاصة العوالم وبذرة

---

(١) الغمط : الاحتقار والإزراء . (صحاح اللغة ٣ : ١١٤٧) .

(٢) التامورة : غلاف القلب . (المصدر المتقدّم ٢ : ٦٠١) .

الكمالات وثمرة الوجود ومجتمع الحقائق وينبوع الفضائل والغاية التي ما بعدها من الخليقة غاية ولا لسواها من الإيجاد قصد ولا عناية.

ولا تحسبنّها ألفاظاً فارغة وكلمات خالية، فإنّك ـ أيّها الإنسان ـ لو سبرت الأكوان وقابلت ما في نسخة العالم الكبير على نسخة عالمك الصغير لرأيتَك نموذجاً له وخلاصة منه.

تجدك جماداً ونباتاً وحيواناً وملكاً، ومادّياً ومجرّداً، وماءً وناراً وهواءً وتراباً، ورحماناً وشيطاناً، وسبعاً وشاةً، وثعباناً وعقرباً، وترياقاً وسمّاً، وهلمّ على هذا من كلّ محسوس ومعقول، وحيّ وموات، وساكن ومتحرّك!

أفلستَ ـ أيّها الإنسان ـ أنت الذي سخرتَ جميع ما في محيطك من كائنات المادّة ونابتات الطبيعة التي كنتَ كأحدها وأنت وإيّاها في ذلك شرَعٌ سواء؟! فما فتأتَ أن ذلّلتَ صعابها، وطأطأتَ هضابها، وملكتَ أعنّتها، وذلّلتها لأمرك، وجعلتها تحت حكمك، واستخدمتها في منافعك وشؤونك.

سخّرتها لك في كلّ شيء، واستخدمتَ منها كلّ شيء على مرور الدهور وأزليات الحقب، وما استخدمك منها شيء، ولا سخّرتك منها عزيمة، ولا امتنعت عليك منها شاردة.

فلم يستعص عليك برٌّ ولا بحر، ولا أرض ولا سماء، ولا ماء ولا هواء.

فشاركتَ الوحوش في فلواتها، وسابقتَ الطيور في أجوائها، وخضتَ مع الحيتان في غمراتها.

فأنت مع كلّ شيء، وليس معك شيء. نعم، على ناموس (ردّ الفعل).

بينا أنت المتصرّف في الخليقة والمتنفّذ في مواليد الطبيعة، إذ ثأرت منك فرضها، واستردّت قرضها، وتصرّفت فيك كتصرّفك فيها، ولعبت بك فوق

ألاعيبك بها، وحكمت عليك ولا كحكمك عليها، وما عتمت أن ألقتك في مهبّ حوادثها وتصاريف صروفها، ولا كالريشة في مهبّ العواصف والذرّة في زعزعة الريح القاصف، تتدافعك من صحّة إلى سقم، ومن نتاج إلى عُقم، ومن فرح إلى حزن، ومن يسر إلى عسر، ومن شبيبة إلى مشيب، ومن قوّة إلى ضعف، ومن جمع إلى شتات، ومن حياة إلى ممات، حكم القاهر الجائر والحاكم الظالم والقاسي المستبدّ، لا بل خبط عشواء ووطأة عجماء، لا تعلم حتّى ترحم، ولا تسمع حتّى تنفع!

هنالك ـ أيّها الإنسان ـ تهدأ نعرتك[1] وتسكن فورتك، تتطامن إلى أرض الهوان منكسراً ذليلاً!

وبينا أنت متقلّب في غمراتها مستسلم لأمواج تيّارها لا تملك لنفسك دفعاً ولا نفعاً، راجعت وجدانك وناجيت ضميرك وسألت ذاتك: من أين أتيتُ؟ وأين كنتُ؟ وإلى أين سأكون؟ وماذا يُراد بي؟ وماذا يُراد منّي؟

ولكن لا تجد سوى الحيرة أو السكوت منها جواباً، وعندها ترجع إلى تلك الحقيقة التي أنبأناك أن لا محيص لك عنها، فتقول حقّاً: **(الإنسان جاهل في علمه، عاجز في قوّته، فقير في غناه)**.

ولكن على كلّ ذلك، فهل تجد الإنسان وانياً عن كفاحه، ملقياً لسلاحه، باخعاً[2] تحت أعباء الطبيعة، خاضعاً إلى الاستسلام لها والهدوّ والسكون طوع مشيئتها، مصطبراً لسيطرتها، تصرّفه كيف شاءت وتجري عليه حكمها كما

---

(١) النعرة: الكبر، والجهل. (لسان العرب ١٤: ٢٠٠).

(٢) باخعاً: منهكاً. (تهذيب اللغة ١: ١١٧).

أرادت ؟

كلّا ، ثمّ كلّا ، إنّ بين جنبيه وفي رأسه جوهرين مجرّدين عن فواعل الطبيعة مؤثّرين فيها غير متأثّرين بها ، فاز بهما الإنسان ، وحُرمت هي منهما ، فبقيت ضِماراً[١] لا توجد وجماداً لا تحسّ .

الإنسان ابنها بالأمس ، ومليكها اليوم ، وإلاهُها في الغد .

أفيجديه ذلك درءاً لخطوبها ودرعاً لصروفها وجنّةً له من وخزات حوادثها ونخسات كروبها ومبيدات زعازعها وكاسحات قوارعها ؟ ! من لك ـ أيّها الإنسان ـ بقلبٍ فولاذيّ كلّما رضخته رواضخ الطبيعة بصخورها ازداد صلابة واشتدّ تماسكاً ؟ !

من لك بالثبات الذي تقف به أمام تلك الزعازع راسخ القدم ثابت الجنان هادئ البال ، تزول الرواسي ولا تزول ، وترتجف الخضارم ولا ترتجف ؟ !

من لك أن تقف ريثما تسكن زوابعها وتركد أعاصيرها ، ويعود سمومها لك نسيماً وجاحمها نعيماً ؟ !

من لك بذلك وأنت ذاك الترِفُ الغضّ الذي اغتررت بغضارة العيش ونضرة النعيم وزخارف الطبيعة ، وركنتَ إلى الدعة ، وألفتَ الراحة والسعة ، ولم تحسب لغير هذا الحال حساباً ولا أعددت لغيره عتاداً ، حتّى تفاجئك تلك الملمّات بغتة وتأخذك على غرّة ، فتندهش لها مذعوراً وتموت بين يديها قبل موتك رعباً ؟ !

فأنت في بُلهنية[٢] العيش وعنجهية الغرور ، وهي من ورائك بالمرصاد ، لا

(١) الضِمار : الغائب الذي لا يُرجىٰ عوده . (المصباح المنير ٣٦٤) .

(٢) البُلَهنِية : سعة العيش والخِصب . (تهذيب اللغة ٦ : ٢٨٣) .

تدفعها عنك مدافعك، ولا تدمّرها دون تدميرك مدمّراتك، ولا تحلّق بك عنها في سكائك الهواء طيّاراتك، ولا، ولا!

إذاً فإلى أين المفرّ؟ وما هو اللجأ والوزر؟ وكيف لنا بتحصيل السبيل إلى الأمن من هذه الأخطار التي تتهدّدنا وتتنهّد في كلّ حينٍ لنا؟!

عمرُك الله! أللشقاء خُلقنا وللعناء وجدنا، إمباءة للبلاء[1] ودريئةً للأرزاء، ومناحي للمحن ومصبّاً للمصائب؟!

إن كانت هذه هي الغاية من كياننا وهي مبلغ جهدنا ومنتهى السرّ من وجودنا، فحيّ على الانتحار يا بني آدم! حيّ على الموت بالإرادة أيّها الإنسان قبل الموت بالطبيعة، فإنّه أولى لك وأحرى بك، وأملك لراحتك وأمكن بخلاصك!

لا، ولكن هوناً عليك وعلى رسلك، فقد ذهب بك اليأس إلى مذاهب القنوط ونبذك الهلع إلى مهاوي الغموط.

وهكذا أنت ـ أيّها الإنسان ـ لا تزال في جنف وانحراف إلى الأطراف، إمّا إلى طرف التفريط أو الإفراط، وقلّما تقف على الأوساط!

وتلك إحدى عظائمك، بل أحدّ سخائمك[2]، بل أشدّ رزاياك ومصائبك!

أنت ـ أيّها الإنسان ـ نُشوء الرحمة لا السخط، ونتاج الرأفة والحنان لا القسوة والشنآن[3].

أنت بالرحمة أُنشأت، وإلى الرحمة سوف تصير.

---

(١) مباءة للبلاء: منزلاً أو مكاناً للبلاء. (لسان العرب ١: ٥٣١).

(٢) السخيمة: الحقد والموجدة في النفس. (العين للفراهيدي ٤: ٢٠٥).

(٣) الشنآن: البغض. (جمهرة اللغة ٢: ١٠٧٦).

أنت للسعادة خُلقت، وإلى السعادة يمكنك المسير.

أنت بالعناية كنت، وبالعناية دبّرك اللطيف الخبير.

أنت ـ كما أنبأناك ـ بذرة السعادة، وفيك ينبوع ماء الحياة ودوحة ثمر الكمال.

ولكن كيف لك بالتربة الصالحة لتُغرس فيها، والتربية الصحيحة لتنشأ عليها ؟!

وأنّى لك بالزراعي الماهر ليحرثك ويسقيك ويستغلّ لك ما فيك ؟!

فمنك الداء وفيك الدواء، وعندك السعادة ومنك الشقاء!

ولكن من لك بمن يدفع هذا بذاك، ويصف لك داءك ودواك، لا بل يقتل داءك بدوائك، ويفلّ بسعادتك حدّ شقائك، ويصنع لك صنع من طبّ لمن حبّ، ويشفق عليك ولا شفقة أُمّك وأبيك، ويحافظ عليك حفاظ الجفن على إنسانه والصدر على جنانه ؟!

من لك بالنطاسي الحاذق الذي تكون أنت على ثقة من معرفته بدخيلة أمرك ونخيلة سرّك وأُصول محاسنك وجذور مساوئك ؟! الذي يعرف فضلك وفضولك، وفروعك وأُصولك، وسرّك وجهرك، وما به تعديل عناصرك وتوازن تراكيب أسناخك وأمشاجك، فيربّيك التربية الصحيحة، ويغرسك في التربة الصالحة، ويشذّب فضولك وزوائدك، ويستثمر بذورك وأعوادك، ويجعلك هيكل السعادة ومجسّمة الهناء وسلطان الطبيعة ومفتاح كنوز المادّة ؟!

أمّا التربية والتهذيب والتثقيف والتشذيب والتكميل والأدب واللدانة والتمرين فالحاجة إليها اليوم ومن ذي قبل قد بلغت إلى مكانٍ من الضرورة والظهور عاد القول فيها والحثّ عليها من الفضول، وليس الإنسان وحده في

أمسّ الحاجة إليها وأشدّ الارتباط بها والفقر لها، حتّى كأنّها هي هي الإنسان لا غيرها، بل ذلك سارٍ في جلّ أو كلّ ما في عالم الشهادة والساريات في صراط الانتقال والحركة.

أيّ أرض تُستغل ولم تُحرث، وأيّ شجر يثمر الطيّب ولم يشذّب، وأيّ حديد يقطع ولم يسنّ ولم يُذرب[1]، وأيّ جوهر يعانق جيد الحسناء أو يرتقي قمّة التاج ولم يُسوّ ويثقب، وأيّ طائر يطرب بشدوه ولم يدرّب؟!

نعم، ربّما تغلط الطبيعة أو يشاء صانعها إظهار قدرته، فتوجد الحسن الكامل المستغني عن مدّ يد التحسين إليه والتكميل له، بل تعجز كلّ يد وكلّ قوّة عن حكايته وتقليده وتصويره وتمثيله، كجناح الطاووس وأزهار الربيع وألحان بعض السواجع من الطير، ولكنّه نادر، والنادر لا يقاس عليه.

وعلى أيٍّ، فإنّ الطبيعة الخرقاء والمادّة الصمّاء العمياء تعجز عن أن تلد المهذّب الصالح الذي لا يحتاج إلى تعديل واصطناع.

وهذه ضربة على كلّ مواليدها وأبنائها لا يزال نتاجها خداجاً في نقص وتشويه وفوضى وتشويش، حتّى يستلمها الكائن الذي هو أرقى منها قدراً وأسمى مقاماً المجرّد عن لوثتها وخسّتها وعماها وجهلها، وهو جوهر العقل المجرّد الشاعر الحسّاس، فإنّه إذا دخل ما بينها واستلم شيئاً منها لمّ من شعثها وأصلح ما شاء من أمرها، حتّى أصبح يريك المعجب المدهش منها، ويبدي لك كلّ يوم طرفةً من الغرائب التي تخالها نوعاً من الإعجاز أو ضرباً من السحر.

وما هذا الكائن المحسوس المنتصب القامة المتسمّي: بالإنسان، وما

---

(١) الذَرِب: الحادّ من كلّ شيء. (صحاح اللغة ١: ١٢٧).

أدريه أهذا هو أم لا ؟! نعم، كيف كان الإنسان، فما هو إلّا أحد كائنات المادّة وفرد من أفرادها يجري عليه ما يجري عليها.

فالتربية والتهذيب ضروريّة له، وإلّا فهو وحش من الوحوش، أو حشرة من الهوامّ، أو دابّة من الأنعام: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

ولكن الشأن أنّه مَن هو المربّي له والقمين بإصلاحه؟ ومن هو الطبيب النطاسي الخبير بدائه ودوائه الذي نكون على ثقة من صدقه ومعرفته ونأمن من خطأ خطواته وزلّة أفكاره؟

من ذا الذي نجعله مهيمناً على نفوسنا ونضع في يده أيدينا متطامنين آمنين على هدوٍّ وسكينة وثقة وطمأنينة، لا نخشى أن يزلّ في سيره بنا إلى سبل السعادة، فيهوي بنا إلى هوّة الهلكة ومتالف الهوان ومعاطب الشقاء، فإنّ الطريق دقيق والفجّ عميق، والسير مخوف والعقبات أُلوف؟!

والتربية التي نوعز إليها ونقول عنها ليست هي التربية الفردية ولا البيتية أو العائلية، وإنّما نعني بها: تربية النوع وسنّ قوانين إصلاحية لعامّة البشر على اختلاف الدهور والعصور وترامي الليالي والأيّام.

وعليه فلننظر هل في تلك العقول البشرية والمدارك المادّية التي صنعت في الكون ما أبدعت وبرعت به وقرّبت بالإبداع والاختراع كلّ بديع وبعيد، ولكن هل تستطيع أن تنهض بتلك الوظيفة وتقوم بذلك العبأ؟

هل يستطيع العقل المجرّد من جهةٍ المادّي من أُخرى أن يكون هو المصلح العامّ والمربّي الكلّي والمهذّب للنوع؟

---

(١) سورة الفرقان ٢٥: ٤٤.

هل في وسع العقول وملكوتها أن تسنّ لنا الشرائع والنواميس التي تتكفّل بصالح شؤوننا في: الحاضرة والآخرة، في الآداب والأخلاق، في الاكتساب والاقتصاد، في الحدود والمجازاة، في القصاص والديات، في المعاملات والحيويات من المطاعم والمشارب وتمييز النافع منها والضارّ والمؤثّر منها في سوء الأخلاق وفساد الطباع، أو الأمراض المزمنة والآلام الموبئة ولو بعد حين، وما لا يؤثّر شيئاً من ذلك؟

هب أنّ ندوة الشورى جمعت لك عقلاء العالم لهذه الغاية من سنّ القوانين وتشريع الشرائع، ولكن من لك بأن يتّفقوا؟! وإن اتّفقوا فمن لك بأن يصيبوا؟! وإن أصابوا فمن لك بالثقة بإصابتهم حتّى تطمئن القلوب وتسكن النفوس وتتمشّى تلك الشرائع في الناس رغبة واختياراً لا إكراهاً وإجباراً وقسراً وقهراً؟!

على أنّ دون وقوع كلّ واحدة من هذه الفروض بل دون إمكانها لعقبات كؤود[1] ومهامه[2] سود، لا يخترقها الوهم ولا يطرقها الخيال ولا يأتي عليها وميض الخطرات.

أيّ عقل يخترق بنوره غيابة المستقبل الحالك ومغبّة هذا الكون المدلهم الذي كأنّما هو ذلك البحر اللجيّ الذي: **﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾**[3]؟!

أيّ نافذ فكر يستطيع اقتحام ظلمات الغد ليجعل لأُمم المستقبل شرعة ومنهاجاً، يضع لها مشروعاً يلائم طباعها ويناسب أذواقها ويوافق مقتضيات

---

(١) عقبة كؤود: شاقّة المصعد صعبة المرتقى. (تاج العروس ٩: ٨٩).

(٢) المهمهة: المفازة البعيدة، والبلد المُقفِر. (القاموس المحيط ٤: ٢٩٤).

(٣) سورة النور ٢٤: ٤٠.

أحوالها ومناسبات شؤونها، ويضع في عهدته كلتا سعادتيها وتمام شؤون نشأتيها ؟!

أنّى للعقول بذلك فضلاً عمّا لو حاولت أن تجعله واحداً لكلّ العصور ولجميع الشعوب ولقاطبة الأُمم ؟!

هذا ممّا يستحيل أن تهمّ به العقول أو يخطر لها على بال.

إنّ هذه العقول البشرية إذا توجّهت تلقاء تلك الظلمات وأرادت أن تلتمس علم شيء من المستقبل وقفت حيرى متبلّدة، لا تسمع لها حسيساً[1]، ولا ترى لها حركة، ولا تخطو إلى الأمام خطوة واحدة إلّا أن تتوكّأ على أعواد قصبية من إعمال القواعد الجفرية أو الرملية أو التعويل على التفرّسات والتهجّسات من حدس أو تخمين!

ولا أدري أتخطو على ذلك خطوتين أم ثلاث، تعوّج فيهما أم تستقيم ؟!

طال بنا المقام ونخشى أن نشطّ عن القصد وتفوت الغاية.

والقصارى: أنّ المتحصّل لنا من تمهيد هذين الأمرين الأساسيين عدّة نتائج، لا نظنّ أنّ في واحدة منها مجالاً للشكّ أو موضعاً للارتياب:

الأُولى: أنّ الإنسان ـ مهما كان ـ لا تزال تكتنفه وتحيط به دوائر من الشقاء، ألصقها به وأقربها إليه وأقدمها عهداً فيه دائرة الجهل والعجز والفقر.

الثانية: أنّه وإن كان بطبعه في أسفل دركات الخسّة، ولكنّه بجوهري عقله ونفسه مستعدّ لأعلى درجات الكمال والعزّة ومتأهّل للعروج إلى أقصى مراتب السعادة.

---

(١) الحسيس: الصوت الخفي. (المصباح المنير ١٣٥).

الثالثة: أنّه في أحوج ما يكون إلى التربية الصحيحة في التربة الصالحة.

نعم، وأشدّ من ذلك حاجته إلى المربّي الكامل الجامع لصفات مخصوصة وعلامات معلومة.

الرابعة: أنّ ذلك المربّي لا يسعنا أن نفترضه هو عقل الإنسان بنفسه، ولا عقول سواه من عامّة البشر حتّى ولو اجتمعوا قليلاً أو كثيراً وكان بعضهم لبعض ظهيراً.

فاحتفظ على هذه النتائج، وانتظر لتمام الكلام في:

[الأمر الثالث: في أنّ إيجاد الخلق لغاية وحكمة]

الأمر الثالث من الأُسس والدعائم: وذاك أنّك ربّما وقفت على أوليات الجزء الأوّل وسبرت بحثنا مع المادّيين والدارونيين، ولا ارتياب أنّك إذا تدبّرت تلك المواضع وتلوتها حقّ تلاوتها لا يبقى عندك خلجان ريبة ولا ضربان شكٍّ بأنّ وراء هذا العالم المحسوس والمادّي المشاهد قوّة مجرّدة مدبّرة حكيمة أزلية قديمة مختارة مريدة هي الصانعة لهذا العالم وكلّ كائناته من الدقيق والجليل والكثير والقليل، وليست الطبيعة إلّا إحدى النابتات في أرض إرادتها المقدّسة والمسخّرات بأمرها والدائنات لحكمها.

وهذه المادّة، أو الأثير، أو السديم، أو الجواهر الفردة، أو النيشر، أو ما شئت فسمّها، ما هي وجميع ما منها إلّا أصغر منشآت تلك الإرادة وأخصر عوالمها وأضعف مخترعاتها وأدنى إبداعاتها، ونسبتها من سائر العوالم الحيّة الروحانية نسبة حصى المثانة من الإنسان، جمادٌ في حسّاس ومواتٌ في حيٍّ! (حاشا الإنسان الكامل).

وعلى أيٍّ، فلا أحسبك تريد أن تشقّ عليّ في الكرّة والإعادة لما مضى على أتقن قواعده ومبانيه.

إذن فضع إلى جنب ذينك الأساسين القريبين أساساً ثالثاً أعلى وأجلى وأتقن وأمكن، ألا وهو: (أنّ للعالم صانعاً حكيماً).

ونعني من نعته بكونه حكيماً: أنّ كلّ أفعاله وإبداعاته على نواميس الحكمة وأُصول الرحمة وقوانين العدل وموازين الصحّة والاستقامة ومكائيل الإحسان والفضيلة، وأنّه (جلّت حكمته) ما خلق الخلق عبثاً ولا جزافاً، وما أوجدهم ليجهدهم ظلماً وإجحافاً، ما كوّنهم للشقاء والتعاسة والعناء والمهانة، ما خلقهم ليريهم نعيمه ويملأ بهم جحيمه، ويعمل فيهم قوّة الغضب ويسلّط عليهم سطوة الرهب!

لا، ثمّ كلّا، تقدّس وتعالى عن كلّ ذلك، فإنّ البراهين الساطعة والآيات النيّرة عرّفتنا أنّه منزّه عن كلّ قبيح.

إنّ ما تحكم ضرورة العقول بقبحه تحكم باستحالته عليه حسبما استبان لك في مباحث التوحيد من الجزء الأوّل من أنّ وجوب وجوده مستلزم لكماله وعدم تطرّق النقص إليه بوجه من الوجوه[1].

وأيّ قبيح أقبح عند أرباب العقول من الظلم أو العبث أو الإيذاء بغير عوض أو جزاء؟!

وعليه فلا محيص من أن يكون الإيجاد والخلق لمنفعة وفائدة ما، وتلك الفائدة ليست إليه عائدة؛ لغناه بذاته عن كلّ شيء، واحتياج كلّ شيء إليه،

(١) تقدّم ذلك في ج١ ص٢٦٣ وما بعدها و٢٧٤.

والمستفيد المنتفع ناقص يطلب كماله ويصلح بالانتفاع حاله، والواجب (جلّ شأنه) غني كامل، بل فوق حدّ الكمال بما لا يتناهى عدّة وشدّة ومدّة، وليس فيه حالة منتظرة ولا صفة متغيّرة، وإلّا لم يكن واجباً، وهو غير الفرض.

والمصلحة والغاية لابدّ منهما تجافياً عن العبث، ويستحيل أن تعود إليه تجافياً عن الاستكمال والنقص، فلا محالة هي عائدة لخلقه جوداً منه وكرماً وتعالياً وعِظَماً.

ومن هنا ظهر الوجه فيما يقال من: أنّ أفعاله (تعالى) غير معلّلة بالأغراض[1].

نعم، هو حقٌّ؛ فإنّ الغرض ما يستكمل به صاحبه، وهو (جلّ شأنه) منزّه عن الاستكمال، بل هو فوق حدّ الكمال.

ولكن هناك غرض لا بهذا المعنى، وإن ضايقت فما شئت فسمّه، وهو: أنّ الشيء يحبّ ذاته ومظاهر صفاته الكمالية. وهذا ضروري فطري يجده كلّ أحد من نفسه ووجدانه، وهو ذاتيّ لا يعلّل: «كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أُعرف»[2]*، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا

---

(١) وهو مذهب الأشاعرة، لاحظ: الاقتصاد للغزالي ١١٥، الأربعين في أُصول الدين ١: ٣٥٠، مطالع الأنظار ٤٠٤، شرح المواقف ٨: ٢٠٢.

(٢) قارن: التذكرة في الأحاديث المشتهرة ١٣٦، المقاصد الحسنة ٣٢٧، الدرر المنتثرة ٣٤٢، النوافح العطرة ٢٦٤، النخبة البهية ٩٥، أسنىٰ المطالب ٣٤١، اللؤلؤ المرصوع ١٤٣.

وفي كشف الخفاء (٢: ١٧٣) ما نصّه: (قال ابن تيمية: ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف. وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر في اللآلي والسيوطي وغيرهم. وقال القاري: لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليعرفوني، كما فسّره ابن عبّاس رضي الله عنهما).

(*) قد ذكرنا في رحلتنا الموسومة بـ: (نهزة السفر ونزهة السمر) قدراً يسيراً ـ ولكنّه مقنع ـ من شرح هذا الحديث، ولم نذكر هنا شيئاً ممّا ذكرناه نظراً لبعض الملاحظات، والله (سبحانه) هو المسدّد. (منه رحمه الله).

لِيَعْبُدُونِ﴾[١]، أي: ليعرفون، كما في تفسير أُمناء الوحي[٢].

وفي هذا الحديث الشريف لطائف معارف كنّا نهمّ بالإشارة إلى بعض لمعاتها، ونظراً إلى ما يجدر باللبيب اعتباره أحجمنا عن ذلك، وحيث نجد أنّ العقل العامّي عن إتمام هذا المقام وعن إدراك حقيقة الغرض متجافٍ، فهذا القدر منه كافٍ وأولى بنا من استيفاء شرح الغاية.

[نتائج الأُمور المتقدّمة، والبرهان على وجوب البعثة]

والغرض أن نعود إلى استيفاء غرضنا، وننظر ماذا حصل عندنا من تلك الأساسيّات الثلاث، وما تمهّد لدينا من المقدّمات.

وها هي نتلوها سرداً عليك لترى إلى أيّ شيء تضطرّك ولأيّ غاية تقودك وتؤدّيك:

الإنسان جاهل عاجز فقير.

الإنسان محتاج إلى التربية الصحيحة التي تخفّف وطأة شقائه وتقوده إلى سعادته.

الإنسان محتاج إلى المربّي والمصلح الخاصّ لعامّة البشر.

عقل الإنسان غير كافٍ لتربيته، وعقول غيره في هذه الجهة عاجزة كعقله.

اتّفاق العقول لا يتّفق، وإن اتّفق لا يجدي.

---

(١) سورة الذاريات ٥١: ٥٦.

(٢) لاحظ علل الشرائع ١: ٢٠.

الإنسان له صانع حكيم، خلقه لغاية شريفة وحكمة قائمة وسعادة دائمة لا لشقاوة لازمة.

إذن ـ والحال على ما ترى ـ فهل يصحّ أو يسوغ لذلك الصانع الحكيم أن يهمل هذا الخلق الضعيف ويتركه سدى ؟ ! وهل يحسن منه أن يكله إلى نفسه، وهي في أشدّ العجز، أو الى غيره، وهم عنه أعجز ؟ !

كلّا، ثمّ كلّا، وهيهات هيهات !

وبكلمة : أنّه حيث ثبت آنفاً ـ بمقتضى وجوب وجوده وقيوميته ـ أنّه (تعالى) قادر حكيم جواد لتقدّسه عن العجز والجهل والبخل فضلاً عن الظلم والعبث والعيث، ومن المعلوم ضرورة أنّ أهمّ المنافع لعباده ـ بعد نعمة إيجادهم ـ نظم أُمور معاشهم ومعادهم، ودلالتهم على أسباب صلاحهم وفسادهم ؛ لتتمّ لهم النعمة وتكمل بذلك عليهم المنّة.

ومن المتبدّه أيضاً قصور عقولهم عن إدراك مضارّهم ومنافعهم ومفاسدهم ومصالحهم، وضعفهم عن تعيين كلّيّاتها فضلاً عن تشخيص جزئياتها ؛ لغلبة الشهوات الحسّية على الجهات العقلية ؛ لأنّ كلّ واحد هو حيوان قبلما هو إنسان، وجسماني شهواتي قبلما هو ملك روحاني.

ومن الواضح أيضاً كونهم قاصرين وغير لائقين لمحاورة عظيم سلطانه ومجاورة رفيع عرشه وأركانه ليستمعوا حديث كلامه وقديم تبيانه ؛ لأنّهم من التراب وإلى التراب : (وأين التراب وربّ الأرباب ؟ !)، فحاجة الخلق إلى ما يوصلهم إلى كمالهم، ويدلّهم على رشدهم وضلالهم، مع عدم قابليتهم بحسب نقص استعدادهم وضعف موادّهم عن تحصيل مرادهم إلهاماً أو وحياً أمراً أو نهياً، كلّ ذلك يوجب على الحقّ والجواد المطلق ـ بمقتضى لطفه الثابت المحقّق ـ أن

يجعل بينه وبين خلقه وسائط وسفراء، نسمّيهم: رسلاً وأنبياء، يليقون من جهةٍ لاستماع كلامه وتلقّي وحيه وإلهامه، ومن جهةٍ أُخرى لتبليغ مراده إلى جملة عباده.

فهم في الصورة والحقيقة بشر، وهم في الحقيقة من عوالم أُخر: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1].

ومن المعلوم أنّ المشاكلة والجنسية لها في التبليغ أعظم مدخلية، بل لا يكاد الغرض يحصل بدونها.

وحينئذٍ فلو أخلّ الواجب (تقدّس شأنه) بذلك كان إخلالاً منه بالغرض في إيجاد الخلق، ونقض الغرض قبيحٌ من العاقل، فكيف من واهب العقل؟! والمبدأ الفيّاض لا بخل فيه ولا نقص يعتريه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[2].

وهذا ما توخّيناه لك من السبيل لإثبات النبوّة العامّة وضرورة الحاجة إلى كلّية البعثة، وقد رأيت كيف تحكم الإحساسات الصحيحة والوجدانات السليمة بها.

وقد سلكنا بك إليها من أسهل طرقها وأقرب مباديها بحيث لا ترى فيها مقدّمةً معقّدة تنعقد بشيء من الاصطلاحات الفلسفية، أو ترتبط بالمباحث الكلامية، أو تستعين بما يدقّ فهمه ويعسر على العامّة علمه.

أمّا المتكلّمون فقد سلكوا إليه من طرق شتّى وأنحاء مختلفة أهونها وأبينها ما ملخّصه: أنّ مجيء رسول من البشر عن الله (تعالى) ممكن عقلاً خلافاً

---

(١) سورة الأنعام ٦: ٩.

(٢) سورة المائدة ٥: ٦٤.

للبراهمة الزاعمين امتناعه، وإذا كان ممكناً وادّعاه ذو المعجزة وجب تصديقه[١].

ونحن لا يهمّنا أن يكون صحيحاً أو مشتملاً على شيء من الخلل، ولا حاجة بنا إلى بسط الكلام فيه بعد تجلّي الحقيقة ونصوعها بما هو أسهل منه منالاً وأصفى سجالاً.

نعم، إنّ الذي يحسن أن يُكلّل به هذا المقام ويُزيّن ويُجلى ويبيّن بل الذي يليق أن يُجعل درّة تاجه وطراز ديباجه وغرّة عنوانه وطرّة ديوانه هو كلام أئمّة الدين وورثة النبيّين، فإنّهم أعلم به وأعرف بأسبابه، وأمكن بالحجّة والبيان وأملك للدليل والبرهان، فالماء أصفى من ينبوعه، والعضب[٢] أمضى في يد قريعه.

روى ثقة الإسلام (الكليني)* في كتاب الحجّة من (الكافي)، عن (هشام ابن الحكم)[٣]، عن أبي عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: أنّه قال للزنديق الذي

---

(١) قارن: شرح الأُصول الخمسة ٣٨٠ـ ٣٨١، الذخيرة ٣٢٣، غنية النزوع ٢: ١٢٩ ـ ١٣٠، مصارع المصارع ٢٠١، كشف المراد ٣٤٧ـ٣٤٨، إرشاد الطالبين ٢٩٦ و ٣١١، شرح الباب الحادي عشر ٣٥ و ٣٦، اللوامع الإلهية ٢٤٠ـ٢٤١، الحاشية على إلهيات الشرح الجديد للتجريد ١٦٩ ـ ١٧٠.

وأمّا ما يتعلّق بالبراهمة فراجع: الملل والنحل ٢: ٢٥٠، شرح المقاصد ٥: ٩.

(٢) العَضب: السيف القاطع. (لسان العرب ٩: ٢٥٢).

(*) قد مرّت الإشارة إلى ترجمة هذا المحدّث الشهير وينبوع العلم الغزير في أوائل الجزء الأوّل، وأنّه توفّي في أوائل القرن الرابع، ودفن ببغداد، ومرقده إلى اليوم مشهور. (منه رحمه الله).

(٣) أبو محمّد هشام بن الحكم الكندي بالولاء، من أصحاب أئمّة أهل البيت عليهم السلام. ولد في الكوفة، ونشأ بواسط، وتاجر ببغداد، حيث انتقل إلى هذه البلدة آخر عمره ونزل قصر وضّاح سنة ١٩٩ هـ، ويقال: إنّه مات في هذه السنة، وكان قبلاً ينزل بني شيبان بالكوفة. روى عن الصادق والكاظم عليهما السلام، وكان ثقة في الروايات حسن التحقيق فيها، وكان ممّن فتق الكلام في الإمامة وهذّب المذهب بالنظر مع حذق بضاعة الكلام وحضور الجواب. له كتب يرويها جماعة، منها: كتاب علل التحريم، كتاب الردّ على الزنادقة، كتاب الشيخ والغلام في

←

سأله: من أين أُثبّت الأنبياء والرسل؟ قال ﷺ: «إنّا لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه فيباشرهم أو يباشروه ويحاجّهم ويحاجّوه، ثبت أنّ له سفراء إلى خلقه يعبّرون عنه إلى عباده ويدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه المعبّرون عنه (جلّ وعزّ)، وهم الأنبياء وصفوته من خلقه حكماء مؤدّبين بالحكمة مبعوثين بها غير مشاركين للناس ـ على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب ـ في شيء من أحوالهم مؤيّدين من عند العليم الحكيم بالحكمة، ثمّ ثبت ذلك في كلّ دهر وزمان بما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين لكيلا تخلو الأرض من حجّةٍ يكون معه عِلمٌ يدلّ على صدق مقالته وجواز عدالته»[1] انتهت كلماته النورانية المشتملة على حقيقة الإيمان اليمان والحكمة اليمانية.

وقد حظت وتكرّمت كريمتاي بهذا الحديث الكريم بعدما نفثت اليراعة ما قدّمناه، وحين متّعتُ النظر به وجدتُ كلّ ما نمّقته من كتب إنّما هو مضمون هذا الحديث الشريف، لا بل كلّ ما نمّقناه إنّما هو لمحة من لمحاته ولمعة من قبساته.

← التوحيد، كتاب الجبر والقدر، كتاب الردّ على أرسطو في التوحيد، كتاب المجالس في الإمامة، كتاب الميزان، كتاب الميدان.

(رجال النجاشي ٤٣٣ ـ ٤٣٤، رجال الطوسي ٣١٨ و ٣٤٥، الفهرست ٤٩٣ ـ ٤٩٥، الخلاصة ٢٨٨ ـ ٢٨٩، سير أعلام النبلاء ١٠: ٥٤٣ ـ ٥٤٤، لسان الميزان ٦: ١٩٤).

(١) الكافي ١: ١٦٨. وورد: (ويباشروه) بدل: (أو يباشروه)، و: (في خلقه) بدل: (إلىٰ خلقه)، و: (إلىٰ خلقه وعباده) بدل: (إلىٰ خلقه)، و: (والمعبّرون) بدل: (المعبّرون)، و: (الحكيم العليم) بدل: (العليم الحكيم) و: (ممّا) بدل: (بما)، و: (أرض الله) بدل: (الأرض).

ولقد أحسن بعض الحكماء المحقّقين* حيث ذكر ما حاصله: أنّ لكلٍّ من الحكماء والمتكلّمين والعرفاء والصوفية والظاهرية وغيرهم من أهل الأذواق والمشارب المختلفة طريقاً لإثبات النبوّة غير طريق الفرقة الأُخرى، وكلّاً تراه من الوثاقة بالقبول أجدر وأحرى، وهذا الخبر الشريف ـ على وجازته واختصاره ـ أشار إلى تلك الطرق بأجمعها ولوّح إلى تلك المسالك على اختلافها وتشعّبها(١).

حتّى قال ما نصّ عبارته بالفارسية:

(واگر فلاسفة أقدمين را استماع اين كلام مقدّس ممكن ميشد هر آينه إقرار مينمودند بمعجزة بودن اين كلام قدسي، نظام: (كه جان تشنه داند قيمت آب)(٢).

أقول: تالله إنّ هذا الحكيم قد أحسن النظر في هذا الخبر، فتأمّله إن كنت من أهل ذلك تجد كلّ فقرة منه مقدّمة لبرهان أو جزءاً من برهان أو نتيجة له، لا بل قد استوعب مهمّات كلّ مباحث النبوّة بهذه الفقر الوجيزة والكلم المعدودة حيث عيّن مكان الحاجة والضرورة إلى بعثة الأنبياء، وبيّن ما هي وظيفتهم، وما

(*) هو المحقّق الملّا (عبد الرزّاق) الملقّب بالفيّاض صاحب (مشارق الإلهام شرح تجريد الأفهام) أحد حكماء الإمامية ومتكلّميهم، وهو من تلامذة صدر المتألّهين الشهير بملّا (صدرا) وصهره على إحدى ثمرتيه، وهو من أهل القرن الحادي عشر. ذكر هذا الكلام في كتابه المشهور الموسوم (بگوهر مراد). (منه ﷺ).

أقول: تقدّمت ترجمته في ج١ / ذيل صفحة ١٤٩.

(١) لاحظ گوهر مراد (فارسي) ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٢) لاحظ المصدر السابق ٢٥٣.

وترجمته: (ولو كان استماع الفلاسفة القدماء لهذا الكلام المقدّس ممكناً لأقرّوا بإعجاز هذا الكلام القدسي. نظم: النفس العطشىٰ تعرف قيمة الماء).

علامتهم وميزتهم، وما برهانهم وحجّتهم إيعازاً إلى العصمة وإيماءً إلى وجوب المعجزة.

انظر ما أنفس قوله: «غير مشاركين للناس ـ على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب ـ في شيء من أحوالهم»، وقوله: «مؤيّدين من عند الحكيم بالحكمة»، وقوله «لكيلا تخلو الأرض من حجّةٍ يكون معه عِلمٌ يدلّ على صدق مقالته».

وذو اللبّ لا تخفى عليه مواضع البَهر والإعجاب، ولا تضيع عنه الخواصّ والمزايا من هذا الحديث، فنحن نحيل ذلك إلى الفِطَن والمدارك، ونصرف واردة البحث والبيان إلى نظريتين من أشراط النبوّة ولوازمها: ننظر تارةً في العصمة، وأُخرى في المعجزة. ونوجز القول في التمحيص عن حقائقهما والأسباب التي لا تدع في النبوّة بدّاً منهما.

[الكلام في العصمة]

أمّا العصمة فقد مرّ بعض الكلام عنها في مستطردات الجزء الأوّل[1]، والأصيل بالذكر هنا: أنّ العصمة ـ كما عرّفها الأكابر[2] ـ هي: اللطف الإلهي المانع من الخطأ والخطايا من غير إجبار.

ونُوضح عنها بأنّها: الملكة التي تقتضي عدم صدور الذنب عن اختيار

---

(١) مرّ في ج١ ص٣١٩.

(٢) قارن: تصحيح الاعتقاد ١٢٨، النكت الاعتقادية ٣٧، شرح الأُصول الخمسة ٥٢٩، رسائل المرتضى ٣: ٣٢٥، أنوار الملكوت ١٩٥ـ١٩٦، كشف المراد ٣٦٥، إرشاد الطالبين ٣٠١ـ٣٠٢، شرح الباب الحادي عشر ٣٧، اللوامع الإلهية ٢٤٣.

وإرادة، لا عن عجز وعدم استطاعة مدّة العمر أو من حين قيامه بذلك المـنصب الخاصّ.

فغير الأنبياء والأوصياء من الأمثل فالأمثل بهم قد يكونون معصومين كما سبق، ولكنّهم غير واجبي العصمة.

وأمّا تلك السلسلة التي هي القدوة العامّة والقبلة العظمى فيجب ذلك فيها عقلاً كأصل وجوب بعثتها، وإلّا لزالت الثقة وانتقض الغرض.

والناقص وإن كان أكمل من غيره، ولكن الأجدر به من التعرّض لإصلاح غيره أن يقوم بإصلاح نفسه ويشتغل بتكميل نقصه ويبدأ بتنزيه ذاته ولا يعترض الأنقص، كي لا يقرفه بذنبه ويدفعه بعيبه ويردّه بمثل نقصه.

فحقّاً ـ والعيان والوجدان بعد العقل أعدل شاهدين ـ أنّه لا تتسنّى وظيفة التكميل ولا تتيسّر الغاية من التهذيب إلّا للـمهذّب الكـامل والمسـتقيم العـادل الأملس الأديم النقي الجلد العفيف الذيل الطاهر الإزار من كلّ الأوزار.

ومن جري ما هنالك نقول: إنّ المبعوث إلى الأُمّة أو المستلم وظيفته يلزم أن يكون أكمل أفرادها وأفضل شخوصها وأنبل ذواتها في: حسبه ونسبه، وآدابه وأخلاقه، وأدواحه وأعراقه، وعلومه ومعارفه، وخلقه وخلائقه، وكـلّ شـيء يُتحسّس منه أو يُتعقّل عنه.

ولا يعاضل ذلك ما هو المعلوم من تفاوت الأنبياء والرسـل فـي مـراتب الفضل ودرجات الزلفى والكرامة؛ فإنّ التفاوت فـي مـدارج الكـمال ومـعارج المعارف غير النزاهة من الأدناس والرذائل والأسواء والنقائص، وليس التفاضل فيما ههُنا بل ما هنالك، فاثبت وتثبّت.

أمّا العصمة في العقائد والتبليغ والفتوى ـ بـمعنى: الحكـم فـي المـوارد

الجزئية والوقائع الشخصية على طبق أحكامها الكلّية لا بمعناها المصطلح ـ فقد اتّفقت طبق ضرورة العقول قاطبة المسلمين بجميع عناصرها وشعوبها ـ عدا ما ينسب إلى بعض الخوارج عن ربقة الإسلام ـ على وجوبه ولزومه في الأنبياء وشعبتهم، فلا يصدر الخطأ منهم في شيء من تلك الأُمور لا عمداً ولا سهواً من حين قيامهم بتلك الوظيفة إلى منتهى أعمارهم الشريفة[1].

وأمّا العصمة في أفعالهم وأحوالهم في ذات أنفسهم فقد اتّفق أصحّاء النظر على لزومها مع الالتفات[2].

فالمكلّل بتاج تلك الكرامة الإلهية يمتنع ـ فيما نرى ـ أن يقع منه خلاف الواقع عمداً حتّى في عمل نفسه وما بينه وبين ربّه، ولا يخرج عن دائرة التكليف وخطّة الآداب والمكارم من حين صباه إلى آخر عمره.

وأمّا وقوع خلاف الواقع منه أو غير الصحيح سهواً فالترجيح والأغلبية على عدم وقوعه أيضاً.

وقد تصاغر في المعرفة بعض أكابر المحدّثين، حيث جوّز السهو على المعصوم في فعل ما يخصّه بنفسه من أعماله وتكاليفه[3]، وتبعه على ذلك

---

(١) انظر: الأربعين في أُصول الدين ٢: ١١٥ و ١١٦، مطالع الأنظار ٤٢٨، شرح المقاصد ٤: ٥٠ ـ ٥١، شرح الباب الحادي عشر ٣٧.

(٢) راجع: تقريب المعارف ١٠٣، تنزيه الأنبياء والأئمّة ٣٤، الذخيرة ٣٣٧ ـ ٣٣٨، الاقتصاد للطوسي ٢٦٠، كشف المراد ٣٤٩، نهج الحقّ ١٤٢، شرح الباب الحادي عشر ٣٧.

(٣) المقصود به هو الشيخ الصدوق ﵀ في الفقيه ١: ٣٥٩ ـ ٣٦٠. وممّن حكي عنه ذلك الشيخ المفيد ﵀ في رسالة عدم سهو النبي ١٨.

مع العلم بأنّه قد سبق الصدوق إلىٰ ذلك شيخه محمّد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، كما حكاه عنه الشيخ ←

. . . .

← الصدوق نفسه في الفقيه ١: ٣٦٠.

والمرجع في هذه المسألة رواية ذي اليدين. ولا بأس هنا بنقل كلام الشيخ الطوسي ﵀، حيث قال:

(روى أبو هريرة، قال: صلّىٰ بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر، فسلّم في ركعتين، فقام ذو اليدين، فقال: أقصّرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ فأقبل على القوم، فقال: «أصدق ذو اليدين»؟ فقالوا: نعم. فأتمّ ما بقي من صلاته وسجد وهو جالس سجدتين بعد التسليم.

وقد طعن في هذا الخبر بأن قيل: لا أصل له؛ لأنّ أبا هريرة أسلم بعد أن مات ذو اليدين بسنين، فإنّ ذا اليدين قتل يوم بدر، وذلك بعد الهجرة بسنتين، وأسلم أبو هريرة بعد الهجرة بسبع سنين.

فقال من احتجّ بهذا الحديث: إنّ هذا غلط؛ لأنّ الذي قتل يوم بدر هو ذو الشمالين، واسمه: عبد بن عمرو بن فضلة الخزاعي، وذو اليدين عاش بعد وفاة النبي ﷺ، ومات في أيّام معاوية. قال: وقبره بذي خُشُب، واسمه: الخرباق.

قالوا: والدليل عليه أنّ عمران بن الحصين روى هذا الحديث، وقال فيه: فقام الخرباق، فقال: أقصّرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟

وقد قيل في الجواب عن هذا الاعتراض: أنّه روى الأوزاعي، فقال: فقام ذو الشمالين، فقال: أقصّرت الصلاة أم نسيت؟ وذو الشمالين قتل يوم بدر لا محالة.

وروي في هذا الخبر: أنّ ذا اليدين قال: أقصّرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ فقال: «كلّ ذلك لم يكن».

وروي: أنّه قال: «إنّما سهوت لأُبيّن لكم».

وروي: أنّه قال: «لم أنس، ولم تقصر الصلاة».

وأمّا أصحابنا فقد رووا: أنّ ذا اليدين كان يقال له: ذو الشمالين. روي ذلك عن سعيد الأعرج، عن أبي عبدالله ﵇ في هذه القصّة). (الخلاف ١: ٤٠٤ـ٤٠٦).

وقال العلّامة المجلسي ما نصّه:

(لمّا أوردنا بعض الأخبار الدالّة على عصمة الأنبياء المتضمّنة لتأويل ما يوهم صدور الذنب والخطأ عنهم، فلنتكلّم عليها جملة؛ إذ تفصيل القول في ذلك يوجب الإطناب ويكثر حجم الكتاب:

اعلم أنّ الاختلاف الواقع في هذا الباب بين علماء الفريقين يرجع إلى أقسام أربعة:

أحدها: ما يقع في باب العقائد.

وثانيها: ما يقع في التبليغ.

←

. . . .

← وثالثها: ما يقع في الأحكام والفتيا.

ورابعها: في أفعالهم وسيرهم عليهم السلام.

وأمّا الكفر والضلال في الاعتقاد فقد أجمعت الأُمّة على عصمتهم عنهما قبل النبوّة وبعدها، غير أنّ الأزراقة من الخوارج جوّزوا عليهم الذنب، وكلّ ذنب عندهم كفرٌ، فلزمهم تجويز الكفر عليهم، بل يحكى عنهم أنّهم قالوا: يجوز أن يبعث الله نبيّاً علم أنّه يكفر بعد نبوّته!

وأمّا النوع الثاني ـ وهو ما يتعلّق بالتبليغ ـ فقد اتّفقت الأُمّة بل جميع أرباب الملل والشرائع على وجوب عصمتهم عن الكذب والتحريف فيما يتعلّق بالتبليغ عمداً وسهواً، إلّا القاضي أبو بكر فإنّه جوّز ما كان من ذلك على سبيل النسيان وفلتات اللسان.

وأمّا النوع الثالث ـ وهو ما يتعلّق بالفتيا ـ فأجمعوا على أنّه لا يجوز خطؤهم فيه عمداً وسهواً، إلّا شرذمة قليلة من العامّة.

وأمّا النوع الرابع ـ وهو الذي يقع في أفعالهم ـ فقد اختلفوا فيه على خمسة أقوال:

الأوّل: مذهب أصحابنا الإماميّة.

وهو: أنّه لا يصدر عنهم الذنب، لا صغيره ولا كبيره، ولا عمداً ولا نسياناً، ولا لخطأ في التأويل، ولا للإسهاء من الله سبحانه.

ولم يخالف فيه إلّا الصدوق، وشيخه محمّد بن الحسن بن الوليد رحمهما الله، فإنّهما جوّزا الإسهاء لا السهو الذي يكون من الشيطان، وكذا القول في الأئمّة الطاهرين عليهم السلام.

الثاني: إنّه لا يجوز عليهم الكبائر، ويجوز عليهم الصغائر، إلّا الصغائر الخسيسة المنفّرة، كسرقة حبّة أو لقمة، وكلّ ما ينسب فاعله إلى الدناءة والضعة.

وهذا قول أكثر المعتزلة.

الثالث: إنّه لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة على جهة العمد، لكن يجوز على جهة التأويل أو السهو.

وهو قول أبي علي الجبّائي.

الرابع: إنّه لا يقع منهم الذنب إلّا على جهة السهو والخطأ، لكنّهم مأخوذون بما يقع منهم سهواً وإن كان موضوعاً عن أُممهم؛ لقوّة معرفتهم، وعلوّ رتبتهم، وكثرة دلائلهم، وأنّهم يقدرون من التحفّظ على ما لا يقدر عليه غيرهم.

وهو قول النظّام، وجعفر بن مبشّر، ومن تبعهما.

←

شذّاذ[1] متشبّثين بظواهر أخبار مردودة بنفسها، فضلاً عن إباء العقل إيّاها.

وبكلمةٍ: إنّ العصمة لهم عليهم السلام ثابتة في جميع ذلك بما أنّها ممكنة في ذاتها، ولا يحصل تمام الغرض أو الغرض التامّ من البعثة والرسالة إلّا بها، فلا محيص من ثبوتها حينئذٍ.

فتجويز بعض الأُمم وقوع الخطايا من الأنبياء باستثناء واحدٍ أو بغير استثناء غير ناشئٍ إلّا من قصور الفكر عن فلسفة معنى النبوّة، وإلّا فطباع النبوّة لا يجتمع مع الخطيئة، وكلّ ما هو ظاهر في ذلك من دليل النقل القطعي فمأوّلٌ أو متجوّز فيه، قلّ ذلك أم كثر.

وما ذكرناه من وجوب العصمة هو من إحدى أُلطاف قاعدة اللطف المعبّر عنها تارةً: بما تتمّ به الحجّة، وأُخرى: بما يقرّب إلى الطاعة ويبعّد عن المعصية.

وهو بمعنى واحد؛ إذ المراد بالمقرّب والمبعّد: ما يعود إلى البيان وقطع العذر، وما تتمّ به تبعات التكليف ونتائجه من المدح والذمّ والثواب والعقاب،

← الخامس: إنّه لا يجوز عليهم الكبائر والصغائر عمداً وسهواً وخطأً. وهو قول الحشويّة، وكثير من أصحاب الحديث من العامّة.

ثمّ اختلفوا في وقت العصمة على ثلاثة أقوال:

الأوّل: إنّه من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله سبحانه.

وهو مذهب أصحابنا الإماميّة.

الثاني: إنّه من حين بلوغهم، ولا يجوز عليهم الكفر والكبيرة قبل النبوّة.

وهو مذهب كثير من المعتزلة.

الثالث: إنّه وقت النبوّة، وأمّا قبله فيجوز صدور المعصية عنهم.

وهو قول أكثر الأشاعرة ومنهم الفخر الرازي. وبه قال أبو هذيل، وأبو علي الجبّائي من المعتزلة. (بحار الأنوار ١١: ٨٩ ـ ٩١).

(١) راجع: تنزيه الأنبياء والأئمّة ٣٤، شرح المقاصد ٤: ٥٠ ـ ٥١.

فذلك ما يجب منه (تعالى) بقاعدة اللطف والذي تشترك به عامّة المكلّفين، لا ما يعود إلى سائر الجهات الخارجية التي قد يتّفق مدخليتها في الطاعة أو المعصية، كأن يجعل الله هذا غنياً ليتوصّل بالغنى إلى القربات، أو يجعل ذلك فقيراً ليفرغ للعبادة ولا يشتغل بالثراء عن الطاعة، أو نحو ذلك ممّا يندرج في هذه الجملة. فإنّ كلّ ذلك له أسباب أُخر، ولا دخل لهذه القاعدة به، فإنّها ترجع إلى قطع العذر وإزاحة العلّة، فتدبّر ولا يشتبه الأمر عليك فتبادر بالإيراد من سوء فهم المراد، وليكن لك في هذا القدر مقنع وكفاية من القول عن العصمة، والله (سبحانه) أسأل أن يعصمنا وإيّاك ـ أيّها القارئ الكريم ـ من العثرات إن شاء الله.

[الكلام في المعجزة]

وأمّا المعجزة وقبل الحكم والبرهنة عليها نأخذ في التعريف عن الموضوع.

والقول الشارح: إنّها الواقعة من الفعل البشري التي يعجز عن الإتيان بمثلها أبناء جنسه حتّى ممّن ساواه في جميع جهاته البشرية وكمالاته الكسبية.

وإيجازها: أنّها الفعل الربوبي الصادر من واحد خاصٍّ من البشر مقرون بالتحدّي ودعوى النبوّة، وذاك كلّ ممتنع عادي ممكن ذاتي، كإحياء الموتى، وقلب العصى إفعى، وما أنعطف على هذا النسق.

فالسحر وأشباهه من كلّ اختراع بشري وإبداع كوني ليس من المعجزة في شيء؛ لأنّه غير ممتنع عادي ولا فعل ربوبي، كالخلق والإحياء والإماتة، وما هو أعظم منها، كالتعجيز في الكلام للبرعة فيه والمهرة به، ولا يعجز عن الإتيان بمثله مماثله.

وسيأتي لهذه القيود إطلاق بيان فيما سيأتي إن شاء الله.

وحيث تصوّرنا الموضوع ـ ولو على الجملة ـ فنقول: إنّ الإعجاز في النبوّة هو الدعامة التي تُدعم بها، بل أساسها الذي تبتني عليه ونبراسها[1] الذي لا يُستضاء إليها إلّا به، ومن اللطف الواجب الذي لا تتمّ إلّا به الحكمة، ولا تكمل إلّا به العناية، ولا يحصل إلّا بعد حصوله الغرض.

حتمٌ على الحكيم أن يؤيّد رسوله إلى عباده بعلامة وآية منه تدلّ الأعمى والبصير والعربي والأعجم والذكي والأبكم أنّ هذا المدّعي للرسالة صادقٌ في دعواه محقٌّ في مقالته؛ لتتمّ به الحجّة وتقوم به البيّنة وتحصل به الثقة، فيجب على ذلك المبعوث إعلام الخلق برسالته أوّلاً، وإظهاره المعجزات ثانياً.

ثمّ يجب بحكم عقولهم في وجوب دفع الضرر المحتمل الذي قد اتّفقت عليه أرباب العقول ـ خلا من سدّ باب حكم العقل ـ وهو أحد الدوافع الطبيعية والزواجر النفسانية لكلّ ذي إحساس يحافظ على سلامة كيانه ويبتعد عن مؤلماته ومهالكه. وبهذا الدافع الطبيعي والسائق الغريزي يندفع اندفاعاً قسرياً ويجد في ضميره حكماً عقلياً بلزوم النظر في معجزة مدّعي الرسالة والصادع بتلك الدلالة، ثمّ وراء النظر تلزمه الحجّة بما يجده في وجدانه وما تسكن إليه نفسه ويحكم به عقله من صحّة تلك المعجزة وأنّها فعل ربوبي وآية إلهية وحجّة قاطعة تعجز عنها البشر وتنحطّ دونها القوى والقُدر وتنحسم بها بواعث الشكّ والارتياب وعوابث الوسوسة والاضطراب، أم ليست هي بذاك، فتمام الحجّة عليه إنّما هو بحسب ما يتمّ له ويقوم عنده: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾[2].

---

(١) النِبراس: المصباح، والسنان. (القاموس المحيط ٢: ٢٦٢).

(٢) سورة الطلاق ٦٥: ٧.

وكلّ هذا جليٌّ ظاهر أكثر حاجته إلى التنبيه والإيماء لا إلى البسطة والاستقصاء إنّما اللبثة والريثة والأناة والفكرة في فلسفة المعجزات وأنّ وقوعها في الكون وطلاعها في الوجود هل هو على نظم سلسلة الأسباب والمسبّبات ونسق جري العلل والمعلولات، أم تنخرق بها تلك النواميس ولا يكون جريه على تلك الموازين ويعود قولنا بأنّه خارق للعادة قول بتمام معناه وبكلّ حقيقته.

وقد اصطكّت هنا ملحمةٌ نظرية وشبّت وغى جدلية بين فيلسوفين من مشاهير فلاسفة الإسلام وكبّار جهابذتهم: (أبي حامد الغزالي)[1]، و (ابن رشد الأندلسي)، فكلّاً أخذ طرفاً ومال عن الآخر جانباً، حتّى اتّسعت بينهما مسافة الخلف، وتباعدت مناحي الفهوم ومرامي الآراء، وضاقت العرى على من أراد بينهما الجمع والتوفيق.

وجديرٌ أن نذكر نزراً من كلام كلّ منهما بحرفه، ثمّ نردفه بما ينفسح لنا من النظر وما يتّسع من رجاء الوئام بينهما وجمعهما على غاية واحدة.

إنّ (أبا حامد) ـ بعد أن استهدف آراء الفلاسفة في كتاب: (التهافت) وردّ عليهم بما شاء وحفظ شيئاً وغابت عنه أشياء[2] ـ انتقل إلى الطبيعيات، فقال ما حرفه:

(أمّا الملقّب بالطبيعيات فهي علوم كثيرة نذكر أقسامها؛ ليُعرف أنّ الشرع ليس يقتضي المنازعة فيها ولا إنكارها [إلّا] في مواضع ... وليس يلزم مخالفتهم

---

(١) تقدّمت ترجمته في ج١ ص٣٣٦ هـ٣.

(٢) هذا إشارة إلى بيتٍ لأبي نؤاس، حيث يقول:

قل للّذي يدّعي في العلم فلسفة   حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

راجع ديوان أبي نؤاس ١٧.

[شرعاً] في شيء من هذه العلوم، وإنّما نخالفهم منها في أربع مسائل:

الأُولى: حكمهم بأنّ هذا الاقتران المشاهد [في الوجود] بين الأسباب والمسبّبات اقتران تلازم بالضرورة، فليس في المقدور ولا في الإمكان إيجاد السبب دون المسبّب، ولا وجود المسبّب دون السبب)[1].

وأثر هذا الخلاف يظهر في جميع الطبيعيات.

ثمّ ـ بعد أن شدّد النكير على ذلك[2] ـ قال:

(وإنّما يجب علينا إنكار هذا القول؛ لأنّه ينتفي به إثبات المعجزات الخارقة للعادة من قلب العصا ثعباناً وإحياء الموتى وشقّ القمر.

ومن جعل مجاري العادات (يعني بها: النواميس المتعارفة والأسباب الاعتيادية) لازمة لزوماً ضرورياً أحال جميع ذلك، وأوّلوا ما في القرآن من إحياء الموتى، وقالوا: أراد به إزالة موت الجهل بحياة العلم.

وأوّلوا تلقّف العصا لسحر السحرة بإبطال الحجّة الإلهية الظاهرة على يد (موسى).

وأمّا شقّ القمر فربّما أنكروا وجوده، وزعموا أنّه لم يتواتر)[3].

وبعد أن ذكر عن الفلاسفة رأيهم في المعجزات وأنّها خواصٌّ في القوى المتخيّلة والعقلية والنفسية[4]، قال:

(نحن لا ننكر شيئاً من ذلك... وإنّما ننكر اقتصارهم عليه ومنعهم قلب

---

(١) تهافت الفلاسفة ١٩٠ و١٩١، مع اختلاف يسير.

(٢) المصدر السابق ١٩١.

(٣) المصدر السابق ١٩٢، مع اختلاف يسير.

(٤) المصدر السابق ١٩٢ ـ ١٩٣.

العصا ثعباناً وغيره، فلزم الخوض في هذه لإثبات المعجزات، ولأمرٍ آخر، وهو نصرة ما أطبق عليه المسلمون من أنّ الله تعالى قادر على كلّ شيء)[١].

وشرع في البحث، فقال:

(الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وبين ما يعتقد مسبّباً ليس ضرورياً عندنا، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل: الري والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق والنار، والنور والشمس، والموت وحزّ الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلمّ جرّاً، إلى كلّ المشاهدات من المقترنات في الطبّ والنجوم والصناعات والحرف.

وإنّ اقترانها إنّما هو لما سبق من تقدير الله (سبحانه) لخلقها على التساوق، لا لكونها ضرورياً في نفسه غير قابل للفرق.

بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون حزّ الرقبة، وإدامة الحياة مع حزّ الرقبة، وهلمّ جرّاً، إلى جميع المقترنات.

وأنكر الفلاسفة إمكانه وادّعوا استحالته)[٢].

ثمّ سجّل ذلك في مثال الإحراق قائلاً:

(إنّ النار جماد لا فعل لها، فما الدليل على أنّها الفاعل في الإحراق؟!

ليس لهم دليل إلّا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار، والمشاهدة تدلّ على الحصول عنده ولا تدلّ على الحصول به وأنّه لا علّة سواه)[٣].

---

(١) المصدر السابق ١٩٤، مع أدنىٰ تفاوت.

(٢) المصدر السابق ١٩٥، بأدنىٰ تفاوت.

(٣) المصدر السابق ١٩٦، بأدنىٰ تفاوت.

ثمّ أطنب وأسهب في تقريب تلك الدعوى وتسجيلها وإيراد الأمثال والضرائب لها[١] بلطائف الأساليب وسحر البيان الذي كان للغزالي منه ومن شدّة العارضة وسلاطة اللسان أوفر نصيب! وما فتأ يصرف أعنّة الخطابة والإقناع في ذلك، حتّى انتهى إلى قوله:

(نجوّز أن يلقى شخص في النار فلا يحترق، إمّا بتغيير صفة النار أو بتغيير صفة الشخص، فيحدث من الله (تعالى) أو من الملائكة صفة في النار تقصر سخونتها على جسمها بحيث لا تتعدّاها وتبقى معها سخونتها وتكون على صفة النار حقيقتها، أو يحدث في بدن الشخص صفة ولا يخرجه عن كونه لحماً وعظماً فيدفع أثر النار، فإنّا نرى من يطلي نفسه بالطلق[٢]، ثمّ يقعد في تنّور موقد، فإنّه لا يتأثّر بالنار. والذي لم يشاهد ذلك ينكره... وفي مقدورات الله عجائب وغرائب، ونحن لم نشاهد جميعها، فلا ينبغي أن يُنكر إمكانها ويحكم باستحالتها.

وكذلك إحياء الميّت وقلب العصا ثعباناً ممكن بهذا الطريق.

وهو: أنّ المادّة قابلة لكلّ شيء، فالتراب وسائر العناصر يستحيل نباتاً، ثمّ النبات يستحيل عند أكل الحيوان له دماً، ثمّ الدم يستحيل نطفة، والنطفة توضع في البطون، فتخلق حيواناً.

وهذا ـ بحكم العادة ـ واقع في زمان متطاول، فلِمَ يُحيل الخصم أن يكون في مقدورات الله (تعالى) أن يدير المادّة في هذه الأطوار في وقت أقرب ممّا عهد

---

(١) المصدر السابق ١٩٦ ـ ٢٠٠.

(٢) الطلق: قيل: هو نبت تستخرج عصارته، فيتطلّى به الذين يدخلون في النار. (لسان العرب ٨: ١٩١).

فيه ؟! وإذا جاز في وقت أقرب فلا ضبط للأقلّ، فتستعجل هذه القوى في علمها ويحصل به ما هو معجزة النبي.

فإن قيل: هل تصدر هذه من نفس النبي، أو من مبدأ آخر من المبادئ عند اقتراح النبي ؟

قلنا: الأولى بنا وبكم إضافة ذلك إلى الله (تعالى) إمّا بغير واسطة أو بواسطة الملائكة، ولكن وقت استحقاق حصولها انصرفت همّة النبي إليه وتعيّن نظام الخير في ظهوره لاستمرار نظام الشرع)[١].

وحسبنا من كلامه هذا القدر، فإنّ (أبا حامد) وإن استوسع وأطال المقال في إثبات ما أراد من عدم التلازم بين الأسباب والمسبّبات، ولكن خلاصة كلّ ما ذكره ـ على اختلاف أنحائه وضروب أساليبه ـ لا يخرج ولا يتباعد عن تلك الكلمات الآنفة التي اخترنا نقلها من جميع مقالاته الضافية ومباحثه الطائلة.

وكأنّ هذه الدعوى التي يجهد ويشتدّ حرصاً على إثباتها إنّما هي شعبة من مسألة خلق الأفعال وأنّ أفعال العباد هل هي من فعلهم، أو من فعل الله (تعالى) عند إرادتهم لها.

وإن لم تكن هي تلك أو منها فما أشدّ الشبه والتماثل بينهما.

وكأنّ (الغزالي) بناها على ما هو الأصل هناك عنده وعند إخوانه الأشاعرة من: أنّ الأفعال ليست من فعل العباد، بل من فعله (تعالى)، وللعباد فيها (الكسب)[٢].

---

(١) تهافت الفلاسفة ٢٠٠ ـ ٢٠١، مع اختلاف يسير.

(٢) تقدّم الكلام مع ذكر مصادره في ج١ / الهامش الأخير من ص ٤٨٠.

ذلك اللفظ الذي لم يظهر إلى اليوم حقيقة معناه على الوجه الذي يذهبون إليه، ولا نفهم كعامّة أهل اللسان من قوله (تعالى): ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1] وأمثالها إلّا المعنى الجلي الظاهر، وهو: ما فعله الإنسان وحصّله بإرادته ومباشرته. وهم يريدون من الكسب سوى ذلك.

وعلى أيٍّ، فليس الغرض هنا الخوض في هذه الغمرة بعدما خضنا لُجّتها وكشفنا غُمّتها في أُخريات الجزء الأوّل من هذا الكتاب[2]، وأقمنا البراهين الجليّة التي لا تُدفع على أنّ الأفعال كلّها من فعل العباد بإقدار الله للعبد على الفعل والترك، وباختياره يترجّح أحدهما على الآخر، وبذلك يصحّ اتّصاف الإنسان بالقدرة.

ويتّسع لنا القول بمثل هذا في سائر الفواعل الطبيعية سوى أنّها فواعل قسرية لا إرادية.

ونعود إلى استيفاء البحث بنقل كلام (ابن رشد) الذي ناقض به فلسفة (الغزالي)، وهدّ بحديد أفكاره دعائمها، فإنّه قد أصاب المحزّ وطبّق المفصل[3] وإن كان لا يخلو من بعض المؤاخذات عليه، ولكنّها غير ضائرة بجوهر غرضه.

فمن بعض كلامه في: (تهافت التهافت) بحرفه:

(أمّا إنكار وجوب الأسباب الفاعلة التي تشاهد في المحسوسات فقولٌ سفسطائي.

والمتكلّم بذلك إمّا جاحد بلسانه لما في جنانه، وإمّا منقاد لشبهة

---

(١) سورة الشورى ٤٢: ٣٠.

(٢) راجع ج ١ ص ٣٦٤ وما بعدها وص ٤١٤ وما بعدها.

(٣) هذا تعبير يقال للرجل إذا أصاب الحجّة، أو إذا كان بليغاً. (لسان العرب ٨: ١٢٣)، وعدّ من الأمثال في العقد الفريد ٢: ١٨٨ و١٢٢.

سفسطائية عرضت له في ذلك.

ومن ينفي ذلك فليس يقدر أن يعترف أنّ كلّ فعل لا بدّ له من فاعل.

أمّا أنّ هذه الأسباب مكتفية بنفسها في الأفعال الصادرة عنها أو بما تـتمّ أفعالها بسبب من خارج إمّا مفارق أو غير مفارق فأمرٌ ليس معروفاً بنفسه، وهو ممّا يحتاج إلى بحث وفحص كثير)[١].

وما انفكّ يتقعّر ويتعمّق في فلسفته إلى أن خدش حرمة الأدب بالصراحة، وقال:

(فما أتى به أبو حامد في هذا الباب مغالطة سفسطائية)[٢].

وقال:

(والعقل ليس هو شيئاً أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها، فـمن رفـع الأسباب فقد رفع العقل، وصناعة المنطق تضع وضعاً أنّ ههٰنا أسباباً ومسبّبات، وأنّ المعرفة بتلك المسبّبات لا تكون على التمام إلّا بمعرفة أسبابها، فرفع هذه الأشياء مبطل للعلم ورافع له)[٣].

ثمّ أخذ في التعقيب على كلام (أبي حامد) وسائر المتكلّمين، فقال:

(فإنّه يلزم أن لا يكون ههٰنا شيء معلوم أصلاً علماً حـقيقياً، بـل إن كـان فمظنون، ولا يكون ههٰنا برهان ولا حدّ أصلاً.

ومن يضع أنّه ولا علم واحد ضروري يلزمه أن لا يكون قوله هذا ضرورياً.

وأمّا من يسلّم أنّ ههٰنا أشياء ضرورية وأشياء ليست ضـرورية وتـحكم

---

(١) تهافت التهافت ٣٥٠.

(٢) المصدر السابق ٣٥٠.

(٣) المصدر السابق ٣٥١.

النفس عليها حكماً ظنّياً وتُوهم أنّها ضرورية وليست ضرورية، فلا ينكر الفلاسفة ذلك.

فإن سمّوا مثل هذا عادة جاز، وإلّا فلا أدري ما يريدون باسم (العادة)؟!

هل عادة الفاعل، أو عادة الموجودات، أو عادتنا عند الحكم عليها؟

ومحالٌ أن يكون لله عادة، فإنّ العادة: ملكة يكتسبها الفاعل توجب تكرار الفعل منه على الأكثر، والله (عزّ وجلّ) يقول: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[1])[2].

وبعد أن استوفى الكلام في هذا المقام انتقل إلى مسألة الإحراق، وحصَر إنكار (الغزالي) في موضعين:

الأوّل: أنّه يمكن أن توجد هذه الصفات للموجود ولا تؤثّر فيه، مثل النار، فإنّها يمكن أن توجد الحرارة ولا تحرق.

والثاني: أنّه ليس للصورة الخاصّة بموجود موجود مادّة خاصّة[3].

يريد (ابن رشد) بهذا مسألة تعاقب الصور السيّالة المترابطة بعضها ببعض التي لا تنسحب صورة منها إلّا إلى أقرب الصور إليها، كالجمادية إلى النباتية، وهي إلى الحيوانية، وهي إلى الإنسانية، وهكذا.

ثمّ فصّل في هذين الموضعين، فقال:

(أمّا القول الأوّل فإنّه لا يبعد أن تسلّمه الفلاسفة له، فلا يمتنع أن تقترن النار بالقطن مثلاً في وقت ما فلا تحرقه إن وجد هنالك ما إذا قارن القطن صار

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٦٢، سورة الفتح ٤٨: ٢٣.

(٢) تهافت التهافت ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٣) المصدر السابق ٣٦٣.

غير قابل به للاحتراق)[١].

وأمّا مسألة الصورة والمادّة الخاصّة فقد تصلّب فيها، وقال:

(إنّه شيء لا يقدر المتكلّمون أن ينفوه)[٢].

وجرى في رهان البيان، إلى أن قال:

(مثال ذلك: أنّ الأسطقسات[٣] تتركّب حتّى يكون منها نبات، ثمّ يغتذي منه الحيوان، فيكون منه دم ونطفة، ثمّ يكون من النطفة حيوان، كما قال (سبحانه): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[٤].

فالمتكلّمون يقولون: إنّ صورة الإنسان يمكن أن تحلّ في التراب من غير هذه الوسائط التي تشاهد.

والفلاسفة يدفعون هذا ويقولون: لو كان ممكناً لكانت الحكمة في أن يُخلق الإنسان دون هذه الوسائط، ولكان خالقها بهذه الصفة هو أحسن الخالقين وأقدرهم.

وكلّ واحد من الفريقين يدّعي أنّ ما يقوله معروف بنفسه.

وليس عند واحد دليل على مذهبه، وأنت فاستفت قلبك، فما أنبأك فهو غرضك الذي يجب اعتقاده، وهو الذي كُلّفتَ إيّاه)[٥].

---

(١) المصدر السابق ٣٦٣.

(٢) المصدر السابق ٣٦٣.

(٣) الأسطقسات: لفظ يوناني، بمعنىٰ: الأصل. وتسمّىٰ العناصر الأربعة التي هي: الماء والأرض والهواء والنار: أسطقسات؛ لأنّها أُصول المركّبات التي هي الحيوانات والنباتات والمعادن. (التعريفات للجرجاني ٢١).

(٤) سورة المؤمنون ٢٣: ١٢.

(٥) تهافت التهافت ٣٦٤.

هذا ما اخترنا نقله من كلام هذا الفيلسوف.

ونحن لا نريد أن نكثر عليك من نقل ما هو عتيد عندك سهل المأخذ عليك من كلامهما، كما أنّنا لا نستوسع البحث في التعرّض لهفوات كلّ واحد منهما، ولا نتوغّل في تحرير هذه النظرية على ما يليق بها من بيان الفروق بين: العلّة التامّة وغير التامّة، والسبب وغير السبب، والمانع والشرط، والعلّة المنحصرة وغير المنحصرة، والفاعل المركّب والبسيط، والمادّي والمجرّد، وما يصدر عنه الفعل وما يقوم به، والمادّة والصورة، والغاية وما منه الغاية، إلى غير ذلك ممّا تتكفّل ببسطه الأُمور العامّة من العلم الأعلى.

ولو أردنا أن نقف الهوينا عند هذه الأُمور ونعرّج على البحث فيها بمقدار ما يستبين به مواضع النظر من كلمات ذينك النابغتين لخرجنا بالضرورة عمّا نحن فيه ووقعنا في مهمه[1] شاسع ووادٍ عميق غير مرتبط كثيراً بمباحث النبوّة.

ولكن بالحري أن نستوفي البيان ونغرق نزعاً في تخليص ما يتعلّق بالمعجزات وتمحيص الحقّ الصراح من تلك المساجلات.

لا يرتاب المتطلّع في تلك الفقرات أنّ محور النزاع بين ذينك الباحثين إنّما يدور على جوهريةٍ واحدة، وهي: أنّ الأسباب هل هي المؤثّرة في مسبّباتها والفاعلة في مفعولاتها، أم المؤثّر هو أمر غائب معقول مقارن للفاعل المشاهد المحسوس، وهذه المقارنة هي التي صحّحت نسبة التأثير إلى ما هو المشاهد وإن لم يكن له مسيس علاقة به وارتباط أبداً؟

ومن طريق آخر: هل وجود السبب بذاته يستلزم وجود المسبّب ضرورةً

(١) المهمه: البلد المقفر. (القاموس المحيط ٤: ٢٩٤).

استلزاماً ذاتياً لا اتّفاقياً واقترانياً، أم لا يستلزم ذلك إلّا من باب الاتّفاق والغلبة التي تفيد الظنّ بحكم غلبة العادة، أمّا ذات السبب فليس لها اقتضاء ذلك في المسبّب؟

أمّا (أبو حامد) فبما أنّه أشعريٌّ يرى أنّ هذه الأفعال الكونية طبيعية أو إرادية كلّها أفعال جائزة لا ترتيب لها ولا نظام ولا علّية ولا معلولية تقتضيها طبائع الموجودات أو عزائم الحيوانات، ولكنّه يحكم أنّ هذه الأفعال تظهر مقترنة بالحيّ الذي في الشاهد وإنّما فاعلها الحيّ في الغائب، ويجحد هو وحزبه الأسباب المحسوسة، ويرون أنّ علّة المحسوس أمر غير محسوس، وعلى ذلك يبني أمر المعجزات، وكأنّه يترآءى له أنّها لا تصحّ إلّا على هذه المزعمة.

أمّا (ابن رشد) فبما أنّه فيلسوفٌ فهو يرى أنّ الأشياء كلّها مرتبطٌ بعضها ببعض على نظام متقن وإبرام محكم، وكلها أسبابٌ ومسبّباتٌ وعللٌ ومعلولاتٌ مترامية متسلسلة حتّى تنتهي إلى علّتها الأُولى وفاعلها الأزلي الذي أودع في كلّ كائنٍ خاصٍّ اقتضاءً خاصّاً وسببية خاصّة، فإذا أثّرت أثرها وأعملت وظيفتها فذلك الأثر مستند إليها على الحقيقة والواقع، لا إلى سبب غائب وأمر معقول.

أمّا المعجزات فهي عنده جارية على مجاريها الطبيعية غير خارجة عن نواميسها الأوّلية وإن كانت على خلاف العادة فيها باعتبار بعض صفاتها من سرعة وإبطاء وظهور وخفاء.

وحيث قد اتّضحت مقالة الفريقين ومزاعم الخصمين إذن فاستفتِ قلبك فيما هو الحقّ منها، كما أوعزه إليك (ابن رشد).

ولا أظنّ قلبك السليم عن غواشي الشبهات يفتيك بتلك الفوضى والشتات، ولا يذعن للحكم بقطع الصلة بين الأسباب والمسبّبات، ولا يركن إلى

تصوّر أنّ نسبة كلّ الأشياء إلى كلّ الآثار نسبة واحدة وعلى حدٍّ سواء.

كما أنّي لا أكاد أقتنع بأنّ ذلك العارف المتبحّر (أبا حامد) ممّن تعزب عنه تلك الجليّة، فيفترض أنّ نسبة الماء والنار إلى الإحراق مثلاً نسبة واحدة، ليس في طباع واحد منهما اقتضاء له ومناسبة معه، ولا في طباع الآخر منافرة عنه ومضادة له، سوى أنّ الله (تعالى) جرت عادته أن يوجد الإحراق عند ملاقاة النار لبعض الأجسام من دون أن تكون في طباعها جهة اختصاص تستدعي ذلك على خلاف طبيعة الماء.

لا جرم أن لا يكون معزى كلامه ذلك وإن كان ظاهراً فيه.

كلّا، فإنّ باب الصرف والحمل لواسع. وما أكثر ما تقصر الألفاظ عن بيان تمام المقاصد، فيكون الظاهر شيئاً والمعني غيره.

ومن السائغ أن يكون مرمى نظره ومباءة قصده إلى كون ما في الشاهد من المؤثّرات ليست هي العلّة التامّة وإن كانت مقتضية، ولكن من الجائز أن يصادف وجودها وجود المانع، فيبطل تأثيرها وإن كان حدوث ذلك المانع ليس في المشاهد المحسوس.

وكما أنّها ليست هي العلّة التامّة، فكذلك ليست هي السبب الوحيد والعلّة المنحصرة.

فالإفعى التي يكون على الغالب سبب وجودها التولّد من المثل يمكن أن يكون لها سبب آخر في المادّة يوجد في العصى أو في الطين، فتوجد بالخلق الفجائي.

وهذه هي الغاية التي يرمي إليها مناظره الفيلسوف، وتتحصّل من ملامح كلماته وإن لم تكن صريحة فيه.

وقصارى ما عندنا في حقيقة الإعجاز: أنّه ليس خرقاً في النواميس الطبيعة، وإنّما هو تصرّفٌ فيها وتدبيرٌ لها وحكمٌ عليها.

وليس من البعيد عنك ولا الشاسع عليك تصوّر ذلك بعد أن عرفت في مباحث إثبات الصانع من (الجزء الأوّل) أنّ الطبيعة محكومةٌ لا حاكمة، ومدبَّرةٌ لا مدبِّرة، ومقهورةٌ لا قاهرة[١].

وإذا كان امتلاك الشعور والإحساس بالمنوّم المغناطيسي، واستحضار الأرواح من طريق علمي، وجعل الماء جليداً جمداً بالعمل الصناعي، وحبس المطر بالصدحة، وكثير من نظائرها، كلّ ذلك ممكناً واقعاً فبالأجدر والأحرى والأحقّ والأولى أن يكون انقلاب النار برداً وسلاماً، وانشقاق البحر رهواً، وانقلاب العصا إفعى، وإبراء الأكمه والأبرص، وتسبيح الحصىٰ، وتظليل الغمامة، والإعجاز بالبيان، كلّها أيضاً من الحقائق الراهنة والأُمور الواقعة.

وإذا كانت القوى البشرية والصناعة العلمية والعملية تقدر على مثل تلك الأُمور، فبالأحقّ والأولى أن يسهل ويهون على القوى الروحية والقدرة الأزلية ما هو أعظم وأعلى من ذلك.

كيف! وما فتأت يد القدرة تنفذ مشيئتها في الطبيعة بما يُحسب أنّه خرقٌ لنواميسها ونقضٌ لمبانيها وأُسسها.

أليس بقاء السمند[ل][٢] والياقوت في النار، وابتلاع النعامة

---

(١) عرفت ذلك في ج١ ص٢٠٢ وما بعدها.

(٢) السمندل: نوع من خصيلة العظايات، وينتمي إلى الحيوانات البرمائية. له جسم إسطواني وذنب طويل وأرجل ممدودة من غير انتظام، ولا مخالب له. كما أنّه أملس لا حراشف له. ولعلّ جلده اللمّاع الذي يبدو ←

للجمر[١]، واستطابة بعض الوحش للحنظل المـهلك للإنسـان، أليس كـلّ ذلك وكثير من ضرائبه وأمثاله ممّا يعدّ في بادي الرأي أنّه خرقٌ للنواميس وفتقٌ فـي القواميس، مع أنّه واقعٌ محسوس ومعاينٌ مشهود.

وكم في حقائب الحقائق من عجائب غرائب قد حـال دونـها الجـهل ولم يصل بعد إليها العقل! ولو كشفها العلم وبلغت إليها المدارك لأنحلّت عُقَدٌ كـثيرة وهانت مصاعب خطيرة، ولظهر أنّ المعجزات من أهون ما صـنعته يـد القـدرة وأدنى ما أبدعته لباقة الحكمة.

وفي هذا القدر من البحث والبيان عن فلسفة الإعجاز غنىً وكفاية لذوي البصائر والدراية، وما التوفيق إلّا بالله.

وحيث انتهى بك السير والسبر إلى هذه المرحلة، وعلمت أنّ الله (جـلّت عظمته) لم يكن ليترك خلقه غُفْلاً، ولا ليهلكهم جهلاً، ولا ليشقيهم فـي الحـياة وحشيةً وذلّاً، ولا يدعهم كالعُجم السائمة والبُهم السارحة، بل حـتمٌ فـي لطـفه وكرمه وجميل عنايته وحكمته أن يرسل إليهم من لدنه رسلاً مكرّمين ورجـالاً صالحين ومصلحين يجلّلهم بطيلسان الحكمة ويصونهم بأبراد العصمة ويتوّجهم بتيجان الكرامة والمعجزة.

إذا علمتَ كلّ ذلك فلا أُزيدك علماً بأنّه (جلّ شأنه) قد أسدى هذه المنّة، ووفّى حقّ هذه الفضيلة، وأحسن الصنيع بتمام تلك النعمة، فلم يزل على مرور

← رطباً باستمرار هو الذي حاك حوله خرافة أنّه يستطيع النفاذ من النار دون أن يحترق، وهذا غـير صـحيح. (الموسوعة العلمية المبسّطة ٣: ٢٦٠ و ٣٩٥).

(١) للمساعدة على هضم الطعام تبتلع النعامة أحياناً صخوراً كبيرة وقطعاً من الحديد وأشياءً أُخـرى! (المـصدر المتقدّم ٣: ٤٨).

الدهور وأُلوف الأحقاب وفي ثنايا العصور في البرهة بعد البـرهة والفـترة بـعد الفترة يبتعث لإصلاح عباده وعمارة بلاده أملاكاً مقدّسين، ولكنّهم في الصـور على أزياء البشر، فيقيمون بين ظهراني الأنام يتجوّلون في الآفاق يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. سوى أنّهم يتفانون على تلك الغاية ويتهالكون فـي ذلك السبيل ويضحّون كلّ غاياتهم وأميالهم على مذبح الصالح العامّ والنفع البشري، ثمّ يخرجون من الدنيا خفافاً عـيابُهم ثـقيلة بـالحسنات مـوازيـنهم مشكـورةً مساعيهم مقدّسة آثارهم.

نظرة إجماليّة في الشرائع والأديان

ما وجد الإنسان نفسه في هذا الوجود كائناً حيّاً وهيكلاً محسوساً وشاعراً مدركاً إلّا ووجد الدين سائداً عليه منفوثاً في ضميره قائماً بوجدانه حيّاً بحياته مسوطاً بلحمه ودمه عنايةً عظمى ونعمة كبرى وحكمة باهرة لا يحيط بها الوصف ولا يأتي عليها البيان.

لم تزل للأديان السيادة في هذا الكون حتّى في أظلم عصوره وأوحش ظلماته حقّاً كانت أم باطلة، صحيحة وقعت أم فاسدة.

وكيف كان أو يكون فإنّنا نجد في دلالة العقل وبرهنة الحقيقة أنّ العناية لا تزال مصروفةً إلى صالح هذا الخلق الضعيف القوي العاجز القادر الجهول العليم الملك الكريم الوحش البهيم. ما فتأت تلك العناية التي أبرزته من خزانة الخفاء وكتم العدم تعمل في تدبيره وتسعى في صالحه، فترسل إليه من ملكوتها وخاصّة رجالاتها والمتخرّجة على روح تعاليمها سفرة بررة بأيديها صحفٌ مطهّرة، من كلّ طبيب دوّارٍ بطبّه، خبير بحزبه، مسيطر على قومه، نطاسي بدائهم وأدوائهم، واقف على كامن عللهم وخفيّات دخائلهم وغور مهالكهم، مكين من سبر أعماق جروحهم وطيّات جوارحهم. قد أحضر مراهمه وأحمى مواسمه، عرف المرض والمزاج، فهيّأ العدّة والعلاج، وجعل نفسه وقفاً على تلك الغاية ورهناً بذلك الغرض.

وكلّ ناظر في جوهريات الأديان نظرةً مجرّدة مفتكر في أُصولها بفكرة

سليمة يجدها ـ على اختلافها وتشعّباتها ـ ترمي إلى غاية واحدة ومقصد فذّ، يجدها ـ وإن تباعدت ـ متقاربة، ويعلم أنّها ـ وإن اختلفت ـ متّفقة، متصالحةً على تنازعها متلائمةً على تنافرها.

لا أُريد أن أُعيد عليك ما أفصحت عنه الصحف ونشرته لك الكتب وأنبأك به الباحثون والمنقّبون والجهابذة المصلحون من أنّ غاية الشرائع والقصد الجوهري من الأديان ما هو إلّا بثّ الفضيلة وكسح الرذيلة والتحفّظ على حياة هذه الروح الإلهية المودعة هي فيك كما هي مودعة في أخيك.

أزيدك بياناً: أنّ هذه النفحة الإلهية التي أنت بها حيّ بل أنت بها إنسان ليست هي وحدها وديعة الله عندك وأمانته لديك، بل هي سواء وروح أخيك التي هي شعبةٌ من دوحك وشظيّةٌ من لوحك وسلالةٌ من ينبوعك وفصيلةٌ من قطيعك. فهما جوهرتان في يدك، وأنت بهما مطالب وعنهما معاً مسؤول.

ليس الغرض من الأديان والشرائع إلّا سعادة هذه الأرواح وصونها من أن تُزهق ظلماً، أو أن توسع هضماً، أو تبقى سادرة[1] هاملة تعيسة جاهلة محرومة من كرامة العلم وشرف المعرفة، بل لتعيش سعيدة وتحيا حياة كريمة وتنتقل إلى عيش أهنى ومقام أسنى.

كما لا تزال تنتقل بها العناية من عالم إلى خيرٍ منه، ومن مكان إلى أفسح منه .. من العدم إلى الوجود، من الصلب إلى الرحم، من الرحم إلى هذا الفضاء الفسيح والكون الوسيع.

وعساها تنتقل إلى ما هو أوسع منه وأهنى وأسمى وأسنى.

---

(١) السادر: الذي لا يهتم لشيء ولا يبالي ما صنع، والسدر: عدم الإبصار. (تهذيب اللغة ١٢: ٢٤٧ـ٢٤٨).

ما الأديان والشرائع إلّا وسائل وذرائع لتهذيب البشر من الشرّ وطبعهم على الخير، وأن يعيش الإنسان مع أخيه الإنسان بالسلم والموادعة والحسنى والمجاملة وإن تنوّعت جلدتهم واختلفت منازعهم.

فإن قضت لهم البواعث والدواعي دعوة أحدهم غيره إلى ما هو عليه ممّا يعتقده صواباً ويراه لنفسه ولغيره صلاحاً فليكن دعاؤه عن خالص نصيحة وشفقة صحيحة، ودافع حنان ورحمة، قولاً ليّناً وبُشراً بيّناً، ومجادلة ـ كما أمر الله[1] ـ بالتي هي أحسن.

وبالجملة: أعود ثانياً فأقول ما قلته أوّلاً: الدين ـ بعد معرفة صانعك وما أراد بك ومنك ـ هو: أن ترى كلّ روح هي روحك، ولكن في غير جسدك، فاعمل لروحك ما تحبّ أو دَع.

ولو نفّست عن اليراع أن يجري في هذه الحلبة ليأتي من كلّ دين وشريعة بشاهد أو شواهد على أنّ هذا هو جوهرها المجرّد وحقيقتها الضائعة وضالّتها المنشودة وغايتها المقصودة والذي لا توعز إلّا إليه ولا تدلّ إلّا عليه، لوفىٰ واستوفىٰ وانكفأ وما استكفى.

ولكنّي لا أُريد أن أُطيل عليك بما هو جليٌّ لديك، إن لم تكن محيطاً بكلّه فما أحطت به منه مقنعٌ لك ودليلٌ على ما سواه.

وإنّما أُريد أن أقف معك على ضفاف هذا المنهل الرائق والمورد العذب، ونقضي العجب في أنّه كيف تحوّرت الأديان عن صبغتها الأُولى، وتحوّلت صورتها عن حقيقتها الجوهرية، وبرز أهلها على غير شاكلتها، ونهجوا على ضدّ

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. (سورة النحل ١٦: ١٢٥).

مشاريعها ومناهجها، فنثروا في الصدور بذور الأضغان وتنابذوا باسم الأديان، فصار يقتل بعضهم بعضاً، ويستحلّ قومٌ دم آخرين، فحوّلوا الفضيلة رذيلة، والمجاملة مخاتلة، والموادعة مخادعة، والحسنة فحشاء، والحبّ بغضاء؛ إزهاقاً لتلك الروح الإلهية واللطيفة القدسية، وإماتةً لعواطف إخوانهم في البشرية.

كلّ ذلك بصبغة المحاماة والنصرة للدين، والدين يضجّ إلى الله والحقيقة من هذه الفظائع، ويبرأ من مثل هذا المحامي والحميم براءة التحريم.

يشهد الله والأديان أنّها ما أساغت بحالٍ سفك الدماء وإزهاق النفوس، وإنّما أوجبت الدفاع، وحفظ الكيان، ودرء الشرور، وحياطة الجامعة عمّا يتهدّدها من الأخطار وينذرها بالتلاشي والانحلال، كما سندلّك على ذلك في موضعه بعون المشيئة (تعالى شأنها).

وهذه نفثةٌ جرى بها القلم، وما كانت من القصد، وإنّما المعني بالبيان: أنّ التاريخ جمع فأوعى، ولكن ضاق وسعه وقصر شوطه عن إحصاء كلّ ما هبط على هذا البسيط من الشرائع الإلهية على أُوليات الدهر وغوابر الأزمان، بعد علمنا أنّ الدين حليف الإنسان قد وجد مع إيجاده وسوف لا يزول إلّا بزواله، ولكن معهد التاريخ ما أتحفنا بما يوسعنا علماً ومعرفة بتفاصيل تلك الشؤون إلّا ما نتطلّعه من وراء مساتيره ومن خلال ثناياه وأطراف زواياه كأشباح ضئيلة وأفلاذ متبعثرة.

فمن الأديان ما انطمس ودرس ولم يبق في العالم من ينتسب له ويعتزي إليه، ومنها ما لم يبق منه سوى الاسم والنحلة، أمّا الحقيقة فلا عين منها ولا أثر.

ولعلّ من ذلك المذاهب التي نشأت في غير آفاقنا ونبعت في محيطٍ سوى

محيطنا من أقصى الهند أو الصين أو غيرهما، وتلك كمذهب (برهما)[١]، و(بوذا)[٢]، و(كونفوشيوس)*، وكثير من أضرابهم ممّن تؤثر عنهم حِكم عالية وأفكار سامية وأخلاق فاضلة وحنان على كلّ البشر وجعلهم من معرض الرحمة في درج واحد[٣].

أمّا الشرائع التي أشرقت في آفاقنا وانبسطت أضواؤها على محيطنا وبزغت شموسها في وسطنا فهي وإن كانت على جانب من الوفور والكثرة، ولكن أهمّها حياةً وأقدمها عهداً وأبقاها أثراً وأحظاها بالعلم والتاريخ وأوقفنا

---

(١) براهما عند البراهمة هو: الإله الموجود بذاته الذي لا تدركه الحواس ويدركه العمل، وهو مصدر الكائنات كلّها، وهو الأصل الأزلي المستقلّ الذي يستمدّ العالم وجوده منه. وهو يشترك مع فشنو (الإله الحافظ) وسيفا (الإله الملاشي) في تأليف الثالوث الهندوسي.

(المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٥٣ ـ ٥٥، المنجد في الأعلام ١٢٣).

(٢) سدهارتا جوتاما الملقّب ببوذا، أي: العالم أو المنوّر، ويلقّب كذلك بسكياموني، أي: المعتكف، من حكماء الهند ومؤسّس الديانة البوذية. نشأ في بلدة على حدود النيبال، وكان أميراً فشبّ مترفاً في النعيم، وتزوّج في التاسعة عشرة من عمره ورزق بولد اسمه راهولا، ولمّا بلغ السادسة والعشرين هجر زوجته وملكه منصرفاً إلى السياحة والزهد والتأمّل في الكون ورياضة النفس، وعزم على تخليص الإنسان من آلامه التي منبعها الشهوات، فتبعه كثير من الناس منهم زوجته وابنه، توفّي في قرية كوسيناهرا سنة ٤٨٣ ق.م.

(تاريخ المعتقدات ٢: ٧٨ ـ ٨٨، المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٧٥ ـ ٧٨، الموسوعة الميسّرة في الأديان ١٠٧).

(*) ليس من الشطط احتمال أن يكون هؤلاء من المرسلين والأنبياء لهم غير هذه الأسماء في الكتب الإلهية، كشيث وإدريس ونظرائهم من شيوخ الأنبياء وأوائل المرسلين، وتكون شرائعها قد دخلها التغيير والتبديل، كما دخل غيرها من الشرائع. (منه ﷺ).

(٣) لمراجعة بعض الأُمور المتعلّقة بهذه المذاهب لاحظ: تاريخ المعتقدات ٢: ٢٢ ـ ٢٥ و٤٧ ـ ٧٤ و٧٧ ـ ٨٨ و٢٣١ ـ ٢٤٧، المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٥٣ ـ ٥٦ و٩٧ ـ ٩٩، الموسوعة الميسّرة في الأديان ١٠٧ ـ ١١١ و٤١٧ ـ ٤٢٧.

منها على أكثر الشؤون والأحوال هما الشريعتان الكريمتان: شريعتا التوراة والإنجيل المقدّسين.

[أحوال بني إسرائيل]

اصطفى الله خليله (إبراهيم)، ثمّ بارك في نسله أولاداً وأحفاداً، وجعل منهم صفيّه (إسرائيل) أبا الأسباط، وجعل فيهم الملك والنبوّة، وأورثهم العلم والحكمة، حتّى ملكوا مصر وسوريا والعراق، وانتقلوا من البدو إلى الملك، ومن الحصير إلى السرير، وانتشر إذ ذاك بنو إسرائيل وصاروا أُمّة من الأُمم وكبير حزب من الأحزاب، فيهم الوصاية والنبوّة والقضاء والحكمة، وما فتأوا أن انتقلوا إلى مصر وزراء وملوكاً بعد أن كانوا خولاً ومماليك.

ثمّ ما أغبّت الأيّام إلّا وعادوا في أسر الفراعنة واستعبدتهم الجبابرة يسومونهم سوء العذاب، يقتلون الأبناء ويستحيون النساء، حتّى أدركت العناية ذلك الشعب التعيس، فأرسلت من يفكّه من الأسر ويحرّره من ذلّ العبودية ويخلّصه من أشراك الهوان، فنبغ من بينهم ذلك الأيّد النبي الكريم (موسى بن عمران) على رغم مساعي (أمينوفيس)[1] فرعون ذلك العصر الذي وضع المراصد والربايا وأسهر عيون الحراسة على ذبح كلّ مولود من الأسباط، فما أحسّ إلّا وصنيعته (موسى) قد أصحر بارزاً تلقاء وجهه، يغلظ له القول، ويتنمّر عليه في المكاشفة، ويدعوه إلى الإذعان له والدخول تحت طاعته وتخليص

(١) أمينوفيس أو أمينحوتيب اسم لأربعة فراعنة من السلالة الثامنة عشرة في مصر، والتي حكمتها من سنة ١٥٧٠ إلى سنة ١٠٨٠ ق.م، تبتدئ بأحمس الأوّل، وتنتهي بحور محب. (مصر الفرعونية ٢٧ و ٢٧٥ ـ ٣٣٥، المنجد في الأعلام ٧١).

شعب إسرائيل من مخالب استعباده.

وما أزف ذلك المخلّص أن أغرق (فرعون) وقومه في بحر طغيانه، وأهلكه بتيّار عدوانه، وخلفه في دار ملكه وسلطانه.

وما دارت الدوائر حتّى اجتمع لبني إسرائيل الملك والنبوّة والملّة والدولة والحكم والحكمة، وملك أوصياء (موسى) الأرض المقدّسة وانبسط باع سلطانهم إلى ملك الآشوريين من بابل بعد مصر وفلسطين، وأصبح شعب إسرائيل دولة من دول العالم ومملكة من ممالك الأرض.

ولكن ما لبثت غير قليل حتّى دالت الدول وحالت الأحوال وفسدت الأخلاق، وركنوا إلى الترف والنعيم، وأخلدوا إلى الملك والسلطان، وشبّت بينهم نيران الحروب، وسُفكت فيهم الدماء في سبيل الاستئثار والغلبة.

بيد أنّهم لم يعدموا في أُوليات ملكهم ملوكاً صالحين لهم حظٌّ من الوحي والنبوّة.

كان أوّلهم (شاول) الموسوم في الفرقان باسم: (طالوت)[1]، ثمّ ملك بعده (داود)، ثمّ ابنه (سليمان)، ثمّ وارثه الفذّ (رحبعم)، ومنه دبّ سوس الفساد، وطلعت طلائع الشرّ على ملكهم وأخذ يتلاشى والفتن فيه تتفاشى، فغيروا وبدّلوا وحرّفوا وأوّلوا، وخالفوا شريعتهم، وجاهروا بالخنا[2] والخلاعة، وعادوا إلى عبادة الأصنام على أشنع وجوهها، فنصبوها في بيت الربّ أرباباً وتشيّعوا لها أحزاباً.

---

(١) قال (تعالى): ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾. (سورة البقرة ٢: ٢٤٧).

(٢) الخنا: الفحش. (القاموس المحيط ٤: ٣٢٧).

وما برحوا على ذلك حتّى سلّط الله عليهم عباداً أُولي بأس شديد، وهم الكلدانيّون، وفي مقدّمتهم بخت نصّر (نبوخذ نصّر)[1]، ففعل بهم ما لم تفعله الفراعنة بأسلافهم، فجعلهم جذاذاً[2]، وأحرقهم أحياءً، وصار يعاقب عليهم الكرّة بعد الكرّة، ويغزوهم في بلادهم من فلسطين مرّة إثر مرّة.

وأعظم ما هنالك بليّة أنّه أحرق كتبهم المقدّسة وهياكلهم المعظّمة، واكتسح أُورشليم (بيت المقدس)، وفرّقهم في الأرض عباديد[3]، وردّهم بعد الملك ـ وهم الأحرار ـ كالعبيد.

ولم تزل الملوك من بعد هذا الطاغية تسير بهم في أوعر السبل وأخشن المسالك، تسومهم الهوان والخسف وتجرّعهم مصبّرة الحتف، وضُربت عليهم الذلّة والمسكنة، حتّى أمعنت بهم أرجلهم في الهرب من الرهب، وتفرّقوا أيدي سبأ[4] في شاسعات البلاد وزوايا الأرض أوزاع مشتّتين خلف كلّ باب من عمران أو يباب[5]، طوى الدهر عليهم ما يناهز العشرة قرون وهم على ذاك ومثله.

---

(١) نبوخذ نصّر أو بخت نصّر ملك بابل المعروف، كان نائباً للملك لهراسف ملك الفرس، ولم يكن ملكاً مستقلاً، وكان محبّاً للعلم مقرّباً للعلماء والحكماء سفّاكاً للدماء، وفي السنة الرابعة من ملكه سار بالجيوش إلى الشام وغزا بني إسرائيل، لما حصل منهم من فعل القبيح والتغيير والتبديل، فسباهم السبي المعروف بالسبي البابلي، ثمّ غزاهم مرّة أُخرى وخرّب بيت المقدس وسباهم كذلك، ومن الأنبياء الذين كانوا في زمنه: دانيال، وحزقيل، وأرميا عليهم السلام. هلك سنة ٥٦٢ ق.م ببعوضة دخلت دماغه على ما قيل.

(الأُنس الجليل ١: ١٤٨ ـ ١٥٤، المنجد في الأعلام ٥٧١).

(٢) الجذاذ: قِطَع ما كُسِرَ. (العين للفراهيدي ٦: ١١).

(٣) العباديد: الفرق من الناس الذين يذهبون في كلّ وجه. (صحاح اللغة ٢: ٥٠٤).

(٤) راجع مجمع الأمثال ١: ٣٨٤.

(٥) أرض يباب، أي: خراب. (القاموس المحيط ١: ١٤٦).

وحين بلغ الأمر إلى غايته وانتهى بهم البلاء إلى تخوم شدّته تحرّكت لهم عواطف الرحمة وأدركتهم عوارف العناية، فأرسات منهم إليهم نفحة من روحها وكلمة من كلماتها وملاكاً بشرياً من ملكوتها: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾[1].

تجسّد هذا الروح الإلهي وأشخص بنفسه إليهم؛ ليجمع كلمتهم، ويلمّ شعثهم، ويعيد مجدهم، ويحيي موتى جهلهم، ويبرئ الأكمه والأبرص من تقاليدهم وعاداتهم.

فكان من أمره ما هو قيد يدك ومدّ نظرك و(بمطلع الأكمة منك)*.

والقصارى: أنّ في القرون التي تتّصل بعصورنا هذه قد كان السائد من الأديان والمنتشر بين من نعرفه من البشر هو تانك الشريعتان، وهما الشائعتان عند أكثر الأُمم بأنّهما خاضعتان لعبادة إلهٍ واحد ومعبود فرد مقدّستان عن شرّ الشرك وأرجاس الوثنية مترفّعتان عن السجود لغير الخالق الحقّ الحيّ الأحد.

[ديانة عرب الجاهليّة، وذكر بعض أحوالهم الاجتماعيّة]

أمّا العرب فقد كان في قبائلها وأفرادها من تلك الديانتين حصّةٌ ليس بالقليلة، غير أنّ الشائع الفاشي والمذهب الأغلب الذي يعرف العرب به سائرُ الأُمم وينتمي إليه عامّتهم وخاصّتهم وأكثر قبائلهم وعمائرهم هو دين الحنيفية دين جدّهم (إبراهيم) وأبيهم (إسماعيل) الذي هو أحقّ وأعرق بالتوحيد ممّا

---

(١) سورة النساء ٤: ١٧١.

(*) مثل من من أمثال العرب، يضرب للأمر الجلي الواضح العتيد الحاضر. (منه ﷺ).

لحقه وتعقّبه.

بيد أنّ أصل الدين كلّه متّحد الجوهر وإن اختلف المظهر.

الأديان كلّها متّحدة الحقيقة وإن اختلفت الطقوس والطريقة.

الأديان كلّها واحدة تدعو إلى عبادة الواحد لا تختلف في المبادي ولا الغايات، وإنّما اختلافها في ما يناسب البيئة والأُمّة من القوانين والمشروعات.

ودين الحنيفية هو دين التوحيد وإن أُدخلت فيه الجاهلية ضدّه من عبادة الأصنام، ولكن هذه الدخيلة بل الرذيلة كانت كاسمها جاهليةً، هم يعترفون أنّها ليست من دين آبائهم بشيء، وإنّما وجدوها عند بعض الأُمم فقلّدوها، ثمّ فشا ذلك فيهم حتّى بلغ أقصى مبالغه وأبعد غاياته.

وأنت تعرف ما للتقليد من النفوذ في النفوس وسريانه في أكثر الأشياء ولا سيّما في العقائد والطقوس.

بيد أنّ العرب وإن مسخوا ونسخوا ذلك الدين المقدّس، ولكن بقيت منه فيما بينهم بقايا تستنير في مدلهمّات كفرهم ومحلولك[1] عاداتهم استنارة الثواقب في أديم الليل البهيم[2].

فكانوا يحجّون البيت الحرام، ويعظّمون قبل النسيء حرمة الأشهر الحُرم، ويختتنون، ويفترضون الغسل من الجنابة، ويعافون الدم ولحم الخنزير، ويبيحون التزوّج بأكثر من واحدة، ويفسخون عقد الزواج بالطلاق[3]، إلى كثير من أمثال ذلك من الآداب وكرائم العادات، كإكرام الضيف، وحفظ الذمار،

---

(١) الحَلَك: شدّة السواد. (تهذيب اللغة ٤: ٦٣).

(٢) ليل بهيم: لا ضوء فيه إلى الصباح. (المصدر السابق ٦: ١٧٨).

(٣) لاحظ بلوغ الإرب ٢: ٤٩ و١٩٥ و٢٢٤ و٢٨٧ ـ ٢٨٩.

وحماية الجار، والوفاء بالذمم، والشجاعة، والكرم، وعدّة من هذه الفضائل التي هي تمام محاسن الأخلاق ومن أهمّ ما تتحرّاه الأديان للإنسان وما تحرص أن يكون متخلّقاً بها منطبعاً عليها.

وكلّ تلك الأعمال والخلال والعادات والعبادات قد ورثوها من أنبيائهم وآبائهم (إبراهيم) و (إسماعيل) لم تزل تنتقل في سلائلهم وقبائلهم وكبار أشياخهم وخلفهم من قحطان، وعدنان، ومعدّ، ونزار، وفهر، وكنانة، وأمثال هؤلاء من رؤوس القبائل ومبادئ السلائل*.

(*) إنّ من الغريب أنّ بعض كتّاب المسيحيّين من أرباب الصحف السيّارة قد فتح في مجلّته باباً متتابعاً حاول فيه إثبات أنّ العرب كانوا كلّهم أو جلّهم نصارى، وأتى على ذلك بدلائل أوهى من أسلاك الهبا وأبرد من ريح الصبا! ركب عشواء في شعواء، وخبط خبط الأعشى في الظلماء! يحكم على القبيلة بحكم الفرد، وعلى الفرد ببيت من أشعاره فيه ذكر الصليب أو ذكر الكنيسة أو المسيح أو غير ذلك ممّا لا يختصّ الكثير منه بالنصارى، وعلى تقدير الاختصاص فلا يمتنع ذكره لأغراض أُخر غير الدين.

وأنت جدّ خبير أنّ الشعر لا يثبت المذهب على الأغلب، إلّا إذا وقع على القصد والعناية لذلك.

وإلّا فتنصّر (قيس بن زهير العبسي) لا يقضي ولا يشعر بنصرانية كلّ بني عبس.

وقول (النابغة):

ظلّت أقاطيع أنعام مؤبّلة لدى صليب على الزوراء منصوب

لا يقضي بتنصّره في ذاته فضلاً عن نصرانية كلّ بني ذبيان، سواء أراد بالصليب العلم أو الصليب المعروف.

كما أنّ وجود بعض الأديرة في ديار بعض قبائل (طي) لا يقضي بتنصّر كلّ قبائلها.

وتنصّر (ورقة بن نوفل) لا يستلزم تنصّر بني (أسد بن عبد العزّى) فضلاً عن قبائل قريش.

فهل يحسن بهذا أن يعقد الكاتب عنواناً لوجود النصرانية في مكّة وفي قبائل قريش؟!

والأعجب من ذلك الاستدلال على هذه المزعمة بوجود صور الشجر والملائكة و (إبراهيم) و (عيسى) في الكعبة، وأنّ النبي (صلوات الله عليه) أمر أن تمحى جميع الصور إلّا صورة (عيسى) عليه السلام!

وما أعرف ما وجه الدلالة في ذلك؟! وهل وجود صورة أحد المشاهير في بيت الإنسان يدلّ على أنّه مدين ←

. . . .

← به؟!

على أنّ العرب وإن كانت حنيفية، ولكنّها ما كانت لتنكر فضل (عيسى) عليه السلام ولا لتجهل مقامه، كما لا تجهل فضل (موسى) عليه السلام والأسباط.

وهذا لا يصيّرها يهودية أو نصرانية وإن حلفت به أو بصليبه أو رسمت صورته.

ومن الظريف إيراده قول (أيمن بن خريم) في وصف الخمرة:

وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ولم تنغر بها ساعة قدر

ولم يشهد القسّ المهيمن نارها طروقاً ولا صلّى على طبخها حبر

فقال: (إنّ المراد بالخمرة: قربان النصارى، والحنيف هو: الراهب) إلى آخر ما ذكره.

وهذا كما يحكى في النوادر من تفسير ذلك الأعرابي لقول (الفرزدق):

بيتاً زرارة محتبٍ بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

إنّ البيت هو الكعبة، وزرارة الحجر الأسود، ومجاشع بئر زمزم! ثمّ سئل عن نهشل، فتأمّل ملياً، وقال: (هو القنديل المعلّق في وسط الكعبة).

وبالجملة: فمن يراجع ما سرده في تلك المقالات المتتابعة يجد من الغرائب ما يضحك الثاكل ويثير تعجّب كلّ عاقل، وله كثير من هذه التمويهات في كتابه (شعراء النصرانية).

ولكن ممّا يثير الأسف على ضياع العلم وكساد الحقائق وترويج الأباطيل استشهاده بكلمات (عبد المسيح الكندي) في رسالته إلى (الهاشمي) في أيّام (المأمون).

وما كنّا نظنّ أنّ مثل ذلك الكاتب المعني بطلب الحقائق يغالط على نفسه أو على البسطاء بمثل هذه المغالطة.

كيف! وهو وكلّ من له أدنى حظٍّ وإلمام من التاريخ يعلم أنّ هذه رسالة مجعولة، وأنّها من مفتريات هذه العصور، وأنّ (عبد المسيح) هذا و (الهاشمي) ذاك ما كانا إلّا كأبي زيد السروجي والحارث بن همام في أقاصيص (الحريري) و (الهمداني).

وسيأتي التنبيه والإشارة لهذا في أُخريات هذا الجزء إن شاء الله.

وعلى أيٍّ، فنحن وإن كنّا نرى أنّ مزعمة نصرانية أكثر العرب وهم حائل وشبح خيال زائل وأنّ حججها داحضة ودلائلها مدخولة، ولكنّنا لا ننكر أنّ في العرب كثيراً من النصارى قبائل وأفراد وجماعات وآحاد.

بيد أنّنا لا نستيقن أنّ النصارى كانوا في العرب أكثر من اليهود.

وسواء كانوا أقلّ أم أكثر، فليس لذلك الكاتب منهم حظٌّ ولا نصيب، سوى أنّه قد حلب حلباً ليس له ولا شطره،

←

. . . .

← وعانى أمراً إذا تمّ تعدّاه فخره.

إنّ جلّ نصارى العرب أو كلّهم قد كانوا (يعاقبه) و (نساطره) وأمثالهما ممّا يبتعد عن الكثلكة أشدّ التباعد، وكانت نصرانية العرب أبسط مذاهب النصارى وأقربها إلى المعقول وأنسبها لبساطة طباعهم، وقد كانت مقالاتهم في (المسيح) عليه‌السلام طبق ما أنبأ عنه الإسلام.

وضربة العربي على عرنينه أهون عليه من تكليفه الإيمان بسرّ الثالوث، وأنّ الواحد ثلاثة، وأن ياكل الخبزة على أنّها لحم المخلّص، ويشرب الخمرة على أنّها دمه! ونظائر هذا ممّا ليس القصد في الحاضر إلى بيانه.

وإنّما الكلمة التي أردنا بيانها وتسجيلها على الاستطراد هي: أنّ المذهب العامّ في العرب قبل الإسلام ما هو إلّا ما أنبأنا عنه من مذهب الحنيفية مذهب (إبراهيم) و (إسماعيل) الذي بقي عندهم كثير من نواميسه وشرائعه التي عرفتها، ودخله كثير ممّا ليس منه شأن سائر المذاهب والأديان التي يمرّ عليها تطاول القرون والأزمان.

وقد صرّح كثير من العرب بذلك:

قال (أبو قيس الأسلت):

فلولا ربّنا كنّا يهوداً … وما دين اليهود بذي شكول

ولولا ربّنا كنّا نصارى … مع الرهبان في جبل الجليل

ولكنّا خلقنا مذ خلقنا … حنيف ديننا عن كلّ جيل

ولو أردنا إثبات هذه الجلية لأتينا من الحجج الدامغة والبراهين الساطعة ما لا يحجبه أكثف الحجب والمساتير.

وسيأتي من حديث (زيد بن عمرو بن نفيل العدوي) ونظرائه ما فيه بعض الدلالة على ذلك، ونتعرّض لاستيفاء المسألة هنالك، والله المستعان على إصابة الواقع ونصرة الحقائق إن شاء الله.

أقول: قوله رحمه‌الله: (بعض كتّاب المسيحيّين من أرباب الصحف السيّارة) مقصوده: الأب لويس شيخو المتوفّى سنة ١٩٢٨ في مجلّته: (المشرق) التي أنشأها سنة ١٨٩٨ م.

وهاك ترجمته: الأب لويس شيخو، أحد أبرز أعلام النهضة الحديثة في الأدب، ولد في ماردين سنة ١٨٥٩ م، ودرس في مدرسة الآباء اليسوعيّين في بلدة غزير (لبنان)، وأتمّ تحصيله العالي في فرنسا، ثمّ عيّن مدرّساً للعربية في المدرسة اليسوعية التي انتقلت من غزير إلى بيروت سنة ١٨٧٥ م، وفي أثناء تدريسه راح يكتب ويؤلّف ويحيي بعض الآثار العربية القديمة وتاريخ الشرق العربي والمسيحي. وقد أنشأ سنة ١٨٩٨ م مجلّة (المشرق)، كما أنشأ المكتبة الشرقية في الجامعة اليسوعية. من جملة مؤلّفاته: الآداب العربية في القرن التاسع عشر، شعراء النصرانية بعد الإسلام. توفّي سنة ١٩٢٨ م.

←

. . . .

← (الأعلام للزركلي ٥: ٢٤٦، الجامع في تاريخ الأدب العربي الحديث ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

وقوله: (قيس بن زهير العبسي) فهاك ترجمته: أبو هند قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي، أمير عبس وداهيتها وأحد السادة القادة في عرب العراق، كان فارساً شاعراً خطيباً داهية يضرب به المثل، فيقال: أدهىٰ من قيس، وكان يلقّب بقيس الرأي؛ لجودة رأيه. ورث الإمارة من أبيه، واشتهرت وقائعه مع بني فزارة وذبيان. خرج على وجهه بعد تركه الحرب ولحق بالنمر بن قاسط، وتزوّج منهم وأقام عندهم مدّة، ثمّ رحل إلى عُمان، وعفّ عن المآكل حتّىٰ أكل الحنظل، وما زال بها إلى أن مات سنة ١٠ هـ.

(سمط اللآلي ٥٨٢ و٨٢٣، خزانة الأدب ٨: ٣٧٥ ـ ٣٧٦، الأعلام للزركلي ٥: ٢٠٦).

وقوله: (النابغة) فهاك ترجمته: أبو أُمامة زياد بن معاوية بن ضباب الغطفاني المضري المعروف بالنابغة الذبياني، شاعر حجازي جاهلي من الطبقة الأُولى. كانت تضرب له قبّة من جلد أحمر بسوق عكاظ، فتقصده الشعراء وتعرض عليه أشعارها، وممّن كان يفعل ذلك عنده: الأعشىٰ وحسّان بن ثابت والخنساء، وكان أبو عمرو بن العلاء يفضّله على سائر الشعراء. والنابغة أحد أشراف الجاهلية، وكان حظياً عند النعمان بن المنذر حتّىٰ شبّب في قصيدة له بالمتجرّدة زوجة مخدومه، فغضب النعمان، وفرّ النابغة ووفد على الغسّانيين بالشام، وغاب زمناً، ثمّ رضي عنه النعمان، فعاد إليه. شعره كثير، جمع بعضه في ديوان صغير، وكان أحسن الشعراء ديباجة لا تكلّف في شعره ولا حشو، وعاش عمراً طويلاً حتّى توفّي سنة ١٨ ق. هـ.

(الأغاني ١١: ٣ ـ ٣٦، سمط اللآلي ٥٨ و ٧٩، خزانة الأدب ٢: ١٢٢ و٣: ١٥ و١٨، الأعلام للزركلي ٣: ٥٤ ـ ٥٥).

وأمّا قول النابغة الذي نقله المصنّف ﵀ فلاحظه في ديوان النابغة الذبياني ٣٨.

وقوله: (ورقة بن نوفل) فهاك ترجمته: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّىٰ القرشي، حكيم جاهلي معروف، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، وامتنع من أكل ذبائحها، وتنصّر، وقرأ كتب الأديان، وكان يكتب اللغة العربية بالحرف العبراني، أدرك أوائل عصر النبوّة ولم يدرك الدعوة، وفي المؤرّخين من يعدّه في الصحابة حتّى إنّ برهان الدين إبراهيم البقاعي الشافعي ألّف تأليفاً في إيمان ورقة بالنبي ﷺ وصحبته له، سمّاه: (بذل النصح والشفقة للتعريف بصحبة السيّد ورقة). وكان ابن عمٍّ للسيّدة خديجة (رحمها الله). ولورقة شعر سلك فيه مسلك الحكماء. توفّي نحو سنة ١٢ ق. هـ، وقيل غير ذلك في سنة وفاته.

(المعارف ٥٩ و٢٤٥، الأغاني ٣: ١١٣ ـ ١١٦، الروض الآنف ١: ٢١٦ ـ ٢٢١، أُسد الغابة ٥: ٨٨ ـ ٨٩، خزانة الأدب ٣: ٣٦١ ـ ٣٦٧، الأعلام للزركلي ٨: ١١٤ ـ ١١٥).

←

. . . .

→ وقوله: (أيمن بن خريم) فهاك ترجمته: أيمن بن خُريم بن أخرم بن شدّاد بن عمرو بن الفاتك الأسدي. أسلم يوم الفتح وهو غلام يفاع. روى عن: أبيه، وعمّه، وهما بدريان. وروى عنه الشعبي. نزل الكوفة، وكان شاعراً محسناً، وبه برص. كان من ذوي المكانة عند عبد العزيز بن مروان بمصر، ثمّ تحوّل عنه إلى أخيه بشر ابن مروان بالعراق. وكان يشارك في الغزو، وله رأي في السياسة. عرض عليه عبد الملك مالاً ليقاتل ابن الزبير بالحجاز، فأبىٰ ذلك. توفّي نحو سنة ٨٠هـ.

(الأغاني ٢٠: ٢٦٩ـ٢٧٨، الاستيعاب ١: ٢١٧ـ٢١٨، الكاشف للذهبي ١: ١٤٤، إكمال تهذيب الكمال ٢: ٣١٠ـ٣١٢، تقريب التهذيب ١: ١١٥، خزانة الأدب ٨: ٣٤١، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ٣: ١٩٠ـ١٩٢).

وأمّا قول أيمن بن خريم المنقول هنا فقد نُسب إليه في: الأغاني ١٧: ١٦٧، أمالي القالي ١: ٧٨، البصائر والذخائر ٤: ٨٣.

وقد نُسب القول للأُقيشر في العقد الفريد ٨: ٧٦.

وفي سمط اللآلي (٢٦١): (والصحيح أنّ هذا الشعر للأُقيشر كذلك. قال ابن قتيبة وغيره: هو ثابت في ديوان شعره).

مع العلم بأنّ البيت الثاني فيه كلمة قد وردت في المصادر المزبورة بلفظ: (المهينم) لا (المهيمن)، والمهينم: القارئ بصوت خفي.

وقول المصنّف رحمه الله: (الفرزدق) فهاك ترجمته: أبو فراس همّام بن غالب بن صعصعة بن ناجية التميمي المعروف بالفرزدق، والفرزدق الغليظ الوجه، من أشهر الشعراء. كان جدّه يسمّى: محيي المؤودات، وفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأسلم، ووفد أبوه على علي عليه السلام بصحبة ابنه الفرزدق، وكان شيعياً مائلاً لبني هاشم، وله الأبيات المشهورة في زين العابدين عليه السلام، قالها بمسمع من هشام بن عبد الملك في أيّام الحجّ، وله مع جرير النقائض المعروفة. توفّي بالبصرة سنة ١١٠هـ.

(طبقات الشعراء لابن سلّام ١١١ـ١٢٣، الأغاني ٢١: ٤٠٠ـ٤٠٢، معجم الأُدباء ١٩: ٢٩٧ـ٣٠٣، وفيات الأعيان ٦: ٨٦ـ١٠٠، معاهد التنصيص ١: ٤٥ـ٥١، شذرات الذهب ١: ١٤١ـ١٤٤، هدية العارفين ٢: ٢١٠، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١: ٢٠٩ـ٢١٤).

والبيت المنقول عن الفرزدق موجود في ديوانه ٤٣٢، وحكاية الأعرابي تجدها في العقد الفريد ٢: ٢٥.

وقوله رحمه الله: (له كثير من هذه التمويهات في كتابه: شعراء النصرانية) راجع: شعراء النصرانية قبل الإسلام ٨٩ و٦١٦ و٦٤٠ و٧٩٤، شعراء النصرانية بعد الإسلام ١٣٦.

←

. . . .

← أمّا قوله ﷺ: (عبد المسيح الكندي في رسالته ...) فراجع ما ذكره الشيخ (البلاغي) ﷺ حول هذه المسألة في كتابه: الهدى إلى دين المصطفىٰ ٢٥٩ وما بعدها.

وقوله: (كأبي زيد السروجي والحارث بن همام...) هذان شخصيتان خياليتان تقومان مقام الراوي لهذه الأقاصيص المذكورة في المقامات. مع العلم بأنّ الراوي في مقامات الهمذاني هو عيسىٰ بن هشام. راجع الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم ٦٢٦.

وقوله: (الحريري والهمداني) فهاك ترجمتهما: أبو محمّد القاسم بن علي بن محمّد بن عثمان الحريري البصري، أحد أئمّة عصره وصاحب المقامات الحريرية. ولد سنة ٤٤٦ هـ بالبصرة، ونسبته إلى عمل الحرير أو بيعه، وكان ينتسب إلى ربيعة الفرس، وكان دميم الصورة من ذوي اليسار. استدعاه وزير المسترشد أبو علي الحسن بن صدقة للإنشاء، فلم يفلح. له ديوان شعر وديوان رسائل، ومن جملة مؤلّفاته: المقامات، درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ، مُلحة الإعراب، توشيح البيان. توفّي بالبصرة سنة ٥١٦ هـ. أمّا مقاماته فقد ترجمت إلى اللاتينية والألمانية والإنجليزية وغيرها.

(وفيات الأعيان ٤: ٦٣ ـ ٦٧، مرآة الجنان ٣: ١٦٣ ـ ١٦٨، خزانة الأدب ٦: ٤١٨ ـ ٤١٩، نزهة الجليس ٢: ٣ ـ ٧، دائرة المعارف الإسلامية ٧: ٣٦٥ ـ ٣٦٧، الأعلام للزركلي ٥: ١٧٧ ـ ١٧٨).

أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيىٰ بن سعيد الهمذاني المعروف ببديع الزمان، صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة، وهو أحد الفضلاء الفصحاء. روى عن أبي الحسين أحمد بن فارس وعن غيره. وكان ساكناً هراة من بلاد خراسان سنة ٣٨٠ هـ، ثمّ ورد نيسابور سنة ٣٨٢ هـ، فسكنها ولقي فيها أبا بكر الخوارزمي، فشجر بينهما ما دعاهما إلى المساجلة، فطار ذكر الهمذاني في الآفاق، ولمّا مات الخوارزمي خلا له الجوّ، فلم يدع بلدة من بلدان خراسان وسجستان وغزنة إلّا دخلها، ولا ملكاً ولا أميراً إلّا فاز بجوائزه. كان قوي الحافظة يضرب المثل بحفظه، ويذكر أنّ أكثر مقاماته ارتجال. له ديوان شعر صغير ورسائل عدّتها (٢٣٣) رسالة. توفّي في هراة مسموماً سنة ٣٩٨ هـ.

(خاصّ الخاصّ للثعالبي ٢٨ ـ ٢٩، يتيمة الدهر ٤: ٢٩٣ ـ ٣٤٤، معجم الأُدباء ٢: ١٦١ ـ ٢٠٢، وفيات الأعيان ١: ١٢٧ ـ ١٢٩، سير أعلام النبلاء ١٧: ٦٧ ـ ٦٨، مرآة الجنان ٢: ٣٣٩، البداية والنهاية ١١: ٣٤٠، أعيان الشيعة ٢: ٥٧٠ و٣: ٥٥٠).

أمّا قوله ﷺ: (سيأتي التنبيه والإشارة لهذا...) فسيأتي في ص ٣٨٠ وما بعدها.

وقوله: (لا ننكر أنّ في العرب كثيراً من النصارى) فأقول: إنّ الذين كانوا على النصرانية من العرب: ربيعة، ←

. . . .

→ وغسّان، وبعض قضاعة، وبنو تغلب، وأهل الحيرة، وأهل نجران. لاحظ بلوغ الإرب ٢: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

وقوله: (قد كانوا يعاقبه ونساطره وأمثالهما ممّا يبتعد عن الكثلكة أشدّ التباعد) فأقول: اليعاقبة أو اليعقوبيون: فرقة مسيحية تنسب إلىٰ يعقوب القائل بالأقانيم الثلاثة وأنّ المسيح له طبيعة واحدة هي التقاء اللاهوت بالناسوت، فإنّ الكلمة انقلبت لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده، بل هو هو. وينتشر هذا المذهب في مصر والنوبة والحبشة. (المدخل إلىٰ دراسة الأديان ١: ٢٣٨، الموسوعة الميسّرة في الأديان ٥٠٣).

النساطرة أو النسطوريون: فرقة مسيحية تنسب إلىٰ نسطور بطريرك الإسكندرية، وقيل: القسطنطينية، ويقال: نسطور الحكيم، والذي قال بأنّ: مريم لم تلد إلهاً؛ لأنّ ما يولد في الجسد ليس إلّا جسداً، ولأنّ المخلوق لا يلد الخالق، فمريم ولدت إنساناً، ولكن كان إلهاً للّاهوت، فقد جاء اللاهوت لعيسىٰ بعد ولادته، أي: أنّ عيسىٰ اتّحد بعد الولادة بالأُقنوم الثاني اتّحاداً مجازياً، فمنحه الله المحبّة ووهبه النعمة.

ويقول النساطرة: إنّ القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته.

وقد اتّخذت الكنيسة موقفاً معارضاً لآراء نسطور، وعلى الرغم من طرده من منصبه فإنّ مذهبه لم يمت، بل انتشر في الشرق في شمال العراق والجزيرة. (المدخل إلىٰ دراسة الأديان ١: ٢٣٧، الموسوعة الميسّرة في الأديان ٥٠٢ ـ ٥٠٣).

الكاثوليك: معنىٰ هذه الكلمة: العامّة، وكنيستهم تسمّىٰ: الكنيسة الكاثوليكية، أو الغربية، أو اللاتينية، أو البطرسية، أو الرسولية. وتدعى: أُمّ الكنائس ومعلّمتها؛ لأنّها وحدها التي تنشر المسيحية في العالم. وسمّيت بالغربية واللاتينية؛ لامتداد نفوذها إلىٰ الغرب واللاتين خاصّة. وسمّيت: بطرسية أو رسولية؛ لأنّ أتباعها يدّعون أنّ مؤسّسها الأوّل هو بطرس الرسول كبير الحواريّين، وكلّ البابوات في روما خلفاء له.

والكنيسة الكاثوليكية تتبع النظام البابوي الذي يرأسه البابا والكرادلة، وهم أصحاب الحقّ الأوّل والأخير في تنظيم الكنيسة؛ لأنّ البابا هو تلميذ المسيح الأكبر على الأرض، وهو يمثّل الله، وإرادته لا تقبل الجدل أو المناقشة.

ومذهب الكاثوليك هو مذهب الطبيعتين والمشيئتين. وقد اعتنقته كنيسة روما واتّخذت به قراراً في مجمع خلقيدونية عام ٤٥١ م. فالمسيح أُقنوم إلهي بحت، ولكن له ذاتان وكيانان هما: الإله والإنسان، وأنّ مريم ولدت الاثنين جميعاً، فهي ولدت يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلهية، ومع الناس في الطبيعة الإنسانية، فهو طبيعتان ومشيئتان في أُقنوم واحد. (المدخل إلىٰ دراسة الأديان ١: ٢٣٨ ـ ٢٣٩).

←

ولكن وبالأسف أنّ الأذناب وسفلة الأعراب والطغمة والأوغاد لم يدعو تلك الماويّة[1] الصقيلة حتّى مزجوا الرذيلة بالفضيلة، وأدخلوا في الحنيفية البيضاء كلّ معوّجة سوداء، وألبسوها رداء الهمجية، ووسموها بكلّ سمة ردية.

فكان أيسر ما عندهم نصب الأصنام والاقتسام بالأزلام والخمر والميسر والدأب سعياً وراء الغارات والسلب والنهب، وأهون دمٍ يراق عندهم دماء البشر،

← أمّا قول المصنّف رحمه الله: (وضرب العربي على عرنينه...) فالعرنين: الأنف. (العين للفراهيدي ٢: ١١٧).

وقوله: (الإيمان بسرّ الثالوث، وأنّ الواحد ثلاثة، وأن يأكل الخبزة على أنّها لحم المخلّص، ويشرب الخمرة على أنّها دمه) فراجع في ذلك: تاريخ المعتقدات ٢: ٣٧٢، محاضرات في النصرانية ١٠٠ و١١٥، المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٢٢٣، الموسوعة الميسّرة في الأديان ٥٠٣ ـ ٥٠٤، النصرانية ١٢٠ ـ ١٢٢.

وقوله: (أبو قيس الأسلت) فهاك ترجمته: أبو قيس بن الأسلت بن جشم بن وائل الأوسي الأنصاري، اختلف في اسمه، وأشهر الأسماء: صيفي، شاعر جاهلي. كان رأس الأوس وحكيمها وشاعرها وخطيبها وقائدها في حروبها، وكان يتألّه في الجاهلية ويكره الأوثان ويدّعي الحنيفية. ولمّا ظهر الإسلام اجتمع برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتريّث في قبول الدعوة، فمات بالمدينة سنة ١ هـ قبل أن يسلم.

(البيان والتبيين ٣: ٢٣ و٢٦٢، الأغاني ١٧: ٦٧ ـ ٧٨، الاستيعاب ٤: ٢٩٧ ـ ٢٩٨، خزانة الأدب ٣: ٣٧٩ ـ ٣٨١، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ٦: ٤٥٦ ـ ٤٦٠).

وقد نُقلت أبيات أبي قيس في معجم البلدان ٢: ٧٢.

وأمّا قوله: (زيد بن عمرو بن نفيل العدوي) فهاك ترجمته: زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزّى بن رياح القرشي العدوي، أحد حكماء الجاهلية، لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان، ولا يأكل ممّا ذبح عليها ولا يأكل الميتة والدم، وكان يطلب دين الحنيفية، ورحل إلى الشام باحثاً عن عبادات أهلها، فلم تستمله اليهودية والنصرانية، فعاد إلى مكّة وجاهر بعداء الأوثان، فأُخرج منها، فكان لا يدخلها إلّا سرّاً، وكان عدوّاً لوأد البنات، يربّي البنت حتّىٰ إذا ترعرت عرضها على أبيها، فإن قبلها وإلّا بحث لها عن كفؤ فزوّجها به. له شعر قليل. توفّي قبل المبعث بخمس سنين.

(الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ١٦١ ـ ١٦٢، المعارف ٥٩، الأغاني ٣: ١١٧ ـ ١٢٥، خزانة الأدب ٦: ٣٧٩ ـ ٣٨٢، الأعلام للزركلي ٣: ٦٠).

وقوله: (سيأتي من حديث...) فلم يذكر المؤلّف رحمه الله حديث زيد بن عمرو هذا.

(١) الماويّة: المرآة. (جمهرة اللغة ١: ٢٤٨).

ولا سيّما من إخوانهم وأبناء جلدتهم حتّى أصبحوا والشغل الشاغل لهم الذي كأنّهم لا يعانون سواه ولا يمارسون غيره ولا تقوم مقوّماتهم الحيوية إلّا من ريعه هو الغزوات والغارات وسلب النفوس والأموال.

أمّا الفوضى عند أوباشهم في الأعراض، وعدو بعضٍ على حلائل غيره سرّاً أو امتلاكها بالاستيلاء جهراً، وبيع ما أصابوه في الغزوات من البنين والبنات في سوق عكاظ أو في غيره من أسواقهم، فغطّها بذلاذلك[1] واسترها بكلّ شراشرك[2].

ولكن هلمّ الخطب في غلظة تلك القلوب التي هي أغلظ من أكباد آبالها[3] وأقسى من صخور جبالها تلك القلوب التي تئد بناتها وتقتل من خشية أملاقٍ أبناءها، تدفن بأيديها أفلاذ أكبادها وقطع فؤادها.

أيّ همجية هذه وأيّ بربرية هي!

هذه كانت جمهرة أخلاق العرب وحالتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية.

هذا، والشريعتان (الموسوية والمسيحية) بين ظهرانيهم وخلال أطناب[4] منازلهم، لم تفدهم شيئاً من التهذيب ولا حظّاً من التربية والتشذيب.

إذاً فما أحوجهم إلى من يطهّرهم ويزكّيهم ويهذّبهم ويربّيهم!

ما أحوجهم إلى من يخلّص تلك الفضائل من هذه الرذائل، ويعيد إليهم

---

(١) ذلاذل القميص: أسافله ممّا يلي الأرض. (لسان العرب ٥: ٥٧).

(٢) الشراشر: جميع الجسد. (القاموس المحيط ٢: ٥٩).

(٣) ربّما قيل للإبل: إبْل، يسكّنون الباء للتخفيف، والجمع: آبال. (صحاح اللغة ٤: ١٦١٨).

(٤) الطُنُب: حبل الخباء. (صحاح اللغة ١: ١٧٢).

شريعة جدهم (إبراهيم) غضّةً جديدة، يكمل نقائصها، ويتمّم محاسنها بالنواميس والمشروعات في كلّ الشؤون والحاجات بحيث يلائم كلّ عصر ويوافق كلّ وسط ويناسب كل زمان. فلا يبقى بها شائبة نقص، ولا مظنّة قصور، ولا مجال تغيير وتبديل. فتبقى أبدية مع الإنسان قمينة بكلّ سعادته رهينة بمجد حياته في أُولاه وآخرته، طالما تمسّك بها الإنسان ولم يفلت عراها الوثيقة من يده.

هذا حال عرب الجاهلية وموضع حاجتهم.

أمّا تانك الشريعتان فتقع فلسفة النظر فيهما من وجهتين حريتين بالبحث والتمحيص:

الأُولى: من حيث جوهر حقيقتهما الأصلية، وأُصول مباديهما الأوّلية.

والثانية: من حيث ما طرأ عليهما من الطوارئ، وما عرض لهما من العوارض والتغيّرات والتبدّلات والمسخ والنسخ الذي لم يختص فروعها وشراشرها، بل سرى إلى أصل جوهرها وروح حقيقتها، فلبسوها أهلوها لبس الفرو مقلوباً والرداء معكوساً!

أمّا النظر من هذه الجهة فنرجئ بسط الكلام فيه إلى موضع آخر فيما سيأتي إن شاء الله.

[البحث في الديانة اليهودية والنصرانية]

أمّا ما نقوله من الوجهة الأُولى: فمع تقديم كلّ احترام وتعظيم لذينك الديانتين الكريمتين نقول:

إنّ كلّ خائض في العهدين متعهّد لهما بتدبّر وروية ومتصفّح للتاريخ ليدعم

به ما يستفيده من كتب الدين يجد لا محالة أنّ الشريعة الموسوية ـ حسب اقتضاء تلك الظروف وصالح ذلك الوقت وأُولئك القوم ـ قد كانت جافّة شديدة، تجهد الإنسان، وتنغّص عليه حياته، وتتركه في أعقد من ذنب الضبّ[١] عسراً شديداً وحرجاً مخلّاً بالأُمور الحيوية ومزهقاً لروح الراحة والدعة!

ومع ذلك فهي جسمانية أكثر منها روحانية، بل كأنّها جسم لا روح فيه وشبح لا حياة به!

أُريد بذلك أنّها لا تلطّف المشاعر، ولا توسّع المدارك، ولا تفتق للعقل وجوه النظر، ولا تميح الروح خفّة، ولا النفس ظرافةً ولباقة، ولا الإحساس نشاطاً وأريحية.

وهذه ملحوظة ما أنفردتُ بذكرها ولا أنا أبو عذرتها وابن بجدتها[٢]، بل قد نبّه عليها الباحثون وقيّد شاردها حتّى المؤرّخون، وإنّما أضمّ رأيي إلى رأيهم وأجعل يدي في أيديهم.

هذا (أبو الفرج العبري)[٣] الحبر القسّيس والأب القدّيس والمؤرّخ الثبت

---

(١) هذا من الأمثال. راجع جمهرة الأمثال ٢: ٧٤.

(٢) يقال: فلان ابن عذرتها، وذلك للمبدع في الشيء. (جمهرة الأمثال ١: ٣٨).

ويقال: أنا ابن بجدتها، أي: أنا عالم بها، والهاء راجعة إلىٰ الأرض. يقال: عنده بجدة ذاك، أي: علم ذاك، ويقال: البجدة: التراب، فكأن قولهم: أنا ابن بجدتها، أي: أنا مخلوق من تربها.

انظر: الأمثال لابن سلّام ٢٠٣، مجمع الأمثال ١: ٣٢.

(٣) أبو الفرج غريغوريوس (يوحنّا) بن أهرون بن توما الملطي المعروف بابن العبري، مؤرّخ سرياني مستعرب من نصارى اليعاقبة. ولد في ملطية سنة ٦٢٣ هـ، وفرّ مع أبيه إلى أنطاكية بسبب هجوم التتار، فتعلّم العربية والطبّ والفلسفة واللاهوت، وتنقّل في البلدان، وانقطع للعبادة في بعض الأديرة، ونصب أُسقفاً على جوباس ←

في تاريخه الموسوم بـ: (مختصر الدول) صفحة (٣٢) من طبعته الشهيرة، بعد أن ذكر شيئاً من الوعد الإلهي لمن عمل بوصايا الإله، والوعيد على من خالفها قائلاً: «يا إسرائيل، إن عملت بوصايا إلهك بوركت في قريتك، بوركت في حقلك، بورك ثمار كرومك وَوَلد بعيرك ... وإن خالفت تنقلب بركاتك لعنات، ويبدّدك الله في جميع الأُمم، ويعطيك قلباً فزعاً ووجع العين، ورماك بالنيط، وتكون مرعوباً بالليل والنهار».

قال (العبري) ـ بعد نقل هذا ـ ما حرفه:

(أقول: تأمّل ـ أيّها القارئ ـ كيف جعل الله وعده ووعيده لبني إسرائيل مقصورين على ما يرونه في دنياهم من غير أن يذكر لهم شيئاً من أحوال الآخرة وأُمور المعاد، وذلك لغلظ طباعهم وقصورهم عن النظر إلى العالم الروحاني)[1] انتهى.

والصادعون بهذا وما هو أكثر منه كثيرون، ولكن الشأن فيمن يتوصّل من هذه المقدّمات إلى الغايات، ويعرف ماذا يلزم في العناية من وراء ذلك.

إذاً فالشريعة الموسوية وإن كانت مقدّسة إلهية، ولكنّها أشبه بأن تكون

← من أعمال ملطية، ثمّ كان أُسقفاً لليعاقبة في حلب، وارتقىٰ إلى رتبة جاثليق (رئيس رؤوساء الكهنة السريانيين). كان ماهراً وبصيراً بالأرمنية والعربية والفارسية واليونانية والسريانية. واشتهر بأبي الفرج تيمّناً بهذه الكنية ولم يكن له ولد؛ لأنّه لم يتزوّج أصلاً. له (٣٥) مصنّفاً في علوم مختلفة، منها بالعربية: تاريخ مختصر الدول، منافع أعضاء الجسد، دفع الهمّ، شرح المجسطي، شرح فصول أبقراط، منتخب جامع المفردات. توفّي في مراغة بأذربيجان سنة ٦٨٥ هـ، ونقلت جثّته إلى الموصل، فدفنت في دير مار متىٰ.

(دائرة المعارف الإسلامية ١: ٢٢٦ ـ ٢٢٨، معجم المطبوعات العربية ١: ٣٣٩ ـ ٣٤٠، الأعلام للزركلي ٥: ١١٧).

(١) تاريخ مختصر الدول ٣٢.

موقّتة محدودة في ظروف مخصوصة، ولا تصلح أن تكون عامّة لكلّ البشر وفي كلّ الأزمان سيّما مع خلوّها عن النواميس والأحكام لكلّ الضروريات الاجتماعية والفردية الأخلاقية والاقتصادية، فلا مواريث، ولا جزائيات، ولا عقود، ولا معاملات، ولا، ولا.

أمّا أُختها العزيزة لدينا والكريمة على الله وعلينا فلا أقول: إنّها والموسوية شعبتان من رند[١] وشعلتان من زند، ورضيعتان من لبن ونبعتان من فنن[٢]، بل أقول: هي تلك بعينها وبتمام حقيقتها وكنهها.

كلّا، ما أنا أقول ذلك، بل نفس شارعها والصادع بها أعلن بهذا في آيات من أناجيله وبيّنات من إصحاحات قبيله قائلاً: «لا تظنّوا أنّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأُنقض بل لأُكمل» (١٨)، «الحقّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف أو نقطة واحدة من الناموس* حتّى يكون الكلّ»[٣].

أمّا زوال نقطة السبت إلى الأحد، والختان إلى التغطيس والمعمودية، وحرمة الخمر إلى الإباحة، وكثير من أشباه ذلك، فالمقام مقام نبوّة بل ربوبية، فهو موضع تسليم وإذعان لا بحث واعتراض!

---

(١) الرَنْد: شجر طيّب الرائحة، والعود، والآس. (القاموس المحيط ١: ٣٠٧).

(٢) الفنن: الغصن. (المصدر السابق ٤: ٢٥٨).

(*) الناموس عندهم ـ كما ذكر في قاموس الكتاب المقدّس ما نصّه ـ: (يطلق على شريعة موسى الأدبية والطقسية والسياسية) (مت ٥: ١٧). (منه ﷺ).

أقول: كتاب قاموس الكتاب المقدّس من مؤلّفات الدكتور بوست. لاحظ العلاقة الجدلية ١١١.

(٣) قارن: إنجيل لوقا ١٠٨، بين الإسلام والمسيحية ١٥٤، الرحلة المدرسية ٩٩ و ١٦١، العلاقة الجدلية ١٤٨.

وعلى أيٍّ فليست المسيحية إلّا شريعة موسى عليه السلام بجميع أحكامها ومشروعاتها، ولا تجد في الإنجيل شيئاً من وظائف التكليف وطقوس التشريع، وإنّما معوّلها على ما في العهد القديم من ذلك، كذا يقولون[١].

ولنطوه على عواهنه ونلفّه على بلالته.

نعم، للمسيحية الفضل على تلك أنّها بعثت روحاً في هياكلها، ومعاني في ألفاظها وحياةً في قوالبها، فروّقت مشاربها ولطّفت مناهلها.

ولكنّها من قبيل ما يقال: زاد في الرقّة حتّى انقطع، وحلّق حتّى كاد أن يقع!

فأصبحت في هذه الجهة على الضدّ من تلك، فكأنّ إحداهما جسمانية محضة، والأُخرى روحانية خالصة.

وقد ضاع بينهما حدّ الوسط والاعتدال الذي هو خير الأُمور، بل هو الخير كلّه.

وسند دعوى: أنّ الثانية هي روحية أكثر منها جسمية، خطبةُ سيّدنا (المسيح) عليه السلام التي خطبها على الجبل، تلك الخطبة الذهبية التي تشعّ من طيّاتها الأنوار الإلهية ومدارك الحنان والرحمة، ولا يؤثر عن (المسيح) كلام يدانيها أو يساويها، ولعلّها هي أساس شهرته، بل تمام شريعته، فكأنّها هي الديانة المسيحية كلّها.

ولكن أيّ تالٍ لها ـ ولو درجاً ـ لا يعرف أنّها غير معنيّة إلّا بالأُمور الروحية والكون المعنوي والعالم الأُخروي، وليس فيها من شأن المحسوسات وتدبير

---

(١) لاحظ الموسوعة الميسّرة في الأديان ٥٠٥.

هذا المنزل شيء، بل هي عاملة بكلّ فحاويها ومناطيقها على إهماله وخموله وتقهقره وسقوطه إلى أعمق المهاوي وأنزح الدركات!

يقول (له المجد والشرف): «لا تكنزوا كنوزاً على الأرض، ولكن اطلبوا كنوز السماء. لا تهتمّوا بما تأكلون وتلبسون، فإنّ طيور السماء لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع».

يقول ﷺ: «لا تتعب، لا تغزل، وكن كزنابق الحقل».

يقول: «إذا ظُلمتَ لا تقاوم البشر ولا تدفع عن نفسك، ومَن أخذ ثوبك فأعطه رداءك، ومن ضربك على خدّك فحوّل له الآخر، ومن سخّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين»[1].

هذا نموذج تعاليمه وخلاصة شريعته (سلام الله عليه).

ونحن نبرّر ونقدّس تلك التعاليم، ولا نرتاب ولا نشكّ أنّها تعاليم إلهية وطقوس مباركة قدسية، ولكنّنا نقول فيها ما قلناه في سابقتها: إنّها شريعة اقتضتها طبيعة الوقت وضرورة صالح المحيط، ولعلّ العالم يومئذٍ كان في حاجةٍ إلى مثل ذلك.

[فلسفة الشريعة الإسلاميّة]

ولكن ليس من العناية أن يُجعل الخاصّ عامّاً لكلّ زمان ولكلّ جيل وأُمّة، بل من الواجب في الحكمة بناموس: (لا يصحّ غير الصحيح) و (لا يبقى غير الأنسب) أن تضع شريعة الوسط والاعتدال، وتعود بالأطراف إلى الأوساط

---

(١) راجع: إنجيل لوقا ٣٨ ـ ٣٩ و٨٥، بين الإسلام والمسيحية ١٥٤ و٢٨٦.

وبالانحرافات الموقّتة إلى الاستقامة المؤبّدة.

إذا كانت ضرورة بني إسرائيل يومئذٍ تقضي عليهم بشريعةٍ تقول لهم: «لا تزرعوا، ولا تتعبوا، ولا تقاوموا...» الخ، فإنّ ضرورة عامّة البشر في أشدّ الحاجة إلى شريعة تقول لكلّ واحد منهم: «اعمل لدنياك، واعمل لآخرتك»[١].

الشريعةُ الوسط بل المحيطة بأطراف الكمالات وأوساطها هي التي تقول: «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا من ترك آخرته لدنياه، بل خيركم من أخذ حظّاً من هذه وحظّاً من هذه»[٢].

هي التي يقول قانونها المقدّس: ازرعوا و: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[٣].

ويقول في السعي: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[٤].

ويقول في حفظ الجامعة ودرء الشرور: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾[٥].

ثمّ يحفظ روح الفضيلة في تعديل تلك التعاليم فيها، ويُدلّ على حقيقة الزهد بقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٦].

---

(١) اللفظ المشهور الذي جاءت به هذه الرواية هو: «اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً».

انظر: كفاية الأثر ٢٢٧ ـ ٢٢٨، الفقيه ٣: ١٥٦، المستدرك على الصحيحين ١: ١٤٦، فيض القدير ٢: ١٢، وسائل الشيعة ١٧: ٧٦.

(٢) ورد الحديث بألفاظ متقاربة في: الفقيه ٣: ١٥٦، فردوس الأخبار ٢: ٢١٢، وسائل الشيعة ١٧: ٧٦، بحار الأنوار ٧٥: ٣٢١، كشف الخفاء ٢: ٢٢٠.

(٣) سورة الأنعام ٦: ١٤١.

(٤) سورة الملك ٦٧: ١٥.

(٥) سورة الأنفال ٨: ٦٠.

(٦) سورة الحديد ٥٧: ٢٣.

ثمّ يقول: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[١].

ولا يدعها حتّى يتلافاها بقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[٢]، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[٣].

ويقول: ﴿فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء﴾[٤].

ثمّ يقول في الجزاء: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[٥] دلالةً على طريق العدل.

ثمّ يدلّ على طريق الفضل، فيقول: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ﴾[٦]، ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[٧].

إلى كثير من هذه الآيات الذهبية والحقائق الجوهرية ممّا ليس عقد هذا المقام لإحصائه واستقصائه.

وإنّما الغرض أنّ من العناية اللازمة والحكمة الواجبة ـ بعد ذينك الشريعتين ـ أن يضع الحكيم شريعةً وسطاً وطريقاً جَدَداً جامعاً لطرفي العدل والفضل آخذاً بأعنّة السعادتين وإصلاح النشأتين وتقويم أود الحياتين بحيث يتعادلان في العيار ويتساويان في الوزان ككفّتي الميزان.

وهذه الشريعة التي لها هذه الخاصّة والميزة عن غيرها هي التي تصلح أن

---

(١) سورة الكهف ١٨: ٤٦.

(٢) سورة الكهف ١٨: ٤٦.

(٣) سورة القصص ٢٨: ٦٠، وسورة الشورىٰ ٤٢: ٣٦.

(٤) سورة محمّد ٤٧: ٤.

(٥) سورة النحل ١٦: ١٢٦.

(٦) سورة النحل ١٦: ١٢٦.

(٧) سورة الشورىٰ ٤٢: ٤٠.

تكون القانون الأبدي لصالح عامّة البشر في عامّة الأزمان جيلاً بعد جيل وقبيلاً بعد قبيل.

ويستحيل أن تُنسخ أو تبدّل أو تحتاج إلى تكميل أو تسوية بعد أن وجدناها وسطاً ومركزاً. والوسطُ خطٌّ واحد يستحيل أن يتكرّر، والمركز نقطة يمتنع أن تتعدّد.

وهذه الفلسفة التي أبديناها من المناظرة والمقايسة بين الشرائع الثلاثة التي لا نرتاب أنّها شرائع مقدّسة إلهية مترتّبة متتالية، إنّ هذه الفلسفة الدينية لهي من الحقائق الراهنة التي يصيبها كلّ باحث منقّب، وتسبق إلى الآراء قبل طول البحث والعناء. وكذلك شأن كلّ حقيقة.

وإنّما العناء في تمزيق ما تكاثف عليها من شبهات المبطلين وأوهام المشكّكين، لا في نفس ذاتها وحقيقة أمرها.

الحقيقة أبت إلّا أن تتجلّى حتّى على لسان من يناويها ويجحدها ويلحد فيها.

هذا (شبلي شميّل)[1] ـ وهو من تعلم ما هو وكيف هو من الدين ـ يقول في مجموعته: (فلسفة النشوء والارتقاء) في التعاليق منها والذيول ما حرفه:

(شريعة موسى ماديّة عملية أيضاً، ولكنّها غير مستوفاة، وشريعة عيسى وإن كانت حِكماً ومواعظ تعتبر أُصولاً كلّية، إلّا أنّها في جملتها نظرت إلى العالم الروحاني أكثر من الحياة الدنيا بخلاف شريعة محمّد، فإنّها نظام اجتماعي عملي مادّي قانوي حقيقي).

(١) تقدّمت ترجمته في ج١ ص ١٣٠ هـ١.

وله ولغيره جمٌّ من هذا القبيل، وما هو أوسع وأنفع منه بكثير.

ولعلّنا نأتي عليه في مواضيع أُخرى من هذا الجزء نستوفي بعضه ونحصيه؛ لأنّنا نعدّه شهادة حقٍّ لنا ممّن ليس هو منّا، ولا متّهماً في حقّ سوانا ولا في حقّنا، ولكن حيّا الله الحقائق التي لا تعدم لها نصيراً حتّى ممّن يصدّ عنها، وظهيراً يعترف بها على أنّه يلحد فيها.

وليس كلّ هذا من القصد وإن طال كلامنا فيه.

إنّما القصارى والمتحصّل من كلّ ما سبق هو: أنّنا بعدما أثبتنا أنّ لهذا العالم قوّة مدبّرة معنية بإصلاحه وسعادته باختياره وإرادته عاملة على تنسيق شؤونه ونظم معاشه ومعاده على أبدع ما في الإمكان وأنّ ذلك هو أقصى الغرض والغاية من إيجاده لا للانتفاع به ولا للانتقام منه ولا لإظهار القوّة والسلطة عليه، ثمّ نظرنا في جملة من نواميسه وشرائعه التي سنّها ووضعها لتلك الغاية من الإصلاح، فوجدناها ـ بضرورة العقول وبديهة الفطرة وشهادة من لا يؤمن بتلك القوّة ـ ناقصة ليس فيها سداد من عوز ولا دفع لحاجة ولا صلاح لكلّ فساد، ثمّ نظرنا في أُخرى بعينها وأغرقنا نزعاً في مشروعاتها، فوجدناها لم تدع كثيراً ولا قليلاً ولم تهمل نقيراً ولا فتيلاً حتّى حلّ العقال وأرش الخدش ودية النطفة دافعة كلّ شقاء جالبة لكلّ سعادة جامعة للعدل والزيادة واقفة على حدّ الوسط والمركز في كلّ سانحة ولامحة وغادية ورائحة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾[1]، فهل يسوغ في حكم العقول وضرورة الوجدان ـ والحال على ما عرفت ـ أن نحكم بأنّ تلك شرائع إلهية ونواميس قدسية دون هذه التي هي بتلك السعة والإحاطة والجامعية والبساطة؟!

---

(١) سورة البقرة ٢: ١٤٣.

كلّا، ثمّ كلّا، وهيهات هيهات!

إنّ إنكار كون هذه من أعظم الشرائع وأقدس الملل وخاتمة الأديان، إنّ إنكار شيء من ذلك مساوق لإنكار نفس تلك المبادئ الأُولى، وعود إلى التعطيل، ورجوع إلى الإلحاد.

فحقّاً نقول: إمّا أن تكون الشريعة الإسلامية هي الشريعة الإلهية والدين الأبدي، وإمّا أن لا يكون للعالم صانع ولا للكون مدبّر.

حقّاً أقول: إمّا أن يكون (محمّد) (صلواتُ الله عليه وعلى آله وصحبه) رسول الله وخاتم النبيّين، وإمّا أن يكون لا نبي في العالم، لا (نوح) ولا (إبراهيم) ولا (موسى) ولا (عيسى)، بل يعود حديث النبوّة حديث خرافة وتُرّهات وسخافة!

حقّاً أقول: إمّا أن يكون القرآن هو الناموس الإلهي والقانون الأبدي، وإمّا لا توراة ولا زبور ولا أناجيل ولا مزامير.

حقّاً أقول ـ وأنا الزعيم[1] بذلك وذمّتي به رهينة ـ: إنّه ما من أُمّة من الأُمم ولا ملّة من الملل ولا واحد من البشر يقيم برهاناً أو براهين على صحّة ملّته ويسجّل دليلاً على حقيقة معتقده إلّا ونحن ـ معاشر المسلمين ـ نقيم ذلك البرهان بعينه، مع إضافة أضعافٍ من مثله، وممّا هو أقوى وأشدّ وأعلى وأسدّ على أحقيّة الشريعة المحمّدية وأولوية الديانة الإسلامية وناسخيتها لكلّ الشرائع والأديان وعدم صلاحية شيء منها لأن يُنسخ بشيء مدى الأبد وإلى منتهى الأزمان.

هذا ما أردنا بيانه من كلّ تلك الفلسفة الآنفة، وسيتّضح لك الكثير منه في المباحث التالية إذا شاء ربّك وشاءت لنا ولك عنايته.

---

(١) الزعيم: الضمين والكفيل. (مجمع البحرين ٦: ٧٩).

طريق إثبات النبوّة لمن عاصر أو تأخّر عن زمان الدعوة

أمّا الحجّة والمحجّة لإثبات النبوّة وأنّ الزعيم بها والمدّعي لها هو حقّاً رسولٌ من الله والمهيمن منه على عباده، فسبيل ذلك لمن هو في عصر الدعوة جددٌ لاحب بالمعجزة التي تقدّمنا إليك في تفاصيل الكلام عنها[١].

ولكن توسيع النظر وتسريح الفكر في فجاج البحث والتأمّل ينتهي بنا إلى طرز آخر أو آخر طرز من البيان.

وذاك: أنّك تعلم أحسن العلم أنّ هذا البشر منذ كان ولا يزال على طبقاته وشتّى أسناخه التي لا يحصيها العدّ ولا تقف عند حدٍّ، ولكن يسعنا أن نجعله جميعاً ضمن دائرتين يُعبّر عنهما في الشائع عامّة وخاصّة.

ونوعز بالخاصّة إلى ذوي الألباب النافذة والخواطر الثاقبة والمدارك العالية والقرائح القويمة وما أشبه هذا من الجمل الكثيرة.

وموجزها كلمة واحدة، وهي: أنّ الخاصّة: من بلغ بحسب فطرته وفضل مساعيه ومعونة جدّه وجهده إلى حقيقة الإنسانية، فهو إنسان كما ينبغي للإنسان أن يكون.

والعامّة: من لم يبلغ كيانه ووجوده إلى حقيقة الإنسانية، ولكنّه في صراطها ومستعدٌّ لها، فهو بذرةٌ من ذلك النوع ولمّا يبلغ بعدُ إليه.

---

(١) تقدّم الكلام في ص٤٢ وما بعدها.

أمّا الخاصّة فهم ـ بفضل ما عندهم من العلم والمعرفة وصحّة الحدس والفراسة ـ في غنىً عن تحرّي المعجزات والتماس خوارق العادات، بل يمعنون نظراً في شمائل ذلك المدّعي للرسالة، ويغرقون نزعاً في تدبّر رسالته وما جاء به من عند مُرسله، فإن وجدوا على شمائله دلائل من مرسله وعلامات من مبتعثه وأنّ رسالته طبق ما يُعلم من حال المليك الذي يدّعي الرسالة عنه وعلى وفق ضروريات الأُمّة التي أُرسل فيها وقام بين ظهرانيها ودعاها إلى اتّباعه والعمل بما جاء به، ارتاحوا به وسكنوا إليه، وأغناهم ذلك عن الاعتضاد بمعجزة والاعتماد على مُدهشة، وكان لهم من نفس دعواه وجوهر مقالته أعدلُ شاهد على صدقها وأقوى دليل على صحّتها.

وشتّان من يستدلّ على النار بحرارة ضوئها ولمعانها، ومن يستدلّ عليها بتصاعد دخّانها.

شتّان طبيبٌ عرفته بمعالجة المرضى والمزمنين حتّى أبلوا، وآخر عرفته بكثرة ما يحفظ ويسرد عليك من أسماء العقاقير والأدوية.

إنّ مثل هؤلاء الخاصّة من ذوي التمييز والمعرفة كمثل أطبّاء مهرة وعلاجيين جهابذة، ولكن أصاب بلادهم أوبئةٌ غريبة عجزوا عن علاجها ومعرفة أسبابها، فنبغ من بينهم رجل ومعه كتاب يعرّفهم العلل والأسباب، ويدلّهم على طرق العلاج لتلك الأوصاب، ويشرح لهم الداء والأدواء وما يُقتلع به جراثيم ذلك الوباء، وما نظروا في كتابه حتّى أدركوا ـ بفضل ما عندهم من ذلك الفنّ ومزاولتهم إيّاه طول أعمارهم ـ أنّه قد أصاب الحقيقة وبلغ الغاية، وما عتموا أن عوّلوا على الامتحان، فوجدوا العيان ظهيراً للبيان.

أفهل يلتمس منه أحدهم ـ بعد هذا ـ أن يطير في الهواء أو يمشي على الماء

تصديقاً لدعواه وتثبيتاً لمقالته وحجّة على معرفته ؟! إنّ الطبيب الذي عالجك وشفاك وأبلك من دائك وعافاك لأوثقُ في نفسك وأمكن بضميرك ممّن ادّعى معرفة دائك ودوائك والقدرة على شفائك ولو قلب لك الحجر نضاراً[1] واستخرج من الماء ناراً!

ولا أُوعز بذلك إلى الاستغناء عن المعجزات كلّياً.

كلّا، فليس كلّ أفراد الأُمّة ولا جميع رجال الشعب ممّن لهم قوّة ذلك التمييز ومرتبة هاتيك المعرفة.

وإنّما القصد أنّ هناك مقام فوق مقام الإعجاز ومرتبة تسمو عن مراتب التحدّي.

وأمّا الحاجة إلى المعجزات وخوارق العادات في حقّ من عدا أُولئك الخاصّة والنفر القليل فهي ثابتة بالضرورة.

نعم، إنّ من عدا أُولئك الخاصّة من عامّة البشر تجدهم على حكم الغلبة لا يعدون أن يكونوا من الرجرجة[2] الأتباع والهمج الرعاع، أُولئك الذين يتبعون في كلّ العادات والاعتقادات رؤساءهم ويقلّدون أُمّهاتهم وآباءهم.

ولعلّ الغرض والنجاة يحصل لمثل هؤلاء بالاعتقاد التقليدي إذا أصابوا الحقّ بتقليدهم.

أمّا في ضلالهم فتكون المؤاخذة في مضلّتهم على من أضلّوهم من كبرائهم ورؤساء دينهم الذين لا محالة قد تمّت الحجّة عليهم.

أمّا هم فغير مؤمنين، كما أنّهم لقصورهم غير معاقبين عقاب الجاحدين.

---

(١) النضار: الذهب. (معجم مقاييس اللغة ٥: ٤٣٩).

(٢) الرجرجة من الناس: السفلة. (العين للفراهيدي ٦: ١٧).

[خلاصة هذا الموضوع ، والإشارة إلى طبقات الخلق ، وبيان معنىٰ التواتر وأقسامه]

والخلاصة واللباب وزبدة المخض من هذا الوطاب[1]: أنّ النـاس كـافّة على طبقات ثلاث:

الأُولى: الخاصّة.

وهم لا يحتاجون في أمر معرفة النبوّة إلى أزيد من النظر في أحوال ذلك النبي وسيرته وإمعان الفكرة في نواميس رسالته، وبفضل ما في غريزتهم من قوّة النفس وصحّة الحدس يعرفون الصحيح من السقيم والطيّب من الخبيث والصادق من الكاذب والرحمانية من الشيطانية.

وهذه الطبقة وإن كانت قليلة العدد عند نسبتها إلى غيرها، ولكنّها كثيرة في ذاتها.

ولعلّ منها جميع النجباء والنقباء من حواري المرسلين والأنبياء.

الثانية: العامّة والأكثر والسواد الأكبر ومنتشر البشر على سطح هذا البسيط المتقلّص عن الغمرات من هذا المحيط.

وهؤلاء يعجزون حتّى عن طلب المعجزة بالعيان فضلاً عن طلب الدليـل والبرهان!

ولا أزيدك عنهم ذكراً بعد أن قتلتهم أنت خَبراً وخُبراً[2]، وعرفت أنّـهم لا

(١) الوَطْب: سِقاء اللبن، وجمعه: وِطاب وأوطاب. (تهذيب اللغة ١٤: ٢٨).

(٢) قتل الشيء خُبراً: عَلَمَه. (القاموس المحيط ٤: ٣٦).

يحتاجون في عاداتهم وعباداتهم إلى أكثر من اتّباع رؤسائهم وتقليد أُمّهاتهم وآبائهم وما نشأوا وشبّوا عليه من رعرعة الصبا ورفرفة الشباب. لا يحتاجون إلى أكثر من أن ينظروا متبوعهم، فيميلون حيثما مال، ويتفيّأون ما تفيّأ من ظِلال هدىً أو ضلال.

فدع هؤلاء وما يختاره لهم رؤساؤهم وكبراؤهم ومعلّموهم وعلماؤهم، فإنّهم لهم المسؤولون إن كان ثمّة من سؤال.

نعم، ولعمر الله إنّه لكائن!

الثالثة من الطبقات: من ترفّع عن هذه الطبقة وانحطّ عن الأُولى، فليس له قوّة ذلك التمييز، ولا نقّاد تلك الفطنة، ولا صيرفي ذلك الفكر. ومع ذلك فهو لا يتطامن لوضع نير التقليد في عنقه، ولا يرضى لنفسه دون أن يكون كمن يرى الحقيقة بعينه.

وهذه أوسط الطبقات، والأكثر من الطبقة الأُولى.

وطريقها إلى معرفة صحيح النبوّة في عصر الدعوة ليس إلّا المعجزة التي تقنعه وتتمّ عليه بها الحجّة، كما أوضحناه لك.

أمّا من تأخّر عن زمان الدعوة فالخاصّة طريقهم واحد في الحالين، كما أنّ العامّة لا يزالون سواء وعلى قروٍ واحد[1] في جميع العصور والأزمان، يتشاكلون في التابعية والانقياد وإن اختلفوا في كلّ شيء.

أمّا الطبقة الوسطى ـ وهم الذين لا يسيرون في سبيل إلّا على عكّازة البرهان والدليل ولا يخضعون لمقالةٍ إلّا بعد النظر فيها وطلب الدليل عليها من

---

(١) يقال: تركتهم قرواً واحداً، أي: على طريقة واحدة. (القاموس المحيط ٤: ٣٨٠).

غير ذاتها ـ فطريقُ هؤلاء إلى إثبات النبوّة بل ثبوتها عليهم بعد زمان الدعوة وبعد بلوغ خبرها إليهم لا يعدو أحدَ أُمورٍ ثلاثة لا أحسب لها رابعاً:

الأوّل: أن يبلغهم بالتواتر أنّ ذلك المدّعي قد أتى في عصره بالمعجزات وتحدّى أهل زمانه بخوارق العادات.

وأنت على علم من أنّ المراد بالتواتر ـ كما ذكروا ـ هو: إخبار جماعة يمتنع تواطؤهم على الكذب عادة مع تساويهم بهذه الجهة في جميع الطبقات[1].

فيلزم أن تكون كلّ طبقة تخبر عن مثلها في امتناع تطرّق الكذب.

فلو كان في بعض الطبقات من الوسط أو الطرف الأعلى عدد محصور ـ كثلاثة أو عشرة أو عشرين مثلاً ـ انحلّ التواتر وفشل ولو كان المخبرون في الطبقة الدنيا كلّ من فيها.

وللتواتر ثلاث صور:

الأُولى: أن يتّفق المخبرون في جميع الطبقات على لفظ واحد وكيفية واحدة.

وهذا نادر جدّاً.

ويعبّر عنه: بالتواتر اللفظي.

الثانية: أن تتعدّد الوقائع ويتعدّد آحاد المخبرين بها في الطبقات، فتكون كلّ واقعة غير متواترة. ولكن تشترك كلّ تلك الوقائع في لازم واحد ومعنىً مشترك، فيكون هو المتواتر.

---

(١) قارن: الإشارات والتنبيهات ١: ٣٤٩، الجوهر النضيد ٢٠٥، شروح الشمسية ٢: ٢٤٣، حاشية الملّا عبدالله على التهذيب ٢٠٤.

ويسمّى: بالتواتر المعنوي؛ لأنّهم جميعاً كمخبرين بذلك اللازم الواحد ويمتنع تواطؤهم على الكذب فيه، كشجاعة (علي) عليه السلام وزهده، وزهد الخليفتين: (أبي بكر) و(عمر) (رضي الله عنهما)، فإنّه مقطوع به من تعدّد الوقائع المروية التي ليس كلّ واحد منها في ذاته متواتراً، ولكن القدر المشترك منها يكون بصورة متواترٍ يمتنع التواطؤ فيه على الكذب.

وعلى ذلك سائر الشهرات التي ذهبت مذهب الأمثال وسارت سير الرياح، كشجاعة (عنترة)، وعدل (كسرى)، وجود (حاتم).

وما انعطف على هذا النسق ليس السند فيها والسبب الأوّل لها إلّا هذا التواتر المعنوي.

الثالثة: التواتر الإجمالي.

وهو: أن يتعدّد المخبرون بوقائع متعدّدة مع قطع النظر عن اشتراكها في لازم واحد، ولكنّها تكون بمثابة من الكثرة بحيث يمتنع عادةً في حكم العقل والضرورة أن لا يكون في تلك الوقائع واحدةٌ صادقة وعلى طبق الواقع، ويستحيل أن تكون كلّ تلك الأخبار قد وقعت على الصدفة والاتّفاق كلّها كاذبة، فإنّ ذلك وإن كان ممكناً في حدّ ذاته، ولكنّه مستحيلٌ حسب العادة مرجوحٌ بحسب الغلبة والسبر والاستقصاء.

والوقفة عند تلك الاحتمالات الإمكانية مخلٌّ بنظام الكون مبطلٌ لنواميس العمل.

فلو عملتَ الإحصاء فاحصاً وماحصاً لما تسمعه كلّ يوم من كلّ الأخبار لما وجدت يوماً يكون كلّ ما سمعته فيه لا شيء منه بصادق ولا خبر واحد.

فلو بلغتك أخبار كثيرة بأنّ (المسيح) (له المجد) قد أبرأ الأكمه والأبرص

وأحيا الموتى في عدة وقائع كلّ واحد منها لا يفيدك القطع، ولكنّك بمراجعة العقل وحكم الغلبة تقطع بأنّ واحداً من تلك الوقائع والأخبار لا محالة صادق ويستحيل عادة أن تكذب جميعاً، إذن فقد ثبتت لك معجزة (عيسى) عليه السلام بذلك التواتر الإجمالي.

ولا يلزم أن تكون تلك الواقعة بعينها معلومة، بل نعلم بواحدة منها على الإجمال.

كما لا يلزم أن تكون كلّ واحدة بنفسها متواترة.

وعليه، فالموسوي الذي ينكر نبوّة (المسيح) (له المجد والشرف) محجوج ومفحم بهذا الدليل الذي لا يجد أحد إلى دفعه من سبيل.

أمّا المسيحي مع المحمّدي فدعه وضميره، وخلّه ووجدانه. فإنّي راغب إلى الله (جلّ شأنه) أن لا يحيد عن جادّة الإنصاف، ولا يحيق به التعصّب، فيحيف أو ينحرف عن منهج الصواب إن شاء الله.

الثاني من الطرق لثبوت النبوّة على غير المعاصرين: أن يبلغهم باليقين إخبار مخبر صادق يعترفون بصدقه وتتمّ عليهم الحجة من الله به، من نبي أو وصي أو ولي يخبر عن نبوّة من قبله، كإخبار (موسى) بنبوّة (إبراهيم) عليه السلام، أو يخبر بنبوّة من بعده، كإخباره بنبوّة (المسيح) (سلام الله عليه)، أو إخبار (المسيح) بنبوّة من بعده إن نطقت وصدقت الأناجيل.

الثالث: وهو أقواها وأرسخها وأرساها لدعامة النبوّة وتوطيد الحجّة البالغة وتثبيت أراكين الشريعة الأبدية والنبوّة العامّة، بل هو من الضروري في الحكمة واللازم في العناية.

وهو: أن تكون لذلك النبي معجزة تبقى لمن بعده من المكلّفين، وتستمرّ

بصفتها آيةً على مرور الأحقاب والسنين ؛ ليحصل منها لجميع الناس ـ على اختلاف طبقاتهم وأعصارهم وأسناخهم وشعوبهم ـ ما تتمّ به الحجّة ، ويستبين منه لاحب المحجّة[1]، وتؤدّي به العناية وظيفتها ، وتبلغ الحكمة بذلك غايتها ، وتكون لله على الناس الحجّة البالغة.

نعم ، ولا أعرف لملّة من الملل ولا دين من الأديان ولا أجد سبيلاً للعقل لإثبات نبوّة أيّ نبي كان إلّا بواحد من تلك الطرق أو بأمر أو أمرين من هاتيك الأُمور.

ولكنّها قد تعاضدت بأجمعها على نبوّة صاحب الشريعة الإسلامية (صلوات الله عليه)، بل اختصّ بها جمعاء من دون سائر الرسل والأنبياء.

وسيتّضح لك ذلك على أتمّ وجوهه وأقصى غاياته من مطاوي مقالاتنا الضافية ومباحثنا الآتية إن شاء الله.

(١) لاحب المحجّة: واضحها. (لسان العرب ١٢: ٢٤٣).

النبوّة المحمّدية، وإعجاز القرآن

قد ثبتت التواترات القطعية وقامت الضرورة البتّية من جميع العالم وبين نوع بني (آدم) أنّ صاحب الشريعة الإسلامية والملّة الحنيفية، منشأ إيجاد النشأتين والمقرّب من الربّ قاب قوسين، علّة إيجاد الكائنات وأشرف المخلوقات، أكرم النبيّين وسيّد الأوّلين والآخرين، شفيع الخلائق ومرآة الحقائق، الفاتق الراتق، أوّل الفكر آخر العمل، خاتم ما سبق وفاتح ما اقتبل، سيّدنا وشفيعنا رسول الله (محمّد بن عبدالله) (صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين وعلى صحبه الطيّبين) قد ادّعى النبوّة، وتحدّى على قومه بالمعجزة*، وطلب من أهل زمانه المعارضة، وأتى بما هو الشائع في وقته والمتنافس عليه عند قومه، وما يتفاخرون بإتيانه ويترفّعون بشأنه من الكلام الفصيح والقول البليغ.

وكانت بلدته أملك البلدان لأساطين تلك الصنعة وأجمعها لمشاهير تلك البضاعة والسلعة، وزمانه أبهج الأزمنة بمهرة الكلام.

وقد اجتمع منهم في أيّامه وما قاربها ما لم يجتمع في غيرها من الأزمنة والأيّام.

ولمّا دعاهم إلى تلك الدعوة المقدّسة طغوا وبغوا أشدّ البغي عليه، وشقّ

(*) شرعنا أوّلاً في ذكر معجزة القرآن؛ لأنّها هي المعجزة الباقية المخلّدة، وهي أقوى المعجزات. ومن التأمّل في نواميسه يستفيد الخاصّة وأهل الإدراك والتمييز صحّة النبوّة وصدق الرسالة.

وبعد انتهاء كلامنا عن هذه المعجزة نعود إلى باقي الطرق وسائر المعجزات، فانتظر، والمعونة بالله. (منه رحمه الله).

ذلك عليهم غاية المشقّة، حتّى تخاوصوا[١] بحماليق[٢] الحنق إليه.

وما دعاهم إلّا إلى هُداهم، ومذ كذّبوه تحدّاهم.

وما تحدّاهم إلّا بالمألوف لهم والمعتاد لديهم المأخوذ عنهم والمسوق إليهم الذي يمسون ويصبحون عليه ويروحون ويغدون إليه، لا بأمرٍ لم يمارسوه وحال لم يعرفوه، من علوم غامضة وأسرار خفية طبيعية أو رياضية.

ولم يزل ﷺ يتقاضى منهم ذلك ويلحّ عليهم فيما هنالك بأنحاءٍ شتّى وطرق مختلفة وعبارات متفاوتة، حتّى اعترف بالعجز عرّيفهم وتلدّد تليدهم وطريفهم[٣] وصقع مصاقعهم وأشاع شنائعهم وكسّد بضائعهم، وعاد لبيدهم بليداً وشيبتهم وليداً وقائمهم حصيداً، وعالمهم أبا جهل وسهيلهم على السهل، وعتبتهم أعتاهم وأبو لهبهم أخمدهم وأخزاهم، وعبد شمسهم آفل ونابغتهم خامل، وحيّ أخطبهم ميّتاً وابن أبي معيطهم أخفضهم صوتاً، وهشامهم مخزوماً ومخزومهم مهشوماً، وسراتهم أُسارى وكبّارُهم من الصغار صغاراً!

قد وسموا جباههم بنار العار والعيار ورسموا على محاسنهم وسم السوء بالذلّ والصغار، وجعلت كلماته في أعناقهم أغلالاً فظلّوا لها خاضعين، وطاشت

---

(١) خاوص الإنسان نظره وتخاوص: إذا غضّ من بصره شيئاً وهو يحدّق النظر كأنّه يقوّم سهماً. (العين للفراهيدي ٤: ٢٨٥).

(٢) الحِملاق: ما غطّت الجفون من بياض المقلة، وحملق الرجل: إذا فتح عينيه ونظر نظراً شديداً. (المصدر السابق ٣: ٣٢٢).

(٣) لدّه: خصمه (صحاح اللغة ٢: ٥٣٥).

والتليد: القديم، وهو خلاف الطريف الذي هو المستحدَث، والطريف هنا الشريف. لاحظ المصدر السابق ٢: ٤٥٠ و ٤: ١٣٩٤.

ألبابهم فقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[١].

ثمّ قنع منهم بعشر سورٍ من سُوَره المنزلة.

ثمّ تنزّل معهم ـ وهو الرفيع ـ إلى أدنى منزلة، فقنع منهم بأن يأتوا بعشر آيات.

فأجمعوا أمرهم، وما كان عاقبة جمعهم إلّا إلى الخيبة والشتات.

وحين بدت عليهم المفحمة البائدة رَضِي منهم بسورةٍ واحدة!

فالتجأوا إلى مفاوضة الحتوف عن معارضة الحروف، وعقلوا الألسنة والعقول واعتقلوا الأسنّة والنصول، ورضوا بكَلْم الجراح عن الكَلِم الفصاح، وفرّوا إلى سعة آجالهم من ضيق مجالهم، وتنصّلوا بنصالهم ورأوا أنّ ذلك أقوى لهم من أقوالهم، حتّى هلكت على ذلك طواغيتهم وفراعنهم، وتفانت فيه عفاريتهم وثعابنهم، ودرجت وتحطّمت قرومهم[٢] وقرونهم، وباءت بالوباء والوبال عليهم أعوامهم وسنينهم، وتبدّلوا بعزّ الملك ذلاًّ.

وما انجلت غبرة الضلال عن جبهة الحقّ إلّا وهم بأسرهم أسرى أو قتلى، إلى أن عادت كلمة الله العليا وكلمة أعدائه السفلى.

كلّ ذلك فراراً عن المعارضة ونقضاً لحبال الردّ والمناقضة.

تشهد لك بذلك التواريخ والسير[٣] والآثار والعِبر من جميع الأُمم الملّيين وغير الملّيين، لا خصوص المسلمين والمنتحلين.

كيف! ولو كان لَبان، ولو وجد لحصّله الوجدان ولتعيّن أن يقع عليه العيان؛

---

(١) سورة هود ١١: ٧.

(٢) القَرم: السيّد المعظّم. (لسان العرب ١١: ١٣٠).

(٣) راجع أغلب كتب التاريخ والسير في هذا الشأن، فهي زاخرة بذلك.

إذ الدواعي متوفّرة على نقله أشدّ الوفور متوجّهة إلى إذاعته ونشره من ذلك اليوم إلى يوم النشور.

فإنّه (صلوات الله عليه) قد زاحم جميع ملوك الأرض واستطالت دعـوته في الطول والعرض، وناطحت كباش كتائبه جميع الأُمم مـن العـرب والعـجم، وكاسر (كسرى) و(قيصر) وبلغ بريد محبّراته البرّ والبحر، وانتصر بالله على اليهود والنصارى وحلّق نسر قهره حتّى اصطاد الصقور والحبارى[1].

وهو (حفظ الله شريعته وأعلى كلمته) فـي جـميع ذلك يـدعو إلى كـتابه ويتحدّى بمعجز خطابه.

فلو نوقض أو عورض لخفّت مؤونته ولهانت بـلواه، ولبـطلت ـ وحـاشا ساحته المقدّسة ـ دعواه.

ثمّ لم تزل تلك المعجزة الباهرة والآية القـاهرة بـاقية عـلى مـرّ الدهـور وخوالي الأعوام ومواضي الحقب والأيّام، لا تزداد على طـول المـدّة إلّا جـدّة وعلى شدائد الجاحدين والمنكرين إلّا شدّة، ولا يزيدها التكرار والاستملاء إلّا حسناً وبهاءً، وما تصدّى في الأزمنة المتأخّرة عن زمـان نـزوله لمـعارضته إلّا مأفون الرأي مائق العقل[2].

حتّى إنّ من الأعاجيب ـ وأيّ شيء منه (تقدّست آياته) ليس بـعجيب! ـ أنّك ترى الرجل في جميع المقامات من النظم والنثر والخِطب كـخطيبٍ مـصقع فارساً في كلّ حلبة ولدى كلّ موضع، فإذا تصدّى ـ من أجل ضعفٍ في دينه أو

---

(١) الحُبَارى: طائر معروف طويل العنق رمادي اللون في منقاره بعض طول. (حياة الحيوان للدميري ١: ٣٢١).

(٢) المأفون: الضعيف الرأي والعقل. (القاموس المحيط ٤: ١٩٨).

والموق: الحمق في غباوة، يقال: أحمق مائق. (المصدر السابق ٣: ٢٩٤).

خِوَر في عود يقينه أو زندقة في هواه أو وصم عهار في عصاه ـ إلى مقاومة ذلك المقام ومعارضة معجز ذلك النظام، أُفحم وتبلّد وأُبكم وتلدّد.

هذا (مسيلمة)(١) و (سجاح)(٢) وأمثالهم من الأوّلين، و (المتنبّي)(٣)

---

(١) أبو ثمامة مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي المتنبئ الكذّاب، قيل: اسمه هارون، وقيل: بل مسلمة. ولد ونشأ باليمامة، وتلقّب في الجاهلية برحمان اليمامة، ولمّا ظهر الإسلام غربي الجزيرة وفتحت مكّة جاء وفد من بني حنيفة إلى النبي ﷺ وأسلموا، ولم يسلم هو، وبعث برسالة إلى النبي ﷺ خبرها مع جوابها مذكور في كتب السير، ولمّا توفّي النبي ﷺ انتدب له أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش قوي هاجم ديار بني حنيفة المرتدّين، فقتل مسيلمة سنة ١٢ هـ. وكان مسيلمة ضئيل الجسم، قالوا في وصفه: كان رويجلاً أُصيغر أُخنيس!

(الروض الآنف ٤: ٢٢٥، الكامل في التاريخ ٢: ٢٤٣ ـ ٢٤٧، شذرات الذهب ١: ٢٣، الأعلام للزركلي ٧: ٢٢٦).

(٢) أُمّ صادر سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية اليربوعية المتنبئة، كانت أديبة عارفة بالأشعار لها منزلة عند قومها، ادّعت النبوّة بعد وفاة النبي ﷺ، وكان لها علم بالكتاب أخذته عن نصارى تغلب، فتبعها جمع من قومها، منهم: الزبرقان بن بدر، وعطارد بن حاجب، وشبث بن ربعي، وعمرو بن الأهتم، فأقبلت بهم من الجزيرة ونزلت اليمامة وتزوّجت مسيلمة في قصّة معروفة، ثمّ انصرفت راجعة إلى أخوالها بالجزيرة، وبلغها مقتل مسيلمة، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة، وتوفّيت فيها سنة ٥٥ هـ، وصلّى عليها سمرة بن جندب والي البصرة لمعاوية في ذلك الوقت.

(تاريخ الطبري ٣: ١٢١ ـ ١٢٧، البدء والتاريخ ٥: ١٦٤ ـ ١٦٥، الروض الآنف ٤: ٢٢٦، الكامل في التاريخ ٢: ٢٣٩ ـ ٢٤١، الأعلام للزركلي ٣: ٧٨).

(٣) أبو الطيّب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفي الكوفي الكندي المتنبّي، الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. ولد بالكوفة في محلّة تسمّىٰ: كندة، وإليها نسبته سنة ٣٠٣ هـ، ونشأ بالشام، ثمّ تنقّل في البادية يطلب اللغة وأيّام الناس، وقال الشعر صبياً، وتنبّأ في بادية السماوة، فتبعه كثيرون، وخرج إليه لؤلؤ أمير حمص فسجنه حتّى تاب ورجع عن دعواه. روى عنه: محمّد بن أحمد المحاملي، وعلي بن أيّوب القمّي، والحسن بن علي العلوي، وغيرهم. مدح سيف الدولة ملك الشام، وكافوراً صاحب مصر، وعضد الدولة الديلمي ملك فارس والعراق، وابن العميد. أخذه عند النعمانية فاتك الأسدي، فقتله وابنه محسّد وغلامه سنة

←

و(المعرّي)[1] وأضرابهم من الآخرين، كلٌّ بزعمه جاء بقرآن وبيّنات وسور وآيات!

ولكن دونك فاضرب فكرك فيما يُحكى عنهم من تلك المزخرفات، فهل تجد إلّا ما يُضحك الصبيان في مكاتبها وتسخر ربّات الحجال منه في مضاربها؟!

ولعمرُ الله ـ وعمرُ الله قسمٌ عظيمٌ ـ إنّ هذا الكتاب الكريم والفرقان العظيم لو أبدت عجائبه جميع الأنام بجميع الطروس والأقلام وأبادت في ذكر معجزاته الدهور والأعوام، لَما جُمع من عظيم قدره إلّا أقل مقدار، ولا وقع صيرفيّ المعرفة من نحو أعشاره إلّا على عُشر معشار!

هذه العزّة والمنعة والسموّ والرفعة، والحمد والثناء والمجد والبهاء، والعُجُب والعَجَب والإطراء والطرب والإعجاز والغَلب، وما يقصر عنه اللسان ولا يحيط به البيان ولا تصل إليه الأذهان، إنّما هو في إحدى طوائله وأدنى

← ٣٥٤ هـ. وكتب عنه الكثير من الكتّاب أمثال: الجرجاني، والحاتمي، والصاحب بن عبّاد، والبديعي، والثعالبي، وطه حسين.

(تاريخ بغداد ٤: ١٠٢ ـ ١٠٥، وفيات الأعيان ١: ١٢٠ ـ ١٢٥، سير أعلام النبلاء ١٦: ١٩٩ ـ ٢٠١، لسان الميزان ١: ١٥٩ ـ ١٦١، شذرات الذهب ٣: ١٣ ـ ١٥، هدية العارفين ١: ٦٤، أعيان الشيعة ٢: ٥١٣ ـ ٥٦٤).

(١) أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان بن محمّد التنوخي المعرّي، اللغوي والشاعر المعروف. ولد سنة ٣٦٣ هـ بمعرّة النعمان بالشام، وعمي بالجدري بعد أربع سنين من ولادته، وقد سمّى نفسه: رهين المحبسين؛ لذهاب عينيه وللزومه بيته. قرأ النحو واللغة على: أبيه بالمعرّة، وعلى محمّد بن عبدالله بن سعد النحوي بحلب. وأخذ عنه: علي بن المحسن التنوخي، والخطيب أبو زكريا التبريزي، وغيرهما. كانت له فلسفة خاصّة في حياته ممّا حدا بعضهم إلى تكفيره. له من النظم: لزوم ما لا يلزم، وسقط الزند. وله: كتاب الهمزة والردف في الأدب، واللامع العزيزي. هذا، وقد قام باختصار دواوين أبي تمّام، والبحتري، والمتنبّي. توفّي بالمعرّة سنة ٤٤٩ هـ.

(تاريخ بغداد ٤: ٢٤٠ ـ ٢٤١، معجم الأدباء ٣: ١٠٧ ـ ٢١٨، سير أعلام النبلاء ١٨: ٢٣ ـ ٣٩، لسان الميزان ١: ٢٠٣ ـ ٢٠٨، نسمة السحر ١: ٢٦٦ ـ ٢٨١، أبجد العلوم ٣: ٥٩ ـ ٦٠).

فضائله وأوّل آياته وأسهل معجزاته.

وهي معجزة الأُسلوب والبيان، هي الصياغة والنظام، هي التركيب والانسجام، هي الأقوال والكلمات، هي فرائد الألفاظ والمفردات، هي جهة التعبير بنفسه مع قطع النظر عن سائر الجهات.

أمّا لو صرفنا الأفكار وعطفنا الأنظار إلى ما في تلك المباني من الأسرار والمعاني، والحقائق والدقائق، والمعارف واللطائف، والأغراض والمقاصد، والمصادر والموارد، وما أحاط به من الشأو المنيع بنكات المعاني والبيان والبديع، فهناك تنقطع الإشارات وتُحيا العِبر وتموت العبارات! هناك تحار العقول وتذهل النفوس! هناك تخضع الرقاب وتُطأطأ الرؤوس! هناك العظات والزواجر والنواهي والأوامر! هناك هبّة الملكوت وهيبة الجبروت، ولوامع حظائر القدس وطوالع محاضر الأُنس! هناك الفزّة والهزّة، والعظمة والعزّة، والنفائس والبزّة!

القرآن المجيد، الفرقان الحميد، الوعد والوعيد، الترغيب والترهيب، التعليم والتأديب، التصفية والتهذيب، التبعيد والتقريب، الأمثال والحِكم، الحظوظ والقِسم، البلايا والنقم، النعيم والنعم، ووقائع الله في الأُمم، وما أصابها من النكال والبلاء في تكذيبها للأنبياء، وما حلّ بالظالمين من أهل السماوات والأرضين.

حريّة العقل والمعقولات، توسعة نطاق العلم والمعلومات، روابط عرى الأُخوّة والمساواة، عواطف المروّة والمواساة، الشرائع الإلهية، القوانين السياسية، الفنون الطبيعية والرياضية، الحكمتان: العلمية والعملية، دقائق أسرار التوحيد، حقائق أنوار الثناء والتمجيد، الرُقى والعزائم، المغيّبات والملاحم،

التسخيرات والطلاسم، أخبار الصدق عن الغيب، أنوار الحقّ بلا ريب، أسباب السعادة والنجاة، أبواب الدعاء والمناجاة، علوم الأديان والأبدان، حقائق المعرفة والإيمان، الجفر والرمل وأمثالها من أسرار طبائع الحروف.

إلى غير ذلك ممّا لا يحصيه للراء من عيون الرجال أُلوف.

فكم ثمّ من معادن وكنوز تحت إشارات ورموز!

كلّ ذلك في كلامٍ يدلّ بنفسه على نفاسة قائله وجلالة جاعله، وملاءة مُمليه ونفوذ مشيّة منشيه.

ويميح[1] اليقين ويزيح الشكوك بأنّه كلام قاهر قادر، هو سلطان السلاطين وملك الملوك.

فجاء مِلء إهاب الهيبة والفخامة وحشو ثياب العظمة والكرامة.

يعرف ذلك من له أدنى معرفةٍ بعلوم العربية والفنون الأدبية.

فيا مَن ذاق منها ولو جرعة واستضاء منها ولو بلمعة، أقصد بندائي وأخصّ بدعائي علماء المسيحية وأحبار النصرانية الذين فجّروا اليوم من العربية جداول وأنهاراً، وجلَوا من خرائدها ثيّباتٍ وأبكاراً، وأجروا المحيط بأقرب الموارد من قاموس لغاتها، وجاؤوا بالوسيط والبسيط في مجمع البحرين من حريريّ مقاماتها، إلى غير ذلك ممّا ينيف على الأُلوف في العربية من مؤلّفاتها.

[ذكر بعض آيات البلاغة والإعجاز]

وأنا ملتمس سائل ولكلّ واحدٍ منهم قائل:

---

(١) الميح: العطاء. (لسان العرب ١٣: ٢٢٩).

ألا بذمّة الإنصاف عليك، ألا بما أسدى الحقّ والحقيقة من الفضائل إليك، ألا بحرمة شرف الإنسانية، ألا بذمّة دين النصرانية، ألا بالمروّة والتكرّم، ألا بشرف العلم والتعلّم، ألا بحقوق البشرية، ألا بالجامعة العصرية، ألا بعلاقة الأدبية، ألا بروابط عرى العربية، ألا بوحدة السنخية، ألا بجدّة الجنسية، ألا بالجامعة الكتابية، ألا بالعرفان واليقين، ألا بالتمدّن والدين، ألا ببيت اللحم المعظّم، ألا بروح القدس و (مريم)، ألا بكلّ الأقانيم، ألا بالعلم والتعاليم، ألا (بيوحنّا)[1] و (بولس)[2]، ألا بالمسجد المقدّس، ألا بكلّ الأناجيل! أقسمتُ عليك إلّا ما طالعتَ وتطلّعت وراجعت ما استطعت، ورفعت عصابة العصبية عن عين بصيرتك وأحضرت الإنصاف وطلب الحقّ في طويتك، راغباً في إصابة الحقّ لك كان أو عليك واضعاً في التأمّل رأسك بين ركبتيك، متوسّعاً في الفكر والتدبّر مجالاً، ناظراً في قوله (تعالى): ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي

---

(١) الحواري يوحنّا بن زبدي الصيّاد، كان المسيح عليه السلام يحبّه حتّى إنّه استودعه والدته وهو فوق الصليب على ما يدّعون، وقد نفي في أيّام الاضطهاد الأُولى، ثمّ عاد إلى أفسس، ولبث يبشّر فيها حتّى توفّي شيخاً هرماً. وأكثر محقّقي المسيحية على أنّ يوحنّا هذا هو شخصية مجهولة.

(أضواء على المسيحية ٤٦ ـ ٥٠، العلاقة الجدلية ١١٤، محاضرات في النصرانية ٤٩ ـ ٥٤، المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٢٣٠ ـ ٢٣١).

(٢) بولس، اسمه الأصلي شاول، ولد في طرسوس، وتربّى في أُورشليم، وكان يهودياً، ومن الفرّيسيين الذين يقولون: إنّ هناك قيامة يشاركون فيها ملك المسيح في الدنيا، وهو من أشدّ أعداء المسيحية، ولقد كان له دور كبير في تحطيم الاتّجاهات الصحيحة للمسيحية بإدخاله فكرة التثليث والقول بإلوهية المسيح، كما أنّه ابتكر خرافة العشاء الربّاني وغفران الذنوب وإلغاء فكرة الختان واختراع قصّة الفداء. وكتب أربعة عشر سفراً تعليمياً من أصل إحدى وعشرين رسالة تشكّل مجموع الرسائل التي تعدّ مصدراً تشريعياً في النصرانية.

(أضواء على المسيحية ٨٤ ـ ٨٦، محاضرات في النصرانية ٧٠ ـ ٧٤، مناظرة بين الإسلام والمسيحية ١٥١ وما بعدها، الموسوعة الميسّرة في الأديان ٥٠٠ ـ ٥٠١).

وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

انظرها وهي في مقامها واختبرها في عقد نظامها، ثمّ استقصها أثراً وتعرّفها خُبراً وخَبراً، ثمّ انظر ماذا تسمع وماذا ترى؟!

أمّا هذا الضعيف الذي لا يُذكر والطفيف الذي هو أحقر من أن يُستحقر ـ على ما في الذهن من الخمود وما بالقريحة من الجمود ـ أجدني عند ذلك وكأنّي قد امتلأتُ نوراً وأوشكت أن أتجافى عن الأرض خفّة وسروراً.

ولربّما تنوبني الفزّة ويصيبني مثل الرعشة والهزّة، وأحسّ من نفسي معنىً لا أستطيع عنه تعبيراً وحريّة حالٍ تسترقّني فلا أملك لها تحريراً!

ولو ذهبت إلى ما في خصوص هذه الآية الباهرة ومظهر القدرة القاهرة من الإيجاز والإعجاز، وشرف المعاني والمباني، وبلاغة التفريع والترتيب، وفصاحة النظم والتركيب، وما اشتملت عليه من أنواع البديع وغرائب الأساليب، لما أجزتني الجزوات، بل احتجت إلى مجلّدات!

وقد قامت عنّا مهرَة الصناعة وحملة تلك البضاعة بكثيرٍ هو منها قليل وحقير بالإضافة إليها وإن كان في نفسه جليل.

ولا تحسبنّ أنّ هذه الآية الكريمة عديمة النظائر والأضراب في ذلك الكتاب.

ضع نظرك أنّى شئت من بيّناته وسرّح فكرك في أيّة آيةٍ أردت من محكماته، تجدها لتلك شقيقة إن لم تكن بالتقدّم حقيقة: **﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾**[2]، أو حاكية في الإعجاز عنها: **﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ**

---

(١) سورة هود ١١: ٤٤.

(٢) سورة الزخرف ٤٣: ٤٨.

بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾[١].

وما هي بواحدة، ولا اثنتين، ولا، ولا.

هاك انظر في قوله (عزّ من قائلٍ وعلا): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٢].

الله أكبر! وسبحان الله ألفاً ألفاً عدد ما أنزل الله حرفاً حرفاً!

ما أدري ماذا أجرى قلم القدرة، وماذا أنشأ لسان القوّة، وماذا حوى وحمل لوح العظمة والسطوة؟!

يميناً بمفيض هذه الشآبيب[٣] ومبدع تلك التراكيب ومعجز هاتيك الأساليب، ما أدري كيف أسبغها وأساغها، وفي أيّ قالب صبّها وصاغها، وإلى أيّ حدّ من البلاغة أنهى بلاغها؟!

تاهت العقول، وتناهت الألباب، وعجزت الأفهام وحُجزت الأوهام، وكلّت الألسن وأعشت الأعين، وانقطعت العبارات وامتنعت الإشارات! فنكصاً[٤] على الأعقاب وحصّاً[٥] لأجنحة الألباب!

يا هل ترى كيف ابتدأ براعةَ استهلالها بعموم النداء ومفاجئة الدعاء، وعقّبه

---

(١) سورة البقرة ٢: ١٠٦.

(٢) سورة الحجّ ٢٢: ٧٣ ـ ٧٤.

(٣) الشؤبوب: الدُفعة من المطر وغيره. (لسان العرب ٧: ٥).

(٤) النكوص: الإحجام، والنكيصة: التأخّر عن الشيء. (العين للفراهيدي ٥: ٣٠٢).

(٥) الحصّ: الحلق. (لسان العرب ٣: ٢٠٤).

بطلب الإصغاء والإنصات والاستماع والالتفات ؛ إشعاراً في صدر الكلام وقبل الشروع في المرام أنّ ما هناك شيء عجيب وشأن غريب هو بمثابة من العجب والغرابة.

وأما وعيش أبيك، إنّ ذلك لكذلك!

أفليس أمراً عجيباً يذر الولدان شيباً أن ترى من ذوي العقل جماعة يخصّون بالعبادة وينقادون بالطاعة لمخلوقٍ مثلهم قطعاً لا يملك لنفسه فكيف لغيره ضرّاً أو نفعاً!

وهو من الضعف والعجز في حالٍ يعجز عن صنع مثل أصغر الحيوانات، بل أخسّ الهوام والحشرات!

وانظر إلى تلك التتمّة، بل التكملة المهمّة، وهي قوله (تعالى): ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾.

فإنّه بمحلٍّ ومكان لا يأتي عليه الحسن ولا الاستحسان.

ثمّ انظر إلى ما وراء ذلك من الترقّي والمبالغة زيادةً في التشنيع والتقريع لهم والتفظيع في عبادة ذلك الخلق الوضيع. وهو قوله (تعالى): ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

فإنّه الغاية في إهانتهم والكشف عن عجزهم ومهانتهم.

وما هو من المبالغة والإغراق الذي هو فوق الواقع، بل ترقٍّ في تصريف المعاني على نحوٍ من البيان بديع بارع.

ثمّ انظر كيف عقّب ذلك بما يزيد الحال في الشناعة والفظاعة.

وأعطى فذلكة المقام، فلخّص وأجمل في كلمةٍ ضرَبها ضربَ المثل، فقال (عزّ شأنه): ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

ثمّ ـ بعد استيفاء الغرض من تصوير تلك الحالة الهائلة والكشف عن غاية قبحها وشناعتها وأنّها معبودات باطلة ـ أوصلَ القول بذكر المعبود بالحقّ، وجهلهم به، وتقصيرهم في طاعته، وقصورهم عن تعظيمه ومعرفته كما هو واجب حقّه وعلى ما ينبغي من عظيم شأنه، فقال (جلّت عظمته وعلت كلمته): ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

ونظراً إلى إلصاقها بالكلام الأوّل وشدّة ارتباطها به لم يفصل بينها وبينه حتّى بحرف العطف؛ لتظهر المقابلة وتبين المباينة، ويتّضح الفرق ويتجلّى الحقّ.

وحيث كان الشأن والغرض المقصود بالبيان هو إظهار عجز تلك المعبودات من دونه (تعالى) وضعفها وضِعتها ناسب أن يجعل ختام الكلام بذكر تأكيد القوّة والعزّة له واختصاصهما به؛ لتجمع بين حسن الابتداء وحسن الختام، فقال (عزّت عظمته وعظمت عزّته): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

عزّت اللهمّ آلاؤك وعظمت نعماؤك، أُثني عليك ممجّداً وأمجّدك موحّداً، وأُوحّدك بالعبودية وأعبدك بالوحدانية.

وأنا، وما أنا؟! بل جميع الفصحاء والبلغاء وأئمّة الكلام جباهنا في السجود لآياتك موضع الأقدام اعترافاً وإذعاناً وإيماناً وإيقاناً.

إلى غير ذلك من عظيم مزاياها، وعلى ما ذكرناه فقس ما سواها.

وقد أعجزنا استيفاء خواصّها ولطائفها، ومعجز بلاغتها وفصاحتها.

وذاك ـ يا ابن ودّي ـ ما لعلّك سمعته من الأمر الذي هو فوق طوق البشر ووراء طور العقل.

وما أكثر أمثال هذه الآية من معجز آياته وزُبر بيّناته ممّا لا يتّسع لعدّه وسعي وفراغي ولا يبلغ أدناه أقصى جهدي وبلاغي.

لا ، واستغفر الله واستعفيه وأتوب إليه واستكفيه من كلّ حـمدي وثـنائي وجميع مدحي وإطرائي ، وما جمعتُ وأوعيت وكدحت وسعيت !

فقد تقحمتِ يا خراشةُ على منيع سور وتهجّمت يا فراشـةُ* عـلى بـركان نور !

فما أجرأك ـ يا هذا ـ على أن تخترق ، وما أحراك بأن تحترق !

ومن أين وأنّى وكيف لي أن أتسنّم أو أتسنّى لصعود تلك المزالق ورقـي هاتيك الشواهق والوصول الى تلك الرقائق والحقائق ، من بيان عظمة القرآن وما فيه وإعجازه في مـبانيه ومـعانيه ، وذكـر عـلومه وتـعاليمه وشـرف مـناطيقه ومفاهيمه ؟ !

(*) الخراشة : الذباب ، والفراشة : واحد الفراش الذي يتهافت على السراج (ق).

جئنا بهما بالإفراد والتأنيث تحقيراً ؛ لأنّ المقام مقام ذلك.

والبركان ـ كما هو معروف ـ وادٍ أو غار أو آبار تقذف بالنار. (منه ﷺ).

أقول : ما نقله في معنى الخراشة من القاموس المحيط تجده في الجزء الثاني منه صفحة ٢٨٢ و٢٩٣.

القرآن وثناؤه علىٰ نفسه

إنّ نعت كلّ شيء من كلّ ناعت تابع لقدر العلم به، وفرع عن زنة الحظّ من معرفة حقيقته والاطّلاع على كنه ذاته.

وحيث إنّ كلامه (تعالى شأن جلاله) صفةٌ من صفاته أو فعلٌ من أفعاله، على الخلاف في حدوثه وقدمه ممّا لسنا بصدد تحقيقه ولا من خطّتنا في هذه الوجيزة سلوك طريقه. ومن الجلي الواضح أنّه (عزّ شأنه) هو المنفرد بالعلم بذاته والأعلم بكنه صفاته. بل حقّ التحقيق والإفادة: أنّ ما هناك مشاركة ولا زيادة.

والممكن عن معرفة كنه ذاته عازب، فكيف يحيط ـ معاذ الله ـ بمعرفة الواجب؟! أو بعد اعتراف سيّد الكائنات وأشرف الممكنات بالعجز والقصور، يبقى للطمع في الخواطر خطور؟!

وعليه، فأكمل ناعتٍ للقرآن نفسُ القرآن.

فما من حديثٍ أصدق عنه من حديثه وآياته، ولا دليل أدلّ عليه من ذاته، ولا قول أحقّ بالبيان عنه من قوله، ولا حول أقوى على الكشف عن أحواله من حوله، ولا أحد أعرف بكمال قدسه من نفسه.

دونك فاستجل صِحاف صحائفه، وإليك فقف على أعراف معارفه، وانظر كيف تصرّف في نعوته وشؤونه، وبماذا أعرب عنه من تصاريف القول وأفانينه.

تجده مشحوناً بأوصاف الكمال ونعوت العظمة والجلال.

فبما أنّه مشتمل على أسباب الهداية وسبل النجاة ومعالم الدين فهو: ﴿ذَلِكَ

﴿الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١].

وحيث إنّ فيه الدلائل المحكمة والبراهين المتقنة التي يُستنار بها في ظلم الظلالات وشُبه الجهالات، فهو برهان يقين ونور مبين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾[٢]، ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣]، ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾، إلى قوله (تعالى): ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

ولاشتماله على العظات البالغة والحجج الدامغة وشموس الهداية البازغة وينابيع الرحمة السائغة كان شفاءً وموعظةً وهدىً ورحمةً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥].

وحيث كانت فيه البشرى والهدى للمسلمين وتفصيل كلّ شيء لأولياء الله المتدبّرين، قال (جلّ شأنه): ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٦].

وحيث تضمّن الدواء لكلّ داءٍ وتصريف الحكم والأمثال والقصص

---

(١) سورة البقرة ٢: ٢.

(٢) سورة النساء ٤: ١٧٤.

(٣) سورة المائدة ٥: ١٥ـ١٦.

(٤) سورة الأعراف ٧: ١٥٧.

(٥) سورة يونس ١٠: ٥٧.

(٦) سورة النحل ١٦: ٨٩.

والأنباء، فلا جرم كان للمؤمنين رحمة وشفاءً وللكافرين خسراناً وشقاءً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلَّا خَسَاراً﴾[١]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾[٢]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[٣].

وأبان عن عظيم منزلته ببيان منزّله، ومن نزَل به، ومن أُنزل عليه، ولسانه الذي أُنزل به: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾[٤].

وحيث تشابهت في البلاغة والإعجاز والبراعة والإيجاز جلّ جمله وسائر سُوره، فمن ذا يحسن القول فيه والحديث عنه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[٥].

ومذ جرت الأُمور فيه على مجاريها، وذُكرت الأشياء به على مصبّ واقعها، وكان من العزّة والصيانة والقوّة والرصانة بالمحلّ الذي يستحيل أن يُعارض ويمتنع أن ينقض أو يتناقض: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٦]، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي

---

(١) سورة الإسراء ١٧: ٨٢.

(٢) سورة الإسراء ١٧: ٨٩.

(٣) سورة الكهف ١٨: ٥٤.

(٤) سورة الشعراء ٢٦: ١٩٢ـ١٩٦.

(٥) سورة الزمر ٣٩: ٢٣.

(٦) سورة فصّلت ٤١: ٤١ـ٤٢.

آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1].

عزّت عظمته، عَظمت عزّته، علت سماؤه، سمى علاؤه، عزّ سلطانه، تعالى شأنه، بهر برهانه، ما انفكّ على هذه الشاكلة، على هذه الوتيرة، على تلك العزيمة، على تلك المثابرة، حتّى وعز إليه الكشف عن حقيقة أمره، عن جلية جوهره، عن كنه كيانه، عن خبره عن عيانه، فضرب عنه للناس مثلاً صحيحاً وقولاً صريحاً، حيث جعله (جلّ شأنه) من لدنه روحاً.

لعمرُ الله، لعمر الملائك، إنّ ذلك لكذلك! هو نصاب الصواب، هو لُبّ اللباب، هو نفس الأمر وعين الواقع، هو القول الفصل والكلام الجامع!

أفليست هذه الأشباح القائمة والأجسام المطّرحة والهياكل المنتصبة بغير الروح موات، لا حسّ لا حركة لا حياة!

أتراك تقول: نعم، أم تقول: لا؟!

كلّا، بل أقول: لعمر التدبّر والإنصاف، إن هي إلّا كهذا الحيوان المنتصب الناصب الذي هو تارةً كالأُسطوانة الملقاة، وأُخرى كمنارة الراهب المتسمّي بالإنسان، وما هو به.

لا حياة له لا روح لا سعادة، لا شرف لا فضيلة لا زيادة، لا علم لا إفادة لا استفادة، لا دين لا آخرة لا دنيا، لا أخلاق لا رقي لا عليا، إلّا بهذا الكتاب الكريم والقرآن الحكيم.

بالاستضاءة بنوره، بالاغتراف من بحوره، بالأخذ بنواميسه، بالاستشراق بشموسه، بالتخلّق بأخلاقه، بالتأدّب بآدابه، بالرجوع إلى تعاليمه، بالوقوف على أقانيمه.

---

(١) سورة فصّلت ٤١: ٤٤.

كيف لا يكون روحاً وأنّى ! ولِمَ لا يستتبّ له شرف الحياة ويتسنّى ! وقد وضعه بل رفعه : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(١).

والأصرح فيما ذكرناه ـ من : أنّ هذا الكتاب هو الروح وبه الحياة لهذه الأجسام الحيّة الموات ـ قوله (تعالى وتعظّم) لنبيّه الأكرم : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢).

إلى كثير من أمثال هذه النعوت الفرقانية والتجلّيات الربّانية ، ممّا يقف عليها السعيد بقراءته ، الحظيّ بتلاوته ، المتدبّر في أسراره ، المستشرق بأنواره .

وبذاك القدر قد اكتفينا ، لا أنّنا قد أحطنا واستوفينا .

وأحلناك في الغير على ما يسعك من السبر والسير ، فخذ حظّك منها بقدر حماسك واجتهادك وعلى حسب فطانتك واستعدادك ، فإنّ هذا الوحي المبين [كالماء في قوله تعالى] : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾(٣).

فكلٌّ يحمل من معين مائه بقدر ما يتّسع له من ظرفه وإنائه .

وهنا أسرار وحقائق ، بل كشف أستار ورقائق ، هي بغير هذا العلم أشبه ، فليُعلم وليتنبّه .

هذا (سدّدك الله) ما أردنا تنبيهك عليه من نعوت القرآن على نفسه ودلالته على ذاته .

---

(١) سورة غافر ٤٠ : ١٥ ـ ١٦.

(٢) سورة الشورى ٤٢ : ٥٢.

(٣) سورة الرعد ١٣ : ١٧.

القرآن وثناء المرسل به وخلفائه عليه

وممّا عاد أو كاد أن يكون قريباً منه لاحقاً به متفرّعاً عليه كلامُ الصادع به المنزل على لسانه وقلبه، وهو كثير.

فمنه قوله (صلوات الله عليه وعلى أُمناء الوحي من آله وخلفائه) كما رواه ثقة الإسلام شيخنا المحدّث (الكليني) (رضوان الله عليه) في كتابه المتقدّم الذكر الشهير (بالكافي)، عن الأربعة[1]، عن (الصادق أبي عبدالله)، عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله (صلوات الله عليه): إنّكم في دار هدنة، وأنتم على ظهر سفر، والسير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار يبليان كلّ جديد، ويقرّبان كلّ بعيد، ويأتيان بكلّ موعود، فأعدّوا الجهاز لبعد المجاز».

قال: «فقام (المقداد)[2]، فقال: يا رسول الله، وما دار الهدنة؟ فقال: دار

---

(١) المقصود بهم: علي بن إبراهيم القمّي، وأبوه، والنوفلي، والسكوني.

(٢) أبو كريمة المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعي البهراني الكندي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأميرالمؤمنين عليه السلام، وأحد السابقين إلى الإسلام، كان يقال له: المقداد بن الأسود؛ لأنّه ربّي في حجر الأسود بن عبد يغوث الزهري، فتبنّاه. وقيل: بل أصاب دماً في كندة، فهرب إلى مكّة وحالف الأسود، وقيل غير ذلك.

عُذّب في الإسلام، وهاجر إلى الحبشة في الدفعة الثانية. شهد بدراً فارساً والمشاهد.

له مجموعة أحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحدّث عنه: ابن مسعود، وابن عبّاس، وجبير بن نفير، وابن أبي ليلىٰ، وهمّام بن الحارث، وجماعة.

كان آدم طوّالاً ذا بطن أشعر الرأس أعين مقرون الحاجبين مهيباً. توفّي سنة ٣٣ هـ، وله نحو من سبعين سنة.

←

بلاغ وانقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشفّع وماحل* مصدّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار.

وهو الدليل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل.

وله ظهر وبطن، فظاهرهُ حكم، وباطنهُ علم. ظاهره أنيق، وباطنه عميق.

له تخوم، وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة.

فليجل جالٍ بصره، وليبلغ الصفة نظره، ينجُ من عطب، ويخلص من نشب، فإنّ التفكّر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور،

← وصلّى عليه عثمان بن عفّان، ودفن بالبقيع.

(التاريخ الكبير ٨: ٥٤، المعارف ٢٦٢، الجرح والتعديل ٨: ٤٢٦ ـ ٤٢٧، الثقات لابن حبّان ٣: ٣٧١ ـ ٣٧٢، مشاهير علماء الأمصار ٢٤، حلية الأولياء ١: ١٧٢ ـ ١٧٦، رجال الطوسي ٢٧ و٥٧، الاستيعاب ٤: ٤٢ ـ ٤٤، الإعلام بوفيات الأعلام ١: ٢٦، سير أعلام النبلاء ١: ٣٨٥ ـ ٣٨٩، تهذيب التهذيب ١٠: ٢٥٤ ـ ٢٥٥، التحرير الطاووسي ٥٥٥ ـ ٥٥٦، جامع الرواة ٢: ٢٦٢، بهجة الآمال ٧: ٨٦ ـ ٨٩، أعيان الشيعة ١٠: ١٣٤).

(*) في النهاية: «القرآن شافع مشفّع وماحل مصدّق»، أي: خصم مجادل مصدّق.

وقيل: ساعٍ مصدّق، من قولهم: مَحَل بفلان، إذا سعى به إلى السلطان.

يعني: [أنّ] من اتّبعه وعمل بما فيه فإنّه شافع له مقبول الشفاعة ومصدّق عليه فيما يُرفع من مساويه إذا ترك العمل به) انتهى. (منه رحمه الله).

أقول: لاحظ النهاية الأثيرية ٤: ١٣٠٠.

فعليكم بحسن التخلّص، وقلّة التربّص»[١].

وقد ورد في صحيح الأثر: «أنّ الله (تعالى) قال لمحمّد (صلوات الله عليه وآله): إنّي منزلٌ عليك توراةً حديثة، تفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غُلفاً، فيها ينابيع العلم، وفهم الحكمة، وربيع القلوب»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله أنزل القرآن آمراً وزاجراً وسنّة خالية ومثلاً مضروباً، فيه نبأكم، وخبر ما كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحُكم ما بينكم.

لا يخلقه طول الردّ، ولا تنقضي عجائبه.

هو الحقّ ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن قسم به أقسط، ومن عمل به أُجر، ومن تمسّك به هُدي إلى صراط مستقيم. ومن طلب الهدى من غيره أضلّه الله، ومن حكم بغيره قصمه الله.

هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسّك به، ونجاة لمن اتّبعه. لا يعوّج فيقوّم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الردّ»[٣].

ويضاهيه ما رواه في (إعجاز القرآن) بعديد أسانيد عن (الحارث

---

(١) الكافي ٢: ٥٩٨ ـ ٥٩٩. وردت زيادة: (أيّها الناس) أوّل الحديث، وورد: (الشمس والقمر) قبل: (يبليان)، و: (بن الأسود) بعد: (المقداد)، و: (يدلّ) بعد: (الدليل)، وورد: (نجوم وعلى نجومه نجوم) بدل: (تخوم وعلى تخومه تخوم).

(٢) قارن: الشفا للقاضي عياض ١: ٢٣١، معترك الأقران ١: ٢٤٠.

ووردت الرواية بصيغة: «أُنزلت عليّ توراة محدثة، فيها نور الحكمة وينابيع العلم، لتفتح بها أعيناً عمياً وقلوباً غلفاً وآذاناً صمّاً، وهي أحدث الكتب بالرحمان» في المصنّف لابن أبي شيبة ٧: ٤٣١. وأورد البيهقي قسماً من الحديث في شعب الإيمان ٢: ٨٢٩.

(٣) انظر الشفا للقاضي عياض ١: ٢٣١. وأورد جزءاً منه البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق ١: ٥١.

الأعور)[١]، عن (علي) عليه السلام: قال: «قيل: يا رسول الله، إنّ أُمّتك ستفتن بعدك، فسأل أو سُئل: ما المخرج من ذلك؟ فقال: بكتاب الله العزيز الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢].

من ابتغى العلم في غيره أضلّه الله، ومن ولي هذا من جبّار فحكم بغيره قصمه الله.

وهو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم. فيه خبر من قبلكم، وتبيان من بعدكم.

وهو فصلٌ ليس بالهزل، وهو الذي سمعتهُ الجنّ ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[٣].

لا يخلق على طول الردّ، ولا تنقضي عبرُه، ولا تفنى عجائبه»[٤].

---

(١) أبو زهير الحارث بن عبدالله بن كعب بن أسد الهمداني الحوتي الكوفي صاحب أمير المؤمنين عليه السلام المعروف بالحارث الأعور. كان من أوعية العلم فقيهاً فارساً شجاعاً جليل القدر من أولياء الأمير عليه السلام ومحلّ عنايته والتفاته. وقد مدحه الكثير من علماء الجمهور. حدّث عنه: الشعبي، وعطاء، وأبو إسحاق السبيعي، وغيرهم. وقد كذّبه الشعبي، وتكذيبه لا قيمة له أصلاً. توفّي بالكوفة سنة ٦٥ هـ، وصلّى عليه عبدالله بن يزيد الأنصاري الخطيمي.

(الطبقات الكبرى لابن سعد ٦: ١٦٨ ـ ١٦٩، طبقات خليفة ٢٥١، المعارف ٦٢٤، طبقات الفقهاء للشيرازي ٦٠، تهذيب الكمال ٥: ٢٤٤ ـ ٢٥٣، سير أعلام النبلاء ٤: ١٥٢ ـ ١٥٥، العبر ١: ٧٣، شذرات الذهب ١: ٧٣، أعيان الشيعة ٤: ٣٦٥ ـ ٣٧٠).

(٢) سورة فصّلت ٤١: ٤٢.

(٣) سورة الجنّ ٧٢: ١ ـ ٢.

(٤) إعجاز القرآن للباقلاني ٢٤٥ ـ ٢٤٦. ووردت زيادة: (من) قبل: (بعدك).

وقارن: سنن الدارمي ٢: ٤٣٥ و ٤٣٦، سنن الترمذي ٥: ١٧٢ ـ ١٧٣، شعب الإيمان للبيهقي ٢: ٨٠١.

أمّا الخلفاء والتابعون وكبراء المسلمين وعيون الرجال ومداره[1] الفصاحة والبلاغة قديماً وحديثاً، فلا أستطيع في مقامي هذا جمع الكثير من كلماتهم في نعت القرآن، فضلاً عن الأكثر أو الكلّ منها.

ومن أراد استقصاء ذلك وتدوينه أمكنه بسهولة أن يجمع منه كتاباً ضخماً ومؤلّفاً فخماً.

وإنّما أُورد في هذا السفر ما يحضر في خزانة خاطري ومذكّرة ذاكرتي، وما قرب منّي وسهُل أخذه عليّ من شذورٍ علقت بالذهن عند المرور بها والعبور عليها عفواً، ولم استوسعها طلباً، ولا أوقفت عليها وقتاً، ولا جعلت لها من العناية قسطاً؛ لأنّ موضوع كتابنا بالأصالة ليس ذلك وإن كان لصيقاً به عريقاً فيه، بيد أنّا نخشى من التوسّع أن يفوّت جوهر الغرض.

ولكنّا نذكر شيئاً من تلك الشذور شبه النموذج والعنوان:

قال الخليفة (أبو بكر) ﷺ من خطبة له: «اعلموا ـ عباد الله ـ أنّ الله قد ارتهن بحقّه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، وعوّضكم بالقليل الفاني الكثيرَ الباقي. وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره، فثقوا بقوله، وانتصحوا كتابه، واستبصروا فيه ليوم الظلمة، فإنّه خلقكم لعبادته، ووكّل بكم الكرام الكاتبين.

أيّها الناس، تعلّموا القرآن واعملوا به تكونوا من أهله. إنّه لم يبلغ من حقّ مخلوق أن يطاع في معصية الخالق، والقضم دون الخضم[2]»[3].

---

(١) البِذْرَه: زعيم القوم والمتكلّم عنهم. والجمع: المَدَارِه. (صحاح اللغة ٦: ٢٢٣١).

(٢) القضم: الأكل بأدنى الأضراس، والخضم: الأكل بأقصاها. (تهذيب اللغة ٧: ٥٦).

(٣) راجع: المستدرك على الصحيحين ٢: ٤١٥ـ٤١٦، المنتظم ٤: ٦٩ ـ ٧٠.

القرآن وثناء الأئمّة المعصومين عليه

حقّاً! إنّما يعرفُ القرآن من خُوطب به، ومن نزل على فؤاده وقلبه، الذي علّمه منشيه علوم عجائبه وألهمه تفاسير غرائبه، الذي جعله خـازناً له وأمـيناً، وشرّفه عليه حيث جعله كتاباً ناطقاً مبيناً، أو مَن أودعهم ذلك الخازن الأمين ما عنده، وجعلهم الأوصياء والخلفاء بعده.

هم خاصّة أهل بيته الذين نزل القرآن في منازلهم وأعرب عن شـطرٍ مـن أحوالهم وفضائلهم.

وهم أعرفُ بعمومه وخصوصه، وظواهره ونصوصه، ومنسوخه وناسخه، وعاليه وشامخه، ومُحكمه ومأوّله، ومتشابهه ومجمله، وجميع تفاصيله وشؤون نزوله، وأنوار بركاته وخواصّه وخيراتـه، ورمـوزه وإشـاراتـه، وحـدّ إعـجازه ومقدار إيجازه، وحلّ ألغازه، وشرف قدره وعظيم مقداره.

كيف لا! وهم والكتاب:

كلٌّ كتاب الله لكن صامتٌ هذا وهذا نـاطقٌ ومـبين

فهما الثقلان أكبر وأصغر، والكتابان: صامت يحتاج إلى التفسير، وناطق مُفسّر، والقرينان اللذان لا يفترقان حتّى يردا على النبي الحوض، وهـم سـفينة النجاة، وهو بحر المعارف الذي لا يسوغ بدونها لأحدٍ فيه الخوض.

فلا نجاة مفيدة إلّا بالتمسّك بـهما والأخـذ عـنهما، ولا حـياة سـعيدة إلّا بالرجوع إليهما والجمع بينهما.

فهم لأسرار حكمته خزنة ولمشاعر كعبته مفاتيح وسدنة، وهم باب مدينة علمه وحُجّاب سرادق عزائمه وعزمه.

وحيث إنّ كلّاً منهما للآخر صاحبٌ وقرينٌ، وما كلٌّ إلّا كتابٌ مبينٌ، فإذا أردتَ أن تعرفَ شأن كلّ واحد منهما فاعرفه من أخيه، وتحمّم في جزارة عرفانك، واعرف من أين تؤكل الكتف[1]، وخذ الماء من مجاريه.

دونك هذا نهج البلاغة، وما أسبغه في ذلك وأساغه، فتصفّح صحائفه، وتعرّف معارفه، وأقصد مقاصده، وقف مواقفه، وانظر ما أبان من علوّ الشأن لهذا القرآن، وكيف أبهر فيما أظهر، وأغرب فيما أعرب من عظيم المنزلة له والمكان.

وقد تكثّر ذلك فيه وتوفّر، بحيث تعذّر إحصاؤه هنا أو تعسّر!

ولكنّي حرصاً على استنارة جبهات هذه الأوراق وبداراً إلى إبدار الحقّ في بروجها بعد المحاق، لا صبرَ لي عن ذكر شيءٍ من لئالئ لُجّه ودرر نهجه، وإن كنت احتار فيما اختار ولا أجد في كلامه عليه السلام إلّا ما هو في منتهى الحسن والاختيار.

فهاكَ واحدةً من آحاد تُنبئك فرائدها عن بقيّة الأفراد:

وهي قوله عليه السلام ـ بعد ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام وما لهما من عظيم الزلفى والمنزلة ـ: «ثمّ أنزل عليه الكتابَ نوراً لا تُطفى مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحراً لا يُدرك قعره، ومنهاجاً لا يضلّ نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يُخمد برهانه، وتبياناً لا تُهدم أركانه، وشفاء لا تُخشى أسقامه، وعزّاً لا

---

(١) هذا مثل يضرب للرجل الحاذق ذي الدهاء ولمن جرّب الأُمور، فيقال: فلان يعلم من أين تؤكل الكتف.
لاحظ: الأمثال لابن سلّام ١٠٠، جمهرة الأمثال ٢: ٧٦ و ٤٢٣.

تُهزم أنصاره، وحقّاً لا تخذل أعوانه.

فهو معدن الإيمان وبحبوحته[١]، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافيّ[٢] الإسلام وبنيانه، وأودية الحقّ وغيطانه..

وبحرٌ لا ينزفه المتنزفّون، وعين لا ينضبها الماتحون[٣]، ومناهلُ لا يغضيها الواردون، ومنازل لا يضلّ نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكامٌ لا يجوز عنها القاصدون.

جعله الله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجّ لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داءٌ، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزّاً لمن تولّاه، وسلماً لمن دخله، وهدىً لمن ائتمّ به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلّم به، وفلجاً لمن حاجّ به، وحاملاً لمن حمله، وآيةً لمن توسّم، وجُنّةً لمن استلأم، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى»[٤].

«واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ، والهادي الذي لا يضلّ، والمحدّث الذي لا يكذب.

وما جالسَ هذا القرآن أحدٌ إلّا قامَ عنه بزيادةٍ أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان من عمى.

---

(١) بحبوحة كلّ شيء: وسطه وخياره. (لسان العرب ١: ٣٢٣).

(٢) الأثافي: الأحجار التي تُوضع عليها القدور. (المصدر السابق ١: ٧٢).

(٣) الماتح: المستقي. (المصدر السابق ١٣: ١٣).

(٤) نهج البلاغة ٣١٥ ـ ٣١٦. وورد: (المستنزفون) بدل: (المتنزّفون)، و: (عيون) بدل: (عين). ووردت زيادة: (وشاهداً لمن خاصم به) بعد: (تكلّم به).

واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ، ولا لأحد قبل القرآن من غنىً .

فاستشفوه من أدوائكم ، واستعينوا به على لأوائكم ؛ فإنّ فيه شفاءً من أكبر الداء ، وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال .

فاسألوا الله به ، وتوجّهوا إليه بحبّه ، ولا تسألوا به خلقه .

إنّه ما توجّه العباد إلى الله بمثله . إنّه شافعٌ ومشفّع وقائل ومصدّق »[١] .

إلى أمثال هذه من كلماته النورانية التي نحن ـ مع شدّة الحاجة إليها ـ في غنىً عن نقل جميعها ؛ لاشتهارها وشيوعها .

ولكلّ واحد من سلالته المعصومين وعترته الطاهرين مثل ما له (صلوات الله عليه وعليهم) في سائر مقاماتهم من خطبهم وأحاديثهم وأدعيتهم ومناجاتهم .

هذا سليله وسميّه ، ولي الله وصفيّه ، رابع أئمّتنا الاثني عشر : زين العابدين وسيّد الساجدين (علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب) عليه السلام .

وما أدري هل لاحظَتك السعادة بالفوز بصحيفته السجّادية المعروفة عند أهل البيت بزبور آل محمّد صلى الله عليه وآله ، التي هي ثانية ذلك النهج بل الوحيدة النسج ، التي يوشك أن لا تجد نظيرها في كلام المخلوق بعلوّ مضامينها وشرف أساليبها وأفانينها ، ولا يكاد يقاربها أو يساويها إلّا ما كان من شجرة معاليها ومعدن لئاليها وما قد تولّد من بيت أُمّها وأبيها .

وقد فاتت حدّ العجب والإعجاب بما اشتملت عليه من أعالي البلاغة في بيان كنه العبودية وأسرار ربوبية ربّ الأرباب .

---

(١) نهج البلاغة ٢٥٢ . وورد : (واعلموا أنّه شافع) بدل : (إنّه شافع) ، و : (مصدّق) بدل : (ومصدّق) .

وبالجملة: فلسان النظر فيها والرجوع إليها أدلّ على رفيع مقامها من لسان مدحي وثنائي عليها.

وقد نشرتها أيدي المطابع نشراً ذريعاً، وشرحتها العلماء بأنحاءٍ من الشروح[١].

بيد أنّهم لم يؤدّوا حقّها جميعاً.

راجع [الدعاء] الثاني والأربعين، وهو من بعض ما دعا به (على ذكره السلام) عند ختمه للقرآن، وانظر كيف نعت به كتاب الله الكريم بتلك النعوت العالية، وأين أنزله في الشرف والشأن، وإلى أين بلغ به من المقامات السامية؟!

فمن شريف عقوده وطريف بنوده قوله عليه السلام: «اللهمّ، صلّ على محمّد وآل محمّد، واجعل القرآن لنا في ظُلم الليالي مؤنساً، ومن نزغات الشيطان وخطرات الوساوس حارساً، ولأقدامنا عن نقلها إلى المعاصي حابساً، ولألسنتنا عن الخوض في الباطل من غير ما آفةٍ مخرساً، ولجوارحنا عن اقتراف الآثام زاجراً، ولما طوت الغفلة عنّا من تصفّح الاعتبار ناشراً؛ حتّى توصل إلى قلوبنا فهم عجائبه وزواجر أمثاله التي ضعُفت الجبال الرواسي ـ على صلابتها ـ عن احتماله»[٢].

إلى أمثال ذلك ممّا رشح من ينابيع الحكمة وشعّ من أنوار الرحمة، الذين هم حملته وعندهم تفاصيله وجملته.

كما قال هو عليه السلام في صدر دعائه هذا وغيره وفقاً لما تكرّر في كلمات جدّه

(١) ذكر الطهراني قدس سره أكثر من ستّين شرحاً. راجع الذريعة ١٣: ٣٤٥ ـ ٣٥٩.

(٢) الصحيفة السجّادية ١٤٤ ـ ١٤٥.

أمير المؤمنين، كما يشهد لك به (نهج البلاغة) وغيره من خطبه.

قال زين العابدين عليه السلام: «اللهمّ، إنّك أنزلته على نبيّك محمّد صلى الله عليه وآله مجملاً، وألهمته علم عجائبه مكمّلاً، وورّثتنا علمه مفسّراً، وفضّلتنا على من جهل علمه، وقوّيتنا عليه لترفعنا فوق من لم يطق حمله.

اللهمّ، فكما جعلت قلوبنا له حَمَلة، وعرّفتنا شرفه وفضله، فصلّ على محمّد الخطيب به وعلى آله الخزّان له، واجعلنا ممّن يعترف بأنّه من عندك حتّى لا يعارضنا الشكّ في تصديقه، ولا يختلجنا الزيغ عن قصد طريقه»[1].

انتهى ما أردنا نقله من ذلك الدعاء الشريف.

وأنت (أصلحك الله) وإن كنت لا تعترف على اليقين بإمامتهم ولا ترى من الدين وجوب عصمتهم، إلّا أنّي ما أظنّك ـ بعد الإسلام ـ إلّا مستسلماً لأمرهم مذعناً بعظيم شرفهم وخطير قدرهم عارفاً بأنّ ثناءهم على ذواتهم الشريفة ليس إلّا دلالةً للناس على ما به نجاتهم السعيدة وحياتهم الرغيدة ومقاصدهم السديدة.

كما قال حفيده إمامنا (الصادق) في نشر علوم آبائه (سلام الله عليه وعليهم): «إنّ بلاءنا بالناس عظيم! إن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا، وإن هديناهم لم يقبلوا منّا»[2].

---

(١) الصحيفة السجّادية ١٤٣. ووردت زيادة: (برحمتك) قبل: (شرفه).

(٢) ورد الحديث بلفظ: «بلية الناس عظيمة، إن دعوناهم لم يجيبونا، وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا» في أمالي الصدوق ٤٨٨.

وورد الحديث بنفس الألفاظ ولكن بزيادة: (علينا) بعد: (الناس) في الفقيه ٤: ٤٠٥.

←

ولعلّ عين ألفاظه وأُسلوبه ذهب عن حفظي، ولكن هو بهذا المضمون.

نعم، لا أرتاب في أنّ جهابذة الإسلام يعلمون أنّ تلك الشجرة الطيّبة النبويّة ما كانوا ليزكّوا أنفسهم باطلاً وزوراً، كيف! وهم يعترفون أنّهم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

فلم يبق إلّا التعلّل بأن تقول: إنّ الشأن في إثبات أنّ ما حكيناه ونحكيه عنهم هو على اليقين صادر منهم.

وهذا أمرٌ نصيحتي لك فيه أن لا تجعله من فنّك، ولا تكدّر به صفاء ذهنك، وإلّا عسر عليك إثبات شيء من المؤلّفات عن أربابها، وحجر أشدّ الحجر دونك أن تنسب ما فيها إلى أصحابها.

بيد أنّك (سدّدك الله) تعلم أنّ كلّ طائفة جمعتها وحدة دينية أو فنيّة أو صناعة علميةٌ أو عمليةٌ، إلى غير ذلك من الروابط الاتّحادية: عقلية أو ملّية أو عادية، هم أعرف بمقالات زعماء طريقتهم ورؤساء نحلتهم أو صناعتهم.

فالنحاة مثلاً أخبر بأقوال أكابر ذلك الفنّ وأعرف بمؤلّفاتهم ولحن كلماتهم، وهم مصدّقون في أنّ هذا قول (سيبويه)[1] أو كتابه، وذاك لحن

→ وورد بنفس ألفاظ الفقيه، ولكن بتبديل: (يجيبونا) بـ: (يستجيبوا) في: الإرشاد للمفيد ٢: ١٦٧ ـ ١٦٨، وكشف الغمّة ٢: ٣٤٠.

ولكن الرواية فيه عن الباقر لا الصادق عليه السلام.

(١) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي البصري المعروف بسيبويه، إمام النحو، سمّي بسيبويه؛ لأنّ وجنتيه كانتا كالتفّاحتين، وكان شابّاً جميلاً بديع الحسن نظيفاً، في لسانه حُبسة، وله ذؤابتان، طلب الفقه والحديث مدّة، ثمّ أقبل على العربية فبرع فيها. استملىٰ على حمّاد بن سلمة، وأخذ النحو عن: عيسى بن عمر، ويونس ابن حبيب، والخليل الفراهيدي، والأخفش الكبير. له كتاب (الكتاب) الشهير في النحو. وقد ناظر الكسائي ←

(الكسائي)[1] أو خطابه، إلّا أن يقع النزاع فيهم ويثبت الخلاف بينهم.

أمّا لو اتّفقوا فاتّفاقهم حجّةٌ على من عداهم، ولا يضرّ فيه ولا يساويه إنكار من سواهم، إلّا أن يكون ضارباً معهم في عرق وقريناً لهم في ربق[2]، بحيث يُعدّ من تلك العدّة وتجمعه وإيّاهم تلك الوحدة وإن كان جامعاً معها سواها وداخلاً فيما عداها.

وهذا أصلٌ مطّرد سارٍ وقولٌ في المقامات كلّها جارٍ.

← ببغداد في مجلس البرامكة، فجرت بينهما مسألة الزنبور الشهيرة المذكورة في مظانها، فغضب سيبويه وسار إلى بلاد فارس، وقصد الأمير طلحة بن طاهر الخزاعي، وتوفي بشيراز غمّاً وكمداً سنة ١٨٠ ها! وقيل: بل سنة ١٨٨ هـ، وله من العمر (٣٢) سنة، وقيل: بل (٤٠) سنة.

(تاريخ بغداد ١٢: ١٩٥ ـ ١٩٩، معجم الأُدباء ١٦: ١١٤ ـ ١٢٧، وفيات الأعيان ٣: ٤٦٣ ـ ٤٦٥، سير أعلام النبلاء ٨: ٣٥١ ـ ٣٥٢، العبر ١: ٢٧٨ و٣٥٠ و٤٤٨، البداية والنهاية ١٠: ١٧٦ ـ ١٧٧، شذرات الذهب ١: ٢٥٢ ـ ٢٥٥).

(١) أبو الحسن علي بن عبدالله بن بهمن بن فيروز الكوفي الأسدي بالولاء المعروف بالكسائي؛ لكساءٍ أحرم فيه، شيخ القراءة القرآنية والعربية في زمانه. تلا على: ابن أبي ليلى عرضاً، وحمزة بن حبيب الزيّات، وعيسى بن عمر المقرئ. وتلا عليه: أبو عمر الدوري، وأحمد بن أبي سُريج، وأبو حمدون الطيّب، وعدّة. وحدّث عن: الإمام جعفر الصادق عليه السلام، والأعمش، وسليمان بن أرقم، وجماعة. وجالس في النحو الخليل الفراهيدي، وأخذ عن يونس بن حبيب النحوي، وأخذ عنه: الفرّاء، وخلف الأحمر. سافر في بادية الحجاز مدّة لتحصيل العربية، حتّى أصبح أعلم الناس بالنحو وواحدهم في الغريب وعلم القرآن على ما قيل. كان قليل الشعر، فيه تشيّع، وكان مؤدّباً للرشيد العبّاسي ولابنه محمّد الأمين. له عدّة تصانيف، منها: معاني القرآن، كتاب النوادر الكبير، كتاب القراءات، المختصر في النحو. توفّي بالري سنة ١٨٩ هـ.

(التاريخ الكبير ٦: ٢٦٨، المعارف ٥٤٥، الجرح والتعديل ٦: ١٨٢، تاريخ بغداد ١١: ٤٠٣ ـ ٤١٥، معجم الأُدباء ١٣: ١٦٧ ـ ٢٠٣، وفيات الأعيان ٣: ٢٩٥ ـ ٢٩٧، سير أعلام النبلاء ٩: ١٣١ ـ ١٣٤، شذرات الذهب ١: ٣٢١، أعيان الشيعة ٨: ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

(٢) الرِبق: الحبل. (معجم مقاييس اللغة ٢: ٤٨١).

ونرجع إلى استيفاء ما كنّا فيه ونعيد النظر فيما نقلناه من تلك الكلمات والفقر التي هي من بعض ما ورد عن النبي وأهل بيته (صلوات الله وسلامه عليهم).

والجميع وإن كان الغاية من البلاغة وإصابة شاكلة الفصاحة، ولكنّها لا تنتظم في صفّ فصاحة القرآن وبلاغته ومعجز نظمه وبديع أُسلوبه وإن حامت حول تلك الأنوار واقتبست من تلك الأشعّة.

نعم، هي أدلّ آيةٍ على إعجاز تلك الآيات.

فإنّ ذلك الكلام وأشباهه من جوامع الكلم النبويّة الذي هو من النمط الأعلى والطراز الأوّل في البلاغة والبراعة إذا قرنته أو ضممته إلى كلام الله (تعالى شأنه) أظلم ذاك الشعاع في نوره، واندكّ ذاك اليفاع[1] في طوره، ولمع كلام الله بينها لمعان الذهب بين شذوره.

يحسن هنا نقل كلام لسيّدنا (الشريف الرضي الموسوي)[2] (ساق الله نجب الرضوان إليه) بل (سلام الله على آبائه وعليه).

قال في تفسيره المسمّى: (بحقائق التأويل ودقائق التنزيل) لدى تحقيق أنّ القرآن غير مشتمل على الحروف الزائدة، وأنّ جميع ما يُتوهّم من ذلك فلا يخلو المعنى به من فائدة، غير ما يقولون من التقوّي والتأكيد وأمثالها ممّا لا يرجع إلى كثير طائل ومعنىً فاضل.

قال (رضوان الله عليه) من كلامٍ اقتطعنا منه ما به الغرض والشاهد لما كنّا فيه: (فأمّا إذا كان الكلام محلول العقال مخلوع العذار ممكناً من الجري في

---

(١) اليفاع: القطعة من الجبل، أو من الغِلَظ العالية ترتفع عمّا حولها. (جمهرة اللغة ٢: ٩٣٩).

(٢) تقدّمت ترجمته في ج ١ ص٤٢٦ هـ ٢.

مضماره غير محجور بينه وبين غاياته، فإن شاء صاحبه أرسل عنانه فخرج جامحاً، وإن شاء قدع لجامه فوقف جانحاً، لا يحصره أمد دون أمد، ولا يقف به حدّ دون حدٍّ، فلا تكون الزيادات الواقعة فيه إلّا عيّاً واستراحةً وتغوّثاً وإلاحةً.

وهذه منزلة يترفّع عنها كلام الله (سبحانه) الذي هو المتعذّر المعوز والممتنع المعجز، وكلّ كلام إنّما هو مصلٍّ خلف سبقه وقاصر عن أدنى بلوغ غاياته.

بل قد يرتفع عن بلوغ هذه المنزلة كلام الفصحاء المقدّمين والبلغاء المحذقين، فضلاً عمّا هو أعلى طبقات الكلام وأبعد عن مقدورات الأنام.

وإنّي لأقول أبداً: إنّه لو كان كلامٌ يلحق بغباره أو يجري في مضماره بعد كلام رسول الله ﷺ لكان ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ كان منفرداً بطريقة الفصاحة، لا تزاحمه عليها المناكب، ولا يلحق بعقوه[1] فيها الكادح الجاهد.

ومن أراد أن يعلم برهان ما أشرنا إليه من ذلك فلينعم النظر في كتابنا الذي ألّفناه وسمناه: بنهج البلاغة، وجعلناه يشتمل على مختار جميع الواقع إلينا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع الأنحاء والأغراض والأجناس والأنواع من خطب وكتب ومواعظ وحكم، وبوّبناه أبواباً ثلاثة تشتمل على هذه الأقسام مميّزة مفصّلة.

وقد عظم الانتفاع به، وكثر الطالبون له؛ لعظيم قدر ما ضمنه من عجائب الفصاحة وبدائعها، وشرائف الكلم ونفائسها، وجواهر الفقر وفرائدها.

وكلامه عليه السلام ـ مع ما ذكرنا من علو طبقته وخلو طريقه وانفراد طريقته ـ فإنّه إذا حوّل ليلحق غاية من أدنىٰ غايات القرآن وُجد ناكصاً متقاعساً ومُقهقراً راجعاً

---

(١) بعقوه، أي: بساحته، أو: بأخذه في شُعب الكلام. (لسان العرب ٩: ٣٣٤).

وواقفاً بليداً وواقعاً بعيداً.

على أنّه الكلام الذي وصفناه بسبق المجارين والعلوّ على المسامين، فما ظنّك بدون ذلك من كلام الفصحاء وبلاغات البلغاء الذي يكون بالقياس إليه هباءً منثوراً وسراباً غروراً!

وهذا الذي ذكرناه أيضاً من معجزات القرآن إذا تأمّله المتأمّل وفكّر فيه المفكّر؛ إذ كان الكلام المتناهي الفصاحة العالي الذروة البعيد المرمى والغاية إذا قيس إليه وقُرن به شالَ في ميزانه وقصُر عن رهانه، وصار بالإضافة إليه قالصاً بعد السبوغ[1] وقاصراً بعد البلوغ ليصدق فيه قول أصدق القائلين (سبحانه) إذ يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2])[3].

انتهى ما أردنا نقله من هذا الديباج الخسرواني والنسج البديع، فما النسج اليماني؟!

ولئن كان لغير أُمناء الوحي من البشر حظٌّ من معرفة عظيم شأن القرآن والوقوف على إعجازه ورصفه ومساغ نعته ووصفه، فهو حقّ مثل هؤلاء من مَهرَة العربية وسحرة البيان وأعيان الرجال ورجال الأعيان الفحول المتظلّعين والجهابذة البارعين من النمرقة العليا والطراز الأوّل.

---

(١) قلص: انضمّ وانزوى. (صحاح اللغة ٣: ١٠٥٣).

وشيء سابغ: كامل وافٍ. (المصدر السابق ٤: ١٣٢١).

(٢) سورة فصّلت ٤١: ٤١ ـ ٤٢.

(٣) حقائق التأويل ٢٨٦ ـ ٢٨٨. ولكن ورد: (لغوباً) بدل: (تغوّثاً)، و: (بلوغ أدنى) بدل: (أدنى بلوغ)، ولم تأت كلمة: (بلوغ) الثانية، وورد: (المتقدّمين) بدل: (المقدّمين)، ولم ترد لفظة: (عن) قبل: (مقدورات)، وورد: (حلو طريقته) بدل: (خلوّ طريقه).

ما هي الفصاحة والبلاغة ؟ وما الطريق لمعرفة الإعجاز بهما ؟

الفصاحة والبلاغة (بلّغك الله مراقيها) إنّما هي من الصفات المعنوية التي تحسّ وتدرك ولا تمسّ ولا تمسك، وتعرفها الطباع السليمة بغرائزها وأذواقها، لا أنّها ممّا تشهدها العيون بأحداقها.

وذاك الذوق وتلك الغريزة إمّا منحة في الجبلّة وموهبة في الذات بحسب الفطرة، كما هي في العرب الأوّلين المتفاوتين في ملكاتها وكمالاتها بتفاوت ذواتهم المشرقة المضيئة بمقتضى ما سبق لهم من العناية والمشيئة.

وإمّا حصولية كسبية ومهنة تعليمية، يزرعها التعلّم والتعليم في باحة الطبع المستقيم، فلا تثمر إلّا بعد الجدّ والتعب والكدّ والطلب، كما في سائر أساطين هذه الصناعة من ذوي التقدّم والبراعة من الشعراء وغيرهم.

فالناس (حرسك الله) إذاً صنفان لا ثالث لهما: إمّا ذو حظٍّ وتمييز من معرفة العربية قليل أمرها أو كثيره، جليله أو حقيره، بالطبع والمنحة وعلى أصل الاستقامة والصحّة، أو بالكسب والتحصيل، أو بالتعلّم بعد الجهد الطويل، كما في سائر الناس منذ الأزمنة المتأخّرة من سائر طبقات الأُمم، لا أخصّ العرب والعجم.

فإنّ الناس من أيّة أُمّةٍ تُفرض وأيّ قومٍ منذ زمان متقادم إلى اليوم قد تلاشت عنهم تلك الصفة، وانسلخت عن ألسنتهم وأذواقهم تلك المعرفة، ونُسخت من طباعهم تلك الغريزة، وصار الرجل لا ينال من العربية ومعرفة

البلاغة حظّاً لا معنىً ولا لفظاً إلّا بالكسب والطلب وبعد التعب والنصب، عربي الجلدة كان أو غيرها، على اختلافٍ في صعوبة الأمر ولينه وسهولته وحزونه بين الأُمم وآحادها وكلّ أُمّة وأفرادها.

فمن ساعده استعدادُه ولُطف قريحته وصفاء جوهره ـ بمرافدة كدّه وكدحه وطلبه وسعيه ـ دخل في زمرة أهلها ـ على اختلاف طبقاتهم وتفاوت منازلهم من مبتدئٍ تالٍ أو متوسّط أو متعالٍ ـ وإلّا كان من الصنف الثاني، وهو الأملس الجلدة، العاري البشرة، العادم التمييز، الفاقد المعرفة، الصفر الوِطاب[1]، الخالي العياب، من قليل هذا الأمر وكثيره، وأيسره وخطيره.

فالقسمة الحاصرة هنا بين النفي والإثبات: أنّ الناس في معرفة البلاغة إمّا عارف مجتهد، أو جاهل مقلّد. ذاك من لم يجعل الله له هذه الحاسّة، ولا اكتسب تلك القوّة، ولا مارس هذه الصنعة، ولا ذاق طعم تلك الجرعة، فهو عند الغاية (أجارك الله وعافاك) كالأكمه والأصمّ الذي ليس له حاسّة إدراك الصور المعجبة وسماع النغمات المطربة.

[تسجيل الحجّة في الإعجاز على الناس، وطريق ذلك، وذكر نماذج لآيات الإعجاز]

وحيث استبان لديك أنّ الناس في معرفة هذا الأمر لا تعدو هذين الصنفين، فنحن ـ بفضل الله (تعالى) ـ نُسجّل الحجّة على كلٍّ منهما، ونُعيّن له سبيل الوصول إلى هذه الغاية، وندلّه على أسباب حصول اليقين والدراية، حتّى

(١) الوَطَب: سِقاء اللبن. (تهذيب اللغة ١٤: ٢٨).

ننتهي به إلى منتهى الطمأنينة والثبات ومنقطع الشكوك والشبهات، إن كان ممّن نزع روح العصبية من جثمانه ووضع في يد الإنصاف وطلب الفضيلة فضل عنانه.

أمّا من تقمّص بالتعصّب وتردّى ولو هوى وتردّى، وجدّ في أن لا يفارق ما وجد عليه قومه أباً وجدّاً، فذاك ليس هو المعنيّ بكتابنا ولا المقصود بخطابنا.

ونحن لسنا معه في هذه المعركة، وأمرنا وإيّاه على المهادنة اليوم والمتاركة، حتّى يُبعث لنا أو له سائق التوفيق ويجمعنا على الحقّ في سواء الطريق. وإلّا فالموعد بيننا وبينه يومٌ آخر تجتمع فيه الخلائق وتتمحّص به الحقائق. وليرَ منّا الساعة بما أراد من حسنة أو فحشاء فهو اليوم وما شاء.

ولنتراجع إلى الغرض قبل فوته، فنقول لمن هو من الصنف الأوّل الذي عرف للبلاغة معنى ووقف على ذلك المغنى، وحصلت له تلك الحاسّة وقامت فيه تلك القوّة، ونال حظّاً منها ـ ولو يسيراً ـ وأصاب من أنصبائها قليلاً أو كثيراً، وصار يحسّ بها ـ إذا وجدها ـ إحساساً وجدانياً ويعلم بها في مظانها ومواضعها علماً يقينياً:

يا هذا، الله ثمّ الله عليك! فإنّك بين يديه وهذا القرآن بين يديك! اجمع جمعك واسع وسعك، واجهد جهدك واحشد حشدك، واعقد عندك محتفلاً ولجنة واجمع فيه من تراه عن المهرة في البلاغة وذوي المهنة، فإنّهم بين عينيك وما كان ليخفى مقامهم عليك، فإنّ الصناعة الواحدة داعية التعارف وواسطة التواصل والتكانف. ثمّ اجمع أمرك وخذ معهم حذرك، واستقبلوا من القرآن أيّة خطّةٍ شئتم وأيّ مقامٍ أردتم: مقام الدعة الى التوحيد، مقام الوعد والوعيد، مقام التشويق إلى الجنان، مقام التحذير من النيران، مقام القصص والأنباء، مقام دعوة الأنبياء، مقام تهذيب النفس الإنسانية، مقام نشوئها ونموّها من الجمادية إلى

الحيوانية، إلى غير ذلك من الموجودات السمائية والأرضية، ممّا يتعلّق بالعلوم الطبيعية أو الرياضية، كالسحاب والمطر والرعد والبرق والبرد والصواعق والزلازل وغيرها من كائنات الجوّ.

أُعطيك نموذجاً في القول وعنواناً من البيان تقيس عليه ما شئت من غيره.

خذ من أوائل سورة القصص إلى عشرين أو ثلاثين آية مثلاً، وانظر فيما اقتصّ (جلّ شأنه) من نبأ (موسى) وتفاصيل أحواله، وما جرى له من حين ارتضاعه وأيّام صباه إلى الوقت الذي كلّمه الله فيه واجتباه مفتتحاً بقوله (جلّ من قائل): ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١].

إلى قوله (تعالى) بعدما اقتصّ من زواج كليمه ببنت (شعيب) بثماني حجج، قال (سبحانه): ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾[٢].

ثمّ اقتصّ (جلّ شأنه) خبر إرساله إلى (فرعون) وتفرعنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي

(١) سورة القصص ٢٨: ٣ ـ ٤.

(٢) سورة القصص ٢٨: ٢٩ ـ ٣١.

أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[1]. إلى منتهى القصّة، وهو قوله (تعالى): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

هذه قصّة من قصصه، وخبرٌ من أخباره، ولمعةٌ من أنواره.

لا أخصّها لك بعينها ولا أُعيّنها عليك بخصوصها، بل أشرت لك بها إلى الغرض، وصيّرتها منهجاً، وذكرتها مثالاً ونموذجاً.

خذ أيّاً شئت من نبأ (آدم) و(إبليسه)، و(إبراهيم) و(نمروده)، و(لوط) وقومه، و(صالح) و(ثموده)، و(هود) و(عاده)، و(يوسف) وإخوته، و(شعيب) ومدينه، و(داود) و(جالوته)، و(سليمان) و(بلقيسه)، و(زكريّا) وأُمّته، و(يحيى) ورهبانيته، و(عيسى) وروحانيته، و(محمّد) ﷺ ونبوّته.

خذ ممّا عددناه ـ وما استوفيناه ولا أحصيناه ـ أيّ قصص شئت وعلى أيّ بابٍ وقفت..

ثم تدبّره جيّداً، ورجّع النظرة والفكرة مردّداً..

ثمّ اجمع أهل ثقتك وطمأنينتك ممّن تعترف لهم بالفصاحة وتذعن لهم بشأو البلاغة، وقل: يا هؤلاء، إنّا نريد أن نسبك هذه القصّة على غير ما جاء بها هذا الكتاب من سبكها، ونبدّل هذه الدرر بأمثالها، وننظمها في غير ما وجدناه

---

(١) سورة القصص ٢٨: ٣٨ـ ٤٠.

(٢) سورة القصص ٢٨: ٤٣.

هناك من سلكها، فأعينوني بقوّة وأسعدوني بسطوة.

ثمّ اضمم إليهم حواسّك، وثقّف معهم جرأتك وحماسك، واحبس عليك أفكارك، واقضِ في الخوض معهم ليلك ونهارك، بل أيّامك، بل أعوامك، بل عمرك، بل دهرك.

ثمّ خذ لك منّي وعد صدقٍ ـ وعلى الله إنجازه ـ أن ستعرف هناك حقيقة العجز، ويستبين لك ما بلاغة القرآن وما إعجازه.

هناك لا تجد الأفكار إلّا راجعةً متقهقرة، والألباب إلّا واقفةً متحيّرةً!

هناك يهزّك الفزع، ويأخذك الهلع!

هناك تنصدع صفاتك، وتخفّ حصاتك، وتطيش أناتك!

هناك ينقطع احتجاجك!

هناك يخضع لجاجك!

هناك يعتدل اعوجاجك!

هناك يبدو لك عذر من كان قبلك في ترك المعارضة، ممّن هو أشدّ منك في البلاغة بأساً وأقوى منك معاناةً لها ومراساً، ممّن بُعد فيها فوته وارتفع بها صيته وصوته!

هناك تحسّ وجداناً وتجد عِياناً وتعود مضطلعاً خبيراً بصحّة قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1].

ثمّ لو غلبت عليك القحّة وسلبت العصبية من طبعك الاعتدال والصحّة،

---

(١) سورة الإسراء ١٧: ٨٨.

فجمّعت وفرّقت، وزوّقت ونمّقت، وجئت بما زيّنه لك الجهل واللجاج، فحسبت أنّه بذلك السبيل وعلى ذلك المنهاج، وظنّي ـ وأنا به ضمين وما هو الظنّ بل اليقين ـ أنّ الأمر لا يبلغ إلى هذه المنزلة، والحال لا يكاد يشتبه عليك بحيث يصل إلى تلك المجهلة، إن كنت ممّن له في العربية أدنى مساس، وقيست لك معرفة البلاغة ولو بأقصر مقياس.

ولكن على الفرض والتقدير وتنزّل المحال إلى عالم التصوير، لو تحمّلت وتمحّلت وحسبت وتخيّلت، وسوّلت لك نفسك وخانك حسّك وحدسك، فالحكم ـ بعد عدل الإنصاف وشاهد الوجدان إن كان ـ من يقع التسالم بيننا وبينك على أنّهم من مهرة العربية وأهل اللسان، من أيّ ملّة كانوا وفي أيّ صقع وجدوا.

وزبدة المخض والحقّ المحض: أنّ إقامة الحجّة والبيان في إثبات إعجاز القرآن على خصوص هذا الصنف إنّما هي بالمراجعة والامتحان، وعند الامتحان يُكرم الرجل أو يهان.

لا وأيم الله وعظمة جلاله، إنّ طلبتنا هذه منهم معاياة لهم وجور عليهم، وما ذاك من المجاملة ولا هو من السيرة الفاضلة، فنحن الساعة معهم نتساهل ونجاملهم ونتنازل، ولا نحملهم على الشقّة ولا نكلّفهم المشقّة، ولا نطالب بمعارضة قصّةٍ أو سورة، بل ولا بمقابلة آية من آياته الشهيرة، ونرضى منهم بمثل كلمة مفردة من كلماته وجملة واحدة من جمله، مثل قوله (تعالى شأنه): ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[1]، وقوله (عزّ من قائل): ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ

---

(١) سورة يوسف ١٢: ٨٠.

حَيَاةٌ﴾[١]، وقوله (عظم سلطانه): ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾[٢]، وقوله (بهر برهانه): ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[٣]، وقوله (صدع تبيانه): ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[٤]، وقوله (تقدّست آياته): ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٥]، وقوله (تعالت كلماته): ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾[٦]، وقوله (جلّت عظمته): ﴿أَزِفَتْ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[٧]، وقوله (عزّ فرقانه): ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾[٨]، وقوله (جلّ قرآنه): ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٩]، وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[١٠]، وقوله (عزّ سلطانه): ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[١١]، وقوله (أحاط بكلّ شيء علمه): ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[١٢].

(أعاذك الله من البلاء) تدبّر موضع هذا الإضراب وبليغ موقعه، وانظر ما

---

(١) سورة البقرة ٢: ١٧٩.

(٢) سورة يوسف ١٢: ٣١.

(٣) سورة الكهف ١٨: ١٠٤.

(٤) سورة الروم ٣٠: ٥٥.

(٥) سورة الروم ٣٠: ٣٢.

(٦) سورة مريم ١٩: ٤.

(٧) سورة النجم ٥٣: ٥٧ ـ ٥٨.

(٨) سورة النجم ٥٣: ٢٨.

(٩) سورة الكهف ١٨: ٤٨.

(١٠) سورة الكهف ١٨: ٤٧.

(١١) سورة الحاقّة ٦٩: ٢٨ ـ ٢٩.

(١٢) سورة الزخرف ٤٣: ٨٠.

أشرفه وأعلاه وما أشعّ نوره وسناه! وماذا حوى من جليل المعنى وماذا طوى من لطيف الإشارة والمعزى!

وأعظم منه وأسنى، ويساويه أو يرجح في الشرف وزناً، قوله (تعالى) في دعاء الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾[1].

انظر حسن مناسبة سعة الرحمة لما بعدها، وهي قوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[2]، وقوله (عزّت عظمة قوله): ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[3]، وقوله (تعالى في طوله): ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

هاك فخذ ما أتلوه عليك: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[5]، ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾[6]، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾[7]، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾[8]، ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾[9]، ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾[10]، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[11]،

---

(١) سورة غافر ٤٠: ٧.

(٢) سورة غافر ٤٠: ٧.

(٣) سورة فاطر ٣٥: ٤٣.

(٤) سورة النحل ١٦: ٤٠.

(٥) سورة القصص ٢٨: ٧٧.

(٦) سورة طه ٢٠: ٧٢.

(٧) سورة الإسراء ١٧: ٣٧.

(٨) سورة يونس ١٠: ٢٤.

(٩) سورة الأحقاف ٤٦: ٢٥.

(١٠) سورة النمل ٢٧: ٣٣.

(١١) سورة الشعراء ٢٦: ٦٣.

﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1]، ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾[2]، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[3]، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

إلى كثير من أمثالها وغزير من المنسوج على منوالها.

وما قصدتُ الحصر والإحصاء ولا تعمّدت السبر والاستقصاء، ولا فتحت القرآن فانتقدت ما أردت ولا ردّدت النظر فيما أوردت، بل أوردت بعض ما كان على حفظي وسردت ما جرى به قلمي على قدر نصيبي من المعرفة وحظّي، من دون إعداد واستعداد ولا اختيار وانتقاد، ولا سبق فكرة وروية ولا عظيم دُربة ودرية.

هذا ما حضرني من الفرائد من كلّ فريدة هي جامعة المحامد، لا بل واسطة القلائد، لا بل زينة الخرائد ممّا بلغت من البلاغة الغاية، على أنها ما بلغت قدر آية..

كلّ واحدة لو رآها الإنسان في رسالة كانت عينها، أو في خطبة كانت وجهها، أو قصيدة كانت قلادة جيدها، لا بل بيت قصيدها، لا بل شمس سعودها!

إذا وقعت في كلامٍ وشّحته، وإذا ضُمّنت في نظام زيّنته، وإذا اعترضت في خطاب امتازت عنه وانحازت بجمالها منه.

---

(١) سورة يوسف ١٢: ٣١.

(٢) سورة يوسف ١٢: ٣٢.

(٣) سورة الشعراء ٢٦: ٢٢٧.

(٤) سورة الأنعام ٦: ٤٥.

وهناك جملٌ وفرائد إن أفردتها بهرت، وإن ضممتها في عقدها أعجزت وقهرت، فهي ـ على شدّة إلفها بأخواتها وارتباطها بلدّاتها ـ تامةٌ بنفسها قائمة بذاتها.

هاك قوله (تعالى) في تهويل يوم القيامة وتشديد الأمر فيه، حيث يقول (جلّ من قائل): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

اشتملت هذه الكريمة على ثلاثة عقود أو أربعة، كلّ واحد منها أعزّ من الكبريت الأحمر وأسطع من إشراق الشمس على معادن الجوهر، وكلّ واحدة من الجمل لو انفردت قامت بنفسها ودلّت على عظيم هول الأمر بذاتها، وإذا نُظمت مع أمثالها وضُمّت إلى أشكالها صوّرت ذلك اليوم على حقيقته وجاءت به على واقعه وشاكلته.

وأنت (أصلحك الله) تعلم أنّ البيان والقول إنّما هو ضرب من التصوير، يصوّر في الخارج ما يقع في الضمير، حكمةً من لدن حكيم خبير.

وقد ذكروا: أنّ الحاذق الماهر في صناعة الرسم والتصوير هو الذي يصوّر الضاحك والباكي والحزين والشاكي، يصوّر الضاحك المتباكي على حاله، والباكي المتضاحك على هيئته، والباكي الحزين على مقدار حزنه، والفرح الجذلان على قدر جذله وسروره، وهكذا بحيث لا يفوتك في الصورة شيء من المصوّر، حتّى كأنّك تشاهده بعينه وبحقيقته، لا أقلّ ولا أكثر.

---

(١) سورة الحجّ ٢٢: ١ ـ ٢.

وتصوير الكلام للمعاني ينبغي أن يكون على هذا القياس، وفي هذه الجهة تتفاوت طبقات الكلام ودرجاته تفاوتاً أدقّ من الشعر وأخفى من السحر، وتتعالى مقاماته إلى منتهى الدرجات وأسمى المقامات.

كما في تلك الآية، فإنّك إذا صرفت إليها التأمّل وحبست عليها الفكر هوّلت عليك الأمر وصوّرت لك الحال بحيث كأنّك تشاهده عياناً، فترى هذا يسحب بالسلاسل، وذاك يضرب بالمقامع والمعاول، وذاك يصبّ على رأسه الحميم، وذاك يُقاد إلى الجحيم، والصحف تتناشر، والكتب تتطاير، والموازين منصوبة، والعذاب نازل، والحال هائل، والضجّة عظيمة، والناس في شغل شاغل، كلٌّ ينتظر ما يجري عليه ويرتقب أيّ حين يصل البلاء إليه، إلى أمثال ذلك من طلائع الفزع وهول المطلع.

فإنّ مثل هذه الأحوال والأهوال هي التي تذهل المرضعة عن رضيعها، وتقضي لذات الحمل أن تضع حملها، وتعيد الناس من الدهشة حيارى ومن الذهول سكارى، وما هم بسكارى!

ومن العجب أنّ لمولانا أمير المؤمنين (علي) (صلوات الله عليه) مقامات حافلة ومقالات طائلة، وكلمات وخطب تفوت حدّ العجب في (النهج) وغيره، وقد أتى فيها (سلام الله عليه) على جميع أهوال يوم القيامة، وصوّر فيها عامّة أحوال تلك الطامّة، من: زفيرها وسعيرها، وأغلالها وسلاسلها، ولهب نيرانها ومقامع خزّانها، وسائر ما يذهل العقول ويصوّر فزع ذلك اليوم المهول، من كلّ غريبة الشكل مذهلة العقل، تذرّ الولدان شيباً وتجري لها القلوب دمعاً صبيباً[1]!

---

(١) راجع نهج البلاغة ١٠٨ و١٤٧ و١٦١ و٢٨١.

ولم يأتِ أحد بما أتى به (صلوات الله عليه) في هذا المقام، كأكثر مقاماته.

ولكن على أنّ كلامه فيها ـ على الحال التي وصفنا والمقام الذي ذكرنا ـ لا يبلغ جميعه شأو هذه الآية وحدها؛ فإنّك تجد فيها من التهويل والتفظيع وعظيم الفزع والإخافة ما يحيط بجميع ما ذكره كلّ واعظ وما أجهد فكره فيه كلّ متقن حافظ، مع ما في كلّ واحدة من كلماتها من السلاسة والمتانة والنفاسة والرصانة، بحيث لا ترى فيها لفظة ركيكة، ولا كلمة مبذولة، ولا وحشية غريبة، ولا متنافرة كريهة.

أترى أنّ أحداً من الناس بل جميع البشر تقدر على هذه القوّة أو تقوى على هذا القدر؟! (تعالى الله عمّا يقول الظالمون) و: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

وقد عرّفناك مرّةً بعد أُخرى أن ليس هذا الذي ذكرناه يختصّ بآية دون آية، أو حديث دون حديث، أو باب دون آخر، أو قصّة دون أُختها، أو خطّة دون ما سواها.

فقد أنبأتك أنّي أُورد ما يفاجئ قلمي، ويبادر على الفور ذهني، وما يسنح على خاطري وفكري.

[عود علىٰ ذكر بعض آيات الإعجاز]

هاك قوله (جلّ شأنه): ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[2].

(١) سورة الصافّات ٣٧: ١٨٠.

(٢) سورة الأنعام ٦: ٩٦.

هذا من المؤتلف أشدّ الائتلاف، وهي أربع كلمات، كلّ واحدة بنفسها درّة وفي جبين البلاغة غُرّة..

إن ضممتها إلى أخواتها سطعت، وإن أفردتها لذاتها برعت!

فإذا أُلّفت زادت حسناً وإحساناً، وإذا أُفردت شعّت بنفسها إشراقاً ولمعاناً، في أُسلوب يُريك أنّه يصدر عن علوّ الأمر ونفاذ القهر ومتناهي الفخر، متجلٍّ ببهجة القدرة متحلٍّ بخالص العزّة، يجمع السلاسة إلى الرصانة والسلامة إلى المتانة، والرونق الصافي والبهاء الضافي.

لا أُريد أنّه شمل الطباق المليح والإيجاز الصحيح، والتعديل والتمثيل والتقريب والتشكيل..

فإنّه وإن جمع ذلك وأكثر، لكنّ العجب ما ذكرنا من انفراد كلّ كلمة بنفسها وتعاليها في أوج سماء قُدسها، حتّى حسن أن تكون عين رسالة أو خطبة، وصدر مناجات أو ندبة، وعنوان رسالة أو كتاب، وفاتحة مقالة أو خطاب!

أتحسب أنّها في القرآن آيات معدودة وكلمات محدودة؟!

خذ الحواميم والطواسيم والمسبّحات ويس وما شئت من السور الطوال والقصار، وتصفّحها سورة سورة، وتدبّرها آية آية، واستقصها فصلاً فصلاً، وتوخّاها كلمة كلمة.

هاك ما خطر الساعة على فكري وحضر هجوماً على ذكري، وذاك قوله (عزّت آياته وعلت كلماته): ﴿حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[1].

---

(١) سورة غافر ٤٠: ١ـ٣.

أنت إلى غايتك هذه ويومك هذا كم حفظت من أسماء الله (تعالى) ووعيت، وكم سمعت من تعدادها ورأيت، أفهل وجدتَ لأحدٍ من البشر نظمَ مثل هذه الكلمات الغرر ؟ ! وهل وقفت لبارع من أوائل البلغاء والثواني على ما يجمع شيئاً ممّا جمعته هذه الآية الشريفة من منيف الألفاظ وشريف المعاني ؟ !

وكلّما تجد شيئاً من هذه الفقرات النيّرات في ديباجة أو خطبة أو دعاء أو ندبة أو مناجات أو غير ذلك فأربابها لا يعدّون أن يكونوا منها اقتبسوا وإليها أنسوا، ولها بعدُ سابقة الاختراع وفضيلة الإبداع.

وأنت من كثير تكرار هذه الفقر ـ أعني: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ ـ وتواليها على سمعك في كلام آخذيها من معدنها ومنتهزيها من مأمنها، صرتَ لا تلتفت إلى غور معناها ورفيع شأوها وبليغ إعجازها.

وهذا هو الشأن في أكثر فرائد القرآن وآياته وباهر إعجازه ومعجزاته.

ولكن الداخل في هذا الصنف الواجد لهذا الأُنس الذائق شيئاً من طعوم البلاغة وأساليب العربية لم يكن ليفوته ـ كلّما تُلي عليه أو تلاه ـ بهجته وبهاه، وروعه ورواه، ورونقه وريّقه وإن غفل عن تفاصيل دقائقه وتماثيل حقائقه.

وما أدري ما أصف من معجزاته، وماذا أقول ؟ ! وماذا أعدّ من آياته التي أشرق بها شرق الأرض وغربها وتطاولت حتّى أخذت في العرض والطول ؟ !

أتحسب أنّ تلك البلاغة والإعجاز والبراعة في باب دون باب، أو مقام دون مقام، أو جهة دون جهة ؟ !

لا ومشيّة منشيه، لا وملاءة مُمليه، لا وعزّة من أعزّه وعزّزه، لا وصولة من صانه من كلّ وصمةٍ وحرّزه، لا وحراسة من حفظه وحرسه، لا وقداسة من كرّمه وقدّسه، لا وعظمة من شرّفه وعظّمه، لا ورفعة من رفعه على كلّ كتاب

وقدّمه ! ما هو من طور كلام البشر الذي تختلف أحواله في مقام دون مقام أو أثر دون أثر ، ولا هو بالذي تقوى على تبديل جملة واحدة من جمله القُوى والقُدر .

ها أنت (رعاك الله) ترى من شاع من الشعراء ذكره ، وتعرف من عُرف بالبلاغة أمره ، من الجاهلية والمخضرمين ، والمولّدين والمتقدّمين ، تجد هذا يجيد في المدح دون النسيب ، وذاك يحسن الغزل والتشبيب دون العتاب والتأنيب ..

كلٌّ له شأو عرف به ، ومقام نُسب إليه ، وميدان انفرد به ، ورهان سبق إليه وحازه وأخذ في مزايدة البلغاء امتيازه ..

فبعضٌ في المدح والثناء ، وآخر في الهجاء أو الرثاء ، وواحد في أفانين النسيب ، وغيره في التأبين والتأنيب ..

أحوالهم في البلاغة تختلف ، ومقاماتهم ـ بحسب الشؤون ـ لا تأتلف ..

(امرؤ القيس)[1] إذا ركب ، و(النابغة)[2] إذا رهب ، و(الأعشى)[3] إذا

---

(١) امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث بن حُجر آكل المرار الكندي ، أشهر شعراء العرب على الإطلاق. يماني الأصل ، مولده بنجد أو بمخلاف السكاسك باليمن . اشتهر بلقبه ، واختلف المؤرّخون في اسمه ، وكان أبوه ملك أسد وغطفان ، وأُمّه أُخت المهلهل الشاعر ، فلقّنه خاله الشعر ، فقاله وهو غلام ، وجعل يشبّب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب ، فأبعده أبوه إلى دمّون بحضرموت ، فأقام زهاء خمس سنين ، ثمّ ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه ، وبلغ ذلك امرأ القيس ، فقال كلمته المشهورة : (اليوم خمر وغداً أمر) ، وأخذ بثأره منهم ، ثمّ طلبه المنذر ملك العراق ، فلجأ إلى السموأل ، ثمّ قصد الحارث الغسّاني والي الشام ، فسيّره هذا إلى قيصر الروم ، فولّاه إمرة فلسطين ، فرحل يريدها ، فلمّا كان بأنقرة ظهرت في جسمه قروح ، فمات سنة ٨٠ق . هـ.

(الأغاني ٩ : ٧٦ ـ ١٠٣ ، سمط اللآلي ٣٨ ، تاريخ مدينة دمشق ٩ : ٢٢٢ ـ ٢٤٥ ، خزانة الأدب ١ : ٣٢١ ـ ٣٢٧).

(٢) تقدّمت ترجمته في ذيل صفحة ٧٢.

(٣) أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف الوائلي المعروف بالأعشىٰ الكبير وأعشىٰ قيس ←

طرب، و(زهير)[1] إذا رغب[2].

ولولا خوف الخروج عن الخطّة كثيراً لسردتُ لك من ذلك مبلغاً خطيراً، ولجسّمت الأمر بياناً حتّى تراه عياناً!

لكن حديث هذا القديم والفرقان العظيم كلّه على نهج واحد متقارب في نفسه وعن غيره متباعد، حديثاً متشابهاً وقولاً متعالياً وأُسلوباً متساوياً، بلاغته في القصص والأخبار مثلها في الإعذار والإنذار، ومقامه في الاحتجاج على نفي الشريك وتسجيل التوحيد مقامه في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وحاله

← وأعشىٰ بكر بن وائل، من فحول شعراء الجاهلية وأحد أصحاب المعلّقات. كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، وهو أوّل من سأل بشعره، وكان غزير الشعر يسلك فيه كلّ مسلك، وليس أحد ممّن عرف قبله أكثر شعراً منه، وكان يغنّي بشعره، فسمّي: صنّاجة العرب. عاش عمراً طويلاً، وأدرك الإسلام ولم يسلم، ولقّب بالأعشىٰ لضعف بصره، وعمي في أواخر عمره، وتوفّي سنة ٧ هـ في قرية منفوحة باليمامة.

(الأغاني ٩: ١٠٤ ـ ١٢٥، سمط اللآلي ٨٣، خزانة الأدب ١: ١٨١ ـ ١٨٤، الأعلام للزركلي ٧: ٣٤١).

(١) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزَني، حكيم شعراء الجاهلية. ولد في مزنية بنواحي المدينة، وكان يقيم في الحاجر من ديار نجد، ويعيش في وسط أُناس شعراء، وهم: أبوه، وخاله، وأُختاه: سلمىٰ والخنساء، وابناه: كعب وبجير، وهو من أصحاب المعلّقات، وكان ينظم القصيدة في شهر، وينقّحها ويهذّبها في سنة، فكانت قصائده تسمّىٰ: الحوليات، وكان يتألّه ويتعفّف في شعره، وغالب شعره في مدح هرِم بن سنان أحد الأجواد المشهورين، له ديوان شعر. توفّي سنة ١٣ ق. هـ.

(الأغاني ١٠: ٢٩٨ ـ ٣٢٣، خزانة الأدب ٢: ٢٩٣ ـ ٢٩٦، الأعلام للزركلي ٣: ٥٢).

(٢) نُسب التعبير المذكور: (امرؤ القيس إذا ركب و...) لدغفل عندما سئل: من أشعر الناس؟ وذلك في البصائر والذخائر ٣: ٨٥.

ونُسب إلى يونس النحوي في خزانة الأدب ١: ١٨٢.

ولم يُنسب إلى قائل معيّن في عيون الأخبار ٢: ٢٠٠.

وفي العقد الفريد (٦: ١٢٠): (قيل لبعض الشعراء: من أشعر الناس؟ فقال: النابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، وجرير إذا غضب).

في سائر أساليب الكلام حاله في بيان الشرائع والأحكام وتفاصيل الحلال والحرام التي هي مظنّة لانحلال الكلام وفوت مزاياه وانحطاط رتبته وحاشاه.

انظر إحكام نظامه في أحكامه وبيان حلاله وحرامه، مثل: قوله (نفذ أمره وعلا قهره): ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1].

بعد أن فصّل المحرّمات من اللحوم والذبائح بقوله (تعالى): ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾[2]، إلى قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

وقوله (عزّ طوله): ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[4] إلى قوله: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾[5].

إلى كثير من أمثال ذلك في: تحليله وتحريمه، وتقديسه وتعظيمه، وإرشاده وتعليمه، وتقريعه وتأنيبه، وحججه وبراهينه.

---

(١) سورة المائدة ٥: ٤.

(٢) سورة المائدة ٥: ٣.

(٣) سورة المائدة ٥: ٣.

(٤) سورة الحجّ ٢٢: ٣٦.

(٥) سورة الحجّ ٢٢: ٣٧.

وقد طال ويطول علينا التعداد، على أنّنا ما استوفينا الغرض ولا بلغنا المراد.

صميمُ البغية ولبّ القصد أن نوقفك على معرفة تفاضل الكلام وتمييز مزاياه، حتّى ترى ذلك عياناً وتمتلئ به عرفاناً.

وجهُ الوقوف على شرف الكلام وعلاه، وإعجازه ونهاه، ورونقه ورواه، وميعه وبهاه، أن تقدم على مثل قوله (تعالى): **﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾**[1]، ثمّ تنظر هل تجد فيها حشواً، أو ترى بها حرفاً لغواً، أو تحسّ في صوغها تكلّفاً يقلق به الكلام ولا يكون مجيء الكلمات به عفواً؟!

ثمّ انظر في كلّ كلمة منها، وسر في طلب أخواتها وسبر مرادفاتها، وتوخّ مبلغ جهدك في أن تعثر على كلمة تساوي رديفتها التي اشتملت عليها تلك الآية، فضلاً عن أن تفضل عليها أو تفوقها في جزالة اللفظ والدلالة على الغرض صراحةً أو كناية.

تصفّحها كلمة كلمة ولفظاً لفظاً وحرفاً حرفاً، واجعل نظرك عليها وقفاً، وانقدها نقداً، واصرفها صرفاً.

أترى ماذا تقدّم على مثل قوله: **﴿وَقَدِمْنَا﴾** ممّا يساوقها في جوهر المعنى ويساويها في أصل الغرض، وإن فاتت بعض المزايا التي يحسّها الذوق والوجدان ويقصر عنها البيان...

أتقدّم مثل: (أتينا)، أم (نحونا)، أو (قصدنا)، أو (توجّهنا)؟! وانظر أنت، فأحص باقيها واحصر ما يساويها على قدر سعة باعك وعيار تتبّعك في اللغة

---

(١) سورة الفرقان ٢٥: ٢٣.

واضطلاعك، وانظر أتجد لفظة تقوم مقامها وتحلّ محلّها وتؤدّي تمام مزايـاها، على كثرة ما تحسب أنّه يرادفها ويساوي معناها؟!

أترى ـ وأنت من ذوي الفطانة والنباهة ـ يخفى عليك ما يدخل من الركاكة والفهاهة لو قلت: (وأتينا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه كذا)؟! أو يذهب عليك ـ مع حسن مذهبك في العربية ـ ما في ﴿قَدِمْنَا﴾ من علوّ المأخذ وشدّة الشكيمة وفخامة الكلام والإشعار بما للمتكلّم من العظمة وسمّو المقام؟!

كذلك فاعتبر رصانته وخلوّه عن الحشو الزائد والفضلة التي ليست صلات الفضل بها عوائد.

تجد أقرب ما فيها للإسقاط والحذف ما وقع في وسط الآية من الظـرف، وهو قوله: ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾.

ومع ذلك، فلو حذفته، وقـلت: (وقـدّمنا إلى مـا عـملوا فـجعلناه هـباءً منثوراً)، كيف تجد الكلام معه قلق الوضين[1] مبتور الظـهر مـقطوع الوتـين، لا يتلاقى طرفاه ولا يتساند ركناه!

وجه الوقوف على شرف الكلام وفضله أن تأخذ بمثل قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِـرَسُولِهِمْ لِـيَأْخُذُوهُ وَجَـادَلُوا بِـالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[2].

موضع الدلالة: أن تتأمّل في قوله: ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾، وتنظر هل تـقع مـوقعها كلمة، وهل تقوم مقامها لفظة، وهل تسدّ مسدّها في الجزالة نكتة، وهل تـغني

---

(١) الوضين: بطان البعير إذا كان منسوجاً بعضه في بعض، يكون من السيور. (العين للفراهيدي ٧: ٦١).

(٢) سورة غافر ٤٠: ٥.

عنها في جزالة المعنى وجلالة اللفظ جملة ؟ !

أترى لو وُضع موضعها : (ليرجموه)، أو (ليقتلوه)، أو (ليهلكوه)، أو (ليملكوه)، أو (لينفوه)، أو (ليطردوه)، وأمثالها ممّا لا يبعد عليك ولا ينأى عنك، هل تجد ذلك إلّا بعيداً، وهل تراه إلّا سمجاً مردوداً ؟ !

وكأنّ تلك الفريدة قد وفّت وضمنت لك بمعاني جميع هذه الكلمات العديدة، مع منتهى الجلالة والفخامة ومنيع العزّة والكرامة .

ومن حسن موقعها وجميل أثرها وصنعها تكرّر التعبير بها في ذلك الكتاب الكريم، وهي من فرائده ومبتكراته .

من ذلك قوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[١] .

راجع أيّام العرب وتواريخهم، وانظر هل تجد استعمال هذه اللفظة بهذا المعنى البارع القريب الشاسع ؟ !

أمّا بعد الإسلام وانتشار أنواره فقد شاع أخذها، كسائر ما اقتبسه البلغاء من فرائد كلماته وشاع وشعّ من أنوار بركاته .

فانتقد موضع هذه الكلمة واغتنمها، وتعرّف بها ما تذهب إليه وترومه من نُخب الكلام وجميل الألفاظ وجليل المعاني ومعجز القول وبليغ المنطق .

فإن فطنتَ فذاك، وإن كان ما عددناه لك وتلوناه عليك ممّا لا يقف بك على الغرض ولا تهتدي به السبيل إلى القصد، فافزع إلى التقليد واكف نفسك مؤنة هذا العمل الجهيد، وانتظر فسيجيء معك الكلام في الصنف الثاني إن شاء الله .

---

(١) سورة هود ١١: ١٠٢.

إذ لستَ يا مدّعي البراعة والزاعم أنّك من أهل هذه الصناعة ـ مع قصورك بعد هذا كلّه ـ إلّا دخيل النسب فيها هجين الأصل منها ! نسبتك إليها نسبة بنات الماء إلى خشفان[١] الظباء ! لا من صميمها ولا عواليها ، ولا أحلافها ولا مواليها !

فإن كنت ترى أنّك منها على شيء ، وتزعم أن ما قدّمناه من الآيات ومعجز الفقرات كلام بشري وقول إنسي ، غير طالعٍ من المطالع الإلهية ولا ساطع من الأنوار القدسية ، وترى أنّه ممّا تقدر عليه القوى البشرية وتحوم حوله الأفكار الإنسية ، ويدخل مثله تحت الطاقة والقدرة وتنفع فيه المساعدة والنصرة ، فارجع إلى أهل ثقتك وطمأنينتك ، وهدوّك وسكينتك ، وجئنا منهم بآية ، أو بدّل لنا من القرآن جملة ، أو عوّضنا عن مكان كلمة منه كلمة !

وعمرُ الله ، وعمرُ الله قسمٌ عظيم ، وأنا بما أقول لك زعيم ! إنّك لو رمت ذلك لرأيت عياناً على التحقيق أنّك لو تخرّ من السماء فتخطفك الطير أو تهوي بك الريح في مكان سحيق أهون عليك من وضع قدم واحد في ذلك الطريق !

يا هذا ! القومُ الذين عاياهم القرآن وعاداهم وحادّهم وتحدّاهم ، وعاصروا نزوله وأدركوا ظهوره وشاهدوا نوره ، وعاب آلهتهم وسفّه أحلامهم ونكّس أعلامهم وكسر أصنامهم ، وفعل بهم الأفاعيل وجاءهم بالأهاويل ، ورماهم بالصلادم[٢] والشجى في الحلاقم ، كانوا أسعد منك في البلاغة جدّاً وأورى في العربية زنداً ، وأشدّ لها معاناة ومراساً وأمتن أسباباً وأقوى أمراساً ، وهم أصلها الأصيل ولهم مجدها الأثيل ..

---

(١) الخِشف : الظبي أوّل ما يولد . (لسان العرب ٤ : ١٠١) .

(٢) الصلدم : الشديد . (المصدر السابق ٧ : ٣٨٧) .

ثمّ لمّا صعد به بينهم على اليفاع وصدع به منهم الأسماع، وناداهم فأسمع وبلّغهم أجمع، طاشت ألبابهم وتقطّعت أسبابهم، ورأوا أن معلّقاتهم التي عجبوا بها ممخرقات فمزّقوا تلك المعلّقات!

ولشدّة مهارتهم ومعرفتهم بمقامات البلاغة ومبالغ حدود البشر فيها ومنتهى قوى الرجال منها، أيسوا من حينهم عن المعارضة وأذعنوا أوّل ما سمعوه بالعجز عن المراجعة والمفاوضة.

الكتب والتواريخ ضبطت لك خبرهم[1] ودفعت إليك سيرهم، وأحصت قليل أمرهم والكثير والفتيل والنقير[2].

فهل روي لك عنهم أو بلغك أنّ واحداً منهم أو جماعة من ذوي شرفهم وعلاهم ـ وهم كما تعلم ما هم ـ جاء إلى ذلك المتحدّي به والناهض بعبئه، فقال له: يا فتى، نحن كبراء قومك، وأشياخ عشيرتك وفصحاء عصرك، وقد أكثرت علينا التبجّح وأطلت التحدّي بقرآنك والتبذّخ، فاكفف، فهذه كلمات من جنس ما جئت به وأتيته ومن سنخ ما قرأته وأبديته، وقد عارضنا بها قرآنك وأبطلنا بجمعها ـ معاذ الله ـ فرقانك؟!

لا وعزّة جلال الله، كأنّ ذلك ما خطر لهم على خيال ولا اتّسع لأحدهم فيه مجال، بل ظلّوا في الحيرة صرعى سبات يتعلّلون بالأباطيل والترهات!

---

(١) قارن: السيرة النبويّة لابن هشام ١: ٣٠٧، إعجاز القرآن للباقلاني ٣٨ و٤٠ و٥٣ و٦١، دلائل النبوّة للبيهقي ٢: ١٩٨، أسباب النزول للواحدي ٣٨١، إعلام الورىٰ ١: ٧٠ و١١٠، البداية والنهاية ٣: ٦٠، البرهان للزركشي ٢: ١١٠، الأنوار المحمّدية ٢٦٦.

(٢) تقدّم معناهما غير مرّة، فراجع.

يقولون له تارةً ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[1]، ولو تدبّر اللبيب في أمرهم لأيقن أنّهم كانوا هم المجانين !

ويقولون : إنّك لساحرٌ، والحقّ ما هو إلّا أنّ مارد العصبية قد جعلهم من المسحورين !

حتّى تطامنوا للحروب المبيدة والمواقف المهلكة، وتجاروا على مُمَاناة المنايا ومعاناة الرزايا، زمان عشرين سنة أو أكثر.

أكانت المعارضة ممكنة لهم وتركوها، أو فعلوها ولم يبلّغها إلينا ناقلوها ؟ !

قل لنا : بأيّ الأمرين يحكم عقلك ؟ ! أيّهما يرتضيه وجدانك ؟ ! أيّهما يقضي به إنصافك :

أتقضي الحقيقة بصحّة شيء منها ؟ !

كلّا، ما هو إلّا أنّهم وجدوه أمراً مستحيلاً وأبصروه ممتنعاً منيعاً، الحتوف أطيب منه مطعماً وحدّ السيوف ألين منه مركباً، فاختاروا أهون الأمرين عليهم وألين الحالين لديهم.

هذا، والقرآن ملءُ أسماعهم وأفكارهم ونصب عيونهم وأبصارهم، يرونه يعيد القصّة الشاردة والقضية الواحدة بأفانين من البيان وأساليب من الكلام، وبدائع من القول وروائع من الطول، من دون أن ينحطّ شأوه في البلاغة أو يختلف حاله في البراعة، على اختلاف الأساليب وشتات التراكيب.

انظر ـ مثلاً ـ ما اقتصّ من أمر (فرعون) وعتوّه واستكباره، وما أخذه الله به من النكال ورماه به من البوار والوبال، حيث أغرقه وجنوده واستنقذ منه عبيده..

---

(١) سورة الحجر ١٥: ٦.

هذه القصّة ذكرها هذا الكتاب الكريم في أغلب سوره من الطوال والمثاني والمئين والثواني، والمفصّل طواله وقصاره وأوساطه وصغاره[١].

---

(١) قال السيوطي: (السبع الطوَل: أوّلها البقرة وآخرها براءة، كذا قال جماعة.

لكن أخرج الحاكم والنسائي وغيرهما عن ابن عبّاس، قال: السبع الطوَل: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف. قال الراوي: وذكر السابعة فنسيتُها. وفي رواية صحيحة عن ابن أبي حاتم وغيره، عن سعيد بن جبير: أنّها يونس.

وتقدم عن ابن عبّاس مثله في النوع الأوّل، وفي رواية عند الحاكم: أنّها الكهف.

والمئون: ما وليها، سمّيت بذلك لأنّ كلّ سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها.

والمثاني: ما ولي المئين؛ لأنّها ثنتها، أي: كانت بعدها، فهي لها ثوانٍ، والمئون لها أوائل.

وقال الفرّاء: هي السورة التي آيها أقلّ من مائة؛ لأنّها تثنّى أكثر ممّا يثنّى الطول والمئون.

وقيل: لتثنية الأمثال فيها بالعبر والخبر. حكاه النكزاوي.

وقال في جمال القرّاء: هي السور التي ثُنيت فيها القصص، وقد تُطلق على القرآن كلّه وعلى الفاتحة، كما تقدّم.

والمفصّل: ما ولي المثاني من قصار السور، سمّي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة. وقيل: لقلّة المنسوخ منه؛ ولهذا يسمّى: بالمحكم أيضاً، كما روى البخاري، عن سعيد بن جبير، قال: إنّ الذي تدعونه المفصّل هو المحكَم، وآخره سورة الناس بلا نزاع.

واختلف في أوّله على اثني عشر قولاً:

أحدها: ق؛ لحديث أوس السابق قريباً.

الثاني: الحُجرات، وصحّحه النووي.

الثالث: القتال، عزاه الماوردي للأكثرين.

الرابع: الجاثية، حكاه القاضي عياض.

الخامس: الصافّات.

السادس: الصفّ.

السابع: تبارك، حكى الثلاثة ابن أبي الصيف اليمني في نكته على التنبيه.

الثامن: الفتح، حكاه الكمال الذماري في شرح التنبيه.

←

هاك مثلاً من ذلك ونموذجاً ممّا هنالك:

قال في سورة (يونس) من السور الطوال: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[١]، إلى قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

وقال في سورة القصص من الثواني: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى

← التاسع: الرحمٰن، حكاه ابن السيّد في أماليه على الموطّأ.

العاشر: الإنسان.

الحادي عشر: سبّح، حكاه ابن الفركاح في تعليقه عن المرزوقي.

الثاني عشر: الضحى، حكاه الخطّابي. ووجّهه: بأنّ القارئ يفصل بين هذه السور بالتكبير. وعبارة الراغب في مفرداته: المفصّلُ من القرآن السبعُ الأخير.

فائدة: للمفصّل طوالٌ وأوساط وقصارٌ.

قال ابن معن: فطواله إلى عَمّ، وأوساطه منها إلى الضحى، ومنها إلى آخر القرآن قصاره.

هذا أقرب ما قيل فيه.

تنبيه: أخرج ابن أبي داود في كتاب المصاحف، عن نافع، عن ابن عمر: أنّه ذكر عنده المفصّل، فقال: وآي القرآن ليست بمفصّل، ولكن قولوا: قصار السور وصغار السور.

وقد استُدلّ بهذا على جواز أن يقال: سورة قصيرة أو صغيرة.

وقد كره ذلك جماعة، منهم أبو العالية، ورخّص فيه آخرون. ذكره ابن أبي داود.

وأخرج عن ابن سيرين وأبي العالية، قالا: لا تقل: سورة خفيفة، فإنّه تعالى يقول: ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزّمّل ٧٣: ٥] ولكن سورة يسيرة. (الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٢٠ ـ ٢٢٢).

(١) سورة يونس ١٠: ٨٨.

(٢) سورة يونس ١٠: ٩٠.

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[١].

وفي سورة المؤمن من طوال المفصّل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾[٢].

وفي الزخرف منها أيضاً: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[٣]، إلى قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾[٤].

وفي النازعات من قصار المفصّل يقول (جلّ شأنه) مجملاً لتلك التفاصيل مختصراً تلك الواقعة على ما فيها من الشؤون والتهاويل: ﴿هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[٥].

هذه قصّة من قصصه، ونبأ من أنبائه..

---

(١) سورة القصص ٢٨: ٣٨ـ ٤٠.

(٢) سورة غافر ٤٠: ٣٦ـ ٣٧.

(٣) سورة الزخرف ٤٣: ٥١ـ ٥٢.

(٤) سورة الزخرف ٤٣: ٥٥ـ ٥٦.

(٥) سورة النازعات ٧٩: ١٥ـ ٢٦.

انظر كيف جاء بها في طرق مختلفة، وأنحاءٍ متفاوتة، وأساليب متباينة، وتراكيب متشعّبة..

كلّ واحد إذا رأيته قلتَ: هو الغاية، وإذا انتهيت إليه حسبته النهاية.

وعلى مثل ذلك سائر أحاديثه وأقاصيصه، وحججه وبراهينه، وشرائعه وأحكامه، وحلاله وحرامه.

كلّ هذا إظهاراً لعظيم القدرة، وتبياناً لمعجز القوّة وباهر السطوة، وأنّه مرتبة إلهية ومنزلة إلهامية، تعجز عنها البشر وتضعف دونها القوى والقُدر.

ومنه تعرف وجه هذا التكرار وسرّ ذلك الاستمرار.

وهذا باب عظيم من معجزاته وسرٌّ جليل من أسرار بلاغاته، فتدبّره بعون الله وفضله، واغتنمه إن كنت من أهله..

وقف على مثل: سورة (يوسف) و(يونس) و(إبراهيم)، وترجمته لحياة (عيسى) و(يحيى) و(موسى)، واقضِ العجب هنالك، وعلى الأخصّ في قصّة (يوسف) وإخوته على طولها، فإنّك تجدها وحدها قرآناً معجزاً وحديثاً عجباً.

وجهات إعجازه وأبواب بلاغته كثيرة واسعة، يضيق وسعنا عن إحصائها وتفصيل أنبائها.

والقدر الذي ذكرناه إنّما جاء على عفو الطبع وترسّل الخاطر وسماحة القلم. فلذلك لم يأتِ مبوّباً ولا محرّراً ولا مرتّباً.

ولو جئنا ذلك توّاً وقصدناه بدواً لاحتجنا إلى إفراد بالتأليف وانعقاد أبواب تستقلّ بالتصنيف..

إنّ من أبواب إعجازه وبلاغته وبلوغ أسرار براعته، الذي يوقفك على ما تتوخّاه من هذه البُغية وترومه من هذه المنية، الذي يريك الإعجاز شهوداً، الذي

يشهدك منتهى حدّ البلاغة معيّناً محدوداً، الذي يحقّق لك الحقيقة، الذي يسلك بك في واضح الطريقة..

ذاك أن تنظر في تشبيهاته البديعة وتمثيلاته المنيعة، وتضرب أقصى مبالغ الفكرة وتدأب في مراجعة النظرة، وترى هل تجد مساغاً وتدرك بلاغاً إلى أبلغ منه تمثيلاً، وأحسن تشبيهاً، وأسمى مقاماً، وأسنى محلّاً؟!

وهل تقدر على أن تزيد فيه أو تعلو على معاليه، أو تنظّمه في أقوى من سلكه أو ترفعه إلى ما هو أعلى من سمكه؟!

خذ مستقصياً في النظر من أوّل تشبيهاته، مستوقف الفكر على كلّ واحد من تمثيلاته:

ذاك مثل قوله في وصف حال المنافقين وتجسيم حقيقتهم في العيان وتحديد ملكاتهم الخبيثة في حيث تشهدها الأذهان، يقول (جلّ شأنه): ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ**﴾[1] الآية، إلى نهاية المثل في قوله: ﴿**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ**﴾[2].

ولو ذهبنا إلى بيان دقائق هذا المثل وأسراره وتطبيقه على خواصّ المُمثّل لطال المقام وفات الغرض.

وكتب التفاسير قد وَفت بشطر من ذلك[3] وإن لم تستوفه، وتكفّلت به وإن

(١) سورة البقرة ٢: ١٧ ـ ١٩.

(٢) سورة البقرة ٢: ٢٠.

(٣) انظر: الكشف والبيان ١: ١٦٠ و١٦٥، الكشّاف ١: ٧٢ ـ ٨٧، تفسير أبي الفتوح الرازي (فارسي) ١: ١٣٧ ـ

←

لم تبلغ الفلسفة فيه ولم تستقصه.

ما الغرض هنا سوى الإشارة والتنبيه، لا تمام الخوض فيه.

ثمّ سِر حتّى إلى قوله (تعالى) في بني إسرائيل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾[1] الآية، وهلمّ جرّاً[2]، جارياً على هذا المجرى، حتّى تصل إلى قوله في الكشف عن حال الدنيا وغرور متاعها وزوال زينتها وسوء عاقبتها، وذاك حيث يقول (جلّ شأنه): ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

وفي هذه الآية من أسرار العلوم ودقائق الفلسفة الطبيعية ما لا يذهب بعضه أو كلّه عمّن هو أهله.

ثمّ انظر تفنّنه وضروبه وأنحاءه وأساليبه في تشبيهه للشيء الواحد بتشبيهات مختلفة في مقامات متعدّدة.

من ذاك قوله (عزّ طوله) في ضرب المثل لغاية عمل الكافر وسوء عاقبته:

← ١٥٠، مجمع البيان ١: ١١٢ ـ ١٢٠، زاد المسير ١: ٣٠ ـ ٣٧، تفسير الفخر الرازي ١: ٨١ ـ ٨٩، البحر المحيط ١: ٧٤ ـ ٩٢، تفسير القرآن لصدر المتألّهين ٢: ٥ وما بعدها، الصافي ١: ١٤٥ ـ ١٤٧، الجوهر الثمين ١: ٧٥ ـ ٧٦.

(١) سورة البقرة ٢: ٧٤.

(٢) هذا من الأمثال، ومعناه: سيروا على هِينَتِكم ولا تشقّوا على أنفسكم وركابكم. وأصل الجرّ أن تترك الإبل والغنم ترعى وتسير. (جمهرة الأمثال ٢: ٣٥٥).

(٣) سورة يونس ١٠: ٢٤.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾[1].

ثمّ بسط المقال وفصّل الإجمال ومثّل واقع الأمر في المثال بقوله (تعالى) في سورة النور التي هي بعد سورة (إبراهيم) بكثير، قال متعالي العزّ والجلال عن الندّ والمثال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[2].

أنار الله سريرتك، وأحسن في خطّة المعارف سيرتك، وصفّى في درك اللطائف بصرك وبصيرتك، أتجد للزيادة في هذا المثل من موضع؟! أو تهتدي إلى تشبيه يقع أبلغَ من هذا الموقع؟! أو ترى ـ ولو أجهدت أفكارك وجمعت أعوانك وأنصارك ـ أنّك تحسن أن تأتي بأحسن منه صياغة وأقوى مبالغة وبلاغة، وهو من المبالغة في الكشف عن الحقّ وتصوير الواقع، لا من المبالغات الشعرية والمعاني الخيالية؟!

وبعد فماذا يبلغ من معجز بلاغتها بياني؟! وماذا يسعه من إحصاء خواصّها قلمي أو لساني؟!

وهل ـ بعد هذا ـ إلّا أن أقول:

تـوّهمتُها فـي قـدسها فكأنّـما ... توّهمتُ شيئاً ليس يـدركهُ العـقلُ

---

(١) سورة إبراهيم ١٤: ١٨.

(٢) سورة النور ٢٤: ٣٩ـ ٤٠.

فما يرتقي التكييف فيها إلى مدىً تـحدُّ بـه إلّا ومـن قـبله قـبلُ

وتعرّف النكتة في عدم الاقتناع بتمثيل أعمالهم بـالسراب حـتّى أردفـه بالتشبيه بالبحر اللجيّ على ذلك الوجه المخصوص ؛ نظراً إلى اخـتلاف أعـمال الكافر ، وأنّ منها ما يتّكل عليه ويعتدّ به ، ويتّخذه سبباً لنجاته وزاداً لمعاده .

وهذا هو السراب الذي إذا جاءه لم يجده شيئاً .

وهذا النوع من العمل هو المصرّح به في قوله (تعالى) : ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[١] .

ومنها الأعمال الهمجية العادية العدوانية التي هي لا عن قانون شرع ، ولا نظام عقل ، ولا مرآة مروّة ، ولا فتوى فتوّة .

وعليه ، فيجتمع عنده ظلام الكفر وظلام الظلم وظلمات الجهل ، فتتراكـم عليه الظلمات وترتبك عليه الجهالات بعضها فوق بعض .

وهذا دون الواقع بكثير ؛ فإنّ الجهل ـ معاذ الله ـ مـثار الظـلمات ومـدار الظلامات ، وهو طبقات فوق طبقات ودركات تحت دركات !

هناك (أجارك الله) يعمى بصر البصيرة ، ويرخي الباطل على الحقّ ستوره ، وتنكسف شموس العقل المستنيرة ، بحيث إذا أخـرج يـده لم يكـد يـراهـا وإذا أشرقت شموس الهداية لم يستضئ بسناها .

فمن أين يُرجى له النظر في العاقبة ودرك الأُمور المغيّبة ، ومعرفة مـبدئه ومعاده وما يلزم عليه من إعداد راحلته وزاده ؟ !

وهل الإيمان إلّا ذلك ؟ ! وهل الكفر سوى جحودها ؟ ! وهو الظـلم ، بـل

---

(١) سورة الكهف ١٨ : ١٠٤ .

الظلام الحالك!

وعلى مثل هذا فليتدبّر في أمثال الله (جلّ شأنه)، وبمثله فليعتبر كلامه، وتُفهم آياته، وتُنظر بيّناته، وتُعرف زواجر أمثاله وأسرار حكمه وأقواله.

ومن هذا المجاز فليتوصّل السالك إلى معرفة حقيقة الإعجاز وبديع الإيجاز.

وهذا مقام شاسع وباب واسع، وما هو من البطون وخلاف الظاهر كما لا يخفى على الفطن الماهر.

وإنّي لأرزأ[1] لأكثر التفاسير حيث صفرت عيابها[2] عن قرضه، وأعجب كيف استطابت الجماهير وِطابها دون مخضه؟!

بيد أنّك إن أردت التوسّع في العرفان والتوصّل إلى عجائب رموز هذا الفرقان، فخذ مثلاً من أوّل مفتتح الكلام ومبدأ الفصل في هذا المقام، لترى العجائب تترى والبيان سحرا، والمعاني منيعة والألفاظ بديعة!

تجد المعجزة باهرة، والقدرة قاهرة، والأمثال سائرة!

هناك سواطع أنوار جلاله، هناك مواقع حِكمه وأمثاله، هناك لوامع آياته وجوامع ضرب المثل الأعلى لذاته وصفاته: ﴿**وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ**

---

(١) ارتزأ الشيء: انتقصه. (صحاح اللغة ١: ٥٣).

(٢) العيبَة: ما يجعل فيه الثياب. (المصدر السابق ١: ١٩٠).

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

إنّ مَن يقول في بعض كلمات (نهج البلاغة) معاياةً للبلغاء عن معارضتها: (مَلعاً يا ظليم، وإلّا فالتخوية)[2]، ما أدري ماذا يقول لهم في هذه الآية؟!

أمّا هذا الضعيف الضارع والعبد الخاشع فلا أجدني أُحسن فيها إلّا أن أقول:

لِيغتدي كلُّ بليغ على	موطئ نعليهِ لها ساجدا
عزائم الله وأنوارها	تحرق من جاء لها جاحدا
فأيّ حرّ الفكر من بعدها	لم يعنُ كالعبد لها عابدا
بلاغة إعجازها قد غدا	على تعالي شأنها شاهدا
والعقل أنّى يرتقي شامخاً	لم يلفَ إلّا شأوها شاردا
يرتدُّ عن أصغرها صاغراً	وإن تسامى في النهى صاعدا
فليخسَ عن إدراكها دون أن	تؤتيه من أنوارها قائدا

أنت أيّها العارف بلطائف أساليب الكلام والناقد لما في تصاريف التراكيب من بديع السبك ومعجز النظام، أنت يا مدّعي البراعة في هذه الصناعة، أنت أيّها الزاعم حمل ألوية الفضل فيها والزماعة، بحرمة نصيحتي لك وخدمتي إليك

---

(١) سورة النور ٢٤: ٣٤ـ٣٥.

(٢) الملع: الذهاب في الأرض، وقيل: الطلب، وقيل: السرعة والخفّة، وقيل: شدّة السير، وقيل: العدو الشديد. (لسان العرب ١٣: ١٧٩).

والظليم: الذكر من النعام. (المصدر السابق ٨: ٢٦٨)

وخوّى الرجل: تجافىٰ في سجوده وفرّج ما بين عضديه وجنبيه، والطائر إذا أرسل جناحيه. (المصدر السابق ٤: ٢٥٥).

وهذا من الأمثال. لاحظ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ١٠٥.

وجهادي في ذات الله لك لا عليك، لا بل قسمي عليك بجلال الله العظيم، إلّا ما أخذت هذا الكتاب الكريم، فإن وُفِّقت فرتّل هذه الآية وما بعدها ترتيلاً، وميّزها عند القراءة جملة جملة وفصّلها تفصيلاً، وأمعن فكرك فيها على حسب ما يتهيّأ لك عند التلاوة ولو قليلاً.

ثمّ انظر كيف وقع هذا النور من آيته في قلبك، وكيف استيلاؤه على شراشر لبّك، وكيف سريانه في حسّك ونفوذه في عروقك، وامتلاؤك ببهجته وانتعاشك برونقه!

أم هل تجد الرعب كيف يأخذ منك مأخذه من وجه، والهزّة كيف تعمل في جوانبك من لون، والأريحية كيف تستولي عليك من باب!

وهل تجد الطرب كيف يستفزّك للطيف ما أحسستَه، والسرور كيف يهزّك لعجيب ما فطنت له وأدركته!

ألا تجد في نفسك من المعرفة التي أحدثت لك عزّة؟!

ألا تحسّ في أعطافك من سحر ذلك البيان ارتياحاً وهزّة؟!

ألا ترى لك في الفضل تقدّماً وتبريزاً، وفي اليقين سبقاً وتحقيقاً؟!

أوَ لست ترى مطارح الجهّال تحت أقدام الغفلة، ومهاويهم في متاهة المهانة والذلّة، وأقدارهم بالعين التي يجب أن تلحظ بها مراتبهم من الازدراء والقلّة؟!

أوَ لست تجد ما يأخذك عند تلاوتها من الوجد والشغف، وما يصيبك في تدبّرها والتملّي بها من الامتلاء بالمجد والشرف؟!

ألا يهزّك الطرب، ألا يستفزّك العجب؟!

ألا تتمايل أعطافك، ألا تتمايد أطرافك؟!

كلّا، بل أخشى أن تكون عصابة العصبية قد غطّت على عينيك وداء الجهل ران على قلبك وقبض على يديك، فنظرتَ بعين السخط وهي العمياء وفكّرت بمدركة الحقد وهي العوجاء! فقلبك كالحجارة أو أشدّ وعينك عين ذي العائر[1] الأرمد!

فمن أين تنالك ـ يا هذا ـ تلك الفزّة، أو تؤثّر فيك تلك اللطائف والمعارف شيئاً من الهزّة، وأنت من هو للحقّ كيف كان معاند، لا بل الرجل الجاحد، لا بل الحجر الجامد! والتوفيق ليس إليّ ولا إليك. فهوناً أيّها العارف المتّقد من الأسف، فما عليّ ولا عليك!

هذا كلّه في شأن حسن الكلام وبديع نظامه، في عجيب رصفه وإحكامه، في نضده وسبكه، في نظمه بسلكه، في شأنه وشأوه، في زهره وزهوه، في حظّه بلفظه، في سلاسته ونفاسته، في شرفه وبسالته.

أمّا لو جئت إلى ما انبسط في العالم من بركات معانيه وأسراره، وما شعّ في الآفاق من لمعات أنواره، وما انطوى فيه من أُصول المعارف الإلهية، وما استطرد في ذلك المثل من التعاليم العملية والفنون الصناعية ودقائق العلوم الطبيعية ورموزها الخفيّة، حيث أشار إلى خاصّة تأثير الزجاج في تلطيف النور وصفائه وتلألأ أضوائه، ورمز إلى ما استخرجه في مناهز أعصارنا الفلاسفة الصناعيون، وما أغرب وأربى باستكشافه الغربيون الأُوربائيون من القوّة الكهربائية التي وصلوا إليها بعد الجهد الجهيد والسعي الشديد، والزمان المتطاول والمعاونة

---

(١) يقال: الجمل عائر، إذا ترك الشول إلى أُخرى. (صحاح اللغة ٢: ٧٦٣).
والشائل: الناقة التي تشول بذنبها للّقاح ولا لبن لها أصلاً. (المصدر السابق ٥: ١٧٤٢).

والمعامل، كما هو الشأن في سائر مكتشافتهم وجميع مخترعاتهم.

وهذا المعجز المحمّدي أشار إليها قبل ما ينيف على ثلاثة عشر قرناً، ولكن بأوجز عبارة وألطف إشارة، مستطرداً ذلك بقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[1]، كما رمز إلى أكثر تلك المخترعات بخفيّ الرموز والإشارات.

والسرّ في توخّيه هذا النحو من البيان على وجه الرمز والخفاء إنّما هو عدّة أشياء:

(منها): المحافظة على رصانة الكلام ورصافته وإعجازه وبلاغته.

و (منها): قصور المخاطبين به عن درك تفاصيل تلك الأُمور، وعدم رغبتهم فيها، وإجفال طباعهم عنها.

فقضت العناية العاطفة والحكمة المتقنة إتماماً للحجّة وإظهاراً لعظيم القدرة، لمن سبق في علمه أنّه من أهل تلك اللطائف، وأنّه ممّن يرغب إلى المعاني، ولا تتمّ الحجّة عليه إلّا بالمعارف، فاستودعت تلك العلوم والحقائق استيداع البذور المستكنة في الأراضي الطيّبة المطمئنة؛ لتُغرس في أمثالها من العقول المستقيمة والنفوس السليمة التي دأب الفكر والتأمّل في حرثها وبحثها.

هنالك تستعدّ لأن تُسقى بماء الرحمة المتقاطر ويصيبها منه بقدر استعدادها وما يسّر وقدّر لها المبدع الفاطر، فتنمو أُصول هاتيك العلوم والمعارف نماءً بيّناً وتنبت بذورها ـ بإذن الله ـ نباتاً حسناً، ويكون ذلك شاهداً وشارحاً ومفسّراً وموضحاً لقوله (تعالى): ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[2] إلى

---

(١) سورة النور ٢٤: ٣٥.

(٢) سورة الأنعام ٦: ٣٨.

أمثالها من الكرائم الإلهية والعلائم الربّانية : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[١].

فارجع إليها في سورة الرعد ، فإنّها من أمثاله الباهرة وآياته القاهرة.

وليس الغرض المهمّ هنا إثبات هذا الشأن وأنّ جميع العلوم والمعارف مودعة في القرآن ، وإنّما استطردناه في الذكر كما هو في الآية على تقديره كذلك.

ما جوهر الغرض في عرض هذا البحث وطوله وجرجرته وتطويله إلّا أن ندلّك على حقيقة الإعجاز وجوهر البلاغة ، بحيث ترى ذلك رأي العين ويحصل لك من اليقين به ما لا يبقى لك معه شكٌّ ولا مين[٢].

وجه الدلالة على ذلك من هذه الآية ـ كما أسلفناه لك في غيرها ـ أن تعمد إلى أيّ جملة شئت من مفردات جملها ، مثل : قوله (تعالى) : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ ، وقوله : ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ ، وقوله : ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ ، وهكذا إلى حيث أردت منها.

وانظر في مفردات كلّ واحدة من هذه الجمل ، هل تجد لفظة تقوم مقامها ، أو فريدة تحلّ محلّها ، أو تسدّ مسدّها ؟

خذ المشكاة أو المصباح ، واستضئ بألف واحد منه ، وانظر هل تهتدي إلى أحسن منها ممّا يرادفها ؟ !

قل : مثل نوره ككوّة ، أو كروزنة ، أو كزواية ، وأمثال ذلك ممّا يوافقه بالصراحة أو الالتزام.

---

(١) سورة الرعد ١٣ : ١٧.

(٢) المين : الكذب. (صحاح اللغة ٦ : ٢٢١٠).

وكذا فانقل المصباح إلى مثله، وقل: كمشكاة فيها سراج، أو مشعل، أو قنديل، أو نبراس، أو مقباس.

هل تجد شيئاً منها يقرب من هاتيك الفرائد أو يشقّ غبارها، أو يوازن عيارها؟!

فإنّ المشعل وإن كان أكبر من المصباح السراج الذي هو الضخم الثاقب وهو أكبر من النبراس والقنديل ونحوها، ولكن في لفظ المشعل من الفجاجة والفهاهة والعامّية المرذولة ما لا يخفى على من له أدنى ذوق.

ثمّ انظر إلى حسن خاتمة المثل وجميل عاقبته بقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء﴾.

أشار (جلّ شأنه) بالفقرة الأُولى إلى كون ذلك النور المضروب مثلاً لجلاله متضاعف الإضاءة والإشراق بتناصر المشكاة فيه والمصباح والزجاجة والزيت حتّى لم يبق بقية ممّا يقوّي النور ويزيده إشراقاً إلّا وهي فيه.

فكأنّ هذه الكلمة هي فذلكة المقام وخلاصة المثل، وهي بنفسها درّة فريدة تتلالأ نوراً وتشعّ إشراقاً، وتتعالى بهجة وسناءً وتتسامى رفعة وعلاءً.

سارت مسير الأمثال وعزّت عن الأنداد والأمثال، ووقفت في المقام الذي لا يدرك ولا ينال، واستغنت بشهامتها عن أخواتها واستقامت عن ذواتها بذاتها..

فهي إن اتّصلت بمقامها عزّت فيه وجلّت، وإن انفصلت أشرقت وحدها وتجلّت.

وهي من الفرائد التي ابتكرها هذا الكتاب، ومنه سرت مثلاً في ألسنة العوام فضلاً عن الخطباء والكتّاب، ككثير من فرائد مخترعاته وأبكار بلاغاته ممّا مرّ عليك كثير منه، وما قصرنا عنه أكثر.

إنّي لا أرتاب في معرفتك بشأن الكلام من خطبه وشعره ونثره وأراجيزه وسائر أنواعه.

ترى أنّ الخطبة الوحيدة أو القصيدة الفريدة أو المقامة السامية في شأو البلاغة إذا كرّرتها على السمع ثلاثاً أو أربعا مجّها، وإذا أُمليت على الطبع ملّها واستسمجها.

حتّى قيل: إنّ الطبع موكّل بمعادات المعادات واستكراه المكرّرات.

وهذا الفرقان الحميد والقرآن المجيد كلّما كرّرته تعالى وتعاظم وتفاخر وتفاخم..

يُتلى على جميع الألسنة في غضون هذه القرون المتطاولة في عموم الأُمم المتداولة، وكلّما تلوته وجدته غضّاً جديداً، ومهما بلوته لم تبل إلّا حميداً. وإذا وازنت به كلاماً شال في ميزانه، وعنى لعنوانه، وخفّ في عياره، وبخس لديه قدره وإن غاليت بمقداره.

وللعلماء في آية النور ـ ولا سيّما علماء الإمامية ـ عناءٌ عظيم، ولها عندهم مقام كريم، ولهم عليها تعاليق ورسائل وتحقيقات دلائل، وتفاسير شجون من ظهور وبطون.

ولكنّهم أغفلوا جهة فصاحتها ومعجز بلاغتها، كما هو الشأن في أكثر المفسّرين، والمؤاخذة بذلك آتيةٌ على جلّ المبرّزين من أساطين العلماء الإسلاميّين، إلّا أفراد تنزر في العدد وآحاد يعدّها كلّ أحد، ممّن عنى بهذا الشأن فوقف على حواشيه وحام حول الغرض ولم يقع فيه، ولكنّه جدّ فأجاد وكدّ فكاد.

والحقّ ما يقال من: أنّ القرآن ما فُسّر إلى الآن.

وعلى العلّات فعذرهم واضح لدينا والإنصاف فريضة علينا..

فإنّ الخطر خطير والمورد لجٌّ غزير، متلاطم الأمواج متّسع الفجاج متشعّب المنهاج، يمخر عبابه الزاخر ويخور به الخرّيت الماهر.

وأنّى تُدرِك هذه الحواسّ الماديّة حقائق الأشياء المجرّدة كما هي؟!

وكيف تحيط هذه العقول المتناهية بكلام ذلك الكمال غير المتناهي؟!

وكيف يبلغ المخلوق إلى معاني كلام الخالق وتمام مظهر قدرته فيه، وكلامه وِجهةُ صفاته، وصفاته مرآة ذاته؟! والعقول القادسة دون أدنى ذلك معقولة وأرواح الروحانيّين على الباب طائشة مذهولة، ف: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

أمّا بعض الضعفاء من عباده فإذا همّ بخياله أو خطر على باله التصدّي لتفسير سورة من متوسّطاته ـ فضلاً عن مطوّلاته ـ أو التعرّض لتمام فصل من فصوله أو عدّة من آياته وشهير مقاماته ـ على خطّة الخوض في جميع شؤونها وجمّ أفانينها واستيفاء جميع جهاتها ممّا يتعلّق بمعانيها وعباراتها ـ فلا أجدني ـ عند إرادة ذلك والفكرة فيه ـ إلّا كلحم على وضم[2]، أو كالمرمي به من حالق إلى حيث لا مقرّ لقدم!

[ذكر بعض علماء الإعجاز القرآني ونقل كلماتهم]

نعم، نحن ـ بفضل الله ـ لا نبخس الناس حقّهم، ولا ننكر عرفهم، ولا نخفي فضلهم، ولا نجحد أياديهم ولا نطمس مساعيهم؛ فإنّ جملة من أساطين العربية

---

(١) سورة الصافّات ٣٧: ١٨٠.

(٢) الوضم: كلّ شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير يوقىٰ به من الأرض. يقال: إنّما النساء لحم على وضم إلّا ما ذُبّ عنه. شبّه النساء باللحم والرجال بالذبّان يقع عليه، ومعناه: أنّهنّ ضعاف لا يمتنعن إلّا إذا منعن. لاحظ: الأمثال لابن سلّام ١٠٩، جمهرة الأمثال ٢: ٣٠١، مجمع الأمثال ٢: ٢٩.

الأوائل البارعين فيها وفي غيرها من الفضائل قد كانت لهم النهضة والنائرة والصولة الثائرة والحماس الشديد والمثابرة في الدلالة على إعجاز القرآن والعناء بهذا الشأن وإقامة الحجّة البالغة عليه والبرهان..

ألا وهم: السيّدان الشريفان: (الرضي[١] والمرتضى)[٢]، والشيخان الجليلان: الشيخ (الجرجاني)[٣] والقاضي (الباقلاني)[٤]، والفاضلان النيقدان:

---

(١) تقدّمت ترجمته في ج١ ص٤٢٦ هـ٢.

(٢) أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمّد العلوي الموسوي البغدادي الملقّب بالشريف المرتضىٰ وبعلم الهدى، من أكابر علماء الإمامية. ولد ببغداد سنة ٣٥٥ هـ، وتتلمذ هو وأخوه الشريف الرضي على الشيخ المفيد. روى عن: هارون بن موسى التلعكبري، وعلي بن محمّد الكاتب، وأحمد بن سهل الديباجي، وغيرهم. وتفقّه به: أبو جعفر الطوسي، و أبو الصلاح الحلبي، وأبو الفتح الكراجكي، وأبو يعلىٰ الجعفروي، وآخرون. كان كثير السماع والرواية ثاقب الرأي حاضر الجواب غزير العلم إماماً في الكلام والأدب والشعر والفقه. تولّىٰ إمارة الحاجّ والمظالم ونقابة العلويين لأكثر من ثلاثين سنة. من تصانيفه: الانتصار، جمل العلم والعمل، الأمالي، تنزيه الأنبياء والأئمّة، الشافي في الإمامة. وله ديوان شعر كبير. توفّي ببغداد سنة ٤٣٦ هـ، ودفن فيها، ثمّ نقل إلى جوار مشهد الإمام الحسين عليه السلام.

(تاريخ بغداد ١١: ٤٠٢ـ٤٠٣، رجال النجاشي ٢٧٠ـ ٢٧١، رجال الطوسي ٤٣٤، المنتظم ١٥: ٢٩٤ـ ٣٠٠، الكامل في التاريخ ٨: ٤٠، معجم الأُدباء ١٣: ١٤٦ـ١٥٧، وفيات الأعيان ٣: ٣١٣ـ٣١٦، سير أعلام النبلاء ١٧: ٥٨٨ ـ ٥٩٠، أمل الآمل ٢: ١٨٢ ـ ١٨٥، رياض العلماء ٤: ١٤ ـ ٦٤، بهجة الآمال ٥: ٤٢١ ـ ٤٣٣، تأسيس الشيعة ٣٠٣و٣١٢ـ٣١٣، أعيان الشيعة ٨: ٢١٣ـ٢١٩).

(٣) أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمان بن محمّد الجرجاني، واضع أُصول البلاغة، من أئمّة اللغة والنحو. أخذ النحو عن أبي الحسين محمّد بن علي الفارسي، وكان شافعي المذهب أشعري الأُصول مع دين وسكون، وله شعر رقيق. من مصنّفاته: أسرار البلاغة، دلائل الإعجاز، المغني في شرح الإيضاح، إعجاز القرآن، العمدة في التصريف. توفّي سنة ٤٧١ هـ.

(سير أعلام النبلاء ١٨: ٤٣٢ ـ ٤٣٣، فوات الوفيات ٤: ٣٦٩ ـ ٣٧٠، مرآة الجنان ٣: ٧٨، طبقات المفسّرين للداودي ١: ٣٣٦ـ٣٣٧، هدية العارفين ١: ٦٠٦، الأعلام للزركلي ٤: ٤٨ـ ٤٩).

(٤) أبوبكر محمّد بن الطيّب بن محمّد بن جعفر بن قاسم بن الباقِلاني الأشعري البغدادي، عبّر عنه الذهبي بقوله: ←

(الزمخشري)[١] و(السكّاكي)[٢].

وتلاهم في ذلك جملة ممّن تأخّر عنهم وأخذ منهم، واجتدى جدواهم، وما أغنى غناهم ولا بلغ مداهم.

ولعلّ هناك فيمن تقدّم أو تأخّر من بخل الزمان علينا بنُتَفه ولم يسعفنا

← (الإمام العلّامة أوحد المتكلّمين مقدّم الأُصوليين). ولد في البصرة سنة ٣٣٨ هـ. سمع: أبا بكر أحمد بن جعفر القطيعي، وأبا محمّد بن ماسي، وطائفة. وخرّج له أبو الفتح بن أبي الفوارس، وحدّث عنه: أبوذر الهروي، ومحمّد بن أحمد السمناني، وغيرهما. وجّهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطنية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها. توفّي في بغداد سنة ٤٠٣ هـ. من جملة مؤلّفاته: إعجاز القرآن، الإنصاف، دقائق الكلام، الملل والنحل، الاستبصار.

(تاريخ بغداد ٥: ٣٧٩ ـ ٣٨٣، الأنساب للسمعاني ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٧، تبيين كذب المفتري ٢١٧ ـ ٢٢٦، وفيات الأعيان ٤: ٢٦٩ ـ ٢٧٠، سير أعلام النبلاء ١٧: ١٩٠ ـ ١٩٣، شجرة النور الزكية ١: ٩٢ ـ ٩٣).

(١) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمّد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، من أئمّة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشر سنة ٤٦٧ هـ، وسافر إلى مكّة فجاور بها زمناً، فلقّب بجار الله، وتنقّل في البلدان، ثمّ عاد إلى جرجان فتوفّي فيها سنة ٥٣٨ هـ، وكان معتزلياً متشدّداً، وله نظم جيّد. من مؤلّفاته: الكشّاف، المفصّل، المقامات، الفائق، المستقصىٰ، ربيع الأبرار، أطواق الذهب.

(الكامل في التاريخ ٩: ٨، معجم الأُدباء ١٩: ١٢٦ ـ ١٣٥، وفيات الأعيان ٥: ١٦٨ ـ ١٧٤، تذكرة الحفّاظ ٤: ١٢٨٣، دول الإسلام ٢: ٥٦، سير أعلام النبلاء ٢٠: ١٥١ ـ ١٥٦، مرآة الجنان ٣: ٥٠٢ ـ ٥٠٧، البداية والنهاية ١٢: ٢١٩، العقد الثمين ٦: ٣٧ ـ ٤٤، شذرات الذهب ٤: ١١٨ ـ ١٢١).

(٢) أبو يعقوب سراج الدين يوسف بن محمّد بن علي السكّاكي الخوارزمي الحنفي، عالم بالعربية والأدب. ولد في خوارزم سنة ٥٥٥ هـ، والسكّاكي نسبة إلى سكّ الحديد ومهنة الحدادة. من شيوخه: سديد الدين الخيّاطي، ومحمود بن صالحة الحارثي، ومحمّد بن عبدالكريم التركستاني، ومن جملة تلاميذه أبو الرجاء مختار بن محمود الزاهدي. توفّي بخوارزم سنة ٦٢٦ هـ. من مصنّفاته: مفتاح العلوم، شرح الجمل، رسالة في علم المناظرة.

(معجم الأُدباء ٢٠: ٥٨ ـ ٥٩، شذرات الذهب ٥: ١٢٢، روضات الجنّات ٨: ٢٢٠ ـ ٢٢٢، كشف الظنون ٢: ١٧٦٢، معجم المطبوعات العربية ١: ١٠٣٣ ـ ١٠٣٤).

بتصفّح صُحفه.

فيا ما أكثر ما أُخذ من أيدينا من تصانيف آبائنا وأهلينا، وكتب أعلامنا ومآثر إسلامنا، ما لو هلك كلّ امرئٍ مسلم من الحسرة عليها مألوماً، لما كان عندي ملوماً!

ولكن عناية من الله بدينه وإتماماً لحجّته وحفظاً لنواميسه، قد أبقى منها ما يفي بالغرض، وينهج به القصد، وينقطع به العذر، وتقوم فيه على العبد لله الحجّة.

أنت يا ذا الذي تزعم أنّ لك في العربية رتبة وفي مطالعة الكتب والصحف دربة، وأنّك من أهل ذلك اللحن واللسان ولك معرفة بأساليب الخطابة والبيان، راجع تفاريق كتب أُولئك الأعلام وما أبقت بأيدينا من تصانيفهم غوابر الأيّام، تجد فيها من تلك البغية شيئاً شافياً ومن أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وإعجاز القرآن* شرحاً وافياً.

أمّا الاستيعاب والاستقصاء والحصر والإحصاء، فذلك مقام في كتاب الله لا يُنال وأمرٌ عاد أو كاد أن يكون من المحال.

وجميع ما ذكرناه وفصّلناه على طيّاته وطوله، وما حرّروه وحبّروه على تفاصيله، ممّا لهم فيه الهمّة القعساء والعزمة الملساء، ولكن ما كلّ ذلك بالقياس إلى ما حصروا عنه وأقصروا وانحطّوا دونه وتأخّروا إلّا كنسبة القبس من الشمس والقدم من الرأس، والبلّ من الوبل والفرع من الأصل!

يدلّك على بعض ما نقول أنّ أكثر ما قدّمناه ودللنا عليه من تلك الآيات الباهرات والمعجزات القاهرات التي أشرنا بذروٍ من القول وبروٍ[1] من الكلام

(*) إشارة إلى الكتب الثلاثة الجليلة في هذا الموضوع: الأوّلان للجرجاني، والثالث للباقلاني. (منه رحمه الله).

(١) الروي: الضعيف. (لسان العرب ٥: ٣٨٢).

وحثالة من البيان إلى وجوه إعجازها وعيون بلاغتها، هي من الآيات التي لم يتعرّضوا لها ولا خاضوا فيها ولا أشاروا إليها، كآية النور وكثير ممّا تقدّمها.

وهذا ممّا يدلّك على عظيم الشأن لهذا القرآن، وأنّه بحر عجّاج متلاطم الأمواج، لا يُدرك لُجّه[1] ولا يقطع فجّهُ[2] ولا يُسلك نهجه، ولا تنفد لئاليه ولا تعدّ معاليه، ولا تُجمع غرره ولا تُحصى درره، ولا تنقضي عجائبه ولا تزال تشرق لك ولا تغرب عنك غرائبه..

أنّى وردتَ وردتَ حياضاً وأنّى أردت ردتَ رياضاً، وحيث توجّهت وجدت للبلاغة ربيعاً وأنّى استقبلت بلوت من الإعجاز أمراً بديعاً!

فأنت عن الانتقاد في غُنية، وعن الارتياد في فسحة، ومن الاختيار في خيار.

خُذ منه ما وقع عليه بغتةً نظرك وما أصابته وهلة يدك، وهذا وادٍ فسيح ومنزل وسيع، يأتي علينا ولا نأتي عليه، ولا يسعنا أن نثبت عنده أو نقف لديه.

وحيث قد انجرّ بنا الكلام إلى ذكر أُولئك الأعلام من زعماء العربية بل زعماء الإسلام، فلنكتف من الإطالة بالحوالة ومن استيفاء الأدلّة بالإرشاد إليهم والدلالة، فإنّك تجد من الحجّة في كلماتهم مقنعاً، ومن بلج[3] الحقّ لسدفة[4] الباطل مَدفعاً، ولتدبّر ما به البلغة إلى بلاغة القرآن وإعجازه مجالاً متّسعاً.

ثمّ بعد هذا كلّه لا أجد أوسع لي وأحرى بي من الاعتراف والإصحار

---

(١) لُجّة الماء: معظمه، وكذلك اللُجّ. (صحاح اللغة ١: ٣٣٨).

(٢) الفجّ: الطريق الواسع بين الجبلين. (المصدر السابق ١: ٣٣٣).

(٣) أبلج الحقّ: أضاء وظهر. (العين للفراهيدي ٦: ١٣٣).

(٤) السدَف: ظلام الليل، والسُدفة: طائفة من الليل. (المصدر السابق ٧: ٢٣٠).

بالحقيقة[١] التي ينتهي إليها في هذه المباحث كلّ موجز ومسهب ومقصر ومطنب..

تلك هي الإذعان بالقصور والعجز عن ضبط أنواع إعجازه وإحصاء أبواب فصاحته وحصر عناوين بلاغته، دون أن يسنح على الخطور استيفاء خواصّ كلّ آية ونكات كلّ كلمة.

نعم، قد عقد (القاضي)[٢] في (الشفا) فصلاً للبحث عن وجوه إعجاز القرآن، وجعل تحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه.

ونحن نستخلص لك صفوة ما ذكر ومصاص ما سطّر، بتسوية وتشذيب وانتخاب وتلطيف.

وقد عثرت عليه بعد الفراغ من هذا الجزء، فرأيته يرتبط كثيراً بكلامنا الآنف، فنقلنا منه ما يلي، وألحقناه بهذا المقام:

قال: (أوّلها: حسن تأليفه، والتئام كلمه، وفصاحته، وإيجازه، وبلاغته

---

(١) أصحر بالحقيقة: جاهر بها. (القاموس المحيط ٢: ٦٩).

(٢) أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي الأندلسي المالكي، القاضي المشهور. ولد سنة ٤٧٦ هـ. روى عن: القاضي أبي علي بن سُكّرة الصدَفي، وأبي بحر بن العاص، ومحمّد بن حمدين، وهشام بن أحمد، وعدّة. حدّث عنه: عبدالله بن محمّد الأشيري، وأبو جعفر بن القصير الغرناطي، وخَلَف بن بَشكوال، ومحمّد بن الحسن الجابري، وغيرهم. تفقّه: بأبي عبدالله محمّد بن عيسىٰ التميمي، والقاضي محمّد بن عبدالله المسيلي. استبحر من العلوم وجمع وألّف واشتهر. استقضي بسبتة مدّة طويلة، ثمّ نقل عنها إلىٰ قضاء غرناطة. من تأليفاته: الإكمال في شرح صحيح مسلم، مشارق الأنوار في اقتفاء صحيح الآثار، الشفا في شرح المصطفىٰ، جامع التاريخ، وغيرها. توفّي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ.

(وفيات الأعيان ٣: ٤٨٣ ـ ٤٨٥، تذكرة الحفّاظ ٤: ١٣٠٤ ـ ١٣٠٧، دول الإسلام ٢: ٦١، سير أعلام النبلاء ٢٠: ٢١٢ ـ ٢١٧، البداية والنهاية ١٢: ٢٢٥، طبقات الحفّاظ ٤٦٨ ـ ٤٦٩، هدية العارفين ١: ٨٠٥).

الخارقة عادة العرب.

وذلك أنّهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام، قد خصّوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأُوتوا من ذرابة اللسان[1] ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيّد الألباب.

جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة، وفيهم غريزة وقوّة.

منهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الخفم والطبع الجوهري والمنزع القوي.

ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرّف في القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية.

ولكليهما في البلاغة الحجّة البالغة والقوّة الدامغة، والقدح الفالج والمهيع الناهج.

لا يشكّون أنّ الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم. قد حووا فنونها واستنبطوا عيونها.

فقالوا في الخطير والمهين وتفنّنوا في الغثّ والسمين، وتقاولوا في القلّ والكثّر وتساجلوا في النظم والنثر.

فما راعهم إلّا رسول كريم بكتاب عزيز: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2]، أُحكمت آياته وفصّلت كلماته، تبارت في

---

(١) الذَرِب: الحديد اللسان، وذرب اللسان: حدّته. (تاج العروس ٢: ٤٢٩).

(٢) سورة فصّلت ٤١: ٤٢.

الحسن مطالعه ومقاطعه وحوت كلّ البيان جوامعه وبدائعه.

وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالاً، وأشهر في الخطابة رجالاً، وأكثر في السجع والشعر سجالاً، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً، بلغتهم التي بها يتحاورون ومنازعهم التي عنها يتناضلون، صارخاً بهم في كلّ حين ومقرّعاً لهم على رؤوس الملأ أجمعين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[2] إلى قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾[3].

فلم يزل يقرّعهم أشدّ التقريع، ويوبّخهم غاية التوبيخ، ويسفّه أحلامهم، ويحطّ أعلامهم، ويشتّت نظامهم، ويذمّ آلهتهم وآباءهم.

وهم في كل هذا ناكصون[4] عن معارضته، يخادعون أنفسهم بالتكذيب بالتشغيب، والإغراء بالافتراء.

وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[5]، و: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[6]، و: ﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾[7]، و: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[8].

---

(١) سورة يونس ١٠: ٣٨.

(٢) سورة البقرة ٢: ٢٣.

(٣) سورة البقرة ٢: ٢٤.

(٤) النكوص: الإحجام. (العين للفراهيدي ٥: ٣٠٣).

(٥) سورة المدّثر ٧٤: ٢٤.

(٦) سورة القمر ٥٤: ٢.

(٧) سورة الفرقان ٢٥: ٤.

(٨) سورة الأنعام ٦: ٢٥، سورة الأنفال ٨: ٣١، سورة النحل ١٦: ٢٤، سورة المؤمنون ٢٣: ٨٣، سورة الفرقان ٢٥: ٥، سورة النمل ٢٧: ٦٨، سورة الأحقاف ٤٦: ١٧، سورة القلم ٦٨: ١٥، سورة المطفّفين ٨٣: ١٣.

والمباهتة والرضا بالدنيّة، كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[١]، و: ﴿فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[٢]، و: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[٣].

وبالادّعاء مع العجز، بقولهم: ﴿لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾[٤].

وقد قال لهم الله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾[٥]، فما فعلوا ولا قدروا.

ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كـ(مسيلمة) كشف عواره لجميعهم، وسلبه الله ما ألفوه من فصيح كلامهم، وإلّا فلم يخف على أهل الميز أنّه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم، بل ولّوا عنه مدبرين وأتوا مذعنين من بين مهتدٍ وبين مفتون.

ولهذا لمّا سمع (الوليد بن المغيرة)[٦] من النبي (صلوات الله عليه): ﴿إِنَّ اللَّهَ

---

(١) سورة البقرة ٢: ٨٨، وسورة النساء ٤: ١٥٥.

(٢) سورة فصّلت ٤١: ٥.

(٣) سورة فصّلت ٤١: ٢٦.

(٤) سورة الأنفال ٨: ٣١.

(٥) سورة البقرة ٢: ٢٤.

(٦) أبو عبدشمس الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم المخزومي القرشي، من قضاة العرب في الجاهلية ومن زعماء قريش ومن زنادقتها. كان يعمل بالحدادة، ويقال له: العدل؛ لأنّه كان عدل قريش كلّها على ما يقولون، حيث كانت قريش تكسوا البيت، والوليد يكسوه لوحده. وكان ممّن حرّم الخمر في الجاهلية وضرب ابنه هشاماً على شربها، وهو أوّل من خلع نعليه لدخول الكعبة، وأوّل من قضى بالقسامة، وأوّل من قطع في السرقة في الجاهلية. أدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته، وسمّى الرسول ﷺ بالساحر! هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون.

(تاريخ اليعقوبي ١: ٢٥٨ و٢: ٩، ١٩، ٢٤، المعارف ٥٥١ ـ ٥٥٢ و٥٧٥، الأعلام للزركلي ٨: ١٢٢).

﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[١] قال: (والله، إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّه ليعلو ولا يعلى عليه، ولا يقول هذا بشر).

وذكر (أبو عبيدة)[٢]: أنّ أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[٣]، فسجد، وقال: (سجدت لفصاحته).

وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً﴾[٤]، قال: (أشهد أنّ مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام).

وحكى (الأصمعي)[٥]: أنّه سمع كلام جارية، فقال لها: (قاتلك الله! ما

---

(١) سورة النحل ١٦: ٩٠.

(٢) أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ التيمي بالولاء البصري النحوي، من أئمّة العلم بالأدب واللغة. ولد في البصرة سنة ١١٠ هـ، استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ، وقرأ عليه أشياء من كتبه، وكان إباضياً شعوبياً من حفّاظ الحديث، ولمّا مات لم يحضر جنازته أحد؛ لشدّة نقده معاصريه، وكان ـ مع سعة علمه ـ ربّما أنشد البيت فلم يقم وزنه، ويخطئ إذا قرأ القرآن نظراً. له نحو من (٢٠٠) مؤلّف، منها: نقائض جرير والفرزدق، مجاز القرآن، العققة والبررة، فتوح أرمينية، مآثر العرب. توفّي بالبصرة سنة ٢٠٩ هـ.

(تاريخ بغداد ١٣: ٢٥٢ ـ ٢٥٨، وفيات الأعيان ٥: ٢٣٥ ـ ٢٤٣، تذكرة الحفّاظ ١: ٣٧١ ـ ٣٧٢، ميزان الاعتدال ٤: ١٥٥، تهذيب التهذيب ١٠: ٢٢١ ـ ٢٢٢، الأعلام للزركلي ٧: ٢٧٢).

(٣) سورة الحجر ١٥: ٩٤.

(٤) سورة يوسف ١٢: ٨٠.

(٥) أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الأصمعي البصري، راوية العرب وأحد أئمّة العلم باللغة والشعر والبلدان. ولد بالبصرة سنة ١٢٢ هـ، حدّث عن: ابن عون، وسليمان التيمي، وأبي عمرو بن العلاء، وشعبة، وعدد كثير. وحدّث عنه: أبو عُبيد، ويحيىٰ بن معين، وأبو حاتم السجستاني، وأبو العيناء، وخلق كثير. نقل الذهبي أقوال الأكابر في مدحه. كان كثير التطواف في البوادي يقتبس علومها ويتلقّى أخبارها ويتحف بها الخلفاء فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. من جملة تصانيفه: الإبل، الأضداد، خلق الإنسان، الخيل، النبات والشجر. توفّي بالبصرة سنة ٢١٦ هـ.

←

أفصحك)! فقالت: (أو يَعدّ هذا فصاحة بعد قول الله (تعالى): ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[1] الآية)؟! فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته غير مضاف إلى غيره.

وأنت إذا تأمّلت قوله (تعالى): ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[3]، وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[4]، وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾[5]، وقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾[6]، وأشباهها من الآي بل أكثر القرآن، حقّقت ما بيّنته من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلائم كلمها، وأنّ تحت كلّ لفظة منها جملاً كثيرة وفصولاً جمّة وعلوماً زواخر، ملأت الدواوين من بعض ما استُفيد منها وكثرت المقالات في المستنبطات عنها.

ثمّ هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في

← (التاريخ الكبير ٥: ٤٢٨، المعارف ٥٤٣ ـ ٥٤٤، الجرح والتعديل ٥: ٣٦٣، تاريخ أصبهان ٢: ٩٤ ـ ٩٥، تاريخ بغداد ١٠: ٤١٠ ـ ٤٢٠، وفيات الأعيان ٣: ١٧٠ ـ ١٧٦، سير أعلام النبلاء ١٠: ١٧٥ ـ ١٨١، العبر ١: ٣٧٠، تهذيب التهذيب ٦: ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

(١) سورة القصص ٢٨: ٧.

(٢) سورة البقرة ٢: ١٧٩.

(٣) سورة سبأ ٣٤: ٥١.

(٤) سورة فصّلت ٤١: ٣٤.

(٥) سورة هود ١١: ٤٤.

(٦) سورة العنكبوت ٢٩: ٤٠.

عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان آية لمتأمّله من ربط الكلام بعضه ببعض والتنام سرده وتناصف وجوهه، كقصّة (يوسف) على طولها.

ثمّ إذا تردّدت قصصه اختلفت العبارات عنها حتّى تكاد كلّ واحدة تنسي في البيان صاحبتها وتناصف في الحسن وجه مقابلتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معاداة لمعادها.

الوجه الثاني من إعجازه: صورة نظمه العجيب، والأُسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها.

ولم يوجد قبله ولا بعده نظير، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، وتدلّهت دونه أحلامهم[1]، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر.

ولما سمع (الوليد بن المغيرة) القرآن رقّ، فجاءه (أبو جهل) منكراً عليه، فقال: (والله، ما منكم أحد أعلم بالأشعار منّي! والله، ما يشبه الذي يقول شيئاً من الشعر).

واجتمعت قريش قبل حضور الموسم، وقالت: إنّ وفود العرب سوف ترد، فأجمعوا رأيكم في ما تقولون عن (محمّد)، ولا يكذّب فيه بعضكم بعضاً، فقالوا: نقول: كاهن! فقال (الوليد): (والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمته ولا سجعه)، قالوا: فنقول: مجنون! قال: (ما هو بمجنون، ولا بخنقه ووسوسته)، قالوا: فنقول: شاعر! قال: (ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كلّه رجزه وهزجه

---

(١) التَدلّه: الحيرة والدهشة. (مجمع البحرين ٦: ٣٤٥).

والأحلام: العقول. (المصدر السابق ٦: ٤٩).

ومبسوطه ومقبوضه)، قالوا: فساحر! قال: (ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده)، قالوا: فما نقول؟! قال: (ما تقولون شيئاً من هذا إلّا وأنا أعرف أنّه باطل، وإنّ أقرب القول أنّه ساحر! فإنّه سحر يفرّق به بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه). فتفرّقوا وجلسوا على السبل يحذّرون الناس، فأنزل الله (تعالى) في (الوليد): ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾[١] إلى قوله (تعالى): ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾[٢].

وعلى أيٍّ، فعجز العرب عنه ثابت، وإقامة الحجّة عليهم بما يصحّ أن يكون مقدورهم وتحدّيهم بأن يأتوا بمثله قاطع وهو أبلغ في التعجيز وأحرى بالتقريع.

فما أتوا في ذلك بمقال، بل صبروا على الجلاء والقتل والصغار والذلّ، وكانوا من شموخ الأنف وإباء الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختياراً ولا يرضونه إلّا اضطراراً، وما منهم إلّا من جهد جهده واستنفذ ما عنده في إخفاء ظهوره وإطفاء نوره، فما جلوا في ذلك خبيئة من بنات شفاههم، ولا أتوا بنطفة من معين مياههم مع طول الأمد وكثرة العدد، وتظاهر الوالد وما ولد، بل أبلسوا، فما نبسوا، ومنعوا فانقطعوا!

الوجه الثالث من الإعجاز: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات ممّا لم يكن فكان كما قال ووقع كما أخبر.

كقوله (تعالى): ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ﴾[٣]، وقوله

---

(١) سورة المدّثر ٧٤: ١١.

(٢) سورة المدّثر ٧٤: ١٨.

(٣) سورة الفتح ٤٨: ٢٧.

(تعالى): ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾[٣]، وقوله: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾[٤].

فكان جميع هذا كما ذكره (تعالى)..

غلبت الرومُ فارس في بضع سنين، ودخل الناس في الإسلام أفواجاً حتّى لم يبق في جزيرة العرب موضع لم يدخله الإسلام في حياته (صلوات الله عليه)، واستخلف الله المؤمنين في الأرض ومكّن لهم دينهم وملّكهم إيّاها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب، كما قال (صلوات الله عليه): «زويت لي الأرض، فأُريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أُمّتي ما زوي لي منها»[٥].

وقوله (تعالى): ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[٦]، وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾[٧]. فكان كلّ ذلك.

هذا، مع ما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، ومقالهم، وكذبهم في حلفهم، وتقريعهم على ذلك:

كقوله (تعالى): ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[٨]، وقوله:

---

(١) سورة الروم ٣٠: ٣.

(٢) سورة التوبة ٩: ٣٣، سورة الفتح ٤٨: ٢٨، سورة الصفّ ٦١: ٩.

(٣) سورة النور ٢٤: ٥٥.

(٤) سورة النصر ١١٠: ١ـ٢.

(٥) قارن: المصنّف لابن أبي شيبة ٧: ٤٢١، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٠٤.

(٦) سورة القمر ٥٤: ٤٥.

(٧) سورة آل عمران ٣: ١١١.

(٨) سورة المجادلة ٥٨: ٨.

﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾[1]، وقوله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[2]، ونظائر لهذا كثيرة في خصوص شأن اليهود.

وأبدى ما ودّه المسلمون يوم بدر بقوله (تعالى): ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[3].

وقوله (تعالى): ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[4]، وهم نفر بمكّة كانوا ينفّرون عنه الناس ويؤذونه، فأهلكهم الله جميعاً.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[5]. فكان كذلك، على كثرة من رام ضرّه وقصد قتله.

والأخبار بذلك صحيحة معروفة).

يقول مؤلّف هذه (الدعوة): إنّ الكتاب الكريم والسنّة النبويّة قد اشتملا على شيء كثير من الإخبار بالغيب صراحة وتلويحاً.

ويحسن أن يفرد هذا العنوان بالتأليف، ولا سيّما إذا ضُمّ إلى ذلك إخبار أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) عليه السلام بالملاحم، كما في (النهج) وغيره، فإنّه يجيء كأكبر كتاب وأعظم آية ومعجزة للإسلام.

فعسى أن ينهض لهذه الصنيعة بعض أفاضل المسلمين. وربّنا نذكر كثيراً من ذلك في ثنايا دعوتنا هذه وما يتلو من أجزائها التابعة لهذا الجزء إن شاء الله.

---

(١) سورة آل عمران ٣: ١٥٤.

(٢) سورة النساء ٤: ٤٦.

(٣) سورة الأنفال ٨: ٧.

(٤) سورة الحجر ١٥: ٩٥.

(٥) سورة المائدة ٥: ٦٧.

نعم، وهذه الجهة ـ أعني: الإخبار بالغيب ـ وإن لم يكن من الإعجاز من جهة بلاغة البيان، ولكن جهات الإعجاز لا تنحصر بذلك، وإنّ من أعظم ما يعجز البشر ويخرج عن طوق قدرهم الإخبار بوقائع مستقبلهم حيث يكون عن غير علوم آلية ولا صناعات عملية من كهانة أو فراسة أو جفر أو رمل[١] أو ما أشبه ذلك.

ومن المعلوم أنّ إخبارات القرآن بالغيب لم يكن شيء منها بهاتيك الصفة، ولا على واحد منها تلك السمة.

فأين قوله: ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[٢] من تسجيعات الكهنة وتهجّساتهم وزمازمهم؟!

وكذلك الإخبارات الغيبية من الحضرة النبويّة.

وسيتّضح بعض ذلك فيما سيجيء إن شاء الله.

(الوجه الرابع: ما أنبأ من أخبار القرون السالفة والأُمم البائدة والشرائع الداثرة ممّا كان لا يعلم منه القصّة الواحدة إلّا الفذّ من أحبار أهل الكتاب الذي

---

(١) علم الكهانة: علم مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجرّدة من الجنّ والشياطين، والاستعلام بهم عن الأحوال الجزئية الحادثة في عالم الكون والفساد المخصوصة بالمستقبل. (أبجد العلوم ٢: ٣٧٣).

وعلم الفراسة: علم تعرف منه أخلاق الناس من أحوالهم الظاهرة من الألوان والأشكال والأعضاء. وبالجملة: الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن. (المصدر السابق ٢: ٣٢٧).

وعلم الجفر: هو العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحتوي على كلّ ما كان وما يكون كلّياً وجزئياً. والجفر: لوح القضاء الذي هو عقل الكلّ. (المصدر السابق ٢: ١٨١).

وعلم الرمل: هو علم يُعرف به الاستدلال على أحوال المسألة حين السؤال بأشكال الرمل، وهي اثنا عشر شكلاً على عدد البروج. وأكثر مسائل هذا الفنّ أُمور تخمينية مبنية على التجارب. (المصدر السابق ٢: ٢٥٤ـ ٢٥٥).

(٢) سورة الروم ٣٠: ٣.

قطع عمره في تعلّم ذلك، فيورده النبي (صلوات الله عليه) على وجهه ويأتي به على نصّه، فيعترف العالم منهم بصحّته وصدقه.

وإنّ مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنّه ﷺ أُمّيّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا مثاقبة، ولم يغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم.

وقد كان أهل الكتاب كثيراً ما يسألونه (صلوات الله عليه)، فينزل من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر (موسى) و(الخضر)، و(يوسف) وإخوته، وأصحاب الكهف، و(ذي القرنين)، و(لقمان) وابنه، وأشباه ذلك من الأنبياء، وبدء الخلق، وما في التوراة والإنجيل والزبور وصحف (إبراهيم) و(موسى) ممّا صدّقه فيه العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمن موفّق آمن بما سيق له من خير، ومن شقي حاسد ضلّ عن القصد.

ومع هذا لم يحك عن واحد من النصارى واليهود على شدّة عداوتهم له، وحرصهم على تكذيبه، وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم، وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم، وكثرة سؤالهم له ﷺ، وتعنيتهم إيّاه عن أخبار أنبيائهم وأسرار علومهم ومضمّنات كتبهم، كسؤالهم عن الروح، و(ذي القرنين)، وأصحاب الكهف، و(عيسى)، وحكم الرجم، وما حرّم (إسرائيل) على نفسه، وما حرم عليهم من الأنعام، وغير ذلك من أُمورهم، أجابهم (صلوات الله عليه وآله) عن كلّ ذلك بوحي من القرآن، وما أنكره عليه أحد منهم، بل أكثرهم صرّح بصحّة نبوّته واعترف بعناده وحسده، كأهل نجران، و(ابن صوريا)، و(ابني أخطب)، وغيرهم.

ومن باهت بعض المباهتة قيل له: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ

صَادِقِينَ﴾[١]، فقرّع ووبّخ ودعا إلى إحضار أمر ممكن، فمن معترف بما جحده، ومتواقح يلقي على كتابه يده.

ولم يؤثر أنّ واحداً منهم أظهر ما هو بخلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحاً أو سقيماً من صحفه.

قال (سبحانه): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[٢] الآية)[٣]. انتهى ما أردنا انتخابه لك من (الشفا).

وفي الحقّ أنّه قد وصف فأحسن، ورصف[٤] فأتقن.

وهو وإن أطال ووجد مجال القول ذا سعة فقال، ولكنّه دون الوصول إلى تمام الحقيقة بكثير.

[التنبيه لأُمور ثلاثة في المقام]

نعم، هنا أُمور ثلاثة يروق التنبيه عليها ويجدر البحث فيها:

[الأمر الأوّل: ما للبيان والبلاغة عند العرب من الشأن، ودور القرآن في تعليم البلاغة والفصاحة]

[الأمر] الأوّل: أنّ كلّ ذي نظرة في جمهرة أحوال العرب وشؤونهم ـ ولو

---

(١) سورة آل عمران ٣: ٩٣.

(٢) سورة المائدة ٥: ١٥.

(٣) الشفا للقاضي عياض ١: ٢١٢ ـ ٢٢٥.

(٤) الرصف: ضمّ الشيء بعضه إلى بعض. (صحاح اللغة ٤: ١٣٦٥).

بالنظرة الطفيفة واللحظة الخفيفة ـ يعرف توسّعهم في أساليب البيان واستبحارهم في الفصاحة والبلاغة، ويعلم ما لذلك عندهم من الشأن وعظيم المنزلة وعلوّ الرتبة.

نعم، قد بلغ البيان وحسن المنطق منهم في نفوذ التأثير وامتلاك التبديل والتغيير وتحوير صفات المجتمع أو أفراده ما لم يبلغه عند أُمّة من الأُمم ولا شعب من الشعوب.

فكان الشعر وحسن البيان عندهم كأنّه هوالذي يذلّ العزيز ويعزّ الذليل، ويشجّع الجبان ويسخّي البخيل، ويحلّم السفيه ويسفّه الحليم، ويثير رهج[1] الحروب ويطفي لهب الخطوب، ويتصرّف في القلوب بما لا تتصرّف فيه ابنة الكرم ولا رسيس[2] الغرام.

وشواهد ذلك أكثر من أن تحصى أو يحيط بها الاستطراد.

ولو أردنا أن نجمع أمثال:

قصّة (الأعشى)[3] مع (المحلّق)[4]:

---

(١) الرهج: الغبار. (تهذيب اللغة ٦: ٣٤).

(٢) الرسيس: أوّل ما يجد الإنسان مسّ الحمّىٰ قبل أن تظهر، أو: الشيء الثابت الذي قد لزم مكانه. ورسيس الهوى: أصله. (المصدر السابق ١٢: ٢٠٤ و ٢٠٥).

(٣) تقدّمت ترجمته في ص١٤٨ هـ٣.

(٤) المحلّق بن حنتم بن شدّاد الكلابي العامري، كريم جاهلي. اشتهر بأبيات قالها فيه الأعشىٰ، أوّلها: نفى الذمّ عن رهط المحلّق جفنة. ومنها:

تشبّ لمقرورين يصطليانها … وبات على النار الندى والمحلّق

وكانت عنده أخوات عوانس، فلمّا قيلت فيه أبيات الأعشىٰ تزوّجن جميعهنّ. والمحلّق لقب له غلب على ←

.... وبات على النار الندى والمحلّق[١].

وقول الآخر:

قومٌ هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا[٢]؟!

فصاروا يفتخرون بهذا اللقب بعد أن كانوا يرونه سبّة عليهم[٣].

← اسمه، فقيل: اسمه عبد العزّى بن حنتم، وقيل: عبد العزيز بن حنتم، ولقّب بالمحلّق؛ لشجّة أصابت وجهه كالحلقة من عضّة حصان أو من أثر كيٍّ. من نسله أُمّ هيثم الكلابية راوية أهل البصرة.

(العقد الفريد ٦: ١٧٧ ـ ١٧٨، الأعلام للزركلي ٥: ٢٩١ ـ ٢٩٢).

(١) وقصّة ذلك: أنّ المحلّق بن حنتم بن شدّاد كان خاملاً لا يذكر حتّىٰ طرقه الأعشى في فتية وليس عنده إلّا ناقة، فأتىٰ أُمّه، فقال: إنّ فتية طرقونا الليلة، فإن رأيت أن تأذني في نحر الناقة. قالت: نعم، يا بني. فنحرها واشترى لهم ببعض لحمها شراباً، وشوى لهم بعض لحمها؛ فأصبح الأعشىٰ ومن معه غادين، فلم يشعر المحلّق حتّىٰ أتته القصيدة التي أوّلها:

أرقتُ وما هذا السهادُ المؤرّقُ وما بيَ من سقمٍ وما بي مَعشَقُ

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ إلىٰ ضوء نارٍ في بقاعٍ تحرّقُ

تشبّ لمقرورين يصطليانها وبات على النارِ الندى والمحلّقُ

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما بأسحمَ داجٍ عوض لا نتفرّقُ

ترى الجودَ يسري سائلاً فوق وجهه كما زانَ متنَ الهندواني رونقُ

لاحظ العقد الفريد ٦: ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٢) هذا البيت للحطيئة الشاعر. راجع ديوانه ٤١.

(٣) وذلك: أنّ بني حنظلة بن قُريع بن عوف بن كعب كان أباهم قد نحر جزوراً وقسّم اللحم، فجاء حنظلة وقد فرغ اللحم وبقي الرأس، وكان صبياً، فجعل يجرّه، فقيل له: ما هذا؟ فقال: أنف الناقة، فلقّب به، فكانوا يُسبّون بهذا اللقب في الجاهلية، ويغضبون من ذلك، حتّىٰ قال فيهم الحطيئة:

سيري أمام فإنّ الأكثرين حصىً والأكرمين إذا ما ينسبون أبا

قومٌ همُ الأنفُ والأذناب غيرهم ومن يُسوّي بأنفِ الناقةِ الذنبا؟!

فصار هذا اللقب فخراً لهم وشرفاً فيهم.

انظر: العقد الفريد ٦: ١٧٧، الأغاني ٢: ١٥١، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٣٦١.

وقول (لبيد)[١] في مجلس (النعمان)[٢]:
(مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه)[٣]، في قصّة مشهورة[٤].

---

(١) أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن مالك العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، من أهل عالية نجد. أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ، ويعدّ من الصحابة ومن المؤلّفة قلوبهم، فترك الشعر، ولم يقل في الإسلام إلّا بيتاً واحداً، قيل: هو:

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسِهِ ... والمرءُ يصلحهُ الجليسُ الصالحُ

وهو أحد أصحاب المعلّقات، وكان كريماً، نذر أن لا تهب ريح الصبا إلّا نحر وأطعم. سكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً، وتوفّي سنة ٤١ هـ. جمع بعض شعره في ديوان صغير.

(الأغاني ١٥: ٢٩١ ـ ٣٠٦، مرآة الجنان ١: ٩٧، سمط اللآلي ١٣، خزانة الأدب ٢: ٢١٦ ـ ٢١٩، شذرات الذهب ١: ٥٢، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١: ١٤٥ ـ ١٤٧، الأعلام للزركلي ٥: ٢٤٠).

(٢) أبو قابوس النعمان بن المنذر بن المنذر بن إمرئ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي، آخر ملوك الحيرة اللخميين ومن أشهرهم. نشأ في عائلة نصرانية، وخلعه كسرى الثاني وسجنه في المدائن. مدحه النابغة الذبياني. كان له يومان معروفان: يوم البؤس ويوم النعيم، فمن جاءه في يوم البؤس قتله، ومن جاءه في يوم النعيم أكرمه. توفّي سنة ٦٠٢ م.

(خزانة الأدب ٢: ٣٩٧ ـ ٣٩٨، المنجد في الأعلام ٥٧٥).

(٣) راجع ديوان لبيد ١٠٨ ـ ١١٠.

(٤) وذلك: أنّ عامر بن مالك ملاعب الأسنّة وفد على النعمان في رهط من بني جعفر كان فيهم لبيد، فوجدوا عنده الربيع بن زياد العبسي نديمه، فطلبوا حاجتهم من النعمان، فخلا الربيع معه وذكر معايبهم وطعن فيهم حتّى صدّ النعمان عن إكرامهم، ففطنوا إلى ما فعله الربيع، وعمدوا إلى لبيد وأدخلوه على النعمان، فوجدوه يتغدّى ومعه الربيع، والدار والمجالس مملوّة بالوفود، فأنشأ لبيد:

نحن بنو أُمّ البنين الأربعهْ ... سيوف جنّ وجفانٌ مترعهْ
نحن خيار عامر بن صعصعهْ ... الضاربون الهامَ تحت الخيضعهْ
والمطعمون الجفنة المدعدعه ... مهلاً أبيتَ اللعن لا تأكل معهْ
إنّ استه من برصٍ ملمّعهْ ... وإنّه يُدخل فيها أُصبعهْ
يُدخلها حتّى يواريَ أشجعهْ ... كأنّه يطلب شيئاً ضيّعهْ

←

وكثير من نسق هذا ونمطه..

لو أردنا جمعه أو الخوض فيه لاندفعنا إلى أودية فيحاء متّسعة الأرجاء، لا نأتي على أطرافها ولا نقف على تخومها.

وهذا أمر لا مرية فيه، وشهرته تغني عن ذكره.

فقد قام في الجاهلية سوق للشعر كان يباع الرخيص منه بأغلى الأثمان، وينزل السافل ـ فضلاً عن العالي منه ـ أعزّ منزلة ومكان.

ومن الجلي أنّ العمل أيّاً كان صنعة أو مهنة أو حرفة أو غير ذلك إذا انصرفت إليه الرغبات وتوجّه نحوه الطلب وقامت له أسواق ومدّت إليه الأعناق وكثر إنفاقه وقلّ إخفاقه، لا محالة اتّسع نطاقه وامتدّ رواقه وأُحكمت أسبابه وتكاثر الداخلون فيه وتهاجمت الناس على طلبه والاستبحار في استحكامه والتنوّق فيه والتغالب في أشواطه بإجادة العمل ولباقة الصنعة ومهارة التفنّن فيه والتنوّع منه.

هذا ناموس من نواميس الخليقة، لا يختصّ بعصر دون عصر، ولا بأُمّة دون أُمّة، ولا بصنعة دون أُخرى، كما تشهد وترى.

أمّا الشعر فكأنّه في أُخريات عصور الجاهلية قد بلغ أوج سمائه ونزل في

← فرفع النعمان يده من الطعام، وقال: (خبثّت ـ والله ـ يا غلام طعامي، وما رأيت كاليوم قط)! فكذّب الربيع مقالة لبيد، ولكن دون جدوى، فأمره النعمان بالانصراف إلىٰ قومه، وأكرم الجعفريين وقضىٰ حوائجهم. وكان من جملة ما أنشأه النعمان مخاطباً للربيع:

قد قيل ذلك إن حقّاً وإن كذباً فما اعتذارك من قولٍ إذا قيلا؟!

راجع: الأغاني ١٥: ٢٩٢ ـ ٢٩٥، جمهرة الأمثال ٢: ١١٦ ـ ١١٨، البصائر والذخائر ٦: ٢٣٧ ـ ٢٣٩، أمالي المرتضىٰ ١: ١٣٤ ـ ١٣٦، خزانة الأدب ٤: ١٢ ـ ١٣ و ٩: ٥٥٠ ـ ٥٥٣.

أقصى برج من ارتقائه، وكأنّه وصل إلى الغاية التي ما وراءها مفسح ولا لحائل بعدها مسرح، وكأنّ البلاغة فيه وقفت على حدودها المقدورة للبشر وأشرفت على العبور إلى ما وراء القوى والقُدر، حتّى إذا أشرقت في العالم لمعات هذا القرآن الكريم والفرقان الحكيم سرت في الكون روح من البلاغة، وَي[1] كأنّها غير تلك الروح! وهبّ في الوجود روح من البيان، وَي كأنّه ما كان في الحسبان ولا سنح على خاطر إنسان!

أُفصح لك عن طرف من ذلك وأُحيل إليك تمام ما أُحاول من هذه المقايسة والموازنة:

إنّ العرب الذين تعلم أنت أحسن العلم بما للبيان والبلاغة عندهم من الشأو والشأن والمكانة والرفعة والزلفى والمنزلة، قد كانت آية فصاحتهم وعنوان بلاغتهم وطراز ديباجتهم وبيت قصيدهم وقلادة جيدهم وأكبر ما عندهم لمن بعدهم وأحسن ما لديهم للمتطفّل عليهم، هي تلك المعلّقات السبع التي خرقت كلّ سمع وطرقت كلّ جمع، فكانت كإنجيل بلاغة ذلك الجيل ومعجز قرآن ذلك القبيل.

وحقّاً أنّها قد أخذت حظّاً من الفصاحة وتبوّأت مقاماً من الإبداع تليق أن تعلّق به على ألواح الخواطر والأسماع، لا وسط البيوت المقدّسة والهياكل الشريفة فقط.

وأنت إذا منحتها النظرة الأُولى وجدت لأكثرها رونقاً من حسن ومسحة من لطف، ولكنّك إذا أتبعتها الثانية وأمعنت بها تدبّراً ومحّصتها اعتباراً وجدتها

---

(١) وَي: كلمة تعجّب. (صحاح اللغة ٦: ٢٥٣٢).

أسلاكاً وقلائد قد نظمت الدرّة والبعرة، والذهب والمخشلب، والحصى والجمان، والحصباء والمرجان.

خُذ إليك كلمة (امرئ القيس) التي هي طليعة السبع وانظر فيها، تجدك بينا تسير في رياض دمثة وسهول ملبّدة وعيون ماء منفجرة، وإذا بك في حرّة سوداء وحجارة خشناء ووعور تحفى بها النياق وتتقطّع قبل قطعها النياط!

بينا يمرح في أوائلها بأمثال قوله:

أفاطم مهلاً بعضَ هذا التدلّلِ وإن كنتِ قد أزمعتِ صرماً فأجملي

أغرّكِ منّي أنّ حبّك قاتلي وأنّكِ مهما تأمري القلبَ يفعلِ[1]

إذا هو يرزح في أوساطها تحت أعباء قوله:

فلمّا أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحىٰ بنا بطنُ خبتٍ ذي حِقافٍ عَقَنقَلِ[2]

ثمّ بينا يقول بعد ذلك:

مُهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مفاضةٍ ترائبُها مصقولةٌ كالسجَنجَلِ

هصرتُ بفودَي رأسِها فتمايلتْ عليّ هضيمَ الكشحِ ريّا المخلخَلِ[3]

---

(١) ديوان امرئ القيس ١٢.

أزمع الأمر: إذا ثبّت عزمه على إمضائه. (لسان العرب ٦: ٨١).

والصرم: الهجر والقطيعة. (جمهرة اللغة ٢: ٧٤٤).

والإجمال: الرفق. (المصباح المنير ١١٠).

(٢) ديوان امرئ القيس ١٣.

انتحى: اعترض الطريق. (صحاح اللغة ٦: ٢٥٠٤).

والخبت: المتّسع من بطون الأرض. (القاموس المحيط ١: ١٥٢).

والحقف: ما اعوّج من الرمل وانثنىٰ. (العين للفراهيدي ٣: ٥١).

والعقنقل: الكثيب العظيم المتداخل. (مجمع البحرين ٥: ٤٢٨).

(٣) ديوان امرئ القيس ١٣. مع العلم أنّ البيت الثاني المذكور قد جاء في الديوان قبل الأوّل.

وإذا هو يقول في أواخرها:

فأضحى يسحّ الماءَ حولَ كُتيفةٍ ... يكبُّ على الأذقانِ دَوحَ الكَنَهبلِ[١]

أو قوله:

كأنّ السباعَ فيهِ غرقى عشيةً ... بأرجائهِ القصوى أنابيشُ عُنصُلِ[٢]

ثمّ استطرف ـ إذا شئت ـ قصيدة (طرفة)[٣]، وقف على قوله:

← مهفهفة: ضامرة البطن. (صحاح اللغة ٤: ١٤٤٣).

وغير مفاضة: غير مسترخية اللحم. (القاموس المحيط ٢: ٣٥٣).

والترائب: موضع القلادة من الصدر. (تهذيب اللغة ١٤: ١٩٦).

وهصر: جذب وثنى. (العين للفراهيدي ٣: ٤١١).

والفودان: جانبا الرأس. (تاج العروس ٨: ٥١٠).

وهضيم الكشح: ضامره. والكشح: الخصر. (معجم مقاييس اللغة ٥: ١٨٣).

والريّا: الامتلاء. (العين للفراهيدي ٨: ٣١٢).

والمخلخل: موضع الخلخال من الساق. (جمهرة اللغة ١: ١٩٠).

والسجنجل: المرآة المجلوة، رومي معرّب. (جمهرة اللغة ٣: ١٣٢٤).

(١) ديوان امرئ القيس ١٩.

يسحّ الماء: يسكبه ويصبّه. (المصباح المنير ٢٦٧).

وكُتيفة: جبل بأعلى مبهل. ومبهل: وادٍ لعبدالله بن غطفان. (معجم البلدان ٤: ١١٩).

ويكبّ: يقلبها على رؤوسها. (القاموس المحيط ١: ١٢٥).

والأذقان هنا مستعارة، وهو يريد الرؤوس وأعالي الشجر.

والدوحة: الشجرة العظيمة، جمعها: الدوح. (صحاح اللغة ١: ٣٦١).

والكنهبل: نوع من الشجر الضخم. (تهذيب اللغة ٦: ٢٨٤).

(٢) ديوان امرئ القيس ٢٠.

الأنابيش: جمع أُنبوش، وهو أصل البقل المنبوش. (القاموس المحيط ٢: ٣٠٠).

والعنصل: البصل البرّي، أو نبات شبيه به، ورقه كورق الكرّاث، ونوره أصفر. (العين للفراهيدي ٢: ٣٣٨).

(٣) أبو عمرو طَرَفَة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك البكري الوائلي، شاعر جاهلي مشهور. وهو أشعر الشعراء ←

وفي الحيّ أحوى ينفضَ المرد شادنٌ مـظاهر سـمطي لؤلؤ وزبـرجـدِ[1]

ثمّ اندفع في وصف ناقته بأمثال قوله[2]:

أمـون كألواح الإرانِ نـصأتُها على لاحبٍ كأنّه ظهرُ برجـدِ*

وسار عليها كأنّما ينقلع من أوحال أو ينحت من جبال.

نعم، وأسرعهم بديهة وأرّقهم ديباجة وأملكهم لأعنّة الترسّل والجري أنّى شاء من أودية الكلام وشعاب القول هو (عمرو بن كلثوم)[3] الذي يقول في نتاج

← بعد امرئ القيس، ومرتبته ثاني مرتبة، ولهذا ثنّي بمعلّقته، على حدّ تعبير عبد القادر البغدادي. ولد في بادية البحرين، وتنقّل في بقاع نجد، واتّصل بالملك عمرو بن هند، فجعله في ندمائه، ثمّ أرسله بكتاب إلى المكعبر عامله على البحرين وعمان يأمره فيه بقتله لأبيات بلغ الملك أنّ طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر في هجر شابّاً ابن عشرين سنة، وقيل: ابن ست وعشرين، سنة ٦٠ ق. هـ، ونجا خاله المتلمّس. كان هجّاءً تفيض الحكـمة على لسانه في أكثر شعره. وله ديوان شعر صغير شرحه غير واحد من العلماء.

(سمط اللآلي ٣١٩، خزانة الأدب ٢: ٣٧٠ـ ٣٧٥، الأعلام للزركلي ٣: ٢٢٥).

(١) ديوان طرفة ٢٣.

الأحوى: الذي في لونه سواد يضرب للخضرة. والمراد شجر الأراك. (لسان العرب ٣: ٤٠٧).

والشادن: ولد الظبية إذا قوي. (المصدر السابق ٧: ٥٨).

(٢) ديوان طرفة ٢٤.

وأمّا الناقة الأمون فهي: الوثيقة الخَلق. (القاموس المحيط ٤: ١٩٩).

(*) الإران: التابوت العظيم، ونصأتها: زجرتها، والبرجد: كساء مخطّط. (منه ﵀).

أقول: بالنسبة لمعاني هذه الألفاظ الثلاثة التي ذكرها المصنّف ﵀ راجع عـلى التـرتيب: صـحاح اللـغة ٥: ٢٠٦٩، القاموس المحيط ١: ٣٢، العين للفراهيدي ٦: ٢٠٥.

(٣) أبو عبّاد عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب التغلبي، أُمّه ليلىٰ بنت المهلهل. ولد في بلاد ربـيعة شـمالي شـبه الجزيرة العربية، ووالده من سادات قومه، وكان عمرو رجلاً شاعراً فارساً شجاعاً كريماً، وكان ـ على ما قيل ـ نصرانياً. أنشد معلّقته مدافعاً عن قومه عند عمرو بن هند، ثمّ قتله في قصّة يطول ذكرها، حتّى أسره يزيد بن مرو السُحيمي، ففكّ أسره بعد ذلك. وقد ضرب المثل بفتكه، فقيل: أفتك من عمرو بن كلثوم. وقد عمّر طويلاً، ←

فكرته وابنة ساعته:

وثدياً مثلَ حقّ العاجِ رَخْصاً   حَصَاناً من أكفّ اللامسينَا[١]

ويقول في حماسها:

كأنّ سيوفَنَا منّا ومنهمْ   مَخَاريقٌ[٢] بأيدي لاعبينَا

كأنّ ثيابَنَا منّا ومنهمْ   خضبن بأُرجوان أو طلينا

بشبّانٍ يرونَ القتلَ مجداً   وشيبٍ في الحروبِ مجرّبينَا

برأسٍ من بني جَشَم بن بكرٍ   ندقُّ به السهولةَ والحزونَا

ألا لا يجهلنّ أحدٌ علينَا   فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينَا[٣]

← وتوفّي حوالي سنة ٤٠ قبل الهجرة مخلّفاً ثلاثة أولاد: عبّاد والأسود وعبدالله.

(الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٣٧ ـ ١٣٩، الأغاني ١١: ٤٦ ـ ٥٤، خزانة الأدب ٣: ١٧٤ ـ ١٧٦، شعراء النصرانية قبل الإسلام ١٩٧ ـ ٢٠٤).

(١) ديوان عمرو بن كلثوم ٦٨.

الحُقّة: معروفة، هذا المنحوت من الخشب والعاج وغير ذلك. (لسان العرب ٣: ٢٦١).

والرخص: الطري الليّن. (المصباح المنير ٢٢٤).

والحصان: العفيفة. (المصدر السابق ١٣٩).

(٢) المِخراق: ما تلعب به الصبيان من الخِرَق المفتولة. (لسان العرب ٤: ٧٤).

(٣) ديوان عمرو بن كلثوم ٧٦ ـ ٧٨.

وورد: (فينا وفيهم) بدل: (منّا ومنهم) الأُولى، و(بفتيان) بدل: (بشبّان).

وهناك بين البيتين الثاني والثالث المذكورين بيتان لم يذكرا، وهما:

إذا ما عيّ بالإسنافِ حيٌّ   من الهولِ المشبّهِ أن يكونا

نصبنَا مثلَ رَهوةَ ذاتَ حَدٍّ   مُحافظةً وكنّا السابقينَا

وكذلك بين البيت الثالث والرابع توجد ثلاثة أبيات لم تذكر، هي:

←

وكلّها وأكثرها على هذا النمط والأُسلوب من القـوّة والسـلاسة، ورقّـة الحاشية، وقوّة السرد والنسج، والسلامة من الوحشية والغرابة.

ولكنّه ـ مع كلّ ذلك ـ ما سلم من أن يقول يصف قناته[1]:

إذا عضّ الثِقافُ بِها اشمأزّتْ ... وولّـته عَشَـوزَنَةً زَبُـونَا*

ويقول في حماسها[2]:

ونحنُ الجالسونَ بذي أُراطـىٰ ... تسفُّ الجِلّةُ الخُورُ الدرِيـنَا**

→

حُديّا الناسِ كلّهم جـميعاً ... مقارعةً بـينهم عـن بـنينَا

فأمّا يومَ خشـيتِنا عـليهمْ ... فتُصبح خيلُنا عصباً ثُـبينَا

وأمّا يومَ لا نخشىٰ عـليهمْ ... فـنمعن غـارةً مُـتلبّبِينَا

وهناك بيت آخر لم يذكر جاء بعد البيت الرابع المذكور، وهو:

ألا لا يعلمُ الأقـوام أنّـا ... تضعضعنَا وأنّا قد ونـينَا

(١) ديوان عمرو بن كلثوم ٧٩.

وورد: (ولّتهم) بدل: (ولّته).

(*) الثقاف: الحديد التي يثقف ويعدّل بها الرمح. والعشوزنة: الصلبة، والزبون: الدافـعة، ومـنه: زبـانية جـهنّم. (منه رحمه الله).

أقول: بالنسبة للمعنىٰ المذكور للّفظ الأوّل فلاحظ صحاح اللغة ٤: ١٣٣٤، وبالنسبة للثاني فلاحظ تـهذيب اللغة ٣: ٢٠٩، وبالنسبة للثالث لاحظ مجمع البحرين ٦: ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق ٨٢.

وورد: (الحابسون) بدل: (الجالسون).

(**) السفّ: الأكل. والجلّة الخور: الإبل الكثيرة الألبان، والدرينا: النبات الأسود القديم.

يريد: أنّنا حبسنا بذى الأُراطى لإعانة قومنا حتّى أكلت الإبل النبات الأسود القديم. (منه رحمه الله).

أقول: بالنسبة للمعنىٰ المذكور للّفظ الأوّل فـقارن مـجمع البـحرين ٥: ٧١، وبـالنسبة للـثاني قـارن العـين للفراهيدي ٤: ٣٠٢، وبالنسبة للثالث قارن تهذيب اللغة ١٤: ٦٦.

←

فإنّ فيه من التعقيد وعدم وفاء اللفظ بأداء المعنى مع الغرابة وقلق الألفاظ ما لا يخفى على المراجع.

وإذا كان هذا حال غرّة بلاغة العرب وصحيفة فصاحتهم وأقصى ما عندهم لمن بعدهم، فما ظنّك بسائر أشعارهم ومنشئاتهم من خطب ورسائل وأراجيز وغيرها؟!

وما زالوا والبيان الذي هم أرقى الأُمم به وأعرقهم فضلاً فيه لا يحول عن تلك الحال والصفة من السهولة تارةً والوعورة أُخرى، والنعومة مرّةً والخشونة أُخرى.

فتأتيك القطعة الواحدة كأنّها من عصرين متباعدين أو لشاعرين مختلفين في التربة والتربية والنزعة.

حتّى إذا سطعت أنوار هذا الفرقان الحميد وصدعت بالحقّ كلماته وأشرقت على العالم شموس آياته، نهج الناس منهجاً من الفصاحة ما كانوا ليهتدوا إليه ولا ليصيبوه ولو أجهدوا أنفسهم دهوراً وأحقاباً.

عرّف هذا الكتاب الكريم كيف ينبغي أن يُصاغ القول وتُسبك الألفاظ، وكيف تُجعل قوالباً للمعاني، لا يزيد شيء منها على الآخر ولا ينقص أو يتقلّص عنه.

القرآن هو الذي علّم الناس كيف يبلغ البيان من التصرّف في العقول، والتمكّن من النفوس، والتملّك على الخواطر.

← أمّا ذو الأُراطى فهو: ماء على ستّة أميال من الهاشمية شرقي الخزيمية من طريق الحاجّ. (معجم البلدان ١: ١١٤).

القرآن هو الذي علّم (عبد الحميد)[1] كيف ينبغي أن يكتب فيجيد، ودفع (ابن المقفّع)[2] إلى الطريق المهيع[3]، وصيّر (الجاحظ)[4] أقدر كاتب ولافظ.

---

(١) أبو يحيى عبد الحميد بن يحيىٰ بن سعد الأنباري العامري بالولاء المعروف بالكاتب، عالم أديب من أئمّة الكتّاب. كان جدّه مولى للعلاء بن وهب العامري، فنسب إلى بني عامر. أصل عبد الحميد من قيسارية، سكن الشام، واختصّ بمروان بن محمّد الحمار، كان تلميذاً لسالم مولى هشام بن عبد الملك، ومن تلامذته يعقوب ابن داود وزير المهدي العبّاسي. يضرب به المثل في البلاغة، وعنه أخذ المترسّلون، وكان يقال: فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد. له رسائل تقع في نحو ألف ورقة. سار منهزماً في خدمة مروان، فلمّا قتل مخدومه ببوصير (بمصر) أُسر عبد الحميد، فقيل: حموا له طستاً ثمّ وضعوه على دماغه فتلف، وذلك في سنة ١٣٢هـ.

(البيان والتبيين ١: ٢٠٨، عيون الأخبار ١: ٨١ـ ٨٢، الوزراء والكتّاب ٧٢ـ ٨٣، مروج الذهب ٣: ٢٦٣، فهرست ابن النديم ١٤٩، سير أعلام النبلاء ٥: ٤٦٢ـ ٤٦٣، صبح الأعشىٰ ١٠: ١٩٥ـ ٢٣٣).

(٢) أبو محمّد عبدالله بن المقفّع، من أئمّة الكتّاب، وأوّل من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق. أصله من الفرس، ولد في العراق مزدكياً، وكان اسمه روزبة، وأسلم على يد عيسىٰ بن علي عمّ السفّاح، وولي كتابة الديوان للمنصور العبّاسي، وترجم له كتب أرسطو المنطقية الثلاثة، وكتاب إيساغوجي (المدخل إلى علم المنطق)، وترجم عن الفارسية كتاب كليلة ودمنة، وأنشأ رسائل غاية في الإبداع، منها: الأدب الصغير، والأدب الكبير، ورسالة الصحابة، واليتيمة. قال الخليل الفراهيدي: (ما رأيت مثله، وعلمه أكثر من عقله). اتّهم بالزندقة، فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلّبي سنة ١٤٢هـ.

(أمالي المرتضىٰ ١: ٩٣ـ ٩٥، لسان الميزان ٣: ٣٦٦ـ ٣٦٧، خزانة الأدب ٨: ١٧٩ ـ ١٨٠، معجم المطبوعات العربية ١: ٢٤٩ـ ٢٥١، دائرة المعارف الإسلامية ١: ٢٨٢ـ ٢٨٣).

(٣) طريق مهيع: منبسط وواضح. (تهذيب اللغة ٣: ١٧).

(٤) أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي البصري المعتزلي المعروف بالجاحظ، من أكابر أئمّة الأدب ومن بحور العلم. ولد بالبصرة سنة ١٦٣هـ مشوّه الخلقة. روى عن: أبي يوسف القاضي، وثُمامة بن أشرس. وروى عنه: أبو العيناء، وابن أبي داود، ويموت بن المزرّع. قال الذهبي: (كان ماجناً قليل الدين، له نوادر). ألّف كتباً كثيرة، منها: الحيوان، البيان والتبيين، البخلاء، التاج، سحر البيان، المحاسن والأضداد، تنبيه الملوك، فضائل الأتراك، فضيلة المعتزلة، الأصنام. فلج في آخر عمره، ومات بالبصرة أثر سقوط بضعة

←

القرآن هو الذي علّم (ابن الرومي)(١) و (الحسن بن هانئ)(٢) و(أبا تمّام)(٣)

← مجلّدات من الكتب وقعت عليه سنة ٢٥٥ هـ.

(تاريخ بغداد ١٢: ٢١٢ ـ ٢٢٠، معجم الأُدباء ١٦: ٧٤ ـ ١١٤، وفيات الأعيان ٣: ٤٧٠ ـ ٤٧٥، سير أعلام النبلاء ١١: ٥٢٦ ـ ٥٣٠، العبر ١: ٤٥٦ ـ ٤٥٧، ميزان الاعتدال ٣: ٢٤٧، البداية والنهاية ١١: ١٩ ـ ٢٠).

(١) أبو الحسن علي بن العبّاس بن جُريج المعروف بابن الرومي مولى عبيد الله بن عيسىٰ بن جعفر بن المنصور، الشاعر المشهور صاحب النظم البديع والتوليد الغريب. ولد ببغداد سنة ٢٢١ هـ، له قصائد مطوّلة ومقاطيع بديعية. كان مدّاحاً هجّاءً، مدح يحيىٰ بن عمر وعلي الهادي عليه السلام. روى شعره المسيّبي، ثمّ عمله أبو بكر الصولي، ورتّبه وجمعه ابن عبدوس. كان كثير التطيّر. توفّي سنة ٢٨٣ هـ، وقيل: سنة ٢٨٤ هـ، وقيل: بل سنة ٢٧٦ هـ، ودفن في مقبرة باب البستان ببغداد. وكان سبب موته دسّ السمّ إليه من قبل وزير المعتضد أبي الحسين القاسم بن عبيدالله بن سليمان بن وهب.

(تاريخ بغداد ١٢: ٢٣ ـ ٢٦، وفيات الأعيان ٣: ٣٥٨ ـ ٣٦٢، سير أعلام النبلاء ١٣: ٤٩٥ ـ ٤٩٦، شذرات الذهب ٢: ١٨٨ ـ ١٩٠، نسمة السحر ٢: ١٨٨ ـ ١٩٠، الغدير ٣: ٥١ ـ ٨١).

(٢) أبو علي الحسن بن هانئ ـ وقيل: ابن وهب ـ الحكمي، الشاعر المشهور. أُمّه جلبان الأهوازية. ولد بالأهواز، ونشأ بالبصرة، وسمع من حمّاد بن سلمة وطائفة، وتلا على يعقوب، وأخذ اللغة عن أبي زيد الأنصاري وغيره. مدح الخلفاء والوزراء، وبلغ في النظم الذروة. قيل: لقّب بأبي نوّاس؛ لضفيرتين كانتا تنوسان (تضطربان) على عاتقيه، وأكثر أشعاره في الغزل والخمريات. توفّي سنة ١٩٥ هـ، وقيل غير ذلك في سنة وفاته. واعتنىٰ الصولي وغيره بجمع ديوانه.

(الأغاني ٢٠: ٣ ـ ١٨، سير أعلام النبلاء ٩: ٢٧٩ ـ ٢٨١، العبر ١: ٣٢١، شذرات الذهب ١: ٣٤٥ ـ ٣٤٧، معاهد التنصيص ١: ٨٣ ـ ٩٨، أبجد العلوم ٣: ٦٣ ـ ٦٤).

(٣) أبو تمّام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي الشاعر المشهور. ولد في قرية جاسم من قرى حَوران بسوريا. أسلم وكان نصرانياً، ومدح الكبراء، وشعره في الذروة، وكان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام مع تمتمة يسيرة، يحفظ أربعة عشر ألف أُرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع. رحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدّمه على شعراء وقته، فأقام في العراق، ثمّ ولي بريد الموصل، فلم يتم سنتين حتّىٰ توفّي بها سنة ٢٣١ هـ، وقيل غير ذلك في سنة وفاته. له تصانيف منها: ديوان الحماسة، فحول الشعراء، نقائض جرير والأخطل (ينسب للأصمعي)، مختار أشعار القبائل.

(الأغاني ١٦: ٣٠٣ ـ ٣١٨، تاريخ بغداد ٨: ٢٤٨ ـ ٢٥٣، وفيات الأعيان ٢: ١١ ـ ٢٦، سير أعلام النبلاء ١١: ٦٣ ـ ٦٩، العبر ١: ٤١١، خزانة الأدب ١: ٣٤٦ ـ ٣٤٧، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ٤: ٢١ ـ ٢٩).

و(البحتري)[1] ونظرائهم أن يأتوك بالقصائد والمقاطيع، كلّ واحدة كأنّها ماويّة[2] صقيلة، أو صفيحة عاج، أو قطعة ديباج، قد حيكت على نولٍ[3] واحد، أو صُبّت في قالبٍ سواء.

فلا تجد فيها لفظة عن أخواتها ناتئة، ولا كلمة عن صفّها نافرة، ولا جملة في موضعها غير جميلة..

فكأنّها العصب اليماني أو الديباج الخسرواني، متناسب الحسن، متناسق الصنعة، متوازن العيار، متوازي النجار[4].

ولو سردتُ لك شيئاً من قصيدهم أو مقاطيعهم لأدلّك على باهر الصنعة وجوهر البلاغة، لخشيت أن أخرج عن البحث في صناعة معرفة الإعجاز إلى صناعة معرفة الشعر الذي ليس هو من دعوتنا هذه في شيء.

نعم، قد عوّدتك أن أدلّك على الطريق، وأنهج لك الدرب، وأفتح أمامك

---

(١) أبو عبادة الوليد بن عُبيد بن يحيىٰ بن عُبيد الطائي البحتري، شاعر كبير، يقال لشعره: سلاسل الذهب. قيل لأبي العلاء المعرّي: أيّ الشعراء الثلاثة (أبي تمّام، المتنبّي، البحتري) أشعر؟ فقال: (المتنبّي وأبو تمّام حكيمان، وإنّما الشاعر البحتري). حكى عنه: القاضي المحاملي، والصولي، وأبو الميمون راشد، وابن درستويه النحوي. كانت نشأته بمنبج، ورحل إلى العراق، فاتّصل بجماعة من الخلفاء أوّلهم المتوكّل العبّاسي، ثمّ عاد إلىٰ الشام، وتوفّي بمنبج سنة ٢٨٤ هـ عن عمر قارب الثمانين سنة. له: ديوان شعر، وكتاب الحماسة، ومعاني الشعر.

(الأغاني ٢١: ٣٩ ـ ٥٧، تاريخ بغداد ١٣: ٤٧٦ ـ ٤٨١، معجم الأُدباء ١٩: ٢٤٨ ـ ٢٥٨، وفيات الأعيان ٦: ٢١ ـ ٣٠، سير أعلام النبلاء ١٣: ٤٨٦ ـ ٤٨٧، البداية والنهاية ١١: ٧٦، شذرات الذهب ٢: ١٨٦ ـ ١٩٠).

(٢) الماويّة: المرآة. (لسان العرب ١٣: ٢٢٦).

(٣) النول: الخشب الذي يلفّ عليه الحائك الثوب. (صحاح اللغة ٥: ١٨٣٦).

(٤) النجار: أصل الحسب والمنبت من كلّ كريم... تقول العرب: إنّ نجارها لواحد، أي: جنسها وأصلها. (العين للفراهيدي ٦: ١٠٧).

الباب، وأدع السلوك لك والسير ـ بحسب وسعك ـ إليك.

تخطر على ذهني الساعة الأبيات الشهيرة التي أُعجب بها (الشريف المرتضى)[١] في (أماليه)، وهي من حسنات (الحسن بن هانئ)، وقال: (إنّها لم تبلغ العشرين)[٢].

وقد نسب في أوّلها، ثمّ وصف الناقة أحسن وصف، ثمّ مدح واقتضى حاجته[٣].

(١) تقدّمت ترجمته في ص١٧٤ هـ٢.

(٢) أمالي المرتضىٰ ١: ٢٠٢.

(٣) راجع ديوان أبي نؤاس ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

وهاك الأبيات:

يا منّة إمتنّها السكرُ ... ما ينقضي منّي لكَ الشكرُ

أعطتكَ فوق مناكَ من قُبلٍ ... مَن قيل إنّ مَرامها وعرُ

يثنى إليكَ بها سوالفَهُ ... رشأ صناعةُ عينيهِ السحرُ

ظلّت حُميًّا الكأس تبسطُنا ... حتّى تهتّك بيننا السترُ

في مجلسٍ ضحكَ السرورُ بهِ ... عن ناجذيهِ وحلّت الخمرُ

ولقد تجوبُ بنا الفلاةَ إذا ... صامَ النهارُ وقالت العُفرُ

شَدَنيّةٌ رعت الحِمى فأتتْ ... ملء الجبال كأنّها قصرُ

تثني على الحاذين ذَا خُصَلٍ ... تعمالهُ الشذرانُ والخطرُ

أمّا إذا رفعتهُ شامذة ... فتقولُ رنّق فوقها نَسرُ

أمّا إذا رضعته عارضةً ... فتقول أُرخي فوقها سترُ

وتسفُّ أحياناً فتحسبها ... مترسّماً يقتاده أثرُ

فإذا قصرتَ لها الزمامَ سما ... فوق المقادمِ ملطمٌ حُرُّ

فكأنّها مصغٍ لتسمعهُ ... بعضَ الحديثِ بأذنِه وقرُ

تنفي الشذا عنها بذى خُصَلٍ ... وجِف السبيب يزينُه الضفرُ

←

كلّ ذلك بطبع يتدفّق ورونق يترقرق وسهولة وجزالة.

وكلمتي غبّ كلام (الشريف)[١]: أنّ كلّ واحد من ذوي المعلّقات قد نسب وشبّب، ووصف وامتدح، وجاء بما يناهز المائة أو أكثر، ولكن ضع هذه الأشلاخ[٢] الضخمة والأسناخ[٣] الفخمة إلى جنب تلك القطعة الصغرى والجمانة الغرّاء، وانظر أيّهما أقوى على تحريك أريحيتك وأعمل في إثارة عواطفك وإنارة مشاعرك، وأيّها أقدر على هزّتك ونشاطك وفرحك وانبساطك:

أمن يأتيك بمثل قوله:

يا دارَ عبلةَ بالجواءِ تكلّمي ... وعمّي صباحاً دار عبلةَ واسلمي[٤]

إلى أن يقول:

مَا راعني إلّا حمولةُ أهلها ... وسطَ الديارِ تسفُّ حبّ الخِمخِمِ[٥]

→ تترى لإنفاضٍ أضرَّ بها ... جدبُ البُرى فخدودُها صِفرُ

يرمى إليك بها بنو أملٍ ... عتبوا فأعتبهمْ بكَ الدهرُ

أنتَ الخصيب وهذه مصرُ ... فتدفّقا فكلاكما بحرُ

لا تقعدا بيَ عن مدى أملي ... شيئاً فمالكما به عَذرُ

ويحقّ لي إذ صرتُ بينكما ... ألّا يحلَّ بساحتي فقرُ

النيلُ ينعشُ ماؤه مصراً ... ونداكَ ينعشُ أهلَه الغمرُ

(١) غبّ كلام الشريف، أي: عقبه. (القاموس المحيط ١: ١١٣).

(٢) الشلخ: الأصل والعِرق. (تاج العروس ٧: ٢٨٣).

(٣) السنخ: الأصل. (صحاح اللغة ١: ٤٢٣).

(٤) لاحظ ديوان عنترة ١١.

والجواء: وادٍ في ديار عبس وأسد في أسافل عدنة. (معجم البلدان ٢: ٨٤).

(٥) ديوان عنترة ١٢.

←

أم من يُحيّيك بمثل قوله:

يــــا مــنَّة امــتنَّها السُكــرُ ... ما يـنقضي مـنّي لهـا الشُكـرُ
يــثني إليكَ بــها ســوالفَــهُ ... رشأٌ صــناعةُ عــينهِ السِحرُ
ظـلّت حُـميّا الكأسِ تـبسطُنَا ... حــتّى تــهتّكَ بــينَنَا السِـترُ
في مجلسٍ ضحكَ السرورُ بـهِ ... عن ناجذيهِ وحلَّت الخـمرُ[1]

إلى أن يقول في الناقة:

ولقد تـجوبُ بـي الفَـلاَةَ إذا ... صامَ النهارُ وقـالتِ العُـفرُ[2]
شَدَنيَّةٌ[3] رعتِ الحِمَى فأتتْ ... مِلءِ الجـبال كأنّـها قَـصرُ[4]

استوقفني هذا التشبيه البديع، والتمثيل البارع، والسبك الأنيق، والمعنى الجزل، واللفظ الفحل.

فقلت: لله درّه[5] أنّى اهتدى له، ومن أين أُوحي إليه، وممّن اقتبسه، وعمّن

← الحمولة: الإبل التي تطيق أن يحمل عليها. (العين للفراهيدي ٣: ٢٤٠).

وسفّ الشيء: تناوله غير ملتوت وهو يابس. (القاموس المحيط ٣: ١٥٧).

والخمخم: نبات له شوك وحبّ أسود. (صحاح اللغة ٥: ١٩١٦).

(١) لاحظ ديوان أبي نؤاس ٤٧٨. وورد: (لكَ) بدل: (لها)، و(عينيه) بدل: (عينه).

(٢) صام النهار: إذا دوّمت الشمس في كبد السماء كأنّها تدور في السماء ولا تبرح، واشتدّ الحرّ. (جمهرة اللغة ٢: ٨٩٩).

وقالت: من القيلولة، معروفة. (المصدر السابق ٢: ٩٧٧).

والعفر: الظباء اللواتي يرعين عفر الأرض (ظاهر ترابها) وسهولها، وهنّ أصغر الظباء أجساماً. (المصدر السابق ٢: ٧٦٦).

(٣) شدن الظبي: إذا قوي واشتدّت عظامه. (المصدر السابق ٢: ٦٥٢).

(٤) ديوان أبي نؤاس ٤٧٨. وورد: (بنا) بدل: (بي).

(٥) الدَرّ: اللبن بعينه. وفسّر بعض العلماء باللغة قولهم: لله درّك، قال: أرادوا لله صالح عملك؛ لأنّ الدرّ أفضل ما يُحتلب. (جمهرة اللغة ١: ١١٠).

أخذه ؟ !

فإنّ (العبسي)[١] وإن قال في أوّل معلّقته :

فـوقفت فـيها نـاقتي وكأنّـها فَدَنٌ لأقضي حاجةَ المتلوّمِ[٢]

ولكن هيهات ! أين هذا من ذاك ؟ ! أين (الفدن) من (القصر) ، وأين (ناقتي) من (شدنية) ؟ ! أين (ملء الجبال) ، وأين (رعت الحمى) ؟ !

وكلّ هذه ممّا زاد المعنى فخامة واللفظ حلاوة ، فصارت كلّ كلمة تـعتنق أُختها ، وكلّ جملة ترتبط أشدّ الربط بما بعدها .

وكم ترى من التفاوت بين (رعت الحمى فأتت ملء الجبال) ، وبين قوله : (وقفت فيها ناقتي وكأنّها فدن) !

ما أشدّ الربط بين تينك الجملتين ، وما أشدّ البتل والقلق بين هاتين ؟ !

وهب أنّ (ابن هانئ) أخذ تشبيه الناقة بالفدن ـ أي : القصر ـ من (العبسي) ، ولكن من أين أخذ حسن السبك وانتخاب تلك الألفاظ التي ـ على ما فيها مـن

---

(١) عنترة بن شدّاد بن عمرو بن معاوية بن قُراد العبسي ، أشهر فرسان العرب فـي الجـاهلية ومـن شـعراء الطـبقة الأُولى . من أهل نجد ، أُمّه حبشية اسمها : زبيبة ، سرى إليه السواد منها ، وكان من أحسن العرب شـيمة ومـن أعزّهم نفساً موصوفاً بالحلم على شدّة بطشه ، وفي شعره رقّة وعذوبة ، وكان مغرماً بابنة عمّه عبلة ، فـقلّ أن تخلو له قصيدة من ذكرها . اجتمع في شبابه بإمرئ القيس الشاعر ، وشهد حـرب داحس والغـبراء ، وعـاش طويلاً ، وقتله الأسد الرهيص أو جبّار بن عمرو الطائي ، نحو سنة ٢٢ ق . هـ . ينسب إليه ديوان شعر ، أكثر ما فيه مصنوع .

(الأغاني ٨ : ٢٣٥ ـ ٢٤٣ ، خزانة الأدب ١ : ١٣٨ ـ ١٤٠ ، الأعلام الزركلي ٥ : ٩١ ـ ٩٢) .

(٢) ديوان عنترة ١٢ .

والفدن : القصر . (صحاح اللغة ٦ : ٢١٧٦) .

والمتلوّم : المتمكّث والمنتظر . (المصدر السابق ٥ : ٢٠٣٤) .

الجزالة والنفاسة ـ أخذت بأعنّة السهولة والسلاسة ؟!

نعم، وبينما الفكرة في فسحة هذه السانحة غادية ورائحة، إذ بها جس خلف الشغاف يهتف بي من وراء سجاف[١] تالياً من الوحي الكريم والفرقان العظيم قوله (جلّ شأنه): ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾[٢].

فهدأ بالي وانقطع تعجّبي وسؤالي، وعلمت أنّها هي تلك الروح من البلاغة التي بعثتها قداسة الأنفاس المحمّدية في الأُمّة العربية، واستنزلتها من شعف[٣] الهضاب إلى ريف[٤] الوهاد، وأخرجتها من أشواك القتاد وحسك[٥] الغيلان إلى نضرة النسرين[٦] ونفحة العَلَجان[٧].

إذاً فللفرقان (أبّد الله أحكامه) اليد البيضاء والمنّة العظمى والصنيعة الكبرى على كلّ ناطق بالضاد من عربي ومتعرّب وهجين وهجان وصميم ودخيل.

ولولاه لكنّا إلى يومنا هذا كأعجم طمطم[٨]، أو كالبهم نرعى وسط البلاد

---

(١) السجف: الستر. (القاموس المحيط ٣: ١٥٥).

(٢) سورة الرحمٰن ٥٥: ٢٤.

(٣) الشعف: رؤوس الجبال وشعفة كلّ شيء: أعلاه. (تهذيب اللغة ١: ٢٧٩).

(٤) الريف: الخصب. والريف حيث يكون الحضر والمياه. (المصدر السابق ١٥: ١٧٢).

(٥) الحَسَك: نبات له ثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم. (لسان العرب ٣: ١٧٤).

(٦) النسرين: ضرب من الرياحين. (المصدر السابق ١٤: ١٢٢).

(٧) العَلَجان: نبت. وقيل: شجر أخضر مظلم الخضرة، وليس فيه ورق. (المصدر السابق ٩: ٣٥٠).

(٨) إشارة إلى بيت عنترة:

تأوي قُلصُ النعام كما أوت ... حِزقٌ يمانية لأعجم طِمطِمِ

راجع ديوان عنترة ١٤.

حبّ الخمخم[١] بادين ننتشق ريّا القرنفل[٢] بين الدخول فحومل[٣]!

هذا ما أردنا بيانه من حسن أثر البلاغة القرآنية وعظيم فضلها وجميل صنيعها على أهل هذا اللسان بما لا ينكره إلّا مكابر أو جاهل قاصر. والله المستعان على كليهما، وهو وليُّ التوفيق لهما إن شاء الله.

[الأمر الثاني: حقيقة الإعجاز والفصاحة والبلاغة]

الأمر الثاني: أنّنا ـ أيّها المتكرّم بالنظر إلى دعوتنا هذه ـ قد أكثرنا عليك من كلمات: إعجاز، فصاحة، بلاغة.

وأحسبك تقول: حبّذا لو أبدلتنا عن تكرير ألفاظها بتفسير معانيها وشرح حقائقها وملاكاتها.

وأنا أُريد في موقفي هذا أن أُلمع إلى ذلك، ولكنّي لا أُريد أن أسرد عليك مصطلحات أهل المعاني والبيان ومجادلات (التفتازاني)[٤]

---

(١) إشارة إلىٰ قول عنترة المتقدّم سابقاً:

ما راعني إلّا حمولة أهلها ... وسط الديار تسفّ حبّ الخمخم

(٢) إشارة إلىٰ بيت امرئ القيس:

إذا قامتا تضوّع المسك منهما ... نسيم الصّبا جاءت بريّا القرنفل

قارن ديوان امرئ القيس ١٠.

(٣) إشارة إلىٰ مطلع معلّقة امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

انظر ديوان امرئ القيس ٩.

(٤) سعد الدين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني، من أئمّة العربية والبيان والمنطق والكلام. ولد بتفتازان سنة ٧١٢هـ، وأقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، فتوفّي فيها سنة ٧٩٣هـ، ودفن في سرخس. كانت في ←

و(شريف جرجان)[1]، ولا أقول لك: قال (السكّاكي)[2] في (مفتاحه)، و(الشيرازي)[3] في (شرحه)، وفلان في (إيضاحه)[4]، والآخر في

← لسانه لكنة، وأوّل تصنيف له وهو في عمر ستّ عشرة سنة. من تصانيفه: تهذيب المنطق، مقاصد الطالبين، النعم السوابغ، شرح العقائد النسفية، التلويح إلى كشف غوامض التنقيح، شرح المقاصد، مختصر المعاني، إرشاد الهادي.

(وجيز الكلام ١: ٢٩٥، شذرات الذهب ٦: ٣١٩ ـ ٣٢١، أبجد العلوم ٣: ٤٧، دائرة المعارف الإسلامية ٥: ٣٣٩ـ٣٤٦، الأعلام للزركلي ٧: ٢١٩).

(١) أبو الحسن علي بن محمّد بن علي الحسيني الحنفي المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف من كبار العلماء بالعربية. ولد في تاكو قرب استراباد سنة ٧٤٠ هـ، ودرس في شيراز، وقرأ على أكمل الدين البابرتي، ولمّا دخلها تيمور سنة ٧٨٩ هـ فرّ الجرجاني إلى سمرقند، ثمّ عاد إلى شيراز بعد موت تيمور، فأقام إلى أن توفّي سنة ٨١٦ هـ. كان عالماً مجيداً وقّاد الذهن. له نحو خمسين مصنّفاً، منها: التعريفات، وشرح المواقف، ومقاليد العلوم، والحواشي على المطوّل، وشرح الملخّص.

(وجيز الكلام ٢: ٤٢٩، أبجد العلوم ٣: ٤٧ـ٤٨، دائرة المعارف الإسلامية ٦: ٣٣٣ ـ ٣٣٤، معجم المطبوعات العربية ١: ٦٧٨ ـ ٦٨١، معجم المؤلّفين ٧: ٢١٦).

(٢) تقدّمت ترجمته في ص١٧٥ هـ ٢.

(٣) قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازي الشافعي، قاض عالم بالعقليات مفسّر. ولد بشيراز سنة ٦٣٤ هـ، وكان أبوه طبيباً فيها، فقرأ عليه، ثمّ تعلّم عند نصير الدين الطوسي، ودخل بلاد الروم، فولي قضاء سيواس وملطية، وزار الشام، ثمّ سكن تبريز، وتوفّي بها سنة ٧١٠ هـ. كان من بحور العلم ظريفاً لا يحمل همّاً ولا يغيّر زي الصوفية ويتقن الشعبذة. من كتبه: فتح المنّان في تفسير القرآن، شرح حكمة الإشراق، تاج العلوم، شرح كلّيات القانون في الطب، مفتاح المفتاح، نهاية الإدراك في دراية الأفلاك.

(دول الإسلام ٢: ٢١٦، مرآة الجنان ٤: ١٨٧، روضات الجنّات ٨: ١٢٩ ـ ١٣٠، هدية العارفين ٢: ٤٠٦ ـ ٤٠٧).

(٤) صاحب الإيضاح هو العلاّمة القزويني. وهاك ترجمته:

أبو المعالي جلال الدين محمّد بن عبد الرحمان بن عمر القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق، قاض ومن أُدباء الفقهاء، أصله من قزوين، ومولده بالموصل سنة ٦٦٦ هـ، كان عالماً أديباً حلو العبارة سمحاً كثير ←

(تلخيصه)[1].

كلّا، وإن كنت ـ والفضل لله ـ أعرف لحنهم، وأعلم فنّهم، وصرفت لجين ما ذهب من أيّامي فيه.

وإنّما أُحاول أن نعود في فهم هذه الحروف إلى أوّل عهودها وقبل طروء هذه الاصطلاحات عليها ومجاذبات الأفكار فيها.

نريد أن نفهمها كما كان يفهمها آباؤنا العرب الأوّلون يوم كان العلم غريزة فيهم وطباعاً في صدورهم لا في سطورهم، مكتبتُهم الفكر ومدرستهم الذكر.

وأعلمُ أنّي إن سلكت من هذا الطريق كان إحدى فوائد ذلك أنّي أنتهي بك إلى الغاية من أقرب الطرق وأسهل المسالك، وإن تجاوزتها إلى غيرها كنت قد أجهدتك، ولا أعلم ـ بعد الجهد ـ هل ظفرت بشيء طائل أم لا.

أمّا الإعجاز فلا أحسبك ـ بعد الوقوف على جميع ما قدّمناه ـ إلّا متملّياً منه مضطلعاً بعرفانه واقفاً على كنه حقيقته.

فإذا أردت الإيجاز عن حقيقة الإعجاز فقل: هو الكلام الذي يعجز عامّة أهل اللسان عن الإتيان بمثله أو الإتيان بما هو من سنخه وعلى طرزه وأُسلوبه.

كهذا الإعجاز المحمّدي، فإنّه وراء إعجازه أهل اللسان عن مباراته،

← الفضائل عارفاً بالعربية والفارسية والتركية. ولي القضاء في ناحية بالروم، ثمّ قضاء دمشق سنة ٧٢٤هـ، فقضاء القضاة بمصر سنة ٧٢٧هـ، ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق سنة ٧٣٨هـ، ثمّ ولّاه القضاء بها، فاستمرّ إلى أن مات سنة ٧٣٩هـ. من كتبه: تلخيص المفتاح، الإيضاح، السور المرجاني من شعر الأرجاني.

(دول الإسلام ٢: ٢٤٥، مرآة الجنان ٤: ٢٢٥ ـ ٢٢٦، البداية والنهاية ١٤: ١٨٥، طبقات الشافعية الكبرى ٩: ١٥٨ ـ ١٦١، شذرات الذهب ٦: ١٢٣ ـ ١٢٤، البدر الطالع ٢: ١٨٣ ـ ١٨٤، الأعلام للزركلي ٦: ١٩٢).

(١) صاحب التلخيص هو القزويني. لاحظ كشف الظنون ١: ٤٧٣. وقد تقدّمت ترجمته آنفاً.

أدهشهم وأعجزهم عن معرفة نزعته وجنسيته، فلم يعرفوا ـ وإلى الآن ـ أنّه من قبيل الشعر أو الخطب أو الرسائل أو الرَجز أو الهزج أو غير ذلك من أنواع الكلام وأُمّهات أبوابه.

نعم، ما عرفوا سوى أنّه خارج عن كلّ تلك الأنواع غير داخل في شيء من هاتيك الأبواب.

ما أصابوا من حقيقته سوى أنّهم ما أصابوها، وما عرفوا غير أنّها غريبة ما عرفوها!

فهذا إيجاز الكلام عن الإعجاز.

أمّا الفصاحة فهي ـ سواء في الكلمة أو الكلام أو المتكلّم ـ لا تعدو أن تكون وجهاً واحداً ومعنىً فذّاً، تلتقي وتجتمع عنده بعد إلقاء خصوصيات المحال المختلفة والظروف المتغايرة.

ثمّ إذا رجعنا إلى معاجم اللغويّين لم نجد الفصاحة أكثر من الإبانة، والإيضاح، والكشف[1]، وما قارب ذلك من الألفاظ المتّفقة المداليل الواضحة المفاهيم التي تعرّف الأشياء بجامعها العامّ وقدرها المشترك، فتحكي الحقيقة من وجه، وتغمّ عنها من وجوه.

أمّا كلمات الفصحاء والبلغاء عنها[2] فكلٌّ يشير إلى وجهة وينظر إلى ناحية.

وقلّ من أصاب الثغرة، ودلّ على النقطة المركزية، وأنبأ عن الحقيقة التي

---

(١) لاحظ: لسان العرب ١٠: ٢٦٩، المصباح المنير ٤٧٤.

(٢) راجع: البيان والتبيين ١: ١٦٢ و١٧٤ و٣٧٨، المستطرف ١: ٨٤ وما بعدها.

هي حجر الأساس وزيت النبراس.

والكلام فيها كالكلام في رديفتها وشقيقتها (البلاغة) التي تتّحد معها في الجوهر، ويقع الميّز بينهما ببعض الملاحظات.

وممّا يشجيني ويحزنني أنّي أحسّ لكلّ من البلاغة والفصاحة معنىً أحسبه هو تمام حقيقتهما وجوهر معناهما، ولكن لا أبلغ إلى قول يكشف بإيجاز تمام الكشف عنه ويحكي تمام الحقيقة منه.

أُريد ألفاظاً تجسّمه للعيان، وتبرزه مشاهداً إلى الحسّ، حتّى يهمّ السامع أن يمسكه بيده ويقبض عليه بكفّه ويحسب آن سماعه بإذنه أنّه قد نظر إليه بعينه ورآه بشخصه.

أُريد مثل هذه الدوالّ وألتمس ما يكون بتلك الصفة من الأقوال.

نعم، وبالأسف أُريدها ولا أجدها، وألتمسها ولا أحسّها!

وذلك لأنّي لم أُوهب تلك المنحة، ولم أُدفع إلى تلك الفسحة، ولا أُوتيت من البلاغة ما أستطيع الكشف عنها على تلك الصفة.

ولكن نظراً لما قيل: (لا تمتنع من بذل القليل، فإنّ العدم أقلّ منه)، نبدي كلمتنا الوجيزة في ذلك، بلغت ذلك المبلغ الذي نرومه من تصوير البلاغة أم لا، كشفت عن تمام الحقيقة أم لا.

وأنت (فتح لك الله كنوز العلم) تعلم أنّه ليس كلّ من كشف عن مراده وأبان عمّا في ضميره وأوضح عن كمين مقاصده، يعدّ في الناس من ذوي الفصاحة وأُولي البيان، ولا كلّ من بلّغ السامع كلاماً يشتمل على معنى من المعاني يليق أن ينظمّ في صفّ البلغاء وأرباب اللسان.

كما تعلم أحسن العلم أنّ البلاغة والفصاحة ليست من الصفات التي

اختصّها الله باللسان العربي وحجرها على سائر الأُمم، وخوّلها لأبناء (إسماعيل) وحرّمها على سائر ولد (آدم).

كلّا، فإنّها من المواهب لنوع الإنسان ولجميع الأُمم وإن توهّم الاختصاص بعض القاصرين[١].

ومن ذا يجهل أنّ لكلّ أُمّة ولسان نوعاً من البلاغة والبيان هو في الحقيقة واللبّ عين ذلك النوع العامّ ونفس تلك الصفة السارية وإن تعدّدت الطرق والسبل واختلفت الكيفيات والبواعث والمقتضيات.

الفصاحة والبلاغة (بلّغك الله أمانيك) إذا حلّلتها بما يسمّى اليوم: بالتحليل الكيماوي[٢] لم تجدها ـ سواء في فصاحة الكلمة أو بلاغة الكلام أو المتكلّم ـ إلّا: تلك الحروف والمقاطيع الملفوظة أو المرسومة التي إذا سمعها أهل ذلك اللسان كشفت لهم عن المراد كشفاً يتصرّف بمناصرة المعنى واللفظ معاً تصرّفاً فجائياً في ألبابهم ومشاعرهم، بل في كلّ كيانهم.

---

(١) ادّعى اليمني الاختصاص في الطراز ١: ١١٢.

(٢) التحليل الكيمياني (chemical analysis): تعبير يطلق على مختلف التقنيات الهادفة إلىٰ معرفة العناصر التي تتركّب منها مادّة معيّنة.

وهو قسمان رئيسيان: التحليل النوعي (Qualitive analysis)، والتحليل الكمّي (Quantaitive analysis).

وإنّما يعنىٰ التحليل النوعي بالتعرّف إلىٰ العناصر المتواجدة في مركّب أو مزيج، في حين يقرّر التحليل الكمّي مقادير مختلف العناصر التي يتألّف منها ذلك المركّب أو المزيج.

أمّا التحليل المطلق (ultimate analysis) فيبيّن في آن معاً العناصر المتواجدة في عيّنة ما، والنسبة المئوية لكلٍّ من تلك العناصر.

والتحليل التقريبي (Proximate analysis) يقتصر على تبيان المركّبات التي يشتمل عليها محلول أو مزيج. (موسوعة المورد ٢: ٢١٧).

لا أقول: تصرّف ابنة الراح[١] في الأرواح التي تحتجب عندها العقول أو تزول.

كلّا، بل يحدث فيهم سماع تلك الألفاظ هزّة وأريحية، ونشاطاً في العقول، وخفّة في الأرواح، ولطفاً في الضمير.

كما يحدث مثل ذلك عند استماع نغمات الأوتار وتناسب وقع ألحان الموسيقى ورنّات المثالث والمثاني لأريحي الطبع الخفيف الروح اللطيف الجوهر.

وأجلى بياناً: أنّ الكلام البليغ هو: الذي يحدِث في أرباب العرفان من أهل اللسان حالة هي كالتي تحدث فيك عند الفرح والسرور والطرب والنشاط والجذل والانبساط.

الكلام البليغ هو: الذي يتصرّف في الأرواح والأجسام تصرّفاً روحيّاً طبيعيّاً.

أُريد: أنّه يعمل في الروح وفي الطبيعة وفي العقل والمادّة، كلٌّ على حسبه ومن سنخ ما يليق به.

ولذلك تجده عند كلّ أُمّة وفي كلّ لسان، ولكنّه ذو عرض عريض ومقامات لعلّها لا تتناهى، كعدم تناهي مراتب تأثيره في النفوس وتصرّفه في الألباب والعقول شدّةً وضعفاً على حسب حظّه من البلاغة ومنزلته من معارجها المترامية وأبراجها السامية وحظّ المستمع من عرفان ذلك.

---

(١) ابنة الراح: الخمر التي يرتاح شاربها لها. ويقال: بل هي التي يستطيب الشارب ريحها. ويقال: بل هي التي يجد شاربها روحاً. (فقه اللغة ٢٤٤).

ثمّ لم يبق عندي بعدُ لزيادة الإيضاح عن هذا المعنى ولا أستعين عليه إلّا بضرب الأمثال له وسرد شيء من الشواهد عليه.

أيّ أريحي الطبع طاهر الذوق طيّب الجوهر صافي أديم النفس صقيل مرآة الفكر يستمع لقوله (تعالى): ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾[1]، شرّف سمعك وبصرك بتلاوة هذه الآيات إلى آخر السورة، اقرأها بتدبّر وتدبّرها بتفهّم، وانظر هل تجد لها لوعة في قلبك، وروعة في لبّك، وهزّة في سوادك، وفزّة في فؤادك؟!

انظر هل تنتفض أعضاؤك، وتختلج عروقك، وتتكهّرب بالانتعاش شرايينك ومفاصلك؟!

ثمّ خذ صَعَداً في القرآن أو صبباً ويميناً منه أو شمالاً، فرتّل شيئاً من سورة (يوسف)، فإن وقع بصرك على قوله (تعالى): ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[2]، أو قوله (عزّ طوله): ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[3]، أو أيّ آية شئت منها، فاستوقف عندها فكرك وأحضرها قلبك ولبّك عساك تبلغ ما أُريد بيانه وأقصر عنه من معنى البلاغة.

ثمّ إذا أردت التوسّع فمتّع الكريمتين منك: سمعك وبصرك (جعلهما الله

---

(١) سورة الفرقان ٢٥: ٦٣.

(٢) سورة يوسف ١٢: ٢٣.

(٣) سورة يوسف ١٢: ٣١.

الوارثين منك)، متّعهما بالحواميم[١]، أيّ واحدة شئت منها، فإذا جئت إلى سورة الأحقاف فقف عند قوله (تعالى): ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٢]، حتّى تنتهي إلى آخر السورة من قوله (تعالى): ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٣].

قف في قراءتها وتريّث، ولا تستعجل في تلاوتها. وأنا واثق لك ببلوغ الغاية ونيل البلغة والظفر بنهايات مبالغ البلاغة.

هناك تحسّ أنّ القول البليغ هو: ما يبلغ بك إلى الحالة التي تتصرّف في كيانك تصرّفاً طبيعياً وتسري في كلّ مشاعرك سيراً كهربائياً.

الحالة التي تهزّك من الارتياح هزّة الأفراح، وتعمل بك على سلامة من عقلك فعل الراح بالأرواح.

وهذا التصرّف والتأثير قد يشتدّ ويقوى حسب القوابل والفواعل، حتّى تظهر آثاره على الهيكل المحسوس والأعضاء الظاهرة والبنية المشهودة.

---

(١) المقصود بالحواميم: السور القرآنية الكريمة التي تبدأ بـ(حم)، وهنّ كالتالي: سورة غافر ٤٠: ١، سورة فصّلت ٤١: ١، سورة الشورى ٤٢: ١، سورة الزخرف ٤٣: ١، سورة الدخان ٤٤: ١، سورة الجاثية ٤٥: ١، سورة الأحقاف ٤٦: ١.

(٢) سورة الأحقاف ٤٦: ٢١.

(٣) سورة الأحقاف ٤٦: ٣٥.

[مقام البلاغة عند العرب وتأثيرها في النفوس، عود على بدء]

وهي التي سجد منها ذلك الأعرابي حين سمع قوله (تعالى): ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[١]، وقال: (سجدت لفصاحته)[٢].

نعم، بلاغة القرآن هي التي حملت جماعة من جبابرة قريش على السجود له، أو ما هو بمنزلته من الخضوع، كما تواتر عن (الوليد بن المغيرة) ممّا تقدّم وسيأتي[٣].

وكما وقع (الجبير بن مطعم)[٤]، قال: (سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور، فلمّا بلغ قوله (تعالى): ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[٥] إلى

---

(١) سورة الحجر ١٥: ٩٤.

(٢) لاحظ الشفا للقاضي عياض ١: ٢١٥ـ٢١٦.

(٣) تقدّم في ص١٨١ و١٨٤، وسيأتي في ص٢٦٦ و٢٦٧.

(٤) أبو عدي ـ أو: أبو محمّد ـ جُبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي القرشي، أُمّه أمّ جميل بنت سعيد من بني عامر بن لؤي، كان من المؤلّفة قلوبهم ومن الطلقاء، وكان موصوفاً بالحلم ونبل الرأي والمعرفة بأنساب العرب، وقد قدم المدينة في فداء أُسارى بدر من قومه، فردّه الرسول ﷺ. روى عنه: ولداه: محمّد ونافع، وسليمان بن صُرَد، وسعيد بن المسيّب، وعبد الرحمان بن أزهر، وإبراهيم بن عبد الرحمان بن عوف، وآخرون. قيل: ولّاه عمر على الكوفة، وفد على معاوية في أيّامه، وتوفّي بالمدينة سنة ٥٧ هـ، وقيل غير ذلك في سنة وفاته.

(طبقات خليفة ٣٨، التاريخ الكبير ٢: ٢٢٣، الجرح والتعديل ٢: ٥١٢، الاستيعاب ١: ٣٠٣ـ٣٠٥، أُسد الغابة ١: ٢٧١ـ٢٧٢، سير أعلام النبلاء ٣: ٩٥ـ٩٩، العبر ١: ٥٩، العقد الثمين ٣: ٢٦٥ـ٢٦٧، الإصابة ١: ٢٣٥ـ٢٣٦).

(٥) سورة الطور ٥٢: ٣٥.

قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[١] كاد قلبي يطير إلى الإسلام)[٢].

وكما يروى عن (عتبة بن ربيعة)[٣] حين جاء النبي ليحاجّه، فتلى عليه النبي ﷺ حم فصّلت[٤]، فلمّا بلغ قوله (تعالى): ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٥] أمسك (عتبة) بيده على فم النبي ﷺ، وناشده بالرحم أن يكفّ[٦].

ومثل هذا كثير، وليس بغريب ولا عزيز النظير؛ فإنّ كلام البشر قد يحظى بنصيب من البلاغة، فيكون له شبه ذلك التأثير، وهو الكلام الذي يتلاشى إذا قيس إلى كلام الله العظيم تلاشي الذرّ في ألق الشمس، ويتمزّق تمزّق الدخّان في عواصف النكباء[٧].

---

(١) سورة الطور ٥٢: ٣٧.

(٢) قارن: سنن ابن ماجة ١: ٢٧٢، المعجم الكبير للطبراني ٢: ١١٦ و١٣٨ و١٤١، معترك الأقران ١: ٢٤٣.

(٣) أبو الوليد عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أحد سادات قريش في الجاهلية. كان موصوفاً بالرأي والحلم خطيباً نافذ القول. نشأ يتيماً في حجر حرب بن أُمية. انقضت حرب الفجّار على يديه، حيث صالح بين الطرفين (هوازن وكنانة) ورضوا بحكمه. أدرك الإسلام، وطغى، فشهد بدراً مع المشركين. وكان ضخم الجثّة عظيم الهامة، طلب خوذة يلبسها يوم بدر، فلم يجد ما يسع هامته، فاعتجر على رأسه بثوب له. قتله حمزة بن عبد المطّلب سنة ٢ هـ.

(السيرة النبويّة لابن هشام ٢: ٢٣٦ ـ ٢٣٧، بلوغ الإرب ١: ٢٤١ و٣٠٣، الأعلام للزركلي ٤: ٢٠٠).

(٤) أي: قوله (تعالى): ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ من سورة فصّلت ٤١: ١ـ٣.

(٥) سورة فصّلت ٤١: ١٣.

(٦) انظر: دلائل النبوّة للبيهقي ٢: ٢٠٣، معترك الأقران ١: ٢٤٣، البداية والنهاية ٣: ٦٢.

(٧) النكباء: الريح الناكبة التي تنكب عن مهابّ الرياح القوّم. (صحاح اللغة ١: ٢٢٨).

لا أحسب أنّه يغيب عن ذاكرتك سجود بعض العرب من علية الشعراء عند سماعه قول (عدي بن رقاع العاملي)[١]:

تـزجـي أغـنّ كأنّ إبـرةَ روقـهِ قلمٌ أصابَ من الدواةِ مدادَها[٢]

وقال للملأ الحضور ـ بعد سجوده ـ: (نحن نعرف عزائم الشعر ومـواضـع السجود منه معرفتكم أمكنة السجود من القرآن ومواضع العزائم منه)[٣].

هذا النفوذ والتأثير من البلاغة هو الذي منح الشعراء والأدبيين الدالّة على الملوك والخلفاء حتّى صاروا يجلسون معهم على أسرّة ملكهم، وينادمونهم في أخصّ مجالسهم، ويحاورونهم محاورة الإنسان صديقه والشـقيق شـقيقه، ثـمّ يميحونهم روابي الذهب من القناطير، ويـرضخون لهـم البُـدر[٤] مـن الدراهـم والدنانير.

ولو أنّ الملوك إنّما تصطنع الشعراء وتبلغ بهم تـلك المـنزلة مـن الإكـرام والحفاوة لصـرف مـديحهم والثـناء عـليهم (وإنّ حبّ الثـناء سـجية الإنسـان) وبالأخصّ الملوك، لو كان الشأن هو هذا ليس إلّا، لهان على الناس نـيل تـلك

---

(١) أبو داود عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي، شاعر دمشقي، كان معاصراً لجرير مهاجياً له مقدّماً عند بني أُمية مدّاحاً لهم خاصّاً بالوليد بن عبد الملك. لقّب بشاعر أهل الشام. قيل: كان أبرص. مات في دمشق سنة ٩٥ هـ، وله ديوان شعر ممّا جمعه ثعلب.

(الأغاني ٨: ١٧٢ ـ ١٧٧، أمالي القالي ١: ١٠٠ و٢: ٦١، سمط اللآلي ٣٠٩، تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ١٠١ ـ ١٢٠ هـ) ١٦٣ ـ ١٦٤، سير أعلام النبلاء ٥: ١١٠، ربيع الأبرار ٤: ٢٨٨ و ٢٩١).

(٢) نُسب للعاملي في: العقد الفريد ٤: ٢٧٦ و٦: ١٦٢ ـ ١٦٣ و٧: ٨٧، الأغاني ٩: ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

والروق: القرن. (لسان العرب ٥: ٣٧٤).

(٣) لاحظ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ١٠٥.

(٤) البَدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم، سمّيت بـبدرة السـخلة (جـلدها إذا فُـطم)، والجـمع: البـدور، والبدرات. (لسان العرب ١: ٣٤١).

الرتب وبلوغ هاتيك المنزلة، بأن يجيء المادح أيّاً كان، فيقول للملك: أنت شجاع كريم باسل ملك عظيم عادل، ثمّ لا يدع شيئاً من نعوت الثناء والإطراء إلّا ويتلوها عليه ليحتقب الأُلوف ويحتقر الصروف.

كلّا، ليس الشأن بذلك، وإنّما بلغ البالغون تلك المراقي والمراتب بما حووه من البلاغة وحسن البيان وبديع الخطابة ولطائف الأساليب.

فكانت المُدّاح ـ بحسن البيان ـ تهزّ الملوك هزّ الكماة[1] عوالي المرّان[2]، ويبعثونهم ـ بحسن الأساليب ـ إلى الجود والندى، فينتفضون للعطاء كما انتفض العصفور بلّله الندى[3]، ويستلبون منهم أعزّ الأشياء عليهم وأحبّها إليهم.

قل لي بأبيك، أيّ عربي ـ ولو كانت يده من صخر وقلبه من حجر ـ يسمع فيه قول القائل:

من البيض الوجوه بني سنان	لو أنّك تستضيء بهم أضاؤا
هم حلّوا من الشرفِ المعلّى	ومن شرف العشيرةِ حيث شاؤا
فلو أنّ السماءَ دنت لمجدٍ	ومكرمةٍ دنت لهمُ السماءُ[4]

من ذا يسمعها في مدحه، ولا تتدفّق يده ويتشقّق للعطاء قلبه وتتفجّر بالجود أنامله؟!

(١) الكمي: الشجاع المتكمّي في سلاحه، أي: المستتر بالدرع والبيضة. (صحاح اللغة ٦: ٢٤٧٧).

(٢) المرّان: الرماح. (المصدر السابق ٦: ٢٢٠٣).

(٣) إشارة للبيت:

وإنّي لتعروني لذكراكِ نفضةٌ ... كما انتفض العصفورُ بلّله القطرُ

راجع ديوان مجنون ليلىٰ ٨٣.

(٤) نُسب هذه الأبيات لأبي البرج القاسم بن حنبل المرّي في ديوان الحماسة ٢: ٣٠٤ ـ ٣٠٥. ولم تُنسب لأحد في مفتاح العلوم ٢٧١ ـ ٢٧٢.

بل من ذا ينظر إلى تأبين (أبي تمّام) لـ(محمّد بن حميد الطوسي)[١] بقوله:

فتىً ماتَ بينَ الطعنِ والضربِ ميتةً تقومُ مقامَ النصرِ إن فاتَهُ النصرُ
وما ماتَ حتّى ماتَ مضربُ سيفِهِ من الضربِ واعتلّت عليه القَنا السُمرُ
وقد كانَ فوتُ الموتِ سهلاً فردّه إليه الحِفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
فأثبتَ في مستنقعِ الموتِ رجلَهُ وقالَ لها من دون أخمُصِكِ الحشرُ
غَدا غدوةً والحمدُ نسجُ ردائِهِ فلم ينصرفْ إلّا وأكفانُه الأجرُ
تردّىٰ ثيابَ الموتِ حُمراً فما أتى له الليلُ إلّا وهي من سُندس خُضُر[٢]

من ذا الذي ينظر إلى هذا الشعر، ولا يتأثّر شعوره وتنبض حواسّه وتختلج أسلاك فؤاده ونياط قلبه؟!

وفي الحقّ قول من قال: (ما مات من رثي بهذا الشعر)[٣].

أيّ ذي ذوق من معين الآداب والعربية يسمع بعض العرب الأوّلين إذ يقول:

---

(١) محمّد بن حُميد الطاهري الطوسي، والٍ من قوّاد جيش المأمون العبّاسي. ولّاه قتال زريق وبابك الخرّمي الثائرين سنة ٢١١ هـ، واستعمله على الموصل، فقاتل زريقاً حتّىٰ استسلم، فسيّره إلى المأمون، واستخلف على الموصل محمّد بن السيّد بن أنس، وسار إلى أذربيجان، فأخرج منها المتغلّبين عليها، وتوجّه إلىٰ قتال بابك الخرّمي، فقاتله، وكمن له جماعة من أصحاب بابك، فخرجوا إليه وصمد لهم، فضربوا فرسه بمزراق، فسقط على الأرض، فتحاوروا عليه بسيوفهم حتّىٰ قتلوه سنة ٢١٤ هـ، فعظم مقتله على المأمون. كان فارساً شجاعاً جواداً ممدوحاً، رثاه الشعراء وأكثروا، ومنهم الطائي.

(الكامل في التاريخ ٥: ٢١٧ ـ ٢١٨، الأعلام للزركلي ٦: ١١٠).

(٢) ديوان أبي تمّام ٢: ٢١٨ ـ ٢١٩.

ولكن في الديوان ورد تقديم: (الضرب) على: (الطعن)، وورد: (إذ فاته) بدل: (إن فاته)، و: (تحت) بدل: (دون)، و: (لها الليل) بدل: (له الليل).

وهناك بيت جاء بين البيتين الثالث والرابع المذكورين، وهو:

ونفس تعاف العار حتّىٰ كأنّه هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

(٣) هذا قول أبي دلف القاسم بن عيسى، راجع الأغاني ١٦: ٣١٠.

وممّا شجاني أنّها يومَ أعرضت تولّت ودمعُ العينِ في الجفنِ حائر
فلمّا أعادت من بعيدٍ بنظرةٍ إليَّ التفاتاً أسلمتهُ المحاجر[١]

أو قول (البحتري) بما يقرب منه:

وقفنَا والعيونُ مشغّلاتٌ يُغالبُ دمعَها نظرٌ كليلُ
نهتْهُ رِقبةُ الواشينَ حتّى تحيَّر لا يغيضُ ولا يَسيلُ[٢]

أو قول القائل من الشعر الخيالي:

وقفنا صفوفاً في الديارِ كأنّها صحائفُ ملقاةٌ ونحن سطورُها
يقول خليلي ـ والظباء سوانح ـ أهذي التي تهوى؟ فقلت: نظيرُها
وقد قلتما لي ليس في الأرض جنّة أما هذه فوقَ الركائبِ حورُها
أراك الحمى قل لي بأيّ وسيلة توسّلت حتّى قبّلتك ثغورُها
على رسلكم في الهجرِ إنّا عصابةٌ إذا ظفرت بالحبِّ عفّ ضميرُها

هذه الفرائد وما لا يحصى من أمثالها ـ [و] التي هي مجسمة الانسجام والرقّة واللاتي تكافأت بها المعاني والألفاظ في السلاسة والسلامة فاتّحدت وحدة الأرواح مع الأجسام والراح بماء الغمام الذي ينفذ تأثيرها في أعماق القلب ويخرق شغاف الفؤاد ـ من ذا يسمعها فلا يضع يده على جنانه، يتلمّسه هل زال عن موضعه وزحف من مكانه؟! من ذا ذاق جرعة من الآداب ولا يرقّ قلبه أو يذوب إذا أصغى لقول (العامري)[٣]:

---

(١) هذان البيتان الجميلان لقيس بن الملوّح (مجنون ليلى)، لاحظ ديوانه ٧٧. وورد: (ودّعت) بدل: (أعرضت)، و: (ماء) بدل: (دمع).

(٢) ديوان البحتري ١: ٢٨٣ ـ ٢٨٤. ولكن ورد: (تعلّق) بدل: (تحيّر).

(٣) قيس بن الملوّح بن مزاحم بن قيس بن عدي بن ربيعة العامري. وقيل في اسمه ونسبه غير ذلك، من أشهر ←

ألستَ وعدتني يا قلبُ أنّي إذا ما تبتُ عن ليلى تتوبُ
فها أنا تائبٌ عن حبِّ ليلى فما لكَ كلّما ذكرت تذوبُ[١]

هذا هو الشعر الذي تهفو له الضلوع ويرفّ عليه ريحان القلوب، كما قال (الطائي):

وكيفَ ولم يزلْ للشعر ماءٌ يرفُّ عليه ريحانُ القلوبِ[٢]

أتعجب من (بشّار)[٣] وهو عند (المهدي)[٤] حين أنشده (إسماعيل)

← الشعراء العذريين. كان ظريفاً جميلاً راوية للشعر حلو الحديث. علق ليلىٰ بنت مهدي العامرية منذ زمان طفولته، وحبّها حبّاً ذهب بعقله، ويقال: إنّ قوم ليلىٰ شكوا المجنون إلى السلطان، فأهدر دمه، ورحل قومها بها، فجاء وبقي يتمرّغ بتراب رحلها، وقيّده أبوه، فقام يضرب نفسه، فأطلقه، فهام على وجهه في الفلاة بنجد وساح حتّى حدود الشام، ووجد ميّتاً، فاحتملوه إلى الحي ودفنوه، وكثر بكاء النساء والشباب عليه، وكان في دولة يزيد وابن الزبير. وقد أنكر بعضهم قصّته، وللذهبي كلام لطيف في ردّ ذلك.

(الأغاني ٢: ٥ ـ ٧٩، سمط اللآلي ٣٥٠، سير أعلام النبلاء ٤: ٥ ـ ٧، خزانة الأدب ٤: ٢١٥ ـ ٢١٨، شذرات الذهب ١: ٢٧٧ ـ ٢٧٨).

(١) نُسب له في معجم الأبيات الشهيرة ٣٣.

(٢) لم أعثر عليه في ديوانه المطبوع.

(٣) أبو معاذ بشّار بن بُرد البصري العُقيلي بالولاء، أشعر المولّدين على الإطلاق. أصله من طخارستان (غربي نهر جيحون)، ونسبته إلى امرأة عُقيلية أعتقته من الرقّ. وكان ضريراً، نشأ في البصرة وقدم بغداد، وأدرك الدولتين الأُموية والعبّاسية، وشعره كثير متفرّق من الطبقة الأُولى. كان شاعراً راجزاً سجّاعاً خطيباً صاحب منثور ومزدوج، وله رسائل معروفة، ويلقّب بالمرعّث؛ للبسه في الصغر رعاثاً، وهي الحلق. واتّهم بالزندقة، فضربه المهدي سبعين سوطاً ليقرّ، فمات منها سنة ١٦٧ هـ عن عمر ناهز التسعين عاماً.

(الأغاني ٣: ١٢٩ ـ ٢٤٥، تاريخ بغداد ٧: ١١٢ ـ ١١٨، وفيات الأعيان ١: ٢٧١ ـ ٢٧٤، سير أعلام النبلاء ٧: ٢٤ ـ ٢٥، العبر ١: ٢٥٢، لسان الميزان ٢: ١٥ ـ ١٦، شذرات الذهب ١: ٢٦٤ ـ ٢٦٥، خزانة الأدب ٣: ٢١٨ ـ ٢١٩).

(٤) أبو عبدالله محمّد المهدي بن أبي جعفر المنصور عبدالله بن محمّد بن علي العبّاسي الهاشمي، خليفة بني ←

المعروف (بأبي العتاهية)[1] في مدحه:

أتـــته الخـــلافةُ مـــنقادةً إليـــــهِ تـــجرّر أذيـــالَها

فـــلم تكُ تـــصلحُ إلّا لهُ ولم يكُ يـــصلحُ إلّا لَـــها

ولو لم تطعهُ بناتُ القــلوبِ لمـــا قـــبلَ اللهُ أعـــمالَها[2]

← العبّاس الثالث، أُمّه أُمّ موسى الحميرية. ولد بإيذج من أرض فارس سنة ١٢٦ هـ، وقيل: سنة ١٢٧ هـ. لمّا اشتدّ ولّاه أبوه مملكة طبرستان، وقد قرأ العلم وتأدّب. وكان أسمر مليحاً مضطرب الخلق على عينه بياض جـعد الشعر. ولمّا مات المنصور قام الربيع بن يونس بأخذ البيعة له. وكان كثير التولية والعزل بغير كبير سبب، وكثير العطايا للشعراء، أعطىٰ مروان بن أبي حفصة مرّة سبعين ألف دينار، وكان مستهتراً بمولاته الخيزران غارقاً في بحر اللذّات واللهو والصيد، تملّك عشر سنين، وعاش ثلاثاً وأربعين سنة، ومات بماسَبَذان (قرب هيت) سنة ١٦٩ هـ، وبويع ابنه الهادي من بعده.

(المعارف ٣٧٩ ـ ٣٨٠، الوزراء والكتّاب ١٤١ ـ ١٦٦، مروج الذهب ٣: ٣١٩ ـ ٣٣٣، تاريخ بغداد ٥: ٣٩١ ـ ٤٠١، سير أعلام النبلاء ٧: ٤٠٠ ـ ٤٠٣، البداية والنهاية ١٠: ١٢٩ ـ ١٣١، تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٧١ ـ ٢٧٩).

(١) أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سُويد بن كيسان العَنَزي مولاهم الكوفي المعروف بأبـي العـتاهية، شـاعر مكثر سريع الخاطر في شعره إبداع، يعدّ من مقدّمي المولّدين من طبقة بشّار وأبي نؤاس وأمثالهما. لقّب بأبي العتاهية لاضطراب فيه، وقيل: كان يحبّ الخلاعة، فيكون مأخوذاً من العتو. كان يـجيد القـول فـي الزهـد والمديح وغيرهما. اتّصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم، وهجر الشعر مـدّة، فـبلغ ذلك المـهدي العـبّاسي، فسجنه ثمّ أحضره وهدّده بالقتل، فعاد إلى نظم الشعر. توفّي ببغداد سنة ٢١١ هـ، وقد جمع أبو عمر بن عبد البرّ وكذلك أحمد بن عبيدالله الثقفي أخباره وشعره.

(الأغاني ٤: ٣ ـ ١١٤، تاريخ بغداد ٦: ٢٥٠ ـ ٢٦٠، وفيات الأعيان ١: ٢١٩ ـ ٢٢٦، سير أعلام النبلاء ١٠: ١٩٥ ـ ١٩٨، العبر ١: ٣٦٠، البداية والنهاية ١٠: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، لسان الميزان ١: ٤٢٦ ـ ٤٢٩، شذرات الذهب ٢: ٢٥ ـ ٢٦).

(٢) نُسبت الأبيات لأبي العتاهية في الأغاني ٤: ٣٥ ـ ٣٦.

وهناك بيت ورد بين البيتين الثاني والثالث، وهو:

ولو رامـــها أحـــد غـــيره لزلزلت الأرض زلزالها!

أمّا بنات القلوب فهي: النيّات.

فقال (بشّار) لقائده: (ويحك! انظر هل طار أمير المؤمنين من سريره أم لا؟!)[١].

هكذا تبلغ البلاغة من النفوس، وتعمل في الألباب، وتتصرّف في العقول والأجسام.

وهذه البلاغة هي التي يستغني بها الكلام عن كلّ حلية وزينة وتنميق وزخرفة، فيعود حسنه بذاته، وصفاؤه بجوهره، ورونقه بمائه، وبهجته بحقيقته، ونفاسته بنفسه..

لا بتصنّعات البديع، وتكلّف الترصيع، والتوشيع، والجناس، والاستخدام والتورية، ومراعاة النظير، وتشابه الأطراف، وضرائبها من الأنواع المصطلح عليها في ذلك الفنّ[٢] التي هي ـ على الأكثر ـ داعية انحطاط الكلام، وذهاب رونقه، وتكدير صفائه، وتعكير مائه، وتشعيث ديباجته، وافتقاده لتلك الروعة والبهاء والأخذ بمجامع القلوب.

نعم ـ والحقّ يقال ـ لا أنكر أنّ من القريض وسائر أنواع الكلام ما يحظى بكلا الحسنين ويجمع كلتا المزيتين، فيتضاعف حسنه وتزداد بهجته، فيكون له حسن القلادة على جيد الحسناء، (وفي عنق الحسناء يستحسن العقد).

وهل ينكر اللطف والبراعة في مثل قول القائل:

قلتُ للأهيفِ الذي فضحَ الغصن ... كلامُ الوشاة لا ينبغي لكَ
قال قولُ الوشاةِ عندي ريحٌ ... قلت أخشى يا غصن أن تستميلكَ

---

(١) راجع الأغاني ٤: ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) راجع معاني هذه المصطلحات البلاغية في: مختصر المعاني ٢٦٨ ـ ٢٨٨، البلاغة العربية ٢: ٣٧٣ وما بعدها.

أو قول الآخر:

وقالوا بهِ من أعين الناس نظرةٌ نعم، صدقوا عين الحبيب ونظرتي

أو قول:

قالوا وجسمكَ يوم البينِ صفهُ عسى نعوده قلت يا أهل الوفا عود(وا)

أو مثل:

أتراكَ بالهجرانِ حينَ فتكتَ في قلبي علمت بما يجنُّ فتكتفي

أو نظير:

أترىٰ يجودُ لنا ولو بسلامه مَن لم يزلْ للحربِ لابسَ لامه

إلى ما لا أُحصيه من أمثالها.

وليس هذا المقام موضع الإكثار منه، ولكن كلّ ما هو من ذلك القبيل فليس حظّه من الحسن إلّا قدر حظّه من قلّة التكلّف وسلامة السبك وقوّة السرد وصحّة النسج.

وليس ملاك حسنه ـ لو فتّشت عليه وأعملت الدقّة فيه وأمعنت النظر به ـ هو اشتماله على تلك النكتة البديعة؛ لأنّنا نجدها كثيراً في غير هذا السبك وليس لها هذا الحسن، وقد نجد الحسن أعلى منها بكثير في كلامٍ خلى منها ومن كلّ أخواتها، والدوران ـ كما قيل[1] ـ يقتضي العلّية.

ثمّ مهما بلغ ذلك النوع من الشعر البديعي مبالغ الحسن ومواضع الإعجاب فأين هو من الشعر الجاري جري ماء السحاب المسبوك سبك التبر المذاب، على صرافة الطبع وحركة الشعور وتصوير سذاجة الإحساس والوجدان الذي يعمل

---

(١) لاحظ موقف العقل والعلم ٤: ٣٤.

في النفس تلك الحال التي وصفناها وما كشفناها بتمام حقيقتها.

أين ذلك الشعر من مثل قول الحماسي:

وماذا عسىٰ الواشونَ أن يتحدّثوا سوى أن يقولوا إنّني لكِ عاشقُ
نعم، صدقَ الواشونَ أنت حبيبةٌ إليَّ وإن لم تصفِ منكِ الخلائقُ[١]

أو مثل قوله:

وأذكر أيّام الحمى ثمّ أنثني على كبدي من خشيةٍ أن تصدّعا[٢]

إلى تمام الأبيات.

أيّ ضارب من العربية بسهم أو ذي حظوة منها بنصيب يقيس هذا النمط بذاك، ويساوي في الحكم بينهما؟! وأين التطبّع من المطبوع، واللؤلؤ الجمان من المصنوع؟!

اللبيب يجد أنّ ذاك لا يتجاوز السطوح والأطراف، وهذا ينفذ إلى أعماق القلب من الشغاف.

والغرض الأقصى والكلمة الأخيرة: أن ليس مدار الحسن في الكلام إلّا على البلاغة، وليس ملاك البلاغة والبيان إلّا التناسب والتناسق الذي هو جوهر الحسن والملاحة والجمال في جميع الموجودات في الصور أو الأصوات وفي النغمات والإيقاعات وفي كلّ شيء.

أمّا البديع فإن انضمّ إلى التناسب ظهر له حسن، ليس هو أكثر من التناسب نفسه، وإلّا فيزيد الكلام فهاهة وفجاجة وركّة وبرودة.

---

(١) نُسب البيتان لجميل بثينة في: ديوان الحماسة ٢: ١٤٨، وديوان العذريّين ١٢٥. ولكن يوجد هذان البيتان في ديوان مجنون ليلى (قيس بن الملوّح). قارن ديوانه ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) نُسب للصمّة بن عبدالله بن طفيل في ديوان الحماسة ٢: ٦١.

إذاً فالبديع ساقط بالمرّة، وليس بالبديع شرف الكلام وسموّ طبقاته وتمايز أنواعه، فإنّه وإن كان له حظٌّ، ولكنّما الملاك والجوهر في غيره.

كيف! وهذا شيخ الصناعة (أبو تمّام) تراه إذا التزم أن يتنوّع في كلامه وينحو إلى صنعة البديع انحطّ في الأكثر وذهب رونق شعره.

كما تراه في قوله:

أيّام تدمي عينه تلكَ الدمى ... فيها وتقمر لبّهُ الأقمارُ

إذ لا صدوق ولا كنود[1] اسماهما ... كالمعنيين ولا نوارُ نوارُ[2]

دون ما إذا رفض ذلك وأرسل نفسه على سجيتها وفكّها من أغلال الصناعة وقيودها.

كما تراه في قوله:

إنَّ عهداً لو تعلَمانِ ذميما ... أن تنامَا عن ليلتي أو تُنيمَا

كنتُ أرعى البُدورَ حتّى إذا ما ... فارقُوني أمسيتُ أرعى النجومَا[3]

إلى تمام الأبيات، بل تمام القصيدة التي هي من جوهريات قصائده، فراجع.

نعم، وليس كلّ مصنوع خيراً من مطبوع، ولا كلّ بنات الطبيعة أبهج من منشئات الصناعة، بل لكلٍّ مقام يحتاج تمييزه إلى ذهن ثاقب وفكرة نافذة وسبر ناقد وعمل طويل ليس بالسهل ولا بالقليل.

وكان بودّي أن استوسع البحث في هذا الموضوع حتّى أوفّيه حقّه بحيث

---

(١) الكنود: الكفور للنعمة. (العين للفراهيدي ٥: ٣٣١).

(٢) لم أعثر عليهما في ديوانه المطبوع.

(٣) ديوان أبي تمّام ٢: ١١٠.

أعيده أجلى من ألق الفلق، ولكن الاستطراد لا يفسح لنا بأكثر من هذا، كيف! والقصد المهمّ بالأصالة غيره.

نعم، وحسبك تلك الشذرة الصغرى من القول عن البيان والبلاغة، فإنّنا وإن لم نوفّهما حقّهما من التوسعة في الشرح والإيضاح والاستبحار في نقل الشواهد والأمثال، ولكنّا لا نشكّ أنّنا ـ على قلّة ما استطردناه ـ قد خرجنا عن الموضوع وانحرفنا عن الخطّة.

وإن هي إلّا رشحة شطّ بها القلم وشطح حين طفى لجّ البيان وطفح.

ونعود إلى سياقة الكلام.

[الأمر الثالث: اللغة العربية ودورها]

الأمر الثالث: أما وعزّة جلال الله، لولا أنّ هذا المعجز المحمّدي والفرقان الأحدي كلّ معجزاته معجبة وجميع آياته باهرة، وكلّ كراماته كبُرَ وعامّة عباراته عبر، تحسب كلّ آية أكبر من أُختها وكلّ معجزة منه أجلى من غيرها، لولا ذلك لقلت: إنّ أكبر آية وبرهان وأعظم معجزة لهذا القرآن المعجزة التي لو تأمّلها المكابر لخرس عندها ولم يستطع إنكارها وجحدها، ألا وهي قوله (تعالى): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

تدبّر ـ أيّها القارئ الكريم ـ ولطّف فكرك، وانظر في فلسفة أعمار الأُمم ولغاتها وحياتها ومماتها ونشوئها ونموّها ثمّ انقراضها، واعطف الفكرة على أديانها وكتبها المقدّسة.

---

(١) سورة الحجر ١٥: ٩.

انظر كيف اضمحلت أُسسها وزالت أُصولها وتلاشت أوائلها بالترجمة والتبديل والتغيير والتحويل من العبرانية إلى السريانية إلى اليونانية وهكذا حتّى صارت أُلعوبة للبشر وكاد أن لا يبقى من حقائقها الإلهية عين ولا أثر، وصارت كلّ أُمّة تصوّرها على ما تريد وتطبعها على ما تشاء وتنشرها على ما تشتهي، فتوراة اليهود غير توراة النصارى، والأناجيل قبل قرون غير أناجيل هذه العصور.

ولو أردنا شرح ذاك على التفصيل لطال بنا الكلام واتّسعت معنا الخطّة، ولكن هو ـ على إجماله ـ ممّا لا ريب فيه، ولا ينكره إلّا مكابر أو قاصر.

أمّا هذا القرآن فقد وعد الله بحفظه وكلائته ونصره، و: ﴿اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[1] قد وفى بما وعد وصدق بما ضمن، حفظ الله هذا الدين بحفظ القرآن الكريم، وحفظ القرآن الكريم بحفظ اللغة العربية.

وأنت ـ إذا أمعنت النظر والسبر في تأريخ اللغات ـ لا تجد لغة دامت حياتها وطال عمرها على أُصولها الأُولى كطول حياة هذه اللغة.

لا تجد لغة من اللغات دامت موادّها وهيئاتها وتراكيبها أكثر من عشرين قرناً، لا يزال في كلّ عصر وبرهة ملايين من البشر معنيين بها باحثين فيها مرتاحين إليها قائمين بنشر المؤلّفات الطائلة والمعاجم الحافلة فيها، فلم تعدم أنصاراً وأعواناً، حتّى من الأُمم البعيدة أشدّ البعد عنها المنفصلة بكلّ الفواصل منها من: الديالمة، والأتراك، والسلجوقية، والغزنوية، والسامانية، والمغولية، وغير هؤلاء من عناصر شتّى وشعوب متباعدة. كلّ هؤلاء الدول والملوك ما عتموا أن عادوا من أكبر المساعدين والمجاهدين في توطيد دعائم العربية ومدّ

(١) سورة آل عمران ٣: ٩، وسورة الرعد ١٣: ٣١.

رواقها وتوسعة نطاقها وبسط أديمها وحفظ قديمها.

وهم ـ على ما كان لهم من بسطة الملك وسعة السلطان ونفوذ الأمر والنهي ـ يرتاحون إليها طبعاً، ويحملون الناس وأنفسهم عليها اختياراً من دون دافع قاهر ولا شافع قاسر؛ إذ بأيديهم أزمّة القسر والقهر، وإليهم يرجع النهي والأمر.

فلم تعمل فيهم نواميس العصبية والجنسية، ولم تنبض فيهم النوابض بالميل إلى اللغة القومية. فصاروا يعافون لغتهم، ويهجرون ألسنتهم، وينصبغون بصبغة هذه اللغة الكريمة واللهجة القويمة.

وعندها تساوى العربي والمستعرب، والدخيل والأصيل، والحليف والصميم، والحديث والقديم.

والكلّ سواء في المغايرة عليها، والمحاماة لها، والذبّ والدفاع عنها، وبذل النفس والنفيس في نشرها ونصرها وعزّتها ومنعتها.

أترتاب في ذلك وأنت ترى أكبر المؤلّفين والاختصاصيّين في نشر العلوم والآداب العربية من صدر الإسلام إلى عدّة قرون، كلّهم، كأمثال: (أبي معاذ الهروي)[١]، و(أبي حاتم السجستاني)[٢]، و (أبي علي الفارسي)[٣]، و (أحمد بن

---

(١) الظاهر أن مقصود المؤلّف ﷺ من أبي معاذ الهروي هو أبو مسلم معاذ الهرّاء. راجع ترجمته في العبر ١: ٢٩٨.

(٢) أبو حاتم سهل بن محمّد بن عثمان الجشمي السجستاني البصري، من كبار علماء اللغة والأدب. أخذ عن: يزيد بن هارون، ووهب بن جرير، والأصمعي، وغيرهم. وحدّث عنه: أبو داود، والنسائي، والبزّار، والروياني، وعدّة. وتخرّج به جماعة منهم أبو العبّاس المبرّد، وكان جمّاعاً للكتب يتّجر بها، وله باع طويل في اللغات والشعر والعروض. من كتبه: إعراب القرآن، المقصور والممدود، القراءات، الفصاحة، الوحوش. توفّي سنة ٢٥٥ هـ، وقيل: سنة ٢٤٨ هـ، وقيل: بل سنة ٢٥٠ هـ.

(الجرح والتعديل ٤: ٢٠٤، معجم الأدباء ١١: ٢٦٣ـ ٢٦٥، وفيات الأعيان ٢: ٤٣٠ـ ٤٣٣، سير أعلام النبلاء ١٢: ٢٦٨ ـ ٢٧٠، العبر ١: ٤٥٥ ـ ٤٥٦، مرآة الجنان ٢: ١١٦، شذرات الذهب ٢: ١٢١).

(٣) أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفّار الفارسي الفسوي، أحد أئمّة العربية. ولد في فسا سنة ٢٨٨ هـ، ودخل

←

فارس القزويني)[١]، و (الصاحب بن عبّاد الطالقاني)[٢]، و (الخوارزمي)[٣]،

→ بغداد سنة ٣٠٧ هـ، وتجوّل في كثير من البلدان. حدّث بجزء من حديث إسحاق بن راهويه، وحدّث عنه: عبيدالله الأزهري، وأبو القاسم التنوخي، وأبو محمّد الجوهري، وجماعة. درس على: الزجّاج، ومبرمان العسكري، وأبي بكر بن السرّاج. ومن تلامذته: أبو الفتح بن جنّي، وعلي بن عيسىٰ الربعي. كان فيه اعتزال، وله شعر قليل. وفد حلب وأقام مدّة عند سيف الدولة، وعاد إلى فارس، فصحب عضد الدولة البويهي وتقدّم عنده، ثمّ رحل إلى بغداد وأقام بها حتّىٰ توفّي سنة ٣٧٧ هـ. من جملة تصانيفه: الإيضاح، التذكرة، تعاليق سيبويه، الشعر، الحجّة، جواهر النحو.

(تاريخ بغداد ٧: ٢٧٥ ـ ٢٧٦، معجم الأُدباء ٧: ٢٣٢ ـ ٢٦١، وفيات الأعيان ٢: ٨٠ ـ ٨٢، سير أعلام النبلاء ١٦: ٣٧٩ ـ ٣٨٠، ميزان الاعتدال ١: ٤٨٠ ـ ٤٨١، مرآة الجنان ٢: ٣٠٥، شذرات الذهب ٣: ٨٨ ـ ٨٩).

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمّد بن حبيب القزويني الرازي المالكي، من أئمّة اللغة والأدب. ولد في قزوين سنة ٣٢٩ هـ، ومرباه بهمدان، ثمّ انتقل إلى الري، فتوفّي فيها سنة ٣٩٥ هـ. كان أديباً فقيهاً متكلّماً، يتعصّب لآل العميد، فكان الصاحب بن عبّاد يكرهه لذلك. حدّث عن: علي بن إبراهيم القطّان، وسليمان بن يزيد الفامي، ومحمّد بن هارون الثقفي، وأبي القاسم الطبراني، وطائفة. وحدّث عنه: أبو سهل بن زيرك، وعلي بن القاسم الخيّاط، وأبو منصور بن المحتسب، وآخرون. من تصانيفه: معجم مقاييس اللغة، المجمل، الصاحبي، جامع التأويل، الفصيح، النيروز، اللامات.

(التدوين في أخبار قزوين ٢: ٢١٥ ـ ٢١٩، معجم الأُدباء ٤: ٨٠ ـ ٩٨، سير أعلام النبلاء ١٧: ١٠٣ ـ ١٠٦، شذرات الذهب ٣: ١٣٢ ـ ١٣٣، إيضاح المكنون ١: ٤٢١، أعيان الشيعة ٣: ٦٠ ـ ٦٣).

(٢) كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد بن عبّاس الطالقاني المعروف بالصاحب بن عبّاد، وزير الملك مؤيّد الدولة البويهي ثمّ أخوه فخر الدولة، من نوادر الدهر علماً وأدباً وفضلاً وتدبيراً وجودة رأي. ولد في طالقان سنة ٣٢٦ هـ، وسمع من: أبي محمّد بن فارس الأصفهاني، وأحمد بن كامل القاضي، وغيرهما. روى عنه: أبو العلاء محمّد بن حسّول، وعبد الملك بن علي الرازي، وأبو الطيب الطبري، وجماعة. من تصانيفه: المحيط، الكافي، الإمامة، الكشف عن مساوئ شعر المتنبّي. توفّي بالري سنة ٣٨٥ هـ، ودفن بأصفهان.

(الإمتاع والمؤانسة ١: ٥٣ ـ ٦٦، معجم الأُدباء ٦: ١٦٨ ـ ٣١٧، فرج المهموم ١٧٧ ـ ١٨١، مرآة الجنان ٢: ٣١٧ ـ ٣١٩، لسان الميزان ١: ٤١٣ ـ ٤١٦، نسمة السحر ١: ٣٣٩ ـ ٣٥٦، روضات الجنّات ٢: ١٩ ـ ٤٣، نوابغ الرواة ٦٢ ـ ٦٣).

(٣) أبو بكر محمّد بن العبّاس الخوارزمي، من أئمّة الكتّاب، وأحد الشعراء العلماء. كان ثقة في اللغة ومعرفة

←

و(الهمذَاني)[١]. ثمّ (الجوهري)[٢]، و(الزمخشري)[٣]، و(الجرجاني)[٤]،

← الأنساب، وهو ابن أُخت محمّد بن جرير الطبري. ولد في خوارزم سنة ٣٢٣ هـ، ونشأ فيها، ورحل في صباه إلى بعض البلدان، فدخل سجستان ومدح واليها طاهر بن محمّد، ثمّ هجاه، فحبسه. وأقام في دمشق مدّة، ثمّ سكن في نواحي حلب، وانتقل إلى نيسابور فاستوطنها، واتّصل بالصاحب بن عبّاد. وكانت بينه وبين بديع الزمان محاورات وعجائب. له: الرسائل، وديوان شعر. توفّي بنيسابور سنة ٣٨٣ هـ.

(خاصّ الخاصّ للثعالبي ٢٨ و٦٤ و٩٧، يتيمة الدهر ٤: ٢٢٣ ـ ٢٧٧، وفيات الأعيان ٤: ٤٠٠ ـ ٤٠٢، شذرات الذهب ٣: ١٠٥ ـ ١٠٦، أعيان الشيعة ٩: ٣٧٧ ـ ٣٧٩، الأعلام للزركلي ٦: ١٨٣، الضائع من معجم الأُدباء ١٥١ ـ ١٥٢).

(١) أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيىٰ بن سعيد الهمذاني المعروف ببديع الزمان، صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة، وهو أحد الفضلاء الفصحاء. روى عن أبي الحسين أحمد بن فارس وعن غيره. وكان ساكناً هراة من بلاد خراسان سنة ٣٨٠ هـ، ثمّ ورد نيسابور سنة ٣٨٢ هـ، فسكنها ولقي فيها أبا بكر الخوارزمي، فشجر بينهما ما دعاهما إلى المساجلة، فطار ذكر الهمذاني في الآفاق، ولمّا مات الخوارزمي خلا له الجوّ، فلم يدع بلدة من بلدان خراسان وسجستان وغزنة إلاّ دخلها ولا ملكاً ولا أميراً إلاّ فاز بجوائزه. كان قوي الحافظة يضرب المثل بحفظه، ويذكر أنّ أكثر مقاماته ارتجال. له ديوان شعر صغير ورسائل عدّتها (٢٣٣) رسالة. توفّي في هراة مسموماً سنة ٣٩٨ هـ.

(خاصّ الخاصّ للثعالبي ٢٨ ـ ٢٩، يتيمة الدهر ٤: ٢٩٣ ـ ٣٤٤، معجم الأُدباء ٢: ١٦١ ـ ٢٠٢، وفيات الأعيان ١: ١٢٧ ـ ١٢٩، سير أعلام النبلاء ١٧: ٦٧ ـ ٦٨، مرآة الجنان ٢: ٣٣٩، البداية والنهاية ١١: ٣٤٠، أعيان الشيعة ٢: ٥٧٠ و٣: ٥٥٠). هذا وقد تقدّمت ترجمته في ذيل صفحة ٧٤.

(٢) أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري التركي، اللغوي المشهور. كان يحبّ الأسفار، دخل بلاد ربيعة ومضر في تطلّب لسان العرب، ودار الشام والعراق، ثمّ عاد إلىٰ خراسان، فأقام بنيسابور يدرّس ويصنّف ويعلّم الكتابة وينسخ المصاحف. وكان معروفاً بجودة الخطّ وبمعرفة اللغة، وهو أوّل من حاول الطيران ومات في سبيله، بعد أن ألقى بنفسه من سطح داره بنيسابور شاداً له دفّين كجناحين سنة ٣٩٣ هـ. له: الصحاح، وكتاب العروض، ومقدّمة في النحو.

(يتيمة الدهر ٤: ٤٦٨ ـ ٤٦٩، معجم الأُدباء ٦: ١٥١ ـ ١٦٥، دول الإسلام ١: ٢٣٦، سير أعلام النبلاء ١٧: ٨٠ ـ ٨٢، مرآة الجنان ٢: ٣٣٥، كشف الظنون ٢: ١٠٧١ ـ ١٠٧٣، روضات الجنّات ٢: ٤٤ ـ ٤٨).

(٣) تقدّمت ترجمته في ص ١٧٥ هـ ١.

(٤) تقدّمت ترجمته في ص ١٧٤ هـ ٣.

و(الفيروزآبادي)[١]، وخلق كثير، لا أُحصي عدّتهم إلّا بعدّاد.

دع ذوي الموسوعات، كـ(الفارابي)[٢]، و(ابن سينا)[٣]، و(الغزالي)[٤]، و(التفتازاني)[٥]، و(البيضاوي)[٦]، وأُمماً بين ذلك تفوت العدّ ويقصر دونها الحدّ.

قل لي بأبيك والشرف، أيّ لغة صنعت لها العناية هذا الصنع، ولطُفت بها هذا اللطف، ومنحتها هذه المنح، وسخّرت مستعمراتها لخدمتها هذا التسخير؟!

هذه الأُمم العادية القدامى أمامك كلّها واللغات نصب سمعك وبصرك جميعها..

---

(١) أبو طاهر مجد الدين محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي، من أئمّة اللغة والأدب. ولد بكارزين سنة ٧٢٩هـ، وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند، ورحل سنة ٧٩٦هـإلى زبيد، فأكرمه ملكها الأشرف إسماعيل وقرأ عليه، فسكنها وولي قضاءها، وانتشر اسمه في الآفاق. توفّي بزبيد سنة ٨١٧هـ. من مؤلّفاته: القاموس المحيط، المغانم المطابة في معالم طابة، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، نزهة الأذهان في تاريخ أصبهان، الدرر الغوالي في الأحاديث العوالي، سفر السعادة.
(شذرات الذهب ٧: ١٢٦ ـ ١٣٠، كشف الظنون ٢: ١٦٥٧، نزهة الجليس ٢: ١٨٩ ـ ١٩٢، البدر الطالع ٢: ٢٨٠ ـ ٢٨٤، روضات الجنّات ٨: ١٠١ ـ ١٠٥).

(٢) تقدّمت ترجمته في ج١ ص٣٣٤ هـ٢.

(٣) تقدّمت ترجمته في ج١ ص١٥٨ هـ١.

(٤) تقدّمت ترجمته في ج١ ص٣٣٦ هـ٣.

(٥) تقدّمت ترجمته في ص٢١٠ هـ٤.

(٦) أبو الخير ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمّد بن علي الشيرازي البيضاوي، القاضي والمفسّر المعروف. ولد في المدينة البيضاء بشيراز، وولي قضاءها مدّة، ثمّ صرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز وناظر فيها. كان خيّراً فاضلاً عالماً. توفّي بتبريز سنة ٦٨٥ هـ. من تصانيفه: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، طوالع الأنوار، منهاج الوصول إلى علم الأُصول، لبّ اللباب في علم الإعراب، الغاية القصوىٰ في دراية الفتوى.
(البداية والنهاية ١٣: ٣٠٩، طبقات الشافعية الكبرى ٨: ١٥٧ ـ ١٥٨، شذرات الذهب ٥: ٣٩٢ ـ ٣٩٣، دائرة المعارف الإسلامية ٤: ٤١٨ ـ ٤١٩، الأعلام للزركلي ٤: ١١٠).

هذه اليونانية والفارسية اللتان كانتا مهد العلوم في الغرب والشرق.

هذه الهندية والصينية، هذه الرومانية والآرامية والقازانية والطورانية والأريانية.

انظر هل تجد في شيء منها لمحة من هذه العظمة والفخامة والعزّة والكرامة ؟!

هل تجد أُمّة أُخرى سعت هذا السعي لترويج لغة غيرها وبذل تلك العناية الباهرة فيها.

أفليس هذه الجلية الباهرة والقضية الظاهرة والقصّة القاهرة من معجزات هذا القرآن الكريم والفرقان العظيم ؟!

أليست هي إحدى أعلام نبوّته وإخباره عن الغيب ؟!

أليست هي من أسرار كريمة قوله (تعالى): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] ؟!

أليست هذه هي الدعوى التي ما انفكّ صكّ الليالي والأيّام وسجل الكون يملى على الملوين[2] دلائل صدقها وشواهد صحّتها ويجعلها من أجلى الحقائق الراهنة، فترى الغريب والغربي والجنيب[3] والأجنبي يسعى في نشر موضوعاتها ويحتفل بمؤلّفاتها، فهو عسيف[4] العربية من حيث يدري ولا يدري، ومن العاملين عليها من حيث يعلم ولا يعلم ؟!

وكان ذلك من أعظم عنايات الله في دينه وأكبر نعمه على عباده؛ فقد كانت هذه اللغة من أقوى العرى والروابط لحفظ الجامعة الإسلامية بين تلك الأُمم

---

(١) سورة الحجر ١٥: ٩.

(٢) المَلَوان: الليل والنهار، أو طرفاهما. (القاموس المحيط ٤: ٣٩٤).

(٣) جنب فلان في بني فلان: إذا نزل فيهم غريباً. (تهذيب اللغة ١١: ٨٢ ـ ٨٣).

(٤) العسيف: الأجير. (صحاح اللغة ٤: ١٤٠٤).

المختلفة والشعوب المتفرّقة والعناصر الشتّىٰ.

وبحفظ تلك الجامعة بلغ الإسلام أوج عزّه، ونزل في برج ارتقائه، وحلّ في سماء علائه وأعلى سمائه.

فكانت تجمعهم ـ على تباعد ما بينهم ـ جامعة اللغة والدين.

وهاتان الجامعتان هما الداعيتان لكلّ جامعة ووحدة من الأخلاق والآداب والعادات والعبادات وسائر النواميس أدبية ومادّية.

وبذلك تصبح تلك الأعضاء المتفرّقة والأشلاء المتشتّتة كجسد واحد يحافظ على كيانه وصحته وسلامته، وكلٌّ يؤدّي وظيفته على المنفعة المتبادلة، كاجتماع اللحم والشحم والدم والعظم والعروق والشرايين والغضاريف، وصيرورتها شيئاً واحداً وإنساناً كاملاً، يحفظ بعضه بعضاً، ويحامي بعضه عن بعض، وينفع بعضه الآخر، ويتألّم سائره لألم عضو منه.

نعم، بذلك تصير المتغايرات مرتبطات والمتفرّقات مجتمعات. فهذا عين وتلك إذن، وهذا يد وتلك رجل، تحفّ بقلب واحد، أهواؤها متّفقة وآراؤها مجتمعة، تحسبهم شتّى وهم جميع، وتخالهم أوزاعاً وهم سواء.

على العكس ممّا هم به اليوم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[1]، وتظنّهم أحياءً وهم موتى، كأعضاء مقطّعة وأشلاء موزّعة، لا رابطة تجمعهم ولا جامعة تربطهم! حتّى حلّ بالمسلمين ما تراه، حلّ بهم البلاء الذي عيانه أكبر من وصفه، ونعيه أكثر من نعته.

ولذلك علل وأسباب شتّى، لا أُغالي لو قلت: أكبرها سلخ اللغة العربية

---

(١) سورة الحشر ٥٩: ١٤.

عن جسم الممالك الإسلامية ونبذها وراءهم ظهرياً ، حتّى انحلّت تلك الجامعة ، ووهت تلك العقدة ، وأصبح ذلك الجسم الواحد مقطّع الأعضاء متبتّر العلائق .

تركوا اللغة العربية تصرخ إلى الله من هجرها وقهرها ، وتستغيث بالأغيار والأجانب في استحياء رمقها واستبقاء لمظة من حياتها !

وهذه هي النقطة الأساسية والجوهرة السياسية التي كان يلزم الاهتمام في المحافظة عليها قبل كلّ شيء ، ومن تضييعها تلاشت الممالك الإسلامية في شرق الأرض وغربها وسرى الداء إلى قلبها .

نعم ، أقول : ضاع ملك الإسلام ودالت دوله بذلك .

ولا أقول : ضاع الإسلام (لا سمح الله) ؛ فإنّ الله قد تكفّل بحفظه وتعهّد بنصره .

ومهما نسيت من شيء فلا أنسى هجوم المغول والتتار على ممالك الإسلام يوم نسفوها نسفاً وتركوها قاعاً صفصفاً[١] ، ومحقوا آية الدولة العربية والخلافة الإسلامية من صحيفة الوجود .

ثمّ ما عتموا أُولئك أنفسهم أن قامت منهم دولٌ واسعة فيها الخاقان والقهرمان من (سعيد)[٢] ، و(خدابنده)[٣] ،

---

(١) الصفصف : المستوي من الأرض . (صحاح اللغة ٤ : ١٣٨٧) .

(٢) السلطان أبو سعيد بهادرخان بن أُولجايتو بن أرغون شاه بن أباقاخان بن هولاكو ، تاسع ملوك إيلخانية فارس . ولد سنة ٧٠٤ هـ ، وكان مربّيه الأمير سونج ، ووزيره غياث الدين محمّد . كان شديداً سفّاكاً للدماء كريماً محبّاً للعلم شاعراً مطبوعاً حسن الخطّ . توفّي سنة ٧٣٦ هـ ، ودفن بالسلطانية ، وتبيّن أنّه سمّ من قبل امرأته بغداد خاتون ؛ لأنّه جفاها بعد أن تزوّج عليها بدلشاد خاتون ، ولأنّها كانت تحقد عليه لقتله أباها وأخاها .

(دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ٧ : ٢٤٥ ـ ٢٥٩) .

(٣) السلطان محمّد أُولجايتو خدابنده بن أرغون شاه بن أباقاخان ، ثامن ملوك إيلخانية فارس ، وهو من أحفاد

←

و(تيمور)[1]، وأمثال أُولئك النفر من أساطين السلاطين وأراكين الملوك، ما عتموا أن أصبحوا من أكبر الحماة والسعاة لمدّ باع الإسلام وتأثيل دوحته وحماية سرحته.

فالإسلام دين الله، والله أولى وأعلم بحفظ دينه. وإنّما اللوعة والنعي على المسلمين مخافة أن يهملوا العربية، فيفلت كتاب الله من أيديهم ويتقلّص ظلّ الإسلام عن رؤوسهم، ويمدّه الله (سبحانه) على بلاد من يشاء من عباده، ثمّ يعود هؤلاء المسلمون خَوَلاً[2] ومماليك لمن يسومهم سوء الخسف ويجرّعهم مصبّرة الحتف.

يعود بنو (إسماعيل) كبني (إسرائيل) في سلطة من يقتّل أبناءهم ويستحيي نساءهم ويملك أرضهم وديارهم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[3].

← هولاكو، نصّرته أُمّه، ثمّ أسلم، أحسن الصلات مع البابا أكليمنضُس الخامس ومع إدوارد الثاني ملك الإنجليز، واستنجد بهما في محاربة المماليك. اعتنق المذهب الشيعي على يد العلّامة الحلّي، وفرضه ديانة رسمية لبلاد فارس، كما حفر أسماء الأئمّة على النقود. وكان من مناصري الآداب والعلوم. توفّي سنة ٧١٦ هـ، ودفن في مقبرته التي أعدّها قبل موته في بلدة سلطانية.

(دائرة المعارف الشيعية العامّة ٩: ٦٣، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ٧: ٢٣٢ ـ ٢٤٤).

(١) تيمورلنك، فاتح مغولي شهير. ولد بكيش قرب سمرقند سنة ١٣٣٦ م، ويرجع نسبه إلى جنكيزخان، أُصيب بسهم في ساقه فلقّب بتيمورلنك، أي: تيمور الأعرج. يعدّ من أكبر قادة الجيوش في الشرق، اجتاح بجحافله كامل المنطقة الممتدّة من منغوليا إلى البحر الأبيض المتوسّط منزلاً بالسلطان العثماني بايزيد الأوّل هزيمة منكرة عام ١٤٠٢ م. كان طويل القامة أبيض اللون مشرباً بالحمرة طويل اللحية ذا جبهة عريضة ورأس ضخم جهوري الصوت، وكان مسلماً شيعياً. قضىٰ نحبه وهو يعدّ العدّة لفتح الصين سنة ١٤٠٥ م.

(دائرة المعارف الشيعية العامّة ٦: ٥٨٠ ـ ٥٨١، موسوعة المورد ٩: ١٦٧).

(٢) الخول: الخدم. (جمهرة اللغة ١: ٦٢١).

(٣) سورة آل عمران ٣: ١٨٢، سورة الأنفال ٨: ٥١.

فإلى العربية إلى العربية أيّها المسلمون جميعاً! فحفظ العربية حفظ القرآن، وحفظ القرآن حفظ الإسلام، وحفظ الإسلام هو حفظ عزّكم ودوام ملككم وبقاء كيانكم وصون جامعتكم وحصون منعتكم وسياج شرف استقلالكم وإطار قلاع حياتكم.

هذه دعوتي لكم ونصيحتي إليكم.

هذا هو القول، وعلى العزائم ـ بعد الله ـ التوفيق للعمل إن شاء الله*.

وحيث بلغنا من أمر البلاغة والعربية وإعجاز القرآن الكريم إلى هذا الحدّ، فلنختم المقام بشكر من لا ينبغي لغيره الشكر والحمد.

والظنّ ـ وظنّ الألمعي قمين وما هو الظنّ بل اليقين ـ أنّي قد مخضت لك الزبدة وخرجت إليك من العهدة، ونصحت لك ما استطعت ووصلت الرحم من عواطف الأُخوّة البشرية وما قطعتُ ولا انقطعت، وصيّرت لك المعقول عياناً حتّى صرت تحسّه وجداناً: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[1].

(*) ولنا في هذا الموضوع مقالات طائلة ومنشئات مقنعة في الدعوة إلى العربية، والحثّ عليها، وبيان مزاياها ونفعها للمسلمين عامّة، مادّةً وأدباً وديناً وسياسةً.

ما كانت الظروف السالفة والأحوال الآنفة تسعف بنشرها على صفحات الصحف واستجلائها على مجالي الكتب والمجلّات.

وعسى الله (سبحانه) أن يهيّء لها وقتاً في الحال أو المستقبل تستطيع أن تبلغ الأسماع وتجلى على الأبصار وتؤدّي خدمتها لأبناء جلدتها وملّتها إن شاء الله. (منه ﷺ).

(١) سورة يونس ١٠: ١٠٨.

[بحث المتشابهات في القرآن]

نعم، هناك نزعات بل نزغات ومشتبهات في زيّ شبهات، يهمّنا بل يلزمنا سردها ونقلها وعقدها وحلّها.

وهي شبهات تجمّعت من تفاريق كلمات الزنادقة والملحدين في كلّ دين المتجمّعين من كلّ شوب وأوب، قد تلقّاها بعض أغبياء باقي الملل بل أغويائهم، ووسّعوا لها صدراً رحيباً وعدّدوها على الإسلام ولسانه مطاعن وذنوباً!

وتلك الشبهات ـ على أنّها في ذاتها أوهن من نسج العناكب وأكذب من نار الحباحب ـ تصدّى زعماء الإسلام وعلماؤهم، فنثروها هباءً وجعلوها على العدوّ عفاءً، وأفردوا لها كتباً بالتصنيف وحشدوا فيها كلّ رزين وطفيف.

وأئمّتنا الأطهار (سلام الله عليهم) ما أبقوا حاجة إلى قول قائل أو طول متطاول.

إنّ لهم في الذبّ عن الإسلام بكلّ قاطعة الخصام اليد البيضاء والنعمة العظمى والمنّة الكبرى التي يعظم ذكرها ويجب شكرها.

بلى، هم حجج الله في أرضه، وسدنة دينه، ودعائم يقينه، وحملة براهينه، وحرسة إسلامه، وحفظة نواميسه.

هم الحجّة والخصام، هم الدين والإسلام، هم المشاعر العظام، هم البرء لكلّ سقام.

فيا متيقّظ الهمّة وثاقب العزمة في نيل المعارف ودرك الحقائق، يا مشتعل الفطنة ومتشعشع الفطرة الذي لا يرضى من الكمال بالوقف على حال والمكث على مثال، ما ضرّك ـ يا هذا ـ لو نقدت ـ ولو يسيراً ـ من عمرك، وأنفذت بالسعي

ـ ولو قليلاً ـ من سويعات دهرك في مراجعة ما صحّ من أخبارهم ومطالعة ما شعّ من أضواء أنوارهم ؟ !

أشهد لو فعلت لتشهدنّ مشهداً عظيماً، ولتقفنّ منهم ـ ولهم الكرامة ـ موقفاً كريماً، يغنيك بالشمس عن الشمع وبالبصر عن السمع، فلا تحتاج بعده إلى سؤال، وإذا ظفرت بأهل البيت فما بالك بالتعريج على الأطلال ؟ !

إنّ تلك الشبهات ما هي إلّا من تشبّث الغريق بالحشيش والاستبدال عن ظلّ العرش ضلالاً بالعريش !

إنّ من أقواها مقيساً إليها ـ وإن كان في ذاته أوهى وأوهن وأجلى وأبين ـ هو ما ذكروه من تعداد جملة آيات، زعموا تناقض بعضها مع بعض[1] (معاذ الله).

وأنت (هداك الله) تعرف على الجملة ـ قبل الخوض فيها وفي جواباتها ـ ضعف هذا القول وخوره ووضوح فساده.

أنت الرجل المتضلّع في البلاغة المرتوي من منهل الفضل حيث صفّى ورده وأساغه، مهما شككت في شيء، أفتشكّ في أنّ جملة من الآيات بل جلّها ممّا ذكرناه وفصّلناه أو قصرنا عنه ووقفنا دونه لا رغبةً عنه بل عجزاً ممّا لا مجال فيه حتّى لذلك التوهّم الفاسد والزعم الكاسد، وأنّه بالمقام الذي عرفته ورأيته من الإعجاز في البلاغة، وظهور الآية، وقيام الحجّة، وثبوت المعجزة، وقطع المعذرة.

ثمّ أليس ذلك كلّه بكافٍ لك في صحّة النبوّة، والكشف عن الواقع، وتجلّي

---

(١) نُقلت هذه الشبهة في: الطراز ٣: ٤٣٧، معترك الأقران ١: ٩٤، شبهات وأباطيل خصوم الإسلام ١١٦. ونسبت للمستشرقين في: الإسلام في قفص الاتّهام ٤٠، من افتراءات المستشرقين ١٤٢.

نفس الأمر ؟ !

وبعد ثبوت هذا الغرض ، أعني : نبوّة هذا المتحدّي بهذا الكلام المعجز النظام ، ووجوب تصديقه فيما يدّعيه من أنّه رسولٌ من الله إلى خلقه لمكان تلك المعجزة المفروضة التي وقف العقل عندها ولم يجد بدّاً من الالتزام بلازمها ، وهو تصديق ربّها في دعوى نبوّته ، بل في كلّ ما يدّعيه ممّا هو دون الربوبية ، لضرورة العقل ببطلانها من الضعيف العاجز المخلوق الحادث الموجود بعد العدم . وبعد هذا ، فأيّ مجال لتلك الاعتراضات وزعم التناقضات ممّن ثبتت نبوّته وفلجت حجّته وقامت آيته ؟ !

وهل لورود ما يوهم ذلك من سبيل للعقل إلّا إلى الحكم بأنّ المراد به خلاف ظاهره ودون متبادره ؛ لحكمة معلومة أو مجهولة ؟ ! وما أكثر ما نجهل ، وأقلّ ما نعلم !

فلابدّ من أن يؤوّل أحد الكلامين أو كلاهما حتّى يؤولا إلى التصالح والتسالم ويرتفع ما يظهر بينهما من التضاد والتزاحم .

وما عجزنا عن تأويله ـ لو فُرض ـ نردّ أمره إلى الله ، ونبقيه على إجماله ، ونقول : عقلنا يعجز عن حلّ عقاله ، ونعتقد على الجملة أن لا تنافي وتهافت في واقعه وإن كنّا لا نعلم بتفصيل أمره .

كلّ ذلك التزاماً بما لا يسعنا دفعه من نبوّة ذلك النبي الثابت النبوّة بالمعجزة التي لا إجمال فيها ولا اختلال ولا توهّم تناقض ولا تعارض .

وإنّما تلك أُمور حدثت بعد النبوّة ، وقامت بعد قيام المعجزة ، وسبيلها ما عرفت ، فتدبّر ـ يا هذا ـ واغتنم فضل الله وفيضه .

هذا كلّه لو تُرك العقل وحاله ، وخلّي وسبيله ، وبقي ونفسه ، وأُرسل

وحكمه.

فكيف! وقد ساعده على ذلك رفيقه، ووافقه شقيقه، وصرّح صاحب تلك المعجزة البيّنة في كلام نفسه وكلام مرسله، وملأ الملأ منادياً في قومه: يا قومي، إنّ في كلامي وكلام مُرسلي محكمات فخذوا بها واتّبعوها، وفيه متشابهات فلا تتعرّضوها، فلستم المكلّفين بها والمعنيّين منها، بل لها أهل من خاصّة عباد الله هم أعرف برموزها وإشاراتها* ومعاني عباراتها، فلا تتكلّفوها فتضلّوا.

وقد أشرب هذا المعنى وأعلن به؛ حتّى لا تبقى لأحد حجّة ولا تقوم له في الضلالة معذرة.

وقد أثبت ذلك في قانون شريعته ولسان معجزته، منه: قوله (تعالى طوله): ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[1] على الأوجه من العطف لا الاستئناف[2]، وتكون الجملة على الحال،

(*) وهي من قبيل ما كان يسمّونه (بالشفرة) من الاصطلاح الخاصّ بين الملك وخاصّة وزرائه. (منه رحمه الله).

(١) سورة آل عمران ٣: ٧.

(٢) راجع التبيان في إعراب القرآن ١: ١٩٤. وقد رجّح الفرّاء العكس ـ أي: الاستئناف لا العطف ـ في معاني القرآن ١: ١٩١.

وانظر: الكشّاف ١: ٣٣٨، مجمع البيان ٢: ٢٤١، تفسير الفخر الرازي ٧: ١٩١ ـ ١٩٣.

قال الطبرسي: (اختلف في نظمه وحكمه ـ أي: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ على قولين:

أحدهما: إنّ ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ معطوف على ﴿اللّهُ﴾ بالواو، على معنى: أنّ تأويل المتشابه، يعلمه إلّا الله وإلّا

←

مثلها في قوله: ولقد أمرّ على اللئيم يسبّني[١].

انظر لطف ما عقّب به هذه الآية إيعازاً بالغرض ورمزاً إلى القصد على الوجه الذي شرحناه فيما يلزم على المؤمنين من التسليم والتفويض إلى الله في

← الراسخون في العلم، فإنّهم يعلمونه. و﴿يَقُولُونَ﴾ على هذا في موضع النصب على الحال، وتقديره: قائلين: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، كقول ابن المفرّغ الحميري:

الريح تبكي شجوَهُ والبرقُ يلمعُ في غمامِه

أي: والبرق يبكي أيضاً لامعاً في غمامه.

وهذا قول ابن عبّاس، والربيع، ومحمّد بن جعفر بن الزبير، واختيار أبي مسلم، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، فإنّه قال: «كان رسول الله أفضل الراسخين في العلم، قد علم جميع ما أنزل الله عليه من التأويل والتنزيل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وهو وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه».

وممّا يؤيّد هذا القول: أنّ الصحابة والتابعين أجمعوا على تفسير جميع آي القرآن، ولم نرهم توقّفوا على شيء منه، ولم يفسّروه بأن قالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلّا الله، وكان ابن عبّاس يقول في هذه الآية: أنا من الراسخين في العلم.

والقول الآخر: إنّ الواو في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ واو الاستئناف. فعلى هذا القول يكون تأويل المتشابه: لا يعلمه إلّا الله تعالى، والوقف عند قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ويبتدئ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، فيكون مبتدأً وخبراً.

وهذا قول عائشة، وعروة بن الزبير، والحسن، ومالك، واختيار الكسائي، والفرّاء، والجبّائي.

وقالوا: إنّ الراسخين لا يعلمون تأويله، ولكنّهم يؤمنون به. فالآية راجعة - على هذا التأويل - إلى العلم بمدّة أجل هذه الأُمّة، ووقت قيام الساعة وفناء الدنيا، ووقت طلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى، وخروج الدجّال، ونحو ذلك ممّا استأثر الله بعلمه. ويكون التأويل على هذا القول بمعنى المتأوّل، كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾، يعني: الموعود به، وقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، معناه: المحكم والمتشابه جميعاً من عند ربّنا). (مجمع البيان ٢: ٢٤١ - ٢٤٢).

(١) هذا صدر بيت شهير، وعجزه:

فمضيت ثمّت قلتُ: لا يعنيني

وقد نُسب البيت لرجل من سلول في معجم الأبيات الشهيرة ٢٤٦. ولمعرفة الخلاف في قائله راجع خزانة الأدب ١: ٣٤٧ (الهامش الثاني).

المتشابه، وأنّ التعرّض له والخوض فيه ـ قبل الوصول إلى مقام الراسخين ـ مظنّة للزيغ وللضلالة والشكّ والجهالة.

حيث قال (جلّ شأنه) عن عباده الراسخين تعريضاً بالجاهلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[١].

وقد بالغ في بيان ذلك حجّة الله البالغة (عليّ) عليه السلام في الخطبة المعروفة بخطبة الأشباح، حيث يقول في أوائلها:

« فانظر ـ أيّها السائل ـ فما دلّك القرآنُ عليه من صفته فائتمّ به واستضئ بنور هدايته، وما كلّفك الشيطان علمه ممّا ليس في الكتاب عليك فرضه ولا في سنّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة الهدى أثره، فكل علمه إلى الله سبحانه، فإنّ ذلك منتهى حقّ الله عليك.

واعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السُدد المضروبة دون الغيوب، الإقرارُ بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمّى تركهم التعمّق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً »[٢] انتهى الغرض منها.

وهي وإن كانت ظاهرة في قراءة الوقف، ولكن ليس القصد هنا تحقيق هذه الجهة، وإنّما الغرض أنّ الشارع وأمناءه قد أشاروا إلى تلك المتشابهات، ونهوا عن الخوض فيها والتعرّض لها، وأبانوا أنّ الشريعة بمحكماتها لا بمتشابهاتها.

أمّا الحكمة والفلسفة في إنزال المتشابه وجعله من القرآن المقصود به

---

(١) سورة آل عمران ٣: ٨.

(٢) نهج البلاغة ١٢٥.

الإفهام والبيان، فلا أحسب أنّ وجهها الظاهر يسطيع أن يحتجب عنك أو يخفى عليك، وفيه مقنع لك وكفاية عن تطلّب الوجوه الخفية وتكلّف الأسرار والرموز التي لستُ أنا أو أنت من أهلها.

ألستَ تعلم أنّ القرآن لو كان كلّه ظاهراً مكشوفاً بحيث يستوي في معرفته العالم والجاهل والعالي والسافل لبطل التفاضل بين الناس وسقطت المحنة وماتت الخواطر وذهب الاحتكاك.

وقد قيل: إنّ مع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة[١].

وقالوا: عيب الغنى أنّه يورّث البله، وفضيلة الفقر أنّه يبعث الحيلة[٢].

وقال (ابن صيفي)[٣]: (ما يسرّني أنّني مكفّى كلّ أمر الدنيا)! قيل: ولِمَ؟ قال: (أكره عادة العجز)[٤]!

ألم تعلمي أنّ الثواء هو التوى[٥] وأنّ بيوت العاجزين قبور؟!

---

(١) لاحظ زاد المسير ١: ٣٠٢.

(٢) انظر عيون الأخبار ١: ٣٥٣.

(٣) أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية بن شريف التميمي، حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمّرين. عاش زمناً طويلاً، وأدرك الإسلام، وقصد المدينة في مائة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق سنة ٩هـ، ولم ير النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأسلم من بلغ المدينة من أصحابه. أخباره كثيرة، ولعبد العزيز بن يحيىٰ الجلودي كتاب: (أخبار أكثم).

(البيان والتبيين ١: ٣٦٥و٢: ٧٠و٣: ٢٥٥، أُسد الغابة ١: ١١٢ـ١١٣، بلوغ الإرب ١: ٣٠٨ـ٣١١، الأعلام للزركلي ٢: ٦).

(٤) قارن عيون الأخبار ١: ٣٥٣.

(٥) الثواء: طول الإقامة بالمكان. (لسان العرب ٢: ١٥٢).

والتوى: الهلاك. (المصدر السابق ٢: ٦٧).

وما من علم من العلوم إلّا وفيه ما يتّضح ويجلّ، وفيه ما يدقّ ويشكل؛ ليرتقي المتعلّم فيها رتبة بعد رتبة حتّى يبلغ منتهاه ويدرك أقصاه، ولتكون للعالم فضيلة النظر وحسن الاستخراج، ولتقع المثوبة من الله (جلّ شأنه) على قدر العناية.

ولو كان كلّ العلوم أو كلّ القرآن شيئاً واحداً لم يكن عالم ولا متعلّم ولا خفي ولا جلي، (والأشياء تعرف بأضدادها)، والخير يعرف بالشرّ والباطن بالظاهر.

ولولا ذلك لبطلت الحكمة وتعطّلت النواميس.

وكم في كلام الأنبياء والحكماء والشعراء من العرب وغيرهم من لطيف معنى وضعوه تحت مغلّفات من الألفاظ؛ ليبحث عنه العالم المقدّم، ويقصر عنه البليد المفدّم[1]، ويستخرجه النقّاب المبرّز.

ولولا ذلك لوقفت حركة الأفكار، وكنّا كالبهائم لا نعرف سوى سواد الليل وبياض النهار!

فالمتشابهات هي التي سنّت لنا شريعة البحث وحركة الفكر حتّى بلغت العلوم إلى مبالغها اليوم، ولعلّها ما بلغت شيئاً!

هذه إحدى الحكم في المتشابهات، فلتتدبّرها؛ لتعرف ما أكبرها!

وعساك تصل إلى ما هو أدقّ منها حكمة وأعظم نعمة.

ولكن ألا بذمّة الإنصاف عندك وحرمة الحقّ والحقيقة عليك، هل التمسّك بتلك الاعتراضات والتشبّث بتلك المزخرفات والخرافات، هل الرجوع ـ بعد

---

(١) الفَدْم: العَيي. (جمهرة اللغة ٢: ٦٧٢).

ذلك كلّه ـ إلى هاتيك التي يُظنّ أنّها من المتعارضات ـ وما هي منه وهيهات ـ إلّا محض زندقة وإلحاد ومباهتة وعناد ؟ !

أمّا تعيين المحكم من المتشابه وضابطة كلٍّ منهما وميزانه وموارده وآياته، فما أكثر ما كتب فيه المسلمون في تفاريق الكتب ومختلفات العلوم من الأُصول والكلام والتفسير والحديث والدراية والعربية وغير ذلك أصالة واستطراداً فصولاً وأبواباً.

وما قنعوا بجميع ذلك حتّى أفردوه بالتأليف ووحّدوه بالتصنيف.

فمن جميل ما فيه لعلماء الإمامية كتاب (المحكم والمتشابه) لـ (ابن شهر آشوب)[1] من علماء القرن الرابع من تلامذة سيّدنا (الشريف المرتضى).

كما أنّ لهذا السيّد الشريف رسالة في ذلك أيضاً، ولكثير من أمثالهم من الأساطين الأعلام وزعماء الإسلام (شكر الله مساعيهم الجميلة وأياديهم الجليلة).

وبعد هذا، فأيّ ردّ لك ـ أيّها المعترض ـ بها أو إيراد عليها، وأيّ وجه للاعتراض فيها والاستناد إليها ؟ !

---

(١) أبو جعفر رشيد الدين محمّد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني، من فضلاء العلماء بالحديث والأُصول وعلوم القرآن والتراجم. خافه والي سارية مازندران، فأمره بالخروج منها، فذهب إلى بغداد في أيّام المقتفي، وعظمت منزلته. ثمّ انتقل إلى الموصل، واستقرّ في حلب، وتوفّي فيها سنة ٥٨٨ هـ. من كتبه: الفصول، أسباب نزول القرآن، تأويل متشابهات القرآن، المكنون المخزون في عيون الفنون، مناقب آل أبي طالب، معالم العلماء، المتشابه والمختلف.

(لسان الميزان ٥: ٣١٠، معجم المطبوعات العربية ٢: ١٦٠٧، أعيان الشيعة ١٠: ١٧، الأعلام للزركلي ٦: ٢٧٩).

[تحرير حجّة الخصم في المقام ـ من : القول بالصدفة والصرفة وغيرهما ـ والجواب عنها]

وأنت يا هذا الرجل الذي لا تتعرّف ولا تعرف وتعاند الحقّ ولا تنصف ! بل يا أيّها المعترض المجادل المجالد بالباطل المتحامل على شريعة الإسلام (حملك الله عليها وهداك إليها) أنا أقوم لك بحجّتك ، وأُقوّم عنك أود اعتراضك ومعارضتك ، وأُحرّر دعواك مع بيّنتك :

إنّ الذي يضرّ في جوهر ما نرومه ونحن بصدده من إثبات النبوّة المحمّدية والشريعة الإسلامية ـ بعد تمسّكنا لها بكتاب الله الكريم وإعجازه وبلاغته ـ إنّما هو أحد أمرين ـ لا سواهما من أقاويلك وأضاليلك ـ : إمّا إنكار إعجازه وادّعاء إمكان معارضته .

وهذا بحث قد فرغنا منه بعد إيضاح سبيله وإقامة دليله ، وأعطيناك النصفة فيه ، ودلّلناك على الحكم في خصومته ، وأرشدناك إلى الكتب المؤلّفة لبيانه المتكفّلة ببرهانه .

وقد أملينا عليك منه حتّى خشينا ملالك ، وأشبعنا القول فيه حتّى حذرنا استثقالك .

فلا تُعِد حديثه ، فإنّي أخشى أن ينفتق عليك في بيانه منّا السيل ويأخذك الحرب والويل !

وليس لك بعده إلّا الأمر الثاني ، وهو : أن تقول : نعم ، هو معجز ولا يمكن لأحد من العرب ـ فضلاً عن غيرهم ـ معارضته ، ولكن لا يلزم من ذلك صدق المتحدّي به في دعوى الرسالة ، زاعماً أنّ من الممكن أن يوجد شخص له قوّة

في البلاغة وملكة في البيان يفوق بها أهل زمانه ومن بعدهم ممّن يشاركه في أصل تلك الصنعة ويساويه في جوهر تلك الصفة وإن اختصّ هو من بينهم ـ لقوّة حدسه وشدّة فطانته ـ باختراع شيء واختلاق أمر من عند نفسه ثمّ ينسبه إلى الخالق ترويجاً لأمره وتمهيداً لنجح قصده وتوصّلاً لغرضه وما أضمر في نيّته.

وما أكثر ما اتّفق في العالم من بدء الخليقة إلى يومنا ممّن اهتدى إلى اختراع شيء اختصّ به وامتاز باستكشافه من بين أبناء جنسه ومن تلقاء نفسه علماً أو صنعة أو آلة أو غير ذلك.

سوى أنّهم ما تحدّوا به ولا صادموا أهل زمانهم فيه.

ذاك لعدم سنوح غرض خاصٍّ لهم يجعلون مخترعهم سلّماً إليه وذريعة لنيله.

وعليه، فأيّ دليل في هذا المعجز باصطلاحكم على صحّة النبوّة وصدق الدعوة ؟!

هذا أقصى ما يحتجّ به لك، ويُذبّ به عنك، ويجعل سنداً لدعواك الواهية، ويوجّه به حجّتك الواهنة!

وظنّي أنّها وسيلة ما كنت بنفسك لتهتدي إليها وحيلة ما تكاد بصرف قريحتك لتقف عليها، لفّقتها لك بأقوى ما تحتجّ به عن نفسك، ولقفتُكَ إيّاها على حين انتزاحها عن حدسك وإن كنت ترمي إليها من بُعد، وترنوا إليها من وراء ستر، وتروم التعبير عنها ولا تحسن، وتعنيها ولا تعيّن.

وقد قمتُ عنك بجميع ذلك؛ لتعلم أنّي لا آلونّ لك جهدي، ولا أكتم عنك شيئاً من نصحي، ولا أتحيّر متوانياً في التحرّي ولا متراخياً في التوخّي، ولا تأخذني العصبية العمياء في التأبّي إلّا عن دين الأُمّهات والآباء، ولا أغمض

الحقّ لي كان أم عليّ، ولا أُفوّت الإنصاف من يديّ.

والله (جلّ شأنه) وهو المالك، يشهد منّي على ذلك.

وحيثُ عقدتُ لك العقدة، فاستمع (هداك الله) مقالتي في حلّها:

إنّ هذا الذي تحمّلته عنك وتكلّفته لك لباطلٌ مزخرف وقول مسفسف[١] لا يلبث ـ على أوّل هبّة للحقّ ـ أن يعود هباءً وتمسي أرضه خلاءً، قد عقم شكلاً واندفع نقضاً وحلّاً:

أمّا النقض: فإنّي كنت أخشى من ركـونك إلى شُـبه الزنـادقة وتـعويلك عليها، وأحذر أن تستميلك ـ وأنت غير ثابت القدم ـ فتميل إليها.

يا هذا، إنّ هذه المقالة البائدة من أركان أُصول الملاحدة المنكرين لجميع المعجزات ومطلق النبوّات لا تختصّ بالمعجز الأوحد من فرقان (محمّد) ﷺ.

فإنّا ننقض عليك ونعيد مقالتك تلك إليك، ونقول لك ـ إن كنت يهودياً أو نصرانياً ـ: إنّ من الممكن في حقّ (موسى) أن يكون قد اتّفق عنده من السحر ما أبطل به سحر السحرة وفاق واستعلى به على جميع أُولئك الجهابذة المهرة، فإنّه زمان شوكة السحر وأيّام دولته، فلعل جميع ما جاء بـه مـن المـعجزات أنـواع وضروب من السحر قد اهتدى هو بحدّة فطنته ولطف قريحته لاختـراعـها، ثـمّ حصل له مثل ذلك الغرض الخاصّ، وعلم أنّهم يعجزون عنها؛ لعـدم مـعرفتهم بطرقها وأسبابها، فتحدّى بها على السحرة، ونسبها إلى خالقه تـرويجاً لغـرضه وتوصّلاً لمقاصده.

---

(١) مسفسف: رديء وحقير. (القاموس المحيط ٣: ١٥٧).

ومثل ذلك نقول في (عيسى) وأنه طبيب حاذق ك(بقراط)[١] و(جالينوس)[٢] ونظرائهم من مناهزي عصره الذي هو مظهر دولة الطبّ وأيّام شوكته.

فمن الممكن أن يكون قد اهتدى لاختراع فذلكة طبّية يبرِئ بها الأكمه والأبرص ويعيد بها روح الحياة إلى بدن الميّت زمناً قليلاً، ثمّ حصل له ذلك الغرض، وقال: إنّي طبيب روحاني وأب، أو كما تزعم النصارى: ربٌّ جسماني[٣].

إلى غير ذلك من معجزات الأنبياء والرسل التي طبّقت العالم اشتهاراً ولم يتّسع لأحد ـ إلّا بالمباهتة لها ـ إنكاراً.

بل ستجد أنّ الأمر يتفاقم إلى ما هو بالمحال ألزم وبالإعضال أعظم، من الكفر الفظيع والقول الشنيع، من إنكار الصانع ومباهتة الواقع (أعاذنا الله وإيّاك من

---

(١) أبقراط، طبيب يوناني، يعتبر أبا الطبّ، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وعمل على تحرير الطبّ من الخرافات، وحاول إقامته على أساس علمي مؤكّداً على أهمية الملاحظة السريرية. لا يعرف المؤرّخون عن حياته غير النزر اليسير. ويقال: إنّه وضع مبادئ للأخلاق الطبّية فرضها على تلامذته، وهي مبادئ تتضمّنها اليمين التي لا يزال الأطبّاء يُقسمونها حتّىٰ اليوم في حفلة التخرّج (Hippocratic oath). (موسوعة المورد ٥: ١٠٨).

(٢) جالينوس، طبيب يوناني، ولد سنة ١٢٩ م، ويعتبر أحد أعظم الأطبّاء في العصور القديمة. أسّس علم الفسيولوجيا التجريبية، ووضع عشرات من المؤلّفات في علمي التشريح ووظائف الأعضاء، سيطرت على الفكر الطبّي في أُوروبا طوال القرون الوسطىٰ وخلال عصر النهضة. وقد أقام الدليل في آثاره هذه على ما يتميّز به تفكيره من أصالة ونزوع إلىٰ الاختبار. ومن أجل ذلك عدّها بعض الباحثين المعاصرين أحد الأُسس العريضة التي قام عليها الطبّ الحديث. يُعرف مذهبه في الطبّ بالجالينوسية (Galenism) القائمة على نظرية الأخلاط الأربعة. (موسوعة المورد ٤: ١٨٦).

(٣) قارن: الإسلام والمسيحية ٢٢٠، المدخل إلىٰ دراسة الأديان ١: ٢٣٤، النصرانية ٩١.

كلّ ذاك).

وأمّا الحلّ فهو: أنّا قد أشرنا لك ـ فيما سبق من الفصول ـ ورمزنا إليك في أثناء المباحث أنّ الخصومة بيننا لا تكاد تقف على حدٍّ، ولا تنتهي إلى فصل، ولا تصل إلى غاية، ولا يبلغ مسرى القول فيها إلى نهاية.

وهذا هو الشأن في جميع المرافعات والمنازعات، فإنّها لا تنفصل إلّا بالرجوع إلى ثالث محكّم أو حاكم مسلّم.

كذاك الأمر بيننا لا ينقضي ما لم نرفع أمر تلك الخصومة إلى حاكم هو عندنا وعندك مرضي الحكومة مأمون العثرة معلوم النصفة غير جائر في حكمه ولا جاهل في علمه.

ألا وهو العقل الذي جعله الله (تعالى) الفيصل الحاكم في أُصول الدين والعيار والمعيار لأمثال تلك الموازين.

ولو قلتَ: نعم، العقل ـ كما ذكرت ـ هو الفيصل الحاكم والعالم الوحيد في هذه العوالم الذي لا ترجع هذه الخصومات إلّا إليه ولا تقف إلّا بين يديه.

نعم، ولا تصدر بعين اليقين إلّا عن رأيه، ولا تنقضي في شرعة الإنصاف ولا تنفصل إلّا بفصل قضائه.

ولكن كيف لنا وأنّى ومن أيّن يتهيّأ ويتسنّى معرفة حكم العقل لنا ولك، وكلٌّ يدّعيه ويزعم أنّه هو الدليل له والمستند وعليه عوّل واعتمد؟! كما هو المشاهد المحسوس في عامّة النفوس إذا جرت في عنان واستبقت في رهان، فقد سقط هذا الحاكم من البين وظهر لكلّ راءٍ ما في هذا الميزان من العين.

قلنا: ما أحسن ما لحنت به من الحجّة، وأبين ما جئت به من النصفة، وألطف ما اهتديت إليه من سلوك سبيل المجادلة!

نعم، يا هذا! إنّ الأمر لكما ذكرت والحال على ما وصفت. ولكن تحسب أنَّ مَن أبدع العقل قد جهّله وأبطله من حيث علّمه وجعله، وهدّه من حيث أعدّه، وأعدمه من حيث أوجده، وعزله ونكّبه من حيث نصره ونصبه ؟!

كلّا، وهيهات. إنّ له ميزاناً لا يحيف ومعياراً ليس بالطفيف، وعلماً أوضح من أن يجهل وباباً أوسع من أن يُغلق دون أحد أو يُقفل.

إنّ عيار حكم العقل ووزانه وملاكه وكيانه، بعد مراجعة المرء نفسه ووجدانه إذا وقع في مضيق المجادلة ودُفع إلى طريق الخصومة والمحاججة وغمط فضله ورُدّ عليه ما حكم به عقله، وذاك هو الانتصار والاستظهار بما حكم به العقلاء ممّن لا يجحد الخصم فضله ولا ينكر عقله في أمثال ما خاضوا فيه وتدافعوا عليه. فإنّ الأشياء بنظائرها تعرف وبأواصرها تلحق وتوصف.

وهل عصارة ما زخرفناه عنك من واهن الشبهة وواهي الحجّة إلّا القول (بالصدفة)، حيث تقول: عسى أن يكون قد اتّفق (لموسى) من معرفة أسباب للسحر ما لم يعثر عليه سحرة عصره، و (لعيسى) من الطبّ ما خفي على أطبّاء زمانه، و (لمحمّد) ﷺ من البلاغة ما عجز عنه بلغاء قومه[1].

وهل هذا إلّا كقول من قال: إنّ وجود العالم بالصدفة والبخت والاتّفاق، لا عن صنع صانع وتدبير واضع وإتقان حكمة وحصافة حلم وسعة علم؟!

وهناك قوم على أوّليات الدهر وأُخرياته ـ ممّن نتسالم على صحّة عقولهم ورجاحة حلومهم ـ قد أنكروا على أُولئك أشدّ الإنكار وأسقطوهم عن درجة الاعتبار، وسمّوهم: بالسوفسطائية، وأمثال كلماتهم: بالسفسطة.

---

(١) نُقل بلفظ: (قيل) في إعجاز القرآن للباقلاني ٣١٩.

يعنون: أنّهم ينكرون البداية الأوّلية والعلوم الفطرية، وأنّهم يجحدون ضرورة عقولهم ويكابرون غرائز طباعهم وجليّات وجدانهم.

فحكم العقلاء في كلّ مقام أو مثله هو ميزان المرء في حكم عقله ومسبار صحّته وسقمه ومعيار حجّته على خصمه.

وهذا ميزان عادل وحَكَم فاصل، لا يميل لسانه ولا يمين[1] بيانه، والخصم إن مال عليه بالحيف فليس له سوى السكوت أو السيف!

نعم، لا أرتاب في قلّة من يهتدي في المناظرات إلى الأشباه والنظائر وأسباب المناسبات وإلى معرفة حكم العقلاء فيها، سيّما حيث لا تكون من البديهيات ولو ببعض مباديها.

أمّا انحلال تلك الشبهة ووضوح انتكاثها فلو كان في الإمكان شيء هو فوق البديهة بمكان لكان إيّاه ذاك بعد أقلّ التفات وأدنى تأمّل، وإلّا لبطلت الشرائع. نعم، ولاتّسع الخرق على الراقع وأدّى إلى إنكار الصانع.

فعلام تخصّه بالشريعة الإسلامية والملّة المحمّدية؟!

أجل، وهناك شيء آخر: إنّ ما ذكرناه من كثرة المخترعين والمبدعين في العلوم والصنائع لقياسٌ ما أدحضه وقول ما أرفضه وأخفضه!

إنّك لتعلم ما من مخترع ممّن تشير إليه إلّا وقد اهتدى إلى ما أعجبك اختراعه بعد المثابرة والكفاح والغدوّ والرواح، إلّا بعد أن دوّخ الأساتيذ والمدارس وبذل النفس والنفائس، وتوخّى العمّال والمعامل والجهابذة والأفاضل في تلك الخطّة التي اخترع فيها والجهة التي طال صوته منها. ثمّ بعد

---

(١) المين: الكذب. (صحاح اللغة ٦: ٢٢١٠).

الاختراع عُرف سبيله واتّضح للناس مأخذه ودليله، واقتفى به من بعده فجاء بمثله أو زاد على ما عنده، أو صار مساعداً له في بعض شؤون عمله، أو رفضه في تفاصيله أو جمله، إلى غير ذلك ممّا قضت لك العادة وشهدت عندك به السيرة.

أمّا من خصصناهم بالنبوّة وآمنّا بهم لمكان المعجزة، فهم بين ظهراني أُمّتهم ونصب عيون قومهم، وما كان ليخفى عليهم شيء من أمرهم، ولا ليتوارى عنهم خفيّ أحوالهم من حين ترعرعهم إلى زمن اكتهالهم.

يجدون ويشهدون أنّهم ما مارسوا علماً، ولا درسوا فنّاً، ولا اختلفوا إلى معلّم، ولا وقفوا من البشر على مؤدّب، سيّما في سنخ تلك المعجزة التي تحدّوا إليها واعتمدوا في دعوى النبوّة عليها.

وهم ما ابتدأوا بالدعوة إلّا قومهم، ولا خصّوا بإظهار المعجزات إلّا بلادهم تثبيتاً للحجّة وقطعاً للمعاذير، ليكون الغير بتصديقهم أولى والبعيد إليهم أدنى.

أفتراك سمعت بنبيٍّ صادق الدعوة بدأ بغير قومه وظهر في غير أهله وقام في غير أبناء جلدته، من (إبراهيم)، و(موسى)، و(محمّد)، و(عيسى)، وغيرهم (صلوات الله عليهم جميعاً) من أُولي العزم وغيرهم.

ثمّ إنّ تلك المعجزات ذهبت بذهابهم وزالت بزوالهم. ما ثنّيت بثانٍ لهم من عامّة البشر ولا أحاطت بها جميع القوى والقُدر، على كثرة من جاء بعدهم من الحذقة البارعين وأصناف المخترعين ممّن يضاد شريعتهم ويجهد أن يبطل دعوتهم.

أتراك تجد من يضرب بعصاه البحر منبجساً[1]، فيشقّ للعبور فيه طريقاً

---

(١) بجس: تفتّح الشيء بالماء خاصّة، أو انشقاق في حجر أو أرض ينبع منها ماء. (معجم مقاييس اللغة ١: ١٩٩).

يبساً ؟ ! إلى أمثال ذلك ممّا تغني الشهرة عن ذكره بعد وضوح أمره.

فالأنبياء حين جاءوا بالممتنع العادي لمن عادته ودأبه ذلك كالذي يشبه السحر وليس به ـ من إلقاء العصا للسحرة الأذكياء وإحياء الموتى لحذّاق الأطبّاء وبلاغة القرآن لمهرة البلغاء ـ وعرف هؤلاء لمكانهم من الصنعة ومحلّهم من اللباقة والفطنة ومنزلتهم من المهارة في ممارسة تلك السلعة، إنّ ما جاء به أُولئك النفر ما هو إلّا من الصنع الذي تعجز عنه قوى البشر، ويخرج عن حدّ التعلّم الصناعي والتدرّب الكسبي، وإنّه لا محالة مصبوب عن طابع إلهي وقالب إلهامي.

وبعد كلّ ذلك، لم يجدوا ملجأً إلاّ إلى التسليم والإيمان والسكون والإيقان، أو الإصرار على الإنكار من التعامي والخذلان لا عن حجّة ولا برهان.

وعليه، فلم تجد الأنبياء لهم علاجاً بسوى السيف ؛ فإنّه أحفى بالصلاح في الأرض وأنفى للحيف وأحفظ للجامعة وأدرأ للشرور (نعوذ بالله من مرديات الهوى والعصبية العمياء).

ولا أحسبك ـ مع مساعفة التوفيق ومساعدة العناية ـ بعد جميع ما توخّيناه لك من النصح وجهدنا فيه لك من البيان إلّا وقد وقفت على أعظم الصرفة عن القول بالصدفة.

كما اتّضح من جميع ذلك منتهى فساد القول: بأنّ إعجاز القرآن ليس هو بجوهره وذاته، بل بالحجز عنه والصرفة دونه[1].

---

(١) نُسب هذا القول إلىٰ: النظّام، وعبّاد بن سلمان، وهشام الفوطي، وابن حزم الأندلسي، وأبي إسحاق الإسفرايني، والسيّد المرتضىٰ.

←

إنّ ذلك إلّا رأيٌ عازب وقولٌ كاذب..

قول من لم يجعل الله له من معرفة البلاغة حظّاً، ولا حصّل من شرائف حقائقها ومعانيها إلّا حكاية ولفظاً، فمذ ضايقه العجز والجهالة لجأ إلى هذه المقالة وضلّ يخبط في أمثال هذه الضلالة!

ولست أرى لهذه الشبهة صورة صدق ولباس حقٍّ يدعو إلى توفّر العناية في شأنها وإيضاح بطلانها، سيّما وكلّ من عني بهذا الشأن وتصدّى لعلم بلاغة القرآن قد شنّع على هذا القول وبالغ في بطلانه وإحالته.

على أنّ من نسب إليه ذلك لم يُنقل عنه الاستناد إلى حجّة ولا ضعيفة والتعويل على شبهة ولا سخيفة، وإنّما هو رأي رآه أو احتمال أبداه.

والسداد عزيز والصواب معوز، إلّا بتأييد من الله ولطف منه.

وإليه نرغب في ذلك، فإنّه منتهى الرغبة ومحطّ نجاح كلّ حاجة، وهو أرحم الراحمين.

فإن اشتبه على متأدّب قاصر أو شاعر أو متشاعر أو غرّ ناشئ أو مرمّد البصيرة متلاشي فصاحةُ القرآن وإعجازه وبراعته وإيجازه وما اشتمل عليه من باهر الصنعة وعظيم القدرة، فما عليك منه أنت أيّها الفاضل المتدرّب في طيّ هذه المراحل؟!

إنّما يخبر عن نقصه، إنّما يدلّ على عجزه، إنّما يبيّن عن جهله، ويصرّح بسخافة فهمه، ويشير إلى ركاكة عقله، ويومئ إلى خُبوّ زنده، ويرمي إلى نبوّ

← قارن: الانتصار ٢٨، إعجاز القرآن للباقلاني ٥٥ و١١٠، الاقتصاد للطوسي ٢٧٧، الطراز ٣: ٣٩١، البرهان للزركشي ٢: ٩٣، اللوامع الإلهية ٢٨٨، الإتقان في علوم القرآن ٤: ٧، مناهل العرفان ٢: ٤٤٥، المعجزة الكبرى ٧٩.

طبعه!

وإنّما قدّمنا الذي قدّمناه لتعرف أنّ ما ادّعيناه من معرفة البليغ بعلوّ شأن القرآن وعجيب نظمه وبديع تأليفه أمرٌ لا يجوز غيره، ولا يحتمل سواه، ولا يتعدّى من دونه، ولا يشتبه على ذي بصيرة، ولا يخيّل عند أخي معرفة.

وإنّ هذا أمر وإن دقّ فله قوم يقبلونه علماً، وأهل يحيطون به فهماً، ويعرّفونه إليك إن شئت ويصوّرونه لديك إن أردت.

ولكلّ عمل رجال، ولكلّ صنعة ناس، وفي كلّ فرقة عالم وجاهل ومتوسّط.

وجميع ما ذكرناه في وجوه إعجازه وبلاغاته على أنّه غيض من فيض وقطرة من بحر، كلّه ليس من خطّتنا ولا بالذي سيقت له وجيزتنا.

وإنّما كان من حقّنا أن نقول: إنّ آية نبوّة نبيّنا وأُمّ معجزاته التي بقيت بعده وفاقت معجزات الأنبياء قبله، هي إعجاز هذا الكتاب الذي جاء به، ثمّ نحيل تفاصيل وجوه الإعجاز وما تثبت به هذه الدعوى إلى الكتب المعنيّة بهذا الشأن المؤلّفة على ذلك العنوان. ولكن تدافع ما رأيت من ذلك طبعاً، فلم استطع له دفعاً، وطفح على القلم رشحٌ منه فجرى به وسال، ولم أملك له منعاً.

[ختم الكلام في المقام]

وختمُ الكلام معك ـ يا ذا الذي ترى أنّك من الصنف الأوّل الذي نحن في إيضاح الحقّ له وإثبات الحجّة عليه بكلّ ما سردناه من الكلام ـ: أنّك إن كنت ممّن هو بالصفة التي وصفناها من معرفة الفصاحات والتحقّق بمجاري البلاغات، فقد يكفيك التأمّل، ويغنيك التصوّر، ويزعك عن الجماح لجامُ التدبّر.

وإن كنت في الصنعة ضعيفاً، وفي المعرفة ناقصاً، ومن هذه الرتبة عارياً، أو مقصّراً مقلّاً، أو زمناً أشلّاً، أو موجعاً مرمّداً، لا تفتح عيناً ولا تمدّ رجلاً ولا تبسط يداً، فلا بدّ لك من التقليد، ولا غنى بك عن التسليم..

وقد قيل: إنّ الناقص في هذه الصنعة كالخارج منها، والشادي[1] فيها كالبائن عنها، فهو من القصور بالمثابة التي يكون فيها من الصنف الثاني.

ونحن نريد أن نفتح له ـ بعون الله ـ باباً ونقرّب عليه أمراً ونفسح له طريقاً، كما جهدنا في مثل ذلك لقسيمه من الصنف الأوّل، ونسعى له حتّى نلحقه به ونقرّبه منه، بحيث لو تأمّله حقّ تأمّله وراعاه أتمّ مراعاته لأمكن أن يستدلّ به استدلال العالم، ويستدرك فيه من القول ما يشاء استدراك الناقد، إن كان ممّن يتطلّب الحقّ بكلّ عزيمته، ويسعى إلى الصدق والصواب بكلّ جهده، ويفرّ من مضيق العصبية إلى فسحة الإنصاف بصرافة طبعه وسذاجة رأيه، والتوفيق والعناية من ورائنا وورائه.

فأقول لكلّ من طرأت عليه دعوتي وطارت بجناح الخلوص إليه نصيحتي من كافّة الخلق وعامّة البشر، وكلّهم الصنف الثاني؛ إذ الأوّل في غاية الندرة ومنتهى العزّة، سيّما في هذه الأعصار التي هبّت فيها على هشيم العرب والعربية ريحٌ ذات إعصار، فتركت روضه يباباً[2] وأرضه خراباً! وعسى أن يديل الله له بالنصرة ويعيد له تلك الأسرّة.

فلا تُهج دائي الدفين، فقد تكفّل الله بنصرة هذا الدين* ولسانه العربي

---

(١) الشادي: الذي يشدو شيئاً من الأدب، أي: يأخذ طرفاً منه. (صحاح اللغة ٦: ٢٣٩٠).

(٢) اليباب: الخراب. (القاموس المحيط ١: ١٤٦).

(*) ينعشني وكلّ عربي صميم غير أصمّ ما نستنشقه من أجواء (مصر) وأرجائها التي تنفح اليوم ومن قبل بذلك ←

المبين: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[1].

إنّ تسجيل الحجّة والبيان على تلك الزمرة فيما به عناية العامّة وكفاية الكافّة أن نقول لكلّ واحد منهم صبا إلى طلب الصواب وآب إلى الوقوف على هذا الباب:

يا هذا، إنّك مهما جهلت ما الأشياء، فلست بجاهل أنّ العناية الأزلية والحكمة الإلهية لم تقض بأن تكون كلّ العلوم والصنائع والمعارف والحرف وأمثال ذلك عند كلّ واحد من الناس.

بل العناية قضت أن يكون الكلّ عند الكلّ، ولا يخلو الجميع من الجميع، لا أنّ الجميع عند كلّ واحد من الجميع.

هذه سنّة الله ـ كما ترى ـ في العباد والبلاد منذ بدء العالم ومن لدن عهد (آدم).

والشرعة والمنهاج في ذلك أن يرجع كلّ فاقد علمٍ أو صنعة أو حرفة إلى أهل الخبرة فيها وذوي المهارة بها، حتّى يعود من الاختلاف إليهم والتعويل في التعلّم عليهم واحداً منهم أو زعيماً في الفضل عنهم، وإلّا فلا مندوحة له عن التسليم ولا مناص له عن التقليد، فيجعل قولهم إلى الواقع طريقاً وبالاتّباع

← النسيم الذي يبشّر بانتعاش روح العربية وعود حياتها إلى عظامها الرفات التي ما زالت منذ أكثر من قرن تسعى سعيها المشكور في هذا السبيل من تمهيد السبل ونشر الكتب وفتح المدارس، حتّى أصبحت اليوم واللسان العربي هو لسان التعليم في أكثر مدارسها.

فحيّا الله (مصر) وأهلها، وحيّا العربية وقومها!

وللمصريّين المنّة بذلك على كلّ ناطق بالضاد من هذه العصور. (منه ﷺ).

(١) سورة ص ٣٨: ٨٨.

حقيقاً.

وإن أبى عن هذا وقد فاته ذاك فقد خرج عن قوانين الفطرة السليمة وموازين العقول المستقيمة.

وهذا ثالث الصنفين، وهو الذي لا يهمّنا أمره ولا يعنينا عرفانه ونكره، وليس قصد كلامنا إليه ولا تلهّفنا عليه، فإنّه قد اختار خطّة الجهل لنفسه وأبى إلّا مكابرة وجدانه وحسّه.

وبعدُ فأمره إلى الله (جلّ شأنه)، ف: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1].

أمّا أنت يا طالب الحقّ وخاطب الصدق وصادق العزم العاجز عن معرفة الإعجاز بنفسك القاصر عن الاستطالة إليها بذاتك، فلم يبق لك علينا في هذا الشأن من إثبات إعجاز القرآن إلّا أن ننبّهك على ما هو بديهيٌّ عندك حاضر لديك، يعترف لك به كلّ عالم وجاهل ودانٍ وفاضل، ولا تجد فيه لك مخالفاً ولا ترى لك عنه صاداً ولا صارفاً..

[إذعان العرب بإعجاز القرآن]

وهو ما أشرنا إليه غير مرّة من عجز العرب عن معارضته وإذعان بلغائهم بتناهي بلاغته، وأنّها فوق طوق البشر وأعلى من أن تنالها الفِكر، أو تدخل في مُنّة أحد أو مهنة عدد ذي عُدد.

وهذا ـ أعني: عدم معارضته العرب واعترافهم بالعجز وإذعانهم بالقصور ـ

---

(١) سورة القصص ٢٨: ٥٦.

أمر تشهد به الضرورة والبداهة، والخبر والعيان لم ينقل خلافه، ولم يختلف نقله، مع توفّر دواعي العرب ـ كما عرفت ـ على معارضته ومباهتته؛ لتوفّر دواعيهم على إسقاطه وحطّه، كتوفّر دواعي النقلة ـ لو كان ـ على نقله وضبطه، سيّما من الملل الخارجة التي لا تزال تتوخّى مطاعن هذا الدين وتتطلّبه بالتعيير والتأفين.

فانظر كيف بلغ الحال في الوضوح والقوّة في المقامين إلى حيث لم يبق مجال لأُولئك البلغاء من مهرة الكلام وفرسان البيان الذين هم شرّعوا شرائع البلاغة ورفعوا أعلام الفصاحة، وسنّوا للناس طرقها وأضاءوا أُفقها وسهّلوا سبلها.

فإنّهم ـ مع عظيم تلك القوّة وفسيح هاتيك القدرة ـ لم يقتدروا على تعمية الحال، والتكاذب على أنفسهم أو غيرهم بتلفيق ما يباهتون أنّه يقاربه أو يساويه أو يشبهه أو يضاهيه، مع ما كانوا عليه من شدّة الحنق والعصبية التي هي السبب الوحيد غالباً في غمط الحقّ وجحوده أو احتجابه عن عين شهوده.

كما لم يبق للنَقَلة والحفّاظ والحملة مجال لنقل غير الواقع في أمره، أو جعل فرية في شأنه من مراجعة أو ممانعة أو مناقضة أو معارضة، بل اتّفق النقل بأطراف نسبته الثلاث على ما فيه جلاء الشكّ وقلاع الشبهة ووضوح الحجّة.

فكم في تضاعيف الأخبار وتفاريق الأنقال ما يشهد لك به أقوى الشهادة ويهجم بك منه إلى منتهى العادة.

ولعلّك سمعت ما عن جماهير الجاهلية وجهابذة قريش، حيث تألّبوا غير مرّة وتحزّبوا وتعاهدوا على المعارضة وتعاقدوا، حتّى إذ تُليت عليهم بعض آياته وصدعت آذانهم بالحقّ زبر بيّناته ومعجز آياته، خرّوا بالإذعان على الأذقان وسجدوا وعن القيام بوفاء العهد قعدوا.

فنقضوا العهود، ومزّقوا البنود، وعزموا على السجود، وسجدوا للعزائم، ولزموا الطعن والضرب، ورأوا الاستبدال به عن المعارضة ضربة لازم.

وما أسلم منهم في مكّة قبل الهجرة من أسلم إلّا باستماع تلك الآيات، وبما أخذت منهم مأخذها تلك الكلمات.

استخبر التواريخ والسير، تخبرك عن مثل: إسلام (لبيد)، و (عمر بن الخطّاب) رضي الله عنه[1]، وأمثالهم من أكابر الصحابة قبل الهجرة ممّن سمع كلام الله فآمن وعرف به الحقّ فتطامن.

ولقد كان الصادع به (صلوات الله عليه) يدهش ألبابهم ويذهل عقولهم، فتعشو مشاعرهم وتعمى أبصارهم، فتارةً يزعمون أنّه شاعر، وأُخرى يقولون: كاهن، أو ساحر!

وما ذاك إلّا من تناهي الأمر في العظمة وتعاليه في الغرابة، فهم بين فزعة مدهشةٍ عجباً وروعة منعشةٍ طرباً.

أوَ ما أعثرك النظر، أو ما أوقفك السَير في السِير، أو ما تقدّم لك ما شاع وانتشر من قول (الوليد)، وهو من كبّار قريش وذوي الحصافة والفصاحة فيهم لقومه بني (مخزوم).

وقد فاضت هذه القصّة في كتب التواريخ[2]، واستفاضت بأنحاء شتّى وكيفيات مختلفة.

---

(١) انظر: السيرة النبويّة لابن حبّان ٨٦ ـ ٩٠، دلائل النبوّة للبيهقي ٢: ٢١٥ ـ ٢٢٢، المنتظم ٤: ١٣٣ ـ ١٣٤، الكامل في التاريخ ٧: ٥٧ ـ ٥٩، البداية والنهاية ٣: ٣١، خزانة الأدب ٢: ٢١٦، سمط النجوم العوالي ٢: ٤٧١.

(٢) راجع: السيرة النبويّة لابن هشام ١: ٣٠٦ ـ ٣٠٧، إعلام الورى ١: ١١٠ ـ ١١٢، البداية والنهاية ٣: ٦٠ ـ ٦١.

وقد أوردها شيخنا العلّامة (الطبرسي)[١] ﷺ في (مجمع البيان)[٢]، أجلّ تفسير للإمامية، بل لو قلت: أفضل ما باليد من تفاسير الإسلام، لم أكن مبعداً! يعرف ذاك من نظر فيه واستقصى خبره.

وقد سردها هو على وجهها وتفاصيلها في ذلك الكتاب، ولكن اختزل منها صاحب (الكشّاف) الثقة الثبت والجهبذ البحث قدراً فيه لمحلّ الحاجة كفاية.

حيث قال في قوله (تعالى): ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[٣] إلى قوله (عزّ شأنه): ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[٤]:

(روي: أنّ الوليد قال لبني مخزوم: أما والله، لقد سمعت من محمّد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ! إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو ولا يعلى عليه.

---

(١) أبو علي أمين الدين الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، المفسّر والعلّامة الكبير. مولده في عشر السبعين وأربع مائة هجرية. كان من أجلاء علماء الإمامية، فقيهاً محدّثاً محققاً لغوياً مفسّراً متبحّراً. روى عن: أبي علي ابن أبي جعفر الطوسي، وعبد الجبّار بن عبدالله الرازي، ومحمّد بن الحسين الجرجاني، ومهدي بن نزار الحسيني، وآخرين. وروى عنه جماعة من العلماء، منهم: ولده أبو نصر الحسن، وابن شهرآشوب، وقطب الدين الراوندي، وفضل الله بن علي الحسني، وشاذان بن جبرائيل القمّي. من مؤلّفاته: مجمع البيان، جوامع الجامع، إعلام الورى بأعلام الهدى، تاج المواليد، الفائق، غنية العابد ومنية الزاهد، وغيرها. فوّضت إليه مدرسة باب العراق ببيهق، فأقام بها إلى حين وفاته سنة ٥٤٨ هـ، وحمل تابوته إلى مدينة مشهد، فدفن عند مغتسل الإمام الرضا عليه السلام.

(فهرست منتجب الدين ١٤٤ ـ ١٤٥، نقد الرجال ٤: ١٩، أمل الآمل ٢: ٢١٦ ـ ٢١٧، رياض العلماء ٤: ٣٤٠ ـ ٣٥٩، روضات الجنّات ٥: ٣٥٧ ـ ٣٦٥، هدية العارفين ١: ٨٢٠، أعيان الشيعة ٨: ٣٩٨ ـ ٤٠١).

(٢) مجمع البيان ١٠: ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٣) سورة المدّثر ٧٤: ١٨ ـ ١٩.

(٤) سورة المدّثر ٧٤: ٢٤ ـ ٢٥.

فقالت قريش: صبا ـ والله ـ الوليد، والله لتصبأنّ قريش كلّهم!

فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه.

فقعد إليه حزيناً، وكلّمه بما أحماه.

فقام فأتاهم، فقال: تزعمون أنّ محمّداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق؟! وتقولون: إنّه كاهن، فهل رأيتموه يتكّهن؟! وتزعمون أنّه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟! وتزعمون أنّه كذّاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟! فقالوا في كلّ ذلك: اللّهمّ لا.

ثمّ قالوا: فما هو؟ ففكّر، فقال: ما هو إلّا ساحر! أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟! وما الذي يقوله إلّا سحرٌ يؤثره عن مسيلمة وعن أهل بابل!

فارتجّ النادي فرحاً، وتفرّقوا معجبين بقوله متعجّبين منه)[1] انتهى.

وما عجبي وتعجّب كلّ ذي فطانة ونصف إلّا من استقامته واعوجاجه واحتجاجه ولجاجه!

انظر كيف أبصر الحقّ، ثمّ تعامى! وكيف خاض في الجهل وعاما!

فقل له: أيّها الوليد الغرّ والعازب عن حصافة الفكر! لو كان ثمّة شيء من السحر تعلّمه (محمّد) ﷺ من أهل بابل، فلِمَ لا تعلّمه منهم غيره؟!

ولماذا لم ينكشف لسائر الناس سرّه ويظهر لهم ـ كما ظهر لك ـ أمره؟!

وأين كان هذا المجلس السرّي والمدرّس السحري الذي تردّد إليه (محمّدٌ) ﷺ وحده، وصار فيه نسيج وحده[2]؟! وهو النور الذي لا تواريه

---

(١) الكشّاف ٤: ٦٤٩.

(٢) هذا مثل. يقال: فلان نسيج وحده، أي: لا نظير له. وأصله الثوب النفيس لا يُنسج على منواله غيره معه، بل يُنسج وحده. (جمهرة الأمثال ٢: ٣٠٣).

السجوف[١] والبدر الذي لا يسري إليه السرار[٢] والكسوف. قد ضبط كلّ قومه جميع تنقّلاته وأطواره منذ نعمت الدنيا بالظفر في نعومة أظفاره.

ولِمَ لا فزعت قريش إلى أهل بابل في حلّ سحره وإبطال مكره؟! وليت شعري (مسيلمة) هذا، أهو (مسيلمة الكذّاب) النابغ في قومه بما يزعمه قرآناً من مثله قوله: (ضفدع بنت ضفدعين! نِقّي ما شئت أن تنقّين! أعلاك في الماء وأسفلك في الطين)! وقوله: (والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً!)[٣].

فإن كان هذا هو الذي عناه فقد رضينا (بالوليد) بل بالطفل حَكَماً!

وما الغرض في نقل كلامه بيان ضعف خصامه وضعة أوهامه، واختلال ما تخيّله وإحالة ما تمحّله، بل الغرض بيان اندهاش لبّه وانذهال عقله، وارتباكه في الحيرة واشتباكه في الشبهة، فصار يحيل في كلامه ويتناقض في دعاويه وأحكامه، حيث وصف (محمّداً) ﷺ أوّلاً بالصدق والصيانة، ثمّ وصمه ـ معاذ الله ـ بأعظم الخيانة!

وهو في كلّ ذلك كقومه غير شاعر بسوء سومه وحيف حكمه وحزّ حزمه.

نعم، وكلّما ازدادت المعرفة واشتدّت في الشيء المهارة وتقوّى الحذق واللباقة، وجاء الشيء باهراً في صنعته فائقاً في نظائره متعالياً في سموّه ونموّه وخصائصه وتميّزه، اشتدّ العجب به والتبهّر والاستحسان له والتحيّر.

---

(١) السجف: الستر. (القاموس المحيط ٣: ١٥٥).

(٢) السِرار: يوم يستسرّ فيه الهلال، آخر يوم من الشهر أو قبله. (العين للفراهيدي ٧: ١٨٧).

(٣) لاحظ: تاريخ الطبري ٣: ١٣٤، إعجاز القرآن للباقلاني ٢١١، الكامل في التاريخ ٢: ٢٤٤، البداية والنهاية ٦: ٣٢٦، تاريخ آداب العرب ٢: ١٧٥.

فحظّ كلّ امرئٍ من استحسان كلّ شيء وعدم استحسانه، حظُّه من إدراكه فيه وعرفانه.

ولذا لا تجد فينا عند سماع القرآن شيئاً ممّا ينقل عن عرب الجاهلية إذا سمعوه، على إيماننا به وجحودهم له.

وما ذاك إلّا للتفاوت في معرفة الكلام وشؤون أساليب البلاغة.

فتفهّم هذا الأمر الجلي وتنبّه له.

وقصوى الغرض من كلامه وشاهد آخر في قوله اعترافُه ـ وهو ممّن لا ترتاب في أنّه من أخبر أهل الخبرة وأدرى ذوي المهارة والدربة ـ مذعناً بأنّه ليس من كلام الجنّ ولا الإنس، وأنّه ليعلو ولا يُعلى عليه.

وهذا هو الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، وهو الإعجاز الذي نحن في صدد إثباته لك أيّها العاجز عن نيله المتقاصر عن طوله، الذي ذكرنا أنّ وظيفتك الرجوع فيه إلى أهل الخبرة والسؤال من ذوي المعرفة.

وحيث إنّ أقلّ ما يكفيك من ذلك البيّنة ـ وهي تحتاج إلى التعدّد ـ فليكن هذا أحد الشاهدين عندك، وإلزم فيه حدّك.

فإنّ هذا (الوليد) شيخ من شيوخ هذه الصناعة، وقد جبل الله عليها ذوقه وطباعه.

وليس هو من المسلمين حتّى تقدح بشهادته أو تتّهمه في مقالته، كما أنّه ليس لك حقّ الجرح والتعديل، ولا إليك التصديق والتكذيب، بل تعوّل في ذلك أيضاً على أهل الخبرة في الحديث وصيارفة الأخبار ونقدة الآثار الذين أفنوا في ضبطها أعمارهم وصرفوا في جمعها ليلهم ونهارهم.

وليس من النصف والتكرّم ولا من أدب الاستفادة والتعلّم أن تسارع إلى

تكذيبهم وأنت ما أصبت من الطلب والفضل إلّا صُبابةً من نصيبهم، فالتسليم لهم أسلم والاستقامة على تصديقهم ـ فيما قام عليه الاعتبار ـ أقوم.

ثمّ لم يزل الحال على هذا المنوال من حين نزوله وظهوره وانتشار أشعّة نوره إلى يومك هذا.

[إذعان الكتّاب والبلغاء بإعجاز القرآن]

وأبيك! ما جاء متملّك للبراعة متمكّن من الصناعة عينٌ في العربية وجيه في الفنون الأدبية قائد لكتائب الكتّاب وحيد في النظم والنثر وسائر الآداب، إلّا وجدته ـ على حسب حظّه من تلك الخطّة وكماله من تلك المنزلة ـ مرتفعاً في المعرفة بإعجازه واليقين بمعجزته وإعوازه وإن كان من الديانة ذو حظٍّ نزر ومن الحنق عليه في نظر شزر.

والكتاب (أعزّه الله) لا يشتدّ إلّا شرفاً وظهوراً ولا يزداد على مريدي إطفاء نوره إلّا نوراً، قد أمن من معارّ معارضيه وعلا على مقارّ مقارضيه.

أنت لا تعدّ ولا تعتدّ من أعلام العربية ومشاهير الكتّاب وزعمائهم بأمثل من: (ابن المقفّع)[1] و(عبد الحميد)[2]، و(عمرو بن عثمان الجاحظ)[3]، وأمثالهم من الطبقة الأُولى، وَكـ(بديع الزمان)[4]، و(الخوارزمي)[5]، و(الصاحب)[6]،

(١) تقدّمت ترجمته في ص٢٠٢ هـ ٢.

(٢) تقدّمت ترجمته في ص٢٠٢ هـ ١.

(٣) تقدّمت ترجمته في ص٢٠٢ هـ ٤.

(٤) تقدّمت ترجمته في ذيل صفحة ٧٤ وص٢٣٥ هـ ١.

(٥) تقدّمت ترجمته في ص٢٣٤ هـ ٣.

(٦) تقدّمت ترجمته في ص٢٣٥ هـ ٢.

و(الصابي)[١]، و(المتنبّي)[٢]، و(المعرّي)[٣]، وأمثالهم من الشعراء والأُدباء في الطبقة الثانية.

[المتّهمون بالزندقة ومعارضة القرآن]

والذي يتطرّق إليه احتمال المعارضة ويقبل الاعتبار أن يتهجّم على المقابلة أفرادٌ من هؤلاء قد قُذفوا بالزندقة واتّهموا بسوء العقيدة.

وإن كنت غير واثق بتحقّق ذلك فيهم، بل لا أودّ إلّا أن أُنزّههم من هذه الوصمة وأبرّأهم من تلك التهمة.

وقد بحثنا في ذلك على وجهه في كتابنا الموسوم (بمغني الغواني عن الأغاني) الذي هذّبنا فيه كتاب (أبي الفرج الأصبهاني)[٤].

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحرّاني الصابئ، نابغة كتّاب جيله. كان أسلافه يعرفون بصناعة الطبّ، ومال هو إلى الأدب، فتقلّد دواوين الرسائل والمظالم والمعاون تقليداً سلطانياً في أيّام المطيع لله العبّاسي، ثمّ قلّده معزّ الدولة الديلمي ديوان رسائله سنة ٣٤٩ هـ، فخدمه وخدم بعده ابنه عزّ الدولة بختيار، فكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة ابن عمّ بختيار بما يؤلمه، فحقد عليه. ولمّا قُتل عزّ الدولة وملك عضد الدولة بغداد قبض على الصائب وأودعه السجن وصادر أمواله، ولمّا ولّي صمصام الدولة أطلقه من حبسه سنة ٣٧١ هـ، بعد أربع سنوات من السجن. كان صلباً في دين الصابئة، عرض عليه عزّ الدولة الوزارة إن أسلم فامتنع. وكان يحفظ القرآن ويشارك المسلمين في صوم رمضان، وكانت له علاقة طيّبة بالصاحب بن عبّاد. له: كتاب التاجي، وكتاب في أخبار أهله، والهفوات النادرة، وديوان شعر. توفّي سنة ٣٨٤هـ.
(يتيمة الدهر ٢: ٢٨٧ ـ ٣٦٨، معجم الأُدباء ٢: ٢٠ ـ ٩٤، وفيات الأعيان ١: ٥٢ ـ ٥٤، تاريخ أبي الفداء ١: ٤٧٣ ـ ٤٧٤، سير أعلام النبلاء ١٦: ٥٢٣ ـ ٥٢٤، البداية والنهاية ١١: ٣١٣، شذرات الذهب ٣: ١٠٦ ـ ١٠٧، هدية العارفين ١: ٧).

(٢) تقدّمت ترجمته في ص١٠٢ هـ٣.

(٣) تقدّمت ترجمته في ص١٠٣ هـ١.

(٤) أبو الفرج علي بن الحسين بن محمّد بن أحمد بن الهيثم القرشي الأُموي الأصفهاني، الكاتب المعروف. ولد

←

وذلك عند ترجمة (مطيع بن إياس)[١] الذي تتأكّد في حقّه هـذه النسـبة وتلتصق به كلّ اللصوق تلك المسبّة.

ولكن قد اشـتهرت عـن جـملة مـن أُولئك الأعـلام، كـ(ابـن المـقفّع)، و(الجاحظ)، و(المتنبّي)، و(المعرّي).

أمّا (ابن المقفّع) فقد ذكر الشيخ الخرّيت القاضي (الباقلاني)[٢]: أنّه رمي بمعارضة القرآن، ولم يوجد له شيء في الخارج منه، فسُئل عـن ذلك، فـقال: (صنعت، ثمّ قابلته مع القرآن، فـاستحييت مـن نـفسي، ومـزّقته قـبل أن يـراه أحد)*.

← سنة ٢٨٤ هـ، وكان بصيراً بالأنساب والسير جيّد الشعر، عبّر عنه الذهبي بقوله: (كان بحراً في نقل الآداب). سمع: مطيّناً، ومحمّد بن جعفر القتّات، وأبا الحسين بن أبي الأحوص، وأبا بكر بن دريد، وجحظة، ونفطويه، وخلائق. وحدّث عنه: الدارقطني، وإبراهيم بن أحمد الطبري، وعلي بن أحمد بن داود الرزّاز، وآخرون. كان ملازماً للوزير المهلبي، وله فيه مدائح، وله تشيّع كما قيل. من مصنّفاته: الأغاني، مقاتل الطـالبيين، الإمـاء الشواعر، آداب الغرباء، أيّام العرب. توفّي ببغداد بعد أن خلط سنة ٣٥٦ هـ، وقيل: سنة ٣٥٧ هـ.

(فهرست ابن النديم ١٤٤ ـ ١٤٥، تاريخ أصفهان ١: ٤٤٧، الفهرست ٥٤٤ ـ ٥٤٥، معجم الأُدبـاء ١٣: ٩٤ ـ ١٣٦، سير أعلام النبلاء ١٦: ٢٠١ ـ ٢٠٣، ميزان الاعتدال ٣: ١٢٣ ـ ١٢٤، نسمة السـحر ٢: ٣٧٥ ـ ٣٨٢، روضات الجنّات ٥: ٢٢٠ ـ ٢٢٦، هدية العارفين ١: ٦٨١).

(١) أبو سلمىٰ مطيع بن إياس الكناني، شاعر من مخضرمي الدولتين الأُموية والعبّاسية. كان ظريفاً مـاجناً مـليح النادرة متّهماً بالزندقة، مولده ونشأته بالكوفة، وأصل أبيه من فلسطين. مدح الوليد بن يزيد ونادمه في العصر الأُموي، وانقطع في العصر العبّاسي إلى جعفر بن المنصور، فكان معه إلىٰ أن مات. وكان صديقاً لحمّاد عجرد الشاعر وحمّاد الراوية. أقام ببغداد زمناً، وولاّه المهدي العبّاسي الصدقات بالبصرة، فتوفّي فيها سنة ١٦٦ هـ.

(الأغاني ١٣: ٢٧٥ ـ ٣٣٧، أمالي المرتضىٰ ١: ٩٨ ـ ١٠٠، تاريخ بغداد ١٣: ٢٢٥ ـ ٢٢٦، سمط اللآلي ٦٠٠، تاريخ مدينة دمشق ٥٨: ٣٦٧ ـ ٣٧٢، لسان الميزان ٦: ٥١ ـ ٥٢، الأعلام للزركلي ٧: ٢٥٥).

(٢) في كتابه: إعجاز القرآن ٦١.

(*) وقال في الشفا: (حكي أنّ ابن المقفّع ـ وكان أفصح وقته ـ طلب ذلك ورامه وشـرع فـيه، فـمرّ بـصبي يـقرأ: ←

وأمّا (الجاحظ) فكلماته في (البيان والتبيين) و(الحيوان) تشعر بخلاف ذلك[١]، وأنّه أوحد الناس بمعرفة إعجاز القرآن وخواصّه ومزاياه، وأنّه ممّن ليس له عن التوحيد محيد.

وأمّا (المتنبّي) الذي شاع واشتهر ادّعاؤه للنبوّة وتحدّيه بمثل القرآن بزعمه من المعجزة[٢]، ولكن ذكر (السيف المنبي عن أحوال المتنبّي): أنّه لمّا سئل عن الكلمات المنسوبة إليه في ذلك من مثل قوله: (والفلك الدوّار، والكوكب السيّار، والليل والنهار!) إلى آخر ما هو معروف عنه من هذه المزخرفات، أنكرها، وقال: (إنّها ممّا قذفني بها أعدائي، وإنّي قد تنبّأت على

← ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ﴾ الآية، فرجع، ومحى ما عمل، وقال: إنّ هذا لا يعارض، وما هو من كلام البشر).

وحكى نظير ذلك عن (يحيى بن حكم الغزال) بليغ الأندلس، وأنّه نظر في سورة الإخلاص، فاعترته خشية ورقّة، حملته على الإنابة والتوبة. (منه رحمه الله).

أقول: راجع الشفا للقاضي عياض ١: ٢٢٨، بالإضافة إلى: معترك الأقران ١: ٢٤٣ ـ ٢٤٤، نفح الطيب ٣: ٢٧.

أمّا الغزال فهاك ترجمته: يحيى بن الحكم البكري الجياني المعروف بالغزال، شاعر وحكيم وعرّاف الأندلس. امتاز نظمه الجيّد الحسن بالفكاهة المستملحة، وكان جليل القدر مقرّباً من أُمراء الأندلس وملوكها من بني أُمية، أرسله الأمير عبد الرحمان بن الحكم المرواني رسولاً إلى ملك الروم، فأعجبه حديثه وخفّ على قلبه، فطلب منه المنادمة، فامتنع من ذلك واعتذر بتحريم الخمر. وكان موصوفاً بحدّة الخاطر وبديهة الرأي وحسن الجواب والنجدة والإقدام. وقد نفي في إحدىٰ المرّات إلىٰ العراق، بعد أن أقذع في هجاء علي بن نافع المعروف بزرياب. له ديوان شعر. توفّي سنة ٢٥٠ هـ عن عمر ناهز الستّ والتسعين سنة.

(المغرب في حلى المغرب ١: ٣٢٤ و٢: ٥٧ ـ ٥٨، نفح الطيب ٣: ٢٠ ـ ٢٨، الأعلام للزركلي ٨: ١٤٣).

(١) لاحظ: البيان والتبيين ١: ٧ ـ ٩ و١١ و١٢ و١٩ و٢٠ ـ ٢٢، الحيوان للجاحظ ١: ٩٤، ٣٤٨ و٣: ٨٦ و٦: ٢١٤. وراجع ما حُكي عن الجاحظ حول إعجاز القرآن في تاريخ آداب العرب ٢: ١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) راجع: رسالة الغفران ١٩٦ ـ ١٩٧، تاريخ آداب العرب ٢: ١٨٣ ـ ١٨٤.

الشعراء في المعاني الشعرية لا بادّعاء النبوّة الإلهية)، فاعتذر بهذا ومثله[١].

نعم، الزندقة وضعف العقيدة ليست منه ـ على ما يظهر من أكثر شعره ـ ببعيدة.

ولكن هو ـ على علاته ـ لم يكن ليخفى عليه ـ وهو بتلك المنزلة من الفصاحة والبلاغة ـ ما للقرآن من الشأو البعيد والشأن المشيّد الذي لا يُدرك ولا يُلحق ولا يُجارى ولا يُمارى، ولكن العُجب والغرور يغريان النفس بكلّ شرّ من الشرور.

وأمّا (المعرّي) وهو أقرب الجميع إلى هذه المعرّة، وأكثر من لهجت الألسن بأنّه لهج بهذه النعرة، وكلماته وأشعاره الصريحة والمشيرة إلى ذلك قد فاتت حدّ الشهرة. وقد أنصف (الباخرزي)[٢] وتوسّط في أمره عند ترجمته بقوله: (ضريرٌ ما له في أنواع الأدب ضريب)[٣].

حتّى قال: (قد طال في ظلال الإسلام أناؤه، ولكن ربّما ترشّح بالإلحاد إناؤه، وعندنا خبر بصره، والله أعلم ببصيرته، والمطّلع على سريرته. وإنّما تحدّثت الألسن بإسائته لكتابه الذي زعموا أنّه عارض به القرآن وعنونه

---

(١) انظر المصدرين المتقدّمين.

(٢) أبو القاسم علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيّب الباخَرزي النيسابوري، الشاعر والفقيه الشافعي. تفقّه بأبي محمّد الجويني، ثمّ برع في الإنشاء والآداب، فصار من كبار كتّاب الإنشاء في عصره، وسافر كثيراً، وسمع الحديث. له ديوان كبير ونظم رائق، كما ألّف كتاب دمية القصر وعصرة أهل العصر. قتل بباخرز سنة ٤٦٧ هـ. (الأنساب للسمعاني ١: ٢٤٨، معجم الأُدباء ١٣: ٣٣ـ٤٨، وفيات الأعيان ٣: ٣٨٧ـ٣٨٩، سير أعلام النبلاء ١٨: ٣٦٣ـ٣٦٤، مرآة الجنان ٣: ٧٣، طبقات الشافعية الكبرى ٥: ٢٥٦ـ٢٥٧، شذرات الذهب ٣: ٣٢٧ـ٣٢٨، هدية العارفين ١: ٦٩٢).

(٣) دمية القصر ١: ١٥٧.

بالفصول والغايات في مجاراة السور والآيات، وأظهر من نفسه تلك الهوسات، [وجذّ] كما تجذّ العير الصلبانة)[١] (كذا)[٢].

أقول: وقد شاع وتكثّر ذكر كتابه هذا في كتب التاريخ والأدب[٣].

وممّا نقلوا منه قوله: (أُقسم بخالق الخيل، والريح الهابّة بليل بين الشرط ومطالع سهيل، أنّ الكافر لطويل الويل، وأنّ العمر لمكفوف الذيل! اتّقِ مدارج السيل، وطالع التوبة من قُبيل، تنج وما أخالك بناجٍ!)[٤].

وقد جعل مثل قوله (بناج) هو الغاية، وما قبله هو الفصل، فيورد الفصل، ثمّ يختمه بالغاية على روي سائر الحروف الهجائية.

استقبل أنت بهذا الكلام ما شئت من الكتاب الكريم من المقامات المشتملة منه على هذه المعاني التي أرادها من قسم أكيد ووعد للكافر ووعيد، وفناء الدنيا وقصر الأعمار ولزوم السبق والبدار، إلى التقوى والتوبة قبل وصول النوبة.

---

(١) لاحظ نفس المصدر السابق.

ولكن ورد: (رشح) بدل: (ترشّح)، و: (العالم) بدل: (أعلم)، و: (محاذاة للسور) بدل: (في مجاراة السور)، و: (الخيانة) بدل: (الهوسات)، و: (الصليّانة) بدل: (الصلبانة).

(٢) باعتقادي أنّ لفظة: (كذا) إنّما جاءت من تصوّر أنّ التعبير هو: (الصلبانة)، وفي الواقع التعبير هو: (الصليّانة).

يقال: جذّها كما تجذّ العير الصِليّانة. وهو مثل يضرب لمن يسرع الحلف من غير تتعتع وتمكّث. والجذّ: القطع والكسر، والصليّانة: ضرب من النبات ربّما اقتلعه العير من أصله إذا ارتعاه. (جمهرة الأمثال ١: ٣١٩).

والعرب تسمّي الصليّانة: خبزة الإبل. (لسان العرب ٧: ٤٠٠).

(٣) قارن: تاريخ بغداد ٤: ٢٤١، معجم الأُدباء ٣: ١٤٠، سير أعلام النبلاء ١٨: ٣١ و٣٦، لسان الميزان ١: ٢٠٦، دائرة المعارف الإسلامية ١: ٣٨٢، تاريخ آداب العرب ٢: ١٨٥.

(٤) انظر المصادر المتقدّمة.

ثمّ انظر هل تجد بينهما من النسبة والقياس ولو كنسبة بيت العناكب إلى شمّ الأهاضب أو نار الحباحب إلى النيّرات الثواقب ؟!

ثمّ انظر كيف ضربت على تلك الفصول الفهاهة والفجاجة، وكيف أخذت بها البرودة والسماجة، وكيف اضطرّه الإعواز والحاجة إلى هذه القوافي السخيفة، مثل: (قُبيل، ومكفوف الذيل، والريح الهابّة بليل)، مع ضعف التراكيب وسوء الأساليب، وانحلال المباني واختلال المعاني، وقبح الاستعارة في (مكفوف الذيل) ومطالعة التوبة، إلى كثير من أمثال ذلك ؟!

ولكن هذا الذي هو بتلك المثابة من الاتّهام بضعف الديانة وسوء البطانة، قد ثاب إلى الحقّ وآب إلى الصواب ونطق بالصدق، وانكشفت عنه العماية واتّضحت له سبل الهداية، وكفّر سيّئة كفرانه وتعرّض لمهابّ عفو الله وغفرانه.

فقال في (رسالة الغفران) عند كلامه على الزنادقة والملحدين وشنائعهم، ومنهم (ابن الراوندي)[1] الزنديق الذي صنّف (التاج)[2] وتعرّض فيه للقرآن.

---

(١) أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق بن الراوندي، فيلسوف ملحد. أصله من أصفهان، سكن بغداد، وكان غاية في الذكاء، وله مجالس ومناظرات مع جماعة من علماء الكلام، وقد انفرد بمذاهب نقلوها عنه في كتبهم. وكان أوّلاً من متكلّمي المعتزلة ثمّ تزندق واشتهر بالإلحاد، وكان يصنّف كتب الإلحاد بطلب من بعض اليهود كابن لاوي الأهوازي وغيره مقابل حفنة من حطام الدنيا. له نحو (١١٤) كتاباً منها: فضيحة المعتزلة، التاج، الزمرّد، نعت الحكمة، الدامغ، قضيب الذهب، وغيرها. وقد ردّ عليه جماعة من العلماء كابن الخيّاط في كتابه الانتصار. مات بين الرقّة وبغداد سنة ٢٩٨ هـ، وقيل: صلبه أحد سلاطين بغداد.

(رسالة الغفران ٢١٩ ـ ٢٢١، وفيات الأعيان ١: ٩٤، البداية والنهاية ١١: ١١٢ ـ ١١٣، لسان الميزان ١: ٣٢٣ ـ ٣٢٤، الكنىٰ والألقاب ١: ٢٨٧ ـ ٢٨٨، الأعلام للزركلي ١: ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

(٢) كتاب: (التاج) يحتجّ فيه صاحبه لقدم العالم وأنّه ليس للعالم صانع ولا مدبّر ولا محدث ولا خالق. أمّا كتابه الذي يطعن فيه على القرآن فاسمه: (الدامغ). قالوا: إنّه وضعه لابن لاوي اليهودي، وطعن فيه على نظم القرآن.

←

قال (المعرّي) فيه ما نصّه :

(وأمّا ابن الراوندي فلم يكن إلى المصلحة بمهدي !

وأمّا تاجه فلا يصلح أن يكون نعلاً ! ولم يجد من عذاب وعلاً ، أي : ملجأ ...

وهل تاجه إلّا كما قالت الكاهنة : أُفّ وتُفّ ، وجورب وخُفّ !)[١].

ثمّ أطال في تفنيده ، إلى أن قال :

(بئس ما نسب إلى راوند ، فهل قدح في دباوند ! إنّما هتك قميصه وأبان للناظر خميصه ، وأجمع ملحدٌ ومهتدٍ وناكب عن الحجّة ومقتدٍ .

إنّ هذا الكتاب الذي جاء به (محمّد) ﷺ كتاب بهر بالإعجاز ولقي عدوّه بالأرجاز[٢] ، ما حذي على مثال ولا أشبه غريب الأمثال ، ما هو من القصيد الموزون ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ذوي الأرب ، وجاء كالشمس اللامحة نوراً للمسرّة والبائحة[٣] ، لو فهمه الهضب الراكد لتصدّع أو الوعول المعصمة لراق الفادرة والصدَع* : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤] .

← وقد نقضه عليه [ابن] الخيّاط وأبو علي الجبّائي.

(تاريخ آداب العرب ٢: ١٨٢) (الهامش الثالث).

(١) رسالة الغفران ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) الأرجاز : العذاب. (جمهرة اللغة ١: ٤٥٦).

(٣) البائحة : الجلية الظاهرة. (صحاح اللغة ١: ٣٥٧).

(*) الفادرة : الوعل ، أو الصخرة العظيمة ، شبّهت به. والصدع محرّكة من الوعل : الشابّ القوي. (منه رحمه الله).

أقول: بالنسبة للمعنىٰ المذكور للّفظ الأوّل لاحظ القاموس المحيط ٢: ١١٢، وبالنسبة للثاني لاحظ تاج العروس ٢١: ٣٢٥.

(٤) سورة الحشر ٥٩: ٢١.

وإنّ الآية أو بعض الآية لتعرض في أفصح كلام يقدر عليه المخلوقون، فيكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق والزهرة البادية في جدوب ذات نسق، فتبارك الله أحسن الخالقين)[1] انتهى.

ولو ذهبت إلى أن أجري بك هذا المجرى وأسري فيك على هذا المسرى، وأسرد لك أمثال هذه الكلمات وأنتهي بك إلى أمثال هذه الغايات، لخشيت أن تقول: إنّي أسرفت في القول وأطلت بغير طائل ولا طول.

كيف! والبيّنة قد تمّت، والحجّة قد لزمت.

[تتمّة المبحث السابق، وبيان مزايا القرآن]

نعم، وإن كنت للحقّ طالباً وللعناد مجانباً، ولاحظت ما ذكرناه من كلمات القوم وفحول الرجال بضميمة الاعتبار وقرائن الأحوال، لا جرم يحصل لك الجزم واليقين بإعجاز هذا الكتاب المبين، وأنّه أعظم من معجزات عامّة النبيّين، كما سيتّضح لك مزيد ذلك من كثب إن شاء الله.

ولو لم يكن من عالم إلهي ومصدر غيبي لانحلّ وشيكاً ولبطل أمره سريعاً، كما زال وبطل كتاب (مسيلمة) وغيره من مدّعي النبوّة.

وأنا أعترف لك بأنّ هذه قرائن وأحوال لا براهين واستدلال، ولكن أوردتُها حيث إنّ وجه الخطاب إليك أيّها العاجز عن معرفة الإعجاز والواقف دون الحقيقة على مجاز المجاز.

---

(١) رسالة الغفران ٢٢١. وورد: (الكهنة) بدل: (الكهانة)، و: (اللائحة) بدل: (اللامحة)، و: (التعترض) بدل: (لتعرض)، و: (فتكون) بدل: (فيكون). ووردت زيادة: (منه) بعد: (إنّ الآية).

وما أكثر من يحصل له بالتقريب من العلم واليقين ما لا يحصل له من ترتيب الأدلّة والبراهين !

ألا وإنّ حجّة الله (جلّ شأنه) على عباده لا تحتاج إلى أكثر من هذا البيان ، ولا تتوقّف على أن يقف المرء على حلّ جذر الأصمّ أو معرفة العلم الطبيعي وسمع الكيان .

ونحن نظنّ أنّا قد أقمنا الحجّة ـ بمعونة الله ـ على كلا الصنفين ، ونصبنا أعلام الحقّ للسائرين شاخصة لمرايا العقول بمرأى العين .

والتوفيق ليس من صنعنا ولا في حيّز قدرتنا ، ولكنّنا نسأل وليّه الجواد أن يمنّ به على عامّة العباد ، إنّه الجواد الذي لا يبخل ، الكريم بما يُسأل وما لم يُسأل .

وحيث قد محضتك النصيحة ومخضت لك الزبدة من كلّ روب وشوب[1] وصفّيت لك سجال البيان من كلّ صوب ، فقد صرت حقيقاً بأن أكفّ عنك أذيال المقال وألفّ ما نشرته عليك ممّا قصر منه وطال ، ولكن لا أجدني أقنع لك بهذا المقدار أو يتجلّى الأمر لديك تجلّي الشمس في رائعة النهار .

يا هذا ، إنّ أعظم الآيات وأُمّ المعجزات في القرآن الكريم شيء وراء ما ذكرناه من إعجازه وبلاغته وبديع أُسلوبه وأشباه ذلك ممّا مرّ عليك أقلّ قليله وبعض قبيله .

إنّ أقوى البيّنات على الشيء أن تكون البيّنة من سنخ الدعوى .

---

(١) الشوب : الخلط ، والروب : تخثّر اللبن وإدراكه . يقال : ما عنده شوب ولا روب ، أي : لا مرق ولا لبن . (صحاح اللغة ١ : ١٤٠ و١٥٨).

مثل ذلك: أنّه لو جاء رجل فادّعى الحذاقة والمهارة في الطبّ، فطولب ببيّنة على دعواه وآية تدلّ على صدق ما انتحله وانتحاه، فعزم على إثبات صحّة ما ادّعى وإظهار ما جمع ووعى:

فتارةً يقول: إنّ آية ذلك أنّي أمشي على الماء وأصعد في الهواء، وما أشبه ذلك من خوارق العادات وعجائب الحادثات، ثمّ فعل ذلك، فإنّه لا يشكّ أحد ـ حسب العادة ـ بصدقه والتعويل على قوله وتسليم النفس إلى علاجه وإصلاح مزاجه قبل الاطّلاع على حذاقته في دعوىٰ طبابته، على أنّ دليله لم يكن من سنخ دعواه ولا من جنس ما أعرب عن نفسه وحكاه.

وتارةً يقول: إنّي أُعالج هذا الحيوان الذي قد أشفى وأُعافيه وقد عفى من الحياة واستعفى، ثمّ تعدّد منه ما اعتدّه من ذلك لمن استدارت به هالة المهالك، وإنّ تلك الآية وإن كانت أعجب وأرغب، ولكن مثل هذه بالدعوى ألصق وإليها أقرب، بل قد صارت الدعوى بنفسها دليلاً على نفسها وبرهاناً على صدقها وصحّتها.

ومعجزة نبيّنا ﷺ في هذا الفرقان العزيز والسجل الوجيز قد فاق معجزات جميع الأنبياء بهذه الصفة وامتاز بتلك الخاصّة.

فإنّ صاحب هذه الشريعة (أعزّ الله به دينه وأعمر بها أرضه) قد جاء إلى هذه الأُمّة الضالّة التائهة في أودية الجهالة وسوء الأخلاق ورفض العلوم والحرمان من العارف، فادّعى أنّه (صلوات الله عليه) رسول من الله إليهم؛ لإصلاح فاسدهم وتقويم معوّجهم ومنآدهم[1]، وقال: إنّ معجزتي وآيتي على

(١) المنآد: المائل. (جمهرة اللغة ٢: ٦٨٦ و١٠٦٢).

صحّة ما أقول وصدق ما انتحل هذا الكتاب الذي أرسله معي مرسلي إليكم، وقد أودع فيه قوانين صلاحكم وأسباب نجاحكم ومـوادّ فـلاحكم، فـانظروا فـيه تجدوه شاهد صدق على ما أقول وبيّنة عادلة لا يسوغ عند العقل عنها العدول.

فهل يعذر الإنسان نفسه حيث يكون من ذوي الحصافة والرأي الرائع دون أن ينظر في ذلك الكتاب نظر الفاحص الباحث، لا المتعنّت العائث، نظر طـالب الضالّة وفاقد الدالّة ومقتبس الهدى وملتمس الصواب، لا نظر من اعتدّ واعتمد وجدّ واجتهد وأيقن ـ بعقد القلب منه قبل الخوض فيه ـ على ضلاله ـ والعياذ بالله ـ وبطلانه، وأنّه من صنع محمّد ﷺ وزوره ـ حاشا لله ـ وبهتانه ؟!

فإنّ الناظر فيه إذا تجرّد عن هذه الصفة، ثمّ تدبّر في حثّه على الاستعداد للدار الآخرة وذمّ الدنيا والتزهيد فيها ودلالة الناس على معايبها وغدرها بأهلها وسرعة فنائها وزوالها وما أصاب ملوكها والمتألّهين فـيها والوالهـين إليـها مـن النكال والوبال، ثمّ تدبّر فيما يحثّ عليه من الأخلاق الكريمة ورفض الرذائـل الذميمة وأمره بالمواساة والتحابّ والأُخوة والتعاطف والتآلف والتراحم وصـلة الأرحام والكرم والإحسان والتواضع والصدق والأمانة، إلى أمثال ذلك من النهي عن الحسد والنفاق والرياء والعجب والبغي والطغيان والظلم والعدوان والكذب والنميمة والكبر والغرور والغيبة والزنى والسرقة وأكل المال بالباطل، إلى كثير من أمثالها ممّا فيه صلاح النفس والنوع والعامّة والخاصّة وراحة العباد والبـلاد واستقامة المعاش والمعاد والنظام الأتمّ الأكمل لكلّ ملّة وفي كلّ دولة.

هذا [ما] اشتمل عليه من علم الأخلاق وتهذيب النفس.

وأمّا دفاعه وحماسه عن التوحيد، ونفي الشريك، وتنزيه الحقّ وتقديسه، وصفاته الجمالية والجلالية، وسائر ما تحكم به البراهين العقلية التي قضت العادة

والضرورة منذ بدء الخليقة باحتياج معرفتها وعلمها إلى مزاولة وممارسة وتدرّس ومدارسة، فقد صبّ هذا الكتاب الكريم بركاتها على العباد صبّاً وأبرز دقائقها وحقائقها لأعين المستعدّين نصباً، حافلاً حاشداً ذلك بذكر تفاصيل وقائع الأنبياء مع أُممهم، وما بذلوا من الجهد والعناء وما تحمّلوا من المشقّة والبلاء وما أصاب قومهم من العقاب والتعقيب والنكال والتعذيب على ما أصرّوا عليه من العناد والتكذيب، حتّى جعلهم لمن بعدهم عبرة وصيّرهم للعبور إلى سواحل العظات عبرة، إلى غزير كثير من هذا النظير.

انظر كيف نزّه الله في هذا الكتاب كلّ واحد من أنبيائه ورسله بالتنزيه والتكريم الذي ما نزّهته به أُمّته ولا رعته له رعيته المعترفون بنبوّته الماسكون بشريعته، بل القائلون بأُبوّته، بل بربوبيته.

هذا (المسيح) روح الله (على نبيّنا وآله وعليه السلام) قد أبت الأُمّة المسيحية إلّا عن القول بقتله وصلبه.

فوا عجباً، وكيف لا أعجب لإلهٍ يُعذّب ويُصلب!

ثمّ يجيء هذا النبي الأُمّي العربي، وينزّهه عن ذلك وعن خبيث مقالة اليهود فيه وبهتهم له ولأُمّه الصدّيقة البتول العذراء والإنسية الحوراء.

كلّ ذلك بلسان الوحي النازل عليه في أسواء بني إسرائيل ومساوئهم.

يقول (جلّت عظمته): ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[1].

---

(١) سورة النساء ٤: ١٥٦ـ١٥٨.

حسبك فاطوِ هذا النمط ـ يا خليلي ـ على عزّه ولا تمارني على كشف حقيقة أمره، وعُد تدبّر في هذا القرآن وما اشتمل عليه من تلك الأخلاق الفاضلة والملكات العادلة والعقائد المحصّلة التي تحكم بها البراهين العقلية المسجّلة، عاطفاً بالنظر النافذ في التأمّل إلى ما في (عباداته) و(معاملاته) و(سياساته) من المصالح النوعية وحفظ النواميس الإلهية والبشرية على الوجه الأكمل والنظام الأتقن الذي لو قامت البشر والشعوب به على حدوده وموازينه لما وقع فساد في العالم ولا أُريق بعدها بغير الحقّ قطرة دم من بني (آدم).

ولكن يا للأسف واللهف على حرماننا من بركاته وهو بين أيدينا، وخلوّ آفاقنا من خيراته وهو ملئ أفواهنا وتراقينا!

نعم، ومهما ضاق من نوره واحتجب أو صفرت القلوب من لجين تعاليمه حتّى قيل: ذهب، فهو بعدُ غضّ جديد، مسدّد بالتأييد، مؤيّد بالتسديد، محفوظ الآية، ملحوظ بالعناية.

فإنّه ـ بحمد الله وحسن ألطافه وعنايته بدينه ـ لم تذهب حجّته، ولم تبطل دعوته، ولم تضعف عن إتمام حجّة الله على عباده قوّته.

فلو تدبّر المتدبّر في ذات نفسه وبينه وبين ربّه، ووضع هذا الكتاب بين يديه، وتفرّد في الفكرة والعبرة، وتأمّل في تفاصيل ما أجملناه على النحو الذي ذكرناه ومن الباب الذي فتحناه، والتفت إلى سائر الخواصّ والمزايا التي يفيضها (جلّ لطفه) على عبده إذا وجد منه حسن النيّة وصدق العزيمة في طلب الحقّ، وتجلّى له جامعية القرآن ـ على إيجازه ـ لمتّسع هاتيك العلوم ومنفسح تلك المعارف، وجد هناك ما قدّمناه من ذكر الآية التي هي أعظم الآيات وأُمّ المعجزات، هي البيّنة التي تدلّ وتثبت أنّ تلك الدعوى صادقة بنفسها صحيحة

بجوهرها، لا تحتاج إلى مصدّق وبيّنة سوى ذاتها.

فإنّك ـ بعد تلك الملاحظات والمطالعات كلّها وعلى وجهها ـ لا تجد بدّاً من هجوم الجزم واليقين على قلبك وخيالك في أنّ (محمّداً) ﷺ صادق في دعواه أنّه رسول من الله.

وما الرسالة التي ادّعاها (سلام الله عليه) إلّا تبليغ هذه الأحكام والنواميس المودعة في هذا الكتاب الذي جاء به!

وأحسن مصدّق لهذه الدعوى النظر في نفسها والتأمّل فيها بذاتها.

وهذا أمر وراء إعجاز مبانيه وبلاغة تراكيبه وفصاحة أساليبه ممّا بهر العقول وطاشت له الألباب ممّا تحقّق لديك ولا أظنّك، وعرفته على وجهه ولا أحسبك.

لكن تلك البيّنة التي أوعزنا إليها وعوّلنا عليها هي للعقول النافذة أبهر وللآراء الحصيفة أملك وعليها أقدر، وهي أدلّ على خروجه عن القوى البشرية والتنسيقات الفكرية.

وتحقيق ذلك على أكمل وجوهه يحتاج إلى إفراد موضوع نبحث فيه عن كلّ حكم حكم من مشروعات هذا الكتاب الباهر، وبيان ما في كلّ واحد من أحكام أُصوله وفروعه وعباداته ومعاملاته ومناكحاته وجزائياته، وما اشتملت عليه من الحكم والمصالح ودفع المضارّ والمقابح، وما فيها من حياة روح التمدّن واستكمال سياسة المدن ممّا أجملت لك ذكره وأحلت إلى فطانتك شرحه ونشره.

وهو موضوع يرتفع به النقاب عن محيّا شرف الإنسانية، ويضع موازين القسط في العباد والبلاد لرفع العوائد العدوانية.

وقد ألّفوا فيه وما وفّوا، وصنّفوا به وما صفّوا.

ونحن نشكر لكلٍّ سعيه، ونسأله أن يجزل لكلّ واحد منهم جزاءه وبرّه.

ولعلّ العناية ـ بعد هذا ـ تسعف بالتوفيق لإنشاء موضوع ووضع مشروع وافٍ بذلك الغرض وتلك البغية على ما ينبغي إن شاء الله.

توطئة وتمهيد

[لبعض المناظرات والمباحث]

أنت ـ عافاك الله وأصلحك ـ تعلم كيف نشبت الوغى، وشبّت لظى[1] الحرب، واصطكّت الركب، وثار الغبار، وحمي الوطيس[2]، واشتدّ الجلاد والجدال، واحتدم النزوع والنزاع بين المسلمين والمسيحيين منذ عشرة قرون أو أكثر.

لا أُريد تلك الحروب الدموية التي تعرف بالصليبية .. تلك الحروب التي أصبحت إحدى أوبئة البشر، ومن أكبر بليّات هذا الخلق الضعيف ومبيداته.

فهي لقداسة الصليب وقرابين لهيكله في البرهة بعد البرهة والفترة غبّ الفترة، لا تزال تروي الأرض من دم الإنسان كلّما ظمأت، وتطعمها الربوات من لحومه كلّما سغبت.

كأنّ ذلك تحقيقاً لقول ذلك الوديع: « ما جئت لأُلقي سلاماً، بل سيفاً »[3].

لا أعني هذه الحروب والمجازر على مذابح الأديان .. تلك الذبائح التي

---

(١) اللظىٰ: النار، وقيل: اللهب الخالص. (لسان العرب ١٢: ٢٨٦).

(٢) قال الأزهري: (قال أبو عبيد: الوطيس: شيء مثل التنّور يُختبز فيه، يشبّه حرّ الحرب به. وقال الأصمعي: الوطيس: حجارة مدوّرة، فإذا حميت لم يمكن أحداً الوطء عليها. يضرب مثلاً للأمر إذا اشتدّ. فيقال: حمي الوطيس... وقال أبو سعيد: الوطيس: الضراب في الحرب). (تهذيب اللغة ١٣: ٢٣).

(٣) قارن: إنجيل لوقا ٨٩، بين الإسلام والمسيحية ٨٧و١١٦، أضواء على المسيحية ٧٣.

يدفع إليها الجشع باسم الدين.

كلّا، وإنّما أُوعز إلى تلك الحروب الجدلية في ميادين البحث والمناظرة ومساجلات النقود والردود التي اتّسعت فيها الخطّة وتفاقمت بها الدائرة، حتّى خرجت عن آداب البحث والمناظرة، وصار أكثر ما عند أحد الفريقين أو كليهما وأكبر ما لديهم من العدّة هتك حرمات الأدب، وخرق النواميس بالبذاءة والدناءة والنبز والشتيمة، وصارت الأديان المقدّسة هدفاً لسهام الجهل ومرمى لنبال الخور والطيش، وأصبح عقلاء الفريقين بين سفهائهم من الامتعاض لذلك على حدّ قوله:

وجرم جرّه سفهاء قوم فحلَّ بغير جانيه العذاب[1]

الآباء يأكلون والأبناء يضرسون!

لا أزيدك علماً بهذه الشؤون الاجتماعية وما جرّت من الويلات والبليّات على أهل الوطن الواحد واللغة الواحدة وسائر الوحدات الجامعة سوى واحدة منها، وهي لا تفسح لأبنائها قطع كلّ تلك الصلات والروابط، وفصم كلّ هاتيك العرى والعلائق.

كلّ هذا ممّا تعلم به أنت أحسن العلم، ولا يزال بمرأىً منك ومسمع.

إنّما الّذي أُريد بيانه وتوطيده أمام ما سيلي من المباحث هو:

إنّي ـ وحسبي شهادة ربّي ـ منذ افتتحت دعوتي هذه ودخلت في مشروعي هذا، كنت قد عقدت النيّة وصمّمت العزيمة على أن لا أتجاوز حدود المحاماة عن ديني، ولا أتعدّى عن النظر في تعضيد بنات عقائدي بمعقول

---

(١) نُسب للمتنبّي في خاصّ الخاصّ للثعالبي ٤٧.

البراهين ومقبول الأدلّة، وأخذت على نفسي أن لا أهتك ستراً من الأستار، ولا أخدش عاطفة من العواطف، ولا أمسّ حجاباً من الحجب، ولا أضع قدمي في حريم من الحرمات.

وإنّما أبثّ دعوتي إلى ما قادني إليه البرهان من عقيدتي من دون مصادرة غيرها أو مصادمة ما سواها بل وبالخلاف أسعى جهدي في الوفاق والوئام، وتوحيد كلمة الأُمم الموحّدة، وتقريب ما بينهم ما أمكن، ودعوتهم: **﴿إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً﴾**[1].

وكنت وراء ذلك كالمستيقن أنّ الجهل وأيّام دولة الانتصار بالافتراء والبهتان وتهجّمات الهمجية قد خفّت وطأتها ولفّت ألويتها وانقضت عصورها وتبدّلت بالانتصار بالإنصاف والأخذ بالحقائق وشهادة الباحثين والكتّاب بالصدق، لهم كان الصدق أم عليهم.

كنت أحسب أنّه قد ماتت تلك العصور التي كانت تحيى بها تلك الخرافات والأباطيل التي يصوّرها (ريشار) في أناشيده، و(رولان)[2] في أقاصيصه، يوم كانوا هؤلاء وآلاف أمثالهم من حملة عروش الإفك ومجسّمة آلهة البغضاء في نفوس أُممهم الساذجة، يوم كانوا يخيّلون للمسيحيين وعامّة الغربيين أنّ

---

(١) سورة آل عمران ٣: ٦٤.

(٢) رومان رولان، روائي وكاتب مسرحي وكاتب سير فرنسي، ولد سنة ١٨٦٦ م. ويعتبر أحد أبرز الأدباء الفرنسيين في النصف الأوّل من القرن العشرين، منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩١٥ م، وتوفّي سنة ١٩٤٤م. أشهر آثاره: روايته الكبرى (جان كريستوف) في عشرة مجلّدات (١٩٠٤ ـ ١٩١٢ م)، وحياة ميكال آنجلو (١٩٠٥م)، وحياة تولستوي (١٩١١م)، والمهاتما غاندي (١٩٢٤ م). (موسوعة المورد ٨: ١٦١).

(محمّداً) الذي يسجد لذكره المجد والشرف كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب، وأنّ المسلمين يعبدون الأوثان، ولهم آلهة ثلاثة، أكبرها أو أحدها: (ماهوميد)، يعني: (محمّداً) ﷺ !

وكان (ريشار) يبدع ويغرب في أوصاف ذلك الصنم، فكان يصوّره مجوّفاً يُرى باطنه من ظاهره، وفي جوفه عفريت استحضره السحرة، وصار ينطّ ويعربد، ثمّ أخذ يتكلّم للمسلمين، إلى كثير من أمثال ذلك ممّا نقل جملة منه الكونت (هنري) الفرنساوي[1] !

حتّى قال: (ولو أردت الاطّلاع على جعبة الشتائم والسباب فعليك بكتاب ألّفه بعض اليسوعيّين، وهو (بروشار)، وسمّاه: (مرشد السياحة)، وأورد في (خواطره) منه ومن أضرابه وأترابه نبذاً في شتم المسلمين وسبابهم، وسرد من الافتراءات عليهم والإلصاقات بهم ما لا يستطيع قلم النقل من الخجل أن يأتي بالقليل منه فضلاً عن الكثير) !

نعم، كنّا نقول: إنّ هذه الأدخنة المتكاثفة في أجواء الجهل الحائلة بين أنوار الحقيقة وبصر العقل قد تمزّقت وتلاشت بفضل انتشار العلوم ورجاحة الحلوم وسجاحة العقول وتقلّص ظلّ العصبيّات والتطامن للحقائق أينما كانت وكيفما وُجدت، وصرنا في غنى عن مخاضة هذه اللجج وتعديل ذلك العوج، وكُفينا ـ بحمد الله ـ مؤونة إيضاح الواضح وتحصيل الحاصل والدلالة على بياض النهار ونور الشمس وسواد الليل، وقلنا: إنّ باب السباب في المناظرات قد أُغلق، ووثن الفرية في ميادين البحث قد ذرّي رماده في الهواء بعد أن أُحرق،

---

(١) الصحيح أن يقال: الفرنسي.

وإنّ المؤلّفات والكتب قد دبّت فيها نسمة حـيّة وروحٌ جـديدة. ألا وهـي روح الإنصاف والتساهل، وحفظ الأدب والاعتدال، ورعاية الحرمات لكلٍّ بـحسبه ولو من الفريق المخاصم والطرف المشاغب.

وعلى هذا المنهج اللاحب والطريق الجدد كنت أحرص أن أُطبّق سيري في دعوتي هذه، وأرجو أن لا أكون قد تجاوزت تلك الشريعة الأدبية والمحجّة الأخلاقية من بدء دعوتي إلى مقامي هذا، وكنت عازم السير عـليها إلى غـاية الغرض من هذه الدعوة.

ولكن من عجيب الصدف وغريب الاتّفاق أن رُفع إليّ وأنا في إملاء هذه المباحث ـ أعني: مباحث إعجاز القرآن ـ كتابٌ، ما خطر اسمه على سمعي ولا مرّ سواده على بصري، رُفع إلي عفواً ودُفع إلي صدفة واتّفاقاً.

فلمّا افتتحته ونظرت فيه وجدته كتاب من ختم الله على سـمعه وبـصره، وطبع على قلبه وعقله! قد سمّاه باسم: (الهداية) تسمية الشيء باسم ضدّه، كما يسمّى الزنجي: بكافور، أو مثل ما سمّي اللديغ: سليماً[1]!

تناولته، وأسمت سرح اللحظ في سواده، وطـويت وجـهين مـن وجـوه صفحاته، فوجدته مرعى وبيلاً وداءً دخـيلاً، قـد شـحن بـمثل تـلك اللـصائق وأضداد الحقائق!

أقوى عدّته التمسّك بـالأحاديث الضـعاف المـعلوم حـالها عـند عـامّة المسلمين بالجعل والوضع، وقد تجاوز اليقين في أمرها من الشكّ إلى القطع.

نعم، ولم يكفه ذلك، حتّى هتك في ذلك الكتاب حرمة كلّ أدب وذمّة كلّ

---

(١) راجع القاموس المحيط ٤: ١٣٢.

ناموس، ونال من قداسة الحضرة النبويّة والفرقان الحكيم ما شاء وشاءت له الغواية، وما امتدّت له أسباب الإهمال وحبال الأمهال.

ولا يشكّ الناظر فيه على غرّة أنّه من المؤلّفات في القرون الأُولى، تلك القرون التي يسمّونها: بالعصور المظلمة، وما هي ـ لعمر الله ـ بأشدّ ظلمة منها اليوم!

نظرتُ في بعض ذلك الجزء الذي هو أحد أربعة أجزاء، فتسعّرت جمرة الأسى بل الأسف في فؤادي، وطفقت والحلم والأناة يقعدني، والغيرة للحقّ والدفاع عنه تقيمني، فكنت بين المقيم والمقعد والمريح والمجهد.

وبينا أنا في آذيّ ذلك التردّد بين المضي في دعوتي أو العدول إلى تفنيد تلك الضلالة، إذ نمي إليّ أنّ بعض إخواني الأفاضل بل وبعض مشايخنا الأماثل[1]، قد نهضوا لدفع تلك الرزية، وحكّموا قضاة أقلامهم بتلك القضية، وأنا جدّ عليم بما لهم من الكفاءة وأنّهم في مثلها هم المرجع والمباءة، فطابت نفسي وقرّت عيني.

ثمّ استمرّ مريري وارعوى الوسن، وذهبت في دعوتي على شاكلتي.

[الموازنة والمقايسة بين القرآن الكريم والعهدين]

ولكن لغريب تلك المصادفة ووقوع ذلك الجزء من تلك الضلالة إليّ وأنا في مباحث القرآن أحببت أن أفتح هنا باباً لخصوص المقايسة بين هذا القرآن الحكيم، وبين العهدين: الحديث والقديم؛ لننظر ما مقامهما منه، وما نسبتهما إليه..

---

(١) الظاهر أنّ المقصود بالكلام هو الحجّة الشيخ محمّد جواد البلاغي رحمه الله في كتابه: (الهدى إلى دين المصطفى).

نريد أن ننظر أيّهما أليق أن يكون من المقام الإلهي والصقع الربوبي، ومن الأنسب منهما بحكم العقل والاعتبار أن يكون صادراً من حضرة الحقّ ومقامه الأسمى وأسمائه الحسنى وصفاته المتعالية؟

نعم، سوف نبحث في ذلك بعض البحث لإتمامه.

ولكن الغرض من هذا التمهيد وهذه التوطئة دفع الموجدة وتقديم المعذرة؛ إذ ربّما يجمح القلم، فينفث ما لا يروق للكرام الأفاضل وأهل الآداب والحرمات من المسيحيّين من رعاة الذمم وحفظة الأدب وذوي الحصافة والحصانة والفضل والمكانة، أو ربّما تسوء بعض كلماتنا بعض المصلحين من الفريقين.

ولكن وصيتي إلى من يجد في نفسه موجدة من ذلك عليّ أن يبادر على الفور إلى ذلك الكتاب (الضلالة)، وينظر ولو يسيراً منه، فإنّني على ثقة أن ستتبدّل تلك الموجدة عليّ بالمحمدة وتلك السيئة بالحسنة! ويستبين أنّنا معاشر المسلمين في الأكثر أنقى أقلاماً، وأطهر لساناً، وأعفّ ضميراً، وأملك بالعفو عند المقدرة، وأمكن بالكرم عند الظفر.

تجد كتابنا المقدّس وسائر المسلمين يرفعون بشأن (المسيح) إلى أعلى عروش المجد والكرامة والتنزيه والتقديس، يضعون (المسيح) مواضع الصلوات والتسبيح والتمجيد والتمحيد.

فيجيء إزاء ذلك صاحب كتاب (الضلالة)، فيروم أن يضع في قداسة رسول الله (محمّد) الذي تنحني لذكره سوامق المجد[1] والعظمة، يجهد أن يضع

---

(١) سوامق المجد: عواليه. (صحاح اللغة ٤: ١٤٩٨).

ذلك الوغد في حريم قدس ذلك الجوهر الإلهي والنور الملكوتي، يضع فيه ـ معاذ الله ـ كلّ ما يرشح به ظرفه ويحتمله إناؤه ويليق له جوهره ويتّسع له عقله، (وما أقلّ ما يسع) !

يريد أن يشتفي بالشتم والسباب والزور والبهتان والفرية والافتخار، كأنّما يطلبه بترّةٍ أو يستثير منه بثأرٍ !

كأنّه يستثير من المسلمين ما صنع أوائل اليهود بـ(المسيح)، ويكافئهم بمقالاتهم في أُمّه البتول العذراء (عليها وعلى ابنها غوادي التحية وروائح التسليم).

كأنّ المسلمين هم الذين قالوا فيها ما قيل من ذلك البهتان العظيم والإفك القديم !

فجاء صاحب (الضلالة) يقابل الكذب بالكذب، ويكافئ الإفك بالإفك، فيجعل المسلمين سبّابة المتندّم وغمد السيف للباسل المتقدّم !

وأحر بصاحب (الضلالة) أن يجهل تلك الجهالة، فإنّنا وجدنا الهرّ أعرف بمواضع الحزم ومظان الأدب منه في إخفاء نفسه وإظهار كتابه !

على أنّنا لو أردنا أن نجري في مثل الذي جرى فيه لكايلناه بالمدّ صاعاً، وقايسناه بالشبر ذراعاً، وبالإصبع باعاً، ولعرّفناه (كيف مجامر الكرام)* وكيف مواقع السهام، وأيّنا أسمّ سهماً وأوجع كلاماً وكلماً وأنكأ جرحاً وأنفذ صولاً وأقوى قولاً وأقدر على السباب والشتيمة والإغاضة والهضيمة.

ولكن يأبى الله والكرم لنا ذلك .. يأبى الله لنا أن نجهل فوق جهل الجاهلين

(*) مثل من أمثال العرب. وله قصّة مذكورة في كتب الأمثال. (منه ﵀).

ولو جهلوا علينا، وأن نعاف الإحسان والصيانة ولو أُسيء إلينا. فإنّ في الحشمة مندوحة، وفي الحقّ مفسح:

أُحبّ مكارم الأخلاق جهدي وأكره أن أعيب وأن أُعابا
وأصفح عن سباب الناس حلماً وشرّ الناس من يهوىٰ السبابا[1]

ولا سيّما وحري بكلّ مسلم أن لا يتعدّى أدب الله ورسوله وكتابه الكريم، حيث يقول (جلّ شأنه من قائل): ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[2]، ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[3].

جدير بنا أن نحلم، ونجعل الحلم والصفح عن كشف عورات غيرنا صدقة عن روحانية نبيّنا ﷺ، فإنّنا نعلم أن ذلك أحبّ إليه.

وبذلك أُضمّد جرحي وأجبر كسري، وأقول لرسول الله (صلوات الله عليه):

لقد صبرت على المكروه أسمعه من معشر فيك لولا أنت ما نطقوا
وفيك داريت قوماً لا خلاق لهم لولاك ما كنت أدري أنّهم خُلقوا

وحسب صدري هذه النفثة.

ولنعد إلى القصد من المقايسة بين هذا القرآن الكريم والعهدين: الحديث والقديم، ونبيّن أنّه ما هو وسائر الكتب المنزلة من السماء بسواء، ونحتفظ بالسير على خطّة الأدب وضمن دائرة التكرّم ما أمكن.

---

(١) نُسب البيتان للحسين بن مطير الأسدي بالولاء في: البصائر والذخائر ٢: ١٤٨، أدب الدنيا والدين ٢٤٥، زهر الآداب ٤: ١٦٥، معجم الأبيات الشهيرة ٢٢.

(٢) سورة فصّلت ٤١: ٣٤.

(٣) سورة العنكبوت ٢٩: ٤٦.

والله والكرام من عباده لا يؤآخذوننا بزلّة القلم وعثرة الأنامل، فإنّها ـ والله هو الشهيد ـ على غير عمد منّا ولا إرادة، وبالله المستعان، ومنه التسديد والتوفيق.

إن شئت مزيد وضوح لظهور شرف هذا القانون الإسلامي والكتاب الإلهامي والفرقان المحمّدي وارتقاء نواميسه وامتيازها على قاطبة قوانين سائر الملل والديانات وكلّ كتبهم التي يزعمون أنّها سماوية، بحيث تستبين وتستيقن أنّه من نصّ كلام الله ووحيه وأنّ غيره من الكتب التي يعزّي لها ذلك ما هي بكتب إلهية، بل ولا منزلات سمائية، بل ولا ملكوتية إلهامية، بل تجلّ ساحة الحقّ وتنزّه عن أن يصدر منها شيء من تلك المقالات الواهية والكلمات الواهنة والمعاني الساقطة والأحكام التي تصادم ضرورة العقول وتزهق روح التمدّن وتذيب قلب الأدب والحشمة! وهي ـ على طولها وعرضها ورفعها وخفضها وضخم حجمها ـ غير وافية بجميع ما تحتاجه العامّة وتضطرّ إليه الخاصّة من تهذيب النفس، وتدبير المنزل، وسياسة المدن من عبادات وأخلاق ومعاملات وجزائيات، بل ولا لأقلّ القليل من ذلك.

وهذه الشريعة المقدّسة الإسلامية قد وفّت بجميع ذلك، وجمعت بين العدل والفضل والزيادة والأصل والموازنة والتكرّم: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾[1].

ضع بين يديك أحسن ما في تلك الكتب إصحاحها وأسفارها ومزموراتها وأناجيلها، وضع القرآن العزيز إلى جنبها، وانزع من أعماق لبّك وعروق قلبك

---

(١) سورة النحل ١٦: ٩٠.

معميات العصبية ومرديات الأهواء وتقليد الأُمّهات والآباء ومألوفات النحلة وركائز التربية وغرائز الطبيعة، فإذا أحرزت صفاءك من جميع ذلك فتدبّر في كلّ واحد من عهودهم القديمة، واعطف الفكرة على شيء من هذه السور الكريمة، ثمّ أنصف من نفسك وراجعها في عقلك وحاججها بذاتك، وانظر ما الذي يقضي به وجدانك وعرفانك.

أيقضي بأنّ هذا الذي يسمّونه اليوم: بالعهد القديم والحديث هو كلام الله وكتابه ؟! أو أنّ هذا القرآن الكريم وحيه وخطابه ؟

وانظر أيّهما أليق بجنابه وألصق، وما الأنسب منهما بساحة الحقّ وهو به أحقّ ؟!

فقد رضيتك حكماً وخصماً، وعوّلت على ما عندك معرفة وعلماً.

ولكن الشفقة تعطفني عليك، وحبّ النصيحة تلفتني إليك، فيحملني ذاك أن أُوعز وأعزم عليك أن أستغفر الله ممّا تمرّ عليه في ذينك العهدين ولواحقهما من نسبة المعاصي والكبائر إلى كبار أنبياء الله وزعماء رسله، كالزنىٰ بالمحارم وغيرها وشرب الخمر وأشباهها ممّا تشمأز منه حتّى نفوس الرعاع المتهتّكين والعصاة المنهمكين !

فإنّ فيها كثيراً من ذلك يعسر حصره، مثل: كون (عيسى) روح الله قد كان شرّيب خمر*، وأنّه كان يعبّر عنها: بنتاج الكرمة** تعبير المولعين بها المنهمكين بشربها، كما قال ذلك للتلاميذ قبل صلبه مودّعاً لهم ولها !

(*) التاسعة عشر من حادي عشر متّى، والرابعة والثلاثين من سابع لوقا. (منه ﵀).

(**) التاسعة والعشرين من السادس والعشرين من متّى، والخامسة والعشرين من رابع عشر مرقس. (منه ﵀).

هـذا (داود)* رجـل الله والنـبي** والمـتكلّم بـالروح القـدس*** والمـوحى إليـه**** انـظر مـا نسب إليـه مـن زنـاه بـزوجة (أُوريـا الحثّي)***** !

وكيف حاول أن يموّه حملها منه وينسبه إلى زوجها (أُوريا) !

وكيف سعى في قتله لتخلص له امرأته****** !

وما نسب إليه من التسامح عمّا هو موظّف في الشريعة من حدّ ابنه (أمنون) الزاني بأُخته (ثامار) ! وبكاء (داود) عليه بكاءً عظيماً حين قتله (إيشالوم)*******.

وصار ينوح عليه الأيّام كلّها******** !

وأعظم من ذلك ما فيها من أنّ الذي صنع العجل ودعى بني إسرائيل إلى عبادته وبنى له المذبح هو (هارون) !

وأشنع وأفظع، من كلّ ذلك أجمع ما اشتملت عليه ممّا جنته الخمر على

(*) كما في الرابعة عشر من ثامن الأيّام الثاني. (منه رحمه الله).

(**) بصريح الثلاثين في ثاني الأعمال. (منه رحمه الله).

(***) كما في السادسة والثلاثين من ثاني عشر مرقس. (منه رحمه الله).

(****) كما في أوائل الثالثة والعشرين من صموئيل الثاني. (منه رحمه الله).

(*****) في صريح الحادي عشر من صموئيل الثاني. (منه رحمه الله).

(******) ومن هنا سرت هذه البلية إلى بعض فرق المسلمين، فذكروه في بعض تفاسيرهم خبطاً منهم من دون أن ترد به حجّة من صاحب الشريعة وأُمناء الغيب (سلام الله عليهم) [راجع: جامع البيان ٢٣: ١٧٤ ـ ١٨٠، تفسير الماوردي ٥: ٨٥ ـ ٨٦، تفسير البغوي ٤: ٥٢ ـ ٥٤]. (منه رحمه الله).

(*******) في الثالث عشر [من] صموئيل. (منه رحمه الله).

(********) في الثاني والثلاثين من [سفر] الخروج. (منه رحمه الله).

(لوط) البارّ، وفجوره ببناته* ! ممّا تقشعر منه الجلود، وتشمئز له حتّى نفوس أهل الفجور ممّن هتك حجاب الحياء ليفعل ما يشاء !

إلى كثير من أمثال ذلك[1] ممّا تأباه الطبيعة البشرية ولا ترضاه لأنفسها ذوات العقول الأوّلية، فضلاً عن أن ترضى به لزعماء دينها ورجال مذهبها.

نعم، إلّا أنّ ممّا يلزم تطهير القلب عنه والجنان وتنزيه القلم عن لوثه واللسان نسبة أدنى الخطايا إلى أدنى أنبياء الله ورسله الذين بعثهم لتكميل خلقه وإرشاد عباده.

وتأبى العناية والحكمة أن يكون الناقص مكمّلاً والجاهل معلّماً والمريض معافياً.

ومن هنا ظهر شرف الإسلام.

وانفرد علماء المسلمين ـ ولا سيّما قاطبة الإمامية ـ بما يوافق ضرورة العقل من التمسّك بهذا الرأي الحصيف والمذهب الشريف، ألا وهو القول بعصمة الأنبياء والأوصياء** عن كلّ الذنوب وكافّة الخطايا[2].

إنّ (لوطاً) هذا المقذوف في كتب الكتابيّين بتلك الشناعة الفاضحة المذكور عندهم بهاتيك الوصمة القاذعة هو الذي ذكره الكتاب المجيد

(*) [في] الثالثة من التاسع عشر [من سفر] التكوين إلى آخره الذي فيه ذكر الموابيين والعمّونيين أبناء بنات (لوط) عندهم. (منه رحمه الله).

(١) راجع كتاب: الله والأنبياء في التوراة ١٢٦ و٢٣٥ ـ ٢٣٦ و٢٢٣ و٣٥٩ ـ ٣٦١ و٣٦٥ ـ ٣٦٨.

(**) حتّى صنّف السيّد الشريف (المرتضى) (رضوان الله عليه) كتابه الجليل المعروف (بتنزيه الأنبياء)، وقد طبع على الحجر في إيران طبعة جيّدة (منه رحمه الله).

أقول: وقد طبع مؤخّراً في قم سنة ١٤٢٢ هـ، بتحقيق: الشيخ فارس حسّون تبريزيان.

(٢) راجع المصادر المتقدّمة في ص٣٨ هـ ١، وغير ذلك.

المحمّدي، وأعلن مجده في مقامات منه عديدة ومواقف عتيدة، أحدها: قوله (تعالىٰ): ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

فانظر تفاوت ما بين المقامين، وفرق ما بين الكتابين.

والغرض الذي استطردنا له هذا البحث وأقحمنا فيه هذا القول: أنّك إذا أردت الموازنة وقصدت المقايسة وبلغت إلى هذه المقامات من العهدين، فغض عنها بصرك واعطف إلى ما بعدها نظرك، وكرّم أهل الكرامة على الله من أن تسمع مثل هذه الشنائع في حقّهم أو أن يتطرّق احتمال هذه المنكرات إلى قدسي ساحتهم، واستبدل عن النظر فيما هنالك من هذه الأحوال بل الأهوال بالنظر في كرائم سور هذا الكتاب الكريم، فإنّك لا تكاد تجد سورةً من طوال سوره ومفصّلها، بل وأكثر قصاره، سيّما سورة مريم وسورة الأنبياء والطواسين والحواميم والمسبّحات، فما من سورة منها إلّا وقد ذكرت جملة من أنبياء بني إسرائيل وغيرهم بأجمل الذكر وأسنى الفخر بتجليل حافل وتمجيد حاشد.. تجدها تبارك عليهم بكلّ بركة، وتزكّي منهم كلّ سكون وحركة.. تثني عليهم أحسن الثناء بالصدق والصبر والصفاء، والأمانة والسكينة والزهد والطمأنينة، والنزاهة من كل دنيّة والعصمة من كلّ خطيّة، إلى غير ذلك ممّا أعدّ منه ولا أعدّه وأتحدّى به من هذا الكتاب ولا أحدّه.

وما أنا بصدد هذا المقام وتفصيل هذه الخطّة حتّى أضع لك الموازين والموازنة وأُريك سبل الهدى على وجه العيان والمعاينة، حتّى أُريك من التفاوت

---

(١) سورة الأنبياء ٢١: ٧٤ ـ ٧٥.

شيئاً عجباً وأدعك تهتزّ إلى ديانة الإسلام شوقاً وطرباً، وأُبدي لك من انتكاث تلك العهود وخللها واختلالها ما تعود في أشعّة تلك الشمس هَباً.

ولكن الله (جلّت ألطافه) قد أيّد هذا الدين بأهله، فقيّض منهم من وفّى بهذا الغرض على أكمل وجوهه وأفضل أنحائه.

فقد ظهر الحقّ (بإظهار الحقّ)، وبان الصدق (بلسان الصدق)، وتجلّى التحقيق الصريح (بالجواب الصحيح) و(ردّ عبد المسيح)، وانقدح (التخجيل لمن حرّف الإنجيل)*.

(*) هذه أسماء مؤلّفات شهيرة أخذت بآفاق سماء التحقيق وسدّت منافذ القول على خصوم الإسلام (لو أنصف الحكم).

وهي آحاد من أُلوف المؤلّفات في هذا الموضوع.

وما برح الإسلام يدلي بحجّته البالغة قرناً بعد قرن وعصراً غبّ عصر.

وقد أُشرعت أسنّة الأقلام في الذبّ عن الإسلام من أوائل القرن الثاني، واتّصل هذا النضال إلى هذه العصور، فكان لكثير من كتّابها وعلمائها السعي المشكور.

فقد قام (منار الإسلام) من عدّة أعوام، فكفى وشفى، وجعل على خصوم الإسلام العفا.

واستعرت حمية أحد الأفاضل من إخواننا وبني أوطاننا، فهبّ يدعو (بالهدى إلى دين المصطفى).

فجزاهم عن الإسلام ربّه خير الجزاء، فقد أحسنوا ما شاؤوا.

وكتاب (الهدى) تحت الطبع، وسيبدو للمسلمين وغيرهم عظيم خدمته للحقّ، ووفور حظّه من التحقيق والفضل، ويقدّرون له ولسائر ذوي الغيرة والفضل أقدارهم بالتعاون والتناصر والمعاضدة والمساعدة إن شاء الله. (منه ﷺ).

أقول: الكتاب الثاني المذكور (لسان الصدق) من تأليف الشيخ علي بن عبدالله بن علي الفهري البحراني المتوفّى سنة ١٣١٨ هـ، وهو ردٌّ على كتاب: (ميزان الحقّ) للقسّ النصراني هنري مارتين.

لاحظ: الذريعة ١٨: ٣٠٥، معجم التراث الكلامي ٤: ٥٦٣.

والكتاب الخامس (التخجيل لمن حرّف الإنجيل) من تأليف الشيخ أبي البقاء صالح بن حسين الجعفري.

←

ثمّ إنّ جميع ما ذكره أُولئك الأعلام من دعاة الإسلام وما نقدوه وعدّدوه من رزايا العهدين إنّما هو فيما يتعلّق بخصوص معانيها وما يخصّ أُصول مضامينها: في مطالبها، في مآربها، في أغراضها، في تناقضها، في مقاصدها، في أُصول عقائدها، في فروع أحكامها، في سوء نظامها، في أشياء من هذا القبيل أُخر، في أمثال لها لا تحصر.

أمّا لو جئت إلى ألفاظها ومبانيها وعبرت إلى عباراتها وأدواتها، فهناك ما شئت ممّا يكدّ الطبع ويميت الخواطر ويبلّد المشاعر، من: سماجة الألفاظ، وفجاجة المباني، وتعقيد المعاني، وفهاهة الأساليب، وانحلال التراكيب، وسوء استعار نار الاستعارات، وارتكاب ما لا يجوز من المجازات، إلى أشياء كثيرة لا تخفى على من له أدنى ذوق ومسكة في أساليب البيان وكيفية التعبير من أهل كلّ

← راجع: كشف الظنون ١: ٣٧٩، الذريعة ٤: ٣.

ولمعرفة الكتب الأُخرى التي أُلّفت للردّ على النصارى انظر الذريعة ١٠: ٢٣١ ـ ٢٣٣.

وقول المصنّف رحمه الله: (أحد الأفاضل من إخواننا وبني أوطاننا) يشير فيه إلىٰ الشيخ محمّد جواد البلاغي قدس سره، وهاك ترجمته: محمّد جواد بن حسن بن طالب بن عبّاس بن إبراهيم البلاغي النجفي، عالم فقيه وأديب شاعر معروف. ولد في النجف حدود سنة ١٢٨٠ هـ، وحضر دروس الخارج على: الشيخ محمّد طه نجف، والشيخ رضا الهمداني، والشيخ كاظم الخراساني. وكان يجيد عدّة لغات، منها: الفارسية، والإنجليزية، والعبرية. وله مشاركة فعّالة في حركة العراق الاستقلالية وثورة العشرين المعروفة. من جملة تصانيفه البارعة: الهدى إلى دين المصطفىٰ، الرحلة المدرسية والمدرسة السيّارة، أنوار الهدى، نصائح الهدى، التوحيد والتثليث، آلاء الرحمان في تفسير القرآن، المصابيح، البلاغ المبين. توفّي سنة ١٣٥٢ هـ، ودفن في الصحن الغروي الشريف بالنجف.

(تكملة أمل الآمل ١٢٤، الكنىٰ والألقاب ٢: ٩٤ ـ ٩٥، معارف الرجال ١: ١٩٦ ـ ٢٠٠، أعيان الشيعة ٤: ٢٥٥ ـ ٢٦٢، شعراء الغري ٢: ٤٣٦ ـ ٤٥٨، الذريعة ١: ٣٨ و ١٠: ١٦٩ ـ ١٧٠، معجم مؤلّفي الشيعة ٧٥).

أمّا قول المصنّف رحمه الله: (وكتاب الهدى تحت الطبع) فقد طبع هذا الكتاب في مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٣٣٠ هـ.

لغة ولسان.

ذاك ما نعرفه في لساني ترجمتها من العربية والفارسية الكاشفين عن أصل لسانها المجعول لها في العبرانية واليونانية.

ولكن يميناً بعرى الأيمان والحكمة اليمان وشرف الأديان وعزّة الزُبر والأناجيل والقرآن، إنّي ما قصدت بما سردت ولا أممت بما قدّمت ولا أردت بما أوردت الغميزة في كتب الله المقدّسة، ولا الطعن في أحكامه المؤسّسة، ولا التكدير في شرائعه المروّقة، ولا التعيير على فِرق عباده الموحّدين له وإن كانت مشاربها متفرّقة!

وكيف يسوغ لمسلم من حقير أو جليل أن يطعن في شيء من التوراة أو الإنجيل! وهذا سجل الإسلام المسلّم وكتابه المعظّم لا يزال يعظّمها ملء فيه، ويسعى في البركة عليها بكلّ مساعيه، ويعلن مجدها ويسعد جدّها.

وكذلك يوشك أن لا تخلو أكثر سوره من ذكر لتلك الكتب الإلهية والمنزلات الربوبية جمعاً وتفريقاً إشارة وتصريحاً.

راجع سورة المائدة، وانظر قوله (تعالىٰ): ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾[1] الآية، وقوله (تعالى طوله) بعدها بقليل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2]، إلى كثير من

(١) سورة المائدة ٥: ٤٤.

(٢) سورة المائدة ٥: ٤٦.

أمثال ذلك ممّا لا يلزم إيراده وتعداده ممّا اشتمل على ذكر لوامع أنوارها وسواطع آثارها وجوامع أخبارها وشؤون منزلها وعظيم منزلتها.

ولكن الحقّ لك أقول، وأرجو ـ بعون الله ـ أن لا أحول عن الحقّ والصدق ولا أزول: إنّ تلك الكتب التي عناها القرآن وجعل لها كلّ هذا الشرف والشأن ما هي بهذه العهود التي نراها اليوم متداولة في أيدي القوم.

وإلّا فأين الهدى والموعظة والنور، وهي على الحال التي عرّفتك أقلّه وتركت جلّه ؟!

ولو كانت تلك هي هذه فقد أحال القرآن وحاشاه، وأبطل وأخلف وجلّ عن ذلك قدسي علاه.

وكيف وأنّى يختلف منه الحال وفيه تبيان كلّ شيء وتفصيل كلّ إجمال ؟!

وها هو (جلّ شأنه) قد دلّ على تحريفها وتغييرها وتبديلها وإخفاء حملتها الأوّلين لأكثرها في مواضع منه كثيرة ونصوص بيّنات منه مستنيرة. تعرف ذلك من أمثال قوله (تعالىٰ): ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[1].

وقد تكرّرت فيه هذه الجملة إيعازاً إلى ذلك الغرض وإيماءً إلى هذه النكتة.

وأصرح منها في المقصود أمثال قوله (تعالىٰ شأنه) في المائدة أيضاً: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[2].

(١) سورة النساء ٤: ٤٦.

(٢) سورة المائدة ٥: ١٥.

وعليه، فقد ارتفع الإشكال واتّضح الوجه في عدم تعاهد المسلمين لذينك العهدين مع تعظيم كتابهم الشريف للكتابين. فإنّ ما له الثناء غير من له الجفاء، ومن له الذمّ غير من له ذمّة الودّ والولاء.

ويشهد الله أنّي ما قصدت في جميع ما قدّمت من القول في هذين العهدين الغضاضة والتحامل، وإنّما الغرض الأقصى هو بيان شرف الكتاب العزيز وحصن الإسلام الحريز، واعتلائه وارتقائه وتفوّقه على كلّ ما يُزعم أنّه في عداده ومن أشباهه ونظرائه:

فلا يحسب التمتام أنّي هجوته ولكنّني فضّلتُ أهلَ المكارم[1]

وما كان من عزمي وعزيمتي وليس من خلقي وسجيتي ولا من خُطاي وخطّتي الفحش والفحشاء والتعرّض للإيذاء، والإقذاع والشتيمة والوخزة الوخيمة، بل بنيت أمري على الدعوة الجميلة والجري على ما يقتضيه الأدب والفضيلة في تحرير المحاورة وآداب المناظرة وحسن المعاشرة، وعدم التجاوز لما يثبته العلم وتشهد به الحقيقة، ويقوم عليه الدليل والبرهان ويعتدل به لسان الميزان، وإلّا لسردنا وعدّدنا، ولنُحنا نحن على تلك الديانات وعدّدنا!

ومهما أحسّ الناظر في هذه المواضع بشيء من ذلك ممّا هو على غير تلك الخطّة وعلى خلاف هاتيك الشريطة، فليفوّق سهام الملام لسوانا، وليجعل النعي والمرزءة على غيرنا، فإنّ البادي أظلم[2] والقصاص حقّ وإن كانت الجناية مأثم.

ومع ذلك فما أكثر ما أعرضنا عنه وضربنا دونه صفحاً وأغمضنا عنه عيناً،

---

(١) نُسب لربيعة الرقّي في العقد الفريد ٦: ١٥٦.

(٢) هذا من الأمثال. يقال: هذه بتلك، والبادي أظلم. (المستطرف ١: ٦٠).

من أشياء لهم تصادم ضرورة العقول وبديهة الوجدان وأوائل الغرائز!

[مسألة الأقانيم وفلسفة البحث فيها]

نعم، جدير بنا أن نبدي كلمتنا في مسألة (الأقانيم) التي هي أصل من أُصول أديانهم، وأساس لمذاهب المسيحية اليوم جميعاً.

اتّفقت كلمتهم على هذه الأساسية الدينية، وهي قولهم: (الأب والابن وروح القدس أقانيم ثلاثة إله واحد)[1].

ولكن أنت هل تجد في أوائل العقول وأطراف القرائح أجلى وأبده من استحالة اجتماع النقيضين وصيرورة الواحد الحقيقي البسيط ثلاثة أو اثنين؟!

وعليه، فليت شعري ـ وما أدري ـ كيف تسنّى القول لهؤلاء القوم بوحدة الإله الحقّ وحدة حقيقيةً مع أنّه ذو أقانيم ثلاثة؟! ومن أيّ وادٍ سلك أُقنوم الابن حتّى حلّ في (عيسى) أو اتّحد بناسوته، فعاد الواحد متعدّداً وصار (عيسى) إلهاً متجسّداً، ثمّ حلّ في التلاميذ (الحواريين)، ثمّ في سائر البابوات والقسس؟!

وقد مرّت بك الإشارة إلى ما في هذه المقالة لدى مواضع من دعوتنا.

ولولا وضوح حالها لبسطنا مهاد البحث فيها، ولكنّها من الضروري الذي يلزم عود النظري إليه، وعنده يقف وينتهي البرهان، وإلّا فلا معوّل عليه.

وظنّي أنّ جميع القائلين بتلك المقالة الدائنين بها حتّى الكرسي الرسولي

---

(١) قارن: أضواء على المسيحية ٩٧، محاضرات في النصرانية ١٠٠، المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٢١٥ و٢١٧، الموسوعة الميسّرة في الأديان ٥٠٣ ـ ٥٠٤.

(آلهتهم المتجسّد [ة] وجسدهم المتألّه) لعاجزون عن حلّ هذا الرمز المجهول المصادم لضرورة العقول من امتناع كون الشيء الواحد البسيط متعدّداً ذاتاً وحقيقةً أو مثلاً وصفةً تعدّداً في الخارج وعلى طباق الواقع.

وقد أجهدت أُولو الفكرة أفكارها في أن تحصّل لذلك معنى متعقّلاً، أو تتعقّل له وجهاً محصّلاً، فما أصابته، بل وقفت عند محار الدليل وانقطع بها السبيل!

نعم، هذه البهماء العضال أو بنت الوهم والخيال قد ذكرها بعض كتّابهم في مجلّة له (جسمانية)، أورد بها عن بعض شيوخهم من أهل النظر مناظرة مع شيخ مسلم، قد أحسن له الكاهن المسيحي لتلك العويصة تصويراً وقرّبها إليه تمثيلاً وتعبيراً، ورام بجهده أن يجعلها أمراً معقولاً ومعنى مقبولاً، ويرفع ما تستلزمه من غائلة الشرك والتعديد ومزاحمة الفردانية والتوحيد.

ونحن نورد لك خلاصة ذلك البيان والتقريب، ثمّ ننظر هل يجدي ذلك نفعاً ويدفع باطلاً ويحذف محذوراً، أم ليس هو سوى تشقيق معانٍ وتزويق ألفاظ، ما هي من الحقيقة في شيء ؟!

قال: (لمّا احتلّ الفرنسيّون مدينة قسطنطين من أعمال الجزائر كان الأب (سوشيه) يعالج الجرحى بلا تمييز بين مسلم ونصراني، فحدّث له يوماً أنّه كان يضمّد جراحات أعرابي، وما لبث أن مرّ به فقيه قد علا رأسه الشيب، ولحيته البيضاء تحدّث عن تقدّمه في السنّ، فقال الشيخ للكاهن:

لِمَ تداوي هذا العليل ؟!

قال الكاهن: لأنّه أخي!

أخوك! كذبت! إنّك نصراني، وهو مسلم، وإلهك ليس بإلهنا.

قال الكاهن: إلهي هو ذات إلهك، فهو خالق السماء والأرض وكلّ ما فيهما، ونحن جميعنا بنوه.

قال الشيخ: أنتم معشر النصارى تعبدون ثلاثة آلهة، فإنّكم من المشركين.

فعندما سمع الأب هذه الكلمات المجحفة بحقّ دينه رفع ألحاظه إلى العلى، وطلب من ربّ الأنوار أن يمنحه عضداً وعوناً كيلا تسقط بذور كلامه في أرض قاحلة.

ثمّ قال: يا شيخ العرب، إنّك بين الإسلام لفي رتبة رفيعة ومقام سام وسلطة ذات شأن، حزتها بالعلم، وجاهدت بقوّة ذكية لتحصيله، فقل لي ـ ناشدتك الله ـ: هذه القوّة، ما اسمها؟

ـ اسمها: العقل.

لله درّه من جواب بليغ! ولعمرك قد تشعر بالشهوات أحياناً، وقد أسعرت في قلبك حرباً عواناً، فتدنوا منك الأشواق مزدانة بزيّها الخدّاع، وربّما أوشكت إرضاء رغائب الشهوة. إنّما سمعت كصوت باطني يحدّثك: لا تأتي المنكر فهو حرام، فقاومت أميالك وكلّل الظفر مسعاك! فما اسم هذه القوّة؟

ـ هي الإرادة.

ـ نعم الجواب! ولا أشكّ أنّك تذكر أيّام الشباب وطيب العيش، كما تتصوّر أحياناً صوراً هائلة وحوادث محزنة، فتارة والدة طريحة الفراش في ساعتها الأخيرة، وأُخرى صديقاً في وداعه الأخير، وهكذا تعيش من ماضي الزمان وغابر الأيّام، فما تدعو هذه القوّة التي تخيّل لك هذه المخيّلات المختلفة عذبة تارةً ومزعجة أُخرى؟

ـ أدعوها: الذاكرة.

قال الكاهن: أوَ لك إذاً ثلاث أنفس ؟!

قال الشيخ: إنّما هي قوى ثلاث في نفس واحدة بسيطة.

ـ وأنا أيضاً ليس لي إلّا إله واحد في ثلاثة أقانيم، أي: ثلاثة أشخاص، أو بتعبير آخر: ثلاثة أقانيم في إله واحد:

الأب، ويعبّر عنه: بالعظمة والجبروت.

الابن، ويعبّر عنه: بالعقل، أو النطق (الكلمة).

الروح القدس، ويعبّر عنه: بالمحبّة والقداسة).

ثمّ أتمّ الحكاية أو الرواية باستسلام المسلم وإيمانه للكاهن، وختمها بقوله: (ثمّ نهض الكاهن إلى الفقيه وعانقه، والدموع تسيل من مقلتيهما) انتهىٰ.

ونحن لا يهمّنا أن تكون واقعة أو مثالاً.

بيد أنّنا نشكر فضل الكاهن، فإنّه أخرجها من قاتم الإبهام إلى مقام التعقّل، وفتق لنا فيها منفذاً للبحث والنظر بعد أن كانت في القديم من أسرار الكهنوت التي لا يسوغ للعقل أن يدنو من حريمها أو يمدّ يداً إلى أديمها، بل يأخذها من (الأكليروس) مقلّداً ويتقلّدها متعبّداً من دون أن يفهم ولو أوّل سطح من حقيقتها، وإلّا كانت عليه اللعنة، واستحقّ الطرد من الكنيسة[1]!

ونحن نستتمّ تلك المحاورة، ونضع أنفسنا موضع ذلك الفقيه، ونقول للكاهن:

قد أحسنت عن تلك الحقيقة التصويرَ، وتلطّفت في التمثيل، وكافحت لحماية حوزة التوحيد عن هجوم شياطين الشرك وأوهام التعديد، وجئت

---

(١) انظر: أضواء على المسيحية ١١١، المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٢١٥.

بالسهل المتيسّر لكلّ أحد فهمه الذي لم أجده من جهة الوضوح حتّى في (الخلاصة اللاهوتية) للقدّيس (توما)[١] الشهير في الحكمة الإلهية والفلسفة المتعالية، على كثرة ما حرّر وأطال واستوسع المجال. راجع من مبحث الاثنين والثلاثين إلى آخر المجلّد الأوّل، راجع أنت، عساك تحصل على طائل !

أمّا أنا ـ والأغلب أنّ القصور منّي ـ فلم استفد ما استفدته من حديث هذا الكاهن.

ولكن غير محظور علينا أن نبحث في تمثيله بحثاً علميّاً دون أن يكون دينيّاً.

أعني: أنّنا لا نريد أن نبحث أنّ القول بالأقانيم شرك، أو مستلزم للشرك، أو توحيد، أو غير مضرٍّ بالتوحيد، كما لعلّه هو المتحصّل للفكر بعد غاية سيره.

ولا يضرّ إطلاق الشرك أو الكفر فيما أُطلقا فيه من الكتاب والسنّة؛ فإنّ للشرك مراتب، حتّى عُدّ الرياء ونظائره منه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٢].

نعم، والتوحيد المحض في الذات والأفعال والصفات والشهود والتحقّق لا يحصل إلّا للخاصّة، أو ما يعبّر عنه: بالإنسان الكامل الذي يعزّ عليّ أن أقول: إنّه

---

(١) القدّيس توما الأكويني، فيلسوف ولاهوتي إيطالي. ولد سنة ١٢٢٤م، ودرس الفنون في جامعة نابولي، ولبس ثوب الدومينيكاني عن عمر يناهز العشرين سنة، وقصد باريس لدراسة اللاهوت بإشراف ألبرتوس الأكبر، وحاز على مرتبة الأُستاذية في اللاهوت عام ١٢٥٩م، علّم توما في عدّة مناطق إيطالية، وشارك في مجمع ليون العامّ بطلب شخصي من غريغوريوس العاشر. من مؤلّفاته: الخلاصة اللاهوتية، كتاب العلل، في بنود الإيمان، المسائل المختارة، شرح سفر يعقوب، شرح إنجيل يوحنّا. توفّي في فوسانوفا سنة ١٢٧٤م.
(موسوعة الفلسفة ١: ٤٢٦ ـ ٤٣٢، موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٣٣٨ ـ ٣٤٦).

(٢) سورة يوسف ١٢: ١٠٦.

أعزّ من بيض الأنوق[١]، وأبعد تناولاً من العيّوق[٢].

والغرض أنّنا نفحص ونمحّص ذلك التمثيل، ولكن لا من حيث إنّنا نريد أن نثبت أنّ الأقانيم شرك وتعداد في الآلهة، أو أنّ المسيحيّين ـ معاذ الله ـ غير موحّدين.

كلّا، بل من حيث إنّها هل هي من قبيل ما ذكر الكاهن من وحدة القوى الثلاث مع النفس، بل سائر القوى، على ما ألمعنا إليه في أُخريات الجزء الأوّل[٣]؟ أم مسألة (الأقانيم) [فـ] لا تقاس على هذه المسألة، ولا ربط للواحدة بالأُخرىٰ بتّاً؟

وعليه، فنقول بعبارة جليّة:

إنّ الوحدة في الأدلّة إمّا أن تكون حقيقية، والتعدّد ثلاثة اعتباري.

نظير قول بعض الحكماء والفلاسفة الأقدمين باتّحاد العقل والعاقل والمعقول[٤]، بمعنىٰ: أنّ الشيء الواحد البسيط باختلاف النظر والحيثيات واللوازم والآثار يتعدّد اعتباره كمختلف الحقيقة والماهية؛ إذ ليس هو في العين والخارج غير حقيقة واحدة، والتعدّد فرض واعتبار.

وهذا التصوير مستحيل في الأب والابن وروح القدس؛ لأنّه لا يتحقّق ـ

---

(١) هذا مثل يضرب في المبالغة والتناهي. والأنوق: الرخمة تبيض في أعالي الجبال، فلا يوصل إلىٰ بيضها. (الأمثال لابن سلّام ٣٧١، جمهرة الأمثال ١: ٢٣٨ و٢: ٦٤).

(٢) هذا المثل حاله حال المثل السابق. والعيّوق: كوكب بحيال الثريا إذا طلع عُلم أنّ الثريا قد طلعت. (العين للفراهيدي ٢: ١٧٩، جمهرة الأمثال ١: ٢٣٨).

(٣) راجع ج ١ ص ٢٧٣ وما بعدها، وص ٢٨١ وما بعدها.

(٤) انظر المصادر المتقدّمة في ج ١ ص ٢٨٦ هـ ١.

كما عرفت ـ إلّا في الواحد الخارجي الذي لا يكون تعدّده إلّا في الذهن والاعتبار، ويستحيل في المتعدّد عيناً المتكثّر خارجاً.

ومن المعلوم أنّ تلك الثلاثة (الأقانيم) متعدّدة في الخارج منحازة في الوجود، كلّ واحد له ما بإزاء خاصّ ومصداق معيّن.

والمسيح (عيسى) عليه السلام لمّا كان في الأرض بين تلاميذه لم يكن العالم خالياً من الأب والروح، أعني: أنّه ليس الكون خالياً من وجودهما الخاصّ بالنحو الذي يليق بهما وينبغي لهما، غير وجود ناسوت (يسوع) الجالس بين أصحابه في فراغ معيّن كواحد منهم.

وهذا التعدّد الحقيقي المنافي الوحدة الحقيقية التي يستحيل كلّ فروض التعدّد فيها ـ سوى فرض التعدّد الاعتباري ـ مسلّم في المقام لا ينكر.

أعني: أنّ النصارى لا ينكر واحد منهم أنّ لكلّ واحد من أُولئك الأقانيم الثلاثة وجوداً خاصّاً ومصداقاً معيّناً، كما قال الكاهن: (إنّها ثلاثة أشخاص).

إذن فيستحيل التعدّد الاعتباري، كاستحالة الوحدة الحقيقية.

وإمّا أن تكون الوحدة اعتبارية، والتعدّد ثلاثة حقيقي خارجي، على العكس من الفرض الأوّل.

وهذا هو الأقرب إلى النظر الذي يمكن في عالم العلم، ويتعقّل في الذهن والعين، ويصحّ للقائل أن يقول به وللذاهب أن يذهب إليه.

ولكنّه وبالأسف قول بانتفاء الآلهة مطلقاً لا واحدة ولا ثلاثة؛ لما عرفت من أنّ الواجب إذا تركّب أو تعدّد صار ممكناً محتاجاً؛ ضرورة تركّبه ممّا به الاشتراك وما به الامتياز إن كان متعدّداً، واحتياجه إلى أجزائه ومن ركّبها إن كان مركّباً:

إله مركّبٌ ما سمعنا بـإله لذاتـه أجـزاء!

فلو كان كلّ واحد من الأقانيم واجباً وإلهاً ـ كما يقولون ـ لبطلت الآلهة (معاذ الله) لا واحد ولا أكثر.

فلا يقاس شيء من هاتين الصورتين على مسألة (اتّحاد العاقل والمعقول والعقل)، أو مسألة (تغاير الصفات للواجب مفهوماً واتّحادها عيناً وحقيقةً).

فإنّ الاتّحاد بل الوحدة في هاتين المسألتين خارجية عينية، والتعدّد ذهني اعتباري.

ولا مانع فيه ولا ضير؛ فإنّ مفهوم القادر غير مفهوم العالم والحي، ولكن المصداق واحد بسيط خارجي هو منشأ انتزاع تلك المفاهيم المتعدّدة بحسب آثاره المختلفة.

ومن هذا القبيل حديث النفس وقواها.

وقد تقدّم بسط ذلك في مبحث وحدة الذات وعينية الصفات من الجزء الأوّل، فراجع[1].

أمّا الأقانيم فالمحذور فيها وملاك إشكالها هو تعدّدها الخارجي المحسوس والمعلوم بضرورة العقول، وهو المانع من وحدتها حقيقة ووحدتها اعتباراً وحدة تجامع الوجوب؛ لامتناع مجامعة الوجوب مع التركيب.

وليس وراء ذينك الصورتين في منفسح فرض العقل من صورة محتملة صحيحة أو باطلة، إلّا صورة التوحيد المحض، وهي: أنّ الإله هو الواجب الحقّ، والابن والروح من الخلق، لا حظّ لهما من الإلهية، لا نقير ولا فتيل، وأنّ القول

---

(١) راجع ج١ ص٢٨١ وما بعدها.

بربوبيتهما على نحو ربوبية الأب ضلال أو تضليل .

أمّا حديث (الفداء) ، و(المخلّص) ، و(اللعنة) ، و(الذبيحة)[١] ، وأمثال هذه الحروف ، فنغمض عنها عيناً ونغضّ دونها طرفاً !

فإنّ الخوض فيها لا محالة خارج عن نطاق المباحث العلمية ، ولا جرم يكون خدشاً في أديم الأديان وجرحاً لعواطف تلك الأُمّة التي ما أكثر ما فيها من الأعزّة الكرام علينا من جيراننا ومواطنينا .

على أنّ تلك الأُمور صحيحة كانت أم غير صحيحة ، مزيجة كانت أم صريحة ، على أيّ حال كانت ، فهي لا تضرّ بجوهر الدين ولباب التوحيد ، وإنّما الأساس والمهاد هي تلك المسألة : مسألة (الثالوث الأقدس) ..

مسألة (الثالوث) هي التي تستوقف الأفكار وتستدهش الألباب وتقف حياري عندها العقول ما تدري ما تصنع وما تقول !

مسألة (الثالوث) هي التي لها أعظم أثر في الأديان وأكبر ضربة على الشرائع !

فإنّي أشهد ـ وكفى بالله شهيداً ـ أنّه ما دخلت البليّة على سائر الأديان ، ولا هتك حريم التوحيد حتّى صار يعبد الإنسان في الأرض ويطاع الشيطان ، ولا ظهر الغلوّ بين البشر ، واتّخذت الناس بعضها بعضاً أرباباً حتّى ذاع الشرّ وانتشر ، إلّا عند انتشار تلك المقالة ـ أعني : مقالة الأقانيم ـ التي جعلت الإنسان الحادث هو الإله القديم !

---

(١) قارن : الرحلة المدرسية ٨٨ ، الهدى إلىٰ دين المصطفىٰ ٢٩٥ ، تفسير المنار ٦ : ٣٣ ، محاضرات في النصرانية ١٠٧ ، المدخل إلىٰ دراسة الأديان ١ : ٢١٧ ـ ٢١٨ ، العلاقة الجدلية ١٤٦ .

فإنّها هي التي فتحت باب الجرأة للأنام، وسهّلت لهم نقل أقـدام الإقـدام على تلك الخطّة الشاهقة المقام التي تزلق عن أوائل عواصمها عُصُم الأوهـام، حتّى ظهر أهل البدع والأهواء، وانتجت الفساد [و] عقم الآراء.

فبزغت بل زاغت ونزغت جهلة الصوفية، بل والقرامطة[١]، والنصيرية[٢]، وملاحدة الإسماعيلية[٣]، والفرقة المعروفة في عصورنا بالبابية[٤]، وأمثالهم من

---

(١) القرامطة: فرقة سمّيت باسم رئيس لهم من أهل السواد من الأنباط يلقّب قرمطويه.

قالوا: لا يكون بعد النبي محمّد ﷺ إلّا سبعة أئمّة، وساقوا الأسماء من علي عليه السلام إلى الصـادق عليه السلام ثـمّ محمّد بن إسماعيل بن جعفر، اعتبروه الإمام القائم المهدي، وهو رسول ومن أُولي العزم، وهو ناسخ لشريعة محمّد ﷺ.

وزعموا أنّ النبي ﷺ انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الذي أُمر فيه بنصب علي بن أبي طالب للناس إماماً بغدير خم، وأنّ الله بدا له في إمامة جعفر وإسماعيل، فصيّرها في محمّد بـن إسـماعيل، وأنّ الله جـعل لمحمّد بن إسماعيل جنّة آدم، ومعناها عندهم: إباحة المحارم وجميع ما خلق الله، ويزعمون أنّ الدنـيا اثـنتا عشرة جزيرة، في كلّ جزيرة حجّة، وأنّ الحجج اثنا عشر، ولكلّ حجّة داعية، ولكلّ داعية يد.

ويسمّون الحجّة: الأب، والداعية: الأُمّ، واليد: الابن. وقد استحلّوا استعراض الناس بالسيف. (فرق الشيعة ٧٢ ـ ٧٦).

(٢) النصيرية: أصحاب محمّد بن نصير النميري الذي كان يدّعي أنّه نبي بعثه أبو الحسن العسكري الهادي، وكان يقول بالتناسخ، وبربوبية العسكري، وإباحة المحارم، وحلّية اللواط، وأنّ ذلك من التواضع والتذلّل، وأنّه أحد الشهوات والطيّبات، وأنّ الله (تعالى) لم يحرّم شيئاً من ذلك. (فرق الشيعة ٩٣، الملل والنحل ١: ١٨٨ ـ ١٨٩).

(٣) الإسماعيلية: فرقة زعمت أنّ الإمام بعد الصادق عليه السلام هو ابنه إسماعيل، وأنكرت موته في حياة أبيه، وقالوا: كان ذلك على جهة التلبيس من أبيه على الناس؛ لأنّه خاف عليه، فغيّبه عنهم. وزعموا أنّ إسماعيل لا يموت حتّى يملك الأرض قائماً بأمر الناس، وأنّه هو القائم؛ لأنّ أباه أشار إليـه بـالإمامة بـعده، وقـلّدهم ذلك له، وأخبرهم أنّه صاحبه، والإمام لا يقول إلّا الحقّ، فلمّا ظهر موته علمنا أنّه قد صدق وأنّه القائم وأنّه لم يـمت. وهي الإسماعيلية الخالصة. (فرق الشيعة ٦٧ ـ ٦٨).

(٤) البابية: حركة نشأت سنة ١٨٤٤ م تحت رعاية الاستعمار الإنجليزي والروسـي واليـهودية العـالمية بـهدف

←

الملاحدة الذين يجمعهم جميعاً الطبيعية والنيشرية، يجمعها السعي في إزهاق روح الدين والمدنية والمناوأة مع كافّة الأديان والملك والشرائع الإلهية.

وما أقصى مقاصدهم وأغراضهم من ذلك إلّا أن ينسلخ الإنسان من جلباب البشرية والملكات الملكية إلى أخسّ صفات الحيوان من السبعية والبهيمية، ويخلع ما حثّت عليه نواميس الشرائع الحقّة من الصدق والصيانة والحياء والأمانة، فينكح ما يشاء، ويأكل ما يشاء، ويفعل كيف شاء، إباحة عامّة غير مقيّدة بعقال عقل ولا قوانين شريعة ولا موازين عرف ولا عادة، بحيث لا يختصّ أحد بشيء عن غيره، لا عرضاً ولا مالاً ولا غيرهما.

وما وجدوا سبيلاً لترويج هذه الأغراض الكاسدة الفاسدة إلّا بادّعاء الأُلوهية لأنفسهم، أو مرتبة من الربوبية لذواتهم.

فتارةً بدعوى الظهور والتجلّي، وأُخرى بالحلول والاتّحاد، وتارةً بتقمّص اللاهوت في الناسوت[1]، وأمثال ذلك من الألفاظ والاصطلاحات العاطلة عن

← إفساد العقيدة الإسلامية.

أسّسها علي محمّد رضا الشيرازي، وأعلن أنّه الباب، ولمّا مات قام بالأمر من بعده الميرزا حسين علي البهائي، وسمّىٰ الحركة: البهائية، وله كتاب سمّاه: الأقدس.

يعتقد البابيون والبهائيون أنّ الباب هو الذي خلق كلّ شيء بكلمته، وهو المبدأ الذي ظهرت عنه جميع الأشياء. ويقولون بالحلول والاتّحاد والتناسخ، ويقدّسون العدد (١٩) بحيث يجعلون عدد الشهور في السنة وعدد أيّام الشهر (١٩)! ويوافقون اليهود والنصارى في القول بصلب المسيح، وينكرون معجزات الأنبياء، وحقيقة الملائكة والجنّ والجنّة والنار، ويقولون بإباحة المحارم، وبأنّ دين الباب ناسخ لشريعة النبي ﷺ، ويقولون: إنّ القيامة هي تأويل لظهور البهاء. أمّا قبلتهم فهي البيت الذي ولد فيه الباب بشيراز. (الموسوعة الميسّرة في الأديان ٦٣ ـ ٦٤).

(١) قارن: بين الإسلام والمسيحية ٦٩ ـ ٧١، أضواء على المسيحية ١٠٩، المدخل إلىٰ دراسة الأديان ١: ٢٣٦، الموسوعة الميسّرة في الأديان ٥٠٣.

حلية الحقّ وزينة الصدق التي هي بين باطل ممتنع من ملحد مبتدع، وبين معقول ممكن، ولكن لا يقتضي شيئاً من مراتب الأُلوهية والخروج عن ربقة العبودية.

وتالله، ما دبّ هذا الداء العضال، ولا باءت الديانة الإسلامية بهذا الوبال، ولا نهج مبتدعوها هذا النهج، ولا استدرجوا بهذا الدرج، إلّا من غلوّ النصارى في (المسيح) ودعواهم له الأُلوهية، وهو عبد لله مخلوق له، كما قال هو*: «إنّه لم يأت من نفسه، بل الله أرسله»**، و: «إنّه لا يقدر أن يفعل من نفسه شيئاً»***، و: «إنّه لا يفعل ولا يتكلّم إلّا بما علّمه الأب»****، و: إنّه كان يقول: «يا أبتاه، في يدك استودع روحي»*****، وإنّه ابتدأ يحزن ويكتئب ويدهش، وقال للتلاميذ: «نفسي حزينة جدّاً حتّى الموت»******، وصرخ (يسوع) بصوت عظيم وأسلم الروح، إلى أمثال ذلك من لوازم العبودية وخواصّ المخلوقية وما لا يجتمع مع شيء من الأُلوهية.

وكلّ ذلك قد صرّحت به أناجيلهم، ونصّت عليه رسائلهم.

فرفضوا أمثال هذه ممّا يقضي بها العقل والضرورة ويحكم بها الوجدان والبديهة، وتمسّكوا بمجازات واهية واستعمالات واهنة تصادم ضرورة العقل، من مثل: كونه إلهاً وابناً، وأنّه قام من القبر بعد دفنه[1]، وأشباه ذلك ممّا لا يُعوّل

(*) في الثانية والأربعين من يوحنّا. (منه ﷺ).

(**) في الثلاثين من خامس يوحنّا. (منه ﷺ).

(***) في الثامنة والعشرين من ثامنه. (منه ﷺ).

(****) في السادسة والأربعين من الثالث والعشرين من لوقا. (منه ﷺ).

(*****) في متّى. (منه ﷺ).

(******) في مرقس. (منه ﷺ).

(١) انظر: أضواء على المسيحية ٦٥ ـ ٦٦ و٧٦، المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٢٣٣.

عليه في إثبات شيء من أُصول الديانات وأركانها، فضلاً عن مثل هذا الأصل الذي هو الركن الوطيد ودعامها الوحيد.

نعم، وكلّ تلك الكلمات مصروفة عن ظواهرها بقرينة حكم العقل وقطعه وبتّه.

وهي محمولة على إرادة التعظيم والتكريم، وأنّ شخص (يسوع) من ناحية الإله وليّ الهداية والتعليم، فيجب إطاعته وامتثال أمره كما يجب إطاعة الإله.

ما هي إلّا لبيان أنّ له من الإله الرابطة الخاصّة والنسبة الكاملة، وهي رابطة القرب إليه والزلفى منه والكرامة عليه.

وإلّا فقد ورد مثل هذه الكلمات في حقّ غير (عيسى) من الأنبياء، كما في [سفر] الخروج في حقّ (هارون) خطاباً (لموسى): « وهو يكون لك فماً، وأنت تكون له إلهاً »[1]، وقوله (تعالىٰ) (لموسى) أيضاً: « أنا جعلتك إلهاً لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيّك »[2].

وعليه، فلماذا لا يقولون بإلوهية (موسى)، وهم يعترفون بنبوّته وصحّة عهوده ؟!

وليس المراد بكونه إله فرعون إلّا بيان وجوب إطاعته؛ لأنّه رسول الله، وإطاعة الرسول إطاعة المرسل فيما به الرسالة.

والغرض أنّا لا نكاد نعرف وجهاً من عقل أو شرع لهذا الغلوّ الذي دانت به

(١) لاحظ كتاب: الله والأنبياء في التوراة ١٩٩، حيث نُقل عن سفر الخروج الإصحاح ٤: ١٦ ـ ١٧.

(٢) لاحظ المصدر السابق ٢٣، حيث نُقل عن سفر الخروج الإصحاح ٧: ١ ـ ٢.

الأُمّة المسيحية وانفردت به، مع كمال عقولها وصحّة أفكارها ونفوذ خواطرها.

عجباً لهذه الأُمّة ـ وهي على ما هي فيه من وفور الحصّة من الحصافة ـ كيف جعلت هذه المقالة من أصول ديانتها، وهي على ما هي عليه من وضوح الحال؟! ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[1].

وأنت لو تدبّرت وأنصفت كفتك هذه الآية عن الخصومة وأخذت لنفسك منها بين الفريقين الحكومة، وأمثال ذلك كثير في كتاب الله.

فقد تأكّدت عنايته واشتدّت رعايته في النهي عن هذه الغائلة والاحتجاج على فسادها وشناعتها، علماً منه (جلّ شأنه) بما يترتّب من المفاسد على تلك العقيدة وبما أعمل الشيطان فيها على الخلق من المكيدة، وما فيها من العدوى والسراية إلى اختلال سائر الأديان وإذهاب استقامة جلّ المذاهب.

[إشارة إلى الغلاة من فرق الإسلام]

انظر كيف دبّ هذا الداء العياء إلى بعض فرق الشيعة، فافترقوا فرقاً شتّى، وابتدعوا طرقاً مختلفة، من (سبائية)[2]، و(خطّابية)[3]،

---

(١) سورة النساء ٤: ١٧١.

(٢) السبأية: أصحاب عبدالله بن سبأ اليهودي الذين قالوا: إنّ علياً لم يقتل ولم يمت، ولا يقتل ولا يموت، حتّى يسوق العرب بعصاه، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

وهي أوّل فرقة قالت في الإسلام بالوقف بعد النبي ﷺ، وأوّل من قال منها بالغلوّ. (فرق الشيعة ٢٢).

(٣) الخطّابية: أصحاب أبي الخطّاب محمّد بن أبي زينب مقلاص الأجدع الأسدي البرّاد الذين قالوا بأُلوهية

←

و(إسماعيلية)[١]، و(نصيرية)[٢]، و(حلّاجية)[٣]، و(شلمغانية)[٤]، وغيرهم ممّن ادّعى الإلوهية في أئمّة الهدى الذين هم أظهر عبيد الله في العبودية له والطاعة والانقياد إليه.

حتّى إنّ الإمام جعفر الصادق (سلام الله عليه) لمّا سمع بمقالة الضالّ الشقي (سعيد بن الخطّاب)[٥] في حقّه عليه السلام ارتعدت فرائصه، وجعل يبكي بكاء

← الإمام الصادق عليه السلام، وبنبوّة أبي الخطّاب، وأحلّوا المحارم من الزنىٰ والسرقة وشرب الخمر، وتركوا أركان الإسلام. وقد لعنه الصادق عليه السلام ودعا عليه. وهي على أربع فرق. (فرق الشيعة ٤٢، نقد الرجال ٤: ٣٢٨).

(١) تقدّم الكلام عنها مختصراً في ص٣١٥ هـ٣.

(٢) تقدّم الكلام حولها في ص٣١٥ هـ٢.

(٣) الحلّاجية: فرقة تنسب إلىٰ أبي المغيث الحسين بن منصور الحلّاج الفارسي. كان في أوّل أمره يتكلّم على لسان الصوفية، ويتعاطى العبارات التي تسمّيها الصوفية: الشطح. وهو: أن يتكلّم بكلام يحتمل معنيين أحدهما مذموم والآخر محمود. وكان يدّعي في كلّ علم، حتّىٰ افتتن به أهل العراق وجماعة من أهل طالقان. فأمر المقتدر بالله العبّاسي بقتله، فقُتل بصورة وحشية سنة ٣٠٩هـ. والناس في أمره مختلفون، فمنهم من كفّره، ومنهم من عظّمه. وقال أتباعه: إنّه حيٌّ، وإنّ الذي قُتل كان شخصاً أُلقي عليه شبهه. (التبصير في الدين ١٣٢ ـ ١٣٤).

(٤) الشلمغانية: أصحاب أبي جعفر محمّد بن علي الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر. كان فقيهاً من فقهاء الشيعة متقدّماً في الأصحاب، فحمله الحسد لأبي القاسم الحسين بن روح على ترك المذهب والدخول في المذاهب الردية، فخلط وظهرت منه مقالات منكرة في الغلوّ وغيره، فانتشر الكفر والإلحاد عنه، فخرج التوقيع فيه على يد أبي القاسم بلعنه والبراءة ممّن تابعه وشايعه، فاجتمعت الطائفة على لعنه والبراءة منه، فأخذه السلطان، فقتله وصلبه ببغداد سنة ٣٢٣ هـ. كانت له بعض الكتب والروايات، منها: كتاب التكليف، كتاب ماهية العصمة، كتاب المباهلة، كتاب الأنوار.

(رجال النجاشي ٣٧٨ ـ ٣٧٩، منتهىٰ المقال ٦: ١٢٣ ـ ١٢٤).

(٥) في الواقع أنّ الاسم المذكور ليس بهذه الصيغة، وإنّما الاسم الصحيح لصاحب الفرقة الخطّابية هو أبو الخطّاب محمّد بن أبي زينب الأسدي الذي تقدّم بعض الكلام عنه قبل قليل، فلاحظ.

الثكلى، حتّى كأنّه كان يخشى أن ينزل عليه العذاب أو تصيبه صاعقة فتحرقه[١] حذراً من تلك المقالة فيه.

وكذلك قبله جدّه (علي) عليه السلام لمّا سمع بمقالة (ابن سبأ) وأصحابه فيه خرّ ساجداً لله على الأرض، ثمّ رفع رأسه، وقال:

لمّا رأيت الأمر أمراً منكراً أجّجت ناري ودعوت قنبراً[٢]

على ما هو مشهور في مظانّه، ثابت تفصيله في مواضعه[٣].

ثمّ لم تزل هذه البليّة تسري والمصيبة تجري من أوّل الإسلام إلى هذه الأيّام، تحلّ وبها تنحلّ قوى سائر النحل وتميل، وتتمالأ على كلّ الملل، وتدبّ على الخلسة والخفاء دبيب النملة على الصفا في الليلة الظلماء.

كما تحسّ بذلك لو تدبّرت في جميع سلاسل الصوفية في حقّ مرشديهم ورؤساء سلاسلهم ممّن لا يسعني أن أبوح بأسمائهم وأنصّ على أعيانهم، وشهرتهم كافية عن ذكرهم.

وهكذا لا تزال تلك العقيدة تصنع ذلك في سائر الأديان، كلّ على اختلاف لحنه وتغيير عبارته أو طريقته، والجميع تحت رابطة إشراك غير الله في العبودية وضمّ خلقه إليه في الأُلوهية، كلٌّ على نحو خاصٍّ به وطريق انفرد بابتداعه.

---

(١) قارن: الفَرق بين الفِرق ٢٢٣، رجال الكشّي ٢: ٥٧٥ وما بعدها و٥٨٥، الملل والنحل ١: ١٧٩، نقد الرجال ٤: ٣٢٨.

(٢) راجع الديوان المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام ٦٣.

(٣) انظر: الفَرق بين الفِرق ٢١٣، رجال الكشّي ٢: ٥٩٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ٧ و٤: ٢٨٥.

وقد يقال: إنّ هذه الحادثة مشكوك في صحّتها، وذلك باعتبار التشكيك في شخصية ابن سبأ ووجوده. وراجع ما كتبه العلّامة العسكري عن هذه الشخصية الخيالية. كما يمكن أن يقال أيضاً: إنّ بعض الفرق المذكورة انقرضت في زمانها، وكان بعضها مقتصراً على شخص أو عدد من الأشخاص.

ومن ذلك: ما حدّث أخيراً في بعض الإمامية من الفرق المعروفة: بالكشفية[١]، والشيخية[٢].

ولعلّها هي من بعض تلك الفرق الأُولى قد تغيّرت أسماؤها واختلفت عناوينها.

وأما وعزّة وحدانية الله، إنّ جميع من ذكرناه ومن لم نذكره من هؤلاء إنّما شربوا من ذلك الماء واستنشقوا ذلك الهواء، وما أخذوا ما عندهم من التعاليم إلّا من تلك الأقانيم، وعليها نهجوا ومنها درجوا!

وإلّا فشريعة الإسلام المقدّسة ـ بالنظر إلى جوهرها وأصل كيانها ـ إنّما جاءت بالبساطة والمحوضة والخلوص والاستقامة..

جاءت بالتوحيد المحض والتنزيه الغضّ، وما هو في شريعة العقل حتم وفرض..

جاءت بلا إله إلّا الله لا نعبدُ إلّا إيّاهُ: ﴿**مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[٣].

ولكن شوّهوا جميل محيّاها ودنّسوا صقيل سجاياها بما أدخلوه فيها من غيرها ومزجوه بها من مقالات سواها، حتّى عاد لا: ﴿**يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا وَهُم**

---

(١) الكشفية: اصطلاح يطلق على جماعة من الشيخية. والكشفي هو محمّد صالح بن عبدالله الترمذي المشكيني. (دائرة المعارف الشيعية العامّة ١٥: ١٧٦).

(٢) الشيخية: فرقة من فرق الشيعة كالإخبارية. أصلها الشيخ أحمد الإحسائي، وتابعه الرشتي. في مذهبهم إنكار بعض الضروريات الدينية، وفيها بعض العقائد الفاسدة. كانوا يدّعون أنّ الشيخ أحمد هو قطب زمانه، فهو العقل الذي يعبد الرحمان وتكتسب به الجنان، وأنّ نائبه هو الرشتي بالنصّ الجلي، فهو القطب وهو سبيل الله وباب الله الذي منه يؤتىٰ. (المصدر المتقدّم ١١: ١٨٨ ـ ١٩٠).

(٣) سورة غافر ٤٠: ١٤.

مُشْرِكُونَ﴾[١].

نعم، عاد حضرة الحقّ (عزّ شأنه) وإلوهيته المقدّسة وكأنّها مسخّرة بالباطل وحلية كلّ عاطل ولعبة كلّ جاهل! يدّعيها وتدّعى لكلّ مخلوق ضعيف، لا بل كلّ من لو تأمّل في نفسه لوجدها أقذر بالوعة أو...

وما هي بإحدى عجائب الدنيا وغرائبها، فما زالت الأصنام من الجمادات والحيوانات من بدء الدنيا وإلى اليوم تُعبد من دون الله.

[كلمات مستطردة مع الأُمم الموحّدة]

ولكن موضع الأسف واللهف للموحّدين من الأُمم من الإسلام والنصارى، كيف رجع بعضهم إلى عبادة الأوثان القهقرى، وقد تقدّموا بشرائع الله المقدّسة، فما بالهم تأخّروا إلى وراء ؟!

والغرض أن ليس القول بالحلول والاتّحاد إلّا محض زندقة وإلحاد، وكذا القول بالظهور والتجلّي، إلّا على وجه تجلّي قدرة الصانع في أثر صنعه وظهور كمال الفاعل من كمال فعله، لا كتجلّي الحقيقة والذات أو الصورة في المرآة (تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً).

وبعد هذا كلّه، فإن جنحت الأُمّة المسيحية للسلم فاجنح لها[٢]، وقل: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾[٣]، ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٤]، ثمّ قل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

(١) سورة يوسف ١٢: ١٠٦.

(٢) إشارة إلى قوله (تعالى) من سورة الأنفال (٨: ٦١): ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.

(٣) سورة الأنعام ٦: ٥٤، سورة الأعراف ٧: ٤٦.

(٤) سورة الأنعام ٦: ١٢.

تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1]، وإن أبوا فقل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[2].

ثمّ لا تذهب نفسك عليهم حسرات، فقد جرى في الأزل قلم المشية ونفذ قضاء القدرة لما هو أعلم به من المصلحة والحكمة أن لا تزال هذه الأرض معبداً للشيطان ومظهراً لشوكته ومقرّاً لتخت مملكته، يستعبد بها عباد الله ويطاع فيها من دون الله.

ألا ترىٰ أنّ الله (سبحانه) أرسل من الأنبياء والمرسلين والأوصياء والصالحين منذ بدء الخليقة إلى خاتم الحقيقة ما يزيد على مراتب الأُلوف، وأيّدهم بالمعجزات القاهرة والآيات الباهرة، فبثّوا من النصائح والحكم ما يذيب الصمّ ويستنزل العصم، ودعوا إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة وتنزيهه عن الشريك مبلغ وسعهم ومنتهى جهدهم، وسفّهوا الأحلام وضلّلوا الأنام في عبادة الأصنام، وأعادوا الحقّ أجلى للحسّ من الشمس..

ثمّ كان غاية كلّ عنائهم ونتاج جميع سعيهم من أوّل الدهر إلى هذا العصر أنّه لم تنجل الغبرة إلّا والوثنيّون ـ كما تراه اليوم ـ أكثر من الموحّدين بأضعاف مضاعفة!

فانظر إلى رواج الباطل وانتشاره وكساد الحقّ وانكساره، وتبصّر إن كنت من أهل البصيرة، واعتبر إن كنت من ذوي العبرة، والله ولي التوفيق لنا ولك، وهو

---

(١) سورة آل عمران ٣: ٦٤.

(٢) سورة البقرة ٢: ٢٥٦.

أرحم الراحمين.

واعلم أنّ مسألة الأقانيم خفيفة المؤنة لا تحتاج إلى إقامة دليل وبرهان وتكلّف إطالةٍ في البيان.

وخلاصة القول فيها: إنّها مع القول بالوحدانية جمع بين النقيضين، وهو في الاستحالة والفساد من أجلى البديهيات وأوّل الفطريات، ومع عدم القول بها يلزم التركيب المساوق للإمكان، أو التعدّد المستحيل اجتماعه مع الوجوب.

وقد مرّ عليك تفاصيل كلّ ذلك في فصل التوحيد، فلا نطيل بالإعادة.

[نسبة وقوع المعاصي إلى الأنبياء، والجواب عنها]

ومثل هذه المقالة في الوهن والخطل المقالة: بأنّ جميع الأنبياء قد ارتكبوا الخطايا، وأنّ النبي المعصوم من الخطيئة ليس هو إلّا (عيسى) عليه السلام[1]!

أمّا معشر الإمامية فقد عرفت[2] أنّهم جميعاً يقولون بعصمة جميع الأنبياء.

ولعلّ سائر المحقّقين من فرق المسلمين يذهبون إلى ذلك[3].

نعم، الأنبياء كلّهم معصومون من كلّ خطيئة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[4] وإن تفاوتت مراتب كمالاتهم ومنازل قربهم من الله، ولكنّهم سواء في عدم ارتكاب المعاصي المحرّمة ومناهي الله المحتّمة، لا فرق بين (عيسى) وغيره.

---

(١) نُقل ذلك في الهدى إلى دين المصطفى ٤٦ وما بعدها.

(٢) عرفت ذلك في ج١ ص٣٢٠ وفي هذا الجزء ص٣٨.

(٣) راجع الهامشين الأوّل والثاني من ص٣٨.

(٤) سورة البقرة ٢: ٢٨٥.

كلّ ذلك نظراً إلى تنزيه الله (جلّ شأنه) عن أن يرسل لتكميل الخلق من هو ناقص في ذاته، ويبعث مصلحاً للأنام من هو فاسد في نفسه، فإنّ ذلك قبيح عند العقل، والله (جلّ شأنه) منزّه عن كلّ قبيح.

وأناجيلهم تشهد بما ذكرنا، حيث تقول في الثالثة عشر من (متّى): « أنتم ملح الأرض، ولكن إن فسد الملح فبماذا يملّح ؟! لا يصلح بعد لشيء، إلّا لأن يطرح خارجاً ويداس من الناس »، وقريب منها ما في الرابعة والثلاثين من (١٤ لوقا)[١].

وخلاصة القول: إنّ كلّاً من الدعويين باطلة بحسب أسفارهم وأناجيلهم:

أمّا أنّ جميع الأنبياء قد ارتكبوا المعصية وقارفوا الخطيئة، فقد عرفت ما يدلّ على بطلانها ويقتضي فسادها من قوله: « أنتم ملح الأرض »، والحكمة فيه مطّردة والعلّة سارية، فلا يختصّ بمورده.

على أنّ لها نظائر كثيرة في العهد القديم في بني (إبراهيم وموسى وهارون).

نعم، في العهدين كثير ممّا ينصّ على ارتكاب جملة من الأنبياء أشنع المعاصي، كما تقدّم نقله في (هارون) من اتّخاذ العجل، و(لوط) في زناه ببناته، و(داود) بالمرأة المحصنة زوجة (أُوريا الحثّي)، ودفعه إلى القتل لتخلص له حليلته[٢]، وكثير من أمثال ذلك، (سبحانك اللهمّ وغفرانك) ! إنّ ناقل الكفر ـ كما قيل[٣] ـ ليس بكافر.

---

(١) إنجيل لوقا ١٠١.

(٢) تقدّم ذلك في ص٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٣) نُقل بلفظ: (حاكي الكفر ليس بكافر) في: ميزان الاعتدال ٤: ١٦٢، لسان الميزان ٦: ٧، بحار الأنوار ٤٢: ٥ و١٠٤: ١٢٠.

فكتبهم إذاً متعارضة، والترجيح هنا لما وافق حكم العقل حيث يتعارض مع النقل سيّما في مثل هذا المقام من أُصول الأديان.

وأمّا أنّ (عيسى) هو النبي المعصوم من الخطيئة، فنحن نقدّم إليك أوّلاً أنّا معاشر الإسلام أنطق بحمده وأعرف بجليل شأنه، وقرآننا الكريم أشدّ إعلاناً بمجده وأقوى اعتصاماً بتنزيهه وعصمته، ولا نحيط برفيع قدره وعظيم حقّه، ولا نحطّ من شأنه ورتبته، كما لا ننزله فوق منزلته.

ولكن نقول آسفين: إنّ أُولئك الذين يزعمون ذلك له وينزلونه فوق المقام الذي أنزله الله فيه قد نسبت أناجيلهم إليه الخطايا الكثيرة، والمعاصي الكبيرة، كما تقدّم من نسبة شرب الخمر إليه، والعهدان يصرّحان بالنهي عن شربها ولا سيّما في حقّ الأنبياء المنزّهين عن اللهو والباطل، وهي من اللهو بالضرورة، مضافاً إلى حكم العقل بقبح السكر وإزالة الشعور البتّة.

ومثل ذلك نسبة الكذب إليه والخلف في قوله (معاذ الله من خطور ذلك في الخيال في حقّ رسل الله المكرّمين وصفوته القدسيّين).

راجع (يوحنّا)، تجده يوحي إليه ويومي، بل ينصّ عليه.

وهذان أصلان من أُصول دياناتهم، وقس عليها باقي أُصولهم وفروعهم!

وقد تقدّمت إليك وأطلعتك على دخيلة أمري ونخيلة سرّي، وأشهدت الله (جلّت عظمته) أنّه ما كان من نيّتي ولا من ركيزة قصدي إلّا غضّ النظر وغمض العين عن مساوي الأغيار والتعرّض لكشف ستارها وإبداء عوارها، ولكن: (جنت على أهلها براقش)* !

(*) مثل من أمثال العرب، وحكايته مشهورة في كتب الأمثال، ولعلّه لا يخفى على ذوي الفضل لطفها. (منه رحمه الله).

←

أراد صاحب (الضلالة) أن يفضح فافتضح ، وأن يهتك فهُتِك ، وأصبح في أُمّته ولملّته عين الصديق الجاهل الذي هو أضرّ من العدوّ العاقل ، وهو الذي ثلم عليها هذه الثلمة وأسال على رمولها ذلك السيل : (رام نفعاً فضرّ ، وحاول نصحاً فغرّ) !

صاحب (الضلالة) هو أضلّنا عن القصد ، وصدّ بنا عن سبيل الأدب

← أقول : أمّا قصّته فتجدها في مجمع الأمثال ١ : ٦٣٧ ، وإليك النصّ :

(كانت براقش كلبة لقوم من العرب ، فأُغير عليهم ، فهربوا ومعهم براقش ، فاتّبع القوم آثارهم بنباح براقش ، فهجموا عليهم ، فاصطلموهم.

قال حمزة بن بيض :

لم تكن عن جناية لحقتني لا يساري ولا يميني رمتني
بل جناها أخ عليّ كريم وعلى أهلها براقش تجني

وروى يونس بن حبيب ، عن أبي عمرو بن العلاء ، قال : إنّ براقش امرأة كانت لبعض الملوك ، فسافر الملك واستخلفها ، وكان لهم موضع إذا فزعوا دخّنوا فيه ، فإذا أبصره الجند اجتمعوا ، وإنّ جواريها عبثن ليلة ، فدخّن ، فجاء الجند ، فلمّا اجتمعوا قال لها نصحاؤها : إنّك إن رددتهم ولم تستعمليهم في شيء ودخّنتهم مرّة أُخرى لم يأتك منهم أحد ، فأمرتهم فبنوا بناءً دون دارها. فلمّا جاء الملك سأل عن البناء ، فأخبروه بالقصّة ، فقال : على أهلها تجني براقش ، فصارت مثلاً.

وقال الشرقي بن القطامي : براقش امرأة لقمان بن عاد ، وكان لقمان من بني ضدٍّ ، وكانوا لا يأكلون لحوم الإبل ، فأصاب من براقش غلاماً ، فنزل مع لقمان في بني أبيها ، فأولموا ونحروا الجزر ، فراح ابن براقش إلى أبيه بعرق من جزور ، فأكله لقمان ، فقال : يا بنيّ ، ما هذا؟ فما تعرّفت قط طيباً مثله ، فقال : جزور نحرها أخوالي ، فقال : وإنّ لحوم الإبل في الطيب كما أرى ! فقالت براقش : جملنا واجتمل ، فأرسلتها مثلاً. والجميل : الشحم المذاب. ومعنى جملنا ، أي : أطعمنا الجميل. واجتمل ، أي : أطعم أنت نفسك منه. وكانت براقش أكثر قومها إبلاً ، فأقبل لقمان على إبلها ، فأسرع فيها وفي إبل قومها ، وفعل ذلك بنو أبيه لمّا أكلوا لحوم الجزور ، فقيل : على أهلها تجني براقش.

يضرب لمن يعمل عملاً يرجع ضرره إليه).

ولاحظ : الأمثال لابن سلّام ٣٣٣ ، جمهرة الأمثال ٢ : ٢٥٢.

والحشمة، وحاد بنا عن حفظ الحرمة والكرامة، وصيّرنا نترامى بالمراجم[١] ونتكايل بالمحاجم[٢]!

وكان ذلك من أبغض الأشياء إلينا وأشدّها وقعاً علينا.

وما كان أغنانا وأبعدنا مكاناً عن دفع القلم إلى أمثال هذه المخاضّة، وإلقائه في حمأة تلك الأحوال والأوحال، ولكن ألا لا صفا عيش من كدّر صفونا، ولا حلم الله عمّن أهاب بذهاب حلمنا، حتّى جرى اليراع بما جرى عفواً واندفع الطبع بما سبق رسلاً!

وعلى أيٍّ، فحيث جرى ذكر عصمة الأنبياء حَسُن بل وجب بعض القول فيها دفعاً لبادرتك بالانتقاد ومبادرتك بالإيراد، قائلاً:

كيف تدّعون للأنبياء العصمة، وكتابكم ينطق بخلاف ذلك ويصرّح في حقّ جملة من الأنبياء بوقوع الذنب منهم والمعصية، فلماذا تقول بغير ما في كتابك وتخصّ الأناجيل بعابك؟!

فاعلم (هداك الله) أنّ علماء الإمامية من أوائل الإسلام إلى اليوم قد أشبعوا القول في هذا المسألة، وما تركوا فيها قدر قلامة ظفر من شبهة أو ريبة، وقد ذكروا لكلّ واحد من تلك المقامات التي أشرت أنت إليها ونظرت معوّلاً في الطعن عليها أجوبةً تخصّها ووجوهاً تليق بها ولا تتعدّاها.

ونحن لا يسعنا ذكر تلك التفاصيل وتعداد تلك الموارد واحداً بعد واحد،

---

(١) الرجام: حجارة ضخمة. (صحاح اللغة ٥: ١٩٢٨).

(٢) المِحجَم: قارورة الحاجم للدم. (المصدر السابق ٥: ١٨٩٤).

فاطلبها من مشروعاتها وخذها من مقاماتها[١].

[الجواب العامّ عمّا ورد في القرآن من نسبة المعاصي إلى الأنبياء]

ولكنّا نعطيك الجواب العامّ الكلّي الذي تنحلّ به جميع العُقد، وتزول به كلّ هاتيك الشبه، ويتّضح لك به الفرق بين الموردين وتعرف الميّز بين عهدة القرآن وعهدة العهدين، وأُقيم عندك العذر بوجه واضح بل بميزان راجح في سبب قدحي لهذا ومدحي لذاك وتوزيع انتقادي واعتقادي بين ذا وذاك.

هو: أنّ النظر دلّنا والفكر قادنا، ولم نجد بدّاً من الأمر الحتم والقول الجزم بأنّ الدليل العقلي القاطع إذا حكم فيما له الحكم فيه ثمّ عارضه الدليل النقلي، فهو إمّا مقطوع على أنّه من واضع الشريعة المعصوم من الخطأ والخطيئة، أم يكون لذلك محتملاً والأمر فيه بعد مبهماً مجملاً ولا قاطع عليه.

فأمّا المقطوع أنّه منه فإن كان من الظواهر التي تصلح للتأويل أوّلناه على ما يوافق الدليل العقلي، وأرجعناه إليه على موازين تلك اللغة وقوانينها الخاصّة بحيث لا يُعدّ غلطاً بين أهل عرفها وذوي المهارة فيها، ولا مجازاً مستهجناً عند خطبائها وفرسان البيان في ميادينها.

وإن كان من النصوص التي لا تصلح للتأويل ولا تقبل الحمل والتحويل ولا التغيّر ولا التبديل فقد عرفت أنّا نعدّه من المتشابه الذي نؤمن به على إجماله ونقول: الله ورسوله أعلم بحاله، ولا نرفع اليد عن الدليل العقلي لمعارضة ذاك الدليل له ولا سيّما الفطري الضروري بحال من الأحوال.

---

(١) راجع: تنزيه الأنبياء والأئمّة ٤٣ ـ ١٩٨، اللوامع الإلهية ٢٤٧ ـ ٢٨٠، دلائل الصدق ٤: ٥٠ ـ ١٩٥.

وأمّا المشكوك أنّه من صاحب الوحي ومالك الأمر والنهي فوجود مثل تلك النصوص التي لا تقبل التأويل على موازينه الصحيحة وقوانينه الدائرة المعمولة المعارضة تلك النصوص لحكم العقل القاطع أقوى دليل وشاهد على عدم صدورها من ذلك العقل الكامل، فإنّهما رسولان: ظاهر وباطن، وكلّ منهما لأخيه مصدّق وموافق.

فإذا تحقّق لديك هذا الأمر الجلي وقام الميزان عندك في تعارض الدليلين العقلي والنقلي، نقول في تحقيق التطبيق:

خذ ـ يا صاحب الإنجيل ـ كتاب الله الجليل وأحصِ ما ترى أنّه من ذلك القبيل، فهل تجد أصرح وأنصّ وأوضح وأخصّ في ارتكاب النبي للخطيئة والمعصية من قوله (تعالىٰ): ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[1]؟! فإنّ الغواية والمعصية قد يُتراءىٰ أنّه ليس فوقهما لفظ في النصوصية والصراحة.

ومع ذلك فجهابذة المفسّرين ـ ولا سيّما الإمامية منهم الذين يلتزمون بتنزيه الأنبياء وعصمتهم ـ قد ذكروا في هذه الآية من الحمل الراجح والوجه الصحيح ما لا يكاد يرتاب فيه أعجمي ولا فصيح[2]!

وهو: أنّ المعصية تستعمل شائعاً في مخالفة الأمر، والأمر أعمّ في الاستعمال من الوجوب والندب.

وهذا لا يشكّ فيه أدنى من له دُربة في المحاورات ودراية بأساليب العبارات.

---

(١) سورة طه ٢٠: ١٢١.

(٢) قارن: التبيان ٧: ١٩٢ ـ ١٩٤، مجمع البيان ٧: ٦٣، تفسير البيضاوي ٣: ٩٨، الجوهر الثمين ٤: ١٧٦.

وإنّ (آدم) عليه السلام كان نهيه عن أكل الشجرة نهي تنزيه وكمال، ومعصيته عبارة عن تفويت ما هو الأولى له من الترقّي في مراتب القرب ومنازل القدس ومحالّ الكرامة، لا أنّه فعل مبغوضاً لله في ذاته قبيحاً في حدّ نفسه.

وذاك أنّ الله (جلّت ألطافه) أحبّ (لآدم) أن يعافى من دار المحنة والبلاء والتكليف، ويُمتّع في دار الراحة والخلد والنعيم، فاختار (آدم) لنفسه غير ما أحبّه الله له، وترك الأولى به والأكمل له، فوكّله الله إلى عمله وما اختاره لنفسه، وخشي (آدم) أن يكون قد غضب الله عليه وقضى أن يخلّده في دار المحنة ولا يعيده إلى دار النعيم، فبكى على خطيئته حتّى تلقّى تلك الكلمات التي تاب بها الله عنه، وغفرله تلك الزلّة، وأعاده إلى دار قراره ونعيم جواره.

ولكنّه (غوى)، وما أكثر ما استعملت الغواية بمعنى: الخيبة[1]، فإنّه خاب من الرقي إلى المقام الذي كان قد أُعدّ له، ولم يجد الله له عزماً وثباتاً على ما يرشده إليه ويدلّه عليه من المصالح غير الراجعة إلى التكليف والأمر المحتم.

وهذا معنىً لو لم يكن ظاهراً من الآية نفسها أو بضميمة جميع ما ورد في قصّة (آدم) من الآيات، لكان متعيّناً حمل الآية عليه.

وأقصى ما هناك ارتكاب شيء من المجازات الشائعة التي لا يخلو شيء منها من شاهد في العرف واللغة.

هذا كلّه مع الإغماض عن الدليل العقلي في باب عصمة الأنبياء، فكيف والحال ما عرفت!

---

(١) انظر: لسان العرب ١٠: ١٤٩، المصباح المنير ٤٥٧.

[حال الأنبياء في العهدين، عود على بدء]

أتراك لو تعبت وطلبت وفحّصت ومحّصت كلّ باب من ذلك الكتاب، فهل تجد فيه نسبة الزنىٰ بمحصنة أو بمحرم أو بأجنبية ؟! أو هل ترى فيه أنّ نبيّاً شرب خمراً، أو أخلف وعداً، أو اتّخذ دون الله إلهاً ؟! إلى أمثال ذلك ممّا هو نصٌّ في معناه قصرٌ على مؤدّاه، لا تجد له محملاً ولو تمحّلت، ولا وجهاً حسناً ولو اجتهدت.

قل لنا (سدّد الله قولك): بأيّ تأويل تؤوّل أنّ (لوطاً) زنىٰ ببناته بعد شرب الخمر ؟! أو أنّ (داود) زنى بزوجة (أُوريا)، ثمّ سعى في قتله ؟!

بحرمة الإنصاف، بذمّة الصدق والعفاف، أيحسن عندك أو يليق لديك أو يساعدك وجدانك أن يكون مثل ما في الثانية عشرة من (رابع حزقيا) من: أنّ الله (تعالى) أمر (حزقيال) النبي أن يأكل كعكاً من الشعير الذي يخبزه أمام عيون بني (إسرائيل) على الخرء الذي يخرج من الإنسان[١] ؟!

أنصف أنت من نفسك وتدبّر في ذات عقلك، وانظر أهكذا ينبغي أن يكون وحي الله إلى رسله وكلامه مع أوليائه ؟!

وأُقسم لولا عصائب العصبية وأردية العادات الردية لحكمت أنت أيّها الموسوي أو المسيحي أنّه لو صدر مثل هذا الكلام من أحد المخلوقين لعددته من السفلة المرذولين الذي هو من البذاءة والدناءة بحيث لا يبالي بما يخرج من فيه ولا بما يقول ولا ما يقال فيه !

---

(١) لاحظ الهدىٰ إلى دين المصطفى ٢٧٩.

وهذا كلّه ممّا يدلّك على ما قلناه من: أنّ هذه الصحف التي يزعمون أنّها هي التوراة والأناجيل ليست هي التي أثنى عليها الله في ذلك الكتاب الأخلاقي الأدبي باللسان المبين العربي.

ثمّ أنت تجد هذا الكتاب الكريم كيف أعلن بمجد الأنبياء بكلّ بركة وتكريم تعميماً وتخصيصاً وتصريحاً وتنصيصاً على آحادهم وجموعهم مجموعين في سور مجتمعة ومتفرّقين في آيات متفرّقة.

وهذا القرآن بين يديك، وليس هو ببعيد عنك ولا بعزيز عليك، ولعلّك تحفظ أكثره وتسبر كلّ حين سوره، فراجعه وإرجع إليه، واعمد له واعتمد عليه، وانظر هل تجد من النصف والكرامة والصحّة والاستقامة أن تجعل تلك الكتب والقرآن في قران، أو تقول: إنّهما سيّان ؟!

حاشا لك وكلّا، والأمر أوضح وأجلى.

ولا أظنّ أنّ الجهل أو العناد يبعد بك عن الحقّ هذا البعاد، أو يحملك على المحال أو يحلّك بتلك المحالّ، وأنت ترى هذا الكتاب الكريم والنبأ العظيم ما من آية من آياته، أو جملة من جمله، أو قصّة من أقاصيصه، أو مثل من أمثاله، أو حكم من أحكامه، إلّا وهو يحتدم صراحة وإلاحة في الدعوة إلى الآخرة، والتحذير من الركون إلى الدنيا، والحثّ على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وعمل البرّ والإحسان، إلى غير ذلك ممّا سردت لك منه كثيراً وما كان نسبته إليه إلّا نزراً يسيراً.

ثمّ ترى تلك الكتب وليس فيها إلّا القصص الباردة والحكايات السمجة، والغضّ من أنبياء الله، وغمط حقوقهم والحطّ من شؤونهم!

نعم، وأعظم من ذلك نسبة الخلف والخديعة إلى الله، وسمة الأنبياء

وأوصيائهم له (تعالى) بالكذب (معاذ الله)، فإنّه من الكذب عليهم وعليه.

ففي (رابع إرميا): «فقلت: يا سيّدي الربّ، حقّاً إنّك كنتَ خدّاعاً! خادعت هذا الشعب وأُورشليم قائلاً: يكون لكم سلام، وقد بلغ السيف»[١].

وأنا أقول: يا للأسف وللحيف! حقّاً لقد كان الحزم والعزم والأجدر والأحرى بتلك الشعوب والأُمم أن تكتم هذه الكتب بعد ظهور ذلك الكتاب، أو ليتها لم تفتح على نفسها هذا الباب! ولكان الأستر عليها صونها وسترها واعترافها بأنّها ما هي بتلك الكتب الإلهية ولا المنزّلات السمائية، وأنّ تلك قد ذهبت شعاعاً وتلفت ضياعاً، وراحت أدراج الرياح! فإنّ ملوك الوثنيّين كـ(بخت نصّر)[٢] ومن بعده أحرقوها ومزّقوها[٣]، وما بقي منها إلّا القليل، والنضو[٤] الضئيل الذي ضُمّ إليه أضعافه وأُتلف آلافه!

أليس الوثنيّون إلى برهة من بعد الميلاد ما انفكّوا ينتحون تلك الأُمم بالقتل الذريع والسيطرة القاهرة والسلطة القاسرة، وكانت تلك الأُمم ـ ولا سيّما المسيحية ـ أفراداً مستضعفة وأغراضاً مستهدفة، طعمة كلّ آكل وطماعة كلّ آمل!

---

(١) نُقلت عن سفر إرميا (٤: ١٠) في كتاب: الله والأنبياء في التوراة ٢٥.

(٢) تقدّمت ترجمته في ص٦٦ هـ١.

(٣) راجع ما نزل بهم وبكتبهم في: الرحلة المدرسية ١١٩، الله والأنبياء في التوراة ٥٢٩، الرسول واليهود وجهاً لوجه ٤: ١٤٢٩.

(٤) النضو: الهزيل، أو الفاسد. (العين للفراهيدي ٧: ٥٩).

[بعض الفروق بين المسيح ومحمّد صلوات الله عليهما]

وكلّ ممارس للكتب ومدارس يعلم أنّ (المسيح) حين شالت نعامته وتلاشت دعامته وصُلب ـ على ما تزعم أُمّته ـ ما كان عدّة من آمن به إلّا شذّاذ يحصيهم العدّ وتعدّهم أنامل اليد ! امتُهنوا من فراعنة زمانهم وملوك أعصارهم بالإحفاء والإخفاء ، بالنفي والحبس ، بالطرد والعكس ، بالخنق والشنق ، بالقتل والبتل !

ومن هنا نقول نحن معاشر الإسلام : إنّ معجزات (المسيح) (على نبيّنا وعليه السلام) ما ثبتت بالتواتر ؛ لأنّ شرطه بل قوامه وتمامه بتساوي الطبقات في امتناع التواطئ على الكذب ، وهو لا يحصل إلّا بإخبار كثرة يعسر في العادة عدّها في جميع الطبقات .

وهذا لم يتّفق لروح الله كما اتّفق لحبيبه الذي هو أعزّ عليه من روحه .

فإنّ من آمن به في حياته فات حدّ الإحصاء ، وطبّقت معجزاته السامية في زمانه خطط الأرض وسكاك السماء ، من : الحجاز ، ومشارف الشام ، وسواد العراق ، وسكّان البوادي وقطّان الفيافي من الرحّالة والظعّانة وغيرهم ، فإنّ أكثر هؤلاء تداكّوا على هذه الديانة تداكّ الهيم[1] على الماء ، واعتنقوها اعتناق الهائم للمياه ، ثمّ ما زالت إلى قرون بعده تنمو وتسمو وتتحلّى بالشرف وتحلو .

وأنت تعلم أنّ من أسلم منهم في زمانه وبعده بالرغبة والاختيار والامتحان والاختبار أضعاف من استسلم بالمحاربة والمحاولة والقتال والمناقلة .

---

(١) الهِيم : الإبل العِطاش . (القاموس المحيط ٤ : ١٩٤) .

ومن استراب في ذلك فما عرف ولا تعرّف ولا أنصت ولا أنصف، ولا سار في السير ولا اقتفى العين ولا الأثر!

فإنّ المهاجرين الذين آمنوا به في مكّة وما حولها قبل الهجرة، والأنصار الذين بايعوه على العقبة، ووفود العرب الذين كانوا يشدّون إليه الرحال عند بلوغ الدعوة، والملوك الذين آمنوا به قبل ظهور النبوّة، كلّ ذلك يدلّك على ما ذكرنا من أنّ انتشار دعوته وسطوع أنوار نبوّته ما كان إلّا لتجلّي معجزاته وإعجاز آياته، ووضوح الأمر في صدقه وظهور حقّه، وأنّه إنّما جرّد الأسنّة وجرّ الأعنّة وتحمّل في ذلك كلّ مهنة، ساعة لم تنفع الحجج البالغة والآيات الدامغة والمعجزات البازغة، ولم يجد بدّاً من نشر كلمة التوحيد وكسر شوكة الشرك، وحفظ جامعة الإيمان ودرء الشرور عنها.

ومن جرّاء ذلك تصاعد حتّى ركب متون الصعاد وامتطى ظهور الجياد لحرّ الجلاد، إلى أن أعلى الله كلمته ونصر التوحيد وأُمّته.

أمّا (المسيح) فما سامحته بشيء من ذلك أيّامه، ولا اتّفق له من العناية ما تقدّمه في ظهور المعجزة وانتشار الدعوة أقدامه، ولا نال من الجهاد في ذات الله والذبّ عن الأحدية المقام المحمود الذي بلغته الذات الأحمدية.

فإنّه جاهد في الله الجهادين، وفارق الدنيا من البيضاء والصفراء صفر اليدين، وما زال هو وأهل بيته يشدّون على بطونهم حجر المجاعة، ويرون حجراً عليهم مفارقة حجر القناعة، إلى أمثال ذلك من كثير سجاياهم، وكبير مزاياهم، وعظيم أخلاقهم، وطاهر أعراقهم، ممّا يدلّك كلّ واحد منها على أنّهم أملاك في زيّ بشر وروحانيّون في بزّة أجسام وصور، وقدّيسون طهّرهم باريهم من كلّ رجاسة ونوّر عناصرهم بكلّ بركة وقداسة.

وما أردت بما أوردت في ما قدّمت ورسمت الغضّ من (المسيح) (معاذ الله) والحطّ من شؤونه ، أو الخفض من رفيع مقامه ، حاشا لله وكلّا ، وإلّا فلا نلت من الحقيقة بعضاً ولا كلّاً ، وإلّا فلا جرت أقلامي ولا سرت بي أقدامي !

كيف ! و(المسيح) روح الله و: ﴿كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾[1] ، وفضّله على كليمه (موسى) ! حيث يقول في اكتهاله : ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾[2] ، وهذا في المهد يتكلّم !

و(للمسيح) من تلك المعارج والمناهج مقامه الرفيع وشأوه المنيع وسعيه المشكور .

ولكن ـ يشهد الله ـ ما أردنا إلّا بيان الفضل والأفضلية والكمال والأكملية ، وفقاً وطبقاً لما قال (جلّ شأنه) في عزيز كتابه : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾[3] .

وحيث جعل الله هذا النبي الأُمّي أفضل النبيّين وأكمل المرسلين ، وجعل شريعته أكمل الشرائع نظاماً وأرفعها مقاماً ، وأجمعها لمصالح الدارين وأقربها لتحصيل السعادتين ، لا جرم جعله خاتم الأنبياء وآخر السفراء ، وجعل شريعته خاتمة الشرائع وأصفى المشارع ؛ إذ لا شريعة أكمل منها في مجال العقل ومنفسح الفكر وحصافة الفحص ومصاعة[4] الآراء ، كما أشرنا إليه من الحاجة في إثبات ذلك إلى الموضوع الذي يبحث عن كلّ واحد من أحكامها ومشروعاتها .

---

(١) سورة النساء ٤: ١٧١.

(٢) سورة طه ٢٠: ٢٧.

(٣) سورة الإسراء ١٧: ٥٥.

(٤) المصع: الحركة والضرب. (لسان العرب ١٣: ١٢٥).

أمّا إثبات ما ذكرناه من أنّ شريعته خاتمة الشرائع وأنّه هو (صلوات الله عليه) خاتم النبيّين ، فهو في غاية السهولة بعد إثبات أصل نبوّته ، وصحّة دعوته ، فإنّه موقوف على ورود النصّ منه بذلك ، وقد قال (جلّ شأنه من قائل) كما في سورة الأحزاب : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[1] .

وبعد هذا كلّه ، فالعجب كلّ العجب عجباً ـ والله ـ يذيب القلب ويذهل اللبّ ! ما يختلف على سمعي ويتعاور[2] على أُذني من أنّ الغربيّين من المسيحيّين قد نشروا في الآفاق دعاتهم ، وبثّوا في البلاد رسائلهم ورسلهم ، يدعون إلى الأخذ بديانتهم ، ويرمون شريعة الإسلام المقدّسة بموهناتهم !

قيل للجمل : من أين أقبلت ؟ قال : من الحمّام ! قيل له : صدقت ! هذا ظاهر عليك من خفّك النظيف ، ووجهك اللطيف ، ووبرك غير الكثيف ، وقدّك المعتدل الأغيد ، وجيدك الجيّد الأجيد !

وما أدري بماذا حجّتهم ، وإلى أيّ شيء دعوتهم ؟!

أإلى أقانيمهم الثلاث ، والله واحد ؟!

أم إلى قذف الأنبياء بالمعاصي والخطايا ، وهم رسل الله بالمحاسن والمحامد ؟!

أم إلى تحليل الخمر والخنزير ، وهي أُمّ القبائح والمفاسد ؟!

أم إلى جحود النبي الأُمّي ، وهذا الإنجيل شاهد ؟!

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٤٠.

(٢) أي: يتداول. (المصباح المنير ٤٣٧).

أم إلى ترك الختان، وهذا العهد القديم ملء الأسماع والآذان ؟!

أم إلى شرب الخمر على أنّها دم المخلّص، وأكل الفطيرة على أنّها لحمه المقدّس ؟!

أم أشياء كثيرة يلزم عندي كتمانها ولا يليق بيانها ؟!

وأنا لا أُريد عدّ تلك الشواهد لك، ولا أبتغي سردها عليك، ولكن ـ بحقّ الإنصاف وحرمة الشرف ـ أترى أنّ محمّداً ﷺ ـ حتّى عند من لم يؤمن بدعوته ولم يصدّق بنبوّته ـ لم يكن حفيّاً بتدبير أمره، قميناً بأن لا ينهتك بين الناس مصون ستره، وفيّاً بأن لا يظهر عليه (معاذ الله) الكذب الصريح والخلف الفظيع، بحيث لا أقلّ من أن يكون من سائر البشر وعامّة الناس المتستّرين في ظاهر الحال العارفين بموازين الأفعال والأقوال ؟!

[شهادة العهدين بنبوّة محمّد ﷺ والتبشير به]

أفهل يدور في خيالك أو يخطر في خلدك أنّ رجلاً من متوسّطي العقول ومتعارفي البشر يدّعي لنفسه ذاك المقام الرفيع، ثمّ يأتي (حاشا لله) بشيء من الكذب الشنيع، ثمّ لا يكتفي بأن يقول للواحد والاثنين من أهل الملل: إنّ اسمي موجود في كتبكم المنزلة من السماء، وقد بشّر بمجيئي من جاءكم قبلي من الأنبياء، حتّى يأتي بوحي يتضمّن ذلك، يتلوه على كلّ سامع ويردّده في حافل الجوامع والمجامع، واليهود والنصارى إلى جنبه وأحبارهم وقُسسهم بقربه، والتوراة والإنجيل ملء أفواههم وعلى طرف ألسنتهم، وهم يسمعون قوله في وحيه الصادع ونوره المبين الساطع: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي

يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾[١]، وقوله عن (عيسى) عليه السلام : ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٢].

فلولا أنّ لهذا الأمر واقع ووراء هذا الحقّ حقيقة، لجاءوا إليه، وقالوا: يا محمّد، هذه التوراة والإنجيل، فأين فيها ما يصرّح باسمك ؟! وأيّ بشارة بها تدلّ عليك بزعمك ؟!

ومن الواضح المسلّم أنّه (صلوات الله عليه) كان يأنس إليهم ويحادثهم ويجتمع إليهم، حتّى كان من الامتناع عن المباهلة وقبول الجزية[٣] ما تزول به كلّ شبهة ومرية.

وهذا برهان ساطع ودليل على ثبوت البشارة به في التوراة والإنجيل قاطع، وإلّا لنقل إلينا محاجّتهم معه في ذلك مع توفّر الدواعي إليه وإلى نقله، بل الّذي نقل وشوهد هو قبول الجزية والامتناع عن المباهلة والمقاتلة.

ثمّ ليس لك الرجوع في تلك الآيات هنا علينا قائلاً: بأنّ هذا يناقض ما أسلفت قريباً من عدم كون ما في أيدي القوم من الكتب هذا اليوم هي تلك التوراة والإنجيل التي ذكرها القرآن وأعرب عنها بالشرف وأبان.

فإنّا نقول في الجواب عن هذه الكريمة وأمثالها من كرائم هذا الكتاب، ممّا يدل بظاهره على وجود نفس التوراة والإنجيل في زمان نزول هذا القرآن المبين وظهور هذا الدين، من مثل قوله (تعالىٰ) : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ

(١) سورة الأعراف ٧: ١٥٧.

(٢) سورة الصفّ ٦١: ٦.

(٣) قارن: السيرة النبويّة لابن هشام ٢: ١٩٥ ـ ١٩٦، إعلام الورىٰ ١: ٢٥٤ ـ ٢٥٧، الكامل في التاريخ ٢: ٢٠٠، بحار الأنوار ٢١: ٣٣٨، منتهى الآمال ١: ١٨٨ ـ ١٨٩، المباهلة ٣٧ و ٦١، بلوغ الإرب ٢: ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

صَادِقِينَ﴾[1]، وقوله (عزّ شأنه): ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2]، ونظائرها: إنّا لا نمنع، بل نقول: لعلّه يلزم أن يبقي الله منها في أيدي أُمّتها مقدار ما تتمّ به الحجّة وتنقطع به منهم المعذرة؛ لطفاً منه في حفظ دينه ورأفة منه برسله وعباده، وهذا الباقي من تلك الأُصول الصحيحة في غضون تلك الملفّقات الموضوعة هو موضع الاحتجاجات ومورد البشارات ومحلّ الأمر بتلاوته لظهور الحقّ في طيّته.

وأمّا قوله (تعالىٰ): ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ﴾ فهو على التحريف أدلّ منه على عدمه؛ فإنّ ظاهره أنّ القوم كانوا يحكمون بغيره، ويبعد ذلك إلّا بأن يجعلوا ما يوافق أهواءهم ومصالحهم إنجيلاً، فيحكمون به تمويهاً على العوام أنّ هذه هي أحكام الله، كما دلّت على ذلك آيات من هذا الكتاب الكريم إذا رجعت إليها وجدتها نصب عينيك وطوع يدك.

هذا، مضافاً إلى احتمال أن يكون التحريف والتبديل قد تدرّج قليلاً قليلاً من بعد ذلك العصر إلى هذه العصور، بحيث قد بادت إلى اليوم نضراؤها ولم يبق منها إلّا أسماؤها.

فإنّك ترى بعض الكتب بحسب تعدّد المطابع تختلف كثيراً في قرن واحد، فكيف بما يزيد على العشرات من القرون ؟!

ولكن الذي يقوى لدي بل يتعيّن عندي أنّ الإنجيل هو الوحي الذي أنزله الله (جل شأنه) إلى خصوص (عيسى) (سلام الله عليه) الذي ألّفه وجمعه هو في

---

(١) سورة آل عمران ٣: ٩٣.

(٢) سورة المائدة ٥: ٤٧.

زمانه أو تلاميذه بمراجعته ومطالعته، لا ما لفّقه وألّفه أصحابه بعده بأعوام متطاولة وقرون مترامية، من: (بولس)[١]، و(مرقس)[٢]، و(يوحنّا)[٣]، و(متّى)[٤]، و(لوقا)[٥]، من الرسائل والصحف والضمائم التي لا يبعد اندراج شيء من الإنجيل الأصيل فيها، ولكن بحيث ضاع جوهره ودرس أثره ولا يمتاز من ورقه ثمره!

---

(١) تقدّمت ترجمته في ص١٠٦ هـ ٢.

(٢) مرقس لقب لرجل اسمه يوحنّا، لم يكن هذا من الحواريين الاثني عشر للمسيح، وأصله من اليهود، وكانت أُسرته بأُورشليم في وقت ظهور السيّد المسيح، وهو من أوائل الذين أجابوا دعوته، فاختاره من بين السبعين الذين نزل عليهم روح القدس في اعتقادهم من بعد رفعه، وأُلهموا التبشير بالمسيحية وبمبادئها. وقد نشر النصرانية في أنطاكية وشمال أفريقيا ومصر وروما. قتله الوثنيون سنة ٦٢ م بعد أن سجنوه وعذّبوه.
(محاضرات في النصرانية ٤٦ ـ ٤٧، أضواء على المسيحية ٤٢ ـ ٤٤، المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

(٣) تقدّمت ترجمته في ص١٠٦ هـ ١.

(٤) متّىٰ اللاواني، أحد حواري السيّد المسيح عليه السلام. كان قبل ذلك من جباة الضرائب (عشّاراً) للرومان في كفر ناحوم من أعمال الجليل بفلسطين، فكان ممقوتاً لليهود، واختاره المسيح عليه السلام ليكون أحد رسله وتلاميذه. مات سنة ٧٠ م ببلاد الحبشة التي اتّخذها موطناً للتبشير على أثر ضرب مبرّح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة، وفي رواية أُخرى: أنّه طعن بالرمح سنة ٦٢ م بالحبشة، بعد أن قضىٰ بها نحو ثلاث وعشرين سنة داعياً للمسيحية مبشّراً بها.

(محاضرات في النصرانية ٤٢ ـ ٤٥، أضواء على المسيحية ٣٩ ـ ٤١، المدخل إلىٰ دراسة الأديان ١: ٢٣١).

(٥) لوقا، أحد تلامذة بولس ورفقائه. هذا هو القدر المتّفق عليه في ترجمته، واختلف في كونه يهودياً أو لا، وفي كونه أنطاكياً ولد بأنطاكية أو رومانياً ولد بإيطاليا، وفي كونه طبيباً أو مصوّراً، وفي كونه تلميذاً لشمعون الصفا أو لا.

(محاضرات في النصرانية ٤٧ ـ ٤٩، أضواء على المسيحية ٤٤ ـ ٤٦، العلاقة الجدلية ١١٣، المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٢٣٠).

[كلام في بعض شؤون العهدين والفروق بينها وبين القرآن]

وعلى العلّات فنحن لا نكاد نحتمل ـ ولو وهماً ـ أو نتخيّل ـ ولو خطوراً ـ أنّ شيئاً من هذه الكتب منزلات من السماء أو وحي من الله أوحى به إلى الأنبياء، بعدما وجدنا فيها من الخلل والفساد في مضامينها ومعانيها وألفاظها ومبانيها وما خالف صريح العقل وصحيح الوجدان، ولم يكن فيها ما يضطرّنا إلى التأويل والحمل على غير ظواهرها لو أمكن في بعضها، فإنّ الملزم بذلك هو جهة إعجاز تدلّ على أنّه لا محالة من كلام الله الحكيم المنزّه عن القبيح، وما يخالف ضرورة العقول فإنّه لا مناص لنا في مثله عن الحمل الصحيح.

وأمّا أساطير تلك الكتب فقد عرفت أنّها تنادي بأنّها ليست من كلام الله ولا أنبيائه..

تناديك بذلك بغتة، وتبرأ من الوحي أوّل وهلة، وتتجافى عن ذلك المقام الرفيع فجأة، ولا تصل بك النوبة إلى تكلّف التأمّل والتأويل والتدبّر في الدقيق منها والجليل!

أين الحكم ؟! أين الأحكام ؟! أين العلوم ؟! أين الأعلام ؟! أين العظات الزاجرة ؟! أين الأمثال السائرة ؟! أين التقديس ؟! أين النواميس ؟! أين التحميد ؟! أين التمجيد ؟! أين التحدّي ؟! أين التوحيد ؟! أين الوعد ؟! أين الوعيد ؟! أين الأخلاق الكريمة ؟! أين الملكات العادلة ؟! أين ما لا أُحصيه من الشرف ؟! أين ما لا أعدّه من العدل والنصف ؟!

هذه الفجاجة والسماجة، هذه الركاكة والفلاكة، هذه العنجهية والخشونة، هذه البرودة والعفونة! من الزنىٰ بالمحصنات! من نسبة الخداع والمفتريات! من

الكعك الذي يأمر أنبياءه بأكله ! معاذ الله من ذلك كلّه .

ولكن يا هل ترى من العدل أن يعادل هذا بذاك أو يوازن ، أو يقارب منه أو يقارن ؟!

[كلام مع صاحب الضلالة]

ولكن من لي بحكم بيني وبين صاحب تلك (الضلالة) وناشر تلك الجهالة الذي سوّد وجهه بتسويد مئات من الصفحات كلّها أباطيل وترهات !

عساك أيّها القارى الكريم من مسلم أو مسيحي ، عساك أنت تنتصر للحقّ ، فتنتصف منه ..

عساك تكون حكماً منصفاً وقاضياً عادلاً وفيصلاً قاطعاً .

انظر واحكم واضحك وابكِ من قوله : (إنّ محمّداً له المجد والشرف كان يعبد الأصنام ، ويميل إلى الخضوع والسجود لها)* !

(*) لا يكاد ينقضي تأسّفي وتعجّبي من طبع كتاب كتلك الضلالة التي أُلصق بها اسم : (الهداية) !

ما أشدّ تعجّبي من نشر كتاب كهذا في عاصمة من عواصم الإسلام (كمصر القاهرة) ، ثمّ لا وازع ولا مانع ، ولا ثائر ولا زاجر !

وأيّ حرّية تخوّل ذلك إن كانت (الحرّية) هي : أن يتمتع كلّ إنسان بحقوقه من دون أن يجحف بحقوق غيره ؟!

وأيّ إجحاف بحقوق المسلمين أعظم من نبز النبي والقرآن بكلّ إفك وبهتان ؟!

ولقد قامت قيامة أهل الغيرة والفضل يوم وردت نسخة من هذا الكتاب إلى الزاوية المقدّسة من العراق (النجف) ، وتصدّى لدحضها بالحجج القاطعة أفراد من عليتهم وأوساطهم ومتقدّميهم وساقتهم : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ . (منه رحمه الله) .

أقول : الهداية كتاب من تأليف جمعية المستشرقين الأمريكان في ثلاثة مجلّدات أو أربعة ، طبعت بمصر سنة (١٨٨٨ ـ ١٩٠٠ م) في ردّ المسلمين .

←

انظر القحّة، وصلابة الوجه، وقلّة الحياء، والصلف تحت الراعدة!

أيقال هذا في شأن تلك الحضرة الكريمة والقداسة الشريفة التي كرّزت حياتها وجعلت عمرها وقفاً ورهناً على تكسير الأصنام وتنديد عبادة الأوثان؟!

وكان (صلوات الله عليه) أبغض شيء إليه ذكرها والنظر إليها، وكان لا يجلس في بيت فيه شيء من الأصنام..

وفي حديثه مع (بحيرا) الراهب في طريق الشام ـ وهو ابن تسع أو أحد عشر سنة حين أقسم عليه باللات والعزّىٰ، فقال له النبي ﷺ: «ما من شيء أبغض عليّ من هذه الأسماء» ـ ما هو مشهور[1].

وأيّ ضروري في الدهر أجلى وأبده من هذا؟!

وهل كان في فضاء التصوّر وفسحة عالم الخيال أعظم فرية من هذه المزعمة؟!

وهل هي إلّا خرافات تلك العصور المظلمة التي ذكرها الكونت (هنري) وغيره؟!

وهل يليق بنا أن نصرف نقداً من الوقت في تفنيدها وضلالها مع تلاشيها بنفسها وبطلانها بذاتها؟!

← وقد تصدّى جمع للردّ على هذا الكتاب بتأليف كتب، منها: كشف الغواية للسيّد أسد الله الخرقاني، والهدى إلىٰ دين المصطفىٰ للشيخ محمّد جواد البلاغي، وبيان الحقّ للمولىٰ محمّد صادق المتكلّم الواعظ، والردّ على الهداية لشيخ الشريعة الأصفهاني. (الذريعة ١٠: ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

وأمّا الآية التي ختم بها المؤلّف رحمه الله كلامه هنا فتجدها في سورة الحجّ ٢٢: ٤٠.

(١) انظر: السيرة النبويّة لابن هشام ١: ٢١٩، تاريخ الطبري ٢: ٢٠٢، كمال الدين ١٨٤ ـ ١٨٥، دلائل النبوّة للبيهقي ٢: ٢٨، إعلام الورى ١: ٦٥ ـ ٦٧، السيرة النبويّة لابن سيّد الناس ١: ٦٢، السيرة النبويّة لابن كثير ١: ٢٤٥.

نعم، يلوح لنا أنّ صاحب تلك (الضلالة) لم يكن على شيء من الدين، بل ليس هو إلّا من الملحدين، وهو (يسرّ حسواً في ارتغاء)[١]، و(عن صبح برقّق)[٢]!

يريد بتلك الكلمات أن يغيرنا ويحمينا ـ معاشر المسلمين ـ لنقول في قداسة السيّد (المسيح) (على ذكره السلام) أضعاف تلك المطاعن وما هو أشنع وأفظع.

ولكن طاش سهمه، وضلّ علمه!

معاذ الله أن يستخفّنا الجهل عن العلم، أو تفلت من أيدينا أمراس[٣] الدين والحلم!

معاذ الله أن نقابله بجهله، أو نخرج من الدين كخروجه!

نعم، يا صاحب (الهداية) بل يا صاحب (الضلالة): أمّا (محمّد) (صلوات

---

(١) الحسو: طعام معروف عند العرب. والارتغاء: شرب الرغوة، وهي زُبد اللبن. (صحاح اللغة ٦: ٢٣١٢ و ٢٣٦٠).

وهذا مثل يضرب لمن يظهر أمراً ويريد غيره.

وأصله ـ كما عن الأصمعي ـ: أنّ الرجل يؤتىٰ باللبن، فيظهر أنّه يريد الرغوة خاصّة ولا يريد غيرها، فيشربها وهو في ذلك ينال من اللبن.

راجع مجمع الأمثال ٢: ٤٩٦.

(٢) المثل هكذا: (أعنْ صَبُوحٍ تُرَقِّق!)، يضرب للرجل يريد الشيء، فيعرّض به ولا يصرّح بذكره.

وأصله: أنّ رجلاً نزل بقوم ليلاً، فأضافوه، فلمّا فرغ قال: أين أغدو إذا صبّحتموني؟ أي: سقيتموني الصبوح، فقيل له: أعن صبوح ترقّق! يعني: عن الغداء.

وترقّق معناه: ترقّق كلامك وتحسّنه؛ ومن ثمّ قيل للشعر في الغزل: الرقيق. (جمهرة الأمثال ١: ٢٩ و ٢: ٤٢٧، المستقصىٰ في أمثال العرب ١: ٢٥٥).

(٣) المرس: الحبل. (جمهرة اللغة ٢: ٧٢١).

الله عليه) فقد عقدنا الجزء الثالث من هذه (الدعوة) لبيان سيرته وترجمة حياته من حين ولادته إلى حين وفاته .

وسوف ينجلي هنالك الحقّ ، ويضيء الصبح لذي عينين ، ويستبين الهدى لك ولقومك الذين تنتمي إليهم ، ولست منهم ولا كرامة قدر أُظفور أو قلامة !

وعساها تظهر تلك السيرة الكريمة على طريقةٍ ما كتب مثلها الكاتبون ولا أصاب فلسفتها الباحثون ، على كثرة ما كُتب في سيرته (أبّد الله مدى شريعته) .

وأمّا القرآن العظيم الذي جعلته مع ذلك النبي الكريم هدفاً لسهامك الطائشة ومرمىً لسبابك بالبهتان والفاحشة ، فقد أوردنا لك قليلاً من كثير أمره ويسيراً من عظيم قدره ، ودللنا أهل المعرفة والفضل على مواضع إعجازه وبهره ، وإفحامه وقهره ، وبلاغته وفصاحته ، وشرف معانيه ومبانيه .

وربّما تسعفنا العناية لعقد جزء نستوفي فيه بسط الكلام على تلك المقاصد بأوسع ممّا ذكرناه في هذا الجزء إن شاء الله .

وإن أعجلتنا عن ذلك ، ولم تمهلنا إلى سنوح الفرص ، ورمت المباهاة والمباهلة والمقايسة والمقابلة ، فنحن نسألك ـ يا صاحب (الضلالة) ـ أيّ الكتابين أحقّ بالكرامة ، وأليق بذي العزّة والعظمة ، وأحرى أن يكون شريعة إلهية وقانوناً ربوبياً وناموساً أبدياً لصالح البشر وغبطة عامّة الأُمم ؟!

هل هو الكتاب الذي يقول : « ما جئت لأُلقي سلاماً ، بل سيفاً »[1] بكلّ معانيها المحتملة ، أم الكتاب الذي يقول : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2] ؟!

(١) راجع : إنجيل لوقا ٨٩ ، بين الإسلام والمسيحية ٨٧ و١١٦ ، أضواء على المسيحية ٧٣.

(٢) سورة الأنبياء ٢١ : ١٠٧.

الكتاب الذي يقول: «ما أحللتموه في الأرض يكون محلولاً في السماء»[١]، أم الذي يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[٢]؟!

الكتاب الذي يقول: «المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا»[٣]، أم الذي يقول ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٤]، ويقول: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾[٥]؟!

الدين الذي يقول: «أقانيم ثلاثة، إله واحد»[٦]، أم الذي يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[٧]؟!

الدين الذي إذا دخلت إلى معابده ومقدّساته ومواضع صلواته وجدت فيها من الصور المنصوبة والتماثيل القائمة والدمى الماثلة ما يوشك أن يعيد لك عهد الوثنية والعبادة الصنمية.. العهد الذي يتمثّل فيه أبونا (إبراهيم)، فيقول لنا: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[٨].

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) سورة الحاقّة ٦٩: ٤٤ـ٤٦.

(٣) هذا القول مأخوذ من رسالة بولس إلى أهل غلاطية، على ما في الرحلة المدرسية ٨٨. وراجع العلاقة الجدلية ١٤٦.

(٤) سورة المدّثر ٧٤: ٣٨.

(٥) سورة النجم ٥٣: ٣٨ـ٤١.

(٦) قارن: أضواء على المسيحية ٩٧، محاضرات في النصرانية ١٠٠، المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٢١٥ و٢١٧، الموسوعة الميسّرة في الأديان ٥٠٣ـ٥٠٤.

(٧) سورة النجم ٥٣: ٢٣.

(٨) سورة الأنبياء ٢١: ٥٢.

الدين الذي يعيد لنا عهد (أندرا)[١]، و(بوذا)[٢]، و(كرشنا)[٣]، تلك الآلهة المصلوبة على الخشبتين المثقوبة اليدين والرجلين التي كان يعبدها وثنيو الهند وأُمم الصين !

أهذا الدين خير، أم الدين الذي قد تفانى في التوحيد وعبادة الإله الحقّ وتشدّد حرصاً على إبادة الأصنام وعبادة الأوثان، حتّى حرّم مطلق التصوير، فقال في الحديث المشهور الذي أوشك أن يبلغ التواتر: « إنّ من أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوّرون »[٤] ؟!

ثمّ لم يكتفِ هذا الدين الحنيف بذلك حتّى حرّم أو استكره الصلاة في بيت فيه شيء من الصور أو التماثيل، وربّما كان في البيت الستار وعليه بعض النقوش غير ذوات الأرواح من شجر أو نبات، فيقول: « يا فلانة ـ لإحدى زوجاته ـ نحّيه عنّي »[٥].

---

(١) أندرا هو: الإله الأكثر شعبية في الريغ فيدا ديانة الهندوأُوربيّين، وهي تصوّره بطلاً لا يتعب وخالقاً للعالم وتجلّياً للقوى الجنسية والخصب العالمي ومشخّصاً للحيوية المفرطة للحياة وللطاقة الكونية.

(تاريخ المعتقدات ١: ٢٥٣ ـ ٢٥٥).

(٢) تقدّمت ترجمته في ص٦٣ هـ ٢.

(٣) كرشنا: إله هندي يعتقدون أنّه فشنو المتجسّد للمرّة الثامنة، وهو أشهر آلهة الهند، ذكرت أعماله الباهرة في المهابهارتا.

(المنجد في الأعلام ٤٦٠).

(٤) لاحظ: صحيح مسلم ٣: ١٦٧٠، سنن النسائي ٨: ٢١٦، السنن الكبرى للبيهقي ٧: ٢٦٧، الترغيب والترهيب ٤: ٢٠، بأدنىٰ تفاوت.

وقال السيوطي: (والمصوّرون: لأنّ اسم إنّ ضمير الشأن مقدّر فيه المصوّرون مبتدأ، ومن أشدّ الناس خبره، والجملة في موضع رفع خبر. والمصوّرين اسم إنّ). (شرح السيوطي على سنن النسائي ٨: ٢١٦ ـ ٢١٧).

(٥) قارن: صحيح مسلم ٣: ١٦٦٦ و١٦٦٧ و١٦٦٨، سنن الترمذي ٥: ١١٥، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان ٥: ٤٠١.

هذه وكثير من أمثالها تصلح أن تكون شواهد لك ـ يا صاحب (الضلالة) ـ على أنّ محمّداً ﷺ كان يعبد الأوثان أو يميل إلى عبادتها !

أفحسبك كلّ هذا يا صاحب (الضلالة) ، أم تبتغي ما وراء ذلك وتلتمس مزيداً عليه ؟!

ولو أردت الاستبحار والتوسّع في هذا الأُسلوب لجئتك منه بكتاب ضخم وقول فخم ، وحديث جزل وكلام فحل ، يقتلع جذومك[1] ، ويقطع جذورك ، ويرميك بالصلادم[2] من بنات طبق[3] ، ويريّك أيّ الفريقين أحرى باللعنة وأحقّ !

ولكن حسبك هذا ، وإن عدت عدنا ! وكانت ...

أنت يا صاحب (الضلالة) التي ألصقت بها اسم : (الهداية) ، أفما كان الأولى بك أن تربع على ضلعك وتعترف بقصور ذرعك ، وتلبّد على جروحك وتشتغل بإصلاح عيوبك ، وتحتفظ على رعاية جارك لستر عوارك ، ولا تغتدي كالباحث على حتفه بظلفه والساعي بقدمه إلى إراقة دمه !

ألم يك حرياً بك أن تترك الإسلام والمسلمين ما تركوك وتسالمهم ما سالموك ، ولا تعق أُمّتك وملّتك بما تحسبه برّاً لها ولا تصنع صنع العدوّ منها بما تظنّه أعود عليها !

وأنا نذيرك عن أهل الكمال والعرفان منهم أنّهم براء من عملك ، ناقمون على سوء أثرك ، مستاؤون من جنون جنايتك وأفاعي أفاعيلك !

---

(١) الجِذم : الأصل . (لسان العرب ٢ : ٢٢٣) .

(٢) الصلدم : الشديد . (المصدر المتقدّم ٧ : ٣٨٧) .

(٣) بنات طبق : الدواهي . وتسمّىٰ كذلك : بنات بئس ، وبنات بَرح ، وبنات أوْدك . (تهذيب اللغة ١٥ : ٣٦٤) .

[كلام استطرادي لطالب الحقيقة في المقام]

ثمّ أنت أيّها الناكب عن الهوى المرتاد نجعة الحقيقة والهدى الطالب لدين الحقّ ـ بعد معرفتك أنّ الدين هو السعادة الأبدية والحياة الروحية وأنّه هو الذي لابدّ لك منه ولا غنى بك عنه ـ إنّ أمكن الشهود بوثاقتك وأملكهم لناصية يقينك وأعظمهم وقعاً منك وأثراً في لبّك ونفوذاً في أعماق قلبك هو الشاهد الذي يشهد لأحد الخصمين مع مناواته له ومنابذته إيّاه وإصحاره بالعداوة معه والحيف عليه والمجانبة له والحياد عنه، فإنّه ـ والحال على هذا ـ لا محالة تزول التهمة، وتنقطع الظنّة، ولا يبقى مجال لخلجان الريبة، وضربان الشبهة، واحتمال المحاباة، واعتراض التشكيك. فتلك هي الشهادة المقبولة والحجّة القاطعة.

إذا أردت أن تعرف أيّ الديانتين أنفع وأجمع وآمن وأمنع وأقرب أن تكون شريعة إلهية وأمراً ربوبياً وقانوناً روحيّاً وناموساً أبدياً، ولم تقنع بكلّ ما ذكرناه وقدّمناه، وأردت مثل ذلك الشاهد، فدونك هذا البحّاث الشهير (شبلي الشميّل)، وهو من تعرف أمره في معاندة الأديان ومناواته لها أجمع، وعظيم عنائه وسعيه، وما يدأب به من الجهاد في ذات الإلحاد!

بيد أنّه ـ كما هو جلي منه ـ من أشجع الكاتبين والباحثين في الإصحار برأيه والإجهار بحرّية ضميره.

وهو ـ على ما فيه من مماحكة[1] الأديان كلّها وإعلانه بشنآنها وبغضائها ـ لم يستطيع صبراً أن اعترف بأفضلية دين الإسلام على سائر الأديان من حيث

---

(١) المماحكة: اللجاج والملاجّة. (صحاح اللغة ٤: ١٦٠٧).

جامعيته لكلّ النواميس الحيوية أدبيةً ومادّيةً.

وقد تكثّر ذلك منه في مواضع من مجموعته الشهيرة (بفلسفة النشوء والارتقاء).

خذ مثالاً منها ما نصّه :

(خذ مثالاً شريعة القرآن ، فإنّها بين الشرائع الدينية الشريعة الوحيدة العملية المستوفاة التي ترمي إلى أغراض دنيوية حقيقية .

بمعنى : أنّها لم تقتصر على الأُصول الكلّية الشائعة بين جميع الشرائع ، بل اهتمّت اهتماماً خاصّاً بالأحكام الجزئية ، فوضعت أحكام المعاملات حتّى فروض العبادات أيضاً .

وهي من هذه الجهة شريعة عملية مادّية).

وقال في موضع آخر :

(وأعظم ما تركه الإسلام آثار أدبية لخدمة الغاية الدينية ، وقد فاق بهذه الآثار جميع الأُمم التي تقدّمته).

ثمّ يقول في غيره في طي فلسفة له عن المسلمين :

(ولو بقيت وجهتهم في مجتمعهم شريعة القرآن وحدها ـ كما هي فيه ـ لما قام في وجههم حائل يصدّهم عن الارتقاء).

وقد تقدّم نقلنا قوله :

(شريعة موسى مادّية عملية ، ولكنّها غير مستوفاة .

وشريعة عيسى وإن كانت حكماً ومواعظ تعتبر أُصولاً كلّية ، إلّا أنّها نظرت في جملتها إلى العالم الروحاني أكثر من الحياة الدنيا .

بخلاف شريعة محمّد ، فإنّها نظام اجتماعي عملي مادّي قانوني حقيقي).

انتهى .

وربّما يوجد فيها غير هذا من أمثاله، فإنّي لم استقص النظر ولم استوسع الفحص، وإنّما عثرت على هذه الكلمات عثوراً وأصبتها عفواً.

وليت مؤلّف شمل (الضلالة) حين ساوى من سبق في عدم الحرجة من الدين ورفض كلّية المذاهب، كان قد ساواه كذلك في الإنصاف والإجهار بالحقّ والاعتراف ولو كبصيص النور في دياجي الظلمات المدلهمة!

ليته عرف لكلّ إنسان حقّه، وقدّره قدره، ولم يبخسه كيله، فلا يجترئ على قداسة (محمّد) ﷺ تك الجرأة، ولا ينال منه ومن كتابه الكريم بتلك البذاءة. ولكن الخور وضعف العقل أمرٌ وراء ضعف الدين:

وإذا كان في الأنابيب ضعف ظهر الطيش في صدور الصعاد!

ثمّ بعد الاطّلاع على كلّ ما ذكرناه ممّا قدّمناه ولم نستوفه، فيا هل ترى بعدُ من حجّة أو حديث على أهل التوحيد لأهل التثليث، أو تجد من سامع أو مجيب على داعي الصلاة لداعي الصليب؟!

حاشا لله، وكلّا، الإسلام أجلّ وأجلى، وهو يعلو في الحجّة ولا يعلى.

الحقّ أبلج والنهج إليه أبهج، والطريق جدد واضح، ما فيه عثار ولا عليه غبار. فتبصّر إن كنت تبصر، وتدبّر وأقبل ولا تدبر!

وأقسم إنّ من ذكرناهم من الأُمم لو رفعوا عن عيونهم عصائب العصبية وخلعوا عن متونهم أردية العادات الردية لَصَبَوا إلى هذه الديانة، ولازدادوا بها يقيناً، ولاعتنقوها وما اتّخذوا سواها شريعة إلى الله وديناً!

فحسبك حسبك أيّها القلم! فقد أطلت وأطنبت، وبعّدت وقرّبت، فعدّ عن هذا، وعد إلى سياقة أوّل كلامك وتمام حجّتك لنبيّك، فقد انقطع بك السير وذهبت عن الغرض بعيداً، فلنرجع بك على وشيك فوته.

[بقية معجزات النبي ﷺ ، ودفع توهّم في المقام]

واعلم أنّ جميع ما سردناه من الكلام من أوائل هذا الفصل إلى هذا المقام إنّما هو في حال معجزة واحدة من معجزات نبيّنا ﷺ ، وهي التي اختصّ بها من بين الأنبياء وحده، حيث بقيت هذه المعجزة بعده، ولم يعهد لأحد من الرسل ذلك.

وهذا من أحد أسرار خاتميته، وهو أحد الطرق التي قدّمناها لإثبات النبوّة.

ولكن هو طريق ما جعل الله السلوك فيه لغيره، وقد عرفت في ضمنه إثبات نبوّته بالطريق الثاني، وهو نصّ من قبله من الأنبياء عليه والبشارة بمجيئه[1].

ولم نستوف فيه الكلام اتّكالاً على الله في استيفاء مؤلّفات علماء الإسلام والصحف الإسلامية له حديثاً وقديماً.

وفي (منار الإسلام) الكثير الوافي منه لمن أراد إن شاء الله[2].

وأمّا الطريق الذي ثبتت به نبوّة جميع الأنبياء لأُممهم المتأخّرين عن زمانهم غير المعاصرين لأيّامهم ولا المستقين من فيض حضورهم ـ وهو بلوغ معجزاتهم لمن بعدهم بالتواترات القطعية ـ فقد شاركهم فيه (صلوات الله عليه)، ولكن على أوفى قسم وأوفر نصيب.

---

(١) راجع: تباشر الإنجيل والتوراة ٣٢٣ ـ ٣٨٠، مناظرة بين الإسلام والمسيحية ٢١٩ وما بعدها، نبوّة محمّد في القرآن ٢٩٩ ـ ٣٣٤.

(٢) (منار الإسلام) مجلّة أنشأها الأُستاذ (محمّد رشيد رضا) في القاهرة سنة ١٨٩٨م.

وراجع تفسير المنار ١: ٢٩٥، ٣٩٧، ٤٠٨، ٤٩٠ و٢: ٥٠، ١٠١ و٣: ١٦٠ و٤: ٢٧٨ و٦: ٨٥.

نعم، قد تضافرت التواترات وتواصلت القطعيات بما صدر عنه من المعجزات وخوارق العادات التي انشقّ عجباً بها القمر المنير، وظلّلته الغمامة عن حرّ الهجير، وسبّحت الحصيات في أصابعه، ونبع الماء من بين أشاجعه[١]، وسلّمت عليه الغزالة وردّت بعد الغروب إليه، وانتقلت الشجرة امتثالاً لأمره حتّى وقفت بين يديه، وسجد كلّ حجر ومدر[٢] مرّ عليه، وحنّ الجذع له حنين الهائم، وكلّم الموتى، وخاطبته البهائم، وأثمر من ماء وضوئه الشجر اليابس، وغرس من الأعواد فأينعت على الفور في الفلوات البسابس[٣]، وارتجّ لولادته إيوان (كسرى)، وما سقط (زاد الله شرفه) حتّى أسقط من شرفاته أربعاً وعشراً، وما فاضت بحور بركاته حتّى غاضت بحيرة ساوة، وما أشرقت أنواره حتّى خمدت له نار فارس، ولم تخمد قبل بألف سنة، إلى أمثال ذلك ممّا يضيق عن عدّه المقام[٤] ولا أُحصيه، ولو كانت السماوات طروساً والملائكة كتّاباً والأشجار أقلاماً.

---

(١) الأشاجع: مفاصل الأصابع، وقيل: رؤوس الأصابع، وقيل: عروق ظاهر الكفّ، وهو مغرز الأصابع. (لسان العرب ٧: ٣٧).

(٢) المدر: التراب المتلبّد، أو قطع الطين. (المصباح المنير ٥٦٦).

(٣) البسبس: القفر الخالي. (القاموس المحيط ٢: ٢٠٨).

(٤) قارن: تاريخ اليعقوبي ٢: ٨، تاريخ الطبري ٢: ١١١ ـ ١١٢، كمال الدين ١٩١ ـ ١٩٢، الاختصاص ٢٩٩ ـ ٣٠٠، دلائل النبوّة للبيهقي ١: ١٢٦ ـ ١٣٠ و٢: ٧ ـ ٢٥٧، أمالي الطوسي ١: ١٢، الإرشاد للجويني ٢٩٦، الشفا للقاضي عياض ١: ٢٣٤ ـ ٢٩٨، إعلام الورى ١: ٥٦ و٧٤ ـ ٨٩، قصص الأنبياء للراوندي ٢٨٨، غنية النزوع ٢: ١٣٧ ـ ١٤٠، المناقب لابن شهرآشوب ١: ١٢٥ ـ ١٨٧، صفوة الصفوة ١: ٩١ ـ ١٠٣، كشف الغمّة ١: ٢١ و٢٣ ـ ٢٨، البداية والنهاية ٦: ٩٨ ـ ٢٥٠، مطالع الأنظار ٤٢٠ ـ ٤٢٣، شرح المقاصد ٥: ٣٧ ـ ٣٨، بحار الأنوار ١٧: ٢٢٥ ـ ٤٢١ و١٨: ١ ـ ١٤٧، لوامع الأنوار ٢: ٢٩١ ـ ٢٩٤، الأنوار المحمّدية ٢٧٠ ـ ٣٠٢.

كلّ ذلك قد صار ـ بحمد الله ـ إتماماً للحجّة أمراً ضرورياً، وكاد أن يكون في البداهة شيئاً حسيّاً ..

فإن كنّا نشكّ في وجود (كسرى) و(قيصر) وسائر الأُمم السالفة والقرون الخالية، نشك في وجود مثل هذه الوقائع!

والقول: بأنّ هذه الأُمور قد ثبتت بتواتر المسلمين، فلا تصير حجّة على الخصم(١).

قولٌ ضعيف ينبعث عن رأي سخيف، مدفوع بوجوه، كلّ واحد منها كاف في دفعه:

أمّا أوّلاً: فإنّه ينسدّ على هذا باب النبوّات، فلا يتّسع لأُمّة من الأُمم إثبات نبوّة نبيّها.

فإنّ أُمّة (الخليل) ﷺ تنكر معجزات (الكليم)، وأُمّة (الكليم) تنكر معجزات (المسيح)، بل جميع الطبيعيّين والدهريّين ينكرون جميع معجزات الأنبياء والمرسلين على الملّيين، وليس إلّا بذلك الطريق تهوى اليهود أن تثبت نبوّة (موسى)، وتريد النصارى أن تنصر رسالة (عيسى)، وكلّ أُمّة لها في إثبات معجزات نبيّها هذا الطريق وليس لها سواه سبيل على التحقيق، ولكنّه يعزّ على قوم ويهون لآخرين.

وأمّا ثانياً: فحلّ هذه العقدة وكشف هاتيك الشدّة أنّ المدار في مثل هذه الأُمور على الشياع والتواتر المفيدين للعلم القطعي أو العادي، ولا طريق غيره، والخارج عنه خارج عن الاعتدال محجوج عند الحجاج والاستدلال.

---

(١) لاحظ كتاب: من افتراءات المستشرقين ١٨٦ وما بعدها.

والتواتر هو ـ كما سبق[1] ـ: إخبار جماعة يمتنع تواطؤهم على الكذب عادةً.

ومن هنا يعلم اشتراط تساوي الطبقات في هذه الخاصّة، بحيث لو انتهى الخبر إلى آحاد لا يمتنع في حقّهم ذلك بطلت حقيقته وزالت خاصّته.

ولهذا اتّجهت منّا الخدشة والمناقشة فيما لو ادّعت النصارى وتمسّكت بدعوى التواتر على معجزات (عيسىٰ) عليه السلام، وقلنا: إنّ الطبقة الأُولى لم تبلغ إلى تلك المرتبة؛ لنزارتها ومعدودية أفرادها، بخلاف معجزات (محمّد) صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّها لكثرة من آمن به في الحجاز وأسياف[2] اليمن وأطراف الشام والعراق ـ سوى أهل الأوبار والأشعار ونزّال القفار ـ قد بلغت واستفرغت حدّ التواتر وزادت عليه ـ لو ثمّة من مزيد ـ بأضعاف مضاعفة لا يفي بها التعداد والتعديد!

ولو لم يصدع الوحي الساطع ويسطع الفرقان الصادع بمعجزات (المسيح) ـ من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى والتكلّم في المهد صبيّاً ـ لما كان لنا طريق إلى الإيمان والتصديق بواحدة من تلك، ولا سلكت من معجزات الأنبياء في سلك.

فلك ـ يا رسول الله ـ المنّة والفضل في ذلك على كلّ مسلم، بل ومسيحي لو أنصف.

فإنّك قد ذكرت من قداسة شأن (المسيح) ما لم تفِ به حتّى أناجيل: (لوقا)، و(مرقس)، و(يوحنّا)، و(متّى) من تلاميذه.

---

(١) سبق في ص٩٤.

(٢) السيف: ساحل البحر. (جمهرة اللغة ٢: ٨٥٠).

وحقّاً أقول: إنّ كرامة (المسيح) عليه السلام لا تحفظ إلّا بحفظ كرامة (محمّد) ﷺ وصون مقامه وتقديس كتابه، فلينصف المنصفون وليتدبّر العارفون.

وأمّا ثالثاً: فكون تلك المعجزات ثبتت بخصوص تواتر المسلمين لا غير ممنوعٌ أشدّ المنع، يحقّ لو غسلوه من كتبهم بالدمع!

فإنّ ذلك ثابت بإخبار عامّة الناس وسائر الأُمم من اليهود والنصارى والمسلمين والجاهلية وسائر المشركين في جميع الطبقات من عصره إلى قرون بعده متطاولة بشهادة قروم من المؤرّخين هي عند أُمّتها صادقة النقل صحيحة الأصل.

يكفيك مثل شهادة الأب القدّيس والحبر القسّيس (العبري)[1] في: (مختصر الدول).

راجعه في تاريخ دولة الإسلام[2]، تجده يصرّح ببعض تلك المعجزات، ويرسلها لرسول الله إرسال المسلّمات*.

---

(١) تقدّمت ترجمته في ص٧٩ هـ٣.

(٢) راجع تاريخ مختصر الدول ١٦٠.

(*) وإليك نصّ حروفه في (صفحة ١٦٠) من طبعة اليسوعية، عند ترجمة رسول الله ﷺ، ومجمل من تاريخ حياته، وذكر كفالة عمّه (أبي طالب) له، إلى أن قال:

(وخرج به ـ وهو ابن تسع سنين ـ إلى الشام، فلمّا نزلوا بصرى خرج إليهم راهب عارف اسمه: (بحيرا) من صومعته، وجعل يتخلّل القوم حتّى انتهى إليه، فأخذه بيده، وقال: سيكون من هذا الصبي أمر عظيم ينتشر ذكره في مشارق الأرض ومغاربها، فإنّه حيث أشرف أقبل وعليه غمامة تظلّله) انتهى بحرفه.

يا لله وللإنصاف! من ينصفنا من أمثال صاحب (الضلالة) وأخوانه الذين يمدّونه في الغي، يريدون أن يستروا ←

ومن ذلك يظهر لك أنّ الأمر فيها قد تجاوز حدّ التواتر وصار من الضروريات والمسلّمات، وعاد منكرها على حدّ منكر الضروري الذي لا يتّضح لديه بعده أمر نظري.

وهذا أمر يجده المنصف وطالب الحقّ بعيانه وحسه، ويشاهده بأدنى إمعان في النظر، حيث لا تكون نفسه عدوّة له وهو عدوّ لنفسه، وإلّا فـ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1].

على أنّ المعاند إن أصرّ على إنكار تلك المعجزات فنحن معاشر الأُمّة المسلمة في مندوحة عنها، فإنّا ـ بفضل الله (تعالى) ـ نتمسّك بالكتاب الذي لا يشقى من تمسّك به، ولا يهي من اعتصم بالعروة الوثقى من سببه، فإنّه سُلّم السلامة ومعراج الكرامة، وهي المعجزة التي اختصّ بها نبيّنا ﷺ من بين الأنبياء.

فإنّه (قرّب الله وسيلته وتقبّل في المرسلين شفاعته) قد اختصّ ـ كما عرفت ـ من بينهم وحده ببقاء معجزته بعده. وقد نبّهناك أيضاً أنّ معجزة النبوّة

← وجه الشمس بأكفّهم ويحجبوا النيّرات بأناملهم!

أليس هذه معجزة صريحة بشهادة كبير من قسسهم بنقل عالم من علمائهم وحبر من أحبارهم في كتاب مطبوع بأشهر مطابعهم؟! فماذا يطلبون وراء ذلك من الدليل والبيّنة؟! ولكن:

غلب المين منذ كان على الخلق ومـاتت بـغيضها الحكماء

وإذا ضلّت العقول على علم فـماذا تـفيده النصحاء؟!

﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (منه ﷺ).

أقول: الآية المذكورة آنفاً تجدها في سورة يونس ١٠: ١٠١.

وأمّا البيتان فهما لأبي العلاء المعرّي، كما نُسب اليه في كتاب: مؤلّفات مصطفىٰ لطفي المنفلوطي الكاملة ٧٠٦ (الهامش الأوّل).

(١) سورة القصص ٢٨: ٥٦.

على الحقّ والحقيقة هي : المعجزة التي يتحدّى بها النبي وتقارن دعوى الرسالة، كاليد البيضاء (لموسى) حين قيل له : ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴾[1]، وكناقة (صالح)، وأمثال ذلك.

ومعجزة نبيّنا ﷺ التي إليها دعا وبها تحدّى هي هذا الفرقان العظيم والقرآن الكريم.

وأمّا سائر معجزاته فهي كمالات وكرامات، وعلامات وأمارات، بعضها قبل ظهور النبوّة، وكثير منها عند الدعوة، وبعضها بعد تلك المقامات، وكلّها ليست من معجزات النبوّة، بل إرهاصات وتتمّات.

أنت ـ إذا تدبّرت وتبصّرت ـ يكفيك شاهد واحد على صحّة هذه الديانة : يكفيك مثابرة صاحب هذه الشريعة على نشرها ونفوذها وتحمّله أحمال العناء وأثقال الجهد والبلاء، فكم قاسى لها الشدائد، وعادى فيها الأقارب والأباعد! وكم تألّب وانتدب الزعماء من قبائله والكبراء وأهل النفوذ من عشائره لصرفه وكفّه عن هذه الدعوة الشريفة بأنواع الصوارف والروادع، من : تخويف وتهديد، ووعد ووعيد، وتقريب وتبعيد، وجفاء ومجانبة، وهجر ومعاتبة، وبذل المال والإمارة له عليهم بمواثيق وعهود وشواهد صدق وشهود! فما زاده كلّ ذلك إلّا حماساً في دعوته وحرصاً على كلمته وغلواء في طريقته.

وقد طفت وطفحت بكلّ ذلك كتب المؤرّخين وكلمات المهرة والثقات من نقلة الأخبار.

---

(١) سورة الأعراف ٧: ١٠٦ ـ ١٠٨.

دونك ما تواتر من مثل قوله لعمّه وكفيله (أبي طالب) وقد اجتمعت عنده كبّار قريش قائلين له : يا أبا طالب ، إنّ ابن أخيك عاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا ، فانهه عنّا أو خلّ بيننا وبينه ! فوعدهم جميلاً ، ثمّ عادوا إليه ، وقد اشتدّ غيظهم ، وقالوا : إن لم تنهه نازلناه وإيّاك ! فبعث إليه وأعاد كلامهم عليه ،فظنّ النبي أنّ عمّه عزم على خذلانه ، فشقّ عليه ذلك ، وقال : « يا عمّ ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر » ، ثمّ انصرف وهو يبكي ، فناداه عمّه : قل ما أحببت ، فو الله لا أُسلّمك أبداً[1]* .

أقول : ألا بذمّة الحقّ وحرمة الحقيقة وشرف الصدق وشهامة الإنصاف وشهادة التعقّل ، أترى ـ يا رعاك الله وهداك ـ أنّه ليس لهذا الأمر من واقع ، وليس وراء هذه الصورة حقيقة ، وأنّ هذه الشدّة والحماس والقوّة كان من محمّد ﷺ وهو على غير يقين من أمره ولا ثقة بدينه ولا قاسر إلهي من ورائه ، وأنّه بشر من سائر الناس ، افترى ـ معاذ الله ـ فرية على الله ، فصبر لها هذا الصبر ، وثابر لرواجها تلك المثابرة ، وكابر العالم كلّه عليها تلك المكابرة ؟!

إذن ما أنصفت في الحكومة ولا تلطّفت في الفكرة ، ولا تدبّرت ولا تدرّبت ، ولا عدلت ولا اعتدلت !

أنت واختيارك ، أنت وإنصافك ، أنت ومروّتك ، أنت وما ترضاه لنفسك ، أنت وما تجده في وجدانك وحسّك ، لا بل أنت وربّك ، فالله حسبي وحسبك !

أمّا أنا فقد خرجت لك من العهدة ، ومخضت وطاب المطالب ، ثمّ محضت

---

(١) قارن : السيرة النبويّة لابن هشام ١ : ٣٠٢ ، المنتظم ٢ : ٣٦٨ ، الكامل في التاريخ ٢ : ٤٣ ، تاريخ أبي الفداء ١ : ١٧٦ ، السيرة النبويّة لابن كثير ١ : ٤٦٣ ـ ٤٦٤ .

(*) ستأتي تفاصيل هذه الأُمور على الدقّة والفلسفة والبسط والاستيفاء في الجزء الثالث إن شاء الله . (منه رحمه الله) .

لك الزبدة، ولا أظنّك ـ بعد هذا كلّه ـ تبقى من أمر النبوّة على ريبة.

كيف! وقد أشرت لك إلى الوجوه البعيدة والقريبة، وأثبتّ لك الدعوى بصغراها وكبراها، وجمعت عندك شؤون الحقيقة أقصاها وأدناها وأُولاها وأُخراها، وأقمت لك لتحصيل اليقين الإقناعيات والبراهين.

ولقد كان يكفيك دون الذي ذكرناه وقدّمناه بكثير إن كنت طالباً للحقّ والهدى بصدق النيّة وصحيح البصيرة ونافذ العزيمة وعصيان الشيطان والعصبية.

وإن كنت ـ وعافاك الله ـ من المصرّين على العناد المعادين للهدى والرشاد الذي يأبى إلّا أن يكون للحقّ جدّ جاحد، فالكلام معك من العبث؛ لأنّا نضرب منك في حديد بارد!

وأنت تعلم ـ أصلحك الله ـ كيف يبلغ الشقاء بالإنسان، وإلى أيّ مقام تبلغ به طاعة الشيطان!

فإنّ أُمم الأنبياء كانوا ينظرون إلى معجزات رسلهم عياناً، فما يزيدهم ذلك إلّا كفراً وطغياناً!

يرون (صالح) الأنبياء، يخرج الناقة العشراء[1] من الصخرة الصمّاء، نصب عيونهم وحسب اقتراحهم وطلبتهم، ثمّ يمرعون ويمتّعون عصراً في عميم بركاتها وعظيم خيراتها، ثمّ تترادف النذر والوصايا من أبيها بحسن رعايتها وحفظ حرمتها، فيكون جزاؤه وجزاؤها أن يُمنع ماؤها، ويذبح فصيلها، وتعقر عراقيبها وأُصولها!

---

(١) ناقة عُشَراء: مضى لحملها عشرة أشهر، وقيل: التي وضعت حملها، وقيل: العشراء من الإبل كالنفساء من النساء. (لسان العرب ٩: ٢١٩).

هذا صنيع الأُمم بأنبيائهم، وقس على ذلك سائر أنبائهم، وأمعن في الفكرة طلباً، وإن استطعت بعد فمت من ذلك عجباً!

إنّ معجزات (محمّد) ﷺ ما زالت تتوالى وتترادف وتتزايد وتتضاعف لقومه وعشيرته من حين ولادته إلى وقت ظهور دعوته، حتّى صار الأمر عياناً والحقيقة وجداناً.

ومع ذلك كلّه، فلم ينجع في مشركي أقوامه ولا نفع في جاهلية أيّامه، وما ازدادوا إلّا جحوداً وكفراً، ولا شروا إلّا شرّاً.

وقد أعرب الوحي عن إصرارهم على الكفر، مع وضوح الأمر من توالي الحجج وترادف البيّنات، وأنّ ذلك لا ينفع فيهم ولو أنزل الله عليهم الملائكة وفتحت لهم أبواب السماوات!

حتّى قال (جلّ شأنه) في بيان تناهي أمرهم في الطغيان والعناد: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

وزاد (زيدت علينا ألطافه): ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[2].

ومن هنا يتّضح لك فساد قول من زعم: أنّه (صلوات الله عليه) ما جاء لقومه بمعجزة، ولا أجابهم إلى إظهار آية[3]، سبحان الله! ما أشدّ العماية وأشنع الغواية! تمسّكاً بالأباطيل، وصرفاً لظواهر بعض الآيات الشريفة إلى ما يوافق

---

(١) سورة الأنعام ٦: ٧.

(٢) سورة الحجر ١٥: ١٤ ـ ١٥.

(٣) انظر: من افتراءات المستشرقين ١٨٦ وما بعدها، موقف العقل والعلم ٤: ٩١ و٩٥ و١٠٤.

أهواءهم من التأويل، وتغاضياً وتغافلاً عن نصوص الآيات الصريحة في عظيم الآيات وكبير المعجزات التي جاء بها (صلوات الله عليه)، ولم تنفع بهم ولم تؤثّر فيهم، كقوله (تعالىٰ): ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[1]، وقوله (جلّ شأنه): ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[2].

والغرض من هذا البيان الأخير الذي أردنا الوقوف عليه في فصل النبوّة: أنّ أكثر الأُمم ما آمنت ما شاهدته لأنبيائها من عظيم المعجزة، فكيف نطمع أن تؤمن الناس كلّها لنبيّنا بما ذكرناه من هذه البيانات الموجزة؟!

با كه گويم در مه دهِ زنده كوست   سوى آب زندگى پوينده كوست[3]

وما كان غرضي وبغيتي من كلّ هذا العناء وطول ما أوردت في هذا الفصل من الأدلّة التي هي أوضح من الشمس في وسط السماء، أن يجيب دعوتي كلّ من وعاها ويتّبع هذه الشريعة المقدّسة كلّ من رآها، بل قلت في نفسي: صيحة في وادٍ ونصيحة من صميم فؤاد وخالص وداد، عساها تصادف محلّاً وتصيب أهلاً، من طالب حقٍّ وصاحب عزم وصدق، يهديه الله بهذه الذبالة ويقتنع من الحثّ بهذه الحثالة، فيكون ممّا عنيتُ بجمعه أمس خيراً لي عند الله ممّا طلعت عليه الشمس.

---

(١) سورة الأنعام ٦: ٤.

(٢) سورة الأنعام ٦: ٤٦.

(٣) هذا البيت للشاعر الشهير (مولانا). راجع مثنوي معنوي (فارسي) ٦٨٨.

ولكن ورد: (كو) بدل: (كوست) في الصدر والعجز.

ومعنىٰ البيت: مع من أتكلّم في هذه القرية التي حجبها الضباب؟ وأين الحيّ فيها؟ أين الباحث عن ماء الحياة الحقيقي؟

وحيث بلغ الكلام بنا إلى هذا المقام، فليكن هذا آخر هذا الجزء وتمام هذا الفصل، ولنقف عليه راغبين إلى الله (جلّت نعماؤه) لنا ولك في حسن التـوفيق والهداية إن شاء الله.

(ختم الله لنا ولك بالحسنى أيّها المحسن إلينا بالنظر في دعوتنا)

[خاتمة هذا الجزء ضمن تتمّات]

إنّنا نريد أن نختم هذا الجزء ببيان عدّة أُمور، نجعلها نافلة وتعقيباً ونستودعها من أنصع النصائح نصيباً، ضمن تتمّات مهمّات تُدعم ما تقدّم وتُرفد ما سبق مرافدة الكفّ للساعد والزند للعضد، تسمو نجلاء وتنجلي سماءً، وتجهّز لك من البيان ما تقطع جهيزته قول كلّ خطيب وتعطي لباب الحقّ لكلّ لبيب.

نصائح أراها لازمة الاتّباع واجبة في ناموس الاجتماع، مفروضة في قواميس الشرائع الإلهية ونواميس الإنسانية ومقاييس البشرية، وعلى هاجس كلّ ذي ضمير ووجدان:

[التتمّة الأُولى: تمهيد مقدّمة، وبيان حال الغربيّين مع المسيحية والإسلام، والإشارة إلى رسالةٍ في ردّ الإسلام]

الأُولى: أنت ـ أصلحك الله وإيّاي ـ ما أظنّك إلّا جدّ خبير بما عليه هذا العالم للحسوس الذي يعبّر عنه في القديم: (بعالم الكون والفساد)[1]، وما أصدقها عليه من تسمية! أنت تعلم أنّه مهما بحث الباحثون وتعمّق الحكماء

---

(١) لاحظ: رسائل إخوان الصفا ١: ١٤٦ و٢: ٥٢، الشفاء (الطبيعيات) ٢: ٧٧، الألواح العمادية (ضمن الرسائل الثلاث لشيخ الإشراق) ٤٠ و٥٢، المطالب العالية ٨: ٣٧.

والفلسفيّون، وتغلغل الأثريّون، يتلمّسون العثور على بصيص نور من حقيقته ويلتمسون التماع بارقة من جوهره، لا يزدادون إلّا حيرة وتدلّهاً وبهراً وتعجّباً.

فكلّما أبرقت لهم بارقة أمل أخفقت منهم جانحة سعي، وكلّما تقدّمت منهم قوادم رجاء نكصت بهم إعجاز يأس.

فهم والحقائق كواقف على طرف لجي تيّار، لا تنفك تغمره موجة بعد أُخرى، إذا انحسرت عنه واحدة فتح عينيه وأجال بصره في فسيح هذا الفضاء غير المتناهي، وقبل أن يتعرّف شيئاً من تلك الكائنات الرائعة ويتمتّع بالنظر إليها اندفعت عليه الثانية، فارتطمت عليه في آذيها ودفنته تحت طبقات تلاطماتها، فلا يزال بين ظلمة ونور وموت ونشور، حتّى تودي به إحدى تلك الغمرات، وتلقيه في أعماق تلك اللجج وتلحده تحت أطباق ذلك الثبج[1].

سبحت في لجّك علّي أرى عارفةً تكشف لي سرّا
فلم أجد ثمَّ سوى موجة تدفعني فيه إلى أُخرى

تجد هذا الكون ومليكه الإنسان وكأنّه مضطرّ في صورة مختار، ومسخّرٌ في هيئة مستقلّ بالإرادة، حرّ في المشيئة مستبدّ بالملكوتية.

وكلّها وهم في هم وخيال في خيال، ما أسرع ما تنقشع سحابتها وتنجلي عمايتها.

ولا أدري أتنجلي غبّ ذلك، أم تتكاثف وتضعف، أم تتضاعف ؟!

كلمتي: أنّك تجد الإنسان على راسخ ما يزعمه ويعتقده لنفسه من الاختيار والتدبير وامتلاك التبديل والتغيير في: أوضاعه، في طباعه، في خُلقه،

---

(١) الثبج: علوّ وسط البحر إذا تلاطمت أمواجه. (تهذيب اللغة ١١: ١٩).

في خَلقه، في حياته الاجتماعية، في نشأته الأدبية، في عاداته، في عباداته، في سائر طقوسه ومعتقداته.

ولكن ـ وهو في عين هذا الزعم وأجواز هذه الفكرة وفي عقدة هذه العقيدة ـ لا تجده إلّا مدفوعاً إلى طرائق وخلائق، كأنّه مجبور عليها مسوق بالقسر إليها، لا تضعه عن تلك الخليقة ألف عِظة، ولا يصحو بسماع ألف نصيحة!

نعم، قد قال ذلك الفيلسوف العربي ـ ونعم ما قال ـ:

غلب المين منذ كان على الخلق ومـاتت بـغيضها الحكـماء[1]

يكتب الكاتبون ويبحث الفلسفيّون وينصح الصلحاء والمصلحون ويجهد علماء الأخلاق وأطبّاء المجتمع البشري في بيان العلل والأمراض والعلاج والدواء والأسقام والشفاء، ولكن هل نجع شيء من ذلك أو نفع؟! وهل دفع أو نفع؟! أم هل كبح من ذلك الجماح وأثّر شيئاً من الصلاح؟! وهل تغيّر وضع هذا الكائن البشري عن خليقته الأُولى وأطواره المتقادمة؟!

أليست هذه النفوس بعد على غلوائها[2]، لا تزال تترامى في مهاوي أهوائها، وتتعادى على عوائدها وعدوائها؟!

هل جفّت الأرض يوماً من وابل الدماء البشرية التي يطلّها الإنسان من أخيه الإنسان، وما تمزّقه مخالب عدوان البشر من إهاب البشر؟!

هل صلحت الأرض في قرن من القرون، أو عقد من العقود، أو برهة من الزمن؟!

---

(١) هذا البيت لأبي العلاء المعرّي، كما تقدّم.

(٢) الغلواء: سرعة الشباب، وأوّله. (صحاح اللغة ٦: ٢٤٤٩).

كم قرع باب سمعك حديث وضع السلام على الأرض، ومجالس التحكيم، ومؤتمرات السلم في (لاهاي)[1]، فهل وجدتها سوى تموّجات في الهواء، كأنّها نقوش على الماء ؟!

هل استطاع النطاسيّون والمهرة الأخلاقيّون والرجال المصلحون أن يضعوا لجشع الحرص والغلب والإثرة والاستملاك حدّاً محدوداً وسياجاً حصيناً وإطاراً منيعاً وسوراً شاهقاً، لا يخرق ولا يفتق ولا يتسلّق بسلالم الحيل، ولا يرتقى بمعارج الخداع ؟!

هل اتّسع لرجال الأديان وزعماء الملل أن يحملوا الأُمم على التساهل الديني والعدل الإلهي والخطّة المثلى والسنّة المستقيمة التي لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً[2] ؟!

هل امتلكوا إقناع أهل الأديان أنّ أديانهم لا تبيح لهم التورّط في التعصّب، والتهالك على التهارش[3]، والهملجة[4] في الغشم والظلم، والدعارة والفحش،

---

(١) لقد أنشئت المحكمة الدولية لأجل تسوية النزاعات الدولية وحلّها بالطرق السلمية وعبر القنوات الدبلوماسية الممكنة إثر اتّفاقات مؤتمري لاهاي الدوليين عامي ١٨٩٩ م و١٩٠٧ م، فتمّ الإقرار على إنشاء محكمة التحكيم الدائمة ومحكمة العدل الدولية بعدها، حيث نظّمت مجدّداً بموجب ميثاق الأُمم المتّحدة عبر ميثاق خاصّ بها، تمّت المصادقة عليه في مؤتمر الأُمم المتّحدة بسان فرانسيسكو في أميركا بتاريخ ٢٦ حزيران من عام ١٩٤٥ م، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وهذه المحكمة تشكّل بمجموعها الهيئة القضائية الرئيسية لمنظمة الأُمم المتّحدة، وتتألف من خمسة عشر قاضياً، تنتخبهم الجمعية العمومية ومجلس الأمن من لائحة مرشّحين لمدّة تسعة أعوام، على أن يتغيّر ثلثهم كلّ ثلاث سنوات، وقد أُعلنت مدينة لاهاي الهولندية مركزاً دائماً للمحكمة (موسوعة السياسة ٦: ٧٠ ـ ٧٢).

(٢) الأمت: العِوَج. (لسان العرب ١: ٢٠٢).

(٣) التهارش: التحريش والإفساد بين الناس. (القاموس المحيط ٢: ٣٠٤).

(٤) الهملجة: الانقياد. (العين للفراهيدي ٤: ١١٨).

والتلاكم والتسابب، والتنابز والاغتياب، وإيذاء كلّ واحد لأخيه، وهتكه لنواميسه المحترمة، وشعائره المقدّسة ؟!

هذه عدّة أسئلة ..

ولا أعرفها سياسية أو دينية، أخلاقية أو اجتماعية.

كما لا أعرف شيئاً من حقيقة أمرها، ولا جانباً من جواباتها؛ إذ ليس لي وقوف على أندية السياسة، ولا إلمام لي بصحف الحوادث ووقائع الأكوان، فعسى أن يكون عندك خبر منها أو إثارة علم عنها.

سوى أنّي ما أظنّ أنّ تسمية هذا العالم: (بعالم الكون والفساد) إلّا تسمية قد طابق الاسم بها المسمّى، وطاح السبر بها على الجراح.

وعلى أيٍّ، فحيث إنّ الكون ـ على ما سبق لك ـ كلّه مدفوع بدوافع قسرية ومشاهد محسوس، ولكن تتصرّف به علل وأسباب غيبية، فالكاتب جرياً على ذلك الناموس يندفع إلى كتبه ونشر كلمته اندفاع كلٍّ إلى سبيله وسيره في صراطه وجريه على نهجه الذي يُسّر له وسيق إليه، وكأنّه لا يستطيع عنه تحوّلاً ولا انتقالاً.

وها أنا ذا قائل مقالتي ناشر فكرتي باث دعوتي، على علمٍ منّي أنّها صرخة في وادٍ ونفخة في رماد.

وحيث لا يعرف الدواء إلّا بعد معرفة الداء، ولا يصاب العلاج إلّا وراء إصابة السقم، فجدير أن نبحث لمعرفة هذا المرض الاجتماعي، أعني: تقاطع رحم الأُخوة البشرية وذهاب الرحمة الإنسانية ..

نريد أن نعرف هل أنّ عواطف الشفقة والحنان والرحمة ليست سوى حروف في المعاجم، وتقاطيع أصوات على أطراف الألسنة، ما خلق الله في

الخارج منها حقيقة، ولا جعل في الأعيان لها مصداقاً ؟! أم هي غرائز أودعها الله في البشر وغرسها في الطباع، ولكن مُحقت آيتها وأزهقت حياتها وتبدّلت تلك الغرائز بأضدادها، وأصبحت الإنسانية تنشد ولا سامع ولا مجيب قائلة:

إلى كم الرحم البلهاء شاكية ... لها من النعي إعوال وإرنان[1]

حيرى يضلّونها ما بينهم ولها ... منّا على عدواء[2] الدار نشدان

النجر[3] متّفق والرأي مختلف ... فالدار واحدة والدين أديان

وثمّ أوعية الإحسان مكفّأة ... فوارغ ووعاء الشرّ ملآن

أنّى يتاه بكم في كلّ مظلمة ... وللرشاد أمارات وعنوان

ميلوا إلى السلم إنّ السلم واسعة ... واستوضحوا الحقّ إنّ الحقّ عريان

ولو ذهبنا إلى التوسّع والترامي من سبب إلى سبب ومن علّة إلى علّة من سلسلة هذا البلاء وعلل هذا الداء لطال بنا الكلام وتباعدنا عن الغرض، ولكنّنا نشير إلى أقرب أسبابه وأظهر مباديه وينابيعه:

إنّ البليّة على هذا المجتمع التي قضت عليه بالشقاء وطول البلاء لا تعدو رجلين:

رجل نازع إلى مذهبه مستمسك بدينه مستشعر بشريعته، ولكنّه جاهل بها قاصر فيها ضعيف الحظّ من عرفان جوهرها واستكناه حقيقتها.

فلقصوره وجهله يريد أن ينفعها فيضرها، وأن يحييها فيميتها، فيخرج منها أكثر ممّا يدخل فيها.

---

(١) الرنّة: الصوت. (صحاح اللغة ٥: ٢١٢٧).

(٢) العُدَواء: أرض يابسة صُلبة، وأرض ذات عدواء: إذا لم تكن مستقيمة وطيئة. (لسان العرب ٩: ٩٥).

(٣) النجر: الأصل. (القاموس المحيط ٢: ١٤٣).

وآخر ليس له إلّ[١] ولا ذمّة، ولا يرى لدين من الأديان حقيقة ولا صحّة، لا يدين إلّا بمناواة الأديان، ولا يهدأ إلّا بهدم تلك الأُصول والأركان.

فهو يتوصّل بكلّ ذريعة إلى قمع كلّ شريعة.

ومن تلك الذرائع فيما يرتأي له أن يزرع بذور الأحقاد والأضغان بين أهل الأديان ويحرّش ما بينهم، حتّى يلقحها حرباً عواناً[٢] عليهم، وعلى أيّ الفريقين دارت الدائرة وبأيّهم حلّت الوقيعة كانت له الغبطة والغنيمة والفرحة والبشرى.

وهذه إحدى مكائد الغربيّين لنا معاشر الشرق وحبائلها التي تمدّها لاصطيادنا وتقسيمنا، حتّى أوشكت ـ لا سمح الله ـ أن تظفر ببغيتها وتحصل على آمالها.

يجيء غربي ملحد، يخفي اسمه ويكتم نفسه، وينشر كتاباً بصفة أنّه مسيحي ـ ولا وربّ المسيح ما هو من المسيحية في شيء! ـ فيضع في دين الإسلام والنبي الطاهر الأمين كلّ همز ولمز وسبّة ونبز:

وسعى إليّ بعيب عزّة نسوة جعل الإله خدودهنّ نعالها[٣]

نعم:

لولا اكتساب الحاسدين بنعله شرفاً لقال المجد طأ آنافها

ثمّ ليس كلّ المسلمين يصبر على ذلك أو يملك السكوت عليه، ولا إذا

---

(١) الإلّ: العهد. (تهذيب اللغة ١٥: ٣١٢).

(٢) الحرب العوان: التي ترفع من حال إلى حال أشدّ منها. (العين للفراهيدي ٢: ٢٥٤).

(٣) لاحظ ديوان كثيّر عزّة ١٥٣.

وراجع ذيل أمالي القالي ٦٧.

أراد أن يتكلّم يعرف من أين تؤكل الكتف[١]، وكيف تُسدّد النبال للنضال، فيكيل بذلك الصاع، ويطعم من ثمر ذلك الغرس وحصاد ذلك الزرع.

وأشوى شرّيه وأهون حاليه أن يكافئ السيّئة بمثلها ولا يربيها ويزيد فيها، فيتحامل على سيادة (المسيح) وقداسته، ويقول فيه ما تعلّمه من قبل أُمّته في أخيه حبيب الله (محمّد) (سلام الله عليهما)، ويسيء نكاية في كلّ شعائر تلك الملّة من إنجيلها ومريمها وصليبها وكنائسها ورهبنتها وتعميدها وفصحها وسائر مقدّساتها.

ثمّ يشتدّ بين الفريقين التشاتم حتّى يصل إلى ما هو أسوأ من التلاكم والتلادم[٢]، ثمّ قد يتّسع الخرق ويعسر الرتق، وهناك العاقبة الوخيمة، لا سمح الله.

وغايتي أنّنا لو رجعنا ليس إلى جوهر أدياننا فحسب، بل ولو إلى حواشيها وأطرافها ودخائلها ولصائقها، لم نجد فيها شيئاً يبيح لنا بعض ذلك، فكيف بكلّه؟! من ذا يجهل أنّه ليس من دين المسيحية جواز إيذاء المسلمين وهتك نواميسهم والطعن في نبيّهم وكتابهم!

كما أنّه ليس من دين الإسلام مسّ شرف (المسيح) واحتقار صليبه وأمثاله ممّا نُمي إليه وجعل من شعائر دينه. بَله[٣] الإنجيل والتوراة والكنيسة والعذراء.

---

(١) هذا مثل يضرب للرجل الحاذق ذي الدهاء ولمن جرّب الأُمور، فيقال: فلان يعلم من أين تؤكل الكتف.

انظر: الأمثال لابن سلّام ١٠٠، جمهرة الأمثال ٢: ٧٦ و٤٢٣.

(٢) اللدم: اللطم والضرب بشيء ثقيل يُسمع وقعه. (لسان العرب ١٢: ٢٦٥).

(٣) بَلْه: اسم فعل، بمعنىٰ: دع واترك. (المصدر السابق ١: ٤٩٦).

قل لي بأبيك، لا بل بربّك، أيّ الديانتين تبيح ذلك الخلق الوخيم والتعصّب الذميم ؟!

(المسيح) الذي يقول في وصاياه: «كن كالشمس تطلع على البرّ والفاجر والطيّب والخبيث»[١]، أم (الحبيب) الذي يقول في جوامع كلمه: «اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، فإن لم يكن من أهله فكن أنت من أهله»[٢] ؟!

الإنجيل الذي يقول: «سمعتم أنّ الإنسان عين بعين وسنّ بسنّ، وأمّا أنا فأقول لكم: لا تقاوموا البشر، بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء، ومن سخّرك ميلاً فأذهب معه اثنين»[٣]، أم الفرقان الذي يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٤]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[٥]، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[٦]، ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾[٧] ؟!

ألا بعزّة الدين، قل لنا: أيّ هاتين الديانتين تسمح لأهلها بكلّ ذلك

---

(١) نُقل عن الإنجيل في بحار الأنوار ١٤: ٣٢٦ و٩٥: ١٦٧.

(٢) ورد الحديث بصيغة: «اصنع المعروف إلىٰ من هو أهله وإلىٰ من ليس أهله، فإن أصبت أهله فهو أهله، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله».

قارن: كشف الخفاء ١: ١٤٨، النوافح العطرة ٤٦، الأحاديث المشكلة في الرتبة ٦٧.

(٣) إنجيل لوقا ٣٨ ـ ٣٩، بين الإسلام والمسيحية ٧٩ و٢٨٦.

(٤) سورة الأعراف ٧: ١٩٩.

(٥) سورة النحل ١٦: ١٢٦.

(٦) سورة الشورى ٤٢: ٣٧.

(٧) سورة الجاثية ٤٥: ١٤.

التعصّب والتضارب ؟!

ثمّ أليس من العجب ـ مع كلّ تلك الآيات ـ ما يحاوله ويومي إليه بعض كتّاب المسيحيّين من : أنّ العلم يحكم بالتساهل ، ولكن الدين لا يساعد عليه ؟! نازعاً إلى فصل العلم عن الدين في فلسفته ، وتلك الآيات الذهبية نصب عينه وقيد نظره !

أمّا نحن فالدين الذي لا يتمشّى مع العلم ويتكاتف وإيّاه لا تجدنا إلّا ضاربين به عرض الجدار ! وإن كنّا لا نستقبله بالمهانة والاحتقار ، سيّما إذا كان إلهياً ولو في بعض الأزمنة .

بل نقول : إنّ الدين ـ فيما عدا التوحيد ـ كالماء الزلال يتشكّل بأشكال ظروفه ومظاهره حسب اقتضاء الأحوال .

وهل يستطيع العلم هنا أن لا يرافق الدين ويوافقه ؟!

ويلي عليك وويلي منك أيّها الانسان ! ما أتعسك وأشقاك ! وما تعاستك إلّا ممّا جنته يداك : (يداك أوكتا وفوك نفخ)[1] !

العناية لا تزال تبعث الخاصّة من صفوتها والصنيعة على عينها لصالح هذا الضعيف المتمرّد المختلف هو في نسبه أإلىٰ (آدم) ، أم إلى مجتمع أصل يتفرّع

---

(١) أوكتا : شدّتا بالوكاء ، وهو كلّ سير أو خيط يشدّ به فم السقاء أو الوعاء .

وهذا مثل يضرب لمن يجني على نفسه الحين .

كان (المفضّل) يخبر عن أصل هذا : أنّ رجلاً كان في بعض جزائر البحر ، فأراد أن يعبر على زقّ قد نفخ فيه ، فلم يحسن إحكامه ، حتّىٰ إذا توسّط البحر خرجت من الزقّ الريح ، فغرق ، فلمّا غشيه الموت استغاث رجلاً ، فقال له الرجل : يداك أوكتا وفوك نفخ . (الأمثال لابن سلّام ٣٣١ ، جمهرة الأمثال ٢ : ٤٣٠ و٤٤٣ ، مجمع الأمثال ٢ : ٤٩١).

منه هو والقرود ؟!

تجهد العناية في إصلاحه على تعاليمها ومساعي المندوبين من سفرائها، فينقسم ذلك التعيس على نفسه طائفتين: واحدة تكذّبهم جهاراً وتسومهم هوناً وصغاراً، وذلاً واحتقاراً، وأُخرى تصدّقهم في ظاهر الحال، ولكنّها تتلاعب بتعاليمهم تلاعب الصبية بالأُكر[1] أو الريح بأعالي الشجر، حوّرت تلك الحقائق عن أُصولها إلى طبق أهوائها، وأمّت بها إلى غايات أنفسها، لا إلى جواهر غاياتها.

وهكذا فعل الإنسان، وهكذا لا يزال يفعل!

الكاتب يكتب، والمصلح يصرخ، والناصح يصيح حتّى يبحّ، أمّا البشر فكلّ واحد يسير على ما توحيه إليه آلهة طباعه وما يتنزّل عليه من سماء أهوائه!

كلّ يسير فيما يتيسّر له، ويجري على ما يجرّ بزعمه منفعته، سابح في غمرة، صاح في سكرة، (لا يدري بما في الإنجيل)* ولا بما في القرآن من عظة أو بيان:

أتلو صحائف وجنتيك وأنت في سكر الصبا لم تدر بالإنجيل!

والغرض من كلّ هذه النفثات أنّ الشرّ قد تفاقم بين هاتين الأُمتين، حتّى بلغ الحزام الطبيين[2]، ولم يقصر الشغب والبلاء على الشتم والسباب في

---

(١) الأُكر: الحُفر. (صحاح اللغة ٢: ٥٨٠).

(*) مثل في عرف أهل العراق، يقولون: (ما يدريك ما في الإنجيل؟!)، ولا يخفى لطفه هنا. (منه ﷺ).

(٢) يضرب هذا المثل في تفاقم الأمر والكناية عن المبالغة في تجاوز حدّ الشرّ والأذى؛ لأنّ الحزام إذا انتهى إلى الطُبيين (حلمات الضرع) فقد انتهى إلى أبعد غاياته، فكيف إذا جاوزه؟!

لاحظ: جمهرة الأمثال ١: ٣٠٨، المستقصى في أمثال العرب ٢: ١٣، لسان العرب ٨: ١٢٦.

المؤلّفات والكتب وهتك كلّ حرمات دين الآخرين، بل تجاوز إلى ما تسمع وترى من دماء تُسفك وأعراض تهتك، وعمران بلاد تُنسف وأعمار عباد تقصف، وكلّ ما تقشعرّ له أبشار البشرية وتضجّ منه إلى الله الديّان ثمّ إلى الضمير والوجدان!

وأعظم ما هنالك رزية إلصاق كلّ ذلك بالأديان التي عرفت كيف تبرأ من ذلك التعصّب، وتدعو بكلّ ناطقة منها إلى التساهل والتعاطف وبثّ روح الحنان والرحمة في كلّ أُمّة ومع كلّ حزب وطائفة.

بيدَ أنّي لا أشكّ ولا أرتاب أنّ تساهل المسلمين فيما لا يزال ديناً وأدباً أو ما يسمّونه: (سياسة)، تساهلهم في كلّ تلك الأحوال، وتعصّب غيرهم لدينهم وقومهم ولغتهم وعاداتهم وسائر شؤونهم، تساهل أُولئك وتشدّد هؤلاء، هو أحد الأسباب التي تركت المسلمين على ما تراه اليوم ممّا لا أزيدك به علماً ولا عنه خبراً.

ولكن أتراك لو تغلغلت في البحث عن الأسباب والمبادي، وفحصتها بأدقّ فحصك، وسبرتها بمسبار غورك، ووزنتها بعيار مقاييسك، أكنت تجد السبب أو أشدّ غير دخول الغربيّين ومدّ أيديهم إلى الشرق؟!

خذ من يوم الحروب الصليبية إلى يومك هذا، وأحسن النظر، ولطّف الفكر، وقف في المراكز، وأدر بصرك في الحواشي والأطراف..

ولا يسمح لي مقامي هذا ـ وأنا أكتب في (الدين والإسلام) ـ أن أعود مؤرّخاً وجامعاً لك الشواهد والأمثال والقرائن والأحوال التي تتجلّى لك بها تلك الحقيقة، ولا ترتاب فيما أحرزتُه وحدستُه.

أليس قد مرّت أربعة قرون أو أكثر من أوائل الإسلام، يوم كانت الدولة

عربية إسلامية والمسلمون مع المسيحيّين في سلم ودعة، وهناء وراحة، وصفاء ومحبّة، ليس بينهم طرف نزاع، ولا حاشية مشاحنة، حتّى في المباحث الدينية والأُصول الاعتقادية، لا يجد كلّ من جاره ومواطنه إلّا كلّ حرمة لدينه وكرامة لمذهبه، ولا يدور بينهم في كلّ معاملة إلّا كلّ حسنى ومجاملة ؟!

سل (بغداد) عاصمة الإسلام ومدينة الشرق وقاعدة الخلافة يوم ذاك تخبرك عن كثير ذلك وقليله ودقيقه وجليله، حتّى إذا مسح الغرب عن عينيه سنة الكرى وأيقظته زعقات الشرق ولمعات ذلك البرق، وكان أوّل انتباهته تلك المناوشات في الأندلس، تلك الدول العربية الزاهرة ذات الحضارة الباهرة في القرن الرابع، ثمّ سرت تلك الحركة الفكرية في الأُمم الغربية، حتّى تركها الشرق والعبرة به والغيرة منه في المقيم المقعد والمسيء المسعد، فكان أكبر همّتهم وأعظم مكرهم وأشدّ ما عندهم وما يستفرغ جهدهم سقوط الشرق من أوج مجده وهبوط نجم سعده وثلّ عروش شرفه.

ولم يجدوا أنجح للوصول إلى هذه الغاية من تحريش بعضهم على بعض وإفساد ذات بينهم وتضاربهم على أنفسهم، وإذا تقطّعت أوصالهم سهل استئصالهم وهان أمرهم.

ثمّ وجدوا أقرب الطرق إلى ما يرومون من إفسادهم وشقاقهم إلقاء العصبيات الدينية فيما بينهم، فسلكوا إليهم من هذا السبيل، حيث أصابوا فيه مدخلاً كالنافقاء[1] وطريقاً أوسع من الدهناء[2]!

---

(١) النافقاء: إحدى حجَرَة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها، وهو موضع يرقّقه، فإذا أُتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه، فانتفق، أي: خرج. (صحاح اللغة ٤: ١٥٦٠).

(٢) الدهناء: الفلاة. (لسان العرب ٤: ٤٣٤).

وألمعي الظنّ لا يرتاب أنّ كلّ ما نشر من المطاعن على الإسلام والمسلمين، ما كانت ولم تكن إلّا من الغربيّين حتّى ما هو باللسان العربي منها فضلاً عن غيره، وإلّا فإنّنا لم نعهد من بني أوطاننا الشرقيّين ـ كما لم يعهدوا منّا ـ إلّا كلّ سلم ودعة وملائمة ومجاملة.

نعم، ما هي إلّا من إحدى غرائب الغربيّين، وما هي منهم ببعيد!

كيف! وقد انضمّ إلى الجشع السياسي وشره الاستملاك والاستعباد ما اشربّ في قلوبهم من حبّ الإلحاد وبغضة عامّة الأديان.

فهم في الإفساد بيننا ـ معاشر الشرقيّين ـ يسعون إلى غايتين ويقصدوننا من وجهتين: دينية، وسياسية.

فمن إحدى خدعهم ودسائسهم التي لا يزالون يعملون عليها لإشباع نهمتهم وتبريد غلّتهم باستملاك الشرق أوّلاً، وقلع جذور المذاهب والأديان ثانياً؛ رغبةً في الإباحة العامّة والسراح المطلق، أنّهم وضعوا رسالة، بل تلفيقات ضلالة، ونسبوها إلى ما اختلقته نفوسهم، وأفكته أفكارهم من رجل مسيحي اسمه: (عبد المسيح)[1] كتبها في جواب (عبد الله الهاشمي) أحد بني عمّ (المأمون) حيث دعاه إلى الإسلام.

وكلّ ذلك ـ كما تعلم أنت وكلّ شادٍ[2] ومنتهٍ في أودية التاريخ ـ مختلق مجعول، لا وجود له في فروع الكتب ولا في الأُصول؛ إذ هذه شهود كتب التاريخ بين أيدينا ونصب أعيننا، وقد أحصوا فيها النقير من دولة العباسيّين والفتيل،

(١) راجع ما ذُكر حوله في الهدى إلىٰ دين المصطفىٰ ٢٥٩ وما بعدها.

(٢) الشادي: الذي يشدو شيئاً من الأدب، أي: يأخذ طرفاً منه، كأنّه ساقه وجمعه. (صحاح اللغة ٦: ٢٣٩٠).

وليس فيها من ذكر ذينك الرجلين أثر ولا عين، ولا في واحد من الكتب المعتمدة كتاريخ (الطبري)[1] و(المسعودي)[2] وأضرابهما حرف من تلك القصّة، بل ولا إشارة إلى وجود إنسانين في زمان (المأمون)[3] (كعبد المسيح) أو (عبدالله).

---

(١) أبو جعفر محمّد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، العالم المشهور. مولده سنة أربع وعشرين ومائتين، وطلب العلم بعد الأربعين ومائتين، وأكثر الترحال، ولقي نبلاء الرجال، وكان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وكثرة تصانيف، على تعبير الذهبي. سمع من: ابن أبي الشوارب، وإسماعيل بن موسى السدّي، ومحمّد بن حميد الرازي، ومحمّد بن عبدالله بن بزيع، والحسن بن الصبّاح البزّار، وآخرين. وحدّث عنه: أبو القاسم الطبراني، وأحمد بن كامل القاضي، وأحمد بن القاسم الخشّاب، وأحمد بن علي الكاتب، وطائفة. كان فقيهاً مؤرّخاً مفسّراً لغوياً عالماً. من مصنّفاته: جامع البيان، تهذيب الآثار، تاريخ الأُمم والملوك، الخفيف في أحكام شرائع الإسلام، التبصير، تاريخ الرجال. توفّي ببغداد سنة ٣١٠هـ.

(تاريخ بغداد ٢: ١٦٢ـ١٦٩، معجم الأُدباء ١٨: ٤٠ـ٩٤، وفيات الأعيان ٤: ١٩١ـ١٩٢، تذكرة الحفّاظ ٢: ٧١٠ـ٧١٦، سير أعلام النبلاء ١٤: ٢٦٧ـ٢٨٢، ميزان الاعتدال ٣: ٤٩٨ـ٤٩٩، طبقات الشافعية الكبرى ٣: ١٢٠ـ١٢٨، لسان الميزان ٥: ١٠٠ـ١٠٣، طبقات الحفّاظ ٣٠٧ـ٣٠٨).

(٢) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، من ذرّية عبدالله بن مسعود، مؤرّخ رحّالة بحّاثة، من أهل بغداد، ونزل مصر مدّة. أخذ عن: أبي خليفة الجُمَحي، ونفطويه، وعدّة. وكان معتزلياً صاحب مُلَح وغرائب وفنون. ألّف: مروج الذهب، وأخبار الزمان ومن أباده الحدثان، والتنبيه والإشراف، وخزائن الملوك وسرّ العالمين، والسياحة المدنية، والمقالات في أُصول الديانات، وغيرها. توفّي بمصر سنة ٣٤٦هـ، وقيل: سنة ٣٤٥هـ.

(فهرست ابن النديم ١٨٨، معجم الأُدباء ١٣: ٩٠ـ٩٤، سير أعلام النبلاء ١٥: ٥٦٩، فوات الوفيات ٣: ١٢ـ١٣، طبقات الشافعية الكبرى ٣: ٤٥٦ـ٤٥٧، لسان الميزان ٤: ٢٢٤ـ٢٢٥، شذرات الذهب ٢: ٣٧١).

(٣) أبو العبّاس عبدالله المأمون بن هارون بن محمّد بن أبي جعفر العبّاسي الهاشمي، أُمّه مراجل جارية الرشيد. ولد سنة ١٧٠هـ. كان من رجال بني العبّاس حزماً وعزماً ورأياً وفصاحة. قرأ العلم والأدب والأخبار وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم، وعمل المرصد فوق جبل دمشق، ودعا إلى القول بخلق القرآن. سمع من: يوسف بن عطية، وعبيد بن العوّام، وهُشيم، وطائفة. وروى عنه: ولده الفضل، ويحيىٰ بن أكثم، ودعبل الخزاعي، وغيرهم. كان أبيض ربعة أصفر الوجه وخطه الشيب طويل اللحية أعين ضيّق الجبين على خدّه ←

وكلّ ناظر في تلك الرسالة بتدبّر يهتدي إلى موضع الحيلة منها، وأنّ أقصى مقاصد واضعها هو الطعن في أساس كلّ دين ومذهب، وإن كان في صورة الحال قد جعل خطّة المقال الطعن على شريعة الإسلام والانتصار للنصرانية، ولكنّه (يسرّ حسواً في ارتغاء)[1] ويتوارى في رميها من وراء!

وما زالت حرباء هذه الخديعة تظهر كلّ يوم بلون، وتبرز كلّ عصر بلباس، حتّى ظهرت ثانياً في مقالات (هاشم العربي).

وما (هاشم) هذا إلّا (كعبد المسيح) ذاك!

وليس هما إلّا (كهيّان بن بيّان) و(الحارث بن هشام) أو (أبي زيد السروجي)!

وقد جعلت تلك المقالات في ذيل كتاب (الإسلام) (لصال جرجيس) الإنجليزي المتولّع بين قومه بالعلوم الإسلامية وترجمة القرآن وتفسيره بلسان أُمّته، حتّى رمي بينهم بالميل إلى الإسلام؛ لكثرة توغّله فيه.

وكان ممّا ألّفه في هذه الخطّة التي عاناها وعرف فيها مقالات في تاريخ بدء الإسلام وانتشاره ونموّه، وبيان تفاصيل مشروعاته وعباداته وسائر أُصوله وقوانينه، وترجمة حال القرآن الشريف، وكيفية نزوله، وترتيب سوره وآياته،

← شامة. قيل: كان يشرب الخمر. بويع له بالخلافة آخر سنة ١٩٥ هـ، إلى أن قتل الأمين، فاستعمل على العراق الحسن بن سهل، وقد غزا الروم كثيراً. توفّي سنة ٢١٨ هـ، ودُفن بطرطوس مخلّفاً (١٨) ولداً وعدّة بنات.

(الأخبار الطوال ٤٠٠ ـ ٤٠١، المعارف ٣٨٧ ـ ٣٩١، تاريخ بغداد ١٠: ١٨٣ ـ ١٩٢، البدء والتاريخ ٦: ١١٢ ـ ١١٣، سير أعلام النبلاء ١٠: ٢٧٢ ـ ٢٩٠، مرآة الجنان ٢: ٥٩، البداية والنهاية ١٠: ٢٧٤ ـ ٢٨٠، شذرات الذهب ٢: ٣٩ ـ ٤٤).

(١) تقدّم ما يتعلّق بهذا المثل في ج١ ص١٠٢ هـ٥، وفي هذا الجزء ص٣٤٧ هـ١، فراجع.

وناسخه ومنسوخه، وذكر تأليفه وترصيفه، وفهرسة مندرجاته ومضامينه، إلى غير ذلك ممّا يدلّ على سعة اطّلاع ذلك المؤلّف، وأنّه وإن تحامل على الإسلام أحياناً، ولكنّه لا يحيف كثيراً ولا يتباعد عن الإسلام شاسعاً، بل قد يلوح من بعض رموزه أنّه يعتقد الإسلام ويتكتم به، فهو يرمي إلى الحقيقة من بعيد ويرنو إليها بنظر سديد.

ولكن على رغم الفضيلة، إنّ مقالاته تلك وقعت إلى بعض أُولئك الملحدين والدجّالين، فترجمه من الإنجليزية إلى العربية، وباليقين أنّ موارد التحامل كانت من الخيانة في الترجمة.

وما اكتفى بذلك حتّى ضمّ إلى تلك المقالات التي مسخها عن شاكلتها الأُولى بترجمته، فحوّلها إلى التعاسة، والتناهي في الشقاء والضلالة، والانسلاخ عن زي المباحث العلمية وآداب المناظرة ببذّ البذاءة وجرّ أعنّة الجرأة وهتك نواميس الحياء والحصافة!

بيد أنّه ما كان يستمدّ غيّه وبغيه إلّا من تلك الرسالة المنسوبة (لعبد المسيح) بجامع الاشتراك في الزندقة والإلحاد والدجالة، وكتمان الاسم وكشف السوءة!

فذاك استعار لنفسه الخبيثة (عبد المسيح)، وما هو إلّا رجيع إبليس!

والثاني ألصق بتعاسة ذاته اسم: (هاشم العربي)، وما هو إلّا هادم الشرف العربي! وما هو من العرب إلّا كواو عمرو، أو (كدعوى آل حرب في زياد)[1]، أو (كرحم العير من ولد الأتان)[2]!

---

(١) هذا عجز بيت نُسب إلىٰ صالح بن شيرداد في معجم الأبيات الشهيرة ٧٩. وصدره: حمارٌ في الكتابة يدّعيها.

(٢) هذا عجز بيت ليزيد بن زياد المعروف بابن مفرّغ الحميري البصري، وصدره: فأشهد أنّ رحمك من زياد.

راجع: الأغاني ١٨: ١٩١ و١٩٦، تاريخ مدينة دمشق ٦٥: ١٨١، وفيات الأعيان ٦: ٣٥٠.

نعم، اشترك هذان الدجّالان في كلّ موادّ السبّ والشتيمة لتلك الحضرة المقدّسة الكريمة المكلّلة بتاج: «لولاك لما خلقت الأفلاك»[1]..

اشتركا في كلّ سخرية وهزء على الذات الأحمدية ومرآة الحقيقة الأحدية..

اشتركا ولا غرو ولا جرم، فإنّ: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾[2]!

ثمّ ما زالت تلك الفرقة الدجّالة الخبيثة تجري على هذه الشنشنة غير الحديثة من الختل والخداع، وكتمان أمرها، والظهور بلباس غيرها، وشقّ عصا الأديان، وإلقاح الفتن بين الأُمم، وتشتيت شمل الشعوب، وإشعال نيران الحروب، وتمزيق القرى الآمنة المطمئنة، وتفريق العناصر الملتئمة والممالك المنظمّة.

كلّ عصر تتزيّا بزيٍّ وتظهر بلباس، وما الحقيقة والقصد والرأي إلّا واحد، ما هو إلّا إزهاق روح الأديان وإلحاق الإنسان بالبهيمة والحيوان!

فإنّ ذلك اللسان لسانهم ولحن القول لحنهم، وإلّا فحاشا عامّة أفراد الأُمّة المسيحية ـ فضلاً عن أحبارها الأفاضل وقُسسها الأماثل ـ أن يهمسوا في حقّ تلك القداسة العصماء ببنت شفة.

كيف! ولم تزل سرادق الحشمة وأستار الصيانة مضروبة بيننا وبينهم معروفة ومألوفة عندنا وعندهم، ما هتكت بالتجاسر على كبراء ديننا ودينهم

(١) انظر: بحار الأنوار ١٦: ٤٠٦، رياض السالكين ١: ٣٦٤، ينابيع المودّة ١: ١٠، اللؤلؤ المرصوع ١٥٤.

(٢) سورة الأنعام ٦: ١١٢.

والغميزة في زعما ملّتنا وملّتهم.

كيف! وما هو من دأب ذوي الفضل والناهجين على سنّة العقل في حقّ أيّ أحد كان وأيّ ملّة كانت، فكيف بهذه الملّة المقدّسة وشارعها الصادق الأمين ؟!

لا وعزّة الأديان، لا يكون جزاء (محمّد) (له المجد والشرف) من الأُمّة المسيحية ذلك، وهم لا يجهلون ولا يتناسون أنّ ذلك البرّ الرؤوف ومظهر الرحمة الواسعة لمّا ملك أزمّة القوّة وأمكنته يد القدرة والسطوة، كيف منحهم حرّية الدين، وأدخلهم في الذمّة المرعية، وعقد بينه وبينهم العهود الوثيقة، وجعلهم من رعايته وحمايته في أمنع كنف وأمرع كهف.

ثمّ اتّسع التأهيل والترحيب وزاد التلطيف والتقريب، حتّى صارت النواقيس ترنّ في عواصم المسلمين، ودين النصرانية تعدّ نواميسه وشعائره بإزاء هذا الدين.

فها هي تلك أُمّهات بلاد الإسلام قبل ـ كما هي اليوم ـ كنائس ومساجد، ونواقيس ومآذن، وزوايا وصوامع، وقسس وعلماء، ومطارنة وقضاة، ورهبان ومتصوّفة، وهلمّ جرّاً.

كلّ طائفة مقرونة بأُختها، وكلّ طريقة مقابلة بنظيرتها بكلّ حرّيتها وتمام أمنيتها.

ناهيك دماؤهم المحقونة، وأعراضهم المصونة، وأموالهم المضمونة.

قل لي بشرف الإنصاف، أيّ ملّة سمحت لضرّتها وابنة علّتها ما سمحت هذه الملّة المقدّسة لأخواتها الكتابية ومعاهداتها الأجنبية ؟!

ولا أظنّك جهلت أو نسيت ما كان من الثورات الدموية التي كانت بين الأُمم السالفة في القرون الغابرة ممّا ليس هنا محلّ تفصيله.

وحقّاً إنّ هذه الشريعة السامية الإسلامية جاءت بالسلام العامّ لكافّة الأنام، وكانت حناناً ورحمة عامّة لعامّة العالمين، فلتحيا هذه الشريعة إلى يوم الدين.

وبعد هذا، فلا أظنّ أنّ أحداً من الأُمّة المسيحية يذكر هذا النبي البرّ الكريم إلّا بكلّ تبجيل وتجليل واحترام وتعظيم، كما لا يزال كذلك دأب الراسخين منهم في العلم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1] عن قول الحقّ وكلمة الصدق.

أفتنسى النصارى قول هذا الفرقان الحكيم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾[2] ؟!

أو تنسى قول ذلك النبي البرّ: «من آذى ذمّياً فأنا خصمه يوم القيامة»[3] ؟!

إلى كثير من أمثال ذلك ممّا لا يتّسع المجال لإحصائه.

وحقّاً أقول: إنّ الجهابذة منهم والأساتذة المتضلّعين في العلوم ما جهلوا ذلك، ولا نسوه ولا تناسوه، وقد قدّروا هذا النبي الأمين قدره، وعرفوا شرف ما جاء به، وإن لم تؤمن به ألسنتهم فقد آمنت به قلوبهم.

نعم، وعلى رغم الوفاء ورغمهم وبالعزيز علينا وعليهم أنّ بعض أهل الغرارة والجهل منهم ـ وما أكثر ما يتّفق مثلهم في كلّ أُمّة وملّة ـ قد انخدعوا

---

(١) سورة المائدة ٥: ٨٢.

(٢) سورة الممتحنة ٦٠: ٨.

(٣) لاحظ: تاريخ بغداد ٨: ٣٧٠، الموضوعات لابن الجوزي ٢: ٢٣٦، الجامع الصغير ٢: ١٥٨، اللآلئ المصنوعة ٢: ١٤٠، كشف الخفاء ٢: ٢٨٥.

وورد بصيغة: «من آذى ذمّياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» في: كنز العمّال ٤: ٣٦٢، النوافح العطرة ٣٤٣.

وخضعوا لمفتريات أُولئك الملاحدة المتسمّين (بعبد المسيح) و(هاشم العربي) وغيرهم ، فأنسوا بها بحسبان أنّهم أولياؤهم ومن حزبهم ، وهم أشدّ الأعداء لنا ولهم .

فأعادوا تلك المقالات بعينها مع بعض التغيير والتشويش في سوقها وترتيبها على الغرّة والجهل بأقصى غرضها ومعزى قصدها ، وأنّها هدم في أُصولهم وصدم وردم على عقولهم ، وكلّها عائدة بالنقض عليهم !

وظنّي أنّ بعض ضعفاء النصارى المزجاة بضاعتهم من العلم ـ ولا تظنّه سوى مؤلّف (ميزان الحقّ) ـ لمّا تحامل على الإسلام وتقحّم على معارضته ولم يجد فيه محلّ نبز ولا همز ، ألجأته الضرورة إلى التعويل والتشبّث بكلمات أُولئك الملحدين المناوين والمعاندين لكلّ مذهب ودين .

حتى انتضت رحمة الله ذاك الصارم الهندي ، فردّ أقاويله وأباطيله شذر مذر ، ومزّقه كلّ ممزّق ، ولم يبق فيه ولم يذر .

وقبل استيفاء المقالات الخمس التي وقع الاتّفاق بينهما على الخوض فيها نكص عاجزاً ووقف ناكلاً ، ولم يخض معه في بقية المسائل .

راجع (إظهار الحقّ) ولواحقه ، يظهر لك ذلك إن شاء الله .

ثمّ وصل الدور ودالت الأيّام وجاءت النوبة إلى صاحب (الضلالة) ، فرام بزعمه أن يردّ أو يكتم (إظهار الحقّ) ، فجمع أربعة مجلّدات احتطب فيها خبط عشواء جملة أحاديث مشهورة الوضع من الضعاف والمناكير ، ثمّ تمسّك ببعض متشابهات من القرآن ، وعقّبها بإشكالات في العربية ، دلّ بها على أنّه لم يتلمّظ من العلوم الآليّة ولا ببلّةٍ منها ! ثمّ كان أوفر بضاعته المهارة في صناعة الشتم على أزكى النفوس الطاهرة .

فتراه يسرد لك في عدّة مواضع: أنّ محمّداً (تعالى الله ورسوله عمّا يقول الظالمون) غدر، وكفر، وفجر! (غفرانك اللهمّ)، وعبد الأصنام، وشرب الخمر، ونقض العهد، وتزوّج زوجة ابنه[1]، وهلمّ جرّاً، ما شاء وشاءت له الغواية!

انظر إلى سلحة (إبليس) وسلاحه وقحّته وصلابة وجهه!

وتلك وأمثالها هي كانت عدّة (هاشم العربي) و (عبد المسيح) و (ميزان الحقّ)، وما أكثر ما تكذب الأسماء، أو تكون بعلاقة الضدّ!

نعم، يا هؤلاء، لو كنّا ـ معاشر المسلمين ـ كما أنتم فيه من عداوة الرحمان وعبادة الشيطان وعدم رابطة من الدين إلّا رابطة الكفر به والإلحاد فيه، لقلنا إزاء ذلك القول: إنّ (المسيح) كذا وكذا، و (مريم) كذا وكذا، ولكان لنا مجال واسع وشبه حجج قواطع، ولرأيتم أيّنا أضعف جنداً وأشدّ في الشتيمة شكيمة.

ولكن معاذ الله أن يستخفّ جهلكم بحلمنا، أو يأتي إلحادكم على وطيد ديننا.

ولكنّي نذير لأهل الفضل والأصحّاء والصلحاء من النصارى الذين تنتمون إليهم، أنا نذير لهم بأن يهمّوا ولا يهنوا ولا يغضّوا الطرف على هذه الفظائع والمنكرات..

أنا نذير لهم في أن يهمّوا بقطع دابركم، والبراءة من أوّلكم وآخركم، والعناية بتربية أمثالكم، أو إعلان البراءة منهم، وإلّا ففي جهلة المسلمين ودعّارتهم من يستطيع أن يتسدّج[2] في (المسيح) أكثر ممّا تسدّجتم وافتحرتم

---

(١) نُقل ذلك عن الهداية (الضلالة) في الهدى إلى دين المصطفى ٦٨ و ١٢٢ و ١٣٣ و ١٣٦.

(٢) سدج: كذب. (القاموس المحيط ١: ٢٠٠).

في حبيب الله (محمّد) ﷺ، ويقدر أن يكشف الحجاب ويهتك الستار، ويقول في درّة صدف العفّة والطهارة (مريم العذراء) ما أنتم أعلم به.

وهنالك ـ أيّها الأصحّاء وأهل السلامة ـ صمّوا آذانكم، واستغشوا ثيابكم، وغضّوا أبصاركم، أو ميلوا إلى جانب أهل الخنا والفجور والعهر والفسوق (لا سمح الله)، ويكون البادي ـ إذ ذاك ـ أظلم والذنب على الساكت أو المسبّب أعظم.

نعم، وجميع أُولئك الأوشاب الطغام[1] المتحاملون على شريعة الإسلام، وكلّ أُخوانهم الذين يمدّونهم في الغي والبغي على تلك الشرعة الطاهرة وشارعها المقدّس، كلّهم ـ بحمد الله ـ ما أضرّوا بها نقيراً ولا فتيلاً، وما كان حالهم وإيّاها في الردّ لها والطعن ـ معاذ الله ـ عليها إلّا: (كمبتغي الصيد في عريسة الأسد)[2]، أو: (عُثيثة تقرم جلداً أملساً)[3]!

ولقد كنت أيضاً ـ قبل برهة من الزمن ـ صمّمت العزيمة لمّا نظرت في مقالات (هاشم العربي) المجهول الحقيقة أن أُفرد موضوعاً في تمزيق أقاويله وتفريق أباطيله قائلاً له: (قد أنصف القارة من راماها)[4]، (لبّث قليلاً يلحق

(١) الأوشاب من الناس: الأخلاط. (العين للفراهيدي ٦: ٢٩١).
والطَغَام: أوغاد الناس. (صحاح اللغة ٥: ١٩٧٥).

(٢) هذا مثل يضرب في الحاجة تؤدّي بصاحبها إلىٰ تلف النفس. والعريسة: عرين الأسد. (الأمثال لابن سلّام ٢٥١، جمهرة الأمثال ٢: ١٥٠).

(٣) يُضرب مثلاً للرجل المهين يقع في الرجل الشريف. والعُثيثة: تصغير عُثّة، وهي دابّة صغيرة تقع في الجلد فتفسده. والقرم: الحزّ. (جمهرة الأمثال ٢: ٥٤ ـ ٥٥).

(٤) يُضرب مثلاً في مساواة الرجل صاحبه فيما يدعوه إليه. والقارَة: قبيلة من الهُون بن خريمة، وسمّوا: قارَة، ←

الهيجا حمل)، وأُريه أنّنا ـ بحمد الله ـ أقدر على السبّ والشتم والظلم والهضم وبذاءة اللسان وجرأة الجنان من كلّ متعوّد لها معوّل عليها ليس عنده سواها، فما هو إن جرى أو جارى إلّا كالحبارى!

ولكن عزفت وانصرفت أشدّ العزوف صوناً لأقلامي عن التلويث بنقل أشباه كلمات ذلك الملحد الخبيث، وترفّعاً نفسي عن تلك الخطّة التعيسة، وتنزيهاً لها عن سبّة المسبّة وشيمة المشاتمة، وتركته يستأكل بنفسه ويتلاشى بذاته. فإنّ الزبد يذهب جفاءً:

وكم من لئيم ودّ أنّي شتمته ... وإن كان شتمي فيه صاب وعلقم

وللكفّ عن شتم اللئيم تكرّماً ... أضرُّ له من شتمهِ حينُ يُشتم

(كيف لا) و:

البغي يصرع أهله ... والظلم مرتعه وخيم[1]!

على أنّ كلّ ما يتمسّك أو يمكن أن يتمسّك به المتحاملون على الشريعة

← وذلك لاجتماعهم والتفافهم. والقارة: الأكمة.

وأصل المثل: أنّه قد وقعت حرب بين قريش وبكر بن عبد مناة بن كنانة، وكانت القارَة مع قريش، فلمّا التقىٰ الفريقان رماهم الآخرون، فقيل: قد أنصفوكم إذ تقاتلوكم بما تقاتلون به. (الأمثال لابن سلّام ١٣٧، جمهرة الأمثال ١: ٥٥).

(١) عجز البيت من الأمثال المشهورة. ووخيم: ثقيل موبئ. (جمهرة الأمثال ٢: ٢٨، خاصّ الخاصّ للثعالبي ٥٦).

وقد نُسب هذا البيت لحنين بن خشرم السعدي في مجمع الأمثال ١: ٦١٦.

وقال محمّد بن عيسىٰ التميمي:

ندم البغاة ولات ساعة مندمٍ ... والبغي مرتعُ مبتغيهِ وخيمُ

راجع معجم الأبيات الشهيرة ٢١٢.

الإسلامية من الشبه والمراجعات قد أجبنا عنها فيما تقدّم.

فهذا ما يعود إلى المباحث العلمية التي يسوغ لنا الخوض فيها. وأمّا ما وراء ذلك من الاستهزاء وقول الزور والفحشاء فجوابه على أهل الفضل والكمال منهم ليردّ الحليم السفيه والعالم الجاهل.

وقصاراي وكلمتي الأخيرة: تذكير المسلمين والمسيحيّين جميعاً أنّ البلاء بينهم قد تعاظم والشرّ قد تفاقم، وأنّ يد العدوّ لهما معاً قد لعبت فيما بينهما حتّى أوشكت أن تقضي عليهما، وأنّ تلك المكافحة والمكابحة التي هي أشدّ أثراً من المسايفة والمرامحة ليست هي من مقتضيات طبائعهم ولا من آيات شرائعهم، وإنّما هي زبية[1] راصدٍ لهما وشبكة احتيالٍ عليهما.

ولا أحسب أنّ النصارى لم تتّضح لهم بعد جلية الحال، ولم يستمعوا لمنذر التاريخ وداعي العبر، وما حدّثتهم وقائع الأيّام عن الغرب وحجزتهم من مطلق الدين ونواياهم فيه، كما أحسبهم لا ينخدعون لبرقشة[2] سياستهم وتودّدهم إليهم، وهم يعلمون أنّ الغرب لو امتلك الشرق (لا حانت تلك الساعة أو حان حيني!) ما كان ليخصّ الإسلامية بعسفه ويبسط للنصرانية جناح لطفه وبساط عطفه، بل ينظر إلى مطلق الدين بعين سخط واحدة ويستقبلهما معاً بسطوة جاحدة وأخذة قاسية.

وهناك الرقّ والاستعباد، ومظاهر القسوة والاستهلاك.. استهلاك كلّ أُمّة ملكت قرينتها، واستعمرت نظيرتها.

---

(١) الزُبية: حفرة في مكان مرتفع، أو بئر تُحفر للأسد. (تهذيب اللغة ١٣: ١٨٤).

(٢) البرقشة: شبه تنقيش بألوان شتّىٰ، أو التلوين. (تاج العروس ١٧: ٧٨).

فإنّ راق لكم ذلك، وإلّا فحفاظاً على السلم والدعة والصفاء والمجاملة.. حفاظاً على كرامة الأديان وصوناً لها من حفزات من لا يركن إلى دين وإن التصق بالمسلمين أو المسيحيّين.

ألا وإنّ عزمة من عزمات الله عليكم وعظيمة من عظائمه فيكم أن لا تهملوا النظر والتدبّر في هذه الخاطرة، فلعلّها خطيرة، ولعلّ لها كبير أثر في ناموس الاجتماع وإن كانت في القول صغيرة.

وحسبكم وراء الأُخوّة البشرية جامعة الوطن واللسان، والإيمان بالمبدأ والمعاد، والحساب والجزاء، والكتب والأنبياء.

فإن دعت الدواعي لكلّ واحد من الفريقين إلى الدعوة الدينية، أفلا يكون بحفظ الشرف والعفّة والنواميس والنزاهة والشهامة والكرامة!

هذا ما أقوله وأتمنّاه لي ولكم ولأُمّتي وأُمّتكم، وما هو على الله بعزيز إذا شاء.

[التتمّة الثانية: ذكر نبذة من شهادات وأقوال علماء الغرب في الإسلام ونبيّه والقرآن، وفيها إشارة إلى حياة النبي ﷺ وبعض الكلام في الثالوث]

الثانية: أنّك ربّما عرفت من جميع ما تقدّم من سياقة مباحثنا وطرز طريقتنا ولحن كلماتنا أنّنا لا نودّ إلّا أن ننصف في الحكم، ونعدل في القضية، ونعترف لكلّ ذي حقٍّ بحقّه، ولا نبخس الكيل، ولا نطفف الوزن، ولا نحيف على ذي الفضل، ولا نساوي بين المسيء والمحسن، ولا نطّرد اللائمة على البريء والجاني، ولا نحكم على العامّ بحكم الخاصّ.

وقد رأيت في أوائل الجزء الأوّل ـ بعد أن ذكرنا شيوع الإلحاد والدارونية عند الغربيّين ـ كيف استدركنا ذلك بذكر جلّة من مشاهيرهم، كان لهم في الدين القدم الراسي والعرفان الراسخ والوصول إلى الحقيقة، وأوردنا من كلماتهم ما يشهد لهم بكمال المعرفة وصادق اليقين وصحّة الدين وإصابة أدقّ الأدلّة والبراهين[1].

وعلى ذلك النسق وفي ذيّالك الطرد وجب هنا أن نشير إلى كثير علماء الغرب الذين بحثوا في الإسلام المباحث الدقيقة وأصابوا منه الجوهر والحقيقة، وكانوا على جانب من الإنصاف دفعهم إلى الإقرار والاعتراف.

ثمّ على دأبهم وديدنهم من التوسّع في البحث والتناهي في الفحص والبلوغ إلى التخوم والغايات دون السطوح والأطراف، قد تخصّص بحّاثون منهم في هذا السبيل، وخلّصوا أعمارهم لتلك الغاية، فما ازدادوا به إلّا يقيناً ولا عليه إلّا تعويلاً، وأصبح لهم من راسخ العقيدة فيه ما ليس للكثير من العريقين به والناشئين عليه.

ولا جرم، فإنّ واجد الشيء بعد الجهد والتعب، والالتماس والطلب، والنصب والعناء، غير من جاءه عفواً، وأصابه صفواً، وأخذه وراثة أو حبوة، واستلمه تقليداً ومتابعة.

ولست أرمي وأنحو إلى جمع كلمات كلّ غربي كتب في هذا الموضوع، وأصحر بهذه الحقيقة، وجاهر بمرير ذلك الرأي.

على أنّي في لوعة أسف؛ إذ لو كنت قيّدت ـ وعلى الأقلّ ـ أسماء من

(١) راجع ج١ ص٢٤٦ وما بعدها.

عبرت على ذكرهم من أُولئك الباحثين الذين لهم قيل حقٌّ وكلام صدق ودقيق بحث واستخراج جلي برهان على صحّة الإسلام وأنّه هو الدين الحقّ وحقّ الدين، ولو نزعت إلى ذلك لكنت قد جمعت إلى زماني هذا أكبر كتاب وأنفس موضوع في الإسلام.

ولكن ليس يخفى سبيلنا على من أحاط خبراً بما سبق من هذا الجزء وأكثر الذي قبله، فانّ من تدبّرهما سيراً وسبراً لا محالة يستبين له أنّنا في أُويقات إملائه وسويعات إنشائه لم نستقص النظر، ولم نحص الفحص، ولم نواصل التتبّع في مطالعة الصحف والكتب المشروعة في أمثال المواضيع التي طرقناها والأبواب التي قرعناها.

استطردنا سياقة تحرير هذا الجزء من أوّله إلى مقامنا هذا من دون أن ننظر في المؤلّفات التي تسدّد عن الإسلام وتناضل دونه، فضلاً عن إمعان النظر في الصحف والمجلّات الاختصاصية بذلك الشأن، أو التي تستطرده استطراداً ويتّفق لها الخوض فيه أحياناً من مقتبس منار أو سبيل رشاد أو ملاجي أو غيرها.

ما أسعفت أن أرى من ذلك شيئاً، أو أتقيّل من ظلالها فيئاً، بل اكتفيت بالعتيد الحاضر في الخاطر، وبما سنح على الفكر، وبما أبقته سيطرة النسيان وصكصكة صروف الزمان من المراجعات القديمة والمطالعات الغابرة.

فكان القلم والطبع معاً يتجاريان ويتباريان من دون وقفة وانتظار لمراجعة أو استحضار، من حرّ تحرير أو محاورة نحرير، إلّا يسيراً من تعهّد العهدين ونزر من الكتب لضبط النقل منها.

أمّا ما شرفّنا به صحائفنا من كرائم القرآن المجيد فقد كنّا نورد أكثر الآيات من غير تجديد مراجعة أخذاً بما في الحافظة وبقايا الذهن والذاكرة.

ومن ذلك ما وقع في بعضها من السهو ويسير من التغيير في حرف أو حركة، كما سندلّ عليه عند نهاية هذه الخاتمة إن شاء الله.

نعم، إنّ الوحدة وعدم المساعدة، وقلّة العديد والعدّة، والاستعجال وقصر المدّة، وتدافع الخواطر على الذهن وتزاحمها على الفكر، لم يدع للاستقصاء مجال فرصة، ولا للاستعانة بغير الله حاجة.

وكفى به ناصراً ومعيناً، وعلى ما أقول شهيداً.

ومذ بدا لنا أن نذكر شيئاً من كلمات من فاق وأربى من علماء أُوربا، من متنوّري الأفكار ومستشرقي العلوم الذين دفعهم سائق الإنصاف إلى المعرفة والاعتراف، بعد أن سلكوا الطريق وأصابوا الحقّ بالبحث والتحقيق، فخلعوا نير[1] العصبية، وأغلاق الإلف والعادة، والجمود على تلقين الآباء والأُمّهات، وقطعوا السلاسل الحابسة عن النهوض إلى طلب النجاة المانعة عن اغتراف السعادة من مناهل عين الحياة، وجدنا أنّ ذلك يحتاج إلى بذل جهد واستفراغ وقت وجمع عدّة، قد يعسر جمعها ولا يجتمع إلّا بعناء شملها.

وكان قد مرّ على لامحتي رسالة للفاضل الإنجليزي الشهير (عبدالله وليم كويليام) الذي اهتدى بنور عقله ومجاهدة نفسه إلى هذا الدين الحنيف، وحاد بنفسه إلى التوحيد وفارق التثليث في هذه الأعصار وتلك الأمصار التي تعرف أنت كيف عزوفها عن الدين وعزوبها عن تطلّب الحقائق الروحية وتكميل النفس بمعرفة خالقها ومبدأها ومعادها.

فإنّهم عن هذه المسائل بمراحل، وما الأديان عند أكثرهم إلّا أوهام هي

---

(١) النير: العَلَم. (تهذيب اللغة ١٥: ١٦٧).

من مجعولات البشر وموضوعات الزعماء !

ولكن الله (سبحانه) يمدّ بعنايته من يشاء من عباده ، ولا يحبس ألطافه عن رومي ولا خزري ، ولا يخصّها بعربي ولا عجمي ، بل فيضه عميم وفضله جسيم .

وبذلك تجد هذا الحرّ الحري بالتوفيق قد أحرز نصاب الصواب في هذا الباب ، فشمّر عن ساعد الهمّة في الدعوة إلى الله والأخذ بتوحيده وخلع ربقة الشرّ وموبقة الشرك عن الأعناق ، حتّى آمنت جماعة من قومه وحفلة[1] من أبناء جلدته ، اتّخذ لهم مسجداً لإقامة الفرائض ونشر تعاليم الإسلام المقدّسة فيما بينهم .

وما زال يبثّ في تلك الأجواء والأرجاء الأدلّة القاطعة والبراهين الساطعة على أفضلية الديانة الإسلامية على سائر الأديان .

فمن بعض منشوراته في هذا السبيل رسالته الشهيرة (بالعقيدة الإسلامية) المترجمة إلى العربية بقلم السيّد (سليم أفندي التنّير) المتظلّع في اللغة الإنجليزية .

وقد نُقلت إلى أكثر اللغات الشرقية ، كالعربية ، والفارسية ، والهندية ، وغيرها .

وطبعت عدّة دفعات ، وتعدّدت ترجمتها إلى العربية بأقلام عدّة من الكتّاب .

وقد وقفنا على ترجمتين منها ، الثانية منهما بقلم (محمّد ضياء) مطبوعة في السنة الخامسة عشر بعد القرن الثالث عشر ، والأُولى في التاسعة بعده .

---

(١) الحَفْل من الناس : الجَمْع . (صحاح اللغة ٦ : ١٦٧١) .

وفي الثانية رسم المحترم (كويليام) بعنوان: (شيخ الإسلام) في الجزائر البريطانية.

وبعد انتهاء ما أردنا بيانه في هذا الجزء استحضرت الترجمة الأُولى، ومذ أتيت عليها بالسبر وجدتها فضلاً عمّا فيها من وثيق الدلائل ورشيق المسائل التي توافق جملة ممّا قدّمناه وتشهد على بعض ما ذكرناه، وما أكثر ما تتوارد الخواطر وتتّفق القرائح!

وإذا صفت وأنصفت عقول الرجال فهي مرايا، والحقّ واحد حيث كان، لا يتعاند في الأفكار ولا يتعايا. فضلاً عن هذا وجدتها قد اشتملت على كلمات حافل من أبناء جلدته وزملائه الذين أشرقت لهم لمعات الإسلام بمتنوّر أفكارهم ومتسعّر قرائحهم ولطيف هواجسهم، ونهضوا في الدفاع عنه والتدافع إليه بكلّ حماسهم وحواسّهم.

ونظراً لما نرغب فيه وننزع إليه من المعدلة والاعتدال وحبّ الإنصاف، وتتميماً للغرض، وتعميماً للفائدة، وتأكيداً للحجّة، وتسديداً للبيان، وإقناعاً للخصم، ومجادلة بالتي هي أحسن، عقّبت لاستدراك ما تقدّم وكفّارة ما سلف.

على أنّي ما اقترفت ولا جنيت!

ولكن إنصافاً لذوي الفضل، واعترافاً لذوي العرفان، ودلالة على مكانتهم من حرّية الضمائر وصحّة البصائر، لخّصت مقالات ذلك الفاضل في تلك الرسالة الوجيزة، وسردت ذكر من نقل عنه ما يوافق رأيه ويعضد قوله ويدعم حجّته.

أوردنا لك ذلك؛ لتعرف أنّ العناية ولطف التوفيق منه (تعالى شأنه) لا يختصّ بشرقي ولا غربي، ولا عبري ولا عربي.

وبه يستبين لك أنّ ما عنينا به واحتدمنا عليه من إثبات حقّية هذا الدين

المحمّدي هو الحقيقة بنت الفحص خطيبة العلم عقيلة العقل نتيجة الوجدان صفية الإنصاف.

ذلك ممّا نورده عليك من كلمات أمثال ذلك النحرير من كلّ مضطلع من حكماء الغرب خبير، وما نردفه من الإيضاح والتتمّة لكلماتهم.

وها نحن ذاكرون صفوة مباحثها على العهدة الوثيقة والأمانة المرعيّة.

سوى أنّنا نجوز منها عمّا لا يهمّنا ذكره، أو ما يكون جلياً مشتهراً أمره.

وبالله المستعان في جميع ما نحوم حوله ونحاوله ونطلبه ونتطاول إليه، وعليه المعوّل، ومنه المعونة إن شاء الله.

قال (شكر الله في الإسلام سعيه):

(إنّ خلاصة البحث الذي تضمّنته هذه الرسالة قد تمثّلت به خطيباً ثلاث مرّات في قاعة فرنون بمدينة (ليفربول).

وقد أشار عليّ بعض الذين اعتنقوا هذا الدين المبين بنشر تلك الخطب تعميماً للفائدة العمومية.

وجلّ ما أُحاول أن أُحسن استيفاء أداء العقائد الإسلامية بأوجز عبارة لا تخلّ بأداء المقصود، ولا أخرج بذلك عن الموضوع.

موطّداً آمالي أنّ هذه الرسالة ستكون سبباً لإزالة التعصّبات الدينية على الدين الإسلامي، وأن يتهيّأ لي ضمّ الاعتقادات الإسلامية على وجه بيّن مفيد.

إنّ من العجب العجاب اتّحاد ملايين من المسلمين والإنجليز تحت تبعة واحدة وكثرة اختلاط الدين الإسلامي في المملكة البريطانية، مع أنّه قلّما يعلم الإنجليز شيئاً عن الدين الإسلامي وتأريخه وأتباعه!

ولذا نرى حقائق هذا الدين محتجبة عنهم، ومن جري تراكم الجهل عليهم

يسهل انخداعهم وتهوّرهم تبعاً لكلّ من يقاوم هذا الدين.

وبما أنّه من الواجب على النوع البشري المسالمة والمحبّة وفعل الخير والارتداع عن الشرّ مع أبناء نوعه، نرى من الإنصاف أن نضرب صفحاً عن هكذا موضوع.

إنّ أوضح كتابة كُتبت على دين الإسلام وأقصرها ما قاله (داود أوركوهرت) في مقدّمة كتابه في المجلّد الأوّل المسمّى: (روح الشرق) المطبوع [عام] ١٨٢٩.

وهو: أنّ الإسلام لم يكن ديناً مبتدعاً ولا وحياً مخترعاً ليس به قسّوسية ولا حكومة كنائسية، بل سنّ شريعة للناس كافّة ونظاماً مدنياً يجب على كلّ مسلم الانقياد إليه.

ولقد أكّد هذا القول جمّ غفير من الأُوروبيّين، مثل: (بلكريف)، و(فمبرى)، و(رولنص)، و(ليرد)، و(رولند)، و(استنلي)، و(الدرلي)، وخلافهم.

أيضاً نرى كلّ من سافر إلى الممالك الإسلامية يأتينا بشيء من خصالهم الحميدة.

ومع كلّ هذا، فإنّ أفكار الأُمّة الإنجليزية حتّى الآن لم تتأثّر بذلك، وحقيقة دين الإسلام مجهولة لديهم.

ومن المعلوم أنّ الأُمّة الإنجليزية ـ مع ما هي عليه من اختلاف المذهب في الدين المسيحي ـ قد ورثت من آبائها الكراهة الشديدة لهذا الدين، حتّى صارت تلك الكراهة كأنّها من واجباتهم الدينية!

ولمّا تمثّل (إسحاق تيلر) المحترم خطيباً في المجمع الكنائسي وفاه

بالحقّ بكلّ أمانة بكّتوه بالتعصّب الباطل !

أمّا ملاحظاته التي أوردها في المشار إليه في (ولفرهمبتن) ونشرت في (جرنال التيمس) في اليوم التالي بتاريخ ٧ تشرين سنة ١٨٨٧ م، فهي مقالة مهمّة جديرة بأن تتبّع بتدقيق تامٍّ وانتباه.

وبما أنّ الوقت لا يسمح لي بأن أنقلها حرفاً بحرف لضيق المقام اكتفيت بإيراد قسم منها).

ثمّ ذكر ذلك، إلى أن قال:

(وقد أفاد الإسلام المدنية أكثر من النصرانية، وكلّ من يطّلع على الأخبار الرسمية الإنجليزية وتقريرات السيّاح المتأخّرين يتّضح له حقيقة الدين الإسلامي بأجلى بيان، ويعلم أنّ العبيد حينما يعتنقون [الديانة] الإسلامية يبتعدون عن الخديعة، وأكل لحوم البشر، وقتل الأطفال، ويأخذون باللباس والنظافة والطهارة، والكدّ في طلب الكمال الإنساني، واتّخاذ الضيافة، ويندر فيما بينهم شرب الخمر والميسر، ويمتنعون من الرقص الفاحش، واختلاط الذكور بالإناث. ومن أعظم الكمالات عندهم عفّة النساء وطهارتهنّ، ويظهر لديه كيف تبدّل الكسل بالاجتهاد، ويرى كيف أنّ الشرع ناشر لواءه والعدل مستحكم البناء، ويعلم أنّ البغضاء وحبّ الانتقام محرّمان عندهم.

فلست ترى بينهم إلّا اللطف والوداعة، والإخاء الديني، والرفق بالحيوان والرقيق.

أمّا اتّخاذ الزوجات والتسرّي فإنّهما منظّمان، ومضارّهما ممنوعة والإسلام يفضل كافّة أديان البشر عفّة وزهداً.

مثلاً: إنّ امتداد المتجر الأُوربي ينتج عنه امتداد المسكرات، والرذائل،

واحتقار مخلوقات الله (عزّ وجلّ).

وأمّا الإسلام فلا ينتج عنه إلّا التمدّن الحقيقي، وتعلّم القراءة والكتابة، واللباس الحسن البسيط، والنظافة، والعفّة، والوقار.

بالاقتصار أنّ نتائج حظره للرذائل وما ينشأ عنه من التمدّن من الأُمور المدهشة.

ما أقلّ ما نبديه بالنسبة إلى الأموال الباهظة التي نتكبّد بذلها والأرواح التي نضحّيها في أفريقيا؛ لأنّا إذا عددنا المتنصّرين أُلوفاً نعدّ المسلمين ملايين.

ولعمري إنّ هذه الحقائق الثابتة التي تواجهنا لهي من الحقائق المكدّرة جدّاً، ومن الحماقة والجهل أن نغضّ الطرف عن ذلك، فيجب علينا أن نعرف الحقّ لأهله.

وهو أن نعلم أنّ الإسلام لا يضادد الديانة المسيحية الأصلية، وما هو إلّا اعتقاد إيمان (إبراهيم) و(موسى) عليهما السلام مع بعض فروض مسيحية، غير أنّ اليهودية تختصّ بأُمّة واحدة، والإسلام للعالم أجمع.

وقد انتشر الدين الإسلامي الذي لم يخالف ما جاء به (موسى) و(عيسى) انتشاراً سريعاً في آسيا وأفريقيا؛ لأنّ علماء اللاهوت قد بدّلوا العقائد المسيحية بعقائد عقلية؛ فإنّهم طالما حاولوا أن يبدّلوا الفجور بالعفّة، وذلك بابتداع الرهبانية، وجعلوا الوصلة إلى النزاهة والتقديس ترك الزواج.

فلم ينشأ عن ذلك إلّا الفحشاء والمنكر والبغي، حتّى أصبح الناس كوثنيّين يعبدون الشهداء والقدّيسين والملائكة!

أمّا الإسلام فقد أزال كلّ هذه المنكرات والخرافات التي أحدثها علماء اللاهوت بمباحثهم اللاهوتية الباطلة، وهي الرهبانية التي يلقّبونها: بتاج التقوى؛

لأنّه: «لا رهبانية في الإسلام»[١].

بيد أنّ الإسلام أخلص التوحيد لله (جلّ وعلا)، واستعاض الرجولية عن الرهبنة، وأبان للأرقّاء أنّهم ومواليهم إخوان في الدين وأنّهم من أب واحد، وعلّم كيف يدرك أدنى الشعوب الفضائل والكمالات الإنسانية، كالعفاف، والطهارة، وحفظ النفس، والعدالة، والاحتمال، والإحسان، والضيافة، والصدق، والتسليم للقضاء والقدر.

وعندهم الوصايا الأربع الأصلية، وهم ممتنعون عن الخطايا السبع المميتة.

فالإخاء المسيحي هو صوري فقط، وأمّا الإخاء الإسلامي فهو إخاء حقيقي.

ولذا نرى المسلمين جميعهم متساوين بالوحدة الإيمانية والإنسانية.

قال (تعالى) في سورة الحجرات (التاسعة والأربعين): ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢].

فكلّ من يدخل في دين الإسلام يكون أخاً حقيقياً إلى (١٥٠/٠٠٠/٠٠٠) نفساً من المسلمين بالإخاء الديني الحقيقي.

أمّا المتنصّر فلا يعدّ أخاً مساوياً كتساوي الأخوية الإسلامية الحقّة.

نعم، إنّ ما ندّعيه من الإخاء عندما نجتمع على المكتبة أكثر من الكثير، أمّا في المعاملات اليومية فقليل جدّاً!

---

(١) قارن: فتح الباري ٩: ٩١، كشف الخفاء ٢: ٥١٠، مستدرك الوسائل ٨: ١١٤.

(٢) سورة الحجرات ٤٩: ١٠.

لا نستغرب تصريح القرآن المجيد بذكر جنّة محسوسة؛ لانّ تكوين هذه المكوّنات هو أعظم برهان وأقوى دليل على ذلك).

أقول: ثمّ أعاد القول في الأمرين اللذين اتّخذهما عسيرين، وهما: تعداد الزوجات، والاسترقاق.

إلى أن قال:

(وإذا قلنا بمضارّ تعداد الزوجات فإنّا نرى لها منافع تفوق تلك المضارّ؛ لأنّها أزالت وأد البنات، ومنحت كلّ أُنثى حمى شرعيّاً تخلّصت بها البلاد الإسلامية من الحرف الممقوتة التي خزيها في المسيحية أشدّ وأكثر من تعداد الزوجات.

فيا حبّذا تعداد الزوجات المنتظم في البلاد الإسلامية! فإنّه أقلّ إهانة للنساء وأكثر حصانة للرجال من البغي والفجور الذي هو خزي عظيم على البلاد المسيحية!

وهذا البغي غير معروف لدى الأُمّة الإسلامية.

فهل ـ والحالة هذه ـ يمكن لبغاة الإنجليز أن يرشقوا المحصنين الإسلاميّين بحجارة الطعن والملام ؟!

فلنخرج الجسر أوّلاً من أعيننا قبل أن نخرج القذى من عين إخواننا!

لا يشين بـ[الأُمّة] الإسلامية استعمال هذه الأُمور الأربعة: تعداد الزوجات، والطلاق، والتسرّي، والاسترقاق؛ لأنّه مباح لهم.

ولم يبرح من خلدنا أنّ هذه الأُمور الأربعة قد استعملها إخواننا الإنجليز الأميركان، مع أنّهم مسيحيّون في بلاد مسيحية، ولكن استعمالهم لها بطريقة وخيمة!

وممّا يليق بنا أن نذكر أنّ الآداب الإسلامية خير من آدابنا، وذلك بتسليمهم لقضاء الله (عز وجلّ) وقدره واللطف والوداعة والصدق والإخاء الإيماني.

فلا غرو أن يكون لنا بهم أُسوة حسنة، فقد حرّم الخمر والميسر والبغي، وهذه من مساوئ البلاد المسيحية). انتهىٰ كلام (إسحاق تيلر).

قد نشأ عن نشر ملاحظات (كتن تيلر) مباحث عديدة في أعمدة (جرنال التيمس)، ولضيق المقام أكتفي بذكر بحث واحد فقط قبل أن أذكر المقاصد التي بنى عليها هذا الكتاب تتميماً للفائدة.

قال (يوسف ثمبسن) الرحّالة الشهير بكتابه [في] تاريخ ١٠ تشرين أوّل سنة ١٨٨٧ م المنتشر في (التيمس) ١٤ شهرة ما نصّه من كلام طويل، قال في آخره: (ولنرجع الآن إلى غربي أفريقيا وأواسط السودان، وهي بلاد أتاح لي الحظّ زيارتها، فإنّا نعجب إذ نرى الإسلام ضارباً سرادقه مكلّلاً بتيجان النجاح كأنّه في بادئ بدءٍ.

فهو ينتشر في أسواق (سياراليود) وما بين أكواخ أكلة لحوم البشر على ضفّة نهر (النيجر).

ولعمري أنّ ما فهت به هو الحقّ.

وليس كما زعم المبشّرون الذين يجهدون جهدهم ناسبين رزايا الاتّجار بالرقيق إلى الدين الإسلامي باذلين أقصى الغاية بإضعاف أهميته، يدعون ثبوراً لساكني غربي [و] أواسط أفريقيا من نموّ الإسلام فيها.

وأنّى لهم أن يعترفوا بأمر لم يكن من مبادئهم! زاعمين أنّ الدين الإسلامي لا يمكن انتشاره إلّا بأحد أمرين: السيف، أو إضرام النار!

فيسرّهم أن يمثّلوا أحد العبيد جاثياً على ركبتيه جازعاً مستغيثاً، وكوخه مشتعلاً بالنار، وامرأته وأطفاله يساقون إلى الاسترقاق والأغلال في أعناقهم، وأحد جبابرة الإسلام مصلتاً سيفه قائلاً إحدى اثنتين: القتل، أو القرآن!

وأظنّ أنّ هذا التصوّر قد ورثه البنون عن الآباء عن آبائهم.

بخٍ بخٍ[1]! إذ أنّني نظرت بعيني رأسي أنّ كلّ ما نسب إليهم إفك صراح، وأنّ أعظم نجاح للدين الإسلامي بأواسط وغربي السودان إنّما هو بالسلام والوداعة.

فإنّه منذ نحو الجيل الثاني عشر وراعي الغنم الفلاني والتاجران النوبي والهوصي لم يزالوا يدعون إلى دينهم، وهو ينتشر من (بحيرة جاك) إلى (الأُوقيانوس الأتلانتيكي)، حتّى نجم عن ذلك أنّ تلك الأماكن امتلأت بأكواخ تقطُنها أُمم المسلمين، ولم يعوّدهم الأمر سوى زعيم يجمع قلوبهم على كلمة التوحيد.

وقد تمّ لهم ذلك، حيث في ابتداء هذا الجيل قام بهم ذلك الرجل المدعو (بغوديو)، وبأقرب وقت أصبحت [الديانة] الإسلامية هي الدين الحاكم على بلاد عظيمة).

إلى أن قال عن الإسلام:

(وهو دين حسن المأخذ مقبول عقلاً، يعلم بكلّ سهولة، يسهل فهمه على العبد الوثني.

فذانك التاجران يقيمان فيما بين الوثنيّين إمّا شهراً أو نصف عام، وبتلك

---

(١) بَخ: كلمة تقال عند ذكر الفخر. (جمهرة اللغة ١: ٦٥).

المدّة تراهم يعجبون من حسن ملابسه ونظافتها، ويقتدون به في ذلك؛ لأنّهم لم يروا منه ما تشمئز منه نفوسهم، ولا يسمعون منه من أمر دينه ما لا يفهمونه.

وبهذه الطريقة ابتذرت بذور التمدّن والدين الإسلامي في تلك البلاد العظيمة فيما بين الأُمم المتوحّشة، فأصبحت تلك البلاد تدوّي بصدى أصوات المؤذّنين صباحاً وظهراً ومساءً، وطفقوا يسجدون لوحدة الله (تعالى) بعد أن كانوا يسجدون للأحجار، والشفاه التي كانت تبتهج بأكل لحوم البشر شرعت تشتغل بذكر عظمة الله ورحمته!

ثمّ إنّنا لو فرضنا أنّ انتشار دين الإسلام لم يكن كلّه بسلام، فلا نعجب من ذلك.

ألم يمض علينا ثمانية عشر قرناً حتّى علمنا أن ليس لنا صلاحية أن نجبر غيرنا على ديننا؟!

فهل ـ والحالة هذه ـ نعجب من عبد ذي نشاط يجبر أخاه أن يعتنق بركات دينه؟!

وحيث إنّنا فرغنا من كلام أبناء جلدتنا اختصاراً، فلنذكر الآن بكلّ تدبّر وتؤدة عقائد الإسلام، ونرى هل يقبلها العقل السليم والذوق المستقيم، أم لا؟).

ثمّ ذكر التوحيد وكلمات الوحدانية والآيات القرآنية المعنية بهذا الشأن العظيم، ثمّ ذكر أكابر الرسل على حسب معتقد الإسلام من لدن (آدم)، إلى أن بلغ إلى أحوال (المسيح) وبعض شؤونه، فقال:

(ثمّ من بعده ـ أي: بعد موسى ـ أرسل الله نبيّه (عيسى) عليه السلام، وهو المعبود عند النصارى كإله ومخلّص، يزعمون أنّه مساوٍ بالأُلوهية لله (تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً).

وهنا الفرق بين معتقد النصارى واعتقاد الإسلام. فإنّا إذا سألنا المسيحي الذي ليس بمتظلّع باللاهوت عمّا يعتقده بالثالوث، يقول: أب وابن وروح قدس، ويزيد بطريق التوضيح: ثلاثة أقانيم، إله واحد!

وإن طُلب منه إيضاح هذا الكلام الذي لا يسلّم به العقل أجاب: بأنّ هذا سرّ لا يدرك!

وإن كان المسؤول كاثوليكياً أو أُسقفياً إنجليزياً ربّما رجع إلى الإيمان المعروف بالإيمان الأثناسي نسبة إلى (أثناسيوس)[1] المنتهي بعد تلخيصه وتصريحه بأُصوليات الإيمان الكاثوليكي بالهلاك الأبدي لكلّ من لم يقبل كلّ كلمة وجملة من هذا الاعتقاد الثالوثي!

وقد وصف الشاعر (بيرون)[2] هذه المسألة بكلّ حذاقة وإحساس في أبيات مآلها: فبناءً على قولكم: إنّ جميع الأشياء ملعونة، فيشعر المرء بالراحة

---

(١) القدّيس أثناسيوس، بطريرك الإسكندرية وأحد آباء الكنيسة اليونانية. وهب حياته برمّتها من أجل الدفاع عن الأُورثوذكسية ضدّ الآريوسية، وعند اشتداد سطوة الآريوسيّين نفي واستقرّ في الغرب، حيث حماه الإمبراطور كونستان، ومكث مدّة في روما. لكنّه ما لبث أن هرب إلىٰ الصحراء المصرية بعد موت كونستان، وتتالت الاضطهادات حتّىٰ أصبحت حياته سفراً متواصلاً، ولم يعرف السلام إلّا في أواخر حياته. من جملة مؤلّفاته: الردّ على اليونانيّين، الدفاعات، خطاب في تجسّد الكلمة، ثلاث خطب ضدّ الآريوسيّين. توفّي سنة ٣٧٣م.

(موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٥٥ـ٥٦، موسوعة المورد ١: ١٩٩).

(٢) جورج غوردن بايرون، شاعر إنجليزي، يُعرف باللورد بايرون. ولد في عام ١٧٨٨م. كان أعرج، ويمتاز بالأناقة المفرطة، في آثاره يأس ساخر وتوق إلى الحرّية السياسية، جعلاه النموذج العالمي للشاعر الرومانطيقي. قاتل مع الثوّار اليونان ضدّ الأتراك العثمانيّين (١٨٢٣ـ١٨٢٤م). مات سنة ١٨٢٤م في بلاد اليونان إثر حمّىٰ أصابته وهو في سنّ السادسة والثلاثين. من أشهر آثاره: دون جوان، نبوءة دانتي، قايين.

(موسوعة المورد ٢: ١٤٢ـ١٤٣).

بعد لعنة (أثناسيوس) ، وهذه اللعنة تسرّ مصدّقيه غاية المسرّة .

وإنّي لا أرتاب بأنّه ليس بالوسع البشري أن يأتي بأنحس منها على أعدائه حال كونه جاثياً على ركبتيه مؤكّداً لها بأفصح عبارة ومزيّناً بها كتاب الصلاة ، كما تزدان السماء النقية بقوس قزح !) انتهى .

إنّ كلمة (ثالوث) ليست من الكتب الإلهامية ، وليس لها وجود البتّة في الكتب المسيحية ، وإنّما أُدخلت إلى الكنيسة في الجيل الثاني بعد (المسيح) عليه السلام لكي يبيّنوا أنّ ثلاثة أقانيم إله واحد .

على أنّ أعظم الكتبة في علم اللاهوت عاجزون عن إيضاح هذا ، وكتاباتهم على هذه العبارة في الأغلب هي من قبيل الاعتذار أو التصريح بأنّ سرّ التثليث يتجاوز الإدراك !

وقد أبان الدكتور (روبنسن) إحساساته بقوله :

(إنّ سر الثالوث ليس من اختراع البشر ؛ لأنّ عقولهم تعجز عن إدراك كنهه .

فإن ثبت أنّ كلّ ما تعجز العقول عن إدراكه ليس من وضع البشر يثبت قطعياً أنّ جميع الاعتقادات التي تعجز العقول عن إدراكها كإيمان الإسكندنافيّين (قوم من الوثنيّين) والمصريّين القدماء وتعليم الهنود الوثنيّين هي ليست من اختراع البشر أيضاً ، بل هي وحي إلهي ؛ لأنّ العقول تعجز عن إدراكها .

والذي نظنّه أنّ هذا الافتراض لا يروق للأُمّة المسيحية) .

وقال كاتب آخر في هذا الموضوع :

(إنّ تعليم الثالوث الأقدس بين النصارى إنّما هو موضوع إيمان وتسليم ،

لا موضع بحث واستقراء.

فكلّ من طفق يبحث فيه بأكثر من أنّ الله بكلمته المقدّسة علّمنا ذلك، فقد يؤدّي به ذلك البحث إلى الشقاء المحض). (كلّا، ما أبدع هذا المعنى!)

(أيّها الإخوان المسيحيّين الأتقياء، لا تفتكروا بأن تدخلوا بالبحث في هذا السرّ، بل يجب أن تزدروه تماماً بدون أدنى بحث أو تحرّي، وإن كان يأباه ذوقكم السليم، فعزّوه بأنّ هذا الإيمان الكاثوليكي الذي كلّ من لم يعتقده حرفاً بحرف نزل به الهلاك الأبدي بلا ريب!).

يقول صاحب (الدعوة الإسلامية): إنّ الفاضل المتبصّر (عبدالله وليم) لم يوف البيان حقّه في جواب قولهم: إنّ سرّ الثالوث تعجز البشر عن إدراك كنهه، وأنّه يلزم التعبّد به والانقياد إليه من دون بحث أو تحرّي.

ونحن من كثب قد وفّينا البحث عنه والقول فيه، وجئنا لك من كلام هذا الفاضل وزملائه بشاهد ما قدّمناه من أنّ قولهم: أقانيم ثلاثة إله واحد، كلام لا يتحصّل له ـ حتّى عند النصارى ـ معنى متعقّل، ولا يتعقّل له وجه محصّل[1].

نعم، قف هنا معي قليلاً ريثما أجلو لك شمس الحقيقة في البحث عن قولهم: يلزم الاعتقاد به والانقياد إليه على إبهامه وإجماله، والتهديد بالهلاك الأبدي للباحث عن إشكاله.

وأخشى أن تحملك بادرتك على أن تقول: لعلّ سرّ الثالوث عند المسيحيّين هو من قبيل ما يوجد في كلمات بعض أكابر المسلمين حيث يقولون: هذا طور وراء طور العقل، وأمر فوق درك البشر، وأمثال ذلك.

---

(١) تقدّم ذلك في ص٣٠٦ وما بعدها.

ونحن ـ بعون الله ـ نحلّ هذا الرمز ونفتح هذا الكنز، ونبدي الفرق بين المقامين والميّز بين الكلامين.

وذاك بما تكرّر عليك ذكره من أنّ الميزان الذي لا عيلة فيه ولا عين ولا ميل به ولا مين هو العقل المستقلّ بالحكومة والوحيد بالقضاء في مثل هذه الخصومة، ويستحيل أن يقبل أو يتعبّد بما يراه مستحيلاً ذاتياً وممتنعاً أصلياً، ويستحيل أن يقع من الصانع القديم والشارع الحكيم تعبّد وإلزام لعباده بالتصديق والالتزام والتديّن لما يعدّونه في عقولهم من المستحيلات الذاتية والممتنعات الأوّلية، ويرون أنّ ذلك أقوى شاهد على فساد تلك الشريعة وزيغ تلك الملّة، وأنّ من أوائل المعقولات في الإدراك والمدركات في العقول استحالة كون الواحد الحقيقي ثلاثة حقيقةً، فالواحد لا يكون ثلاثة، والثلاثة لا تصير واحداً، إلّا على نحو الانقسام في الأوّل والتركيب والانضمام في الثاني، وكلاهما مستحيلان في حقّ القديم (جلّ شأنه)؛ لوجوبه وكمال بساطته وسعته وإحاطته، كما أوضحنا لك سبيله وقدّمنا دليله.

وليس هذا من موارد الالتزام والتديّن بما لا يعرف سرّه ولا يدرك غوره، بل لو جاء مدّعي رسالة ومنتحل وحي ودلالة مؤيّداً بالمعجزات المتضاعفة والآيات المتكانفة والحجج المترادفة، وكان من ديانته وشريعته الالتزام والإلزام بوقوع ما يستحيل لدى العقل ويمتنع في أوّل الفطرة، لما كان حقّه من الأُمم الراقية سوى الإعراض عنه والتجافي، وما كانت لترفع اليد عن مقتضى فطرها وبديهة فطنها وضرورة عقولها.

كيف! ولا سبيل لثبوت النبوّة وأخواتها من أُصول العقائد إلّا بدلالة العقل وإرشاده وإسعافه وإسعاده.

وهو لا يتناقض في حكمه، ولا يجهل في علمه، ولا ينقاد لضدّه وخصمه.

وأمّا ما تجده في كلمات الأُمّة المحمّدية وزعماء الملّة الإسلامية من: أنّ هذا ـ إشارة إلى بعض المطالب الغامضة ـ طور وراء طور العقل، فذاك فيما يقف دونه العقل ويخضع عنده ويعترف بالعجز عن دركه والوصول إليه ولا حكم له فيه، لا ما حكم باستحالته وقطع بامتناعه، فإنّ ذلك لو وجد في معاريض كلمات صاحب شريعة أو واضع ملّة لكان برهانا قويماً على تزييف حجّته وبطلان دعوته، فكيف به لو جعلها من أُمّهات أحكام ملّته وأوّليات قواعد شريعته؟!

قال بعض فلاسفة الإسلام من الأكابر ما نصّه:

(يستحيل على الوحي الإلهي والشرع الحقّ أن يرد بما ينبو عن العقل، بمعنى: أنّ برهان العقل يدلّ على استحالته.

نعم، ليس بمحال أن يرد الشرع بما يقصر العقل عن إدراكه ولا يستقلّ بإحاطة كنهه، وليس ما لا يدركه العقل محالاً في نفسه).

وقال آخر: (صريح العقل موافق للرسول دائماً لا يخالفه، فإنّ الميزان مع الكتاب: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾[1].

لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا بما لا يعلمون، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه، فالرسل (صلوات الله عليهم) تخبر بمحيّرات العقول لا بمحالات العقول). انتهى.

هذه تعاليم الإسلام، وهذه نصوص علمائها، وهذا مؤاخاتها للعقل.

---

(١) سورة الشورى ٤٢: ١٧.

ولكن الناهضين بنشر الدعوة المسيحية والواضعين لأُصولها وفصولها المتصرّفين في شؤونها، كأنّهم غفلوا عن كيان هذا الأمر، وغاب عنهم استحالة كون الواحد ثلاثة، وذهلوا عن أنّ هذا لا يروج عند ذوي الألباب والفطانة ولو أجهد المبشّرون أنفسهم في الإقناع به والدعوة إليه، فإنّ أرباب الألباب وذوي الاستقامة لا يقبلون ولا يعتقدون إلّا ما تحكم به العقول الصحيحة والوجدانات القويمة والأذواق السليمة بعد ردح من التأمّل وبرهة من التروّي والتدبّر.

وعزّت وجلّت كلمة الله (المسيح) عن النبس والهمس والإشارة والتعريض بذلك.

وكفاك ما تقدّم من شهادة ذلك الفاضل الذي قضى عامّة عمره وسحابة أيّامه في الديانة المسيحية، وهو أعرف بغثّها وسمينها وشكّها ويقينها، حيث يقول:

(إنّ كلمة ثالوث ليست من الكتب الإلهامية).

وقد تعقّب ذلك وكرّ على توطيده وإثباته وجاء عليه بالشهداء من أبناء جلدته وسابقي فحلته بقوله في تلك الرسالة:

(ربّما أنّ الأُمّة المسيحية تستغرب قولنا: إنّ تعليم الثالوث غير مصرّح به في جميع أعداد الإنجيل خلا عدد واحد، وهو رسالة (يوحنّا) الأُولى / الإصحاح الخامس / العدد السابع، وهي: « لأنّ الشهود في السماء ثلاثة: الأب، والكلمة، والروح القدس. وهؤلاء الثلاثة هم واحد ».

ومن المحقّق أنّ جمعية التصحيح قد رفضت هذا العدد من الإنجيل المصحّح، وقالت: إنّ وجود هذا العدد الدخيل في الإنجيل ممّا ينافي الأمانة.

وممّا يؤيّد دعوى هذه الجمعية كتب (نيوتن)، و(جبون)، و(بورصن)،

وغيرهم، فإنّهم برهنوا على زيادة هذا العدد.

وقد اعترف (كلمن) نفسه أنّ هذا العدد ليس له وجود في الكتاب المقدّس)*.

ثمّ إنّ المحترم (وليم) (شكرت مساعيه) ذكر كلام (المسيح) الدالّ على توحيد الحقّ وحصر الأُلوهية فيه ونفيها عن نفسه بقوله لبعض الرؤساء: «لماذا تدعوني صالحاً؟! ليس صالحاً إلّا واحد، وهو الله». وهي في إنجيل (لوقا) إصحاح ١٨ / عدد ١٨ و ١٩.

ثمّ ذكر بعض كرائم القرآن الكريم في إبطال تلك المقالة، مثل قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَاثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[1].

(*) أقول: ومن مشاهير الغرب الذين رفضوا تعليم الثالوث: الفيلسوف الشهير (تولستوي).

فانّه كان لا يؤمن بسرّ الفداء ولا الثالوث، ولا يعتقد أنّه إله ويقول: إنّ الصلاة له استهزاء به.

أمّا الكنيسة فلا يعتقد أنّها كما يرضاه (المسيح)، بل يقول: طرأ عليها الفساد وارتكب رؤساؤها ما يخالف تعاليم (المسيح). (منه ﷺ).

أقول: أمّا تولستوي فهاك ترجمته: الكونت ليو تولستوي، روائي وفيلسوف أخلاقي ومصلح اجتماعي روسي شهير. ولد سنة ١٨٢٨ م، حاول إصلاح المجتمع عن طريق العدل والمحبّة وعدم العنف، وانتقد المساوئ، وصوّر العادات الروسية، ورفض في أواخر حياته مؤسّسات المجتمع وفيها الملكية الشخصية والدولة نفسها. تميّزت آثاره بعمق تحليله للإنسان ككائن اجتماعي. من أبرز روائعه: الحرب والسلم، آنّا كارنينا، اعتراف، البعث. توفّي سنة ١٩١٠ م.

(دائرة معارف القرن العشرين ٤: ٧٠٣ ـ ٧٠٩، موسوعة الشعراء والأُدباء الأجانب ١٦٨ ـ ١٦٩، موسوعة المورد ١٠: ٧).

وأمّا ما يتعلّق بمعتقداته تجاه التثليث وغيره فراجع: دائرة معارف القرن العشرين ٤: ٧٠٦، موسوعة المورد ١٠: ٧، العلاقة الجدلية ١٠٨، فنّ الأدب الروائي عند تولستوي ١٧٢، واقعية الأدب في رواية آنّا كارنينا ٢٧.

(١) سورة النساء ٤: ١٧١.

إلى أن قال:

(والمسلمون يعتقدون أنّ خاتم الأنبياء وأعظمهم محمّد ﷺ قد ولد ﷺ بمكّة المشرّفة [في] ١٠ نيسان [سنة] ٥٦٩ مسيحية، وهو قرشي، وقريش أعظم قبيلة في بلاد العرب تتّصل (بإسماعيل بن إبراهيم) عليه السلام.

وكانت سدانة الكعبة بيد جدّه ﷺ، وهو أعظم معبد للعرب قد أُدخلت فيها الأصنام، وذلك قبل بعث رسول الله ﷺ، وكانوا يحجّون إليها، وقد وضعوا فيها ٣٦٠ صنماً عدد أيّام السنة.

وهي من بناء (إبراهيم) و(إسماعيل).

والذي يظهر من تصفّح كتب التاريخ أنّ بناءها كان قبل بناء هيكل (سليمان) بقدر ٩٩٣ سنة، أي: قبل (عيسى) عليه السلام بألفي سنة).

ثمّ ذكر وصف الكعبة، وزينتها، وستورها، وعظيم قدرها، وشريف شؤونها.

إلى أن قال:

(واسم أبيه: (عبد الله)، توفّي قبل ولادته (عليه الصلاة والسلام).

وتوفّت أُمّه وهو ابن ستّ سنوات، وكفله عمّه (أبو طالب).

وكان ﷺ في صغره حسن الخلق تلوح على وجهه دلائل النجابة والفطنة والدراية.

وكلّما ازداد سنّاً ازداد رصانة وذكاءً واستغراقاً في التفكّر.

حتّى إنّ أحد أصحابه ﷺ قال له مرّة: هلمّ بنا إلى اللهو، فأجابه: «خُلق الإنسان لأمر خير من هذا».

وكان ﷺ عالي الهمّة وديعاً أميناً وفيّاً للعهد محبّاً للأطفال معطياً

للصدقات متواضعاً غير مدّع.

والذي ورد: أنّه كان ﷺ ربعة لا بالطويل ولا القصير، أزهر اللون، من رآه هابه.

راجع كتاب (لاك): (الإسلام ومحمّد).

وكان ﷺ أُمّياً لا يعلم القراءة والكتابة، كما في قوله (تعالى): ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾[1] (سورة ٢٩).

ولمّا كمل له ﷺ أربعون سنة جاءه الحقّ وهو بغار حراء، وهو جبل يبعد نحو ساعة عن مكّة المشرّفة، وكان قبل ذلك يختلي فيه يعبد الله (تعالى).

ثمّ ذكر كيفية نزول الوحي عليه وبدء النبوّة وأوّل البعثة، ممّا سنورد لك تفصيل فلسفته وأسراره في الجزء التالي لهذا الجزء إن شاء الله.

إلى أن قال:

(فسألوه معجزة تؤيّد دعواه، فأجابهم ﷺ: «إنّما جئت لنشر الحقّ»).

أقول: هذه غفلة ناشئة من حداثة هذا الفاضل في دين الإسلام وعدم البلوغ في بادئ الأمر إلى كلّ مشروعاته وشؤونه، وإلّا فقد عرفت أنّه كم سألوه معجزة فأجابهم إليها، وكم سكتوا فابتدأهم بها، حتّى سألوه أن تنقلع الشجرة من أُصولها وتأتي إليه وتشهد له بالرسالة، ففعل. راجع (النهج) تجدها مشروحة في إحدى خطبه (سلام الله عليه)[2].

نعم، قال المحترم (عبدالله وليم):

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩: ٤٨.

(٢) وهي الخطبة المسمّاة: القاصعة. لاحظ: نهج البلاغة ٣٠١ ـ ٣٠٢، بحار الأنوار ١٧: ٣٨٩.

(على أنّه أعجزهم بأن يأتوا بسورة واحدة من القرآن.

نعم، إنّ أعظم آية له ﷺ هو ما أُوحي إليه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1].

فكان متّكلاً على الله (تعالى) في تثبيت دعوته، فإنّه رغماً عن كلّ كيد واضطهاد داوم الدعاء إلى الله (عزّ وجلّ)، وصار يدعو الناس جهراً بمكّة، وفي كلّ يوم يزداد المؤمنون به.

وكثيراً ما كان يدعو الناس إلى دين الله وهو على جبل أبي قبيس أو الصفا، حتّى إنّ أعداءه راموا أن يسكتوه جبراً، وكلّما ازدادوا له اضطهاداً ازداد ﷺ شجاعة وثباتاً.

وقد ألحّ عليه عمّه (أبو طالب) بأن يدع ما يدعو إليه، فأجابه: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي لما كنت لأدع ذلك».

فاشتدّ الأذى من قريش له ولأصحابه، فأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة المنوّرة، فامتثلوا، وكان بعض أهاليها قد اعتنقوا الديانة الإسلامية.

أمّا النبي فبقي بمكّة يدعو إلى دين الله وتوحيده، فائتمروا فيما بينهم على قتله، وذهبت طائفة منهم لمباشرة ذلك وهو نائم، فأوحى الله إليه ذلك، وأمره بالهجرة).

ثمّ ذكر أمر هجرته (سلام الله عليه)، واصطحاب (أبي بكر) ﷺ، ومبيت (علي) عليه السلام على فراشه متّشحاً برداء النبي، ومجيء القوم إليه ليقتلوه، إلى أمثال ذلك ممّا ضبطه لك التاريخ ودوّنه العلم، ولا غرض هنا في نقله.

---

(١) سورة النجم ٥٣: ٣ـ٤.

والغرض نقل ما يتعلّق بالثناء على الملّة المقدّسة الإسلامية، وإعلان مجد شارعها وناشرها المقدّس، ومثابرته وعنائه في نشرها وبثّها، صبراً يشهد له بصدقه، ويقوم بإثبات حقّه، ويدلّك على كيان أمره وبيان جوهره وصحيح غرضه ورجاحة ميزانه وعلوّ شأنه.

وقد أقمنا لك الشهود عليه حكاية من كلام هذا الفاضل ومن نقل عنهم.

ولم يزل ذلك المتبصّر المنصف الحصيف الفكر المرير الرأي مارّاً على هذه الوتيرة وفي هذه الخطّة، حتّى استوفى قدراً منها، وبالغ في تحقيقها.

ومن جميع ما مرّ عليك يتجلّى لك قدر عناء تلك الذات المقدّسة في نشر تلك الدعوة المباركة، وما تحمّله من الأذى في سبيلها.

وذلك الفاضل وإن استوفى بعض شواهدها، ولكن قد فاته كثير ممّا يشهد على تحمّله (صلوات الله عليه) أقصى مبالغ الجهد والأذى والبلاء والعناء، مثل: قذفه بالصخور والأحجار مهما اجتاز في طريقه بمكّة، حتّى أُصيبت جبهته المقدّسة وسالت الدماء على وجهه الكريم، وكإلقاء المقاذر في طعامه، حتّى يمتنع من الأكل، وكبح ماء الرماد على ثيابه[1]، وأشباه ذلك من المؤلمات والموهنات لشرف حسبه ونسبه وجليل قدره في قومه ـ مع قطع النظر عن قيامه على عرش النبوّة وكرسي الرسالة ـ عناءً لم يحتمله أحد من النبيّين قبله، لا (نوح) ولا (إبراهيم) ولا (موسى) ولا (عيسى)، كما أشعر به هو (صلوات الله عليه وعليهم) بقوله: «ما أُوذي نبيٌّ مثل ما أُوذيت»[2].

---

(١) قارن: الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٢٠١، دلائل النبوّة للبيهقي ٢: ٢٧٤ ـ ٢٨٠، السيرة النبويّة لابن سيّد الناس ١: ١٣٥ ـ ١٣٧، السيرة النبويّة لابن كثير ١: ٤٧٠ و٢: ١٤٦، ١٤٨.

(٢) انظر: الكامل في ضعفاء الرجال ٧: ١٥٥، حلية الأولياء ٦: ٣٣٣، فتح الباري ٧: ١٣٠، الجامع الصغير ٢: ١٤٤، كنز العمّال ٣: ١٣٠ و١١: ٤٦١، كشف الخفاء ٢: ٢٣٥، بأدنى تفاوت.

وهو لا يتلقّى ذلك إلّا برحيب صدر، ومتّسع حلم، وعظيم رأفة بقومه ورحمة.

فتجده في مضائق البلاء وشدّة سيطرة السطوات منهم عليه يقول ـ والكرب قد أخذ منه مأخذه والدماء تسيل على وجهه ـ: «اللهمّ، اغفر لقومي، فإنّهم لا يعلمون»[1]، غير داع عليهم بنزول العذاب ولا بتعجيل النقمة والعقاب، كما فُعل بأشياعهم من أُمم الأنبياء من قبل.

وكفاك حديث الصحيفة التي كتبتها قريش في مقاطعة بني (هاشم) رهط النبي ﷺ، وحبسهم في الشعب ثلاث سنين، ومنع الميرة والزاد عنهم[2]، وأمثال ذلك من الاضطهادات شاهداً على ما نروم الدلالة عليه.

وتراه (سلام الله عليه) ـ على شدّة العوائق عن غرضه والدوافع عن قصده وأحجار العثرات في طريقه والعرقلات في سبيله ـ لا يزداد إلّا شدّة وحماساً، وعزماً وبأساً، وقوّةً ومراساً، وتجاهراً بنشر دعوته، وتجاسراً على الإعلان بكلمته، كأنّ له قاسراً من ورائه ودافعاً إلى تلك البغية يدفعه من خلفه.

لا يتوانى ولا يقف، ولا يلتفت ولا ينصرف.. يعرّض نفسه في ذات الله للمهالك غير مبال ولا مكترث، وهو يتيم (أبي طالب).

---

(١) راجع: مسند أحمد ١: ٤٤١، صحيح البخاري ٣: ١٢٨٢، دلائل النبوّة للبيهقي ٣: ٢١٥، الترغيب والترهيب ٣: ٢٨١، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٩٩ ـ ٢٠٠ و٨: ٢٧٣ و١٤: ١٥٦، مجمع الزوائد ٦: ١١٧، فتح الباري ٧: ٢٩٨ ـ ٢٩٩، الدرّ المنثور ٣: ٤٨١، كنز العمّال ١٠: ٣٧٩ و١٢: ٤٧٣.

(٢) لاحظ: تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٢٠٨ ـ ٢١٠، دلائل النبوّة للبيهقي ٢: ٣١١ ـ ٣١٥، إعلام الورى ١: ١٢٥ ـ ١٢٩، قصص الأنبياء للراوندي ٣٢٧ ـ ٣٢٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٩ ـ ٦٢، السيرة النبويّة لابن كثير ٢: ٤٣ ـ ٥٠، بحار الأنوار ١٩: ١ ـ ٢٧.

وأوّل خاذل له عشيرته، وأشدّ الناس تحاملاً عليه لحمته، مع اعترافهم بأنّه من الصدق والشرف في المكان المكين وتسميتهم له قبل ذلك: بمحمّد الأمين، ما نقموا عليه خلّة ولا عثروا له على زلّة، ما نقموا منه إلّا أنّه دعاهم إلى سعادتهم وجاءهم بمفازتهم، فكذّبوه جهلاً وعناداً وكفراً وإلحاداً: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[1]، ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2].

ولنعد إلى استيفاء الغرض من نقل كلام (العقيدة الإسلامية) لذلك النصراني المتبصّر المتدرّب المتدبّر، حيث انتقى فأتقن، وأحسّ فأحسن، وجدّ فوجد، فكان من جملة مقالاته:

(وكثيراً ما كتب الكتّاب الأُوربيّون ـ مع اختلافهم ـ بخصوص الشمائل المحمّدية.

بيد أنّ معظم نتائج كتاباتهم مموّهة بالضغائن والشحناء!

فيا للأسف من وجود هكذا أُناس يزعمون أنّهم تبع لذلك الوضيع الوديع (عيسى) عليه السلام!

وقد علم بعض كتّاب عصرنا أنّ الطعن والشتم لا تقوم بها الحجّة، فأتوا بذكر كثير من الشمائل المحمّدية المرضية، وعظمة القرآن الشريف، فقد قال (مستر حنّا دافبزت) بكتابه المسمّى: (بمحمّد والإسلام) ما نصّه:

(مهما ازداد الباحث تروٍّ بالحقائق التاريخية الوثيقة الصادرة فيما يخصّ

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٦٢.

(٢) سورة آل عمران ٣: ١١، وسورة الأنفال ٨: ٥٢ و٥٤.

الشمائل المحمّدية يزداد احتقاراً لشانئي محمّد ﷺ، مثل: (مركسي) و(بريدوا)، ومن المتأخّرين: (فردرك شلجل) وغيرهم من الذين أشرعوا أسنّة الطعن في النبي ﷺ.

ولا يسعني أن أضرب صفحاً عن التصوّر الذي اتّخذه (كارليل) فيما يختصّ بالنبي ﷺ، فإنّه تصوّر أصلي حقيقي معجب.

وهو: أنّ الأبطحي النيّر البصيرة المتّقد البصر ذا النفس المرضية الأنيقة المطمئنة لم يكن ذا مطامع دنيوية، بل كان صاحب أفكار ونفس عظيمة رصينة من الذين لا يمكنهم إلّا الجدّ للحصول على الحقّ.. الذين اختصّتهم يد القدرة بالإخلاص، بينما كان الغير آتياً بالشعبذة والابتداع مكتفياً بهما، وقد تنزّه ﷺ عنهما، بل كان شأنه التفكّر والعزلة.

وقد تجلّى له سرّ الوجود العظيم بمظاهر الجلال والخوف، فأضاء له حقائق الأشياء، وتلك حالة لا ينالها إلّا أهل الحقّ.

ولا شكّ أنّ إنساناً هذه كلمته لناطق عن تجلٍّ إلهي، فيجب على كلّ فرد أن يصغي لمقاله ويترك ما سواه؛ إذ كلّ ما سواه يذهب أدراج الرياح.

وكثيراً ما كان يختلج في صدره التفكّر في خلق السماوات والأرض والكائنات، والتفكّر في هذه الحياة الدنيا والموت، فأنزل الله عليه الوحي كاشفاً له عن حقائق الأشياء مبيّناً له).

ثمّ كرّ على ذكر العقائد الإسلامية من التصلّب والتشدّد في التوحيد والإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأردف ذلك بذكر أحوال القرآن الكريم وترتيب آياته وسوره وأسمائها وإعجازه، إلى أن قال:

(وإذا تدبّرنا القرآن المجيد من وجه بلاغته ـ بقطع النظر عن كونه وحياً ـ

نجده أبلغ كتاب عربي انتظاماً وتركيباً، فإنّه جمع أساليب البلاغة ما بين مرسل ومسجّع وغير ذلك موافق للذوق المنتشر منذ أحقاب كثيرة لدى القسم الأعلى من المسكونة، وهو مملوء بأمثال باهرة ومجازات بديعة.

ولقد ذكر (أمرش) القرآن الشريف في عدّة مجالات من كتابه بكلّ احترام وتبجيل.

وقال (كوز): (إنّ القرآن الكريم ربّما يجده القارئ بادئ بدء ثقيلاً، غير أنّه بعد قراءة قليل منه يجذب قارءه بسحر بلاغته، ويختطفه ببهجته، ويأخذ بمجامع قلبه).

وأمّا ما ذهب إليه (كارليل) بخصوص القرآن المجيد فهو: أنّه متى قرأ أحد القرآن بتدبّر يرى أنّ الحقائق الجوهرية منكشفة لديه بذاتها، فله بذلك رونق بديع غير رونقه اللفظي. ومن المعلوم أنّ الكلام الحقيقي له تسلّط على كلّ قلب.

والحقّ يقال: إنّ جميع الكتب بالنسبة إلى القرآن تعدّ حقيرةً، فإنّه منزّه عمّا يستهجن.

قال (السر وليم ميور) في كتابه المسمّى: (حياة محمّد):

(إنّ القرآن ممتلئ بأدلّة من الكائنات المحسوسة والدلائل العقلية على وجود الله (تعالى)، وأنّه هو الملك القدّوس، وأنّه سيجزي المرء بعمله، إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً، وأنّ اتّباع الفضائل واجتناب الرذائل فرض على العالمين، وأنّ الواجب على كلّ مكلّف أن يعبد الله (تعالى)، وهي علّة سعادته.

وقس على هذا ما هو موضّح بأدلّة مؤكّدة بليغة.

ويكثر في القرآن المجيد الشعر* ويمثّل حقيقة البعث بأمثال كونية صادقة

(*) المراد: حسن التمثيل وبديع التصوير للوقائع الحقّة والحقائق الراسخة، وضرب الأمثال بما يبعث الشوق ويهيّج الرغبة إلى الفضائل، لا الشعر بمعناه المتعارف، كما لا يخفى. (منه ﵀).

وتشبيهات مدهشة، مثل قوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[1]).

وقال (واشنطون) مثله، وقال (جبون):

(إنّ أوامر القرآن ليست محصورة في الفروض الدينية والأدبية فقط، فإنّ سكّان الممالك التي هي من حدود الأُوقيانوس الأتلانتيكي إلى الفنجس يعتبرون أنّ القرآن الكريم عليه مدار الأُمور الأُخروية والدنيوية من الفقه والتوحيد والأحكام الحقوقية والجزائية وما به انتظام الكون وقمع الظالم وصيانة الحقوق، وذلك أمر إلهي لا مرية فيه).

وبعبارة أُخرى: أنّ القرآن المجيد هو الدستور العمومي لكافّة العالم الإسلامي، وهو دستور الدين الإسلامي، فهو نظام الكون في المعاد والمعاش، وبه النجاة الأبدية، وحفظ الصحّة البدنية والمصالح العمومية والشخصية، وما يترتّب على ذلك من الفضائل الأدبية والإجراءات الجزائية (الدنيوي والأُخروي)، كلّ ذلك منظّم في القرآن المجيد.

راجع كتاب (دالافنبزت) المسمّى: (الإسلام ومحمّد).. قال في المباحث بالنسبة بين العلم والدين:

(إنّ القرآن المجيد يخالف في أُصوله توراة اليهود والنصارى، وبمقتضى تقريراتكم أن ليس به تعاليم لاهوتية، غير أنّ معظمه مشتمل على أخبار ومباحث متدفّقة بعبادات حقيقية وفضائل صادقة مرتبطة أشدّ الارتباط.

فكأنّ الشارع علم أنّ أُولي الاستبدادات الروحية ذوو أخطار على

---

(١) سورة الحجّ ٢٢: ٥.

السياسة والحكومة، وأنّهم ميّالون لإفساد الطاعة، فجعل دستور أعمال المكلّفين القرآن المجيد؛ ليكونوا عالمين بما يجب عليهم منه.

فليس في الإسلام كهنوتية. فعلماء الشريعة هم علماء الدين؛ لأنّ الشرع هو القرآن.

ولا نضطرّ أن نذكر إيمان الإسلام فيما يتعلّق بالبعث والحساب، والجنّة والنار، وتعليم القدر).

ثمّ ذكر جملة من تعاليم القرآن وشرائعه المقدّسة وقوانينه المباركة، فقال ملخّصاً: (وقد أوجب القرآن حقيقة الإحسان على كلّ مؤمن، وبيّن ذلك بقوله (تعالى): ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1]).

قال:

(وآداب القرآن أعظم الآداب، فإنّه حرّم قول السوء: ﴿لاَ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾[2] (سورة ٤)، ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً﴾[3] (سورة ٤٩).

وحرّم الخمر والميسر (القمار)، فقال في [سورة] البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[4]، ثمّ قال (تعالى) [في] (سورة ٥): ﴿يَا أَيُّهَا

---

(١) سورة النساء ٤: ٣٦.

(٢) سورة النساء ٤: ١٤٨.

(٣) سورة الحجرات ٤٩: ١٢.

(٤) سورة البقرة ٢: ٢١٩.

الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

ويحرّم الخبائث والفساد بكافّة أنواعه (آية ١٧ من [سورة] النساء).

ويحرّم الربا، راجع (سورة البقرة).

ويحرّم التكبّر، وعمل السوء، والنفاق، والحسد. راجع (١٧ و١٨ و٣٣ و٦٣ من [سورة] النساء).

ويحرّم الطمع في الحياة الدنيا، وبخس الكيل، وأكل مال اليتيم وقهره، ويمنع البهرجة الظاهرية، ويحضّ على الإخلاص القلبي والعمل الصالح اللذين هما دليلان على صدق الإيمان.

وممّا هو مؤكّد في الخصال الإسلامية: الرأفة على الأطفال، والوفاء بالعهد، والمساواة الحقوقية فيما بين الناس، والإحسان، والعفّة حتّى في المقال، وفكّ الأسرى، والصبر على البلاء، واحتمال المكروه، ومقابلة الإساءة بالإحسان، والسلوك في سبيل الفضائل.

وذلك لا طمعاً، بل لكون ذلك مرضياً لله (عزّ وجلّ).

ونهى القرآن عن الإسراف، وظلم الأرقّاء، وقتل النفس، وتأخير التوبة إلى ساعة الموت.

وأمّا خفض الجناح ولين الجانب فهو فرض على كلّ مؤمن، انظر ([سور] الإسراء والنور والشعراء).

ثمّ ذكر الصلاة، واهتمام الشريعة بها، وأنّها عماد الدين ومفتاح الفردوس،

---

(١) سورة المائدة ٥: ٩٠.

وأورد بعض الآيات الواردة فيها، إلى أن قال:

(ومن بدائع القرآن العظيم الكثيرة ثناؤه على نفسه تعالى ممّا يليق به؛ لأنّه منزّه عن الصفات البشرية الضعيفة، وخلوّه ـ أي: القرآن ـ من التصوّرات والتوضيحات والتقريرات المخلّة بالآداب ممّا هو مذكور فيما سواه من الكتب.

نعم، إنّ القرآن منزّه عن ذلك، ويمكن قراءته من أوّله إلى آخره بدون أن تحمرّ خدود الآداب منه).

أقول: كأنّه يشير إلى ما قدّمنا نقله[1] من العهود التي يزعمونها التوراة والإنجيل، وحاشاهما من نسبة الشنائع الفاضحة إلى كبار رسل الله وأنبيائه، من: زنىٰ (لوط) ببناته، وعبادة العجل من (هارون)، وزنىٰ (داود) بزوجة (أُوريا الحثّي)، وجعل (عيسى) لعنة، وشربه الخمر، وأمثال ذلك ممّا يسوّد وجه الحقيقة، وينكّس رأس الحياء، وتحمرّ ـ كما قال ـ خدود الآداب والمروءة منه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون لأُمم فقدت واضح وجداناتها في أُمور دياناتها، وعابت المسلمين متحاملة على قرآنها!

قال:

(وقد وصف القرآن الكريم وأحكامه جمٌّ غفير من المؤلّفين بأوصاف بديعة:

فمنهم: (بثورث إسمث) بكتابه المسمّى: (حياة محمّد) (صفحة ٣٦٤)، قال تبياناً لما قام بأفكاره: (إنّ محمّداً ﷺ لمؤسّس أُمّة ومملكة وديانة، وهذا أمر لم يوجد له سبق مثال، ولن يوجد.

---

(١) تقدّم نقله في ص٢٩٨ وما بعدها، وص٣٢٥ وما بعدها.

وهو أُمّي لا يعرف القراءة والكتابة، وقد جاء بكتاب مشتمل على دستور الشرائع والعبادات وأخبار الأُمم.

وهو نقي العبارة من الألفاظ المستهجنة باهر الحكمة والحقائق.

وهو أعظم معجزة له ﷺ، والحقّ يقال: إنّه لمعجزة).

وذكر في (البيبلير أنسكلو بيديا) (مجلّد ٨ / صفحة ٣٢٦): (أنّ لغة القرآن أفصح لغات العرب، وأساليبه وبلاغته تسحر الألباب بحسنها، وسيبقى غير معارض إلى الأبد، ومواعظه طاهرة، وكلّ من يتبعها بتدبّر يحيا حياة طيّبة).

وأخيراً أقول: إنّ القرآن يرفض كلّياً التفكّر بأيّ ذبيحةٍ ما عن الخطيئة*، بل يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1]، وإنّ من: ﴿يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[2].

فعلى هذا، يلزم كلّ فرد من البشر أن يستغفر لذنبه ويعمل صالحاً؛ كي يتأهّل لدخول الجنّة.

وأعظم ما يرمى به الدين الإسلامي: أنّه دين قام بإشهار السيف.

وهذه تهمة باطلة؛ فإنّ دين الإسلام المبين لم يتدخّل بعقائد الأديان مطلقاً، ولا اضطهد معتنقيها، ولم يجبر أحداً على الدخول فيه قهراً، وإنّما دعا الناس إليه.

ومن المعلوم أنّ القرآن المجيد هو معتقد المسلمين وبحسب أوامره يفعلون. قال الله (عزّ وجلّ) في (سورة ٢): ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ

(*) إشارة إلى ما يقوله النصارى من: أنّ (عيسى) فدى بنفسه خطايا العالم. (منه رحمه الله).

(١) سورة الأنعام ٦: ١٦٤، سورة الإسراء ١٧: ١٥، سورة فاطر ٣٥: ١٨، سورة الزمر ٣٩: ٧.

(٢) سورة الزلزلة ٩٩: ٧ـ٨.

الْغَيِّ﴾[1].

قال (شاتفليد) في كتابه المسمّى: (التصفّح التأريخي) (صفحة ٣١١):

(لو أنّ العرب والترك وغيرهم من الشعوب الإسلامية فعلوا في الشرق ما فعله الأُوربيّون في أهل القرآن لتلاشت المسيحية في الشرق! غير أنّ دينهم يأبى ذلك، ويخوّلهم أن يكون لهم من الحقوق ما للمسلمين).

يقول صاحب هذه (الدعوة): قِف هنا وتأمّل، واذكر صنيع ملوك الغرب من المسيحية بالمسلمين وتعجّب!

قال الفاضل المتبصّر:

(وما قاله (توما كارليل) هو أعظم حجّة بالغة، ولذلك لا مندوحة لي عن ذكره.

وهو: أنّه طالماً كثر القول بأنّ محمّداً ﷺ قد نشر دينه بالسيف، فإنّنا إذا جعلنا هذا القول برهاناً على صدق أو بطلان دين ما، نجد أنفسنا أنّنا وقعنا في أغلاط حقيقية.

فلو فرضنا أنّ هناك سيفاً، فأنّى له أن يقاوم سيوفاً جمّة! وكلّ أمر محدث ينحصر بادىء بدءٍ بشخص واحد، فهل ـ والحال هذه ـ يمكن ذلك الشخص أن يجبر العالم أجمع على أن يأتمروا أمره خشية سيفه؟!

والحقّ يقال: إنّ الأمر يكون انتشاره بمقدار ما له من القوّة الحقيقية.

على أنّنا لا نرى أنّ دين النصارى احتقر السيف حينما صار له سيف.

فقد نصّر (شارلمان) (السكنرنس)، لكن ليس بالوعظ، بل بالسيف!

---

(١) سورة البقرة ٢: ٢٥٦.

وإنّني قليل الاعتناء بالسيف، وأدع الشيء يحامي عن نفسه بأيّ وسيلة، وأدعه يعظ ويكاتب ويخاصم، فإنّه لا يستظهر إلّا بما يستحقّه، ولا يزيل إلّا ما هو دونه، والصدق أعظم حَكم في هذه المبارزة، فإنّه هو الذي أخيراً ينمو، ولا ينمو سواه).

يقول صاحب (الدعوة): لعلّك تتذكّر ما قدّمناه في هذه الخطّة[1]، وأنّ نبيّنا ﷺ إنّما اضطرّ إلى السيف اضطراراً، حيث أصرّوا علىٰ تكذيب الوعظ والحجج الباهرة عناداً واستكباراً.

ولقد كان هو أولى بالسماح والعفو عنهم وتركهم وسوم طباعهم وسوء عاقبة مآلهم. ولكن كانوا يقفون حجر عثرةٍ في طريقه وعرقلة في سبيله، فلا يتركون عباد الله المستعدّين لقبول السعادة أن ينالوها، ويجهدون في كلمات الله وآياته أن يمحقوها، فلم يكن بدٌّ ولا مندوحة من مناواتهم وقمعهم وتطهير الأرض من رجسهم.

ولذلك هو (صلوات الله عليه) ما كان يقاتل إلّا من نقض عهده، أو زاحم في نشر كلمة التوحيد قصده.

ولهذا كان يهادن الأُمم الكتابية ويسالمهم ما سالموه؛ لأنّ أقصى غرضه ودعوته إلى عبادة الإله الواحد الأحد، وللكتابيّين حظٌّ منه ونسبة إليه، وفي هذا حاجز له عن محاربتهم.

ولذلك ما حارب منهم ولا قتل إلّا من نقض عهده وحالف المشركين عليه.

كلّ ذلك حرصاً على الحقّ وإعلاء كلمته، وتعويلاً على الحجج البالغة في

---

(١) تقدّم ذلك في ص٣٣٧.

نشر دعوته.

فذاك الكاتب المتبصّر حام حول الحقيقة ولمّا، وأوشك أن يصيب موضع السيف، وأنّه الموضع الذي لا يغني عنه سواه ولا مندوحة عنه بغيره.

ولكلّ مقام مقال، ولكلّ ميدان رجال.

وليس هو من الإكراه في الدين بشيء، بل لدفع من يكره على خلافه ويحفّز المهتدي عن قصده.

وستأتي في الجزء التالي فلسفة البحث هنا وما ينبغي أن يقال فيه، فانتظر، وبالله التوفيق.

قال: (وإنّي لا أرتاب أنّ الإسلام منزّه عن الهزء واللعب، ليس به رياء ولا نفاق، وهو لا شكّ حياة لكلّ معتنق له.

ولقد لاحظ (توما كارليل) ببصيرته المتّقدة هذه الصفات بالنبي ﷺ بقوله: (إنّي أُحبّ محمّداً؛ لثباته واستقامته، فإنّه أبطحي مهذّب لنفسه، لا يدّعي بما ليس فيه، ولا أثر للكبرياء عليه، على أنّه ليس بالذليل.

وكان يرقّع ثوبه ويخصف نعله زهداً وتواضعاً، يقول الحقّ بسائر أحواله لأكاسرة العجم وقياصرة الروم بما يجب عليهم من الفرائض، ينزل الناس منازلهم، يعلّم حقائق الأشياء، لا كمن يعلّمون ظاهراً من الحياة الدنيا، يرى سائر الكمالات لله تعالى، وأنّ التقصير من شأن القوى البشرية).

إلى أن قال: (وبالاختصار أقول: إنّ الديانة الإسلامية لهي ديانة حقٍّ ذات مبادٍ صحيحة روحية، وهي معتقد خمس النوع البشري.

الله أكبر! إنّ صدى دين الإسلام له رنّة في القلوب يصغي له ملايين جمّة، وله ملأ من أُولي العزّة ينشرونه فيما بين (الملايا والبابوات)، وهو مزيل للخبائث

والقبائح أينما حلّ) انتهى .

قال المحترم (عبدالله وليم) :

(هذا هو الإخاء الذي أدعو إليه أبناء وطننا الإنجليزي، وهذا هو الإيمان الذي نعرضه عليهم ليعتنقوه راجياً منهم نبذ العصبيات الدينية وراءهم ظهرياً، وهي التي ورثوها كابراً عن كابر، وأن لا يستمسكوا إلّا بعروة الإيمان الوثقى التي لا انفصام لها، ويدعوا كلّ ما لا يقبله الذوق السليم والطبع المستقيم ؛ إذ كلّ ما لا يُدرك ولا يدخل تحت الإمكان ينتج ضرورةً وجود الريب وعدم الثقة، وهو أمر تُخشى عواقبه في الإيمان الحقيقي ؛ لأنّ النتائج دقيقة جدّاً، وعاقبة الضلال والغواية هي خطر عظيم .

وكلّ ما نتوق إلى معرفة كنهه من الأُمور الدينية المهمّة فإنّ دين الإسلام ينبئنا عنها بأجلى بيان، ويعلّم الإنسان حقيقة التسليم لله (تعالى) : ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] .

فلتهلك كافّة العوائد وكافّة الأسرار التي لا تُدرك ولو بلغت مهما بلغت، خيراً من أن يهلك الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقوم أو يضلّ عن الصراط المستقيم !

ولربّما قال قائل : إنّك تمتهن الأديان والاعتقادات، وتبخس الناس أشياءهم .

أقول : نعم، إنّ الذين يقولون : إنّ الاعتقادات ليست بشيء، فمن المحال أن يكونوا أدركوا حقيقة قولهم .

---

(١) سورة فصّلت ٤١ : ٢١ .

كما قال أحد خطباء هذا العصر بما هو مطابق لمقتضى الحال، وهو (كونس روجرس): (في أيِّ البلاد يكون دين المرء غير ثمين لديه، مع أنّه يعتقد أنّ وراء هذه الدار داراً أُخرى، وبها تكون المكافأة والمجازاة، وسعادته وشقاوته متوقّفان على إيمانه ؟!).

وما أجهل امرءاً أضاع حياته بما به الوبال والخسران عليه ؛ لأنّه لم يغتنم الفرصة التي اغتنمها من هو أعظم منه إدراكاً وأقوى شهامة! فإنّه ترقّى في سلّم النجاح.

فالإيمان ليس هو صناعة أو علماً يمكنه استقراء أدلّته كي يظهر به فساده في هذه الحياة الدنيا، بل إنّما تظهر نتائجه وما يترتّب عليه في تلك الدار: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

قال الحكيم (مودسلي) كلاماً مبتكراً، وهو: (أنّه يجب على كلّ إنسان أن يصرف همّته إلى الله بالإخلاص في الأعمال الصالحة، حتّى إذا أتاه اليقين شرب كأسه غير وجل متّكلاً على الله بإخلاص، فيكون كطفل أمرته أُمّه بالنوم ليرتاح من عناء نهاره) انتهى.

وهذا شأن المسلمين بتسليمهم لقضاء الله وقدره.

وبالاختصار: أنّي أُنذر الذين هم على وشك اعتناق [الديانة] الإسلامية والذين هم قد اعتنقوها أنّه يجب عليهم أن يصبروا على الأذى والامتهان واحتقار معانديهم مع ما يحرّفونه من أمر دينهم عن مواضعه، فإنّه هكذا كان بدء الإسلام في زمن (محمّد) ﷺ، ولهم فيما جاء في (سورة الحجرات ٤٩) أعظم أُسوة،

---

(١) سورة الشعراء ٢٦: ٢٢٧.

وهي قوله (تعالى) : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]) .

يقول صاحب هذه (الدعوة): هذا آخر ما أردنا نقله من تلك الرسالة المطبوعة بمطبعة جمعية الفنون سنة ١٣٠٩ هـ.

ولا أحسب الألمعي اللبيب العارف بأساليب البيان وترجمة اللسان عن الجنان، لا أحسب من هو خليق بأن يتمثّل بقوله:

أُصادق نفس المرء من قبل جسمه وأعرفه من فعله والتكلّم

إنّ مثل هذا العارف إذا نظر إلى ما تقدّم نقله من تلك الكلمات الحادّة والنغمات الشريفة واللهجة الشديدة، لا أحسبه يرتاب في أنّها خرجت من توقيع القلب وإملاء الحقيقة، وعلى حركة أوتار الهوى وإرادة الهواجس، وبدافع نفس الأمر ومجرّد الواقع، لا عن صورة تصنّع، ولا بصفة غرض أو تكلّف.

فإنّ تلك اللهجة لا محالة لهجة ذي دين ونغمة ذي عرفان ويقين، قد تلطّف حتّى نفذ من المسام وتصرّف حتّى لم يدع على الحقيقة حجاباً من حجب الأوهام.

فجاء بها نواصع بيضاء عارية عن كلّ لُبسة مجرّدة عن كلّ شبهة، كجبين الصبح، أو كغرّة شمس الضحى.

هذا ما نحسّه ونحدسه من تلك الكلمات، ومكنوناتُ السرائر على تمام الحقيقة لله.

على أنّنا ما سردنا لك تلك النصوص الغربية لنعتدّها عليك إلهامات إلهية أو

---

(١) سورة الحجرات ٤٩: ١٧.

آيات سماوية، أو أحاديث قدسية، نقطع بها حجّتك أو نسدّ بها محجّتك، أو لنجعلها فيصل الحكومة علينا وعليك وقاطعة الخصومة بيننا وبينك.

كما لا نريد أن نكون معك ممّن يعرف الدين بالرجال، ولا ينظر إلى ما قيل، بل إلى من قال.

كلّا، لا وربّك! لسنا هناك.

وكيف! وقد أنبأناك أنّ الغرض ما هو إلّا أنّنا حيث ذكرنا في المقالة الأُولى من صدر الخاتمة بعض تحامل الغربيّين على الإسلام والمسلمين، أحببنا أن نكيل لهم بالقسط ولا نبخسهم في الوزن، ونأخذ بالأمانة على أطرافها وحدودها، فقلنا: كما أنّ فيهم من طعن في الإسلام وتشدّد عليه، فيهم من طاعن عنه وشهد له.

فعسى أن تكون هذه بتلك، واحدةً بواحدة، بواءً وكفاءً لمن يرى أنّ أقوال الغربيّين هي المثابة والمباءة والقدوة والغاية التي إليها يُرجع وعليها يُعوّل!

فإن كان ما رُمناه فذاك، وإلّا فالأمر يسير، والشأن طفيف، والحجج قد تكاتفت لك سابقةً، وستترادف عليك لاحقةً في الأجزاء التالية إن شاء الله.

[التتمّة الثالثة: دعوة هامّة، وفيها قسمان:
القسم الأوّل: دعوة موجّهة إلى المسلمين]

الثالثة من التتمّات: أنّ قصاراي من دعوتي هذه أن أستنهض همم إخواني المسلمين، وأستلفت أنظارهم، وأستحضر أفكارهم، وأستثير مدافع غيرتهم ونيران عزائمهم بجميع شعبهم وعناصرهم وأسناخهم وأواصرهم، راغباً بعاطفة الإسلام إليهم، ناشراً عليهم دعوته لهم وصرخته فيهم وبغيته منهم، متوسّلاً بكلّ

وسائله أن يجدّوا ويجتهدوا، ويقوموا ولا يقعدوا، ويتذرّعوا ـ بعد الاعتماد على الله (سبحانه) ـ بكلّ الأسباب والعوامل والذرائع والوسائل في إعادة مجدهم المؤثّل والعود إلى مقامهم الأوّل.

ولا يتسنّى لهم ذلك إلّا بأن ينتبهوا من خدر الكسل إلى نشاط العمل، وينهضوا من وهدة الجهل إلى ذروة العلم، ويمتطوا صهوة المعارف وغارب الطلب، ويبذلوا النفس والنفيس دون التفاني على التمسّك بعرى هذا الدين، ويحملوه أشدّ ما يكون بكلتا اليدين، بل في القلوب وعلى الرأس والعين. فإنّ فيه معادن البركات وينابيع الخيرات وجماع السادات.

ألا وإنّه لهو الدين السعيد، دين الوحدة والتوحيد.

ألا وإنّه ما قامت قوائمه، ولا رسخت إلى عروق الثرى دعائمه، ولا هطلت بالبركات على أوليائه غمائمه، ولا أشرقت في العالم أنواره، ولا بزغت على البسيط شموسه وأقماره، ولا انبسط في الآفاق شعاعه، ولا امتدّ في المعمورة باعه، إلّا باستحكام عرى الوحدة والإخاء الديني والاتّحاد الصحيح الحقيقي، لا ما تسمعه من هلجات ألفاظ ولهجات أصوات.

ذاك الاتّحاد والإخاء هما أوّل بركة صبّها الإسلام على الداخلين فيه والآخذين به.

فقد كانت الثورات الدموية بين قبائل العرب وجاهليتهم من الأوس والخزرج وغيرهم قد صبغت وجه جزيرة العرب بالخجل والحياء من إراقة الدماء، وما جاء الإسلام حتّى جاءت كريمة قوله (تعالى): ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ

لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

بل لا أراك لو استقصيت النظر وتدبّرت نواميس هذه الشريعة المقدّسة إلّا واجداً أكثر مشروعاته وموضوعاته مبنية على هـذا الغـرض مـوعزة إلى هـذا القصد، لا تنحو إلّا إليه ولا تدلّ إلّا عليه.

وهذا جليٌّ ساطع لأوّل نظرة في وجوب الدفاع عـن دم المسـلم ومـاله وعرضه، وحرمة غيبته، وتشديد النهي عن ذكر عيبه، والإفك والبهتان عـليه، وقذفه، وإهانته، وهتك ستره بين الناس، حتّى لو ارتكب المعاصي والكبائر، إلّا من باب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر له بنفسه دون أن يذكره عند غيره.

وليس أمره بالمعروف ونهيه عن خلافه إلّا مـن بـاب وجـوب نـصيحته وإرشاده وتعليمه، وحرمة غشّه وخيانته، ووجوب حفظه وصيانته.

ثمّ لم تكتفِ هذه الشريعة المقدّسة (شريعة الوحدة والتوحيد) بهذا كلّه في ربط عواطف الإخاء والوحدة، حتّى ندبت وحثّت بأشدّ الندب والتـرغيب إلى عيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وزيارة الإخوان، وتهاديهم (لا بالرشى باسم: الهدية!)، وتكريمهم، والمصافحة، وإفشاء السلام، والتحيّة، ووجوب ردّها أو ردّها بأحسن منها، إلى غير ذلك ممّا يـضيق المـقام عـن حـصره وأنت العـليم بتفاصيل أمره.

ثمّ لم تكتفِ حتّى بكلّ ذلك دون أن فرضت في أمـوال الأغـنياء حـقوقاً للفقراء، بعد أن هوّن على أرباب الغنى بما ملأ به أسماعهم عـلى ألسـنة سـفراء وحيه وحملة أمره ونهيه، بأنّ المال كلّه لله ومن الله، وهـو وارث الأرض ومـن

---

(١) سورة آل عمران ٣: ١٠٣.

عليها، وأنّه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده، وأنّه يضاعفه أضعافاً مضاعفة.

ثمّ تنازل ـ وهو رفيع الدرجات ـ حتّى جعل نفسه مقترضاً من خلقه مستربحاً على عباده: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾[1].

ثمّ قال (جلّت نعماؤه): ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء﴾[2].

مع ما في ذلك من كسر سورة القسوة والجفاء وعلاج رذيلة الحرص.

كلّ ذلك إيعازاً إلى عقد روابط الاتّحاد وتحريك عواطف الأُخوّة بين جميع أفراد عناصر الأُمّة: فقيرها وغنيها، ضعيفها وقويها.

ثمّ زاد ذلك تأكيداً وأكّده مزيداً بما ندبته بل أوجبته هذه الشريعة من سنّة اجتماع المتجاورين في مباءة واحدة كلّ يوم وليلة عدّة مرّات، ثمّ أهل البلاد كافّة في كلّ أُسبوع، وسائر الأُمّة على الاختلاف والتعاقب كلّ عام.

كلّ ذلك لغاية أن تتعارف الأفراد، وتلتئم الشعوب، وتتوحّد الأجسام والأشباح توحّداً عساه يدبّ إلى القلوب والأرواح.

كلّا، فأرجع البصر وأعد النظر فيما قدّمناه من تلك الفرائض والحقوق التي فرضها الإسلام للفقراء في أموال أهل الغنى والثراء التي يجهل الساقطون في رذيلة الحرص نفوذ تأثيرها في رقيّ الأُمم وعلوّها وثروتها ونموّها فرداً

---

(١) سورة البقرة ٢: ٢٤٥.

(٢) سورة البقرة ٢: ٢٦١.

وجماعةً، أدبياً وماديّاً، جوهرياً وعرضياً.

ألا تنظر إلى هذه الأُمم الراقية برقيّها الطريف وتمدّنها الحديث كيف انتبهت لتلك الجرايات ووضع تلك الفروض المالية، حيث قصرت شريعتها عن تشريع مثله، فأخذت تنشئ المستشفيات و(البيمارستانات) وكثيراً من المشروعات والشركات، وتخصّص أرباحها كلّاً أو بعضاً لتوسعة مدارسها ومكاتبها وكنائسها، ونشر أديانها ومعارفها، وعمارة كلّياتها، وترقّي كمالاتها. ثمّ تخصّص طائلاً من أرباح شركاتها لخصوص دعاة دينها وحماة ملّتها، ونشر أناجيلها على أيدي المبشّرين والمرسلين إلى أطراف الأرضين وأقاصي المعمورة.

هذا بعض مساعي الشعب والدهماء منهم لأديانهم.

أمّا لو عطفت النظر إلى ذات دولهم وما تبذله من القناطير المقنطرة والملايين من الذهب والفضّة في ذلك السبيل لأعجزك الإحصاء، وأوقفك البهر موقف الدهشة والحيرة!

أمّا الإسلام ـ ويا حرسه الله ـ فمن إحدى معجزاته وكبرى كراماته أنّه ما زال بعد أهليه الأوّلين يدعو إلى نفسه بنفسه، ويحامي عن ذاته بذاته، ويذبّ عن عرضه بجوهره، ويستنير في ظلمات المذاهب والأديان بأوضاحه وغُرره.

أمّا نحن ـ ونحن الذين نزعم أنّنا أهله اليوم ـ فما أغناه عنّا!

بل ويا ليت الإسلام سلم منّا، فنكون كفافاً لا عليه ولا له، لا ننفّر بسوء أفعالنا عنه، ولا نُدخل فيه ما ليس منه، فنشوّه مليح محيّاه وجميل سجاياه!

ثمّ بين غضون القرون وفي حقائب الحقب لو اتّفق على الندرة نهوض ذي حميةٍ إسلامية يحامي عن الإسلام أو يدعو إليه، فأخوف ما يخافه على نفسه

نفس الأقربين منه والمنتمين إليه !

نعم، لا يخاف إلّا سيل تلعته[١] ، ولا يحذر إطفاء جمرته إلّا من طائفته !

ألا وإنّ غاية الغرض وأقصى القصد من دعواتنا هذه هو نصيحة إخواننا المسلمين كلّاً وتنبيههم كافّة إلى ما يعلمون به ـ وهم ذاهلون عنه ـ من أنّ الإسلام قد عاد غريباً كما بدأ، على ما أنبأ عنه الصادع به ﷺ[٢].

والإسلام في أشدّ الحاجة اليوم إلى ما كان محتاجاً إليه بالأمس من اتّحاد الكلمة، وجمع شتات عناصر الأُمّة، والتحزّب والتألّف بجامعة كلمة التوحيد المقدّسة، والتعاون والتعاضد بقوّة العلم وسطوة العمل ومدافع الهمم ومناور العزائم؛ نصرةً لله الذي ضمن نصرة من نصره وإعزاز من أعزّ دينه وعزّره[٣]: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٤]، «استنصركم لا من ذلٍّ، واستقرضكم لا من قلٍّ»، «استنصركم وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الكريم»[٥].

فالله الله ـ يا عباد الله ـ في حظوظكم من السعادة التي ساقها الله إليكم

---

(١) التَلْعة من الوادي: ما اتّسع من فوّهته. (جمهرة اللغة ١: ٤٠٣).

(٢) قارن: مسند أحمد ١: ١٨٤، صحيح مسلم ١: ١٣٠ و١٣١، مسند أبي يعلىٰ ٢: ٩٩، المعجم الأوسط للطبراني ٤: ٦٥ و٥: ٤٧٨ و٦: ٣٧٧، مجمع الزوائد ٧: ٢٧٧ و٢٧٨، مختصر إتحاف السادة المهرة ٥: ٤٥٩، بأدنىٰ تفاوت.

(٣) التعزير: النصرة. (العين للفراهيدي ١: ٣٥١).

(٤) سورة محمّد ٤٧: ٧.

(٥) هذا مقطع من إحدىٰ خطب نهج البلاغة ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

ولكن ورد: (فلم يستنصركم من ذلّة ولم يستقرضكم من قُلٍّ) بدل: (استنصركم لا من ذلٍّ واستقرضكم لا من قُلٍّ)، و: (الحميد) بدل: (الكريم).

وصبّها عليكم وجعلها بين أيديكم رأفةً منه بكم ورحمة وحناناً عليكم لا حاجةً إليكم.

فعليكم بالصبر والمثابرة، والمكانفة والمكاثرة، والتعاطف والتآلف، وقمع ضغائن العصبية، وغضّ النظر عن الاختلافات العرضية.

فأنتم أهل الشهادتين وجامعة السعادتين، وليس اليوم في الأرض دين كدينكم، ولا قوانين كقوانينكم، ولا قرائح أفهام كقرائحكم.

فلا تكن غميزتكم فيكم وقوّتكم عليكم، فتفشلوا وتذهب ريحكم، بل تنفصم عراكم، وينقصم قراكم، وتهي قواكم، وتمكّنون عدوّكم منكم، وتفتّون في أعضادكم فتّاً، وتعودون كما قال (سبحانه): ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[1]، أحوج ما تكونون إلى عواطف المودّة وروابط المحبّة التي بها حياتكم ومنها ينابيع سعادتكم.

والله لي ولكم، فهو أقصى كلّ أمل وغاية كلّ عمل، وهو أرحم الراحمين.

[القسم الثاني من التتمّة الثالثة: دعوة موجّهة إلى المسيحيّين]

وحيث قد بثثت بعض دعواتي لإخواني المسلمين (ربط الله قلوبنا بروابط عرى الوحدة والتوحيد وألهمنا لصالحنا الإصابة والتسديد) فخليق بنا أن نعطف أعنّة أقلامنا إلى دعوة زملائنا المسيحيّين (جمعنا الله وإيّاهم على الهدى وكلمة الحقّ حيث كانت وأينما وجدت) فالله (جلّ شأنه) هو الشهيد أن ليس أقصى قصدنا وبغيتنا سوى ذلك، وليس عندنا تعصٌّ ولا عصبية لمحمّدية أو مسيحية،

(١) سورة الحشر ٥٩: ١٤.

ولكن ما دعونا إلّا إلى ما قادنا البرهان وساقنا إليه الدليل والوجدان، والله على ما نقول وكيل.

وحيث إلى أهل التثليث يساق في دعوتنا الحديث، فنحن قائلون لهم: يا أيّها الصيارفة النقّادة وأرباب القرائح الوقّادة، يا ذوي الأفكار الحصيفة والآراء المريرة، والعقول الحرّة والأوضاح في العلوم والغرّة، أنتم أيّها النياقدة والصيارف ومهرة العلوم والمعارف، أنتم يا خالعي ربقة التقليد وقيود الجمود، والمتأبّين عن التأبين باتّباع الآباء والأُمّهات والمتعدّين عن الوقوف على قديم العادات ومناواة الحقّ والمعاداة، أين تذهبون، وأنّى تصرفون، وكيف تؤفكون؟!

هذا الدين الحنيف، هذا المذهب الشريف، هذه الأعلام قائمة والسنن واضحة وأعلام الحقّ لائحة، هذه الشريعة المحمّدية، هذا التوحيد والأحدية، هذا الدين العربي، هذا القرآن والنبي، هذه النواميس الإلهية، هذا الدين والمدنية، هذه القوانين الحرّة والأُسس العقلية التي جاءت لتهذيب النوع البشري والقيام بكلّ صالحة، والدلالة على جميع أسباب سعادته، والارتقاء به من حضيض الجهل إلى أوج العلم والإدراك، وإخراجه من مشابهة العجماوات إلى مشابهة الأملاك.

ومن هنا كان (سلام الله عليه) رحمة للعالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين.

ومهما تقدّم أهل التمدّن الجديد والناشئة الحديثة من الغربيّين، وتأخّر عنهم في الحضارة والعمران سائر المسلمين، فما هو إلّا آية من آياته وبعض أنبائه وبيّناته؛ ليعلم المعتبرون والمتدبّرون أنّ الأخذ بشرائعه المطابقة للعقل الموافقة للفطرة يوجب الرقي والانتظام وإن كان ممّن لا يؤمن به، والاسترسال بها والتهاون فيها يستدعي الانحطاط وفساد النظم ولو كان من مصدّق له وموقن فيه.

ولا تحسبنّ هذا القول جزافاً فإنّ تراجم هذا القرآن الكريم وتفاسيره اليوم عند القوم ليس من المبالغة لو قيل: إنّها تنيف على ما عند المسلمين بكثير.

وبعد هذا كلّه، فيا هل ترى أنّ الأُمّة المسيحية قد قنعت منّا بذلك؟!

كلّا.

إذاً فما الذي يقنعها في إقامة الحجج وإيضاح المنهج وإراءة السبيل وتسجيل الدليل؟!

أتريد منّا أن نفتح لها أبواب السماوات، أو ننزّل عليها كتاباً من الله على أيدي سكّان بعض هذه الكواكب والكرات: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ**﴾[1]، أو نأتي لها بالمعجزات التي جاءت بها الأنبياء إلى أُممهم؟!

كلّا، وكلّا. ثمّ هيهات، وهيهات!

إنّ ذلك كان حيث كانت العقول معقولة، والفِطر فطيرة، والأفكار جامدة، والقرائح خامدة، والناس همجاً رعاعاً لا حظّ لهم من العقل ولا نصيب لهم في المعقولات، لا ينقادون إلّا بخارق للعادة خارج عن مجاري نواميس الطبيعة.

أمّا اليوم وما قبله وبعده والعقول بهذه الاستنارة والأفكار بما ترى من السعة والإدارة، فلا معجزة ولا حجّة على العبد سوى نفس هذه الديانة، وما اشتملت عليه من المشروعات والموضوعات المطابقة للعقل الموافقة للفطرة في أساس أُصولها وكثير من أركان فروعها.

فالعبد إن أعمل الفكرة وأجهد التعقّل أصاب الحقّ لا محالة، ولا سيّما بعد

(١) سورة النساء ٤: ١٥٣.

خلع رداء العصبية وفضّ أزرار أوزار الحمية الجاهلية اللتين في الأكثر هما السبب الوحيد في حيد المرء عن قصد سبيله وردّه عن الانتفاع بحياة عقله ومصباح فطنته ومقتضى فطرته.

ثمّ إن اعترف بعد الفكرة فاز، وإن جحد أو أعرض عن النظر فقد غلقت رهونه وأخفقت سراياه واستحقّ العقاب.

فالله الله يا عباد الله وأُمة (المسيح)!

ولا أقول: عباده؛ فإنّي لا أنبزكم بهذه الوصمة، ولا اتّهمكم بهذه التهمة، ولا أقول: إنّ عقولكم قصرت عن إدراك دحوضها، ولا إنّ حظوظكم من العلم لم تتّسع لسبر حضيضها مع وضوحها وبداهتها، ولا أستيقن أنّكم غفلتم عن كون (المسيح) (سلام الله عليه) هو مخلوق مثلكم مردود إليكم، ولا أنّ صحّة نبوّة (محمّد) (صلوات الله عليه) قد خفيت عليكم مع كلّ تلك المعجزات الباهرة للفطرة المستنيرة في العقول.

فالله الله يا عباد الله، لا تفوتنّكم السعادة الأبدية والحياة السرمدية، والنعيم الدائم، والمجد المؤبّد والسرور المخلّد!

الله الله يا عباد الله، ألا لا يكن حالكم معنا حال اليهود معكم في إصرارهم على العناد ومصادمة البديهة في إنكار نبوّة (عيسى)، ومباهتتهم بالتكذيب له والتشنيع عليه، وقولهم فيه تلك الأقوال الشنيعة، والتجاسر عليه بتلك الأفعال الفظيعة!

وقد رأيتم شريعة الإسلام كيف أعلنت بمجده وقامت بواجب حرمته واحترامه، وكيف أعطاه كتابنا الكريم حقّه من الثناء وأنزله منزلته من العظمة والرفعة إلى السماء.

وتأبى المروءة والتكرّم أن تقولوا في (محمّد) ﷺ ما لا يليق به ولا ينبغي له من الكذب على الله (معاذ الله) في دعوى الرسالة وزعم النبوّة، وقد كان في غنى عن ذلك بما عرفتم من صدقه وأمانته وجلالة قدره عند قومه، وهو الذي دون ما فيه ما قيل فيه في عصره (صلوات الله عليه):

فأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خُلقت منزّهاً من كلّ عيبٍ كأنّكَ قد خُلقتَ كما تشاءُ[1]

وأمّا وشرف الأديان وحرمة المذاهب، إنّ من أعظم الأسف الباهظ أن تسوء عندكم سخائم[2] اليهود وأحوالهم، ثمّ تصبحون مثلهم سواء بسواء! تأخذون أمثلتهم وتحتذون شاكلتهم حذو القذّة بالقذّة، وما هم منكم بواحدة، ولا يومكم منهم بواحد!

الله الله يا عباد الله، ألا لا يخدعنّكم عن الحقّ ويميلنّ بكم عن صوب الصواب مقالات بعض المنتسبين إلى النصرانية وما هم منها بشيء، المتّخذينها ستاراً وجنّة، وهم يطعنون في نحرها، ويركلون بأرجلهم في صدرها، ويدفعونها بكلتا يديهم!

وهم الطاعنون في شريعة الإسلام وشارعها بمطاعن تتوجّه بوحدة الملاك إلى شريعة النصارى، بل إلى كلّ شريعة من الشرائع الإلهية.

فتجدهم يسخرون بمعجزات (محمّد) ويستهزؤون بها استهزاءً يومي إلى السخرية بمعجزات جميع الأنبياء من (محمّد) و (عيسى) و (إبراهيم) و (موسى)

---

(١) الشعر لحسّان بن ثابت الأنصاري. لاحظ ديوانه ٦٣.
ولكن ورد: (مبرّءاً) بدل: (منزّهاً).

(٢) السخيمة: الحقد في القلب. (جمهرة اللغة ١: ٥٩٩).

(عليهم سلام الله جميعاً) ؛ إذ الجهة واحدة والمشابهة ثابتة.

وما حقيقة الحال في أُولئك القوم إلّا أنّهم قوم من الزنادقة والملاحدة والطبيعية والنيشرية المنكرين لأصل الصانع الحكيم المناوئين والناصبين العداء لكلّية المذاهب وكافّة الأنبياء.

وأما وشرف الأديان وعزّة النواميس الإلهية كلّها، إنّه لممّا يلزم ويحتم أن يتّفق جميع أهل الأديان والمذاهب ويكونوا يداً واحدة في قطع دابر هؤلاء الزنادقة والملاحدة، وتنقية الأرض من جراثيم أفرادها المهلكة وميكروبات كروبها القتّالة التي تعمل على أن تهلك الحرث والنسل، وتسعى في الأرض فساداً، و: ﴿اللّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

فلا ينخدع زملاؤنا المسيحيّون بأقوالهم وخدعهم، ولا يتّخذها (البروتستانيّون)[2] رأس مال لإغواء المسلمين وإضلالهم على أيدي رسلهم وألسنة دعاتهم!

فإنّ أقصى ما يحصل لهم من ذلك العناء أن يحيدوا بالناس عن الصراط المستقيم وطريقة الحقّ والعدل إلى ملّة الجور والفساد، ملّة الزندقة والإلحاد.

وأمّا الخروج عن الإسلام والدخول في النصرانية فذاك ممّا لم يكن، ولن

---

(١) سورة المائدة ٥: ٦٤.

(٢) البروتستانت: أصحاب الكنيسة الإنجيلية، إذ إنّهم يتبعون الإنجيل دون غيره، وفهمه لديهم ليس مقصوراً على رجال الكنيسة، إنّها ثورة في الفكر النصراني بدأها آريوس في القديم مروراً بنسطور اللذين يقولان: بأنّ المسيح ليس ابناً لله بل هو مخلوق له، وانتهاءً بالكثيرين الذين من أبرزهم لوثر كنغ (١٤٨٢ ـ ١٥٢٩م). وهم يستنكرون حقّ الغفران، والاستحالة، ومنع الصلاة للموتىٰ، وقصر سلطان الكنيسة في الوعظ والإرشاد، ومنع استعمال لغة غير مفهومة في الصلاة. مركز انتشارها: ألمانيا، وإنجلترا، والدانمارك، وهولندا، وسويسرا، والنروج، وأمريكا. (الموسوعة الميسّرة في الأديان ٥٠٣ و٥٠٧).

يكون أبداً!

وهذا من إحدى فضائل الإسلام وطوائله التي اختصّ وامتاز بها عن غيره.

فإنّك من أوّل انتشار نور الإسلام إلى يومك هذا لا تحصي أحداً عريقاً في الإسلام قد رجع عنه وصار يهودياً أو نصرانياً.

وما أكثر من اهتدى للإسلام منهم، بحيث لو أنّ أحد أفاضل المسلمين يفرغ وسعه لإفراد مؤلّف في هذه الخطّة لجاء مؤلّفاً فخماً، وأحصى منهم قدراً وافراً.

إذاً فما هذا العناء الشديد والاهتمام بما ليس عليه مزيد؟!

نعم، إنّ (البروتستانت) ـ ولا سيّما في أكثر أعمالهم الدينية ـ قد شوّشوا الأذهان وأوهنوا قاطبة الأديان حتّى ملّتهم ودينهم! فعسى الله أن يأتي بالفتح أو بأمر من عنده، فيكفّوا عن هذه الشرور والمضرّات وييأسوا من تلكم الطماعات، فإنّه أليق بمقامهم وأبقى لمجدهم، والله وليّ التوفيق لنا ولهم.

[دعاء خاتمة الكلام]

اللهمّ، وقد بذلت لجميع عبادك نصيحتي، وبلّغت إلى الكلّ دعوتي.

اللهمّ، وإنّي ـ بعونك وتوفيقك ـ لو حاولت وأردت أن أُضيف إلى هذا الجزء العشرات بل المئات من أمثاله ـ كلّ ذلك في شرف دين الإسلام وعزّته وكماله ومجده وأنّه هو الهداية العامّة للعالمين والرحمة والبركة والتتمّة والكمال لكلّ دين وجامعيته لأُصول العمران وحقيقة التمدّن والحضارة ـ لجريت ومضيت على ذلك سحابة عمري وأعوامي، لا سحابة شهري وأيّامي، ولما وقفت من فضلك اللهمّ ولا انقطعت! ولكن: «من لم ينتفع بالقليل لم ينفعه الكثير»، حديث

شريف[1]، يشهد به العقل والضرورة.

اللهمّ، وهذه نصائحي لخلقك ودعواتي إليك بين عبادك، مستشهداً بك ـ وأنت خير الشاهدين ـ على خلوص طويتي وصحّة قصدي ونيّتي ؛ غيرةً على دينك، ورغبةً في عفوك ورضوانك، وغريزةً أنت جبلتها على حبّ النجاة والسعادة لكلّ عبادك، عاملاً بجدّي وجهدي وأقصى كدّي ووكدي[2] على وحدة أهل توحيدك وتسالم كلّ خلائقك، متفانياً على دينك، متفادياً له بحياتي، وإنّها لأهون قطرة دم تراق في سبيلك.

اللهمّ، فإن قبلوا دعواتي هذه وأقبلوا عليها فبفضلك ولطفك، وإن ردّوها وتقايلوها فعندك احتسب عنائي.

وعلى كلٍّ، فلديك أملي ورجائي في حسن جزائي، يا غاية كلّ سؤال ونهاية كلّ مأمول، يا نعيمي وجنّتي ودنياي وآخرتي، يا أقصى أمل كلّ آمل، يا من لا يضيع لديه عمل عامل ولا تخفى عليه سريرة مستسر، يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين.

تمّ تسويد أصله في أوائل ربيع الثاني من شهور سنة الألف والثلاث مائة وثمانية وعشرين هجرية، على يد مؤلّفه : (محمّد الحسين بن علي بن الرضا بن موسى بن جعفر كاشف الغطاء) عن مبهمات الشريعة الغرّاء.

---

(١) ورد الحديث بلفظ : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير » في : مسند أحمد ٤ : ٢٧٨، شعب الإيمان للبيهقي ٦ : ٣٠٢١، مجمع الزوائد ٨ : ١٨٢، الدرّ المنثور ٨ : ٥٤٥، كنز العمّال ٣ : ٢٦٦، فتح القدير ٥ : ٤٦٠.

(٢) الوكد : القصد. (صحاح اللغة ٢ : ٥٥٣).

تصحيح ملاحظات واستقالة عثرات

نبدأ من ذلك بما وقع من السهو في بعض الآيات الكريمة. وقد أسلفنا لك أنّنا كنّا نورد ما نزيّن به جبهات صحائفنا من غرر الآيات الشريفة على ما هو العتيد لدينا والتليد في حافظتنا من دون طريف مراجعة وجديد ملاحظة.

ومن جري ذلك فقد يقع السهو منّا، فلا تجيء الآية على وجهها؛ لتغيير لفظ أو حرف أو حركة فيها، أو انخزال كلمة شريفة منها[1].

ونحن نستدرك هنا ما فات، ونستقيل تلك العثرات، ونجعل الاعتراف كفّارة سيّئاتنا ورائد حسناتنا إن شاء الله..

أمّا حذف واو العطف أو الفاء من بعض الآيات فذلك لأنّنا لم نذكر المعطوف عليه منها، وإنّما يلزم حيث يذكر أو يؤتى بتمام الآية، لا فيما يتعلّق الغرض بإيراد بعضها.

وهذا كإدخال حرف العطف أو الفاء اللذين ليسا من الآية لربطها بسياق الكلام المتعلّق بها.

وكل هذا ليس من تغيير الآية في شيء، وإنّه لمستعمل عند أرباب التأليف شائع ومتداول مستفيض، ولا سيّما عند الطبقة العليا من الكتّاب وأرباب الرسائل وعلية الفصحاء، فتتبّع وراجع.

على أنّ جزوات قليلة كهذه ـ وهي تشتمل على ما يناهز المائتين من الآي

---

(١) قد تمّ ـ والحمد لله ـ تصحيح جميع موارد الآيات في الكتاب.

ـ ليس بجلل أن يقع في بضع عشر موضع منها شيء من السهو والنسيان، وهما ـ وما أدري ـ الطبيعة الثانية أم الأُولى للإنسان ؟ ! ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾[١].

أمّا مواضع السهو والغفلة فيما عدا ذلك فكثير أيضاً.

ولكن قد يحسب من الغلط ما ليس منه، بل له وجه في العربية عوّلنا عليه وجرينا في بعض المواضع على نهجه وإن كان الشائع المألوف سواه.

❊ (منها): (صفحة ١١)[٢]: (نمهّد للمقدّمة أُمور).

قد يظنّ أنّ هذا غلط في العربية، وأنّ المتعيّن هو الوقف بالألف.

مع أنّ أكثر علماء العربية قد ذكروا في باب الوقف: أنّ في المنصوب ثلاث لغات: الوقف عليه بالسكون كالمرفوع والمجرور، والوقف بالألف، والوقف بالتنوين[٣].

حتّى إنّ (السكّاكي)[٤] في (صرف المفتاح)[٥] قال ما حرفه: (ولك على الجواز أن تقف على الألف بحيث يظهر منه أنّ السكون أولى).

ولكن ذكر غيره: أنّ الشائع هو الوقف بالألف.

وأقول: إنّ هذا لا ريب فيه، ولكن لا يصيّر غيره غير جائز.

هذا (الشريف الرضي)[٦] ـ وهو سيّد علماء العربية وأفصح من في عصره في شعره ونثره ـ خذ إليك ديوانه الأغرّ، وانظر في قصائده الساكنة الروي، مثل:

---

(١) سورة يوسف ١٢: ٥٣.

(٢) لقد غيّرت الصفحة التي ذكرها المؤلّف ﵀ لهذا المورد والموارد الآتية إلى ما هو موجود حالياً في هذه الطبعة الجديدة المحقّقة، فلاحظ.

(٣) لاحظ الإنصاف ٢: ٧٣٦.

(٤) تقدّمت ترجمته في ١٧٥ هـ ٢.

(٥) لم أقف في المفتاح على هذا اللفظ بعينه، ولكن راجع ص ١٢١ منه.

(٦) تقدّمت ترجمته في ج ١ ص ٤٢٦ هـ ٢.

التي يقول فيها:

ومــغانٍ أنــبت الحســن بــها هــيفاً تــرعاه عــيني وعــيد[١]

ويقول:.................. وذراهــا يــطلب النــجم صَــعُد[٢].

وكذلك أُرجوزته التي تتدفّق برونق البداوة العربية التي أوّلها:

أبـا نـزار تـفسد القـوم النـعم غفّلك الوجد وذكّاني العدم[٣]

ومن قوله فيها:

حيث ترى تلك المجالي والقمم يمسين غرباناً ويغدون رخـم[٤]

وفيها له نظائر كثيرة، كما في ساكنته الأُخرى من هذا الروي التـي يـقول فيها:

أليس أبــــونا أعــــزّ الورى جــــناباً وأكــرم خــالاً وعــمّ[٥]

وفيها:.................. فكــانَ بأنــف الديـاجي شـمم[٦].

إلى ما يضيق المقام عن إحصائه من شعره وشعر النـمرقة العـليا والطـراز الأوّل من أئمّة الشعراء، كالشيخ (أبي تمّام)، و(البحتري)، و(المتنبّي)[٧].

---

(١) ديوان الشريف الرضي ١: ٢٧٣.

(٢) المصدر السابق ١: ٢٧٤.

(٣) المصدر السابق ٢: ٣٢٦.

(٤) المصدر السابق ٢: ٣٢٧.

(٥) المصدر السابق ٢: ٣٧٨.

(٦) المصدر السابق ٢: ٣٧٧.

(٧) من شعر أبي تمّام قوله:

جـرّت له أسـماءُ حـبلَ الشـموسِ والوصلُ والهجرُ نعيمٌ وبوسُ... الخ.

←

وإنّما أوردت بعض الشواهد من شعر (الشريف)؛ لأنّي وإن كنت لا أُفضّله عليهم في الشعر كما لا أُفضّلهم عليه في مسلكه الخاصّ به من الحماسة والشموخ والرفعة والعزّة النبويّة والطلاوة والبداوة، ولكنّي أُقدّمه عليهم في استقامة اللسان وثقوب الذهن ونباهة الهاجس والمهارة في العربية طبعاً وصناعةً وعلماً وذوقاً وخاطراً وأدباً.

والغرض أنّ الوقف بالسكون في مثل ذلك أكثر من أن يحصى في الشعر والنثر من الطبقة العليا وما دونها.

وقد ورد في الشعر بكثرة يمتنع حملها على الضرورة، (فإنّ الضرورات مقدّرات لا مطّردات)، وما جاز في الشعر باطّراد جاز في النثر مثله.

ولولا ضيق المجال لأوردت لك ما يفغرك ويبهرك! على أنّ فيما ذكرنا غنىً وكفاية إن شاء الله.

وبناءً على هذا فقد ورد في هذه الجزوات كلمات من هذا القبيل، على أنّها لا تبلغ العقد الأوّل من الأنامل، ولا حاجة إلى التنبيه عليها بعد أن ذكرنا وجهها ومدخل صحّتها.

كما أنّنا ننبّه على ما لعلّه يحتاج إلى التنبيه من غيرها:

← لاحظ ديوان أبي تمّام ٣٧٤ ـ ٣٧٨.

ومن شعر البحتري قوله:

أبا حسن أنتَ وشكُ الأجلْ ... وثكلُ الغنىٰ وانتقال الدولْ ... الخ.

راجع ديوان البحتري ٢: ٢٥٩.

ومن شعر المتنبّي قوله:

أزائرٌ يا خيالُ أم عائدْ ... أمْ عند مولاكَ أنّني راقدْ ... الخ.

انظر ديوان المتنبّي ٢: ١٧٣ ـ ١٨٢.

❊ (صفحة ١٠): (فلنحتكك غرائز العقول).

هو من: أحكّني فحككته، لا من احتكّ الأجرب بالخشبة واحتكّت الدابّتان، فلا يتعدّى فيها.

❊ (العريق اللصيق)[1].

أصل معنى اللصوق ـ كما هو ظاهر ـ: الاتّصال الشديد والربط المحكم المعبّر عنه: باللزق.

وهو المراد في هذا الموضع وأمثاله، حيث يعطف على العريق، أي: الأصيل بالشيء المتّصل به أشدّ اتّصال.

أمّا اللصيق بمعنى: الدعي في الشيء أو الأجنبي منه، فهو مجاز لا يستعمل إلّا في موارد تقوم فيها القرائن والأمارات.

قال في (الأساس): (ومن المجاز: فلان مُلَصق أو لصيق: دعيٌّ)[2]، فلا يتوهّم.

❊ اتّفق لنا في موردين أو ثلاث استعمال الوعز والإيعاز بمعنى: الإشارة، حيث نقول مثلاً في (صفحة ٣٦): (إيعازاً إلى العصمة وإيماءً إلى وجوب المعجزة)، وكذا في غيره.

والمعروف من الإيعاز: التقدّم بالشيء، فيقال: أوعزت إلى فلان، أي: تقدّمت إليه بكذا.

ولكن في كثير من المعاجم ما هذا نصّه: (وعز إليه في كذا يعز وعزاً: تقدّم وأشار)[3].

---

(١) ورد في ص٤٥١.

(٢) أساس البلاغة ٤٠٨. وورد: (و) بدل: (أو).

(٣) قارن: صحاح اللغة ٣: ٩٠١، لسان العرب ١٥: ٣٤٤، القاموس المحيط ٢: ٢٠٢.

وعليه، فلا إشكال.

كما أنّنا قد استعملناه بمعنى: التقدّم كثيراً.

وقد نستعمل الوسط بمعنى: البيئة والمحيط؛ لأنّه ورد فيها هكذا: وسط القوم والمكان يسطهم وسطاً وسطة: جلس وسطهم، فهو واسطة.

وقالوا في البيئة: إنّها المنزل[1].

وهما ـ كما ترى ـ يتقاربان أو يستويان.

* المطابقة بين المبتدأ والخبر في التذكير والتأنيث غير معتبرة في كلّ مورد.

والنحويّون يقولون: (الكلمة قول مفرد)[2].

وقولنا (صفحة ٩٥): (والوقفة عند تلك الاحتمالات مخلٌّ بنظام الكون) إنّما المراد عمل مخلٌّ أو شيء أو شبه ذلك من الأسماء العامّة، كما يدلّ المقام عليه.

* وقع في كلامنا استعمال (أراكين) في مقام أو مقامين[3].

وهو جمع أركون: الدهقان العظيم[4].

* (صفحة ٢٨٧): (كأنّ ذلك تحقيقاً لقول ذلك الوديع).

هو مفعول مطلق مسلّط عليه عامل من لفظه واجب الحذف، على نحو: (سقياً ورعياً). والغرض التأكيد (كأنّ ذلك محقّق تحقيقاً).

* قد استعملنا مادّة (التحوير) في موردين أو ثلاث.

---

(١) راجع: العين للفراهيدي ٨: ٤١١، صحاح اللغة ١: ٣٧.

(٢) انظر: أوضح المسالك ١: ٢٠ ـ ٢١، شرح شذور الذهب ١١، قطر الندى ١١، شرح ابن عقيل ١: ١٦.

(٣) لاحظ ص٩٦ و ٢٤٠ من الكتاب.

(٤) لاحظ: تهذيب اللغة ١٠: ١٠٩، القاموس المحيط ٤: ٢٣١.

وأصل التحوير: الرجوع، والنقص، والرد[١]، وكلّها متقاربة.

فقلنا (صفحة ٦١): (تحوّرت الأديان عن صبغتها الأُولى).

نريد: أنّها رجعت وردّت.

وكذلك قد استعملناها في مقام آخر، حيث نقول آخر (صفحة ١٩١): (نعم، قد بلغ البيان منهم في نفوذ التأثير وامتلاك التبديل والتغيير وتحوير صفات المجتمع). أي: ردّ صفات المجتمع.

فإن كان للتحوير معنى مولّد فذاك لا نعرفه، ولم نستعمل هذه الحروف فيه.

* قلنا في (صفحة ٢٦٩): (والبدر الذي لا يسري إليه السرار والكسوف).

قد يحسب أنّ الأنسب هنا (الخسوف). ولكن الأصل في الخسوف: الإساخة والذهاب[٢]: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾[٣]، وخسف الله الأرض: أساخها.

والأصل في الكسوف: الحجب والتغيير[٤]. وهو يجري في الشمس والقمر على سواء، كما صرّح به اللغويّون[٥].

---

(١) راجع صحاح اللغة ٢: ٦٣٨و٦٣٩.

(٢) قارن تهذيب اللغة ٧: ٨٥.

(٣) سورة القصص ٢٨: ٨١.

(٤) انظر القاموس المحيط ٣: ١٩٦.

(٥) كالأزهري في تهذيب اللغة ١٠: ٤٥و٤٦، والفيّومي في المصباح المنير ٥٣٣، والزّبيدي في تاج العروس ٢٤: ٣٠٨.

وفي قول (جرير)[١]: الشمس طالعة ليست بكاسفة[٢].. الخ، شاهد له، حيث جعل القمر والنجوم مكسوفة.

وعلى هذا، فمن راجع المقام يتّضح له أولوية استعمال الكسوف، أو عدم مناسبة الخسوف أصلاً، فتلطّف.

❊ استعملنا (احتار) في (صفحة ١٢٣) قياساً على اختار واجتاز. وإن كنّا لم نتحقّق ورودها في اللغة.

فإن لم يكن لها وجه صحّة فليكن مكانها (أحار).

❊ قلنا في (صفحة ١٤٥): (ولكن على أنّ كلامه فيها على الحال التي وصفنا).

وقد يُحسب أنّ (على) تفيد معنى (لكن) من الاستدراك.

وليس الأمر كذلك؛ فإنّ (على) هنا ليست للاستدراك، بل للمبالغة والترقّي، مثلها في قولك: فلان فاضل، ولكن على أنّه في غاية الفضل لا يبلغ مرتبة فلان.

---

(١) أبو حَزْرَة جرير بن عطيّة بن الخَطَفَىٰ بن بدر بن سلمة بن عوف التميمي البصري الشاعر الشهير. مدح يزيد بن معاوية وخلفاء بني أُمية، وشعره مدوّن. اختلف الناس في تفضيله على الفرزدق. وكان له عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور، ثلاثة منهم شعراء، أشعرهم بلال. وكان من أعقّ الناس لأبيه. توفّي باليمامة سنة ١١٠ هـ، بعد موت الفرزدق بشهر واحد.

(الأغاني ٨: ٣ـ٨٨، سمط اللآلي ٢٩٢، وفيات الأعيان ١: ٣٢١ـ٣٢٧، سير أعلام النبلاء ٤: ٥٩٠ـ٥٩١، مرآة الجنان ١: ١٨٥ـ١٨٧، البداية والنهاية ٩: ٢٦٠ـ٢٦٥، خزانة الأدب ١: ٩٠ـ٩٣، شذرات الذهب ١: ١٤٠ـ١٤١).

(٢) البيت هكذا:

فالشمس كاسفةٌ ليست بطالعةٍ   تبكي عليكَ نجومَ الليلِ والقمرَا

لاحظ: ديوان جرير ٣٣٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧: ٨٧.

انظر كيف ينبتر الكلام ويقلق بحذفها.

ألا ترى كيف لا تغني واحدة عن الأُخرى ؟!

* في (صفحة ٥٦) استشهدنا على خرق نواميس الطبيعة أحياناً بما اشتهر من بقاء السمند[ل] في النار ... الخ.

ويقال: إنّ الفلاسفة من المتأخّرين ينكرونـ[ـها]، ويدّعون أنّها من مزاعم الأقدمين، وأنّ الدليل قام على خلافها.

وهذا إن ثبت لا يضرّ بالدعوى التي كنّا في صدد إثباتها.

وهب [أنّهم] أنكروا ذلك، أفينكرون أكل النعامة للجمر، وأكل الظباء للحنظل، وكلٌّ منهما مشاهد محسوس ؟!

وأمثلة انخراق النواميس الطبيعية لا تحصى ولا ينكرها حتّى الفلاسفة المتأخّرون. وما أكثر ما عجزوا عن تطبيقه على تلك النواميس ممّا يسمّونه: بفلتات الطبيعة[1]، ومنها الأعضاء الأثرية في الإنسان والحيوان!

ولوضوحها استغنينا عن إطالة الكلام فيها هنا وهناك.

* في (صفحة ٢٣٢) قلنا: (إنّ توراة اليهود غير توراة النصارى ... الخ).

نعم، هي غيرها؛ فإنّ توراة اليهود عبرانية، وهو اللسان الديني عندهم الذي لا يجوز تغييره لديهم، كالعربي في الإسلام، لا تجوز الصلاة والقرآن بغيره.

أمّا توراة النصارى فعند العرب عربية، وعند السريان سريانية، وهلمّ جرّاً، كلّ قوم بلغتهم.

وأيّ مغايرة تريد أكثر من هذا ؟!

---

(١) قارن: دائرة معارف القرن العشرين ١٦: ٥٠٨ وما بعدها، الموسوعة الميسّرة في الأديان ٢١٤.

على أنّ مَن سألناه من اليهود عن هذا الأمر كان يدّعي اختلاف الجوهر في مواضع أيضاً.

ولا غرابة في ذلك بعد أن كانت نفس الأناجيل مختلفة عند نفس النصارى، فإنجيل (البروتستانت) يغاير أناجيل سائر الفرق، والكنيسة الكاثولوكية والكرسي الرسولي يرفض إنجيل (البروتستانت) ويحرّم الصلاة به.

وأيّ اختلاف أعظم من هذا؟! وهل تجد عند فرق المسلمين مثل هذا في القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي تكفّل الله بحفظه؟!

* (صفحة ١٢): (سائرٌ يريد أن يطوي).

هو ابتداء كلام لتصوير الحال وضرب المثال، لا حال ممّا سبق.

أمّا غفلات الطبع أو المطبعة ومواقع سهوهما فنحن نرسم بعضها ونحيل معرفة الباقي إلى فطانة الناظرين، فإنّها ممّا لا تخفى عليهم؛ لوضوحها إن شاء الله...

وهذا قدر ما عثرنا عليه عند المراجعة بعد إنجاز الطبع، ونبّهنا على بعضه بعض الأفاضل.

ونحن لا نأمن على أنفسنا الغلط حتّى في تصحيح الغلط! وإن كان السهو والنسيان من جبّلة الإنسان، وتختلف في أفراده قلّة وكثرة.

فنحن نعترف أن نصيبنا منها الوافر وحظّنا منها الكثير، فعسى أن يكون الاعتراف كفّارة لخطايانا وماحياً لسواد سيّئاتنا ومقيلاً لسوء عثراتنا إن شاء الله.

على أنّنا نرغب إلى جميع من تصل إليه دعوتنا هذه من الأفاضل الكرام أن يوسعوها نقداً، ويتوغّلوا فيها محصاً وفحصاً ونظراً وبحثاً، ويجعلوا ذلك أكرم هدية منهم إلينا.

وأيّ هدية أنفس من هدية العلم والإفادة والإرشاد والدلالة!

سوى أنّ حاجتي إليهم وطلبتي منهم أن لا يتسرّعوا في الحكم، ولا يشدّدوا في النكير، فلعلّ لما أنكروه وجه صحّة ومخرجاً في العربية أو سنداً في الأُمور العقلية والمباحث النظرية، والعصمة لله وحده.

لا وربّك، نحن لا يهمّنا أن نرمى بالخطأ أو نكون قد أخطأنا أو نسينا ـ وإن كنت لا أُحبّ لنفسي سوى الإصابة والتثبّت ـ ولكنّي حريص أن لا يختفي مرادي ولا تحتجب عن القرّاء مقاصدي.

وقد ذكرت في (الجزء الأوّل صفحة ١٨٧): أنّ الدين أكبر وازع ورادع للنفوس، وأنّه يستحيل بدون الدين قمع الشرور من نفوس البشر.

وقد أقمنا البرهنة هنالك على ذلك بما حسبناه قد تجسّم حتّى صار يلمس بالكفّ ويُرى بالعيان.

ولكن قد يقصر البعض عن الإحاطة بتلك الجليّة، ويحسب أنّ الخاصّة والعلماء لو لم ينتهوا عن الشرور إلّا محافظة على صحّتهم وحياتهم التي لا يرون حياة بعدها لكفى طمعاً بحسن الذكر والمحمدة.

وهل هذا إلّا من الغفلة عمّا أردناه! فإنّ جوهر ما قلناه هناك أنّ هؤلاء الخاصّة والعلماء لو أمكنتهم خيانة أو جناية، وكانت تزيد في صحّتهم وطول حياتهم على الفرض، ولم تكن تخلّ بحسن ذكرهم للأمن من وقوف أحد عليها أبداً، فهل يُعدّ تركهم لها مع أمنهم من القصاص وموقف الجزاء إلّا سفهاً منهم من غير ما عوض ولا مكافأة؟! وهل يردع عن مثل هذه الشرور إلّا وازع الدين والاعتقاد بالجزاء الذي هو المسيطر على الإنسان وهو معه أينما كان وإن لم يكن معه أحد؟!

فحقّاً: «إنّ من لا إيمان له لا أمانة له»[1]!

أمّا من يعاف الشرّ لحسن جوهره وطيب نجره فقد ذكرناه في عدّة مواضع من الكتاب، منها (صفحة ٢٣ من الجزء الثاني)، وذكرنا: أنّه نـادر، والنـادر لا تناط به الأحكام، فتدبّر هذا، فإنّه حسبك وكفى.

---

(١) ورد الحديث بصيغة: «لا إيمان لمن لا أمانة له» في: مسند أحمد ٣: ١٣٥ و١٥٤ و٢١٠ و٢٥١، مشكاة المصابيح ١: ٥٣، مجمع الزوائد ١: ٩٦، ٢٩٢ و٣: ٨٣، الدرّ المنثور ١: ٤٢، ٢٩٥ و٢: ١٧٥، كنز العمّال ٣: ٦١ و٦٢، كشف الخفاء ٢: ٤٦٧.

فهرس المحتوىٰ

الفهارس الفنّية العامّة

فهرس الآيات

سورة البقرة (٢)

سورة آل عمران (٣)

سورة النساء (٤)

سورة المائدة (٥)

سورة الأنعام (٦)

سورة الأعراف (٧)

سورة الأنفال (٨)

سورة التوبة (٩)

سورة يونس (١٠)

سورة هود (١١)

سورة يوسف (١٢)

سورة الرعد (١٣)

سورة إبراهيم (١٤)

سورة الحجر (١٥)

سورة النحل (١٦)

سورة الإسراء (١٧)

سورة الكهف (١٨)

سورة مريم (١٩)

سورة طه (٢٠)

سورة الأنبياء (٢١)

سورة الحجّ (٢٢)

سورة المؤمنون (٢٣)

سورة النور (٢٤)

سورة الفرقان (٢٥)

سورة الشعراء (٢٦)

سورة النمل (٢٧)

سورة القصص (٢٨)

سورة العنكبوت (٢٩)

سورة الروم (٣٠)

سورة لقمان (٣١)

سورة السجدة (٣٢)

سورة الأحزاب (٣٣)

سورة سبأ (٣٤)

سورة فاطر (٣٥)

سورة يس (٣٦)

سورة الصافّات (٣٧)

سورة ص (٣٨)

سورة الزمر (٣٩)

سورة غافر (٤٠)

سورة فصّلت (٤١)

سورة الشورى (٤٢)

سورة الزخرف (٤٣)

سورة الجاثية (٤٥)

سورة الأحقاف (٤٦)

سورة محمّد (٤٧)

سورة الفتح (٤٨)

سورة الحجرات (٤٩)

سورة ق (٥٠)

سورة الذاريات (٥١)

سورة الطور (٥٢)

سورة النجم (٥٣)

سورة القمر (٥٤)

سورة الرحمن (٥٥)

سورة الحديد (٥٧)

سورة المجادلة (٥٨)

سورة الحشر (٥٩)

سورة الممتحنة (٦٠)

سورة الصف (٦١)

سورة الجمعة (٦٢)

سورة الطلاق (٦٥)

سورة التحريم (٦٦)

سورة الملك (٦٧)

سورة القلم (٦٨)

سورة الحاقّة (٦٩)

سورة المعارج (٧٠)

سورة الجنّ (٧٢)

سورة المدّثّر (٧٤)

سورة القيامة (٧٥)

سورة الإنسان (٧٦)

سورة النازعات (٧٩)

سورة عبس (٨٠)

سورة التكوير (٨١)

سورة المطفّفين (٨٣)

سورة العلق (٩٦)

سورة الزلزلة (٩٩)

سورة النصر (١١٠)

فهرس الروايات

فهرس الأعلام

فهرس الفرق والملل والنحل والقبائل

فهرس الأماكن والبقاع

فهرس الكتب الواردة في المتن

فهرس الأمثال

فهرس الأشعار*

الصدر	القافية	القائل	عدد الأبيات	الجزء والصفحة
منزلة	حجا		١	ج ١ ص ٣٦٣
وآفة	نجا	محمّد بن الحسين بن دريد	١	ج ١ ص ١٥١
إله	أجزاءُ		١	ج ٢ ص ٣١٣
من	أضاءوا	أبو البرج المرّي	٣	ج ٢ ص ٢٢٢
وأعرض	انطواءُ	أبو تمّام الطائي	٢	ج ١ ص ١١٥
غلب	الحكماءُ	أبو العلاء المعرّي	١	ج ٢ ص ٣٦٩
بالذي	الدواءُ		١	ج ١ ص ١٨٩
فأحسن	النساءُ	حسّان بن ثابت الأنصاري	٢	ج ٢ ص ٤٣٤
انظر	بأسمائِه		٧	ج ١ ص ٢٥٨
فقل	تشائِي		١	ج ١ ص ٤٦٩

(*) ذكرت في هذا المكان الأشعار العربية فقط، أمّا الفارسية فقد ورد أحد عشر بيتاً شعرياً فارسياً في الكتاب، واقتصر هنا على ذكر الصفحات التي وردت فيها الأبيات: ج ١ ص ٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٣، ٢٨٩، ٣٦٣، ٣٨٠، ٤٧٢، ٤٧٤ وج ٢ ص ٣٦٥.

فهرس أنصاف الأبيات

طرف البيت	القائل	الجزء والصفحة
إذا متّ عطشاناً فلا نزل القطرُ	أبو فراس الحمداني	ج ١ ص ١١٤
فالشمس كاسفة ليست بطالعةٍ	جرير	ج ٢ ص ٤٥٤
فكان بأنف الدياجي شممْ	الشريف الرضي	ج ٢ ص ٤٤٩
كدعوى آل حرب في زيادِ	صالح بن شيرداد	ج ٢ ص ٣٨٣
كرحم العير من ولد الأتانِ	ابن مفرّغ الحميري	ج ٢ ص ٣٨٣
كما انتفض العصفور بلّله القطرُ	مجنون ليلىٰ	ج ٢ ص ٢٢٢
مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معَهُ	لبيد	ج ٢ ص ١٩٣
وبات على النار الندى والمحلّقُ	الأعشىٰ [الكبير]	ج ٢ ص ١٩٢
وذراها يطلب النجم صعدْ	الشريف الرضي	ج ٢ ص ٤٤٩
وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ	أبو العتاهية	ج ١ ص ٢١٥
ولقد أمرّ على اللئيم يسبّني	رجل سلولي	ج ٢ ص ٢٤٦

فهرس المصادر

١ ـ القرآن الكريم.

﴿ حرف الألف ﴾

٢ ـ **الإبانة: الإبانة عن أُصول الديانة.**

تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم الأشعري المتوفّىٰ سنة ٣٢٤هـ / تحقيق: د. فوقية حسين محمود / نشر: دار الأنصار ـ القاهرة / الطبعة الأُولى ـ ١٣٩٧هـ.

٣ ـ **أبجد العلوم.**

تأليف: أبي الطيب صدّيق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني القِنّوجي البخاري الهندي المتوفّىٰ سنة ١٣٠٧هـ / تحقيق: أحمد شمس الدين / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٠هـ.

٤ ـ **إتحاف السادة المتّقين: إتحاف السادة المتّقين بشرح إحياء علوم الدين.**

تأليف: محبّ الدين أبي الفضل محمّد بن محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق

ابن مرتضىٰ الحسيني الزَبيدي الحنفي المتوفّىٰ سنة ١٢٠٥هـ / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٥ ـ الإتقان في علوم القرآن.

تأليف: جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر الكمال بن محمّد بن سابق الدين الخضيري السيوطي المتوفّىٰ سنة ٩١١هـ / تحقيق: محمّد أبي الفضل إبراهيم / نشر: مكتبة الشريف الرضي وبيدار وعزيزي ـ قم / الطبعة الثانية ـ ١٤١١هـ.

٦ ـ أجود التقريرات (تقريراً لأبحاث الشيخ النائيني المتوفّىٰ سنة ١٣٥٥هـ).

تأليف: أبي القاسم الموسوي الخوئي المتوفّىٰ سنة ١٤١٣هـ / طبع: مهر ـ قم.

٧ ـ الأحاديث القدسية.

إعداد: د. درويش جويدي / نشر: المكتبة العصرية ـ بيروت / ١٤٢٤هـ.

٨ ـ الأحاديث المشكلة في الرتبة.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن درويش الحوت البيروتي المتوفّىٰ سنة ١٢٧٦هـ / تحقيق: كمال يوسف الحوت / نشر: عالم الكتب ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٣هـ.

٩ ـ الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان.

تأليف: علاء الدين أبي الحسن علي بن بَلَبان بن عبدالله الفارسي المصري الحنفي المتوفّىٰ سنة ٧٣٩هـ / تعليق وتصحيح: جماعة من الفضلاء /

نشر : دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٧ هـ.

١٠ ـ إحقاق الحقّ: إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.

تأليف : ضياء الدين نور الله بن شريف الدين نور الله الحسيني المرعشي التستري المتوفّىٰ سنة ١٠١٩ هـ / تعليق : شهاب الدين المرعشي النجفي / نشر : مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـ قم .

١١ ـ الإحكام للآمدي: الإحكام في أُصول الأحكام.

تأليف : سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمّد بن سالم الآمدي التغلبي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٦١٣ هـ / تحقيق : إبراهيم العجوز / نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٥ هـ.

١٢ ـ الأخبار الطوال.

تأليف : أبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفّىٰ سنة ٢٨٢هـ / تحقيق : عبد المنعم عامر / مراجعة : د . جمال الدين الشيّال / نشر : مكتبة الشريف الرضي ـ قم / أُفست عن طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة / الطبعة الأُولى ـ ١٩٦٠ م .

١٣ ـ الاختصاص.

تأليف : أبي عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالمفيد وابن المعلّم المتوفّىٰ سنة ٤١٣ هـ / تحقيق : علي أكبر الغفاري / نشر : مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / الطبعة السادسة ـ ١٤١٨ هـ.

١٤ ـ أدب الدنيا والدين.

تأليف: أبي الحسن علي بن محمّد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي المتوفّىٰ سنة ٤٥٠ هـ / تحقيق: مصطفىٰ السقا / نشر: المكتبة الثقافية ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٩٥٥ م.

١٥ ـ الأدب المفرد.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي المتوفّىٰ سنة ٢٥٦ هـ / تحقيق: محمّد عبد القادر عطا / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٠ هـ.

١٦ ـ الأربعين في أُصول الدين.

تأليف: فخر الدين أبي عبدالله محمّد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي البكري الطبرستاني الشافعي المعروف بالفخر الرازي وبابن خطيب الري المتوفّىٰ سنة ٦٠٦ هـ / تحقيق: د. أحمد حجازي السقا / نشر: دار التضامن ـ القاهرة / ١٤٠٦ هـ.

١٧ ـ إرشاد الساري: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري.

تأليف: شهاب الدين أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني المصري الشافعي المتوفّىٰ سنة ٩٢٣ هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٨ ـ إرشاد الطالبين: إرشاد الطالبين إلىٰ نهج المسترشدين.

تأليف: جمال الدين المقداد بن عبدالله السيوري الحلّي المعروف بالفاضل المقداد المتوفّىٰ سنة ٨٢٦ هـ / تحقيق: مهدي الرجائي / نشر:

مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـ قم / ١٤٠٥ هـ.

١٩ ـ الإرشاد للجويني: الإرشاد إلىٰ قواطع الأدلّة في أُصول الاعتقاد.

تأليف: أبي المعالي عبد الملك بن عبدالله بن يوسف الجويني المعروف بإمام الحرمين المتوفّىٰ سنة ٤٧٨ هـ / تحقيق: أسعد تميم / نشر: مؤسّسة الكتب الثقافية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٥ هـ.

٢٠ ـ الإرشاد للمفيد: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالمفيد وابن المعلّم المتوفّىٰ سنة ٤١٣ هـ / تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم / نشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣ هـ.

٢١ ـ أساس البلاغة.

تأليف: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمّد بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفّىٰ سنة ٥٣٨ هـ / تحقيق: عبد الرحيم محمود / نشر: دار المعرفة ـ بيروت.

٢٢ ـ أساطين المرجعية العليا: أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف.

تأليف: د. محمّد حسين علي الصغير / نشر: مؤسّسة البلاغ ودار سلوني ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٤ هـ.

٢٣ ـ أسباب النزول للواحدي: أسباب النزول.

تأليف: أبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري الواحدي المتوفّىٰ سنة ٤٦٨ هـ / تحقيق: أيمن صالح شعبان / نشر: دار الحديث ـ القاهرة.

٢٤ ـ الاستبصار: الاستبصار فيما اختلف من الأخبار.

تأليف: أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي المعروف بشيخ الطائفة المتوفّىٰ سنة ٤٦٠ هـ / تحقيق: حسن الموسوي الخرسان / نشر: دار الكتب الإسلامية ـ طهران / الطبعة الرابعة ـ ١٣٩٠ هـ.

٢٥ ـ الاستيعاب: الاستيعاب في معرفة الأصحاب.

تأليف: أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمّد بن عبد البرّ النمري القرطبي المالكي المتوفّىٰ سنة ٤٦٣ هـ / تحقيق: علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٥ هـ.

٢٦ ـ أُسد الغابة: أُسد الغابة في معرفة الصحابة.

تأليف: عزّ الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الموصلي المعروف بابن الأثير الجزري المتوفّىٰ سنة ٦٣٠ هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٢٧ ـ أسرار الآيات.

تأليف: صدر الدين محمّد بن إبراهيم بن يحيىٰ القوامي الشيرازي المعروف بصدر المتألّهين المتوفّىٰ سنة ١٠٥٠ هـ / تحقيق: محمّد خواجوي وحبيب الله الموسوي / نشر: حبيب ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٠ هـ.

٢٨ ـ الإسلام في قفص الاتّهام.

تأليف: شوقي أبي خليل / نشر: دار الفكر ـ دمشق / الطبعة الخامسة ـ ١٤٠٢ هـ.

٢٩ ـ الإسلام والعقل.

تأليف: محمّد جواد مغنية / نشر: دار ومكتبة الهلال ودار الجواد ـ بيروت / ١٩٩١ م.

٣٠ ـ الإسلام والمسيحية: الإسلام والمسيحية في الميزان.

تأليف: شريف محمّد هاشم / نشر: مؤسّسة الوفاء ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٩ هـ.

٣١ ـ الإسلام يتحدّى: الإسلام يتحدّى (مدخل علمي إلىٰ الإيمان).

تأليف: وحيد الدين خان / تعريب: ظفر الإسلام خان / تحقيق: د. عبد الصبور شاهين / نشر دار البحوث العلمية ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٣٩٩ هـ.

٣٢ ـ الأسماء والصفات للبيهقي: كتاب الأسماء والصفات.

تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله بن موسى البيهقي النيسابوري الخسروجردي المتوفّىٰ سنة ٤٥٨ هـ / تحقيق: محمّد زاهد الكوثري الحنفي / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣٣ ـ أسنىٰ المطالب: أسنىٰ المطالب في أحاديث مختلفة المراتب.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن درويش الحوت البيروتي المتوفّىٰ سنة ١٢٧٦ هـ / تحقيق: محمود الأرناؤوط / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٢ هـ.

٣٤ ـ الإشارات والتنبيهات.

تأليف: أبي علي الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي

البخاري المعروف بالشيخ الرئيس المتوفّىٰ سنة ٤٢٨ هـ / تحقيق : د. سليمان دنيا / نشر : مؤسّسة النعمان ـ بيروت / ١٤١٣ هـ.

٣٥ـ الإصابة: الإصابة في تمييز الصحابة.

تأليف : شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني المتوفّىٰ سنة ٨٥٢ هـ / نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٣٦ـ أضواء على المسيحية.

تأليف : متولّي يوسف شلبي / نشر : الدار الكويتية ـ الكويت / الطبعة الثانية ـ ١٣٩٢ هـ.

٣٧ـ الاعتصام: الاعتصام بالسنّة.

تأليف : أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمّد اللخمي الشاطبي الغرناطي المتوفّىٰ سنة ٧٩٠ هـ / تحقيق : د. محمود طعمة حلبي / نشر : دار المعرفة ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٢٠ هـ.

٣٨ـ الاعتقاد والهداية: الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد.

تأليف : أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله بن موسى البيهقي النيسابوري الخسروجردي المتوفّىٰ سنة ٤٥٨ هـ / تحقيق : كمال يوسف الحوت / نشر : عالم الكتب ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٣ هـ.

٣٩ـ الاعتقادات.

تأليف : أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالصدوق المتوفّىٰ سنة ٣٨١ هـ / تحقيق : عصام عبدالسيّد / نشر : المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣ هـ.

٤٠ ـ الاعتقادات للراغب: الاعتقادات.

تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمّد بن المفضّل الراغب الأصفهاني المتوفّىٰ سنة ٥٠٢ هـ / تحقيق: د. شمران العجلي / نشر: مؤسّسة الأشرف ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٩٨٨ م.

٤١ ـ إعجاز القرآن للباقلاني: إعجاز القرآن.

تأليف: أبي بكر محمّد بن الطيّب بن محمّد بن جعفر بن القاسم البصري البغدادي الباقلاني المتوفّىٰ سنة ٤٠٣ هـ / تحقيق: محمّد شريف سكّر / نشر: دار إحياء العلوم ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٨ هـ.

٤٢ ـ الإعلام بوفيات الأعلام.

تأليف: شمس الدين أبي عبدالله محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي المتوفّىٰ سنة ٧٤٨ هـ / تحقيق: مصطفى علي عوض وربيع أبي بكر عبد الباقي / نشر: مؤسّسة الكتب الثقافية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣ هـ.

٤٣ ـ أعلام الدين: أعلام الدين في صفات المؤمنين.

تأليف: الحسن بن أبي الحسن علي بن محمّد بن الديلمي من أعلام القرن الثامن الهجري / تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم / الطبعة الثانية ـ ١٤١٤ هـ.

٤٤ ـ الأعلام للزركلي: الأعلام.

تأليف: أبي الغيث خير الدين الزِركلي المتوفّىٰ سنة ١٣٩٦ هـ / نشر: دار العلم للملايين ـ بيروت / الطبعة الثامنة ـ ١٩٨٩ م.

٤٥ ـ إعلام الورى: إعلام الورى بأعلام الهدى.

تأليف: أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي من أعلام القرن السادس الهجري / تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٧هـ.

٤٦ ـ الإعلان بالتوبيخ: الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ.

تأليف: شمس الدين محمّد بن عبد الرحمان السخاوي المتوفّىٰ سنة ٩٠٢هـ / تحقيق: فرانز روزنثال / ترجمة التحقيق: د. صالح أحمد العلي / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٧ ـ أعيان الشيعة.

تأليف: محسن بن عبد الكريم الأمين العاملي المتوفّىٰ سنة ١٣٧١هـ / تحقيق: حسن محسن الأمين العاملي / نشر: دار التعارف ـ بيروت / ١٤٠٣هـ.

٤٨ ـ الأغاني.

تأليف: أبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني المتوفّىٰ سنة ٣٥٦هـ / مراجعة: عبد الستّار أحمد فرّاج / نشر: دار الثقافة ـ بيروت.

٤٩ ـ الإقبال: الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة في السنة.

تأليف: رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن محمّد الحسيني المعروف بابن طاووس المتوفّىٰ سنة ٦٦٤هـ / تحقيق: جواد القيّومي الأصفهاني / نشر: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي ـ قم / الطبعة الثانية ـ ١٤١٨هـ.

٥٠ ـ الاقتصاد للطوسي: الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد.

تأليف: أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي المعروف بشيخ الطائفة المتوفّىٰ سنة ٤٦٠ هـ / نشر: دار الأضواء ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٦ هـ.

٥١ ـ الاقتصاد للغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد.

تأليف: زين الدين أبي حامد محمّد بن محمّد بن محمّد بن أحمد الغزالي الطوسي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٥٠٥ هـ / نشر: مكتبة الشرق الجديد ـ بغداد.

٥٢ ـ إكمال تهذيب الكمال: إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال.

تأليف: علاء الدين مُغلَطاي بن قليج بن عبدالله البكچري التركي الحنفي المتوفّىٰ سنة ٧٦٢ هـ / تحقيق: أبي عبد الرحمان عادل بن محمّد وأبي محمّد أُسامة بن إبراهيم / نشر: مكتبة الفاروق الحديثة ـ القاهرة / الطبعة الأُولىٰ ـ ١٤٢٢ هـ.

٥٣ ـ الإكمال لابن ماكولا: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنىٰ والألقاب.

تأليف: سعد الدين أبي نصر علي بن أبي القاسم هبة الله بن علي بن جعفر العجلي الجرباذقاني البغدادي المعروف بابن ماكولا المتوفّىٰ سنة ٤٧٥ هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٥٤ ـ الله والأنبياء في التوراة: الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم.

تأليف: د. محمّد علي البار / نشر: الدار الشامية ودار القلم ـ بيروت /

الطبعة الأُولى ـ ١٤١٠ هـ.

٥٥ ـ الله يتجلّىٰ في عصر العلم.

تأليف : نخبة من علماء أمريكا / تعريب : د. عبد المجيد سرحان الدمرداش / تعليق : د. محمّد جمال الدين الفندي / نشر : دار القلم ـ بيروت.

٥٦ ـ الألواح العمادية (ضمن الرسائل الثلاث لشيخ الإشراق): رسالة الألواح العمادية.

تأليف : شهاب الدين أبي الفتوح يحيىٰ بن حبش بن أميرك السهروردي المتوفّىٰ سنة ٥٨٧ هـ / تصحيح : نجف قلي حبيبي / نشر : جمعية الفلسفة ـ طهران / ١٣٩٧ هـ.

٥٧ ـ أمالي الصدوق: الأمالي، أو: المجالس.

تأليف : أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالصدوق المتوفّىٰ سنة ٣٨١ هـ / نشر : مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الخامسة ـ ١٤١٠ هـ.

٥٨ ـ أمالي الطوسي: الأمالي.

تأليف : أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي المعروف بشيخ الطائفة المتوفّىٰ سنة ٤٦٠ هـ / تحقيق : قسم الدراسات الإسلامية في مؤسّسة البعثة / نشر : دار الثقافة ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٤ هـ.

٥٩ ـ أمالي القالي: كتاب الأمالي.

تأليف : أبي علي إسماعيل بن القاسم بن عَيذون بن هارون بن موسى

القالي البغدادي المتوفّىٰ سنة ٣٥٦هـ / نشر: دار الكتاب العربي - بيروت.

٦٠ - أمالي المرتضىٰ: الأمالي في التفسير والحديث والأدب.

تأليف: أبي القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمّد الموسوي البغدادي المعروف بالمرتضىٰ وعلم الهدى المتوفّى سنة ٤٣٦هـ / تحقيق: محمّد بدر الدين النعساني الحلبي / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة - قم / ١٤٠٣هـ.

٦١ - الإمتاع والمؤانسة.

تأليف: أبي حيّان علي بن محمّد بن العبّاس التوحيدي المتوفّىٰ سنة ٤١٤ هـ / تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين / نشر: دار ومكتبة الحياة - بيروت.

٦٢ - الأمثال لابن سلّام: كتاب الأمثال.

تأليف: أبي عُبيد القاسم بن سلّام الهروي المتوفّىٰ سنة ٣٣٨هـ / تحقيق: د. عبد المجيد قطامش / نشر: دار المأمون للتراث - دمشق وبيروت / الطبعة الأُولى - ١٤٠٠هـ.

٦٣ - أمل الآمل.

تأليف: محمّد بن الحسن بن علي بن الحسين الحرّ العاملي المتوفّىٰ سنة ١١٠٤هـ / تحقيق: أحمد الحسيني / نشر: مكتبة الأندلس - بغداد.

٦٤ - الانتصار: كتاب الانتصار والردّ على ابن الراوندي الملحد.

تأليف: أبي الحسين عبد الرحيم بن محمّد بن عثمان الخيّاط المعتزلي المتوفّىٰ سنة ٣٠٠هـ / تصحيح واستدرك: د. نيبرج / طبع: المطبعة

الكاثوليكية - بيروت / ١٩٥٧ م.

٦٥ - **إنجيل لوقا: الإنجيل.**

كتابة: لوقا / ترجمة ونشر: جمعية الكتاب المقدّس في الشرق الأدنىٰ - بيروت / ١٩٧٢ م.

٦٦ - **الأُنس الجليل: الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.**

تأليف: مجير الدين أبي اليمن عبد الرحمان بن محمّد بن عبد الرحمان بن محمّد العليمي المقدسي الحنبلي المتوفّىٰ سنة ٩٢٨ هـ / نشر: المكتبة الحيدرية - النجف / ١٣٨٦ هـ.

٦٧ - **الأنساب للسمعاني: كتاب الأنساب.**

تأليف: أبي سعد عبد الكريم بن محمّد بن منصور التميمي السمعاني المتوفّىٰ سنة ٥٦٢ هـ / تحقيق: عبدالله عمر البارودي / نشر: دار الجنان - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤٠٨ هـ.

٦٨ - **الإنصاف: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويّين البصريّين والكوفيّين.**

تأليف: كمال الدين أبي البركات عبد الرحمان بن محمّد بن أبي سعيد الأنباري المتوفّىٰ سنة ٥٧٧ هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت / ١٤٠٩ هـ.

٦٩ - **الأنوار الساطعة: الأنوار الساطعة في المائة السابعة.**

تأليف: محسن أغا بزرك الطهراني المتوفّىٰ سنة ١٣٨٩ هـ / تحقيق: علي نقي منزوي / نشر: دار الكتاب العربي - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٣٩٢ هـ.

٧٠ـ الأنوار المحمّدية: الأنوار المحمّدية من المواهب اللدنية.

تأليف: أبي المحاسن يوسف بن إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن حسن بن محمّد النبهاني الشافعي المتوفّىٰ سنة ١٣٥٠هـ/ نشر: دار الإيمان ـ دمشق وبيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٥هـ.

٧١ـ أنوار الملكوت: أنوار الملكوت في شرح الياقوت.

تأليف: جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهّر الأسدي المعروف بالعلّامة الحلّي المتوفّىٰ سنة ٧٢٦هـ/ تحقيق: محمّد نجمي الزنجاني / نشر: مكتبة الشريف الرضي وبيدار ـ قم / الطبعة الثانية ـ ١٣٦٣هـ. ش.

٧٢ـ أوائل المقالات.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالمفيد وابن المعلّم المتوفّىٰ سنة ٤١٣هـ/ تحقيق: إبراهيم الأنصاري الزنجاني الخوئيني / نشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣هـ.

٧٣ـ أوضح المسالك: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك.

تأليف: جمال الدين أبي محمّد عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري المصري المتوفّىٰ سنة ٧٦١هـ/ تحقيق: د. هادي حسن حمّودي / نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت / الطبعة الرابعة ـ ١٤٢٠هـ.

٧٤ـ الإيضاح في شرح سقط الزند وضوئه.

تأليف: أبي زكريا يحيى بن علي بن محمّد بن الحسن الشيباني المعروف

بالخطيب التبريزي المتوفّىٰ سنة ٥٠٢ هـ / تحقيق : د. فخر الدين قباوة / نشر : دار القلم العربي - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤١٩ هـ.

٧٥ - **إيضاح المكنون: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.**

تأليف : إسماعيل بن محمّد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي المتوفّىٰ سنة ١٣٣٩ هـ / نشر : دار الفكر - بيروت / ١٤٠٣ هـ.

حرف الباء

٧٦ - **بحار الأنوار: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار.**

تأليف : محمّد باقر بن محمّد تقي بن المقصود علي المعروف بالمجلسي الثاني المتوفّىٰ سنة ١١١١ هـ / نشر : مؤسّسة الوفاء - بيروت / الطبعة الثانية المصحّحة - ١٤٠٣ هـ.

٧٧ - **البحر المحيط.**

تأليف : أثير الدين أبي عبدالله محمّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الحيّاني الأندلسي المتوفّىٰ سنة ٧٥٤ هـ / نشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت / الطبعة الثانية - ١٤١١ هـ.

٧٨ - **البدء والتاريخ.**

تأليف : أبي المطهّر بن طاهر المقدسي المتوفّىٰ سنة ٥٠٧ هـ / نشر : دار

صادر - بيروت.

٧٩ - البداية والنهاية.

تأليف: أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القرشي البصروي الدمشقي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٧٧٤هـ / نشر: مكتبة المعارف - بيروت / الطبعة الثالثة - ١٤١٣هـ.

٨٠ - البدر الطالع: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع.

تأليف: بدر الدين أبي علي محمّد بن علي بن محمّد بن عبدالله بن الحسن الشوكاني المتوفّىٰ سنة ١٢٥٠هـ / نشر: مطبعة السعادة - القاهرة / الطبعة الأُولى - ١٣٤٨هـ.

٨١ - البرهان للزركشي: البرهان في علوم القرآن.

تأليف: بدر الدين محمّد بن عبدالله الزركشي المتوفّى سنة ٧٩٤هـ / تحقيق: محمّد أبي الفضل إبراهيم / نشر: دار المعرفة - بيروت.

٨٢ - بصائر الدرجات: بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمّد.

تأليف: أبي جعفر محمّد بن الحسن بن فرّوخ الصفّار المتوفّىٰ سنة ٢٩٠هـ / نشر: مؤسّسة الأعلمي - طهران / ١٤٠٤هـ.

٨٣ - البصائر والذخائر.

تأليف: أبي حيّان علي بن محمّد بن العبّاس التوحيدي المتوفّىٰ سنة ٤١٤ هـ / تحقيق: د. وداد القاضي / نشر: دار صادر - بيروت / الطبعة الرابعة - ١٤١٩هـ.

٨٤ـ بغية الوعاة: بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنحاة.

تأليف: جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر الكمال بن محمّد بن سابق الدين الخضيري السيوطي المتوفّىٰ سنة ٩١١ هـ / تحقيق: محمّد أبي الفضل إبراهيم / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٣٩٩ هـ.

٨٥ـ البلاغة العربية.

تأليف: عبد الرحمان حسن جنكة الميداني / نشر: دار القلم ـ دمشق ودار الشامية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٦ هـ.

٨٦ـ بلوغ الإرب: بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب.

تأليف: محمود شكري عبدالله محمود الآلوسي البغدادي المتوفّىٰ سنة ١٣٤٢ هـ / تحقيق: محمّد بهجة الأثري / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٨٧ـ بهجة الآمال: بهجة الآمال في شرح زبدة المقال.

تأليف: علي بن عبدالله بن محمّد بن محبّ الله بن محمّد جعفر القراجه داغي العلياري التبريزي المتوفّىٰ سنة ١٣٢٧ هـ / نشر: بنياد فرهنك إسلامي ـ قم / طبع: المطبعة العلمية ـ قم / ١٤٠٨ هـ.

٨٨ـ البيان في عقائد أهل الإيمان.

تأليف: محمّد باقر بن محمّد حسين الشريعتي الأصفهاني / طبع: إحدىٰ المطابع بإيران.

٨٩ـ البيان والتبيين.

تأليف: أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ المتوفّىٰ سنة ٢٥٥ هـ / تحقيق: عبد السلام محمّد هارون / نشر: دار الفكر ـ بيروت.

٩٠ ـ بين الإسلام والمسيحية.

تأليف : أبي جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة محمّد بن أحمد بن عبد الرحمان الخزرجي القرطبي المتوفّىٰ سنة ٥٨٢ هـ / تحقيق : د. محمّد عبد الغني شامة / نشر : مكتبة وهبة ـ القاهرة / الطبعة الثانية.

٩١ ـ بين الدين والفلسفة: بين الدين والفلسفة في رأي ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط.

تأليف : د. محمّد يوسف موسى / نشر : العصر الحديث / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٨ هـ.

حرف التاء

٩٢ ـ تاج العروس: تاج العروس من جواهر القاموس.

تأليف : محبّ الدين أبي الفيض محمّد بن محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق ابْن مرتضىٰ الحسيني الزَبيدي الحنفي المتوفّىٰ سنة ١٢٠٥ هـ / تحقيق : عبد الستّار أحمد فرّاج / نشر : دار الهداية ـ الكويت / ١٣٨٥ هـ.

٩٣ ـ تاريخ آداب العرب.

تأليف : مصطفى صادق الرافعي المتوفّىٰ سنة ١٣٥٦ هـ / نشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت / الطبعة السادسة ـ ١٤٢٢ هـ.

٩٤ ـ تاريخ ابن معين: التاريخ.

تأليف : يحيى بن معين بن عون المري الغطفاني البغدادي المتوفّىٰ سنة ٢٣٣ هـ / رواية : العبّاس بن محمّد بن حاتم الدوري البغدادي المتوفّىٰ سنة ٢٧١ هـ / تحقيق : عبدالله أحمد حسن / نشر : دار القلم ـ بيروت .

٩٥ ـ تاريخ أبي الفداء: المختصر في أخبار البشر.

تأليف : عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيّوب المتوفّىٰ سنة ٧٣٢ هـ / تحقيق : محمود ديّوب / نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٧ هـ.

٩٦ ـ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: تاريخ الأدب العربي.

تأليف : كارل بروكلمان الألماني المتوفّىٰ سنة ١٩٥٦ م / تعريب : د . عبد الحليم النجّار / نشر : مؤسّسة دار الكتاب الإسلامي ـ قم / الطبعة الثانية .

٩٧ ـ تاريخ الإسلام للذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام.

تأليف : شمس الدين أبي عبدالله محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي المتوفّىٰ سنة ٧٤٨ هـ / تحقيق : د . عمر عبد السلام تدمري / نشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤١٧ هـ.

٩٨ ـ تاريخ أصبهان: ذكر أخبار أصبهان.

تأليف : أبي نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران المهراني الأصفهاني المتوفّىٰ سنة ٤٣٠ هـ / تحقيق : سيّد كسروي حسن / نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٠ هـ.

٩٩ ـ تاريخ بغداد: تاريخ مدينة السلام.

تأليف : أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي المتوفّىٰ سنة ٤٦٣ هـ / نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٠٠ ـ تاريخ الحضارات العامّ.

تأليف : جماعة من الباحثين الفرنسيّين / إشراف : موريس كروزيه / تعريب : يوسف أسعد داغر وفريد م . داغر / نشر : دار عويدات ـ بيروت / الطبعة الرابعة ـ ١٩٩٨ م .

١٠١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي: تاريخ الخلفاء.

تأليف : جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر الكمال بن محمّد بن سابق الدين الخضيري السيوطي المتوفّىٰ سنة ٩١١ هـ / تحقيق : محمّد محيي الدين عبد الحميد / نشر : مكتبة الشريف الرضي ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١١ هـ.

١٠٢ ـ تاريخ الطبري: تاريخ الأُمم والملوك.

تأليف : أبي جعفر محمّد بن جرير بن يزيد الطبري المتوفّىٰ سنة ٣١٠ هـ / تحقيق : عبدالله علي مهنّا / نشر : مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الأُولى المصحّحة ـ ١٤١٨ هـ.

١٠٣ ـ التاريخ الكبير: كتاب التاريخ الكبير.

تأليف : أبي عبدالله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري المتوفّىٰ سنة ٢٥٦ هـ / نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت / ١٤٠٧ هـ.

١٠٤ ـ **تاريخ مختصر الدول.**

تأليف: أبي الفرج غريغوريس بن أهرون الملطي المعروف بابن العبري المتوفّىٰ سنة ١٢٨٦ م / تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي / نشر: دار الرائد اللبناني ـ بيروت / ١٤٠٢ هـ.

١٠٥ ـ **تاريخ مدينة دمشق.**

تأليف: أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الدمشقي الشافعي المعروف بابن عساكر المتوفّىٰ سنة ٥٧١ هـ / تحقيق: علي شيري / نشر: دار الفكر ـ بيروت / ١٤١٥ هـ.

١٠٦ ـ **تاريخ المعتقدات: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية.**

تأليف: ميرسيا إلياد / تعريب: عبد الهادي عبّاس / نشر: دار دمشق ـ دمشق / الطبعة الأُولى ـ ١٩٨٦ إلى ١٩٨٧ م.

١٠٧ ـ **تاريخ اليعقوبي: كتاب التاريخ.**

تأليف: أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي المتوفّىٰ بعد سنة ٢٩٢ هـ / نشر: دار صادر ـ بيروت.

١٠٨ ـ **تأسيس الشيعة: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام.**

تأليف: أبي محمّد حسن بن هادي بن محمّد علي بن صالح الموسوي الصدر المتوفّىٰ سنة ١٣٥٤ هـ / نشر: مؤسّسة الأعلمي ـ طهران.

١٠٩ ـ **تأويلات أهل السنّة.**

تأليف: أبي منصور محمّد بن محمّد بن محمود الماتريدي السمرقندي

الحنفي المتوفّىٰ سنة ٣٣٣ هـ / تحقيق: د. محمّد مستفيض الرحمان / تصحيح وفهرسة: جاسم محمّد الجبوري / نشر: مطبعة الإرشاد ـ بغداد / ١٤٠٤ هـ.

١١٠ ـ تباشير الإنجيل والتوراة: تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمّد ﷺ.

تأليف: د. نصر الله عبد الرحمان أبي طالب / نشر: دار الوفاء ـ المنصورة (مصر) / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٥ هـ.

١١١ ـ التبصير في الدين: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين.

تأليف: أبي المظفّر طاهر بن محمّد الإسفرايني الشافعي المعروف بشفهور المتوفّىٰ سنة ٤٧١ هـ / تحقيق: كمال يوسف الحوت / نشر: عالم الكتب ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٣ هـ.

١١٢ ـ التبيان: التبيان في تفسير القرآن.

تأليف: أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي المعروف بشيخ الطائفة المتوفّىٰ سنة ٤٦٠ هـ / تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / أُفست عن مكتبة الأمين ـ النجف.

١١٣ ـ التبيان في إعراب القرآن.

تأليف: أبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري المتوفّىٰ سنة ٦١٦ هـ / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٨ هـ.

١١٤ ـ تبيين كذب المفتري: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري.

تأليف: أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الدمشقي الشافعي المعروف بابن عساكر المتوفّىٰ سنة ٥٧١ هـ/ نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت / ١٣٩٩ هـ.

١١٥ ـ التحرير الطاووسي: التحرير الطاووسي المستخرج من كتاب حلّ الإشكال في معرفة الرجال.

تأليف: جمال الدين أبي منصور الحسن بن زين الدين بن علي بن أحمد الجبعي العاملي المتوفّىٰ سنة ١٠١١ هـ/ تحقيق: فاضل عبّاس الجواهري / إشراف: محمود المرعشي النجفي / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١١ هـ.

١١٦ ـ تحف العقول: تحف العقول عن آل الرسول.

تأليف: أبي محمّد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني من أعلام القرن الرابع الهجري / تحقيق: علي أكبر الغفّاري / نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٤ هـ.

١١٧ ـ التحفة العسجدية: التحفة العسجدية فيما دار من الاختلاف بين العدلية والجبرية.

تأليف: الحسن بن يحيىٰ بن علي القاسمي المؤيّدي المتوفّىٰ سنة ١٣٤٣ هـ/ نشر: دار أبي أيمن ـ صنعاء.

١١٨ ـ التدوين في أخبار قزوين.

تأليف: عبد الكريم بن محمّد الرافعي القزويني من أعلام القرن السادس الهجري / تحقيق: عزيز الله العطاردي / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / ١٤٠٨هـ.

١١٩ ـ تذكرة الحفّاظ.

تأليف: شمس الدين أبي عبدالله محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي المتوفّىٰ سنة ٧٤٨هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٢٠ ـ التذكرة في الأحاديث المشتهرة: اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة.

تأليف: بدر الدين أبي عبدالله محمّد بن بهادر بن عبدالله الزركشي المتوفّىٰ سنة ٧٩٤هـ / تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٦هـ.

١٢١ ـ الترغيب والترهيب: الترغيب والترهيب من الحديث الشريف.

تأليف: زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري المتوفّىٰ سنة ٦٥٦هـ / تحقيق: إبراهيم شمس الدين / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٧هـ.

١٢٢ ـ تصحيح الاعتقاد: تصحيح اعتقادات الإمامية.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالمفيد وابن المعلّم المتوفّىٰ سنة ٤١٣هـ / تحقيق: حسين دركاهي / نشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣هـ.

١٢٣ ـ التعريفات للجرجاني: التعريفات.

تأليف: أبي الحسن علي بن محمّد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي المعروف بالسيّد الشريف المتوفّىٰ سنة ٨١٦ هـ / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٩ هـ.

١٢٤ ـ التعليقات على الشواهد الربوبية.

تأليف: هادي بن مهدي السبزواري المتوفّىٰ سنة ١٢٨٩ هـ / تحقيق: جلال الدين الآشتياني / نشر: مؤسّسة التاريخ العربي ـ بيروت.

١٢٥ ـ تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم.

تأليف: عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي المتوفّىٰ سنة ٧٧٤ هـ / تحقيق: محمّد حسين شمس الدين / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٩ هـ.

١٢٦ ـ تفسير البغوي: معالم التنزيل.

تأليف: أبي محمّد الحسين بن مسعود بن محمّد بن الفرّاء البغوي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٥١٦ هـ / تحقيق: خالد عبد الرحمان العكّ ومردان سوار / نشر: دار المعرفة ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٧ هـ.

١٢٧ ـ تفسير البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل.

تأليف: ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمّد البيضاوي الشيرازي المتوفّى سنة ٦٨٥ هـ / نشر: مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٠ هـ.

١٢٨ ـ تفسير الفخر الرازي: التفسير الكبير، أو: مفاتيح الغيب.

تأليف : فخر الدين أبي عبدالله محمّد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي البكري الطبرستاني الشافعي المعروف بالفخر الرازي وابن خطيب الري المتوفّىٰ سنة ٦٠٦ هـ / نشر : دار الفكر ـ بيروت / ١٤١٥ هـ.

١٢٩ ـ تفسير القرآن لصدر المتألّهين: تفسير القرآن الكريم.

تأليف : صدر الدين محمّد بن ابراهيم بن يحيىٰ القوامي الشيرازي المعروف بصدر المتألّهين المتوفّىٰ سنة ١٠٥٠ هـ / تحقيق : محمّد جعفر شمس الدين / نشر : دار التعارف ـ بيروت / الطبعة الثانية المحقّقة ـ ١٤١٩ هـ.

١٣٠ ـ تفسير الماوردي: النكت والعيون.

تأليف : أبي الحسن علي بن محمّد بن حبيب الماوردي الشافعي البصري المتوفّىٰ سنة ٤٥٠ هـ / تحقيق : السيّد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم / نشر : دار الكتب العلمية ومؤسّسة الكتب الثقافية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٢ هـ.

١٣١ ـ تفسير المنار: تفسير القرآن الحكيم.

تأليف : محمّد عبده بقلم محمّد رشيد رضا المتوفّىٰ سنة ١٣٥٤ هـ / نشر : دار المعرفة ـ بيروت / الطبعة الثانية .

١٣٢ ـ تقريب التهذيب.

تأليف : شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني المتوفّىٰ سنة ٨٥٢هـ / تحقيق : مصطفىٰ عبد القادر عطا / نشر :

دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤١٥ هـ.

١٣٣ ـ تقريب المعارف: تقريب المعارف في الكلام.

تأليف: أبي الصلاح تقي الدين بن نجم الدين بن عبيدالله الحلبي المتوفّىٰ سنة ٣٧٤ هـ / تصحيح: رضا الأُستادي / نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / ١٤٠٤ هـ.

١٣٤ ـ التكامل في الإسلام.

تأليف: أحمد أمين / نشر: دار المعرفة ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٤ هـ.

١٣٥ ـ تكملة أمل الآمل.

تأليف: أبي محمّد حسن بن هادي بن محمّد علي بن صالح الموسوي الصدر المتوفّىٰ سنة ١٣٥٤ هـ / تحقيق: أحمد الحسيني / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـ قم / ١٤٠٦ هـ.

١٣٦ ـ تلبيس إبليس.

تأليف: جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمّد البكري البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي المتوفّىٰ سنة ٥٩٧ هـ / تحقيق: د. السيّد الجميلي / نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت / ١٤٢٤ هـ.

١٣٧ ـ تلخيص الحبير: تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير.

تأليف: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني المتوفّىٰ سنة ٨٥٢ هـ / تحقيق: عبدالله هاشم اليماني المدني / نشر: دار المعرفة ـ بيروت.

١٣٨ ـ التمهيد لابن عبد البرّ: التمهيد لما في الموطّأ من المعاني والأسانيد.

تأليف : أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمّد بن عبد البرّ النمري الأندلسي المتوفّىٰ سنة ٤٦٣ هـ / تحقيق : مصطفىٰ أحمد العلوي ومحمّد عبد الكبير البكري / طبع : إحدى مطابع المغرب / ١٩٦٧ م .

١٣٩ ـ تنزيه الأنبياء والأئمّة.

تأليف : أبي القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمّد الموسوي البغدادي المعروف بالشريف المرتضىٰ وعلم الهدىٰ المتوفّىٰ سنة ٤٣٦ هـ / تحقيق : فارس حسّون كريم تبريزيان / نشر : بوستان ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٢ هـ .

١٤٠ ـ التنصير: التنصير (خطّة لغزو العالم الإسلامي).

تأليف : مجموعة من الباحثين / نشر : دار الحرمين ـ القاهرة / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٥ هـ .

١٤١ ـ تنقيح المقال: تنقيح المقال في علم الرجال.

تأليف : عبدالله بن محمّد حسن بن عبدالله المامقاني المتوفّىٰ سنة ١٣٥١ هـ / نشر : مؤسّسة آل البيت عليهم‌السلام لإحياء التراث ـ قم .

١٤٢ ـ تهافت التهافت.

تأليف : محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي المتوفّىٰ سنة ٥٩٥ هـ / تحقيق : أحمد شمس الدين / نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٢٤ هـ .

١٤٣ ـ تهافت الفلاسفة.

تأليف: أبي حامد محمّد بن محمّد بن محمّد بن أحمد الغزالي الطوسي الشافعي المتوفىٰ سنة ٥٠٥ هـ / نشر: دار المشرق ـ بيروت / الطبعة الرابعة ـ ١٩٩٠ م.

١٤٤ ـ التهذيب: تهذيب الأحكام في شرح المقنعة.

تأليف: أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي المعروف بشيخ الطائفة المتوفّىٰ سنة ٤٦٠ هـ / تحقيق: حسن الموسوي الخرسان / نشر: دار الكتب الإسلامية ـ طهران / الطبعة الرابعة ـ ١٣٦٥ هـ. ش.

١٤٥ ـ تهذيب تاريخ دمشق الكبير.

تأليف: عبد القادر بدران المتوفّىٰ سنة ١٣٤٦ هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٧ هـ.

١٤٦ ـ تهذيب التهذيب.

تأليف: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني المتوفّىٰ سنة ٨٥٢هـ / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٤ هـ.

١٤٧ ـ تهذيب الكمال: تهذيب الكمال في أسماء الرجال.

تأليف: جمال الدين أبي الحجّاج يوسف بن الزكي عبد الرحمان بن يوسف المِزّي الكلبي القُضاعي المتوفّىٰ سنة ٧٤٢ هـ / تحقيق: د. بشّار عوّاد معروف / نشر: مؤسّسة الرسالة ـ بيروت / الطبعة السادسة ـ ١٤١٥ هـ.

١٤٨ ـ تهذيب اللغة.

تأليف: أبي منصور محمّد بن أحمد الأزهري المتوفّىٰ سنة ٣٧٠ هـ / تحقيق: عمر سلامي وعبد الكريم حامد / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢١ هـ.

١٤٩ ـ التوحيد للصدوق: كتاب التوحيد.

تأليف: أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالصدوق المتوفّىٰ سنة ٣٨١ هـ / تحقيق: هاشم الحسيني الطهراني / نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم.

١٥٠ ـ التوحيد للماتريدي: كتاب التوحيد.

تأليف: أبي منصور محمّد بن محمّد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي المتوفّىٰ سنة ٣٣٣ هـ / تحقيق: د. فتح الله خليف / نشر: دار المشرق ـ بيروت.

حرف الثاء

١٥١ ـ الثقات لابن حبّان: كتاب الثقات.

تأليف: أبي حاتم محمّد بن حبّان بن أحمد التميمي البَستي المتوفّىٰ سنة ٣٥٤ هـ / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٣ هـ.

﴿ حرف الجيم ﴾

١٥٢ ـ جامع الأُصول: جامع الأُصول في أحاديث الرسول.
تأليف: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الموصلي المعروف بابن الأثير المتوفّىٰ سنة ٦٠٦ هـ / تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٣ هـ.
١٥٣ ـ جامع البيان: جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
تأليف: أبي جعفر محمّد بن جرير بن يزيد الطبري المتوفّىٰ سنة ٣١٠ هـ / تحقيق: صدقي جميل العطّار / نشر: دار الفكر ـ بيروت / ١٤١٥ هـ.
١٥٤ ـ جامع بيان العلم: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله.
تأليف: أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمّد بن عبد البرّ النَمَري القرطبي المالكي المتوفّىٰ سنة ٤٦٣ هـ / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١٥٥ ـ جامع الرواة: جامع الرواة وإزاحة الاشتباهات عن الطرق والإسناد.
تأليف: محمّد بن علي الأردبيلي الغروي الحائري من أعلام القرن الحادي عشر الهجري / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـ قم / ١٤٠٣ هـ.
١٥٦ ـ الجامع الصغير: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير.
تأليف: جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر الكمال بن محمّد بن سابق الدين الخضيري السيوطي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٩١١ هـ / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الرابعة.

١٥٧ ـ الجامع في تاريخ الأدب العربي الحديث: الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث).

تأليف: حنّا الفاخوري / نشر: دار الجيل ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٩٩٥م.

١٥٨ ـ الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم: الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم).

تأليف: حنّا الفاخوري / نشر: دار الجيل ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٩٩٥م.

١٥٩ ـ الجامع لأحكام القرآن.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي المالكي المتوفّىٰ سنة ٦٧١هـ / تحقيق: أحمد عبدالعليم البردوني / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الثانية.

١٦٠ ـ الجرح والتعديل: كتاب الجرح والتعديل.

تأليف: أبي محمّد عبد الرحمان بن أبي حاتم محمّد بن إدريس بن المنذر ابن داود بن مَهران التميمي الحنظلي الرازي المتوفّىٰ سنة ٣٢٧هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / أُفست عن مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند / الطبعة الأُولى ـ ١٣٧٢هـ.

١٦١ ـ الجمع بين رجال الصحيحين: كتاب الجمع بين رجال الصحيحين بخاري ومسلم لكتابي أبي نصر الكلاباذي وأبي بكر الأصبهاني.

تأليف: أبي الفضل محمّد بن طاهر بن علي المقدسي الشيباني المعروف

بابن القيسراني المتوفّىٰ سنة ٥٠٧ هـ / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٥ هـ.

١٦٢ ـ **جمهرة الأمثال.**

تأليف: أبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري المتوفّىٰ ما بعد الأربع مائة الهجرية / تحقيق: محمّد أبي الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش / نشر: دار الجيل ودار الفكر ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٨ هـ.

١٦٣ ـ **جمهرة اللغة.**

تأليف: أبي بكر محمّد بن الحسن بن دريد المتوفّىٰ سنة ٣٢١ هـ / تحقيق: د. رمزي منير البعلبكي / نشر: دار العلم للملايين ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٩٨٧ م.

١٦٤ ـ **جواهر الأدب: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب.**

تأليف: أحمد الهاشمي المصري المتوفّىٰ سنة ١٣٦٢ هـ / تصحيح وتحقيق: لجنة من الجامعيّين / نشر: مؤسّسة المعارف ـ بيروت.

١٦٥ ـ **الجواهر السنية: الجواهر السنية في الأحاديث القدسية.**

تأليف: محمّد بن الحسن بن علي بن الحسين الحرّ العاملي المتوفّىٰ سنة ١١٠٤ هـ / نشر: ياسين ـ إيران / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٢ هـ.

١٦٦ ـ **الجوهر الثمين: الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين.**

تأليف: عبدالله بن محمّد رضا بن شبّر بن حسن بن أحمد آل شبّر المتوفّىٰ سنة ١٢٤٢ هـ / نشر: مكتبة الألفين ـ الكويت / الطبعة الأُولى ـ

١٤٠٧هـ.

١٦٧ ـ الجوهر النضيد.

تأليف: جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهّر الأسدي المعروف بالعلّامة الحلّي المتوفّىٰ سنة ٧٢٦هـ / نشر: بيدار ـ قم / الطبعة الخامسة ـ ١٤١٣هـ.

حرف الحاء

١٦٨ ـ حاشية الجرجاني على المطالع: الحاشية على مطالع الأنظار في شرح طوالع الأنوار.

تأليف: أبي الحسن علي بن محمّد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي المعروف بالسيّد الشريف المتوفّىٰ سنة ٨١٦هـ / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـ قم.

١٦٩ ـ حاشية السبزواري على الحكمة المتعالية: الحاشية على الأسفار. (بهامش الحكمة المتعالية).

تأليف: هادي بن مهدي السبزواري المتوفّىٰ سنة ١٢٨٩هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الرابعة ـ ١٤١٠هـ.

١٧٠ ـ الحاشية على إلهيات الشرح الجديد: الحاشية على إلهيات الشرح الجديد للتجريد.

تأليف: أحمد بن محمّد الأردبيلي المعروف بالمقدّس الأردبيلي المتوفّىٰ

سنة ٩٩٢ هـ / تحقيق : أحمد العابدي / نشر : مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي ـ قم / الطبعة الثانية ـ ١٤١٩ هـ.

١٧١ ـ حاشية ملّا عبدالله على التهذيب: الحاشية على تهذيب المنطق والكلام للتفتازاني.

تأليف : نجم الدين عبدالله بن شهاب الدين حسين اليزدي الشهابادي المعروف بالملّا عبدالله المتوفّىٰ سنة ٩٨١ هـ / تعليق : مصطفىٰ الحسيني الدشتي / نشر : مؤسّسة إسماعيليان ـ قم / الطبعة الثانية ـ ١٣٦٣ هـ. ش .

١٧٢ ـ حقائق التأويل: حقائق التأويل في متشابه التنزيل.

تأليف : أبي الحسن محمّد بن الحسين بن موسى بن محمّد الموسوي البغدادي المعروف بالشريف الرضي المتوفّىٰ سنة ٤٠٦ هـ / شرح : محمّد الرضا آل كاشف الغطاء / نشر : قسم الدراسات الإسلامية في مؤسّسة البعثة ـ طهران / ١٤٠٦ هـ.

١٧٣ ـ الحكمة المتعالية: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة.

تأليف : صدر الدين محمّد بن إبراهيم بن يحيىٰ القوامي الشيرازي المعروف بصدر المتألّهين المتوفّىٰ سنة ١٠٥٠ هـ / نشر : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الرابعة ـ ١٤١٠ هـ.

١٧٤ ـ حلية الأولياء: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء.

تأليف : أبي نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران المهراني الأصفهاني المتوفّىٰ سنة ٤٣٠ هـ / نشر : دار الكتب العلمية بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٩ هـ.

١٧٥ ـ الحوزة العلميّة في النجف الأشرف.

تأليف: محمّد الغروي / نشر: دار الأضواء ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٤هـ.

١٧٦ ـ حياة الحيوان للدميري: حياة الحيوان الكبرىٰ.

تأليف: كمال الدين أبي البقاء محمّد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري القاهري المتوفّىٰ سنة ٨٠٨هـ / نشر: مكتبة ناصر خسرو ـ طهران.

١٧٧ ـ الحيوان الجاحظ: كتاب الحيوان.

تأليف: أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ المتوفّىٰ سنة ٢٥٥هـ / تحقيق: عبد السلام محمّد هارون / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

حرف الخاء

١٧٨ ـ خاصّ الخاصّ للثعالبي: خاصّ الخاصّ.

تأليف: أبي منصور عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري المتوفّىٰ سنة ٤٣٠هـ / تحقيق: مأمون محيي الدين الجنان / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٤هـ.

١٧٩ ـ **خزانة الأدب: خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب.**

تأليف: عبد القادر بن عمر البغدادي المتوفّىٰ سنة ١٠٩٣ هـ / تحقيق: د. محمّد نبيل طريفي / إشراف: د. إميل بديع يعقوب / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٨ هـ.

١٨٠ ـ **الخلاصة: خلاصة الأقوال في معرفة الرجال.**

تأليف: جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهّر الأسدي المعروف بالعلّامة الحلّي المتوفّىٰ سنة ٧٢٦ هـ / تحقيق: جواد القيّومي الأصفهاني / نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٥ هـ.

١٨١ ـ **الخلاف: الخلاف في الأحكام، أو: مسائل الخلاف.**

تأليف: أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي المعروف بشيخ الطائفة المتوفّىٰ سنة ٤٦٠ هـ / تحقيق: جواد الشهرستاني وعلي الخراساني الكاظمي ومحمّد مهدي نجف / نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / ١٤٠٩ هـ.

حرف الدال

١٨٢ ـ **دائرة المعارف الإسلامية.**

تأليف: مجموعة من الباحثين الأجانب / تعريب: أحمد الشنتناوي

وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس / مراجعة : د. محمّد مهدي علّام / نشر : دار الفكر ـ بيروت.

١٨٣ ـ دائرة المعارف الإسلامية الشيعية.

تأليف : حسن محسن الأمين العاملي المتوفّىٰ سنة ١٤٢٣ هـ / نشر : دار التعارف ـ بيروت / الطبعة السادسة ـ ١٤٢٢ هـ.

١٨٤ ـ دائرة المعارف الشيعية العامّة: مقتبس الأثر ومجدّد ما دثر من تاريخ البشر.

تأليف : محمّد حسين بن سليمان بن ولي الله بن أمر الله بن عبدالله الأعلمي الحائري المهرجاني المتوفّىٰ سنة ١٣٩١ هـ / نشر : مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤١٣ هـ.

١٨٥ ـ دائرة معارف القرن العشرين.

تأليف : محمّد فريد بن مصطفىٰ وجدي بن علي رشاد المتوفّىٰ سنة ١٣٧٣ هـ / نشر : دار الفكر ودار نوبليس ـ بيروت / ١٣٩٩ هـ.

١٨٦ ـ الدرجات الرفيعة: الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة.

تأليف : صدر الدين علي خان بن أحمد بن محمّد معصوم بن أحمد بن إبراهيم الحسيني المدني الشيرازي المتوفّىٰ سنة ١١٢٠ هـ / نشر : مؤسّسة الوفاء ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٣ هـ.

١٨٧ ـ الدرّ المنثور: الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور.

تأليف : جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر الكمال بن محمّد بن سابق الدين الخضيري السيوطي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٩١١ هـ / نشر : دار

الفكر ـ بيروت / ١٤٢٣هـ.

١٨٨ ـ **الدرر المنتثرة: الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة.**

تأليف: جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر الكمال بن محمّد بن سابق الدين الخضيري السيوطي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٩١١هـ/ تحقيق: محمّد عبد الخالق عبد القادر عطا / نشر: دار الاعتصام ـ القاهرة.

١٨٩ ـ **دستور العلماء: جامع العلوم في اصطلاحات الفنون.**

تأليف: عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري / تعريب: حسن هاني فحص / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢١هـ.

١٩٠ ـ **دقائق الإشارات: دقائق الإشارات إلىٰ معاني الأسماء والصفات.**

تأليف: عبدالله بن محمّد عبد القادر الأنصاري الخليلي الشافعي المعروف بابن قاضي الخليل المتوفّىٰ سنة ٧٢٤هـ/ تحقيق: عماد الدين حيدر / نشر: مؤسّسة الكتب الثقافية ودار الجنان ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٨هـ.

١٩١ ـ **دلائل التوحيد: كتاب دلائل التوحيد.**

تأليف: جمال الدين بن محمّد بن سعيد بن قاسم القاسمي الدمشقي المتوفّىٰ سنة ١٣٣٢هـ/ مراجعة: محمّد حجازي / نشر: مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة / طبع: مطبعة المدني / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٦هـ.

١٩٢ ـ **دلائل الصدق: دلائل الصدق لنهج الحقّ.**

تأليف: محمّد حسن المظفّر المتوفّىٰ سنة ١٣٧٥هـ/ تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ دمشق / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٢هـ.

١٩٣ ـ دلائل النبوّة للبيهقي: دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة.
تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي النيسابوري المتوفّىٰ سنة ٤٥٨ هـ / تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٥ هـ.

١٩٤ ـ دمية القصر: دمية القصر وعُصرة أهل العصر.
تأليف: علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي المتوفّىٰ سنة ٤٦٧ هـ / تحقيق: د. محمّد التونجي / نشر: دار الجيل ـ بيروت / الطبعة الأُولىٰ ـ ١٤١٤ هـ.

١٩٥ ـ دول الإسلام.
تأليف: شمس الدين أبي عبدالله محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي المتوفّىٰ سنة ٧٤٨ هـ / تحقيق: فهيم محمّد شلتوت ومحمّد مصطفىٰ إبراهيم / نشر: الهيئة المصرية العامّة للكتاب ـ مصر / ١٩٧٤ م.

١٩٦ ـ الدين الخالص.
تأليف: أبي الطيب صدّيق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني القِنّوجي البخاري الهندي المتوفّىٰ سنة ١٣٠٧ هـ / تحقيق: محمّد زهري النجّار / نشر: مكتبة العرفان ـ مصر.

١٩٧ ـ ديوان أبي تمّام.
شرح: أبي زكريا يحيى بن علي بن محمّد بن الحسن الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي المتوفّىٰ سنة ٥٠٢ هـ / تعليق: راجي الأسمر / نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤١٤ هـ.

١٩٨ـ ديوان أبي العتاهية.

تقديم وشرح: د. صلاح الدين الهواري / نشر: دار ومكتبة الهلال ودار البحار - بيروت / الطبعة الأُولى - ٢٠٠٤ م.

١٩٩ـ ديوان أبي فراس الحمداني.

شرح: د. خليل الدويهي / نشر: دار الكتاب العربي - بيروت / الطبعة الثانية - ١٤١٤ هـ.

٢٠٠ـ ديوان أبي نؤاس.

تحقيق وشرح: أحمد عبد المجيد الغزالي / إشراف: عزيز أباظة / نشر: دار الكتاب العربي - بيروت / ١٤١٢ هـ.

٢٠١ـ ديوان امرئ القيس.

تقديم وشرح: غَريد الشيخ / نشر: مؤسّسة الأعلمي - بيروت / الطبعة الأُولى المحقّقة - ١٤٢١ هـ.

٢٠٢ـ ديوان البحتري.

تقديم وشرح: د. يوسف الشيخ محمّد / نشر: دار الكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤٠٧ هـ.

٢٠٣ـ ديوان جرير.

تقديم وشرح: تاج الدين شَلَق / نشر: دار الكتاب العربي - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤١٣ هـ.

٢٠٤ـ ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري.

تقديم وشرح: عبد الرحمان البرقوقي / نشر: دار الكتاب العربي -

بيروت/ ١٤١٠هـ.

٢٠٥ـ ديوان الحطيئة.

تقديم وشرح: د. عمر فاروق الطبّاع / نشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ بيروت / ٢٠٠٠م.

٢٠٦ـ ديوان الحماسة.

شرح: أبي زكريا يحيى بن علي بن محمّد بن الحسن الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي المتوفّىٰ سنة ٥٠٢هـ/ نشر: دار القلم ـ بيروت.

٢٠٧ـ ديوان الشريف الرضي.

نشر: مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي ـ طهران / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٦هـ.

٢٠٨ـ ديوان طرفة: ديوان طرفة بن العبد.

تقديم وشرح: د. عمر فاروق الطبّاع / نشر: دار القلم ـ بيروت / ٢٠٠٢م.

٢٠٩ـ ديوان العذريّين.

شرح: د. يوسف عبيد / نشر: دار الجيل ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣هـ.

٢١٠ـ ديوان عمرو بن كلثوم.

جمع وتحقيق وشرح: د. إميل بديع يعقوب / نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١١هـ.

٢١١ـ ديوان عنترة.

تقديم وشرح: علي العسيلي / نشر: مؤسّسة النور ـ بيروت / الطبعة

الأُولى - ١٤١٩هـ.

٢١٢ - ديوان الفرزدق.

تقديم وشرح: علي خريس / نشر: مؤسّسة الأعلمي - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤١٦هـ.

٢١٣ - ديوان كثيّر عزّة.

تقديم وشرح: مجيد طراد / نشر: دار الكتاب العربي - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤١٣هـ.

٢١٤ - ديوان لبيد.

شرح: الطوسي / تقديم وتعليق: د. حنّا نصر الحِتّي / نشر: دار الكتاب العربي - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤١٤هـ.

٢١٥ - ديوان المتنبّي.

شرح وتعليق: مصطفىٰ سبيتي / نشر: دار الكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤٠٦هـ.

٢١٦ - ديوان مجنون ليلىٰ.

شرح: د. يوسف فرحات / نشر: دار الكتاب العربي - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤١٢هـ.

٢١٧ - الديوان المنسوب للأمير: ديوان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

جمع وترتيب وتحقيق: د. صابر القادري / نشر: المكتبة العصرية - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤٢٤هـ.

٢١٨ - ديوان النابغة الذبياني.

تقديم وشرح: د. حنّا نصر الحِتّي / نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١١ هـ.

حرف الذال

٢١٩ ـ الذخيرة: الذخيرة في علم الكلام.

تأليف: أبي القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمّد الموسوي البغدادي المعروف بالمرتضىٰ وعلم الهدى المتوفّى سنة ٤٣٦ هـ / تحقيق: أحمد الحسيني / نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / ١٤١١ هـ.

٢٢٠ ـ الذريعة: الذريعة إلىٰ تصانيف الشيعة.

تأليف: محسن أغا بزرك الطهراني المتوفّىٰ سنة ١٣٨٩ هـ / نشر: دار الأضواء ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٣ هـ.

٢٢١ ـ ذيل أمالي القالي: ذيل الأمالي والنوادر.

تأليف: أبي علي إسماعيل بن القاسم بن عَيذون بن هارون بن موسى القالي البغدادي المتوفّى سنة ٣٥٦ هـ / نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت.

حرف الراء

٢٢٢ ـ ربيع الأبرار: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار.

تأليف : جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمّد بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفّى سنة ٥٣٨ هـ / تحقيق : د. سليم النعيمي / نشر : مكتبة الشريف الرضي ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٠ هـ.

٢٢٣ ـ رجال ابن داود: كتاب الرجال.

تأليف : تقي الدين الحسن بن علي بن داود الحلّي المتوفّىٰ ما بعد سنة ٧٠٧ هـ / تحقيق : محمّد صادق بحر العلوم / نشر : مكتبة الشريف الرضي ـ قم / أُفست عن المطبعة الحيدرية ـ النجف / ١٣٩٢ هـ.

٢٢٤ ـ رجال الطوسي: كتاب الرجال.

تأليف : أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي المعروف بشيخ الطائفة المتوفّىٰ سنة ٤٦٠ هـ / تحقيق : جواد القيّومي الأصفهاني / نشر : مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٥ هـ.

٢٢٥ ـ رجال الكشّي: اختيار معرفة الرجال، أو: اختيار معرفة الناقلين.

تأليف : أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي المعروف بشيخ الطائفة المتوفّىٰ سنة ٤٦٠ هـ / تعليق : برهان الدين محمّد بن محمّد باقر الحسيني ميرداماد الإسترابادي المعروف بالمعلّم الثالث المتوفّىٰ سنة

١٠٤١ هـ / تحقيق : مهدي الرجائي / نشر : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم / ١٤٠٤ هـ.

٢٢٦ ـ **رجال النجاشي: فهرست أسماء مصنّفي الشيعة.**

تأليف : أبي العبّاس أحمد بن علي بن العبّاس النجاشي الأسدي المتوفّىٰ سنة ٤٥٠ هـ / تحقيق : موسى الشبيري الزنجاني / نشر : مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / الطبعة السادسة ـ ١٤١٨ هـ.

٢٢٧ ـ **الرحلة المدرسية: الرحلة المدرسية والمدرسة السيّارة في نهج الحقّ.**

تأليف : محمّد جواد البلاغي النجفي المتوفّى سنة ١٣٥٢ هـ / نشر : دار المرتضىٰ ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٩٩٣ م.

٢٢٨ ـ **رسائل إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء.**

تأليف : أبي سليمان محمّد بن معشر البستي المقدسي وأبي الحسن علي ابن هارون الزنجاني وأبي أحمد المهرجاني وأبي الحسن العوفي وزيد ابن رفاعة ، من أفاضل القرن الرابع الهجري / نشر : مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي ـ قم / ١٤٠٥ هـ.

٢٢٩ ـ **الرسائل الفلسفية لصدرا: مجموعة الرسائل الفلسفية.**

تأليف : صدر الدين محمّد بن إبراهيم بن يحيىٰ القوامي الشيرازي المعروف بصدر المتألّهين المتوفّى سنة ١٠٥٠ هـ / نشر : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الأُولى المنقّحة ـ ١٤٢٢ هـ.

٢٣٠ ـ **رسائل المرتضىٰ: الرسائل.**

تأليف : أبي القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمّد الموسوي

البغدادي المعروف بالشريف المرتضىٰ وعلم الهدى المتوفّىٰ سنة ٤٣٦ هـ / إعداد: مهدي الرجائي / إشراف: أحمد الحسيني / نشر: دار القرآن الكريم ـ قم / ١٤٠٥ هـ.

٢٣١ ـ الرسالة السعدية.

تأليف: جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهّر الأسدي المعروف بالعلّامة الحلّي المتوفّىٰ سنة ٧٢٦ هـ / تحقيق: عبد الحسين محمّد علي بقّال / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـ قم / الطبعة الأُولى المحقّقة ـ ١٤١٠ هـ.

٢٣٢ ـ رسالة عدم سهو النبي.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالمفيد وابن المعلّم المتوفّىٰ سنة ٤١٣ هـ / تحقيق: محمّد مهدي نجف / نشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣ هـ.

٢٣٣ ـ رسالة الغفران.

تأليف: أبي العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان بن محمّد التنّوخي المعرّي المتوفّىٰ سنة ٤٤٩ هـ / تحقيق: علي حسن فاعور / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٠ هـ.

٢٣٤ ـ الرسول واليهود وجهاً لوجه.

تأليف: د. سعد المرصفي / نشر: مكتبة ابن كثير ـ الكويت، ومؤسّسة الريّان ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٢٣ هـ.

٢٣٥ ـ روائع إسلاميّة.

إعداد : إبراهيم النعمة / نشر : مطبعة الزهراء الحديثة ـ الموصل / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٤ هـ.

٢٣٦ ـ الروض الآنف: الروض الآنف في تفسير السيرة النبويّة لابن هشام.

تأليف : أبي القاسم عبد الرحمان بن عبدالله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي المتوفّىٰ سنة ٥٨١ هـ / تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد / نشر : دار الفكر ـ بيروت / ١٤٢٠ هـ.

٢٣٧ ـ روضات الجنّات: روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات.

تأليف : محمّد باقر بن زين العابدين بن أبي القاسم بن حسين الموسوي الخوانساري الأصفهاني المتوفّىٰ سنة ١٣١٣ هـ / تحقيق : أسد الله إسماعيليان / نشر : مكتبة إسماعيليان ـ طهران.

٢٣٨ ـ رياض السالكين: رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين.

تأليف : صدر الدين علي خان بن أحمد بن محمّد معصوم بن أحمد بن إبراهيم الحسيني المدني الشيرازي المتوفّىٰ سنة ١١٢٠ هـ / تحقيق : محسن الحسيني الأميني / نشر : مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم.

٢٣٩ ـ رياض العلماء: رياض العلماء وحياض الفضلاء.

تأليف : عبدالله أفندي بن عيسى بن محمّد صالح بن مير محمّد الأصفهاني المتوفّىٰ سنة ١١٣٠ هـ / تحقيق : أحمد الحسيني / نشر : مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـ قم / ١٤٠١ هـ.

حرف الزاء

٢٤٠ ـ **زاد المسير: زاد المسير في علم التفسير.**

تأليف: جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمّد البكري البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي المتوفّىٰ سنة ٥٩٧ هـ/ تحقيق: د. محمّد بن عبد الرحمان عبدالله والسعيد بن بسيوني زغلول / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٧ هـ.

٢٤١ ـ **الزهد للبيهقي: كتاب الزهد الكبير.**

تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله بن موسى البيهقي النيسابوري الخسروجردي المتوفّىٰ سنة ٤٥٨ هـ/ تحقيق: عامر أحمد حيدر / نشر: مؤسّسة الكتب الثقافية ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٤١٧ هـ.

٢٤٢ ـ **زهر الآداب: زهر الآداب وثمر الألباب.**

تأليف: أبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني المتوفّىٰ سنة ٤٥٣ هـ/ تحقيق: د. صلاح الدين الهواري / نشر: المكتبة العصرية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢١ هـ.

﴿ حرف السين ﴾

٢٤٣ ـ سمط اللآلي.

تأليف: أبي عبيد عبدالله بن عبد العزيز بن محمّد البكري المتوفّىٰ سنة ٤٩٦ هـ / تحقيق: عبد العزيز الميمني / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٤٤ ـ سمط النجوم العوالي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي.

تأليف: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العاصمي المكّي الشافعي المتوفّىٰ سنة ١١١١ هـ / تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٩ هـ.

٢٤٥ ـ سنن ابن ماجة: كتاب السنن.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة المتوفّىٰ سنة ٢٧٥ هـ / تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي / نشر: دار الفكر ـ بيروت.

٢٤٦ ـ سنن أبي داود: السنن.

تأليف: أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير السجستاني الأزدي الحنبلي المتوفّىٰ سنة ٢٧٥ هـ / تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد / نشر: دار الفكر ـ بيروت.

٢٤٧ ـ سنن الترمذي: الجامع الصحيح.

تأليف: أبي عيسىٰ محمّد بن عيسى بن سورة الترمذي المتوفّى سنة

٢٧٩ هـ / تحقيق : أحمد محمّد شاكر / نشر : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / ١٣٥٧ هـ.

٢٤٨ ـ **سنن الدارقطني: السنن.**

تأليف : أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني المتوفّىٰ سنة ٣٨٥هـ/ تحقيق : عبدالله هاشم اليماني المدني / نشر : عالم الكتب ـ بيروت / الطبعة الرابعة ـ ١٤٠٦هـ.

٢٤٩ ـ **سنن الدارمي: السنن.**

تأليف : أبي محمّد عبدالله بن عبد الرحمان بن الفضل بن بهرام الدارمي التميمي السمرقندي المتوفّىٰ سنة ٢٥٥ هـ/ نشر : دار الفكر ـ القاهرة / ١٣٩٨ هـ.

٢٥٠ ـ **السنن الكبرى للبيهقي: السنن الكبرى.**

تأليف : أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله بن موسى البيهقي النيسابوري الخسروجردي المتوفّىٰ سنة ٤٥٨ هـ/ نشر : دار المعرفة ـ بيروت .

٢٥١ ـ **سنن النسائي: السنن.**

تأليف : أبي عبد الرحمان أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني المتوفّىٰ سنة ٣٠٣هـ/ نشر : دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٣٤٨ هـ.

٢٥٢ ـ **سير أعلام النبلاء.**

تأليف : شمس الدين أبي عبدالله محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي المتوفّىٰ سنة ٧٤٨هـ / تحقيق : مجموعة من الباحثين / إشراف :

شعيب الأرناؤوط / نشر : مؤسّسة الرسالة ـ بيروت / الطبعة الحادية عشرة ـ ١٤١٧هـ.

٢٥٣ ـ السيرة النبويّة لابن حبّان: السيرة النبويّة وأخبار الخلفاء.

تأليف : أبي حاتم محمّد بن حبّان بن أحمد التميمي البَستي المتوفّىٰ سنة ٣٥٤هـ/ تحقيق : السيّد عزيز بك وجماعة / نشر : مؤسّسة الكتب الثقافية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٧هـ.

٢٥٤ ـ السيرة النبويّة لابن سيّد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والسير.

تأليف : أبي الفتح محمّد بن محمّد بن عبدالله بن يحيىٰ بن سيّد الناس المتوفّىٰ سنة ٧٣٤هـ/ نشر : مؤسّسة عزّ الدين ـ بيروت / ١٤٠٦هـ.

٢٥٥ ـ السيرة النبويّة لابن كثير: السيرة النبويّة.

تأليف : عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القرشي البصروي الدمشقي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٧٧٤هـ/ تحقيق : مصطفىٰ عبد الواحد / نشر : دار إحياء التراث ـ بيروت .

٢٥٦ ـ السيرة النبويّة لابن هشام: السيرة النبويّة.

تأليف : أبي محمّد عبد الملك بن هشام بن أيّوب الحميري المعافري الذهلي المتوفّىٰ سنة ٢١٨هـ/ تحقيق : مصطفىٰ السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي / نشر : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٤٢١هـ.

حرف الشين

٢٥٧ ـ شبهات وأباطيل خصوم الإسلام: شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والردّ عليها.

تأليف: محمّد متولّي الشعراوي / جمع وإعداد وترتيب: عبد القادر أحمد عطا / نشر: دار العودة ـ بيروت / ١٩٨٨م.

٢٥٨ ـ شجرة النور الزكية: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية.

تأليف: محمّد بن محمّد مخلوف المتوفّىٰ سنة ١٣٦٠هـ/ نشر: دار الفكر ـ بيروت.

٢٥٩ ـ شذرات الذهب: شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

تأليف: أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمّد المعروف بابن العماد الحنبلي المتوفّىٰ سنة ١٠٨٩هـ/ نشر: دار الفكر ـ بيروت / ١٤١٤هـ.

٢٦٠ ـ الشذرة: الشذرة في الأحاديث المشتهرة.

تأليف: محمّد بن طولون الصالحي المتوفّىٰ سنة ٩٥٣هـ/ تحقيق: كمال بسيوني ذغلول / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣هـ.

٢٦١ ـ شرح ابن عقيل: شرح ألفية ابن مالك.

تأليف: بهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري المتوفّىٰ

سنة ٧٦٩ هـ / تحقيق : محمّد محيي الدين عبد الحميد / نشر : مكتبة سيّد الشهداء عليه السلام - قم / الطبعة الثانية - ١٤١١ هـ.

٢٦٢ - شرح الإتحافات السنية: شرح الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية.

تأليف : زين الدين محمّد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدّادي المُنَاوي القاهري المتوفّىٰ سنة ١٠٣١ هـ / تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط وطالب عوّاد / نشر : دار ابن كثير - دمشق / الطبعة الأُولى - ١٤٢٠ هـ.

٢٦٣ - شرح الإشارات للطوسي: الشرح على الإشارات والتنبيهات.

تأليف : نصير الدين أبي جعفر محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي المتوفّىٰ سنة ٦٧٢ هـ / تحقيق : د. سليمان دنيا / نشر : مؤسّسة النعمان - بيروت / ١٤١٣ هـ.

٢٦٤ - شرح الأُصول الخمسة.

تأليف : عبد الجبّار بن أحمد الهمذاني الأسد آبادي المتوفّىٰ سنة ٤١٥ هـ / تعليق : أحمد بن الحسين بن أبي هاشم / تصحيح : سمير مصطفىٰ رباب / نشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤٢٢ هـ.

٢٦٥ - شرح أُصول الكافي لصدرا: شرح أُصول الكافي.

تأليف : صدر الدين محمّد بن إبراهيم بن يحيىٰ القوامي الشيرازي المعروف بصدر المتألّهين المتوفّىٰ سنة ١٠٥٠ هـ / تصحيح : محمّد خواجوي / نشر : مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي (مؤسّسة البحوث والتحقيقات الثقافية) - طهران / الطبعة الأُولى - ١٣٦٦ هـ. ش.

٢٦٦ـ شرح الباب الحادي عشر.

تأليف: جمال الدين المقداد بن عبدالله الحلّي السيوري المعروف بالفاضل المقداد المتوفّىٰ سنة ٨٢٦هـ/ نشر: إيران.

٢٦٧ـ شرح التجريد للقوشجي: شرح تجريد الكلام.

تأليف: علاء الدين علي بن محمّد القوشجي الحنفي المتوفّىٰ سنة ٨٧٩هـ/ نشر: مكتبة المعرفة ـ شيراز.

٢٦٨ـ شرح السنّة للبغوي: شرح السنّة.

تأليف: أبي محمّد الحسين بن مسعود بن محمّد بن الفرّاء البغوي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٥١٦ هـ/ تحقيق: سعيد محمّد اللحّام / نشر: دار الفكر ـ بيروت / ١٤١٩هـ.

٢٦٩ـ شرح السيوطي على سنن النسائي: شرح سنن النسائي.

تأليف: جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر الكمال بن محمّد بن سابق الدين الخضيري السيوطي المتوفّىٰ سنة ٩١١هـ/ نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٣٤٨هـ.

٢٧٠ـ شرح شذور الذهب: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب.

تأليف: جمال الدين أبي محمّد عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري المصري المتوفّىٰ سنة ٧٦١هـ/ نشر: دار الهجرة ـ قم / الطبعة الثانية ـ ١٤١٠هـ.

٢٧١ـ شرح فصوص الحكم للغراب: شرح فصوص الحكم.

تأليف وجمع وتحقيق ونشر: محمود محمود الغراب / طبع: مطبعة زيد

ابن ثابت ـ دمشق .

٢٧٢ ـ شرح القاساني على فصوص الحكم: شرح فصوص الحكم.

تأليف : كمال الدين عبد الرزّاق القاساني المتوفّىٰ سنة ٧٣٠ هـ / نشر : بيدار ـ قم / الطبعة الرابعة ـ ١٣٧٠ هـ . ش .

٢٧٣ ـ شرح المقاصد.

تأليف : سعد الدين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني الخراساني الشافعي المتوفّىٰ سنة ٧٩٣ هـ / تحقيق : د . عبد الرحمان عميرة / نشر : مكتبة الشريف الرضي ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٣٧١ هـ . ش .

٢٧٤ ـ شرح المنظومة.

تأليف : هادي بن مهدي السبزواري المتوفّىٰ سنة ١٢٨٩ هـ / تصحيح وتعليق : حسن حسن زاده الآملي / تحقيق : مسعود طالبي / نشر : ناب ـ طهران / الطبعة الثالثة ـ ١٤١٧ هـ .

٢٧٥ ـ شرح المواقف.

تأليف : أبي الحسن علي بن محمّد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي المعروف بالسيّد الشريف المتوفّىٰ سنة ٨١٦ هـ / تصحيح : محمّد بدر الدين النعساني / نشر : مطبعة السعادة ـ مصر .

٢٧٦ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة.

تأليف : عزّ الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني المعتزلي المعروف بابن أبي الحديد المتوفّىٰ سنة ٦٥٦ هـ / تعليق : حسين الأعلمي / نشر : مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الأُولى المصحّحة ـ ١٤١٥ هـ .

٢٧٧ ـ شروح الشمسية.

تأليف: القطب الرازي والشريف الجرجاني والسيالكوتي والدسوقي والدواني والشربيني / نشر: شركة شمس المشرق للخدمات الثقافية ـ بيروت.

٢٧٨ ـ شعب الإيمان للبيهقي: شعب الإيمان.

تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله بن موسى البيهقي النيسابوري الخسروجردي المتوفّىٰ سنة ٤٥٨ هـ / تحقيق: حمدي الدمرداش محمّد العدل / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٤هـ.

٢٧٩ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة: الشعر والشعراء، أو: طبقات الشعراء.

تأليف: أبي محمّد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفّىٰ سنة ٢٧٦هـ/ تحقيق: د. مفيد محمّد قميحة ونعيم زرزور / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٥هـ.

٢٨٠ ـ شعراء الغري: شعراء الغري، أو: النجفيات.

تأليف: علي الخاقاني النجفي / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـ قم / ١٤٠٨ هـ / أُفست عن المطبعة الحيدرية ـ النجف / ١٣٧٣ هـ.

٢٨١ ـ شعراء النصرانية بعد الإسلام.

تأليف: لويس شيخو اليسوعي المتوفّى سنة ١٩٢٧ م / نشر: دار المشرق ـ بيروت / الطبعة الخامسة ـ ١٩٩٩ م.

٢٨٢ ـ شعراء النصرانية قبل الإسلام.

تأليف : لويس شيخو اليسوعي المتوفّىٰ سنة ١٩٢٧ م / نشر : دار المشرق ـ بيروت / الطبعة الخامسة ـ ١٩٩٩ م .

٢٨٣ ـ الشفا للقاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ.

تأليف : أبي الفضل عياض بن موسى اليعصبي الأندلسي المتوفّىٰ سنة ٥٤٤ هـ / نشر : مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني ـ القاهرة .

٢٨٤ ـ الشفاء: الشفاء (في المنطق والرياضيّات والطبيعيّات والإلهيّات).

تأليف : أبي علي الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي البخاري المعروف بالشيخ الرئيس المتوفّىٰ سنة ٤٢٨ هـ / تحقيق : الأب قنواتي وسعيد زايد وعبدالله إسماعيل و د . محمود قاسم و د . عبد الحليم منتصر / نشر : الهيئة المصرية العامّة للتأليف والنشر ودار الكتاب العربي ـ القاهرة / ١٣٨٠ هـ.

٢٨٥ ـ شفاء العليل: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

تأليف : برهان الدين محمّد بن أبي بكر بن أيّوب الدمشقي الحنبلي المعروف بابن قيّم الجوزية المتوفّىٰ سنة ٧٥١ هـ / تحقيق : د . السيّد محمّد السيّد وسعيد محمود / نشر : دار الحديث ـ القاهرة / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٤ هـ.

٢٨٦ ـ شوارق الإلهام: شوارق الإلهام في شرح تجريد الكلام.

تأليف : عبد الرزّاق بن علي بن الحسين اللاهيجي الجيلاني المتوفّىٰ بعد سنة ١٠١٥ هـ / نشر : مهدوي ـ أصفهان .

٢٨٧ ـ **الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة.**

تأليف: هاشم معروف الحسني / نشر: دار القلم ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٩٧٨ م.

حرف الصاد

٢٨٨ ـ **الصافي: الصافي في تفسير القرآن.**

تأليف: محمّد محسن بن مرتضىٰ المعروف بالفيض الكاشاني المتوفّىٰ سنة ١٠٩١ هـ / تحقيق: محسن الحسيني الأميني / نشر: دار الكتب الإسلامية ـ طهران / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٩ هـ.

٢٨٩ ـ **صبح الأعشىٰ: صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشاء.**

تأليف: أبي العبّاس أحمد بن علي القلقشندي المتوفّىٰ سنة ٨٢١هـ/ نشر: المؤسّسة المصرية العامّة ـ مصر / ١٩٦٣ م.

٢٩٠ ـ **صحاح اللغة: تاج اللغة وصحاح العربية.**

تأليف: أبي نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري المتوفّىٰ سنة ٣٩٣ هـ / تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار / نشر: دار العلم للملايين ـ بيروت / الطبعة الرابعة ـ ١٤٠٧ هـ.

٢٩١ ـ **صحيح البخاري: الصحيح.**

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه

البخاري الجعفي المتوفّىٰ سنة ٢٥٦ هـ / تحقيق : د. مصطفىٰ ديب البُغا / نشر : دار ابن كثير ودار اليمامة ـ دمشق وبيروت / الطبعة الخامسة ـ ١٤١٤ هـ.

٢٩٢ ـ صحيح مسلم: الصحيح.

تأليف : أبي الحسين مسلّم بن الحجّاج القشيري النيسابوري المتوفّىٰ سنة ٢٦١ هـ / تحقيق : محمّد فؤاد عبد الباقي / نشر : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٩٧٢ م.

٢٩٣ ـ الصحيفة السجّادية (مجموعة أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام).

تصحيح ونشر : المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام ـ قم / الطبعة الثانية ـ ١٤٢٣ هـ.

٢٩٤ ـ صفوة الصفوة.

تأليف : أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمّد بن علي البكري البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي المتوفّىٰ سنة ٥٩٧ هـ / تحقيق : محمود فاخوري و د. محمّد روّاس قلعجي / نشر : دار المعرفة ـ بيروت / الطبعة الرابعة ـ ١٤٠٦ هـ.

حرف الضاد

٢٩٥ ـ الضائع من معجم الأُدباء.

تأليف : د. مصطفى جواد / نشر : شركة المعرفة للنشر والتوزيع

المحدودة ـ العراق / ١٤١٠ هـ.

﴿ حرف الطاء ﴾

٢٩٦ ـ **طبقات الحفّاظ.**

تأليف: جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر الكمال بن محمّد بن سابق الدين الخضيري السيوطي الشافعي المتوفّى سنة ٩١١ هـ / تحقيق: علي محمّد عمر / نشر: مكتبة وهبة ـ القاهرة / الطبعة الأُولى ـ ١٣٩٣ هـ.

٢٩٧ ـ **طبقات خليفة: الطبقات.**

تأليف: أبي عمرو خليفة بن خيّاط بن أبي هبيرة الليثي العصفري المعروف بشبّاب المتوفّىٰ سنة ٢٤٠ هـ / رواية: موسى بن زكريا بن يحيى التستري لمحمّد بن أحمد بن محمّد الأزدي / تحقيق: د. أكرم ضياء العُمري / نشر: دار طيبة ـ الرياض / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٢ هـ.

٢٩٨ ـ **طبقات الشافعية الكبرى.**

تأليف: تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي المتوفّى سنة ٧٧١ هـ / تحقيق: عبد الفتّاح محمّد الحلو ومحمود محمّد الطناحي / نشر: دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.

٢٩٩ ـ **طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية.**

تأليف: تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن محمّد بن عمر بن محمّد الأسدي

الدمشقي المعروف بابن قاضي شهبة المتوفّىٰ سنة ٨٥١هـ / تحقيق: د. عبد العليم خان / نشر: دار الندوة الجديدة ـ بيروت / ١٤٠٧هـ.

٣٠٠ ـ طبقات الشعراء لابن سلّام: طبقات الشعراء.

تأليف: محمّد بن سلّام الجمحي المتوفّىٰ سنة ٢٣١هـ / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٨هـ.

٣٠١ ـ طبقات الفقهاء.

تأليف: أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي الشافعي المتوفّى سنة ٤٧٦هـ / نشر: مطبعة بغداد ـ بغداد / ١٣٥٦هـ.

٣٠٢ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد: الطبقات الكبرىٰ.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن سعد بن منيع الزهري البصري المتوفّىٰ سنة ٢٣٠هـ / نشر: دار بيروت ـ بيروت / ١٤٠٥هـ.

٣٠٣ ـ طبقات المفسّرين للداودي: طبقات المفسّرين.

تأليف: شمس الدين محمّد بن علي بن أحمد الداودي المتوفّىٰ سنة ٩٤٥هـ / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٣هـ.

٣٠٤ ـ الطراز: الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز.

تأليف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني المتوفّىٰ سنة ٧٤٩هـ / طبع: مطبعة المقتطف ـ مصر / ١٩١٤م.

٣٠٥ ـ طوالع الأنوار.

تأليف: ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمّد البيضاوي الشيرازي المتوفّىٰ سنة ٦٨٥هـ / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـ

قم / أُفست عن إحدى المطابع الباكستانية.

حرف العين

٣٠٦ ـ العبر: العبر في خبر من غبر.

تأليف: شمس الدين أبي عبدالله محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي المتوفّىٰ سنة ٧٤٨ هـ / تحقيق: د. صالح الدين المنجد / نشر: دائرة المطبوعات ـ الكويت / ١٩٦٠ م.

٣٠٧ ـ عدّة الأُصول.

تأليف: أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي المعروف بشيخ الطائفة المتوفّىٰ سنة ٤٦٠ هـ / تحقيق: محمّد رضا الأنصاري القمّي / نشر: مؤسّسة البعثة ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٧ هـ.

٣٠٨ ـ عدّة الداعي: عدّة الداعي ونجاح الساعي.

تأليف: جمال الدين أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن فهد الأسدي الحلّي المتوفّىٰ سنة ٨٤١ هـ / تحقيق ونشر: مؤسّسة المعارف الإسلامية ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٠ هـ.

٣٠٩ ـ العقد الثمين: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.

تأليف: تقي الدين محمّد بن أحمد الحسني الفاسي المكّي المتوفّىٰ سنة ٨٣٢ هـ / تحقيق: محمّد عبد القادر أحمد عطا / نشر: دار الكتب العلمية ـ

بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٩ هـ.

٣١٠ ـ العقد الفريد.

تأليف : شهاب الدين أبي عمر أحمد بن محمّد بن عبد ربّه بن حبيب بن دريد بن سالم الأندلسي المتوفّىٰ سنة ٣٢٨ هـ / تحقيق : د. مفيد محمّد قميحة / نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٧ هـ.

٣١١ ـ العلاقة الجدلية: العلاقة الجدلية بين التاريخ والطقوس المسيحية (حوار يدور في فضاء اللاهوت المسيحي).

تأليف : المحامي أحمد عمران / نشر : دار الوعي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٧ هـ.

٣١٢ ـ علل الشرائع.

تأليف : أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي المعروف بالصدوق المتوفّى سنة ٣٨١ هـ / نشر: مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٨ هـ.

٣١٣ ـ العلل المتناهية: العلل المتناهية في الأحاديث الواهية.

تأليف : جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمّد بن علي البكري البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي المتوفّىٰ سنة ٥٩٧ هـ / تقديم وضبط : خليل الميس / نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٣ هـ.

٣١٤ ـ عوالي اللئالي: عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية.

تأليف : محمّد بن علي بن إبراهيم بن حسن الإحسائي المعروف بابن أبي

جمهور المتوفّى بعد سنة ٨٧٨هـ/ تحقيق: مجتبىٰ العراقي / نشر: مطبعة سيّد الشهداء ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٣هـ.

٣١٥ ـ العين للفراهيدي: كتاب العين.

تأليف: أبي عبد الرحمان الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري المتوفّىٰ سنة ١٧٥هـ/ تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرّائي / نشر: دار ومكتبة الهلال ـ بيروت.

٣١٦ ـ عيون الأخبار.

تأليف: أبي محمّد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفّىٰ سنة ٢٧٦ هـ/ تحقيق: د. يوسف علي طويل / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٣١٧ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام.

تأليف: أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي المعروف بالصدوق المتوفّىٰ سنة ٣٨١هـ/ نشر: مؤسّسة الأعلمي ـ طهران / أُفست عن المطبعة الحيدرية ـ النجف / ١٣٩٠هـ.

حرف الغين

٣١٨ ـ الغدير: الغدير في الكتاب والسنّة والأدب.

تأليف: عبد الحسين أحمد الأميني النجفي المتوفّىٰ سنة ١٣٩٢هـ/ نشر: مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٤هـ.

٣١٩ـ غرر الحكم: غرر الحكم ودرر الكلم.

تأليف: تاج الدين أبي الفتح عبد الواحد بن محمّد المحفوظ بن عبد الواحد التميمي الآمدي المتوفّىٰ سنة ٥٥٠ هـ / تصحيح: حسين الأعلمي / نشر: مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٧هـ.

٣٢٠ـ الغنية: غنية النزوع إلى علمي الأُصول والفروع.

تأليف: عزّ الدين أبي المكارم حمزة بن علي بن زهرة الحسيني الحلبي المتوفّىٰ سنة ٥٨٥ هـ / تحقيق: إبراهيم البهادري / نشر: مؤسّسة الإمام الصادق عليه‌السلام ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٨هـ.

٣٢١ـ الغنية للجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحقّ في الأخلاق والتصوّف والآداب الإسلاميّة.

تأليف: عبد القادر بن موسى بن عبدالله الجيلاني المتوفّى سنة ٥٦١ هـ / نشر: المكتبة التوفيقية ـ القاهرة.

٣٢٢ـ الغياثي: غياث الأُمم في التياث الظُلَم.

تأليف: ضياء الدين أبي المعالي عبد الملك بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله ابن يوسف بن محمّد الجويني النيسابوري الشافعي المعروف بإمام الحرمين المتوفّىٰ سنة ٤٧٨ هـ / تحقيق: خليل المنصور / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٧هـ.

حرف الفاء

٣٢٣ـ **فتح الباري: فتح الباري بشرح صحيح البخاري.**

تأليف: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمّد بن حجر الكناني العسقلاني الشافعي المتوفّى سنة ٨٥٢ هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٢هـ.

٣٢٤ـ **فتح القدير: فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير.**

تأليف: بدر الدين أبي علي محمّد بن علي بن محمّد بن عبدالله بن الحسن الشوكاني المتوفّىٰ سنة ١٢٥٠هـ / نشر: دار المعرفة ـ بيروت.

٣٢٥ـ **فتح المالك: فتح المالك بتبويب التمهيد لابن عبد البرّ على موطّأ الإمام مالك.**

ترتيب وتحقيق: د. مصطفىٰ صميدة / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٨هـ.

٣٢٦ـ **الفتوحات المكّية.**

تأليف: محيي الدين أبي عبدالله محمّد بن علي بن محمّد الطائي الحاتمي المعروف بابن عربي المتوفّىٰ سنة ٦٣٨هـ / نشر: دار صادر ـ بيروت.

٣٢٧ـ **الفخري في الآداب السلطانية: منية الفضلاء في تواريخ الخلفاء والوزراء.**

تأليف: فخر الدين محمّد بن علي بن محمّد بن رمضان بن طباطبا

الحسني المعروف بابن الطقطقي المتوفّىٰ سنة ٧٠٩ هـ / نشر: إيران.

٣٢٨ـ فرج المهموم: فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم.

تأليف: رضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمّد بن طاووس الحسني الحسيني المتوفّىٰ سنة ٦٦٤ هـ / نشر: دار الذخائر ـ قم.

٣٢٩ـ فردوس الأخبار: فردوس الأخبار بمأثور الخطاب المخرّج على كتاب الشهاب.

تأليف: شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي المتوفّىٰ سنة ٥٠٩ هـ / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٨ هـ.

٣٣٠ـ الفَرق بين الفِرق.

تأليف: عبد القادر بن طاهر بن محمّد التميمي الإسفرايني البغدادي المتوفّىٰ سنة ٤٢٩ هـ / تحقيق: إبراهيم رمضان / نشر: دار المعرفة ـ بيروت / الطبعة الرابعة ـ ١٤٢٤ هـ.

٣٣١ـ فرق الشيعة.

تأليف: الحسن بن موسى النوبختي من أعلام القرن الثالث الهجري / نشر: دار الأضواء ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٤ هـ.

٣٣٢ـ الفصل لابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل.

تأليف: أبي محمّد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي الظاهري المعروف بابن حزم المتوفّىٰ سنة ٤٥٦ هـ / تحقيق: د. محمّد إبراهيم نصر ود. عبد الرحمان عميرة / نشر: دار الجيل ـ بيروت.

٣٣٣ـ الفصول: الفصول في الأُصول.

تأليف: محمّد حسين بن عبد الرحيم الحائري الطهراني الأصفهاني المتوفّىٰ سنة ١٢٥٠ هـ/ نشر: دار إحياء العلوم الإسلامية ـ قم / ١٤٠٤ هـ.

٣٣٤ـ فقه اللغة: كتاب فقه اللغة وسرّ العربية.

تأليف: أبي منصور عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري المتوفّىٰ سنة ٤٣٠ هـ/ تحقيق: د. فائز محمّد / مراجعة: د. إميل بديع يعقوب / نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤١٦ هـ.

٣٣٥ـ الفقيه: كتاب من لا يحضره الفقيه.

تأليف: أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي المعروف بالصدوق المتوفّىٰ سنة ٣٨١ هـ/ تحقيق: علي أكبر الغفّاري / نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / الطبعة الثالثة ـ ١٤١٤ هـ.

٣٣٦ـ الفكر الإسلامي الحديث: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي.

تأليف: د. محمّد البهي / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة السابعة ـ ١٩٩١ م.

٣٣٧ـ فنّ الأدب الروائي عند تولستوي.

تأليف: ف.غ. إدينوكوف / تعريب: د. محمّد يونس / نشر: دار الشؤون الثقافية العامّة ـ بغداد / الطبعة الثانية ـ ١٩٨٦ م.

٣٣٨ـ فهرس التراث.

تأليف: محمّد حسين الحسيني الجلالي / تحقيق: محمّد جواد الحسيني الجلالي / نشر: دليل ما ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٢هـ.

٣٣٩ـ فهرست ابن النديم: الفهرست.

تأليف: أبي الفرج محمّد بن إسحاق بن محمّد بن إسحاق النديم الورّاق المتوفّىٰ سنة ٤٣٨هـ / نشر: دار المعرفة ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤١٧هـ.

٣٤٠ـ الفهرست: فهرست كتب الشيعة وأُصولهم وأسماء المصنّفين وأصحاب الأُصول.

تأليف: أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي المعروف بشيخ الطائفة المتوفّىٰ سنة ٤٦٠هـ / تحقيق: عبد العزيز الطباطبائي / نشر: مكتبة المحقّق الطباطبائي ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٠هـ.

٣٤١ـ فهرست منتجب الدين: فهرست أسماء علماء الشيعة ومصنّفيهم.

تأليف: منتجب الدين أبي الحسن علي بن عبيدالله بن بابويه الرازي من أعلام القرن السادس الهجري / تحقيق: عبد العزيز الطباطبائي / نشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية ـ طهران.

٣٤٢ـ الفوائد الحائرية.

تأليف: محمّد باقر بن محمّد أكمل البهبهاني المعروف بالوحيد المتوفّىٰ سنة ١٢٠٦هـ / تحقيق ونشر: مجمع الفكر الإسلامي ـ قم / الطبعة الأُولى المحقّقة ـ ١٤١٥هـ.

٣٤٣ـ فوات الوفيات: فوات الوفيات والذيل عليها.

تأليف: محمّد بن شاكر الكتبي المتوفّىٰ سنة ٧٦٤ هـ/ تحقيق: د. إحسان عبّاس / نشر: دار صادر ـ بيروت.

٣٤٤ـ فيض القدير: فيض القدير في شرح الجامع الصغير.

تأليف: زين الدين محمّد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدّادي المُنَاوي القاهري المتوفّى سنة ١٠٣١ هـ/ نشر: دار الحديث ـ القاهرة.

حرف القاف

٣٤٥ـ القاموس المحيط: القاموس المحيط والقابوس الوسيط.

تأليف: مجد الدين أبي طاهر محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم الفيروز آبادي الشيرازي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٨١٧ هـ/ نشر: دار الجيل ـ بيروت.

٣٤٦ـ القبسات.

تأليف: برهان الدين محمّد بن محمّد باقر الحسيني ميرداماد الإسترابادي المعروف بالمعلّم الثالث المتوفّىٰ سنة ١٠٤١ هـ/ تصحيح: مهدي محقّق وعلي الموسوي البهبهاني وإبراهيم الديباجي وتوشي هيكو إيزوتسو / نشر: مؤسّسة الدراسات الاسلامية ـ طهران / ١٣٩٧ هـ.

٣٤٧ـ **قرب الإسناد.**

تأليف : أبي العبّاس عبدالله بن جعفر الحميري من أعلام القرن الثالث الهجري / تحقيق ونشر : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام التراث ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣ هـ.

٣٤٨ـ **قصّة الفلسفة لديورانت: قصّة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي.**

تأليف : وِل ديورَانت / تعريب : د . فتح الله محمّد المشعشع / نشر : مكتبة المعارف ـ بيروت / الطبعة السادسة ـ ١٤٠٨ هـ.

٣٤٩ـ **قصص الأنبياء للراوندي: قصص الأنبياء.**

تأليف : قطب الدين أبي الحسن سعيد بن هبة الله الراوندي المتوفّى سنة ٥٧٣ هـ / تحقيق : غلام رضا عرفانيان اليزدي / نشر : مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٩ هـ.

٣٥٠ـ **قطر الندى: شرح قطر الندىٰ وبلّ الصدىٰ.**

تأليف : جمال الدين أبي محمّد عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري المصري المتوفّىٰ سنة ٧٦١ هـ / تحقيق : محمّد محيي الدين عبد الحميد / نشر : الفيروز آبادي ـ قم / الطبعة الثامنة ـ ١٤١٢ هـ / أُفست عن مطبعة السعادة ـ مصر / الطبعة الحادية شعرة ـ ١٣٨٣ هـ.

٣٥١ـ **قطف الثمر: قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر.**

تأليف : أبي الطيب صدّيق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني القِنّوجي البخاري الهندي المتوفّىٰ سنة ١٣٠٧ هـ / تحقيق : د . عاصم عبدالله القريوتي / نشر : شركة الشرق الأوسط ـ عمّان / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٤ هـ.

٣٥٢ـ القضاء والقدر للبيهقي: كتاب القضاء والقدر.

تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله بن موسى البيهقي النيسابوري الخسروجردي المتوفّى سنة ٤٥٨هـ/ تحقيق: محمّد عبدالله آل عامر/ نشر: مكتبة العبيكان ـ الرياض/ الطبعة الأُولى ـ ١٤٢١هـ.

٣٥٣ـ قواعد العقائد.

تأليف: زين الدين أبي حامد محمّد بن محمّد بن محمّد بن أحمد الغزالي الطوسي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٥٠٥هـ/ تحقيق: موسى محمّد علي/ نشر: عالم الكتب ـ بيروت/ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٥هـ.

٣٥٤ـ قواعد المرام: قواعد المرام في علم الكلام.

تأليف: كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني المتوفّى سنة ٦٩٩هـ/ تحقيق: أحمد الحسيني/ نشر: مكتبة المرعشي النجفي ـ قم/ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٦هـ.

٣٥٥ـ قوانين الأُصول: القوانين المحكمة في الأُصول المتقنة.

تأليف: أبي القاسم بن محمّد حسن الجيلاني الشفتي المعروف بالميرزا القمّي المتوفّىٰ سنة ١٢٣١هـ/ نشر: دار الطباعة ـ قم/ ١٣٠٨هـ. ش.

حرف الكاف

٣٥٦ـ الكاشف للذهبي: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستّة.

تأليف: شمس الدين أبي عبدالله محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز

الذهبي المتوفّىٰ سنة ٧٤٨هـ / تحقيق : عزّة علي عيد عطيّة وموسى محمّد علي الموشي / نشر : دار الكتب الحديثة ـ القاهرة / الطبعة الأُولى ـ ١٣٩٢هـ.

٣٥٧ ـ الكافي.

تأليف : أبي جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي المعروف بثقة الإسلام المتوفّىٰ سنة ٣٢٩هـ / تحقيق : علي أكبر الغفّاري / نشر : دار الكتب الإسلامية ـ طهران / الطبعة الخامسة ـ ١٣٦٣هـ. ش .

٣٥٨ ـ الكامل في التاريخ.

تأليف : عزّ الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفّىٰ سنة ٦٣٠هـ / نشر : دار الفكر ـ بيروت / ١٣٩٨هـ.

٣٥٩ ـ الكامل في ضعفاء الرجال.

تأليف : أبي أحمد عبدالله بن عدي الجرجاني المتوفّىٰ سنة ٣٦٥هـ / تحقيق : د . سهيل زكّار ويحيىٰ مختار غزّاوي / نشر : دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٩هـ.

٣٦٠ ـ الكامل في اللغة والأدب.

تأليف : أبي العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد المتوفّىٰ سنة ٢٨٥هـ / اعتناء : أحمد محمّد كنعان / نشر : دار الفكر العربي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٩٩٩م.

٣٦١ـ الكرام البررة.

تأليف: محسن أغا بزرك الطهراني المتوفّىٰ سنة ١٣٨٩ هـ / نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٣٦٢ـ الكشّاف: الكشّاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.

تأليف: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمّد بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفّىٰ سنة ٥٣٨ هـ / تصحيح: مصطفىٰ حسين أحمد / نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٣٦٣ـ كشّاف اصطلاحات الفنون.

تأليف: محمّد أعلى بن علي التهانوي من أعلام القرن الثاني عشر الهجري / تصحيح: المولوي محمّد وجيه والمولوي غلام قادر والمولوي عبد الحقّ / نشر: مكتبة الخيّام ـ طهران / ١٩٦٧ م.

٣٦٤ـ كشف الخفاء: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس.

تأليف: إسماعيل بن محمّد عبد الهادي بن الغني العجلوني الجرّاحي الدمشقي الشافعي المتوفّىٰ سنة ١١٦٢ هـ / تحقيق: أحمد القلاش / نشر: مؤسّسة الرسالة ـ بيروت / الطبعة السابعة ـ ١٤١٨ هـ.

٣٦٥ـ كشف الظنون: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.

تأليف: مصطفىٰ بن عبدالله القسطنطيني الرومي المعروف بحاجي خليفة أو الملّا كاتب الجلبي المتوفّىٰ سنة ١٠٦٧ هـ / نشر: دار الفكر ـ

بيروت / ١٤١٠ هـ.

٣٦٦ ـ كشف الغمّة: كشف الغمّة في معرفة الأئمّة.

تأليف : أبي الحسن علي بن عيسىٰ بن أبي الفتح الإربلي المتوفّىٰ سنة ٦٩٣ هـ / نشر : دار الكتاب الإسلامي ـ بيروت .

٣٦٧ ـ كشف المراد: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد.

تأليف : جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهّر الأسدي المعروف بالعلّامة الحلّي المتوفّىٰ سنة ٧٢٦ هـ / تعليق : حسن حسن زاده الآملي / نشر : مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / الطبعة الخامسة ـ ١٤١٥ هـ.

٣٦٨ ـ الكشف والبيان: الكشف والبيان في تفسير القرآن.

تأليف : أبي إسحاق أحمد بن محمّد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفّىٰ سنة ٤٢٧ هـ / تحقيق : أبي محمّد بن عاشور / نشر : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٢ هـ.

٣٦٩ ـ الكشكول للبهائي: الكشكول.

تأليف : بهاء الدين محمّد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي الجبعي العاملي المعروف بالشيخ البهائي المتوفّىٰ سنة ١٠٣١ هـ / نشر : مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة السابعة ـ ١٤٢٠ هـ.

٣٧٠ ـ كفاية الأثر: كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر.

تأليف : أبي القاسم علي بن محمّد بن علي الخزّاز القمّي الرازي من أعلام القرن الرابع الهجري / تحقيق : عبد اللطيف الحسيني الكوهكمري

الخوئي / نشر : بيدار ـ قم / ١٤٠١ هـ.

٣٧١ـ كلمة التصوّف (ضمن الرسائل الثلاث لشيخ الإشراق): رسالة كلمة التصوّف.

تأليف : شهاب الدين أبي الفتوح يحيىٰ بن حبش بن أميرك السهروردي المتوفّىٰ سنة ٥٨٧ هـ/ تصحيح : نجف قلي حبيبي / نشر : جمعية الفلسفة ـ طهران / ١٣٩٧ هـ.

٣٧٢ـ كمال الدين: كمال الدين وتمام النعمة.

تأليف : أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي المعروف بالصدوق المتوفىٰ سنة ٣٨١ هـ/ تحقيق : علي أكبر الغفّاري / نشر : مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / الطبعة الثالثة ـ ١٤١٦ هـ.

٣٧٣ـ الكنىٰ والألقاب.

تأليف : عبّاس بن محمّد رضا بن أبي القاسم القمّي المتوفّىٰ سنة ١٣٥٩ هـ/ نشر : مكتبة الصدر ـ طهران / الطبعة الخامسة ـ ١٣٦٨ هـ. ش .

٣٧٤ـ كنز العمّال: كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال.

تأليف : علاء الدين علي المتّقي بن حسام الدين البرهان فوري الهندي المتوفّىٰ سنة ٩٧٥ هـ/ ضبط وتفسير الغريب من الكتاب : بكري حيّاني / تصحيح وفهرسة : صفوة السقا / نشر : مؤسّسة الرسالة ـ بيروت / ١٤٠٩ هـ.

٣٧٥ ـ كنز الفوائد.

تأليف : أبي الفتح محمّد بن علي بن عثمان الكراجكي الطرابلسي المتوفّىٰ سنة ٤٤٩ هـ / تحقيق : عبدالله نعمة / نشر : دار الذخائر ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٠ هـ.

حرف اللام

٣٧٦ ـ اللآلئ المصنوعة: اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة.

تأليف : جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر الكمال بن محمّد بن سابق الدين الخضيري السيوطي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٩١١ هـ / نشر دار المعرفة ـ بيروت / ١٤٠٣ هـ.

٣٧٧ ـ لسان العرب: لسان العرب في اللغة والأدب.

تأليف : جمال الدين أبي الفضل محمّد بن مكرّم بن علي بن أحمد الرويفعي الأنصاري المصري المعروف بابن منظور المتوفّىٰ سنة ٧٧١ هـ / تصحيح : أمين محمّد عبد الوهاب ومحمّد الصادق العبيدي / نشر : دار إحياء التراث العربي ومؤسّسة التاريخ العربي ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٤١٩ هـ.

٣٧٨ ـ لسان الميزان.

تأليف : شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

المتوفّىٰ سنة ٨٥٢ هـ / نشر : مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٦ هـ.

٣٧٩ ـ اللمحات (ضمن الرسائل الثلاث لشيخ الإشراق): رسالة اللمحات.

تأليف : شهاب الدين أبي الفتح يحيىٰ بن حبش بن أميرك السهرودي المتوفّىٰ سنة ٥٨٧ هـ / تصحيح : نجف قلي حبيبي / نشر : جمعية الفلسفة ـ طهران / ١٣٩٧ هـ.

٣٨٠ ـ اللمع: كتاب اللمع في الردّ على أهل الزيغ والبدع.

تأليف : أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم الأشعري المتوفّىٰ سنة ٣٢٤ هـ / تحقيق : د. حمّودة غرابة / نشر : مطبعة مصر ـ مصر / ١٩٥٥ م.

٣٨١ ـ اللؤلؤ المرصوع: اللؤلؤ المرصوع فيما لا أصل له أو بأصله موضوع.

تأليف : أبي المحاسن محمّد بن خليل القاوقجي الطرابلسي المتوفّىٰ سنة ١٣٠٥ هـ / تحقيق : فوّاز أحمد زمولي / نشر : دار البشائر الإسلامية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٥ هـ.

٣٨٢ ـ لؤلؤة البحرين: لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث.

تأليف : يوسف بن أحمد البحراني المعروف بالمحدّث البحراني المتوفّىٰ سنة ١١٨٦ هـ / تحقيق : محمّد صادق بحر العلوم / نشر : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم / الطبعة الثانية.

٣٨٣ ـ اللوامع الإلهية: اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية.

تأليف : جمال الدين المقداد بن عبدالله الأسدي الحلّي السيوري المعروف

بالفاضل المقداد المتوفّىٰ سنة ٨٢٦ هـ / تحقيق : محمّد علي القاضي الطباطبائي / نشر : مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٢ هـ.

٣٨٤ ـ لوامع الأنوار: لوامع الأنوار وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرّة المضية في عقيدة الفرقة المرضية.

تأليف : محمّد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني النابلسي الحنبلي المتوفّىٰ سنة ١١٨٨ هـ أو ١١٨٩ هـ / نشر : المكتب الإسلامي ـ بيروت ودار الخاني ـ الرياض / الطبعة الثالثة ـ ١٤١١ هـ.

حرف الميم

٣٨٥ ـ المباحث المشرقيّة: المباحث المشرقيّة في علم الإلهيّات والطبيعيّات.

تأليف : فخر الدين أبي عبدالله محمّد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي البكري الطبرستاني الشافعي المعروف بالفخر الرازي وبابن خطيب الري المتوفّىٰ سنة ٦٠٦ هـ / تحقيق : محمّد المعتصم بالله البغدادي / نشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٠ هـ.

٣٨٦ ـ المباحثات.

تأليف : أبي علي الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي البخاري المعروف بالشيخ الرئيس المتوفّىٰ سنة ٤٢٨ هـ / تحقيق : محسن

بيدارفر / نشر : بيدار ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣ هـ.

٣٨٧ ـ مبادئ الفلسفة.

تأليف : أ. س. راپوپرت / تعريب : أحمد أمين / نشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٣٨٨ ـ مبادئ الموجودات: السياسة المدنية.

تأليف : أبي نصر محمّد بن محمّد بن أُوزلغ بن طرخان التركي الفارابي المعروف بالمعلم الثاني المتوفّىٰ سنة ٣٣٩ هـ / تحقيق : د. فوزي متري النجّار / نشر : مكتبة الزهراء عليها السلام ـ طهران / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٨ هـ.

٣٨٩ ـ المباهلة.

تأليف : عبدالله السُبيتي / نشر : مكتبة النجاح ـ طهران.

٣٩٠ ـ المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي: المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه.

تأليف : د. محمّد سيّد أحمد المسير / نشر : مؤسّسة علوم القرآن ـ دمشق وبيروت، ومكتبة دار التراث ـ المدينة المنوّرة / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٤ هـ.

٣٩١ ـ مجمع الأمثال.

تأليف : أبي الفضل أحمد بن محمّد بن إبراهيم الميداني النيسابوري المتوفّىٰ سنة ٥١٨ هـ / نشر : دار ومكتبة الحياة ـ بيروت / ١٩٦١ م.

٣٩٢ ـ مجمع البحرين: مجمع البحرين ومطلع النيّرين.

تأليف : فخر الدين بن محمّد بن علي بن أحمد بن طريح الطريحي المتوفّىٰ سنة ١٠٨٧ هـ / تحقيق : أحمد الحسيني / نشر : المكتبة المرتضوية لإحياء

الآثار الجعفرية ـ طهران / الطبعة الثانية ـ ١٣٦٥ هـ. ش .

٣٩٣ ـ مجمع البيان: مجمع البيان في تفسير القرآن.

تأليف : أبي علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي المعروف بأمين الإسلام المتوفّىٰ سنة ٥٤٨ هـ / تحقيق : لجنة من الأفاضل / نشر : مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٥ هـ.

٣٩٤ ـ مجمع الرجال.

تأليف : زكي الدين عناية الله بن علي القهبائي المتوفّى بعد سنة ١٠١٦ هـ / تحقيق : ضياء الدين الأصفهاني / نشر : مؤسّسة إسماعيليان ـ قم .

٣٩٥ ـ مجمع الزوائد: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.

تأليف : نور الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي المتوفّىٰ سنة ٨٠٧ هـ / نشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٢ هـ.

٣٩٦ ـ المحاسن للبرقي: المحاسن.

تأليف : أبي جعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقي المتوفّىٰ سنة ٢٧٤ هـ أو ٢٨٠ هـ / تحقيق : جلال الدين الحسيني الأُرموي المحدّث / نشر : دار الكتب الإسلامية ـ قم / الطبعة الثانية .

٣٩٧ ـ محاضرات في النصرانية.

تأليف : محمّد أبي زهرة المصري / نشر : دار الفكر العربي ـ بيروت / الطبعة الثالثة .

٣٩٨ ـ المحجّة البيضاء: المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء.

تأليف: محمّد محسن بن مرتضىٰ المعروف بالفيض الكاشاني المتوفّىٰ سنة ١٠٩١ هـ / تحقيق: علي أكبر الغفّاري / نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / الطبعة الثانية.

٣٩٩ ـ مختصر إتحاف السادة المهرة: مختصر إتحاف السادة المهرة بزوائد المسانيد العشرة.

تأليف: شهاب الدين أبي العبّاس أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم ابن قايماز البوصيري الكناني الشافعي المتوفّىٰ سنة ٨٤٠ هـ / تحقيق: سيّد كسروي حسن / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٧ هـ.

٤٠٠ ـ مخزن المعاني: مخزن المعاني في ترجمة المحقّق المامقاني.

تأليف: عبدالله بن محمّد حسن بن عبدالله المامقاني المتوفّىٰ سنة ١٣٥١ هـ / تحقيق واستدراك: محمّد رضا المامقاني / نشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٣ هـ.

٤٠١ ـ المدخل إلى دراسة الأديان: المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب.

تأليف: عبد الرزّاق محمّد أسود / نشر: الدار العربية للموسوعات ودار المسيرة ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠١ هـ.

٤٠٢ ـ مذاهب الإسلاميّين.

تأليف: د. عبد الرحمان بدوي / نشر: دار العلم للملايين ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٩٧١ م.

٤٠٣ ـ مرآة الجنان: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان.

تأليف: أبي محمّد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكّي المتوفّىٰ سنة ٧٦٨ هـ / تحقيق: خليل المنصور / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٧ هـ.

٤٠٤ ـ مروج الذهب: مروج الذهب ومعادن الجوهر.

تأليف: أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفّىٰ سنة ٣٤٦ هـ / تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد / نشر: دار المعرفة ـ بيروت.

٤٠٥ ـ مستدرك سفينة البحار.

تأليف: علي النمازي الشاهرودي المتوفّىٰ سنة ١٤٠٥ هـ / تحقيق: حسن علي النمازي / نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / ١٤١٨ هـ.

٤٠٦ ـ المستدرك على الصحيحين.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن عبدالله الحاكم النيسابوري المتوفّىٰ سنة ٤٠٥ هـ / تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١١ هـ.

٤٠٧ ـ مستدرك الوسائل: مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل.

تأليف: أبي محمّد حسين بن محمّد تقي بن علي محمّد بن تقي الطبرسي المعروف بالمحدّث النوري المتوفّىٰ سنة ١٣٢٠ هـ / تحقيق ونشر:

مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٩ هـ.

٤٠٨ ـ مستدركات أعيان الشيعة.

تأليف : حسن محسن الأمين العاملي المتوفّىٰ سنة ١٤٢٣ هـ / نشر : دار التعارف ـ بيروت / ١٤٠٨ هـ.

٤٠٩ ـ المستطرف: المستطرف في كلّ فنٍّ مستظرف.

تأليف : شهاب الدين أبي الفتح محمّد بن أحمد الأبشيهي المحلّىٰ المتوفّىٰ سنة ١٤٤٦ م / نشر : دار الأضواء ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٥ هـ.

٤١٠ ـ المستقصىٰ في أمثال العرب.

تأليف : جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمّد بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفّىٰ سنة ٥٣٨ هـ / نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٨ هـ.

٤١١ ـ مسند أبي يعلىٰ: المسند.

تأليف : أبي يعلىٰ أحمد بن علي بن المثنّىٰ التميمي الموصلي المتوفّىٰ سنة ٣٠٧ هـ / تحقيق : حسين سليم أسد / نشر : دار المأمون للتراث ـ دمشق وبيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤١٠ هـ.

٤١٢ ـ مسند أحمد: المسند.

تأليف : أبي عبدالله أحمد بن محمّد بن حنبل بن هلال الشيباني المتوفّىٰ سنة ٢٤١ هـ / نشر : دار صادر ـ بيروت.

٤١٣ ـ مشارق الأنوار: مشارق أنوار اليقين في حقائق أسرار أمير المؤمنين.

تأليف : رجب بن محمّد بن رجب البرسي الحلّي المتوفّىٰ بعد سنة ٨١٣ هـ /

نشر : مكتبة الشريف الرضي ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٤ هـ.

٤١٤ ـ **مشاهير علماء الأمصار.**

تأليف : أبي حاتم محمّد بن حبّان بن أحمد التميمي البَستي المتوفّىٰ سنة ٣٥٤ هـ / تصحيح : م . فلايشهمر / نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٤١٥ ـ **مشكاة المصابيح.**

تأليف : ولي الدين أبي عبدالله محمّد بن عبدالله العمري الخطيب التبريزي المتوفّىٰ سنة ٧٤١ هـ / تحقيق : سعيد محمّد اللحّام / نشر : دار الفكر ـ بيروت / ١٤٢١ هـ.

٤١٦ ـ **مصابيح الأنوار: مصابيح الأنوار في حلّ مشكلات الأخبار.**

تأليف : عبدالله بن محمّد رضا بن شبّر بن حسن بن أحمد آل شبّر المتوفّىٰ سنة ١٢٤٢ هـ / نشر : مكتبة بصيرتي ـ قم .

٤١٧ ـ **مصارع المصارع.**

تأليف : نصير الدين أبي جعفر محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي المتوفّىٰ سنة ٦٧٢ هـ / تحقيق : حسن المعزّي / نشر : مكتبة المرعشي النجفي ـ قم / ١٤٠٥ هـ.

٤١٨ ـ **المصباح للكفعمي: جنّة الأمان الواقية وجنّة الإيمان الباقية.**

تأليف : تقي الدين إبراهيم بن علي بن الحسن بن محمّد بن صالح الكفعمي الحارثي العاملي المتوفّى سنة ٩٠٥ هـ / نشر : مؤسّسة النعمان ـ بيروت / ١٤١٢ هـ.

٤١٩ ـ المصباح المنير: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير.

تأليف: أحمد بن محمّد بن علي المقري الفيّومي المتوفّىٰ سنة ٧٧٠ هـ/ نشر: دار الفكر ـ بيروت.

٤٢٠ ـ مصر الفرعونية.

تأليف: أحمد فخري / نشر: مكتبة الإنجلو المصرية ـ القاهرة / الطبعة السابعة ـ ١٩٩١م.

٤٢١ ـ مصفىٰ المقال: مصفىٰ المقال في مصنّفي علم الرجال.

تأليف: محسن أغا بزرك الطهراني المتوفّىٰ سنة ١٣٨٩ هـ/ تصحيح: أحمد منزوي / نشر: مطبعة إيران الدولية ـ إيران / الطبعة الأُولى ـ ١٩٥٩م.

٤٢٢ ـ المصنّف لابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار.

تأليف: عبدالله بن محمّد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان الكوفي العبسي المتوفّىٰ سنة ٢٣٥ هـ/ تحقيق: سعيد محمّد اللحّام / نشر: دار الفكر ـ بيروت / ١٤١٤هـ.

٤٢٣ ـ المصنّف لعبد الرزّاق: المصنّف.

تأليف: أبي بكر عبد الرزّاق بن همّام الصنعاني المتوفّىٰ سنة ٢١١ هـ/ تحقيق: حبيب الرحمان الأعظمي / نشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٣هـ.

٤٢٤ ـ المطالب العالية: المطالب العالية من العلم الإلهي.

تأليف: فخر الدين أبي عبدالله محمّد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن

علي البكري الطبرستاني الشافعي المعروف بالفخر الرازي وبابن خطيب الري المتوفىٰ سنة ٦٠٦ هـ/ تحقيق: د. أحمد حجازي السقا / نشر: دار الكتاب العربي - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤٠٧ هـ.

٤٢٥ - مطالع الأنظار: مطالع الأنظار في شرح طوالع الأنوار.

تأليف: أبي الثناء شمس الدين محمود بن عبد الرحمان الأصفهاني المتوفىٰ سنة ٧٤٩ هـ/ نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة - قم.

٤٢٦ - مع علماء النجف الأشرف.

تأليف: محمّد الغروي / نشر: دار الثقلين - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٤٢٠ هـ.

٤٢٧ - المعارف.

تأليف: أبي محمّد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفىٰ سنة ٢٧٦ هـ/ تحقيق: ثروة عكاشة / نشر: مطبعة دار الكتب / ١٩٦٠ م.

٤٢٨ - معارف الرجال: معارف الرجال في تراجم العلماء والأُدباء.

تأليف: محمّد بن علي بن عبدالله بن حمدالله بن محمود حرز الدين النجفي المتوفىٰ سنة ١٣٦٥ هـ/ تعليق: محمّد حسين حرز الدين / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة - قم / ١٤٠٥ هـ.

٤٢٩ - معاني القرآن.

تأليف: أبي زكريا يحيىٰ بن زياد الفرّاء المتوفىٰ سنة ٢٠٧ هـ/ تحقيق: د. أحمد يوسف نجاتي ومحمّد علي النجّار / نشر: مكتبة ناصر خسرو - طهران / الطبعة الأُولى.

٤٣٠ ـ معاهد التنصيص: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص.

تأليف: عبد الرحمان بن أحمد العبّاسي المتوفّىٰ سنة ٩٦٣ هـ / تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد / نشر: عالم الكتب ـ بيروت.

٤٣١ ـ معترك الأقران: معترك الأقران في إعجاز القرآن.

تأليف: جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر الكمال بن محمّد بن سابق الدين الخضيري السيوطي الشافعي المتوفّىٰ سنة ٩١١ هـ / تحقيق: علي محمّد البجاوي / نشر: دار الفكر ـ بيروت.

٤٣٢ ـ المعجزة الكبرى: المعجزة الكبرى (القرآن).

تأليف: محمّد أبي زهرة المصري / نشر: دار الفكر ـ بيروت.

٤٣٣ ـ معجم الأبيات الشهيرة.

تأليف: حسن نمر دَندَشي / نشر: دار جرّوس برس ـ طرابلس (لبنان).

٤٣٤ ـ معجم الأُدباء للجبوري: معجم الأُدباء (من العصر الجاهلي حتّىٰ سنة ٢٠٠٢ م).

تأليف: كامل سلمان الجبوري / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٤ هـ.

٤٣٥ ـ معجم الاستشهادات.

تأليف: د. علي القاسمي / نشر: مكتبة لبنان ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ٢٠٠١ م.

٤٣٦ ـ معجم الأمثال العربية.

تأليف: د. محمود إسماعيل صيني وناصف مصطفىٰ عبد العزيز

ومصطفىٰ أحمد سليمان / نشر: مكتبة لبنان ـ بيروت / ١٩٩٦ م.

٤٣٧ ـ المعجم الأوسط للطبراني: المعجم الأوسط.

تأليف: أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيّوب بن مُطير اللخمي الشامي الطبراني المتوفّىٰ سنة ٣٦٠هـ / تحقيق: د. محمود الطحّان / نشر: مكتبة المعارف ـ الرياض / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٥هـ.

٤٣٨ ـ معجم البلدان.

تأليف: شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي البغدادي المتوفّىٰ سنة ٦٢٦هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي ومؤسّسة التاريخ العربي ـ بيروت.

٤٣٩ ـ معجم التراث الكلامي.

تأليف: اللجنة العلمية في مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام / نشر: مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٣هـ.

٤٤٠ ـ معجم رجال الفكر والأدب: معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام.

تأليف: د. محمّد هادي عبد الحسين الأميني النجفي / الطبعة الثانية ـ ١٤١٣هـ.

٤٤١ ـ معجم الشعراء للجبوري: معجم الشعراء (من العصر الجاهلي حتّىٰ سنة ٢٠٠٢ م).

تأليف: كامل سلمان الجبوري / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ٢٠٠٣ م.

٤٤٢ ـ المعجم الصغير للطبراني: المعجم الصغير.

تأليف: أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيّوب بن مُطير اللخمي الشامي الطبراني المتوفّىٰ سنة ٣٦٠ هـ / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٤٣ ـ المعجم الكبير للطبراني: المعجم الكبير.

تأليف: أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيّوب بن مُطير اللخمي الشامي الطبراني المتوفّىٰ سنة ٣٦٠ هـ / تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي / طبع: مطبعة الزهراء الحديثة ـ الموصل / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٤ هـ.

٤٤٤ ـ معجم ما كُتب عن الرسول وأهل البيت.

تأليف: د. عبد الجبّار الرفاعي / نشر: منظمة الطباعة والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ـ طهران / الطبعة الأُولى ـ ١٣٧١ هـ. ش.

٤٤٥ ـ معجم المطبوعات العربيّة: معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة.

تأليف: يوسف إليان سركيس المتوفّىٰ سنة ١٣٥١ هـ / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـ قم.

٤٤٦ ـ معجم المفسّرين لنويهض: معجم المفسّرين من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر.

تأليف: عادل نويهض / نشر: مؤسّسة نويهض الثقافية ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٩ هـ.

٤٤٧ ـ معجم مقاييس اللغة.

تأليف: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازي المتوفّىٰ

سنة ٣٩٥ هـ / تحقيق: عبد السلام محمّد هارون / نشر: مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم / ١٤٠٤ هـ.

٤٤٨ ـ **معجم مؤرّخي الشيعة.**

تأليف: د. صائب عبد الحميد / نشر: مؤسّسة دائرة معارف الفقه الإسلامي ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٤ هـ.

٤٤٩ ـ **معجم مؤلّفي الشيعة.**

تأليف: علي الفاضل القائيني النجفي / نشر: مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي ـ طهران / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٥ هـ.

٤٥٠ ـ **معجم المؤلّفين.**

تأليف: عمر رضا كحّالة / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٤٥١ ـ **معجم المؤلّفين والكتّاب العراقيّين.**

تأليف: د. صباح نوري المرزوك / نشر: بيت الحكمة ـ بغداد / الطبعة الأُولى ـ ٢٠٠٢ م.

٤٥٢ ـ **المغرب في حلى المغرب.**

تأليف: ستّة من أُدباء الأندلس خلال مائة وخمسة عشر عاماً / تحقيق: د. شوقي ضيف / نشر: دار المعارف ـ القاهرة / الطبعة الثالثة.

٤٥٣ ـ **مفاتيح الجنان.**

تأليف: عبّاس بن محمّد رضا بن أبي القاسم القمّي المتوفّى سنة ١٣٥٩هـ / نشر: مؤسّسة أنصاريان ومركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم‌السلام ـ قم / الطبعة الرابعة ـ ١٤٢٤ هـ.

٤٥٤ ـ **مفتاح الباب: مفتاح اللباب في شرح الباب.**

تأليف: مير أبي الفتح بن المير مخدوم الحسيني الشريفي العربشاهي المتوفّىٰ حدود سنة ٩٧٦هـ/ نشر: إيران.

٤٥٥ ـ **مفتاح العلوم.**

تأليف: أبي يعقوب يوسف بن محمّد بن علي السكّاكي المتوفّىٰ سنة ٦٢٦هـ/ تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٠هـ.

٤٥٦ ـ **المقاصد الحسنة: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة.**

تأليف: شمس الدين أبي الخير محمّد بن عبد الرحمان السخاوي المتوفّىٰ سنة ٩٠٢هـ/ تحقيق: عبدالله محمّد الصدّيق / نشر: مكتبة الخانجي ـ مصر.

٤٥٧ ـ **مقالات الإسلاميّين: كتاب مقالات الإسلاميّين واختلاف المسلمين.**

تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم الأشعري المتوفّىٰ سنة ٣٢٤هـ/ تصحيح: هلموت ريتر / نشر: دار النشر فرانز شتاينر بفسبادن / الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٠هـ.

٤٥٨ ـ **المقالات والفرق: كتاب المقالات والفرق.**

تأليف: سعد بن عبدالله بن أبي خلف الأشعري القمّي المتوفّىٰ سنة ٣٠١هـ/ تحقيق: د. محمّد جواد علاء الدين مشكور / نشر: مؤسّسة عطائي ـ طهران / ١٩٦٣م.

٤٥٩ ـ مقدّمة الشواهد الربوبية: مقدّمة الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية.

تأليف: صدر الدين محمّد بن إبراهيم بن يحيىٰ القوامي الشيرازي المعروف بصدر المتألّهين المتوفّىٰ سنة ١٠٥٠ هـ / تحقيق: جلال الدين الآشتياني / نشر: مؤسّسة التاريخ العربي ـ بيروت / أُفست عن طبعة جامعة مشهد / الطبعة الثانية ـ ١٩٨١ م.

٤٦٠ ـ الملل والنحل.

تأليف: أبي الفتح محمّد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني المتوفّىٰ سنة ٥٤٨ هـ / تحقيق: محمّد سيّد كيلاني / نشر: دار المعرفة ـ بيروت.

٤٦١ ـ من افتراءات المستشرقين: من افتراءات المستشرقين على الأُصول العقدية في الإسلام.

تأليف: د. عبد المنعم فؤاد / نشر: مكتبة العبيكان ـ الرياض / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٢ هـ.

٤٦٢ ـ مناظرة بين الإسلام والمسيحية.

تأليف: عدّة من رجال الفكر / نشر: دار الحديث ـ القاهرة / الطبعة الثانية ـ ١٤١٢ هـ.

٤٦٣ ـ المناقب لابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب.

تأليف: رشيد الدين أبي جعفر محمّد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني المتوفّىٰ سنة ٥٨٨ هـ / تحقيق: د. يوسف البقاعي / نشر: دار الأضواء ـ بيروت / الطبعة الثانية المصحّحة ـ ١٤١٢ هـ.

٤٦٤ ـ **المناقب للخوارزمي: المناقب.**

تأليف: الموفّق بن أحمد بن محمّد المكّي الخوارزمي المتوفّىٰ سنة ٥٦٨ هـ/ تحقيق: مالك المحمودي / نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / الطبعة الثالثة ـ ١٤١٧ هـ.

٤٦٥ ـ **مناهج الأدلّة: الكشف عن مناهج الأدلّة في عقائد الملّة.**

تأليف: أبي الوليد محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي المتوفّىٰ سنة ٥٩٥ هـ/ تحقيق: أحمد شمس الدين / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٣ هـ.

٤٦٦ ـ **مناهل العرفان: مناهل العرفان في علوم القرآن.**

تأليف: محمّد عبد العظيم الزرقاني المتوفّىٰ سنة ١٣٦٧ هـ/ تحقيق: أحمد شمس الدين / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / ١٤١٦ هـ.

٤٦٧ ـ **المنجد في الأعلام.**

تأليف: جماعة من المتخصّصين / نشر: دار المشرق ـ بيروت / الطبعة الحادية والعشرون ـ ١٩٩٦ م.

٤٦٨ ـ **المنجد في اللغة.**

تأليف: لويس معلوف وجماعة / نشر: دار المشرق ـ بيروت / الطبعة الثالثة والثلاثون ـ ١٩٩٢ م.

٤٦٩ ـ **المنتظم: المنتظم في تاريخ الأُمم والملوك.**

تأليف: أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمّد بن علي البكري البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي المتوفّىٰ سنة ٥٩٧ هـ/ تحقيق:

محمّد عبد القادر عطا ومصطفىٰ عبد القادر عطا / مراجعة وتصحيح: نعيم زرزور / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٢هـ.

٤٧٠ ـ منتهىٰ الآمال: منتهىٰ الآمال في تواريخ النبي والآل.

تأليف: عبّاس بن محمّد رضا بن أبي القاسم القمّي المتوفّىٰ سنة ١٣٥٩هـ/ تعريب: هاشم الحسيني الميلاني / تحقيق ونشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم / الطبعة الثالثة ـ ١٤١٩هـ.

٤٧١ ـ منتهىٰ المقال: منتهىٰ المقال في أحوال الرجال.

تأليف: أبي علي محمّد بن إسماعيل المازندراني الحائري المتوفّىٰ سنة ١٢١٦هـ/ تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٦هـ.

٤٧٢ ـ مؤلّفات مصطفىٰ لطفي المنفلوطي الكاملة: النظرات والعبرات.

تأليف: مصطفىٰ بن محمّد لطفي المنفلوطي المتوفّىٰ سنة ١٩٢٤م / نشر: دار الجيل ـ بيروت / ١٤٠٤هـ.

٤٧٣ ـ الموجز في الأدب العربي وتاريخه.

تأليف: حنّا الفاخوري / نشر: دار الجيل ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤١١هـ.

٤٧٤ ـ موسوعة أعلام العرب.

تأليف: مجموعة من المفكّرين / نشر: بيت الحكمة ـ بغداد / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٠هـ.

٤٧٥ ـ موسوعة أعلام الفلسفة: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب.

تأليف: روني إيلي ألفا / مراجعة: د. جورج نخل / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٢هـ.

٤٧٦ ـ موسوعة السياسة.

تأليف: د. عبد الوهاب الكيّالي وجماعة من المتخصّصين / نشر: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت / الطبعة الرابعة ـ ١٩٩٩م.

٤٧٧ ـ موسوعة طبقات الفقهاء.

تأليف: اللجنة العلمية في مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام / نشر: مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٤هـ.

٤٧٨ ـ موسوعة الشعراء والأُدباء الأجانب.

تأليف: د. موريس حنّا شربل / نشر: دار جرّوس برس ـ طرابلس (لبنان) / ١٩٩٦م.

٤٧٩ ـ موسوعة العتبات المقدّسة.

تأليف: جعفر الخليلي / نشر: مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٧هـ.

٤٨٠ ـ الموسوعة العلميّة المبسّطة.

تأليف: مجموعة من العلماء / تعريب: د. خالدة سعيد و د. منيف موسى وعبلة خوري وهادي العلوي وسامي مبسوط وليلىٰ زهر الدين وأحمد سعيد محمّدية / نشر: دار العودة ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٩٨٩م.

٤٨١ ـ **موسوعة الفلسفة.**

تأليف: د. عبد الرحمان بدوي / نشر: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٩٨٤ م.

٤٨٢ ـ **موسوعة المورد.**

تأليف: منير البعلبكي / نشر: دار العلم للملايين ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٩٨٠ م.

٤٨٣ ـ **الموسوعة الميسّرة في الأديان: الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة.**

تأليف ونشر: أعضاء الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ الرياض / الطبعة الثانية ـ ١٤٠٩ هـ.

٤٨٤ ـ **موسوعة النجف الأشرف.**

تأليف: جعفر الدجيلي / نشر: دار الأضواء ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣ هـ.

٤٨٥ ـ **موضّح أوهام الجمع والتفريق.**

تأليف: أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي المتوفّىٰ سنة ٤٦٣ هـ / نشر: مؤسّسة الكتب الثقافية ـ بيروت.

٤٨٦ ـ **الموضوعات لابن الجوزي: كتاب الموضوعات.**

تأليف: أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمّد بن علي البكري البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي المتوفّىٰ سنة ٥٩٧ هـ / تحقيق: توفيق حمدان / نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٥هـ.

٤٨٧ ـ **الموطّأ.**

تأليف: أبي عبدالله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني المتوفّىٰ سنة ١٧٩ هـ / رواية: جمع من العلماء / تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي / نشر: المكتبة الفيصلية ـ مكّة المكرّمة.

٤٨٨ ـ **موقف العقل والعلم: موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين وعباده المرسلين.**

تأليف: مصطفىٰ صبري / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الثانية ـ ١٤٠١ هـ.

٤٨٩ ـ **الميزان: الميزان في تفسير القرآن.**

تأليف: محمّد حسين الطباطبائي المتوفّىٰ سنة ١٤٠٢ هـ / نشر: مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت / الطبعة الأُولى المحقّقة ـ ١٤١١ هـ.

٤٩٠ ـ **ميزان الاعتدال: ميزان الاعتدال في نقد الرجال.**

تأليف: شمس الدين أبي عبدالله محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي المتوفّىٰ سنة ٧٤٨ هـ / تحقيق: علي محمّد البجاوي / نشر: دار المعرفة ـ بيروت.

حرف النون

٤٩١ ـ **نبوّة محمّد في القرآن.**

تأليف: حسن ضياء الدين عِتر / نشر: دار النصر ـ حلب / الطبعة الأُولىٰ ـ

١٣٩٣ هـ.

٤٩٢ ـ النجاة: النجاة في الحكمة المنطقيّة والطبيعيّة والإلهيّة.

تأليف: أبي علي الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا المعروف بالشيخ الرئيس المتوفّىٰ سنة ٤٢٨ هـ / نشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية ـ طهران / الطبعة الثانية ـ ١٣٦٤ هـ. ش.

٤٩٣ ـ النخبة البهيّة: النخبة البهيّة في الأحاديث المكذوبة على خير البريّة.

تأليف: محمّد بن محمّد بن أحمد السنباوي الأمير الكبير المالكي المتوفّىٰ سنة ١٢٣٢ هـ / تحقيق: زهير الشاويش / نشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٩ هـ.

٤٩٤ ـ نزهة الجليس: نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس.

تأليف: العبّاس بن علي بن نور الدين الحسيني الموسوي المكّي المتوفّىٰ حدود سنة ١١٨٠ هـ / نشر: المطبعة الحيدرية ـ النجف / ١٩٦٧ م.

٤٩٥ ـ نسمة السحر: نسمة السحر بذكر من تشيّع وشعر.

تأليف: ضياء الدين يوسف بن يحيىٰ الحسيني اليمني الصنعاني المتوفّىٰ سنة ١١٢١ هـ / تحقيق: كامل سلمان الجبوري / نشر: دار المؤرّخ العربي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٠ هـ.

٤٩٦ ـ نشأة الفكر الفلسفي.

تأليف: د. علي سامي النشّار / نشر: دار المعارف ـ مصر / الطبعة السادسة ـ ١٩٧٥ م.

٤٩٧ ـ **نصب الراية: نصب الراية لأحاديث الهداية.**

تأليف: جمال الدين أبي محمّد عبدالله بن يوسف الزيلعي الحنفي المتوفّىٰ سنة ٧٦٢ هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٧ هـ.

٤٩٨ ـ **النصرانية: النصرانية (نشأتها التاريخية وأُصول عقائدها).**

تأليف: د. عرفان عبد الحميد فتّاح / نشر: دار عمّار ـ عمّان / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٠ هـ.

٤٩٩ ـ **نفح الطيب: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.**

تأليف: شهاب الدين أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن يحيىٰ المقري التِلمساني المتوفّىٰ سنة ١٠٤١ هـ / تحقيق: يوسف محمّد البقاعي / نشر: دار الفكر ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٦ هـ.

٥٠٠ ـ **نَفَس الرحمان: نَفَس الرحمان في فضائل سلمان.**

تأليف: أبي محمّد حسين بن محمّد تقي بن علي محمّد بن تقي الطبرسي المعروف بالمحدّث النوري المتوفّىٰ سنة ١٣٢٠ هـ / تحقيق: جواد القيّومي الجزهاي الأصفهاني / نشر: مؤسّسة الآفاق ـ إيران / الطبعة الأُولى ـ ١٤١١ هـ.

٥٠١ ـ **نقباء البشر.**

تأليف: محسن أغا بزرك الطهراني المتوفّىٰ سنة ١٣٨٨ هـ / نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٥٠٢ ـ نقد الرجال.

تأليف: مصطفىٰ بن حسين الحسيني التفرشي من أعلام القرن الحادي عشر الهجري / تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٨ هـ.

٥٠٣ ـ النكت الاعتقادية.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالمفيد وابن المعلّم المتوفّىٰ سنة ٤١٣ هـ / تحقيق: رضا المختاري / نشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٣ هـ.

٥٠٤ ـ النهاية الأثيرية: النهاية في غريب الحديث والأثر.

تأليف: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمّد الشيباني الجزري الشافعي المعروف بابن الأثير المتوفّىٰ سنة ٦٠٦ هـ / اعتناء: محمّد أبي فضل عاشور / نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٢ هـ.

٥٠٥ ـ نهاية الدراية: نهاية الدراية في شرح الكفاية.

تأليف: محمّد حسين بن محمّد حسن بن علي أكبر بن بابا النخجواني الغروي الأصفهاني المتوفّىٰ سنة ١٣٦١ هـ / تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٨ هـ.

٥٠٦ ـ نهج الإيمان.

تأليف: زين الدين علي بن يوسف بن جبر الأنصاري من أعلام القرن

السابع الهجري / تحقيق: أحمد الحسيني / نشر: مجمّع الإمام الهادي عليه السلام - مشهد / الطبعة الأُولى - ١٤١٨ هـ.

٥٠٧ - نهج البلاغة (خطب ورسائل وكلمات أمير المؤمنين عليه السلام).

جمع: أبي الحسن محمّد بن الحسين بن موسى بن محمّد الموسوي البغدادي المعروف بالشريف الرضي المتوفّىٰ سنة ٤٠٦ هـ / ضبط النصوص والفهارس: د. صبحي الصالح / نشر: دار الهجرة - قم / الطبعة الخامسة - ١٤١٢ هـ.

٥٠٨ - نهج الحقّ: نهج الحقّ وكشف الصدق.

تأليف: جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهّر الأسدي المعروف بالعلّامة الحلّي المتوفّىٰ سنة ٧٢٦هـ / تحقيق: عين الله الحسني الأُرموي / نشر: مؤسّسة دار الهجرة - قم / الطبعة الثالثة - ١٤١١ هـ.

٥٠٩ - نوابغ الرواة: نوابغ الرواة في رابعة المئات.

تأليف: محسن أغا بزرك الطهراني المتوفّىٰ سنة ١٣٨٩ هـ / تحقيق: علي نقي منزوي / نشر: دار الكتاب العربي - بيروت / الطبعة الأُولى - ١٣٩٠ هـ.

٥١٠ - النوافح العطرة: النوافح العطرة في الأحاديث المشتهرة.

تأليف: محمّد بن أحمد بن جار الله الصفدي اليمني المتوفّىٰ سنة ١١٨١ هـ / تحقيق: محمّد عبد القادر عطا / نشر: مؤسّسة الكتب الثقافية - بيروت / الطبعة الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٥١١ ـ نور الأبصار: نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار.

تأليف: مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي المصري من أعلام القرن الثالث عشر الهجري / نشر: دار الجيل ـ بيروت / ١٤٠٩ هـ.

حرف الهاء

٥١٢ ـ الهدى إلىٰ دين المصطفىٰ.

تأليف: محمّد جواد البلاغي النجفي المتوفّىٰ سنة ١٣٥٢ هـ / نشر: مطبعة العرفان ـ صيدا / ١٣٣٠ هـ.

٥١٣ ـ هداية الأُمّة: هداية الأُمّة إلىٰ معارف الأئمّة.

تأليف: محمّد جواد بن المحسن بن الحسين الخراساني المتوفّىٰ سنة ١٣٩٧ هـ / نشر: مؤسّسة البعثة ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٦ هـ.

٥١٤ ـ هدية العارفين.

تأليف: إسماعيل بن محمّد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي المتوفّىٰ سنة ١٣٣٩ هـ / نشر: دار الفكر ـ بيروت / ١٤١٠ هـ.

٥١٥ ـ هكذا عرفتهم.

تأليف: جعفر الخليلي / نشر: مكتبة الشريف الرضي ـ قم.

حرف الواو

٥١٦ ـ الوافية: الوافية في أُصول الفقه.

تأليف: عبدالله بن محمّد البشروي الخراساني المعروف بالفاضل التوني المتوفّىٰ سنة ١٠٧١ هـ / تحقيق: محمّد حسين الرضوي الكشميري / نشر: مجمع الفكر الإسلامي ـ قم / الطبعة الثانية المحقّقة ـ ١٤١٥ هـ.

٥١٧ ـ واقعية الأدب في رواية آنّا كارنينا: واقعية الأدب وبلاغة الحبك القصصي في رواية آنّا كارنينا لتولستوي.

تأليف: د. ياسين الأيّوبي / نشر: الدار النموذجية والمكتبة العصرية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٢٢ هـ.

٥١٨ ـ وجيز الكلام: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام.

تأليف: شمس الدين محمّد بن عبد الرحمان السخاوي المتوفّىٰ سنة ٩٠٢ هـ / تحقيق: د. بشّار عوّاد معروف وعصام فارسي الحرستاني و د. أحمد الخطيمي / نشر: مؤسّسة الرسالة ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤١٦ هـ.

٥١٩ ـ الوزراء والكتّاب.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن عبدوس الجهشياري المتوفّىٰ سنة ٣٣١ هـ / تحقيق: مصطفىٰ السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي / نشر: شركة ومكتبة ومطبعة البابي الحلبي ـ مصر / الطبعة الثانية ـ ١٤٠١ هـ.

٥٢٠ـوسائل الشيعة: تفصيل وسائل الشيعة إلىٰ تحصيل مسائل الشريعة.

تأليف : محمّد بن الحسن بن علي بن الحسين الحرّ العاملي المتوفّىٰ سنة ١١٠٤هـ/ تحقيق ونشر : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـقم / الطبعة الثالثة ـ١٤١٦هـ.

٥٢١ـوفيات الأعيان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.

تأليف : شمس الدين أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن خلّكان الإربلي المتوفّىٰ سنة ٦٨١هـ/ تحقيق : د. إحسان عبّاس / نشر : مكتبة الشريف الرضي ـقم / الطبعة الثانية ـ ١٣٦٤هـ. ش / أُفست عن طبعة دار صادر ـبيروت / ١٩٦٨م.

حرف الياء

٥٢٢ـالياقوت: الياقوت في علم الكلام.

تأليف : أبي إسحاق إبراهيم بن نوبخت من أعلام القرن السابع الهجري / تحقيق : علي أكبر ضيائي / نشر : مكتبة المرعشي النجفي العامّة ـقم / الطبعة الأُولى ـ١٤١٣هـ.

٥٢٣ـيتيمة الدهر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر.

تأليف : أبي منصور عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري المتوفّىٰ سنة ٤٣٠هـ/ تحقيق : د. مفيد محمّد قميحة / نشر :

دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأُولى ـ ١٤٠٣هـ.

٥٢٤ ـ ينابيع المودّة: ينابيع المودّة لذي القربىٰ.

تأليف: سليمان بن إبراهيم بن محمّد بن ترسون الحسيني البلخي القندوزي المتوفّىٰ سنة ١٢٩٤هـ/ نشر: مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت.

فهرس المصادر الفارسية وغيرها

١ ـ تفسير أبي الفتوح الرازي: روض الجِنان ورَوح الجَنان في تفسير القرآن.

تأليف: أبي الفتوح حسين بن علي بن محمّد بن أحمد الخزاعي النيشابوري الرازي من أعلام القرن السادس الهجري / تصحيح: د. محمّد جعفر ياحقي و د. محمّد مهدي ناصح / نشر: مؤسّسة الطباعة (آستان قدس رضوي) ـ مشهد / الطبعة الثالثة ـ ١٣٨١ هـ. ش.

٢ ـ ديوان حافظ: ديوان خواجه حافظ شيرازي.

تأليف: شمس الدين محمّد بن بهاء الدين حافظ الشيرازي المعروف بلسان الغيب المتوفّىٰ سنة ٧٩١هـ / اهتمام: أبي القاسم أنجوي شيرازي / نشر: جاويدان ـ طهران / الطبعة الثالثة.

٣ ـ ريحانة الأدب: ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية أو اللقب.

تأليف: محمّد علي بن محمّد طاهر المدرّس التبريزي الخياباني المتوفّىٰ سنة ١٣٧٣ هـ / طبع: مطبعة الشركة العامّة لطبع الكتب ـ إيران / الطبعة الثانية ـ ١٣٣٥ هـ. ش.

٤ ـ شناخت آماري جهان إسلام.

تأليف: هادي خسروشاهي / نشر: خرّم ـ قم / الطبعة الرابعة ـ

١٣٧٠ هـ. ش .

٥ ـ الفوائد الرضوية: فوائد الرضوية في أحوال علماء مذهب الجعفرية.

تأليف : عبّاس بن محمّد رضا بن أبي القاسم القمّي المتوفّىٰ سنة ١٣٥٩ هـ / طبع : إيران .

٦ ـ كاشف الغطاء (أذان بيداري).

تأليف : محمّد رضا سمّاك أماني / نشر : المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ـ طهران / الطبعة الأُولى ـ ١٣٨٣ هـ. ش .

٧ ـ كاشف الغطاء (سوره خشم).

تأليف : محمّد رضا سمّاك أماني / نشر : منظّمة الإعلام الإسلامي ـ قم / الطبعة الأُولى ـ ١٣٧٢ هـ. ش .

٨ ـ گوهر مراد.

تأليف : عبد الرزّاق بن علي بن الحسين اللاهيجي الجيلاني المتوفّىٰ بعد سنة ١٠١٥ هـ / نشر : المكتبة الإسلامية ـ طهران .

٩ ـ لغت نامه.

تأليف : علي أكبر دهخدا / نشر : مؤسّسة لغت نامهٔ دهخدا ـ طهران / الطبعة الثانية ـ ١٣٧٧ هـ. ش .

١٠ ـ مثنوي معنوي.

تأليف : جلال الدين محمّد بن بهاء الدين محمّد البلخي الرومي المولوي المتوفّىٰ سنة ٦٧٢ هـ / على أساس نسخة قونية بمقابلة وتصحيح : نيكلسون / تقديم وتصحيح وفهرسة : قوام الدين خرّم شاهي / نشر :

ناهيد ـ طهران / الطبعة الأُولى ـ ١٣٧٥ هـ. ش.

١١ ـ نزهة الأرواح: نزهة الأرواح وروضة الأفراح (تاريخ الحكماء).

تأليف: شمس الدين محمّد بن محمود الشهرزوري / ترجمه للفارسية: مقصود علي تبريزي / مراجعة: محمّد تقي دانش پژوه ومحمّد سرور مولائي / نشر: شركة النشر العلمية والثقافية ـ طهران / الطبعة الأُولى ـ ١٣٦٥ هـ. ش.

12 – H.L.Fisher, History of Europ, (London, 1955) .

فهرس الفهارس